

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي

جمع وترتيب وشرح

ابراهيم الابياري

المجلد السادس

النثر - المسرحيات

أسواق الذهب - الكلمات التي جاءت متفرقة - أميرة الأندلس - البخيلة - ورقة الآس

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٤م

دار الكتاب العربي

الطابق الثامن - بناية بنك بيبلوس - فردان - تلفون : ٨٦١١٧٨/٨٠٠٨١١/٨٦٢٩٠٥
تلفاكس : ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس : ٤٠١٣٩ L.E كتاب برقياً : الكتاب . ص.ب : ٥٧٦٩-١١ بيروت - لبنان

الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي

النَّثر

وينتظم قسمين:

أ ـ القسم الأول، ويضم:

كتاب أسواق الذهب

وقد ضم إلى الباب الأخير منه، وهو خواطر، مثيلات لها لم يضمها هـذا الكتاب.

ب ـ القسم الثاني، ويضم:

كلمـات متفرقـة، منها مـا جاء مستـقلاً، ومنها مـا جـاء تمهيـداً لبعض قصائده، فـآثرنـا أن نقتطعهـا من هناك فنضمَّها هنا إلى المجمـوع من نثره.

إبراهيم الأبياري



القِسمُ الأوَّل

أسواق الذهب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي عَلَّم بالقَلَم، وألْهَمَ نَوَابِغَ الكَلِم، وجعل الأمثالَ والحِكَم، أحسنَ أدبِ الأُمم، وصلّى الله وسلَّم على محمدٍ. دِيمةَ البَيَان المُنْسَجِمة[1]، وعلى مُوسى الكَلِيم وعِيسى الكَلِمَة[2].

وبعدُ: فهذه فُصولٌ من النَّثر، وما زعَمْتُ أنَّها غُرَرُ زِيَاد[3]، أو فِقَرُ الفصيح بن إيَاد[4]، أو سَجْعُ المُطوَّقةِ على فَرْع غُصْنها المَيَّاد[5]، ولا تَوَهَّمتُ حين أنشأتُها أنِّي صَنعْتُ «أطْواقَ الذَّهب»، للزَّمَخْشرِيِّ[6]، أو طَبَعْتُ[7]

(١) الديمة: المطر يدوم في سكون لا رعد ولا برق. والمنسجمة: المنصبة.

(٢) الكليم: من يكالمك، وبه لقب موسى عليه السلام، لأن الله كلّمه، والكلمة، أي إنه كان كلمة الله إلى مريم عليها السلام، يلتفت شوقي إلى الآية الكريمة: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم**﴾ [آل عمران: ٤٥].

(٣) الغرر: جمع غرة، بالضم، وهي من كل شيء أوله وأكرمه. وزياد، يعني زياد ابن أبيه (٥٣ هـ) وكان من أخطب الخطباء.

(٤) الفقر: جمع فقرة، بالكسر، وهي الجملة من الكلام. والفصيح بن إياد، يعني قس بن ساعدة الإيادي (٣ ق. هـ). وإياد التي ينسب إليها قبيلته. وكان قس خطيب قومه وحكيمهم، وعرفت خطبه بأنها مسجوعة.

(٥) المطوقة: ذات الطوق، يعني الحمامة. والمياد: المتمايل.

(٦) الزمخشري، هو محمود بن عمر (٥٣٨ هـ) من أئمة الأدب واللغة والتفسير، ومن كتبه المشهورة: أطواق الذهب في المواعظ والخطب، يشتمل على مائة مقالة، كل مقالة كالمقامة.

(٧) طبعت: صنعت.

«أطبـاقَ الـذهب»، لـلأصفهـانيِّ[١]، وإن سَمَّيْتُ هـذا الكتـابَ بمـا يُشبهُ آسْمَيْهما، ووَسَمْتُه[٢] بمـا يقْرُبُ في الحُسْن من وَسْمَيْهمـا. وإنَّما هي كَلِمـاتٌ آشتملَتْ على مَعانٍ شَتَّى الصُّوَر، وأَغْـراض مُختلفةِ الخَبـر، جَليلةِ الخَطَر[٣]؛ منهـا ما طَـال عليه القِـدَم، وشابَ على تَنـاوُلِـه القلم[٤]، وأَلَمَّ بـه الغُفْـلُ من الكُتَّابِ والعَلَم[٥]. ومنها ما كثُرَ على الألْسنـة في هذه الأيّـام، وأَصْبَح يَعْـرِضُ في طُرُق الأَقلام، وتَجْـرِي به الأَلفـاظُ في أَعِنَّةِ الكـلام؛ مِن مثْل: الحُـرِّية، والوطن، والأُمة، والدُّستور، والإِنسـانية، وكثير غير ذلـك من شُؤون المجْتَمَـع وأَحوالِهِ، وصفات الإِنسان وأَفعالِهِ، أَو مـا له عَـلاَقة[٧]بـأَشياءِ الـزَّمن ورِجَالـِهِ؛ يَكْتَنِفُ[٨] ذلـك أَو يَمْتـزِجُ بـه، حِكَمٌ عن الأَيـام تَلَقَّيْتُهَـا. ومن التَّجـارِيب استَمْلَيْتُهَــا، وفي قَـوَالِب العـربيّـة وعَيْتُهــا[١٠]، وعلى أَسَـاليبهـا حَبَّـرْتُهـا ووَشَيْتُهـا[١١]؛ وبعضُ هذه الخَـوَاطِـر قـد نَبَـعَ من القَلب وهـو عِنْـد آستِجْمَـام عَفْـوِه[١٢]. وطَلَع في الـذِّهْن وهـو عنـد تَمَـام صَحْـوِه وصَفْـوِه؛ وغَيْـرُه ـ ولعلَّه الأكثر ـ قد قِيـل والأَكدار سـاريَة[١٣]، والأَقْـدَار[١٤] وبالـمَكارِهِ جارية، والـدَّار

---

(١) الأصفهاني، هو عبد المؤمن بن هبة الله، المغـربي الأصفهاني، وكتـابه أطبـاق الذهب يشتمـل على مائة مقالة ومقالتين، في الوعظ والنصيحة، سلك فيها مسلك الزمخشري.

(٢) وسمته: أعلمته.

(٣) الخطر: الشأن.

(٤) أي أمضى في هذا التعلم عمره إلى أن هدم.

(٥) الغُفْـل، بالضم: من لا يقربه له. والعلم: البارز الظاهر.

(٦) في أعنة الكلام، أي في مساقه. والأعنة، في الأصل، جمع عنان، بالكسر، وهـو ما تقـاد به الدابة.

(٧) علاقة، بفتحتين، أي صلة، والأصل فيها: المنـاسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المـراد في المجاز والكتابة.

(٨) يكتنف ذلك: أي يحيط به.

(٩) التجاريب، المسموع: التجارب، وزيادة الياء جائزة.

(١٠) وعيتها: حفظتها.

(١١) حبرتها: نمقتها. ووشيتها: حسنتها.

(١٢) الاستجمام: التجمع، والعفو: ما زاد وفضل عن الحاجـة، يريـد ما بقي بعـدما استنفـد من فكر. يعني وقت راحة العقل وسكونه وقد تجمعت له قدراته.

(١٣) الأكدار: ما يعكر على النفس صفوها، واحدها: كدر، بالتحريك.

(١٤) الأقدار: ما قدر الله على عباده وقضاه، واحدهما: قدر، بالتحريك.

نـائية[1]، وحُكـومة السَّيْف[2]، عـابثة عـاتِيـة[3]؛ فَـأَنـا أَسْتَقِيـل[4] القـارىءَ فيـه السَّقَطات، وأَسْتَوْهِبُه[5] التجاوُزَ عن الفَرَطَات[6].

اللهمَّ غَيْرَ وَجهكَ ما ٱبْتَغَيْت، وسِوَى النَّفع لِخَلْقِكَ مـا نَوَيْت، وعَليـك رَجائي أَلْقَيْت. وإِليك بذُلِّي وضَعْفي ٱنْتَهيت.

---

(١) نائية: بعيدة. يريد أيام إقامته في إسبانيا مبعداً عن مصر بأمر سلطة الاحتلال.
(٢) حكومة السيف، يعني حكومة الإرهاب والعنف، يعني البريطانيين أيام احتلالهم لمصر.
(٣) عابثة: تمضي في أمورها كما يملي عليها هواها. وعاتية: ظالمة.
(٤) أستقيل القارىء السقطات: أسأله التجاوز عنها.
(٥) استوهبه التجاوز: سأله أن يهبه له.
(٦) الفرطات: ما سبق عن عجلة، واحدها: فـرطة، بالفتح.



«١»

الحقيقة الواحدة

يـا مُتابِعَ المَلاَحِـدَة[١]، مُشَـايِـعَ[٢] العُصْبـةِ الجَـاحِـدَة، مُنْكِـرَ الحَقِيقـة الواحدة: ما للأعْمَى والمِـرْآةَ، وما لِلمُقْعَـد والمِرْقَـاةَ[٣]، ومالَـكَ والبَحْثَ عن الله؟

قُمْ إلى السَّماءِ تَقَصَّ النظر[٤]، وقُصَّ الأثـر[٥]، واجمع الخُبْـرَ والخَبَر[٦]، كيف تَـرى آئْتِـلافَ الفَلَك[٧]، واختِـلافَ النُّـور والحَلَك[٨]، وهـذا الهـواءَ المُشْتَرَك[٩]، وكيف تَرى الطَّيْرَ تَحْسَبُه تُرِك، وهـو في شَرَك[١٠]، اسْتَهْدَف فَمَا

(١) الملاحدة: الطاعنون في الدين المائلون عنه، واحدهم: ملحد، بضم فسكون فكسر.
(٢) المشايع: التابع، يقال: شايع فلان فلاناً، إذا أتبعه على رأيه.
(٣) المقعـد، على بناء آسم المفعـول: المصاب بـداء القعـادة بضم ففتح، وهـو داء يـأخـذ في الأوراك فيقعد صاحبها عن المشي. والمرقاة: مـا يرقى عليـه، والنصب على المعية، كمـا هي الحال فيما قبله وما بعده.
(٤) تقصى النظر: بلغ أقصاه باحثاً.
(٥) قص الأثر: تتبعه.
(٦) الخبر، بالضم: الامتحان والاختبار.
(٧) الفلك: المـدار يسبح فيـه الجرم السمـاوي. ويعني بائتـلاف الفلك هذا النـظام الـذي عليـه النجوم في مسارها.
(٨) الحلك: شدة السواد، يعني اختلاف النهار والليل وتعاقبهما.
(٩) الهواء المشترك، يعني الجو الذي يشارك فيه كل موجود.
(١٠) الطير، من جموع طائر، وهو كل ما يطير من الحيوان في الهواء بجنـاحين، وترك، أي أمـره إلى نفسه ولا سلطان لأحد عليه. والشرك: حبالة الصيد. أي هو في قبضة القدر.

نَجا حتى هَلَك[1]، تعالى الله! دَلَّ المُلْكُ على المَلِكِ؛ وقِفْ بـالأرضِ سَلْهَا من زَمَّ السَّحَـابَ وأجراهـا[2]، ورَحَلَ الـرِّيـاحَ وعَـرَّاهـا[3]، ومَن أقْعـد الجِبـالَ وأنْهَضَ ذُراهـا[4]، ومَن الذي يَحُـلُّ حُباهـا، فتَخِرُّ لـه في غَدٍ جِبَـاها[5]؛ ألَيس الذي بدأَها غَبَراتٍ[6]، ثم جَمعها صَخَرات، ثم فَرَّقها مُشمَخِـرَّات[7]، ثم سَلِ النَّمْلَ مِنْ أدَقَّها خَلْقاً[8]، ومَلأها خُلْقاً[9]، وسَلَكَها طُرْقاً[10] تَبْتغي رِزْقاً؛ وسَـلِ النَّحْـلَ مَنْ أَلْبَسَهـا الحِبَـر[11]، وقَلَّدهـا الإِبَـر[12]، وأَطْعَمَهـا صَفْـوَ الـزَّهَـر[13]، وسَخَّرَها طـاهِيةً[14] لِلْبَشـر؟ لقد نَبَـذْت الذُّلُـولَ المُسْعِفَة[15]، وأَخَـذْت في مَعَامِي الفَلْسَفَـة[16]، على عَشْواءَ من الضـلالِ مُعْسِفَـة[17]. أَوْ لاَ فَخبِّرْني: الـطَّبيعـةُ مَنْ

(١) استهدف للهلاك: جعل نفسه عرضة له.
(٢) زم السحاب: جعلها لها زماماً تقاد به.
(٣) رحل الرياح: حملها المطر، والأصل فيـه أن تجعل فـوق البعير رحله، وهـو ما يـركب عليه. يقال: رحلت البعير، إذا وضعت عليه الرحل. وعراها: أي أسقط عنها ما تحمل من ماء.
(٤) أقعد الجبال: أرساها. وأنهض ذراها: رفع قممها. والإنهاض في الأصل: الإقامة من قعود، والذرى: أعالي كل الأشياء، واحدتها: ذروة.
(٥) الحبى: جمع حبوة، وهي مـا يحتبى به من ثـوب ونحوه، وهـذا عند الجلوس على الأليتين، فيضم الجالس فخذيـه وما فيـه إلى بطنـه بثوبـه، يعني: يجعلها تتنـاثر بعـد أن كان مضمـوماً بعضها إلى بعض. والجباه، جمع جبهة، يعني يستوي أعلاها بأسفلها.
(٦) غبرات: جمع غبرة، بالفتح، وهي الغبار.
(٧) مشمخرات: شديدة الإرتفاع.
(٨) أدقها خلقـاً: جعلها دقيقة الخلق.
(٩) الخلق: ما طبعت عليه النفس من حال تصدر عنها أفعالها. يريد ما ألهمته.
(١٠) سلكها طرقـاً: جعلها تسلك طـرقاً، أي تـدخلها، يقـال: سلك فلان الـطريق، وسلك فلانـاً الطريق، يتعدى إلى الواحد وإلى الاثنين.
(١١) الحبر، مع حبرة، بكسر ففتح، وهي ثوب مخطط كان يصنع باليمن، حبـل بشرة النحلة من هذا.
(١٢) إبر النحل: ما تلسع به دفاعاً عن نفسها، واحدتها: إبرة، بالكسر.
(١٣) صفو الزهور: خالصه.
(١٤) الطاهية: التي تنضج ما يؤكل، شبه النحلة في تهيئتهـا للعسل في جـولتها بعـد أن تمتصه من رحيق الزهر بالطاهية.
(١٥) الذلول: ما انقادت من الدواب، للذكر والأنثى. والمسعفة: التي دنت وقربت.
(١٦) المعامي: يريد: معميات، بضم ففتح فميم مشددة مفتـوحة، من عمى الشيء. تعميـة، إذا أخفـاه، أما المعـامي، فهي غير واردة. وكـأنه جعلهـا جمـع معمـاة، من عمى، كفـرح، إذا خفي.
(١٧) العشواء: مؤنث الأعشى، وهو الذي ضعف بصره فلم يعد يرى، وعلى عشواء، أي على غير

طبَعَهـا[1]، والنُّظُم المُتقـادِمَـةُ مَنْ وضَعَهـا[2]، والحيـاةُ الصـانِعَـةُ مَنْ صنَعَهـا، والحركةُ الـدَّافعةُ مَنِ الـذي دَفعَها؟! عـرَفْنا كمـا عرفتَ المـادَّة، ولٰكنْ هُدينـا وضَلَلْتَ الجادّة[3]، وقُلْنا مِثْلَكَ بـالهَيُولَى[4]، ولكنْ لَمْ نَجْحـدِ اليَدَ الـطُّولَى[5]، ولا أَنكرْنا الحَقِيقةَ الأُولى[6]؛ أَتَيْنا العَنَاصِر مِنْ عُنْصُـرها[7]. وَرَدَدْنـا الجَوَاهـرَ إلى جَوْهرِها[8]؛ اطَّرَحْنا[9] فاسْتَرَحْنا، وسَلَّمْنا فَسَلِمْنا، وآمَنَّا فأَمِنَّا؛ وما الفَـرْقُ بَيْنَنَا وبَينَك إلا أَنكَ قد عَجَزْتَ فقلتَ: سِرٌّ مِنَ الأَسـرار، وعَجَزنـا نَحن فقُلنا: الله وَراءَ كُلِّ سِتَار[10]

هدى، والمسموع: في عشواء. والعسفة، اسم فاعل من أعسف: إذا سار في الليل على غير هدى.

(١) طبعها: صورها على هذه الصورة.
(٢) المتقادمة: التي طال عليها الأمد.
(٣) الجادة: وسط الطريق.
(٤) الهيـولى: بفتح الهـاء وضـم المثناة مخففـة أو مشددة: مـادة الشيء التي يصنع منهـا، وذهب بعضهم إلى أنها أصل العالم.
(٥) تجحد: تنكر. والطولى مؤنث الأطول. يريد يد الله التي أبدعت هذا الكون.
(٦) الحقيقة الأولى، أي وجود الله تعالى.
(٧) أتينا: جئنا. والعناصر، جمع عنصر، بالضم، وهو الأصل، أي جئنا إلى العناصر من أصلها الأولي.
(٨) الجواهر: أي ما تقوم بنفسها وليست عرضاً، وإلى جوهرها، أي إلى حقيقتها وذاتها.
(٩) أطرحنا، ألقينا، أي ألقينا عن أنفسنا ما لا طاقة لنا باستكناهه.
(١٠) وراء كل ستار، أي كل مغيب.

«٢»

الـوطـن

الـوَطَن مَـوْضِـعُ المِيـلَاد، ومَجْمَــعُ أَوْطـارِ الفُؤَاد[١]، ومُضْجَــعُ الآبَـاءِ والأَجْـدَاد؛ الدُّنْيـا الصُّغْرى، وعَتَبـةُ الدَّار الأُخْـرى، المَـوْرُوث الـوَارِث[٢]، الـزَّائِلُ عَن حَـارث إلى حارثٍ[٣]؛ مُؤسِّسٌ لِبَـانٍ[٤]، وغَارِسٌ لِجَـانٍ. وحَيٌّ مِنْ فَانٍ، دَوَالَيْك[٥] حَتَّى يُكْسَفَ القَمَران[٦]، وتَسْكُنَ هَذِي الأَرضُ مِنْ دَوَرَان.

أَوَّلُ هَـوَاءٍ حَـرَّكَ المِـرْوَحَتَين[٧]، وأَوَّلُ تُـرَابٍ مَسَّ الــرَّاحتَيْن، وشُعـاع شَمْس آغْتَرق العَين[٨]؛ مَجْرَى الصِّبَا ومَلْعَبُه، وعُرسُ الشَّبَاب ومَـوْكِبُه[٩]، ومَرادُ الرِّزْقِ ومَطْلَبُه[١٠]، وسَمَاءُ النُّبوغِ وكَوْكَبُه، وطَرِيقُ المَجـد ومَرْكَبُـه؛ أَبُو الآبَـاءِ

---

(١) الأوطار: جمع وطر، بفتحتين، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة.

(٢) الموروث: الوارث، أي كما ترثه عن الأجداد تورثه الأحفاد.

(٣) الحارث: من يشق الأرض بالمحراث ليزرعها ـ وأريد به كل من يعمل فيما يعود على أرضه بالنفع.

(٤) المؤسس: من يضع الأساس.

(٥) دواليك، أي تداول بعد تداول، من المصادر المثناة للمبالغة والتكثير، وهومضاف للكاف. أي على هذا النحو تمضي الأمور تباعاً.

(٦) القمران: أي القمر والشمس. ويكسف: أي يغيب عن الظهور.

(٧) المروحتان: أي الرئتان.

(٨) اغترق العين: شغلها بالنظر إليه عن النظر إلى غيره.

(٩) العرس، بالضم: الزفاف والتزويج، والشباب: الفتاء والحداثة.

(١٠) المراد: حيث تغدو وتروح.

مُـدَّتْ لـه الحَيَـاةُ فَخَلَدَ، وقَضَى الله ألَّا يَبْقَى لَـه وَلَـد[1] ؛ فـإنْ فـاتَـك منه فـائِت[2] فـاذْهبِ كَمـا ذَهـب أبُـو العَـلَاء عن ذِكْـرٍ لا يَفُـوت، وحَـدِيثٍ لا يموت[3].

مَـدْرَسة الحَقِّ والـوَاجب، يَقْضِي العُمْـرَ فيهـا الـطَّالب، ويَقْضِي وشيءٌ منهما عنه غائِب؛ حَقُّ الله وما أقْـدَسَه وأقْـدَمَه، وحَقُّ الـوالدَين ومـا أعْظَمَـه، وحقُّ النَّفْس ومـا ألْزَمَـه؛ إلى أخ تُنْصفُه، أو جَـارٍ تُسْعفُـه، أو رَفيقٍ في رِحَـال الحَيَاة تَتألَّفُه[4]، أو فَضْل للرِّجَال تُزيِّنه، ولا تُزَيِّفه، فمَا فَـوق ذلك من مَصَـالح الوَطن المُقَدَّمة، وأعْبَاءِ أمانَاتِه المُعَظَّمة؛ صِيَانـةُ بِنائِـهِ، والضَّنَانـةُ بأشْيـائِهِ[5]، والنَّصِيحـةُ لأبْنائـه، والموتُ دونَ لِـوَائه؛ قُيُـودٌ في الحَياة بـلَا عَدَد. يَكْسِـرُها المَوتُ وهو قَيْدُ الأبد.

رَأْسُ مال الأمم فيهِ من كُلِّ ثَمَرٍ كَريم، وأثَـرٍ ضَئيل أو عَـظيم، ومُدَّخَـرٍ حَديثٍ أو قَـدِيم، يَنْمُو على الدِّرْهم كما يَنْمُو عَلَى الدِّينار، ويَرْبُو على الـرَّذاذِ كما يَرْبُو على الوَابِـلِ المِدْرَار[6]، بَحْـرٌ يَتقبَّلُ من السُّحُب ويَتَقبـلُ من الأنْهار، فيا خادمَ الوطَن ماذا أعدَدْتَ لِلْبناءِ مِن حَجَر، أو زِدْتَ في الغَنَّاءِ من شَجَـر[7]؟ عَليك أن تَبْلُغَ الجُهْد، ولَيس عَليـك أن تَبْنِيَ السَّدّ[8]؛ فـإنما الـوَطن كالبُنْيـانِ

---

(١) ألا يبقى له ولد. أي ألا يخلد له ولد كان خلد هو.

(٢) فإن فاتك منه فائت، أي مضيت دون أن يكون لك عقب يحمل عنك رسالتك.

(٣) أي ما مضى كما مضى أبو العلاء، فقد مضى دون أن يعقب، لأنه كان يرى وجـوده في الحياة كان جناية من أبيه عليه لهـذا لم يتزوج فيعقب حتى لا يجني على غيـره. ولكنه خلف ذكراً حياً لا يغيب عن أحد. وأبو العلاء، هو أبو العلاء المعري (٣٦٣ هـ ـ ٤٤٩ هـ) الشاعر الفيلسوف.

(٤) الرحال: جمع رحل، بالفتح، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. ويريد برحـال الحياة: ركب الناس.

(٥) الضنانة: الضن بالشيء والحرص على عدم التفريط فيه.

(٦) يربو: يزيد وينمو. والرذاذ: المطر الضعيف. والوابل: المطر الشديد الضخم القطر، والمدرار: الكثير الدرّ والانصباب، للمذكر والمؤنث.

(٧) الغناء: أي الحديقة التي كثر شجرها والتفت فكثر ذبابه فسمع له غنة، بالضم.

(٨) السد: هو ما يقام ليمنع آنسياب الفيضـان، وهذا عنـد بلوغه الغـاية. أي عليك مما هـو أول وليس عليك ما يعقب هذا، فذلك للخلف.

فَقِيرٌ إلى الرَّأسِ العاقِلِ، والسَّاعِدِ العامِلِ؛ وإلى العَتَبِ الوَضِيعةِ[1]، والسُّقوفِ الرَّفِيعةِ[2]، وكالرَّوضِ مُحتاجٌ إلى رَخيصِ الشَّجَرِ وثَمِينِهِ، ونَجِيبِ النَّباتِ، وهَجِينِهِ[3]، إذ كان ائتلافُه في اخْتلافِ رَياحِينه؛ فكُلُّ ما كان منها لَطيفاً مَوْقِعُه، غَيْرَ نابٍ به مَوْضِعهُ[4]، فهو من نَوابِغِ الزَّهْرِ قَريب[5]، وإن لم يَكُنْ في البَدِيعِ ولا الغَرِيب[6].

حَظِيرةُ الأَعْراضِ والعُرُوضِ[7]، ومِحْرَابُ السُّنَنِ والفُرُوض[8]، سَيِّدُ الأَدِيم[9]، صَفَحَاتُه التاريخُ الكَرِيمُ، وبَوْغاؤه عَظْمُ الأُبُوَّةِ وإنَّه لَعَظِيم[10]، وعلى جَوَانِبه الدَّوْلَةُ وهي حَسَبُ الأُمَمِ الصَّمِيم[11]؛ وثَمَّ كَرائِمُ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ وهي غَوَال[12]، وثَمَّ ثَمَرَاتُ الرِّجَال وضَنَائِنُهم اللَّاتي خَلْفَ الحِجَال[13]، فيا

---

(١) العتب: خشب الباب الذي يوطأ عيه، واحدتها: عتبة، والوضيعة: المحطوطة القدر، وجعلها كذلك لأنها يوطأ عليها.

(٢) الرفيعة: الشريفة القدر، لسموها وعلوها.

(٣) النجيب: الفاضل على مثله النفيس في نوعه. والهجين: المخلط الذي نتج عن نوعين أو صنفين مختلطين.

(٤) نَبَا بِهِ موضعه، أي بدا فيه غير موائم ولا مناسب.

(٥) نوابغ الزهر: جليله وعظيمه.

(٦) البديع: الذي على غير مثال. والغريب: الذي لم يؤلف ولم ير مثله.

(٧) الحظيرة: المكان يحاط عليه يبقى ما حفظ فيه. والأعراض: جمع عرض، بالكسر، وهو البدن، والنفس، والحسب، وكل ما يمدح ويذم من الإنسان، سواء كان في نفسه، أو سلفه، أو من يلزمه أمره، وكل هذا مراد هنا والعروض: جمع عرض، بالفتح، وهو المتاع.

(٨) المحراب: مقام الإمام من المسجد. والسنن: ما ينسب إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل، أو تقرير، واحدتها: سنة، بالضم... والفروض: ما أوجبه الله على عباده، واحدها: فرض، بالفتح، يريد ما يجوز وما يجب من حميد الأفعال.

(٩) الأديم: أي الأرض، وهو في الأصل: ظاهرها.

(١٠) البوغاء: التراب عامة. والأبوة: الآباء، من جموع أب.

(١١) الدولة: أي الحكم القائم، وهو من مظاهر الحضارة. والحسب: ما يعده المرء من منافيه أو شرف أبائه. والصميم: المحض الخالص.

(١٢) الكرائم: جمع كريمة، وهي ما طاب وحسن. وغوال، أي غوالي، بمعنى عالية القدر. واحدها: غالية.

(١٣) ثمرات الرجال، أي أعقبوا. والضنائن: ما يضنون به عن أن يمتهن. يعني نساءهم. والحجال: جمع حجلة، محركة، وهي الستر يضرب للعروس في صوب البيوت. يريد الأستار في البيوت.

عَجَبـا كيفَ يَجْحَدُ الأوطـانَ الجَاحِـد، أو يَزْعَمُ أنَّ الأرض كُلَّهـا وَطَنٌ واحِد؛ قَضِيَّةٌ تُضْحِكُ النَّمْلِ في قُرَاها[١]، والنَّحْلَ في خَلاَيَاهـا؛ وتَسْتَبْهِمُ على الطَّيْـرِ في أوْكَارِها[٢]، وعلى السِّبَاع في أوجارها[٣]؛ ويُنْبِئُك عنها السَّمَكُ إذِ آتَّخذَ من البَحْرِ وَطَناً شـائِعاً، فـوُلِدَ مَهْـدُوراً وعاشَ ضـائعاً[٤]؛ صِغَـارُه طَرَائِـد، وكِبَارُه مَوَائِد[٥]، ويَتَصيَّدُ بَعْضُه بَعْضاً إنْ أبْطَأَ الصَّائد.

والوَطَنُ شَرِكَةٌ بَيْنَ الأوَّلِ والآخِر، وبين الحاضِرِ والغابر[٦]، لا يَرِثُّ لها عَقْد[٧]، وإنْ تَطَاوَل العَهْد، مؤسَّسَةٌ بـالمَهْدِ حِينـاً وباللَّحْـد[٨]؛ يُدْخِلُك فيهـا المِيلَاد، ولا يخْرِجُك منها النَّفَاد[٩]، فقد تُضْرِمُ النارَ وأنت هامِدٌ كالرَّمَاد، وقد تَحْيا بك الدِّيارُ وأنتَ بِوَادٍ والحَيَاةُ بِوَاد[١٠].

والوَطَنُ مُسْتَودَعُ المَفَاخِر وصِوَانُ المآثِر[١١]، وَخِزَانَةُ الأعْلَاقِ والذَّخَائر[١٢]، لِكُـلٍّ مُتْقِنٍ مِنها مَـوْقِعُه، ولا يَنْبُـو بِصَالـحٍ فيها مَوْضِعُه[١٣]؛ الهَـرْمَـان لَـدَيْهـا

---

(١) قراها، أي مساكنها، واحدها: قرية، بالفتح.

(٢) تستبهم: يستعصي فهمها. والأوكار: جمع وكر، بـالفتح، وهـو عش الطائـر في أي موضـع كان.

(٣) الأوجار: جمع وجر، بالفتح، وهو الكهف في الجبل.

(٤) مهدوراً: أي لا يجد من يرعاه.

(٥) الطرائد: جمع طريدة، وهي التي يلاحقها غيرها من الأسماك الكبيـرة. ومـوائـد، أي يطهى ليكون طعاماً.

(٦) الغابر: من سلف.

(٧) لا يرث: لا يبلى. والعقد، بالفتح، ما عقد من البناء، يريد البناء نفسه.

(٨) المهـد: فراش الصبي. واللحـد، أي القبر، أي كمـا يشـارك في تـأسيسهـا الـداخلون إلى الحياة كذلك يشارك في تأسيسها الخارجون منها، فالأولـون مقدمـون على تحمل نصيبهم، والمولّون لم يُولوا إلا بعد أن حملوا نصيبهم.

(٩) النفاد: الفناء، أي إنك بمولدك داخل في حمـل عبئك، وأنت بعـد موتـك باق لـك أثر مـا قدمت، فكأنك لم تخرج.

(١٠) يشير في هاتين الفقرتين إلى ما يكون للأموات من أثر تركوه في الحياة، وهم بعدقد همدوا وخمدوا.

(١١) الصوان: بضم أوله وكسره: ما تصـان فيه الأشيـاء. والمآثـر: المكارم المـوروثة، الـواحدة: مأثرة.

(١٢) الأعلاق: نفائس الأشياء، واحدها: علق، بالكسر.

(١٣) أنبا بِهِ الموضع: لفظه ولم يتسع له.

مُعظَّمَان[١]، وشَيْخُ البلد، شَيْخُ الصِّناعةِ على الزَّمان[٢]؛ وعِنْدها سَيْفُ عَليٍّ ومَغَارِسُه[٣]، وقَنَاةُ إسْمَاعيلَ ومَدَارِسُه[٤]، وفيها القَصائدُ البارُودِيَّة[٥]، ولَيس فيها الخُطَب النَّدِيميَّة[٦]؛ تِلك لقُرْبها من كَلام الحِكْمَة، وهَذِي لبُعْدِها عن الإتْقَان والحِشْمة؛ فيَا لكِ خِزانةً تُمَيِّزُ الصِّحَاحُ من الزُّيُوف[٧]، وتَعْرِفُ الضَّيْفَنَ من الضُّيُوف[٨]، وتَحْجُبُ العِصِيَّ وتَأْذَنُ للسُّيُوف[٩].

صَحِيفةُ الأَخْبَار، وكِتَابُ الأبْرَار، وسِجِلُّ الهِمَم الكِبَار؛ أَسماءُ المُحْسِنِين فيه مرقوبة[١٠]، وَأَفْعَالُهم مَثَلٌ للخَلَفِ مَنْصُوبة، وحُرُوفٌ بِمَاءِ الذَّهَب مَكْتُوبَة؛ فإذا أَتَت السِّنُون، ودارت على الرِّجَال المَنُون[١١]، ولَحِقتْ بالمُشَايِع الشِّيَع[١٢]، وذَهَب المَتْبُوعُ والتَّبَع[١٣]؛ ونامَت الحَرَابِيُّ عن الشُّمُوس[١٤]، وحِيلَ بَيْن النَّارِ وبَيْنَ المَجُوس[١٥]؛ انْفَتَح كِتَابُ الوَطَن من نَفْسِهِ وإذا الحَسَنَاتُ ثَمَّ على الصِّدْق مُحْصَاة[١٦]، فلا الحَصَاةُ دُرَّةٌ ولا الدُّرَّةُ حَصَاة؛

---

(١) الهرمان: يعني هرمي الجيزة بمصر، الأكبر والأصغر.

(٢) شيخ البلد: من إليه أمورها، وهو رمز إلى تمثال شيخ البلد، المحفوظ بالمتحف المصري.

(٣) علي، هو ابن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، وقد عرف بشجاعته وبطشه في الأيام التي كانت بين المسلمين والمشركين، ويضرب المثل بسيفه. والمغارس. مواضع الغرس، يريد آثار السيف في الأجسام.

(٤) إسماعيل، هو ابن إبراهيم، أحد خديويي مصر، وفي عهده كان الاحتفال بافتتاح قناة السويس.

(٥) البارودية، نسبة إلى محمود سامي البارودي (١٨٣٩ - ١٩٠٤م) شاعر عصره.

(٦) النديمية: نسبة إلى عبدالله بن مصباح (١٨٤٥ - ١٨٩٦م) كان من أدباء مصر وزجّاليها وخطبائها، وقد عرفت له نكته اللاذعة.

(٧) الزيوف: كل ما كان باطلاً، واحدها: زيف، بالفتح.

(٨) الضَّيْفن: الذي يتبع الضيف متطفلاً.

(٩) العصي: واحدتها: عصاة.

(١٠) مرقوبة: محفوظة.

(١١) المنون: الموت، مذكر ومؤنث.

(١٢) المشايع: المصاحب والمؤيد. والشيع: الأتباع والأنصار، واحدها: شيعة، بالكسر.

(١٣) التبع: التابع، للواحد والجمع، والجمع: أتباع.

(١٤) الحرابي، جمع حرباء، بالكسر، وهي دويبة على شكل سام أبرص. ذات قوائم أربع دقيقة الرأس، مخططة الظهر، تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيفما دارت.

(١٥) المجوس: عبدة النار.

(١٦) على الصدق: أي حقاً دون تدليس.

وإذا الرِّجَالُ يُعَظَّمُون على الأَفعال، وإذا الوَقَائِعُ قد نُحِتَ منها الأَبْطَال؛ على قَدر العَمل يَأْتِي الجَزَاءُ، وبِقَدْر جَمَال الأَثر يَكُونُ حُسْنُ الثَّناء.

ولَيْس أَحَدٌ أَوْلَى بالوَطَن مِنْ أَحَد، فما باسْتُورُ والشِّفَاءُ في مَصْلِه[1]، ولا كَمَالُ والحَيَاةُ في نَصْلِه[2]، أَوْلَى بأَصْل الوَطَن وفَضْلِه؛ مِن الأَجِيرِ المُحْسِنِ إلى عِيَالِه، الكاسِبِ على أَطْفَالِه، الفادِي الوَطَنَ بأَشْبَالِه[3]، وهُم رأْسُ مالِه؛ فلا تَتَحَمَّدْ على الأَوطان بآثَارِ كَرم[4]، وإن حَمَلْتَ لها الهَرْم، أَو نَقَلْتَ إليها إرَم[5]، فإنَّك لم تَزِدْ على أَنَّه أَقَمْتَ جِدَارَك؛ وحَسَّنْتَ دَارَك؛ ولا تَنْسَ أَنَّها الآلَةُ التي رَفَعَتْك، والهالَةُ التي أَطْلَعَتْك[6]؛ ولا تَحْجُبْ ذاتَ الوَطن بِذَاتِك، أَو تَطْرِفْ العُيونَ عن وَجْهِهِ بِقَذَاتِك[7]؛ ولا تَكُنْ كالسَّرْح العَظِيمِ إِذْ نَسِيَ خَلْقَه[8] إذ عَلاَ عَلى الأَرْضِ وهي أُمُّه، ماؤُها عُصَارةُ عُودِه، وطِينُها جُرثومةُ وُجُودِه؛ حتَّى إذا تَرَعْرَعَ وكَبِر، أَخْفَاها وظَهَرَ، وحَجَبَ عنها الشَّمسْ والقَمَر؛ خَلَعَتْ عليه ما نَضر ورَفَّ[9]، وأَلْقَى عَليها ما يَبِسَ من الوَرَق وجَفَّ.

والوَطَنُ لا يَتِمُّ تَمَامُه، ولا يَخْلُصُ لأَهْلِه زمامه[10] ولا يكونُ الدارَ المُسْتَقِلَّة، ولا الضَّيْعَةَ الخالِصَةَ الغَلَّة؛ ولا يُقَالُ له البَلَدُ السَّيِّدُ المَالِك، وإنْ تَحلَّى بأَلْقَاب الدُّوَل والمَمَالِك؛ حَتَّى يُجِيلَ العِلْمُ فِيه يَدَ العِمَارَة[11]، ويَجْمَع

---

(١) باستور: كيميائي فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٥م) كان إليه الكشف عن المصل الشافي من الأمراض المعدية، والمصل: ما يتخذ من دم حيوان محصن من الإصابة بمرض، كالجدري والدفتريا، ثم يحقن به جسم آخر ليكسبه مناعة تقيه الإصابة بذلك المرض.

(٢) كمال: هو مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٤م) قائد تركي. انتهت إليه رياسة الجمهورية التركية، وكانت له إصلاحات شتى. ومعنى أتاتورك: أبو الأتراك، والنصل: حديدة الرمح والسهم والسكين، يريد سيفه.

(٣) بأشباله: أي بأولاده، وهم في الأصل أولاد الأسد، الواحد: شبل، بالكسر.

(٤) تتحمد: تمتن.

(٥) إرم: مدينة كبيرة كانت لقوم عاد، يضرب بها المثل.

(٦) الهالة: دارة القمر. أو دائرة من الضوء تحيط بجرم سماوي.

(٧) تطرف العيون: تتحرك جفونها.والقذاة: ما يقع في العين من تراب وغير ذلك.

(٨) السرح: الشجر العظام الطوال، الواحدة: سرحة.

(٩) ما نضر: ما كان ذا رونق وبهجة. والفعل من بابي: نصر وفرح. ورف: اهتز من الري.

(١٠) الزمام: المقود، وهو ما تقاد به الدابة، (١١) يجيل: يدير.

لَه بَيْنَ دُولَاب الصِّنَاعةِ وسُوق التِّجارة[1].

فيا جِيلَ المُسْتَقبل، وقَبِيلَ الغَدِ المُؤَمَّلِ؛ حارِبُوا الأُمِّيَةَ فإنها كَسْحُ الأُمَم وسَرَطانُها[2]؛ والثَّغرةُ التي تُؤْتَى مِنها أَوْطَانُها؛ ظُلُماتٌ يُعَرْبِدُ فيها خُفَّاشُ الاسْتِبْداد[3]، وقُبورٌ كُلُّ ما فيها لِضَبُعِه غَنِيمَةٌ وزَاد[4]؛ وتَذَرَّعُوا بِذَرائِع العِلْم الصَّحِيح[5]، آطْلُبُوه في مَدَارِس الزَّمَان وحَلَقَاتِه، وخُذُوهُ عن جَهَابِذَتِه وثِقَاتِه[6]؛ وآعْلَمُوا أَنَّ أَنْصَافَ الجُهَّال لا الجَهْلَ دَفَعُوا، ولا بِقَلِيل العِلْم انْتَفَعوا؛ وبَنُو الوَطَن الواحد إِخْوَةٌ وإنْ ذَهَبَ كلُّ فَرِيقٍ بِكِتَاب، ووَصَلَتْ كُلُّ طائِفَةٍ مِن بَاب؛ واتَّبَعَ أُناسٌ الإنْجِيل، وأُنَاسٌ اتَّبَعُوا التَّنْزِيل[7]؛ وكُلُّ بِلَادٍ تَسُوسُها حُكُومةٌ فاضِلة، وتُقَيِّدُها القوانين العادِلَة، وتَعْمُرُها جَمَاعةٌ عاقِلَةٌ عامِلَة، إنما يُفَرِّقُ[8] فِيهَا بَيْن الوَطَن الَّذي هو الحَياةُ وشُؤونُها، والدُّنْيا وشُجُونُها[9]، والحُكُومة نُظُمُها وقانُونُها، والمَمْلكة سُهُولها وحُزُونُها[10]، والدَّولَة أَطْرَافُها وحُصُونها[11]؛ وبَيْنَ الدِّين الذي هو السَّمَاءُ الرَّفِيعَة، والذِّرْوَةُ المَنِيعَة، ولَايَةُ الضَّمَائِر[12][13]، وسِيَاسة السَّرَائِر[14].

---

(١) الدولاب: الآلة التي تديرها الدابة ليتسقي بها، بمعنى ما تقوم عليه الصناعة والتجارة.

(٢) الكسح: الزمانة في اليدين والرجلين فتعجز عن الحركة. والسرطان: ورم خبيث يقضي إلى الموت.

(٣) يعربد: يعبث. . . والخفاش: حيوان ثديي قادر على الطيران ولا يطير إلا ليلًا، يعلق بالأشياء فلا يتحول عنها.

(٤) الضبع: جنس من السباع.

(٥) تذرعوا بذرائع العلم: توسلوا بوسائل العلم وأسبابه. وذرائع، واحدتها: ذريعة، وهي السبب والوسيلة.

(٦) الجهابذة: جمع جهبذ، وجهباز، بالكسر فيهما، وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور.

(٧) التنزيل: أي القرآن الكريم.

(٨) يفرق: يفصل، بالبناء للمجهول فيهما.

(٩) الشجون: الهموم، واحدها: شجن، بالتحريك.

(١٠) الحزون: جمع حزن، بالفتح، وهو ما غلظ من الأرض.

(١١) الدولة: أي المملكة. وأطرافها، أي حدودها.

(١٢) الذروة: أي القمة.

(١٣) ولاية الضمائر: أي الذي أمره إلى الضمائر يستملي منها.

(١٤) السرائر : جمع سريرة، وهي ما يكتم ويسر، أي إن الدين لوفق ما تكن.

وما وَطَنُ المُحْسِنِينَ إلاّ الأُسْرةُ الكُبْرَى؛ والسَّقْفُ الواحد، والمَنْزِلُ الحاشِد[1]؛ القومُ في ظِلَالِه، على البرِّ وخِلالِه، إخوانٌ مُتصافُون، وأهلٌ مُتَناصِفُون، وجِيرانٌ مُتآلِفون؛ قَصْدٌ في البَغْضاء[2]، وبُعْدٌ عن الشَّحْناء[3]؛ أَلْسِنَةٌ عَفِيفَةُ العَذَبات[4]، وصُدورٌ نَظِيفَة الجَنَبات؛ تَرَاهم كالنَّحْل إنْ سُولِمَتْ عَمِلَتْ العَسَل، أو حُورِبَتْ أَعْمَلَتْ الأَسَل[5]؛ فاطْبَع اللهُمَّ كِنَانَتَك على هذا الغِرَار[6]، وأعِدْها كَمَا بَدَأْتَها مَحلَّة الأَبْرَار. واْجْعَل أَبْنَاءَنا أَحْرَاراً ولا تَجْعَلْهم أَنْصَافَ أَحْرَار.

رَبَّنَا وأَنْزِلْهُمْ على أَحْكام العُقول وقَضَايَا الأَخْلَاق[7]، ولا تُخْلِهِمْ من العَوَاطِف، وإنْ كُنَّ عَوَاصِف؛ ولا تَكِلْهُمْ لِلأَهْوَاء فإنّها هَوَاءُ[8]؛ وخُذْهُمْ بِرُوحِ العَصْرِ وسُنَّةِ الزَّمان، واجْعَلْهُم حَفَظة العَرْش وحَرَسَةَ البَرْلَمان[9].

(١) الحاشد: الجامع.
(٢) قصد: أي لا إسراف.
(٣) الشحناء: الحقد والعداوة.
(٤) العذبات: جمع عذبة، بالتحريك، وهي الطرف. يريد أطراف الألسنة، أي الألسنة عامة.
(٥) الأسل: أي إبرها، والأسل، في الأصل: الشوك الطويل، واحده: أسلة، بالتحريك.
(٦) الغرار: المثال والنهج.
(٧) قضايا الأخلاق: أي ما تقضي به الأخلاق.
(٨) هواء: أي خاوية لا طائل منها.
(٩) البرلمان: أي دار النيابة.

«٣»

الجندي المجهول(*)

ذلك الغُفْلُ في الرِّمَم، صار ناراً على عَلَم، جَمَعَ ضَحَايـا الأُمَم، كما جَمَعَ الكِتَابَةَ القَلَم، أو الكَتِيبَةَ العَلَم[1].

تِمْثَالٌ من إنْكَـار الـذَّات، والفَنَـاء في بَقَـاءِ الجَمَـاعَـات، وصُـورةٌ من التَّضْحِيـةِ المُبَرَّأَة من الآفَـات، المُنَزَّهـةِ عن آنْتِـظار المُكَـافَـاة، وهَيْكَـل على

(*) كـانت فرنسـا أولى الدول التي واتتهـا الفكرة بـإحياء ذكـرى قتلى الحـروب ممثلة في جنـدي مجهول الاسم. وكان هذا بعد وقعة فردان التي فقدت فيها فرنسا مـا يربي على مليـون قتيل، فـوقعت على جثث ثمان منهم، ووضعت كـل جثـة في نعش. ثم نقلت هـذه النعـوش، إلى حصن (فو) ليلة العاشر من نوفمبر سنة عشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٠م) حيث أوقدت حولها الشموع، والجنود من حول النعوش مصطفة، وأشار القائـد إلى جندي منهم بـأن يدور حـول هذه النعوش حاملاً باقة من زهر القرنفل الأحمر والأبيض، على أن يلقى بتلك الباقة على أي نعش يختاره. وما إن فعل الجندي هذا وألقى الباقـة على نعش حتى عزفت المـوسيقى نشيد المـرسليز، وحتى رفـع الجنود سيـوفهم تحية، وإذا الـراقـد في هـذا النعش المختـار يصبح الجندي المجهول، الذي يتمثل فيه كل القتلى، ثم نقل هذا النعش بمشهد إلى باريس، وما إن أصبح الصباح حتى كان احتفال مهيب بنقل هذا النعش إلى قوس النصر، حيث أعـدوا له ضريحاً أصبح يحج إليه الناس على اختلاف أعمارهم.
ثم إذا هذه الفكرة تشيع وتحتذي حذوها الدول، وإذا في كل دولة ضريح للجندي المجهول. وما كان هذا يمر دون أن يثير خاطر شوقي، وإذا هو يكتب هذه الكلمة..

(١) الغفل: الذي ليس لـه ما يميـزه. والرمم: جمـع رمة، بـالكسر، أي الجثـة الباليـة، وهي في الأصل قطعة الحبل البالية. والعلم: الجبل. وإذا ما كـانت النار عليـه كانت أشـد وضوحـاً. والكتيبة: الجيش أو الفرقة العظيمة منه.

الـوَاجِب من عِظَامٍ أو رُفَـات؛ تَقرأ على صفحـاتِـه العَجَبَ العـاجِب، تَفْسِيـر الجَلاَلَيْن من مَوْتٍ ووَاجِب. وتَتَنَقَّلُ من آيَة إلى آيَة، وتَرى كيف جَـرَى الإِيثَارُ لِلْغَاية. وكَيف سَالتِ النُّفوس على جَنَبات الرَّايَة[1]

ولا يَعْلَمُ إلاَّ الله لِمَنِ الجِيفَـةُ المَحْـظُوظَـة، أو تِلْكَ البَقَـايَـا المَصُـونَـة المَحْفُـوظَة؛ ألِـرِعْدِيـد، أم لِصِنْـدِيـد؟ ولِبَـطَلٍ مَشُـوق، أم لمُكْـرَهٍ مَسُـوق؟ ولِشَيْطَانٍ آسْتِعْمَارِيّ، أمْ هي لِـربِّيٍّ حَوَارِيّ؟ ولِمَغْمُـور من سَوَاد الجُنْـد، أمْ لِمَأْثُورٍ مِن بِيضِ الهِنْد؟ وهَلْ كانتْ لِبْدَةَ أُسَامَة، أمْ كانَت جِلْدةَ النَّعَامَـة؟ وهَلْ هِي هَيْكَلُ المُتَنَبِّي أم وِعَاءُ أبي دُلاَمَة؟[2].

وكَيْف تعْرِفُ جُثَّةً نَكِرَتْها الأَيَّام، وسارَت الأَرضُ فيها سُنَّتَها في الرِّمَام، إلى أنْ وَقَعت عليها يَدٌ في الرِّجام، كما تَقَعُ على النَّصِيب الرَّابح يَـدُ الغُلاَم؛ فَخَرَجت بها من غَمْرَة الرِّمَم، وحُفْرَة الأَمَم، وبُؤْرَة العَدَم[3].

وإذا هِي تَنْفَصِل عَن سَوَاد الهامِدِين، وتَتَّصِل بالأَفْرَاد الخالِـدين؛ تَهْجُر مَغْمُوراتِ الكُفُور، وتَعْمُرُ مشهُورَاتِ القُبُـور؛ وبَيْن ذلك جِنَـازَةٌ لِلْعَصْر حَـولها ضَجَّة، وللأَرْض تَحتها رَجَّة، مَـوَاكِبُها مِـلْءُ اليَبَس واللُّجَّة؛ أَعْـلاَمٌ مَنْكُوسَـة،

(١) الأفات: جمع آفة، وهي كل ما يصيب شيئاً فيفسده. والمكافأة: المكافاة، فسهل. والـرفات: الحطام والفتات من كل ما تكسر وآندق. والجلال: العظمة، وفي اللفظ تورية إذ للأئمة تفسير للقرآن الكريم آسمه تفسير الجلالين: جلال الـدين محمد بن أحمـد الحلي (٨٦٤ هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ).

(٢) الجيفـة: جثة الميت إذا أنتنت. والـرعديـد: الجبـان يـرتعـد ويضـطرب عنـد القتـال جبنـاً. والصنـديد: الشجـاع. ومشوق: تنـزع نفسـه إلى القتـال. والـربي: العـالم التقي الصـابـر. والحـواري: الـذي أخلص ونقي من كـل عيب، والصـاحب: النـاصـر. والمغمـور: أي المجهول. وسواد الجند: عامتهم. والمأثور: المتوارث. واللبدة: الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. وأسامة: أسد، وهي من ألقابه. والنعامة: بـاطن القدم، وبجلدتـه يضرب المثـل في كل ما هـو مهين، والمتنبي: هو أحمـد بن الحسين (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ) الشاعـر الحكيم. وأحد مفاخر الأدب العربي. وهيكله، أي جسمه. وأبو دُلامـة: هو زند بن الجون (١٦١ هـ) شاعر. وكان أبوه عبد الرجل بن بني أسد. ووعاؤه، أي جسده.

(٣) نكرتها: جهلتها. والرمام: جمع رمة، بالكسر، وهي العظام البالية، والرجام: الحجـارة التي توضع على القبر، واحدتها: رجم، بفتحتين. والغمرة: الزحمة. والرمم: الرمـام، وكلاهمـا جمع رمة، بالكسر، والبؤرة: الحفرة.

وقَناً صُمٌّ، وكَتَائِب خُرْس، وأَنْعَامٌ مَحْزُونة، ودُمُوعٌ مَذْرُوفة، ومُلُوكٌ أو رُسُلُ مُلُوك، وبَرْقٌ يَروحُ ويَغْدُو في السُّلُوك، ويَنْعى الزَّاجِلِيَّة، والأُلُوك؛ فَهَلْ شَيَّعَتْ نابِلْيُون، أو وَلِنْجُتُون؟ وهَلْ بَلَّغَتْ هُوجُو البانْثِيُون؛ سَوَّى الحَظُّ بَيْن هَؤلاءِ، وبَيْن ذلك النَّكِرةِ في الأَشْلاء، وأَجْزَل لِلَقِيطِ المَوْتَى مِن العَطَاء، كَمَا يُجزِلُ أَحْيَاناً لِلُّقَطَاءِ[1].

أَسْأَل العَصْرَ: فِيمَ نَبْشَ القُبُور، وقَلَّب الهامِدِين البُور، مِن أَجْلِ هذا الشِّلْوِ المَتْبُور؛ حتَّى ٱلْتَقَطه بِيَدِ الحَظِّ الوَهُوب، أو يَدِ السَّيَّارةِ المُبَارَكَة على ٱبْنِ يَعْقُوب؟ يُجِبْكَ: أَلَيْس كُلُّ مَن شَهِد النَّفِيرَ العامَّ فهو ذَائِدُ الوَطَنِ وحامِيه! وكُلُّ مَن وُجِدَ في الحَفِير الجَامِع فهو مُشْتَرِيه بمُهْجَته وفادِيه، مَجْهُول بَذَل المَجْهُود، وجَاد بالنَّفْس وذلك أَقْصَى الجُود، في مَوْطِنٍ سَوَّى بَيْن القائِد والمَقُود، والسَّائد والمَسُود، تَوَحَّدت النَّارُ وتَشَابَه الوَقُود: وما حَمَل أَعْبَاء الجِهَاد مِثْلُ المَيْت، كالأَسَاس دُفِن فكَان قِوامَ البَيْت[2].

كُلُّ حَيٍّ يَمُوت، وكُلُّ ذَخِيرَة تَفُوت؛ وكُلُّ راحِلٍ عن قَوْمِه وإنْ وَجَدهُمْ

---

(١) الهامدون: من لا حراك لهم، يعني الموتى، وسوادهم: عامتهم. والكفور: القرى الصغيرة، واحدتها: كفر، بالفتح، ومغموراتها: أي غير المشهور منها. واليبس: اليابس، يعني الأرض، واللجة: أي البحر، وهي في الأصل معظم البحر وتردد أمواجه. والقنا: الرماح، واحدتها: قناة. والصّمّ: الصلبة. واحدتها: صماء. وهذا مما تمتدح به. والكتائب: الجيوش، واحدتها: كتيبة. وخرس: أي لم يسمع لسلاحها قعقعة ولا لرجالها جلبة، واحدتها: خرساء، وهذه من صفات المدح، وبرق: أي الرسائل البرقية، وينعى: يذكر خبر الميت. والزجلية: يعني الرماة، نسبة إلى الزاجل: وهو الرامي. والألوك: الرسول. ونابليون: قائد فرنسي كانت له وقعاته المشهورة. . ولنجتون: قائد إنجليزي معروف، وهو الذي انتصر على نابليون في معركة واترلو. وهوجو، هو فيكتور هوجو، من شعراء فرنسا المشهورين، والبانتيون: الصرح العظيم المقام في باريس الذي يضم رفات المشهورين من رجال فرنسا. والأشلاء: الأعضاء، واحدها: شلو، بالكسر، واللقيط: الملتقط من بين الموتى. واللقطاء: جمع لقيط، وهو الوليد الذي يوجد ملقى على الطريق لا يعرف أبواه.

(٢) الهامدون: من لا حراك بهم، يعني: الموتى، والبور: من لا خير فيه للمفرد وغيره. والشلو: العضو. والمبتور: المكسور، والموهوب: المعطى بلا عوض. والسيارة: القافلة. وٱبن يعقوب: يوسف عليه السلام، وكان إخوته قد ألقوه في الجب فأتت سيارة فأرسلوا واحداً منهم ليستقي لهم من ذلك الجب وحين أرسل دلوه علق يوسف به. والنفير: القوم ينفرون للقتال. والذائد: المدافع. والحفير: القبر، والضمير في (مشتريه) للوطن.

بالأَمْسِ شَتَّى فألَّف، أو نَكِرَاتٍ فعرَّف. وخَلَّف فيهم مِن فَضْلٍ ما خَلَّف؛ لا يَسْلَم على المَوْتِ مِن حاسِدٍ يُزَوِّرُ في الصَّحِيفَة، أو حاقدٍ يَتَشَفَّى بالجِيفَة؛ فيا لَكِ مُضْغَةً تَقْرِضُ الكَفَنَ الجَدِيد، وتَسْبِقُ الدُّودَ إلى الصَّدِيد، إلَّا هذا الجُنْدِيَّ المَجْهُول، فقد خَلَتْ جِنَازَتُه من الهامِسِ والهامِز، والغامِط والغامِز؛ فقُلْ لِمَنْ لم يَعْرِفْه الناسُ: طُوبَى لَك، ما أَنْعَم بالَك، وما أَنْقى كَفَنَك وسِرْبَالَك[1].

قَبْرٌ بين حَنِيَّةِ النَّصْر، وبِنْيَةِ النَّسْر، وفَوْقَ طَرِيق العَصْر، لو كان لِعِيسَى ضَرِيحٌ، لقُلْتُ قَبْر المَسِيح، كُلُّ جَرِيحٍ إِلَيه يَسْتَرِيح؛ يَقِفُ به المَحْزُون المُتَهالِك، يقول هذا كُلُّه قَبْرُ مالِك؛ وكأَنَّ كُلَّ أُخْتٍ حَوْلَه الخَنْسَاء، وتَحْت ذلك الحَجَر صَخْر؛ وكُلَّ أُمٍّ ذاتُ النِّطاقَيْنِ أَسْماء، وعَبْدُ الله في ذَلِك القَبْر؛ دُرُوسٌ عاليةٌ تُلْقَى على الشَّبَاب، تُعلِّمهم كَيف جَعل آباؤُهم حِمَايَةَ الغَاب، فوق تَفَاتُن الأَحْزَاب، وفِتْنة الأَسْماءِ والأَلْقَابِ؛ حَتَّى قَرُب تَقْدِيسُ الوَطَن الكَرِيم، مِن عِبَادة العَلِيِّ العَظِيم، وحتَّى تَقَرَّبُوا إلى الأَوْطان بالذِّبْحِ المُنْكَر، كما ذُكِرَ آسْمُ الله على القُرْبَان وآسْمُ القُرْبَان لم يُذْكَر[2].

---

(١) يتشفى: يشتفي: أي يبلغ ما يذهب غيظه. وتقرض: تقطع. والهامز: المغتاب الذي يغض من شأن غيره. والغامط: المحتقر. والغامز: الطاعن. وطوبى لك: الحسنى والخير لك. والسربال: كل ما لبس، كالقميص، والدرع.

(٢) الحنية: القوس. وقوس النصر: بناء صخم في باريس يفضي إليه اثنا عشر شارعاً. أمر ببنائه نابليون في فبراير سنة (١٨٠٦م)، ومن أجل هذا سماه شوقي بنية النسر. وفي يوليو من سنة (١٨٣٦م) كان افتتاحه، وقد حفرت عليه أسماء مشهوري القواد، وكذا أسماء المعارك الكبيرة. ومالك، هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة الفارس الشاعر، أدرك الإسلام وأسلم، وولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، ولما استخلف أبو بكر طالب مالكاً بأموال الصدقات، ولم يوف مالك، فأرسل إليه خالد بن الوليد على رأس جيش، وإذا رجل من رجال خالد يقتل مالكاً، ولم يكن الأمر يستدعي هذا. فغضب لها أبو بكر ـ وقد رثا مالكاً أخوه متمم بشعر كثير منه:

فقلت لهم إن الشجا يبعث الشجا ... دعوني فهذا كله قبر مالك

والخنساء، هي تماضر بنت عمرو، أشهر شواعر العرب، أدركت الإسلام فأسلمت، وأكثر شعرها في رثاء أخويها: صخر ومعاوية. وكانا قد قتلا في الجاهلية. وصخر: هو ابن عمرو، أخو الخنساء، وكان من الفرسان، وقد مات مقتولاً. ومما قالته أخته الخنساء في رثائه:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وأسماء: هي أسماء بنت أبي بكر، وكانت تلقب ذات النطاقين، لأنها صنعت للنبي ﷺ سفرة =

والمَجْدُ أَبْعَدُ أَسْفَار الرِّجَال، وله أَزْوَادٌ وله رِحَال؛ جِهَـادٌ طَوِيـل، وصَبْرٌ جَمِيل، وعَقَبَاتٌ بكُلِّ سَبِيل؛ والجُنْدِيُّ المَجْهُول مـا سَارَ مِنْ لَحْـدٍ إلى لَحْد، حتى رَقِيَ أَسْوَارَ المَجْد، ودَخَلَ مَمْلَكَةَ الخُلْد، وكـان الطَّرِيقُ نَقِيّاً من الشَّوْكِ وكُلُّه وَرْد؛ ذَهَبَ رَحِمَـهُ الله لا عَنْ وَلَدٍ يَـرْمِينَـا بِجَنَـادِل أَبِيـه، ولا أَخ يَسْحَبُ عَلَيْنا أَكْفَان أَخِيه، وكَفَانا تجنِّي الشِّيعَة، وإِدلاَلَ الصَّنِيعَـة، وكُلَّ حِـرْبَاءَ يَتَسَلَّقُ النَّاسَ شَجَراً إلى الشَّمْس، يَعْبُدُها على مَنَاكِبهم من المَهْدِ إلى الرَّمْس[1].

= حين هاجر إلى المدينة، ولم تجد ما تـشدها بـه، فشقت نطاقهـا وشدتهـا بنصفه، وانتـطقت بالنصف الثاني، فسمـاها رسـول الله ﷺ ذات النطاقين. وكـان ابنها عبـدالله بن الزبيـر فارس قريش في زمنه، وقد بويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وكانت له مع الأمويين حـروب آنتهت بمقتله على يد الحجاج، وكان حزن أمه عليه شديداً، والتفاتن: الوقوع في الفتنة. والذبح بالكسر: ما يذبح تضحية. يعني الشهيد من أجل الوطن. والمنكر: الذي ينكره الناس ولا يذكرون آسمه، كما هي الحال في ذكر آسم الله على القربان، وهو ما يتقـرب به إلى الله تعالى، وعدم ذكر آسم القربان.

(١) أزواد: جمع زاد، وهو طعام المسافر. والرحال: جمع رحل، بالفتح، وهو ما يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره. والجنادل: الصخور في مجرى النهر. يريد صخور القبر. ويرمينا بجنادل أبيه، أي يحملنا ما قاسى أبوه. ويسحب علينا أكفان أخيه، أي يفخر بما كـان له. والتجني: ادعاء جناية على الغير لم يفعلها. والشيعة: المشايعون. والإدلال: التيـه. والصنيعة: كـل ما عمـل من خير. والحـرباء: دويبـة على شكل سـام أبرص ذات قـوائم أربع، دقيقـة الرأس، مخططة الظهر، تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيف دارت، وتتلون ألـواناً، ويضـرب بها المثل في التلوين، والرمس: القبر.

«٤»

قناة السّويس(*)

تِلْكُما يا ٱبْنَيَّ القَناة، لِقَوْمِكما فيها حَياة، ذِكْرَى إِسْماعيلَ ورَيَّاه، وعُلْيَا مَفَاخِرِ دُنْيَاه، دَوْلَةَ الشَّرْق المُرَجَّاة، وسُلْطَانُه الواسِعُ الجَاه؛ طَرِيقُ التِّجَارة، والوَسِيلَة والمَنَارَة، ومَشْرَع الحَضَارَة[1].

تَعبُرَانِها اليومَ على مُزْجَاة، كأَنْها فُلْكُ النَّجَاة؛ خَرَجَتْ بِنَا بَيْن طُوفان الحَوَادِث، وطُغْيَان الكَوَارِث؛ تُفَارِق بَرّاً مُغْتَصِبُه مُضَرِيُّ الغَضْبَة، قَد أَخَذ الأُهْبَة، وٱسْتَجْمَعَ كالأَسَد لِلْوَثْبَة، وتُلَاقِي بَحْراً جُنَّتْ جَوَارِيه، ونَزَتْ بالشَّرِّ نَوَازِيه، وتَمَثَّلتْ بكُلِّ سَبِيلٍ عواديه؛ مَمْلُوءاً بِبَغَتَاتِ الماءَ، مُتْرَعاً بفُجَاءَاتِ السَّمَاءِ؛ مِنْ نُونٍ يَنْسِفُ الدَّوَارِع، أَو طَيْرٍ يَقْذِفُ البِيضَ مَصَارِعِ[2].

(*) قناة السويس، هي القناة التي تصل ما بين البحرين: المتوسط والأحمر. وسويس، التي نسبت إليها هذه القناة: مدينة إلى شرقي مصر على رأس الخليج الذي ينسب إليها، وهو خليج السويس. وكانت المحاولة بوصل البحرين قديمة، كما سيشير إلى ذلك شوقي في كلمته هذه، وتمَّ لها التحقيق على يدي ديلسبس الفرنسي، الذي أقنع خديوي مصر سعيد بالبدء في حفرها، غير أنها لم تفتتح إلا في عهد خديوي مصر إسماعيل. وقد قدر لشوقي أن يعبرها وهو في طريقه إلى اسبانيا منفياً سنة (١٩١٥م).

(١) يا ابني: يعني ولديه حسيناً وعلياً. وإسماعيل، هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (١٨٣٠ - ١٨٩٥م) ولي خديوية مصر سنة (١٨٦٢م). وفي عهده كان افتتاح قناة السويس في السابع عشر من نوفمبر سنة (١٨٦٩م)، والريا: الريح الطيبة. والمرجاة: المرجوة، والمنارة: ما يقام في المواني لتهتدي به السفن. والمشرع: مورد الماء الذي يستقي منه بلا رشاد.

(٢) المزجاة: المسوقة المدفوعة، ومضري: نسبة إلى مضر، قبيلة عربية، يضرب بغضبتها للحق=

فقُلت: سِيري عوَّذْتُـكِ بِوَدِيعَـةِ التَّابُـوت، وبِصَاحِب الحُـوت، وبالحَيِّ الذي لا يَمُوت؛ وأَسْـرِي يا ابْنَـةَ اليَمِّ، زِمَامُـكِ الرُّوح، ورُبَّـانُكِ نُـوح، فكَمْ عليكِ مِن مَنْكُوبٍ ومَجْرُوح[1].

إن للنَّفْي لَرَوْعَة، وإنَّ للنَّأْي لَلَوْعَة، وقَدْ جَرَتْ أَحْكَامُ القَضَاءِ، بأَنْ نَعْبُرَ هَـذا المَاء؛ حِينَ الشَّـرُّ مُضْطَرِم، واليَـأْسُ مُحْتَـدِم، والعَـدُوُّ مُنْتَقِم، والخَصْمُ مُحْتَكِم، وحِينَ الشَّـامِتُ جَذْلَانُ مُبْتَسِم، يَهْـزَأُ بالـدَّمْع وإِنْ لَم يَنْسَجِمْ، نَفَـانَا حُكَّـامٌ عُجْم، أَعْوَان العُـدْوَان والـظُّلْم، خَلَّفْنَـاهُم يَفْـرَحُـون بِـذَهَب اللُّجْم، ويَمْرَحُون في أَرْسَانٍ يُسَمُّونها الحُكْم[2].

ضَربُونا بِسَيْفٍ لَمْ يَطْبَعُوه، ولَمْ يَمْلِكُوا أَنْ يَرْفَعُوه أَو يَضَعُوه؛

سَـامَحَهُمْ في حُقُوقِ الأَفْـرَاد، وسامَحُـوه في حُقُوق البِـلَاد، ومـا ذَنْبُ السَّيْفِ إذا لم يَسْتَحِ الجَلَّاد[3].

= المثل. وجنت: خرجت عن وعيها. والجواري: السفن الجارية. ونـزت: وثبت. والنوازي: البـوادي. والعوداي: النـوائب. والبغتات: مـا يبغت ويفاجىء، واحدتهـا: بغتـة، بـالفتـح، والمترع: المملوء. والنون: الحوت. يعني الغواصة. والدوارع: لابسـو الدروع، واحدتها: دارعـة يعني السفن المصفحة، وطيـر: يعني طـائـرات حـربيـة، والبيض: أي السفن. والمصارع: الحتوف، واحدها: مصرع، بالفتح.

(١) عوذتك: رقيتك. والوديعة: ما تودعه غيرك ليصونه. والتابوت: الصندوق يحفظ فيـه الشيء. يعني موسى عليه السلام حين خافت عليـه أمه وهـو رضيع من أن تقـع عليه يـد فرعـون مصر فوضعته في تابوت بإيحاء من ربهـا وألقته في النهـر. وصاحب الحـوت: يعني يونس بن متى عليه السلام حين التقمه الحوت. وأسري: سيري، وهو خاص بالليل. واليم: البحر، وآبته، اليم، أي السفينة، والزمام: ما تقاد به الدابة. والـربان: المـلاح وقائـد السفينة. ونـوح، هو نبي الله عليه السلام، وكـان الله قد أمـره بصنع سفينـة يركب فيهـا هو ومن آمن بـه حين كان الطوفان. والمنكوب: من أصابته نكبة، أي مصيبة.

(٢) النفي: الطرد، يشير إلى إبعاد الإنجليز له عن مصر، وكـانوا عنـدها محتلين لهـا. والروعـة: الفزع، والنأي: البعد. واللوعة: الحزن. ومحتدم: مشتد، يشير إلى الحرب العالمية الأولى وكانت قد شبت. وجذلان: فرح، والمنسجم: المنصب. واللجم، بـالضم وبضمتين، جمع لجام، وهو الحديدة توضع في فم الفرس، يعني: القيود التي يفـرضها المستعمـر ويموه بهـا على أنها نظم. والأرسان: جمع رسن، بالتحريك، وهو ما كان من الأزمَّة على الأنف.

(٣) لم يطبعوه: لم يصنعـوه، ويعني بالسيف: أبنـاء الوطن، يعني تسليـطهم أبناء الشعب بعضهم على بعض، ووقفتهم هم وقفة المحرك الآمر، وسامحهم: أي السيف، والمراد من سلطوهم على الشعب. والجلاد: الذي يتولى القتل.

مـاذا تَهْمِسَان؟ كـأنّي أَسْمَعُكمـا تَقُـولان: أيُّ شَيْءٍ بَـدَا لـه على هـذه الضَّاحِيَة؟ ومـاذا شَـجا خَيَـالَه من هَـذه النَّاحِيَـة؟ وأيُّ حُسْن أو طِيب، لِمِلْحٍ يَتَصَبَّبُ في كَثِيب؟ ماءٌ عَكِر، في رَمْلٍ كَدِر، قَنَاةٌ حَمِئَة، كـأنّها قَنـاةٌ صَدِئَـة؛ بَلْ كَأنها وعَبْرَيْها رِمَال، بَعْضُها مُتَماسِـكٌ وبَعْضُها مُنْهَـال، وكَأَنَّ راكِبَ البَحْـرِ مُصْحِر، وكأنّ صاحِبَ البرِّ مُبْحِر[1].

رَوَيْدَكُما، لَيْسَ الكِتَـابُ بِزِينَـةِ جِلْدِه، ولَيْسَ السَّيْفُ بِحِلْيَةِ غِمْدِهِ؛ تِلك التَّنَـائِف، مِن تَارِيخكم صَحَـائِف؛ وهـذه القِفَـار، كُتُبٌ مِنـه وأَسْفَـار؛ وهـذا المَجَـاز هو حَقِيقَـة السِّيَـادة، ووَثِيقَـة الشَّقَـاءِ أو السَّعَـادة؛ خَيْطُ الـرَّقَبَـة، مَن آغْتَصَبه آخْتَصَّ بالغَلَبَة، ووَقَف للأَعْقَاب عَقَبَة؛ ولو سَكَتُّ لَنَطَقَتْ العِبَر، وأَيْنَ العِيَـانُ وأَيْن الخَبَر؛ أُنْـظُرَا تَرَيَـا على العَبْرَيْنِ عِبْـرَةَ الأَيَّام: حُصُـونٌ وخِيَـام، وجُنُودٌ قُعُودٌ وقِيَام؛ جَيْشٌ غَيْرُنـا فُرْسَـانُه وقُـوَّادُه، ونَحْنُ بُعْرَانُـه وعَلَيْنا أَزْوَادُه؛ دِيكٌ على غَيْرِ جِدارِه، خَلاَ له الجَوُّ فَصَـاح؛ وكَلْبٌ في غَير دَارِه، انْفَـرَدَ وَراءَ الدَّارِ بالنُّبَاح[2].

القَنَـاة وما أَدْرَاكُمـا ما القَنَـاة: حَظُّ البلاد الأَغْبَـر، مِن الْتِقَـاءِ الأَبْيَضِ والأَحْمَر؛ بَيْدَ أَنّها أَحْلامُ الأُوَل. وأَمَانِي المَمَالِكِ والدُّوَل. الفَرَاعِنَةُ حَاوَلُوها، والبَطَالِسَة زاولوها، والقَيَاصِرَة تَنَـاوَلُوهـا، والعَرَبُ لأَمْـرٍ ما تَجَـاهَلُوها؛ إلى أَنْ جَـرَى القَدَرُ لِغَـايَتِه. وأَتَى إسْمَـاعِيلُ بـآيَتِه، فـانْفَتَـح البَرزخ بِعِنـايَتِه، والْتقى البَحْرَانِ تَحت رَايَتِه، في جَمْـعٍ من التِّيجَانِ لَمْ يَشْهَـدْه إِكْلِيلُهُ، قَد كـان يُتَوَّجُ

(١) الضاحية: الناحية الظاهرة خارج البلد. وشجا خيـاله: حـزنه، والكثيب: الـرمل المستـطيل المحدوب، والحمئة: التي كثرت فيها الحمـأة، وهي الطين الأسود المنتن فتكدرت وتغيرت رائحة مائها. والقناة الثانية: القضيب من حديد. والعبر: الشاطىء، والمنهال: المتساقط من عل. والمصحر: البارز إلى الصحراء. والبحر: الذي ركب البحر.

(٢) رويـدكما: تمهـلا. والتنائف: جمـع تنوفـة، وهي الفـلاة لا مـاء فيهـا ولا أنيس. والمجـاز: المعبـر، يعني قنـاة السـويس. والعبـر: جمـع عبـرة، بـالكسـر، وهي مـا يعتبـر بـه ويتعظ، والبعران: الإبل، واحدها: بعير. والأزواد: جمع زاد، وهو الطعام يتخذ للسفر. يريد الطعام عامة، يشير إلى جيوش الإنجليز التي آتخذت من شاطىء القناة قواعد لها، وكان كل تموينها من مصر.

فيـه لَو شَهِـدَتْه جُيُـوشُه وأَسَـاطِيلُه؛ ومـا إِسْمَـاعِيـلُ إلا قَيْصَـر، لـو أَنـه وُفِّق، والإِسْكَنْدر، لو لم يُخْفِق؛ تَرَكَ لَكم عِزَّ الغَـد، وكَنْزَ الأَبَـد، والمَنْجَمَ الأَحَد، والوَقْفَ الَّذِي إنْ فاتَ الوَالِدَ فلَنْ يَفُوتَ الوَلَد(١).

مـاذا على هذه الـرِّمال، مِن لَمَحـاتِ جَلَالٍ وجَمـال؟ آرْجِعَا القَهْقَـرَى بالخَيَال، إلى العَصْر الخَالد؛ وآعْرِضَـا في حَدَاثَتِهـا الأَجْيَال؛ تَـرَيَا على هـذا المَكَان وُجُوهاً تَتَمَثَّل، ورِكَاباً تَتَنَقَّل، وتَرَيَا النُّبُوَّةَ تَتَهَلَّل، والآيَاتِ تَتَنَزَّل، وتَريا المَلَكَ يَتَرَجَّل. حتَّى كأنَّكما بالزَّمَان الأَوَّل؛ فها هُنا وُضِع للنُّبوّة المَهْد، وابْتَدأَ بِهـا العَهْد. فـأَقْبَل صـاحِبُ المَقَام، ومُحَـطِّمُ الأَصْنَام، وبَنَّاءُ البَيْت الحَرَام، خَلِيلُ ذي الجَلَالِ والإِكْرَام، هاجَر إلى مِصْرَ أَكْرَمَ مَنْ هاجَـرَ، ثم آنْقَلَبَ منها بأُمِّ العَرَبِ هاجَر(٢).

---

(١) مـا أدراكما: أي مـا هـو مبلغ علميكمـا عنهـا. والأبيض والأحمـر، يعني البحـري المتـوسط والأحمر، والبطالسة: نسبة إى بطليمـوس الأول، أحد قواد الإسكندر الأكبر، وكان الإسكندر حين قسم ولايته إلى دول، وكانت مصر إحداها، عين بطليموس الأول والياً عليها، فاستقـل بحكمها. وكان هو المؤسس لدولة البطالسة بمصر (٣٢٣ ـ ٣٤ق م). وتـداولوهـا: باشـروها ومارسوها، والقياصرة: الحكام الرومانيـون، وكان إليهم حكم مصـر بعد البطالسة (٣٠ق م ـ ٦٢٨م). والعـرب: يعني فتح العـرب لمصر سنـة (٦٣٩م ـ ١٨ هـ). وإسمـاعيـل، هـو آبن إبراهيم أحد خديويي مصر، وكان في عهده افتتاح قنـاة السويس. وقـد مر هـذا. والإكليل: التـاج. وقيصر: أي يوليوس قيصـر أحـد قيـاصـرة الـرومـان وأشهـرهم. والإسكـندر الأكبـر المقدوني. من أعظم الإغريقيين شأناً، وهو الذي غلب الفرس على أمرهم وامتدت فتوحاتـه إلى آسيا.

(٢) ارجعـا القهقرى: أي إرجعـا إلى الوراء، والخـالي: الـذي مضى وذهب. والحـداثـة: سن الشباب. والركاب: الإبل المركوبة، والملك، بفتحتين: واحد الملائكة. والخليـل: إبراهيم عليه السلام. وهاجر: آمرأة إبراهيم التي بَنَى بها مِن مصر.

والثنيات: جمع ثنية، وهي الطريق في الجبل. ويوسف: نبي الله عليه السلام، وكان قد حمل إلى مصر صبياً ليباع فيها. ويرسف في القيد: يمشي فيه رويداً، ولم يكن ثمـة قيد، بـل هي إشارة إلى ما كان عليه من رق. والسيارة: القافلة. وهي التي التقطت يوسف من البئر وحملته إلى مصر تبيعه بها. وقرحته: جرحته. يشير إلى كَيْد امرأة عـزيز مصـر ليوسف، والأسـوة: ما يؤتسى به ويتعزى. والهوى: الهوان. يشير إلى ما ناله يـوسف في مصر من تقـريب الملك له وجعله على خزائن مصر. والشجون: الأحزان، واحدها: شجن، بفتحتين، والحزون: جمع حـزن، بالفتـح، وهو مـا غلظ من الأرض. والسجوف: جمـع سجف، بالكسـر، وهـو أحـد الستـرين المقرونين بينهما فرجة.

ومِنْ هذه الثَّنِيَّات طَلَعَ يُوسُفُ يَرْسُفُ في القَيْـد، وهو للسَّيَّـارة يَسِيرُ مِنْ كَيْدٍ إلى كَيْد؛ قَلْبٌ جَرَحَتْه الإخْوَة، وجَنْبٌ قَرَّحَتْه النِّسْوَة؛ فيَالَكَ يُـوسُفُ مِن أُسْـوَة؛ عِزٌّ بَعْـدَ هُون، ودَوْلَـةٌ بَعد المَنْـزِل الدُّون، وشُـؤُونُ أَقْـدَارٍ وشُجُـون، وسُهُولُ حَيَاةٍ وحُـزُون، وسُجُوفُ القُصُـور بَعد السُّجـون؛ إلى سُجُود الشَّمْسِ لَكَ والقَمَر، والكَوَاكِبِ الأُخَر.

وإلى هذا الفَضَاءِ خَرَجَ مُوسَى حِينَ زَالَ زَوِيلُه. وطَلَبَهُ قتيلُه، وزَيَّن له الفِرَارَ خَلِيلُه؛ فَحَوَتْه هَذه الـرِّمَال فـإذا الأَمنُ سَبِيلُه. واليُمْنُ دَلِيلُه، والسَّلاَمَـة زامِلَتُه والسِّلْمُ زميلُه؛ ولو أَطْلَعه الله على غَيْبِه، لَلَمَس النُّبُـوَّة بَين يَدِه وجَيْبِـه، إلى أن رُفِـع له المَنَـار، واكْتَحَلَ بـالنُّور واقتَبَسَ من النَّـار، وقِيـل لـه كُنْ من الأَحْرَار الأَخْيَار، وارْجِعْ فَسَلِّط الحَقَّ على فِرْعَوْنَ الجَبَّار، فكانَ عليه السَّـلامُ أَوَّلَ مَن اقْتَحَم على الفَـرْدِ جَبَرُوتَـه، وهَتَكَ على المُسْتَبِـدِّ طاغُـوتَـهُ، وخَـطَمَ المتأَلِّهَ وحَطَمَ عَظَمُوتَهُ؛ ماءُ الحـق على لُطْفِه، ظَفِرَ بنَارِ الباطِل على عُنْفِـه؛ ظَهَر العَدْلُ على الحَيْف. وكَسرت العَصَا السَّيْف[1].

وعلى هـذه الأَرض مَشَت السَّمَاءُ الـطَّاهِـرة، والنَّيِّـرَةُ الـزَّاهِـرَة، والآيَـة المُتَظَاهِرة؛ أُمُّ الكَلِمَة، وطَرِيدَة الظَّلَمة؛ سَرَحُوا في عِرْضها؛ يُوسُف حادِيها،

(١) موسى، نبي الله عليه السلام، يشير إلى خروجه من مصر إلى صحراء سينا. وزال زواله: أي زال جانبه فزعاً وذعراً وخوفاً. والقتيل: المقتول، يعني من قتله موسى عليه السلام وكان من غير شيعته. والزاملة: ما يحمل عليها من الإبل. وطاغوته: أي ما كان يعبده من دون الله. وخطمه: ضرب خطمه، أي أنفه. والمتألِّه: المدَّعي الألوهية، يعني فرعون. وحطم: كسر. والعظموت: الكبر والزهو. والحيف: الجور والظلم، والعصا: أي عصا موسى التي تحولت حية والتقمت حيات السحرة، وإذا موسى بهذا يقهر فرعون.
وأم الكلمة: يعني مريم عليها السلام، فلقد حملت بعيسى عليه السلام الذي هو كلمة الله. وسرحوا في عرضها، أي نالوا من عرضها في يسر. ويوسف، هو يوسف النجار، قديس آوى مريم العذراء وصحبها في هجرتها إلى مصر. والكليم: موسى عليه السلام، لأن الله كلمه. فيا لك، على التعجب، والدار، يعني مصر والعرصات: جمع عرصة. بالفتح، وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها. وناويت، أي ناوأت، بمعنى، عاديت، فسهل. ونبوت بالنبي، أي لم يجد اطمئناناً على أرضك: يعني موسى عليه السلام. وحبوت: أعطيت، ولا تنضى: لا تتعب، بالبناء للمجهول فيهما. والمطي: ما يمتطى ويركب من الدواب. . . والقبطي، يريد المصري الذي قتله موسى عليه السلام.

وجِبْـرِيلُ هـادِيها، والقُـدْسُ نادِيهـا، والطَّهـارة أَرْجَـاءُ وادِيهـا؛ وعلى ذِرَاعِهـا مِصْبَاحُ الحِكْمَة، وجَنَاحُ الرَّحْمَة، والإِصْبَاحُ من الظُّلْمَة؛ حتَّى هَبَطَتْ به أَكْرَمَ الأَدِيم، فَنَشَأَ بَيْنَ الحَكِيم والعَلِيم. وتَرَعْرَع حَيْثُ تَرَعْرَع بالأَمْسِ الكَلِيم.

فَيَا لَكِ مِنْ دَار، لَعِبَتْ على عَرَصاتِها الأَقْدَار، نـاوَيْتِ مُوسى القَـرِيب؛ وآوَيْتِ عِيسى الغـريب، نَبَـوْتِ بـالنَّبيّ، وحَبَـوْتِ الأَمْنَ عِيسَى وهـو صَبِيّ، عُذْرُكِ لا تُنْضَى إليه المَطِيّ، فإِنَّما غَضِبْتِ لابْنِك القِبْطِيّ.

ثم ٱنـظُرَا تَرَيَـا إِبِلاً صِعَـابا، وخَيْـلاً عِرَابـا، وتَرَيَـا الرُّعَـاةَ ٱنْقَضُّوا على الوَادِي ذِئَاباً، فأَخَافُوا القُـرَى الآمِنَة، وأَخْـرَجُوا مِن مِصْـر الفَرَاعِنَـة. واسْتَبَدّوا بالمُلْك فِيها آوِنَة[1].

وتَرَيَا الوُحُوشَ الضَّـارِيَة، والجَـوَارِحَ الكاسِـرَة، يَقُودُهـا شَرُّ الأَكَـاسِرة، مَلأَتْ هذه الفِجَاج، وكأَنَّها حَرَجَاتُ السَّاج، أو حَـرَكاتُ الأَمْـوَاج؛ ثم تَدَفَّقتْ تَكْتَسِحُ الدِّيَار، باغِيـةَ السَّيْف طاغِيَـةَ النَّار، تَـدُكُّ الهَيَاكِـلَ والمَعَاقِـل، وتَهْتِكُ العَقَائِدَ والعَقَائِل[2].

وتَرَيَا الإِسْكَنْـدَرَ الكَرِيم، قـد لَمَعَ كـالصَّارِمِ مِنْ هـذا الصَّرِيم؛ يَحْمِـلُ الحَمَلاَتِ النَّجَائِب، ويَفْتَحُ بالكُتْب وبالكَتَائِب[3].

---

(١) العراب من الخيل: خلاف البراذين، وهي غيـر العربيـة. والرعـاة: يعني الهكسوس، الـذين دخلوا مصر بعقب آضمحلال الأسرة الثالثـة عشرة وحكمـوا مصر منـذ سنة (١٦٧٥ ق م) إلى سنة (١٥٨٠ق م).

(٢) الأكاسرة: ملوك الفرس، وقد دخلوا مصر وآستولوا عليها بقيادة قمبيز سنـة (٥٢٥ق.م) وبقوا فيها إلى أن خرجوا منها سنة (٤٨٦ق م). والفجاج، جمع فج، بالفتح، وهو الطريق الـواسع البعيد. والحرجات، جمع: حـرجة، بفتحتين، وهي غيضـة الشجر الملتفـة لا يقدر أحـد أن ينفـذ فيها. والسَّـاج: ضرب من الشجـر يعظم جـداً ويذهب طـولاً وعرضـاً وله ورق كبيـر. والعقائل: السيـدات الخدرات، واحـدتها: عقيلة، يشيـر إلى ما ارتكبـه الفرس من تخـريب وتدمير.

(٣) الإسكندر الأكبر الإغريقي، وله فتوحاته الواسعـة، وقد احتـل مصر بعـد هزيمتـه للفرس سنـة (٣٣٢ق م). في مدينة الفـرما، والصـارم: السيـف القاطـع. والصريم: القـطعة المنعـزلة من معظم الرمل، يعني الفرما. والعجائب: التي لا مثيـل لها. والكتـائب: الجيوش، واحـدتها: كتيبة.

وتَـرْيَا ابنَ العَـاص والصَّحَابـة، مَرُّوا مِن هـذه الأَرْجـاء مَـرَّ السَّحَـابـة؛ يَفْتَحون لِلْحقّ، ويفْتِكُونَ بالرَّق؛ حتَّى أَخْلَوْا القُصُـور من القَيَاصِـرَة، وأَرَاحُوا مِصْرَ الصَّابِرة، مِن صَلَف الجَبَابِرة[1].

وتَرَيا صَلَاح الدِّين يَخْفَى كالبَدْر ويَبْـدو، ويَرُوحُ كالغَيْث ويَغْدُو؛ بُعُوثٌ بلَا عَدَد، ومَدَدٌ إِثْرَ مَدَد، وذَخَائِرُ وعُدَد، وبُشْرَى كُلَّ يَوْمٍ بفُتُوحٍ جُدُد[2].

وتَرَيَا نابليون قَد رَكِبَ طَيْشَه، وأَرْكَبَ الغرَر جَيْشَه؛

وتَرَيَا إبْرَاهِيمَ بنَ عليٍّ مَشْهُورَ الجُزَار، مَوْفُورَ الجِهَاز، مَلَكَ سُورِيَاوضَبَطَ الحِجَاز[3].

وتَـرَيَا إِسْمـاعِيلَ بَعَثَ الحـاشِرِين، وحَشَـدَ الحافِـرِين، وقَرَّبَ المَسَـافَة للمُسَافِرِين؛ غَيَّرَ وجْهَ السَّفَر، فَقِيل: بَلغَ غايَةَ الظَّفَر، وقِيل: وَقَع الحافِرُ فيمـا حَفَر[4].

ثم ٱنْظُرَا اليومَ تَرَيَا القَنَـاةَ في يَدِ القَـوْم، إنْ أَمِنُوا رَكَـزُوها، وإن خـافُوا هَزُّوها[5].

---

(١) ابن العاص: هو عمرو بن العاص فاتح مصر. ويفتكون: يفكـون، أي يخلصون من الأسـر، يعني المصريين وكانوا في أسر الرومان، والرق، بالفتح: جلد رقيق يكتب فيه. يـريد تخلص المصريين صلحاً لا حرباً. والصلف: الكبر والتعالي.

(٢) صـلاح الـدين، هـو يـوسف بن أيـوب (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ) الـذي استقـل بحكم مصـر بعـد رد الصليبيين عن دمياط، وكانت له معهم وقائع مشهورة.

(٣) نـابليون: قـائد فـرنسي معروف، كـان على رأس حملة فرنسيـة كتب لهـا دخـول مصـر سنـة (١٢١٧هـ)، والغـرر: التعريض للهلكـة، وإبراهيم، هـو ابن محمـد علي خـديـوي مصـر. والجزار: القاطع من السيوف، وكانت لإبراهيم حروبه المظفرة في سوريا والحجاز.

(٤) إسماعيل، هو خديوي مصر الذي في عهده كـان افتتاح قنـاة السويس. والحـاشدون: الـذين يجمعون الناس. يشير إلى ما بذل في حفر القناة. ووقع الحافر فيمـا حفر: مثـل يضرب لمن لقي شراً فيما يرجو منه خيراً.

(٥) القناة: الرمح، وفي اللفظ تورية. وركزوها: أقروهـا، وهزوهـا: حركـوها. يـشير إلـى مـا كان بين مصر وشركة القناة من شد وجذب.

«٥»

الحرّية(*)

قُلْ لا أَعْرِف الرِّقّ، وتَقَيَّدْ بالوَاجِب وتَقَيَّدْ بالحق؛ الحُرِّيّة وما هِيَه؟ الحُمَيْرَاء الغالِيَة[١]، فِتَنَةُ القُرُون الخالِيَة، وطَلِبَةُ النُّفُوسِ العالِيَة[٢]؛ غِذَاءُ الطَّبَائِع، ومَادّة الشَّرَائِع، وأُمُّ الوَسَائِل والذَّرَائِع[٣]؛ بِنْتُ العِلْم إذا عَمّ، والخُلُق إذا تَمّ، ورَبِيبَة الصَّبْر الجَمِيل والعَمَل الجَمّ[٤]؛ الجَهْلُ يَئِدُها[٥]، والصَّغائِرُ تُفْسِدُها[٦]، والفُرْقَةُ تُبْعِدُها؛ تَكْبِيرَة الوُجُود، في أُذُنِ المَوْلُود؛ وتَحِيَّة الدُّنْيا لَه إذا وَصَل، وصَيْحَة الحَيَاةِ بِهِ إذا نَصَل[٧]؛ هاتِفٌ مِنْ السَّمَاءِ يَقُولُ لَه: يا ابْنَ آدَم، حَسْبُكَ مِن الأَسْماءِ عَبْدُ الله وسَيِّدُ العَالَم[٨]، وهي القَابِلَةُ التي

(*) قيلت في ذكرى المرحوم مصطفى كامل (باشا) (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) زعيم الحزب الوطني.

(١) الحميراء: تصغير حمراء، يعني التي لا تنال إلا بالدماء.

(٢) الطلبة: بالفتح، ويكسر ثانيها، المطلوب.

(٣) الذرائع: جمع ذريعة، وهي ما يتوصل به إلى الغرض.

(٤) الربيبة: الحاضنة. والجم: الكثير.

(٥) يئدها: يدفنها حية.

(٦) الصغائر: القليل من الذنوب.

(٧) نصل، أي خرج من بطن أمه. والأصل فيه خروج السيف من غمده.

(٨) أي أن تكون عبداً لله لا لغيره.

تَسْتَقْبِله[١]، ثم تَسُرُّهُ وتُسَرْبِلُه[٢]، وهي المَهْدُ والتَّمِيمَة[٣]، والمُرْضِعُ الكَـرِيمَة، المُنْجِبَة كَحَلِيمَة[٤]؛ أَلْبَانُها حَيَاة، وأَحْضَانُها جَنَّات. وأَنْفَاسُها طَيِّبـات؛ العَزِيـزُ مَنْ وُلِدَ بَيْن سَحْرِها ونَحْرهـا، وتَعَلَّق بِصَدْرِهـا، ولَعِبَ على كَتِفها وحِجْـرِها، وتَرَعْرَعَ بَيْن خِدْرِها وسِتْرِها[٦]، ضَجِيعَةُ مُوسَى في التَّابُوت[٧]، وجَاوَرَتْه في دَارِ الطَّاغُوت[٨]، والعَصَا الَّتِي تَوَكَّأَ عَلَيها[٩]، والنَّارِ التي عَشَا إِلَيْها[١٠]، جَبَلَةُ المسيح[١١]، السَّيِّد السَّميح[١٢]، وإِنْجِيلُه، الَّذِي حَارَبَهُ جِيلُه، وسَبِيلُه، الَّذِي جَانَبَهُ قَبِيلُه[١٣]،

---

(١) القابلة: التي تتلقى الولد عند الولادة.

(٢) تسره: تقطع سره، بالضم، وهي الـوقبة التي في وسط البـطن. وتسربله: تلبسـه، السربـال، وهو القميص.

(٣) التميمة: ما يعلق في العنق لدفع العين.

(٤) حليمة: امرأة من بني سعد، وهي التي تولت إرضاع رسول الله ﷺ.

(٥) السحر: الرئة. والنحر: موضع القلادة من الصدر.

(٦) ترعرع: نشأ وشب. والخدر: ستر يعد للمرأة في ناحية البيت.

(٧) الضجيعة: المضاجعة، وهي التي اضطجعت معـه. وموسى: نبي الله عليـه السلام. وكـانت أمـه لما خـافت فتك فـرعون بـه حين ولدتـه وضعته بـإلهام من الله في تـابوت، أي صنـدوق وقـذفت به في النهـر. مؤمنة بـأن الله الذي ألهمهـا هـذا سينجيـه ويخلصـه ويحـرره من رق فرعون. وهذا ما يعنيه شوقي بقوله: إن الحـرية ضجيعته يعني أن الحريـة لزمتـه منذ أن كـان رضيعاً.

(٨) الطاغوت: الطاغي المعتدي، يعني فرعون مصـر، ومجاورة الحـرية لمـوسى، يعني صحبتها إياه وعدم تخليه عنها.

(٩) العصا، هي عصا موسى التي كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمـه، ثم كانت معجـزته حين التقى بسحـرة مصـر حين ألقـوا عصيهم فـإذا هي حيـات، وأوحى إلى مـوسى ربـه: أن إلق عصاك، فإذا هي حية تلقف كل الحيات، وهكذا ضمنت العصا لموسى حريتين: حريـة أولى حين كـان يعتمد عليهـا حياتـه الأولى فلم يسترقـه أحد، وحـرية ثـانيـة حين خلصتـه من رق فرعون.

(١٠) النار، يعني النار التي رآها موسى عليه السلام في التيه، ولما غشيها وأتاها حظي بمنـاداة ربه له: ولو لم يكن موسى عليه السـلام حراً طليقـاً ما غـدا ولا راح. وعشا إليهـا، أي رأها ليـلاً فقصدها، يقال: عشا النار وإليها، إذا رآها ليلاً فقصدها مستغيثاً بها.

(١١) الجبلة: الخلقة التي خلق عليها. والمسيح، هو نبي الله عيسى عليه السلام.

(١٢) السميح: من كان من أهل السماحة، أي الجود والكرم.

(١٣) السبيل: الطريق: يذكر ويؤنث. وجانبه: بعد عنه، يشيـر إلى ما نـادى به المسيـح من حريـة كان مطبـوعاً عليهـا أولاً، ثم نادى بهـا إنجيله، يعني الدعـوة إلى الخلاص، ولكن قـومه لم يستجيبوا له.

طِينَةُ مُحَمَّدٍ عَن نَفْسِه[1]، عَن قَوْمِه[2]، عَن أَمْسِه، عَن يَوْمِه[3]، أَنْسَابٌ عالِية، وأَحْسَابٌ زاكِية[4]، ومُلُوكُ بادِية[5]، لم يَدِنْهُمْ طاغِية[6]، وهِي رُوحُ بيانه[7]، ومُنْحَدَرُ السُّوَرِ عَلى لِسَانه[8]، الحُرِّيّة عَقْدُ المُلْك[9]، وعَهْدُ المَلْك[10]، وسُكَّان الفُلْك[11]، يَدُ القَلَم، على الأُمَم[12]، ومِنْحَةُ الفِكْر، ونَفْحَة الشِّعْرِ، وقَصِيدَة الدَّهْر، لا يُسْتَعْظَمُ فِيها قُرْبَانٍ، ولو كان الخَلِيفة عُثْمَانَ بن عَفَّان[13]، جَنِينٌ يُحْمَلُ به في أَيَّام المِحْنَة، وتَحْتَ أَفْيَاءِ الفِتْنَة[14]، وحِينَ البَغْيُ سِيرَةُ السَّامَّة[15]، والعُدْوان وَتِيرَة العَامَّة[16]، وعِنْدَ تَنَاهِي غَفْلَةِ السَّوَاد[17]، وتَفَاقُم عَبثِ القُوَّاد، وبَين الدَّم المَطْلُول[18]، والسَّيْفِ المَسْلُول،

---

(١) الطينة: الطبيعة، وعن نفسه، أي تميلها نفسه.

(٢) عن قومه، أي ورثها عن قومه.

(٣) عن أمسه، أي عن ماضيه الغابر، كما هي في حاضره.

(٤) الأحساب: ما يعد من مناقب المرء، أو شرف آبائه، واحدها حسب، بفتحتين. والزاكية: الطاهرة.

(٥) بادية: أي مقيمون بالبادية. وهي الصحراء.

(٦) دانه يدنيه: أخضعه وأذله. والطاغية: المستبد. يشير إلى عيشتهم الحرة في البوادي.

(٧) البيان: المنطق الفصيح، يعني كلامه ﷺ، فلقد كانت الدعوة إلى الحرية لحمته وسداه.

(٨) المنحدر: بفتح الدال وكسرها، المكان الذي ينحدر منه الشيء. والسور، أي سور القرآن الكريم، واحدتها: سورة، يعني أن سور القرآن كلها تدعو إلى الحرية.

(٩) العقد: بالفتح: الاتفاق يلتزم به. والملك، بالضم: التملك. يعني أن المتعاقدين يملون عن حرية واختيار.

(١٠) الملك، بالفتح، الملك، بفتح فكسر، أي هي ما يتعهد به الملك في أن تكون لرعيته الحرية، يعني الحكم الدستوري لا الحكم المطلق.

(١١) السكان: ما يوجه السفينة حركة وسكوناً. والفلك، بالضم: السفينة، للمذكر وللمؤنث والوحد والجمع.

(١٢) يد القلم: أي اليد التي تحرك القلم فيقضي بما يشاء على الأمم.

(١٣) فيها، أي في الحرص على الحرية والدفاع عنها. والقربان: كل ما يتقرب به إلى الله عز وجل من ذبيحة وغيرها. يعني ما يضحى به في سبيل الحرية. وعثمان بن عفان: الخليفة الثالث، وقد مات مقتولاً لأنه آثر بعض أقربائه. وفي هذا اعتداء على حرية الآخرين، كما ظن قاتلوه.

(١٤) الأفياء: الظلال. يعني أن الحرية وليدة المحن والفتن.

(١٥) السامة: الخاصة من الناس.

(١٦) الوتيرة: الطريقة المطردة.

(١٧) السواد: معظم الناس، أي حين تبلغ غفلة السواد نهايتها.

(١٨) المطلول: المهدر، على بناء آسم المفعول.

والنَّظْمُ المَحْلُول، وكذلكَ كَان الرُّسُلُ يُولَدُون عِنْـدَ عُمُوم الجَهَـالَة، ويُبْعَثُـون حِينَ طَمُوم الضَّلَالَة[١]؛ فإذا كَمُلَتْ مُدَّتُه. وطَلَعَتْ غُرَّتُهُ[٢]، وسَـطَعَتْ أَسِرَّتُـه[٣] وصَحَّتْ في المَهْـدِ إمْرَتُـه[٤]، بُـدِّلَت الحَـالُ غَيْـرَ الحَـال، وجَـاءَ رِجَـالٌ بَعْـدَ الرِّجَال؛ دِينٌ يَنْفَسِحُ للصَّادِقِ والمُنَافِق، وسُوقٌ يَتَّسِع للكاسِد والنَّافِق[٥]، مَوْلُودٌ حَمْلُهُ قُـرُون، ووَضْعُهُ سِنُـون، وحَدَاثَتُـه أَشْغَالٌ وشُـؤُون، وأَهْـوَالٌ وشُجُـون، فَرَحِمَ الله كُلَّ مَنْ وَطَّأ ومَهَّد، وهَيَّأ وتَعَهَّد، ثُـمَّ آسْتُشْهِدَ قَبْلَ أَنْ يَشْهَد.

إذا أَحْرَزَت الأُمَمُ الحُرِّيَّـة أَتَت السِّيَادَةُ مِنْ نَفْسِهـا، وسَعَت الإِمَارَةُ عَلَى رَأْسِهـا، وبُنِيَت الحَضَارَةُ مِنْ أُسِّهـا؛ فهي الآمِرُ الـوَازِع[٦]، القَلِيلُ المُنَـازِع، النَّبِيلُ المَشَارِب والمَنَـازع[٧]؛ الذي لا يَتَّخِـذُ شِيعَة، ولا صَنِيعَـة، ولا يَزْدَهِي بِخَدِيعَة؛ خازنٌ ساهِـر، وحاسِبٌ مـاهِر؛ دانِقُ الجَمَـاعَة بِـذِمَّةٍ مِنـهُ وأَمَان[٨]، ودِرْهَمُهُم في حِرْزِهِ دِرْهَمَان.

«فيـا لَيْلَى»[٩]، مـاذا مِنْ أَتْـرَاب[١٠] وارَيْتِ التُّـرَاب، وأَخْـدَان أَسلَمْت للدِّيدَان؟ عُمَّالٌ للحَقِّ عُمَّار[١١] كانُوا الشُّمُوسَ والأَقْمَار، فأَصْبَحُـوا على أَفْوَاه الرُّكَّاب والسُّمَّار[١٢] وأَين قَيْسُك المُعْوِل؟[١٣] وَمَجْنُونُك الأَوَّل؟ حَائِط الـحـق

---

(١) الطموم: مصدر، طم الشيء، إذا كثر حتى عظم وعم.
(٢) غرته: أي طلعته، والضمير للجبين الذي شبه الحرية به.
(٣) الأسرة: خطوط الوجه، واحدها: سرار، بكسر أوله وفتحه.
(٤) الإمرة: بالكسر، الإمارة، يعني استوى في مهده، وملك أمره فيه.
(٥) الكاسد: غير الرائج، والنافق: الرائج.
(٦) الوازع: الزاجر الناهي.
(٧) المشارب: الميول والأهواء، واحده: مشرب، بالفتح. والمنازع: المقاصد، واحدها: مفزع، بالفتح، وهو ما تحن إليه وتشتاق.
(٨) الدانق: بفتح النون، وكسرها: سدس الدرهم.
(٩) ليلى: هي ليلى بنت سعد العامرية معشوقة قيسْ بن الملوح (٦٨ هـ) شاعر الغزل، الذي جن بحبها جنوناً دعي به مجنون ليلى. يشبه الحرية بها في وله الناس بها وإقدامهم على الموت في سبيلها.
(١٠) الأتراب: المماثلون في السن، واحدهم: ترب، بالكسر.
(١١) العمار: الذين يحسنون القيام على الشيء، واحدهم: عامر.
(١٢) السمار: المتسامرون، وهم الذين يتحادثون ليلاً، واحدهم: سامر.
(١٣) المعول: الذي يرفع صوته بالبكاء.

الأَطـول، وفـارِسُ الحقيقـة الأَجْـوَل[1]؛ أينَ مُصْـطَفى؟[2] زَيْنُ الشَّبَـاب، ورَيْحَــان الأَحْبَــاب. وأَوَّلُ مَن دَفَــع البَــاب، وأَبْــرَزَ النَّــابَ[3]، وزَأَرَ دُونَ الغَاب؟[4].

(١) الأجول: الأكثر جولات، يقال: جال القوم في الحرب جولة: إذا فروا ثم كروا.
(٢) مصطفى، يعني مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) الذي أرسى قواعد النهضة المصرية.
(٣) الناب: السن بجانب الرباعية، يُذكر ويؤنث، وللإنسان نابان. ويكنى بإبرازها عن الغضبة
(٤) الغاب: الأجمة، وهي موطن الأسد، يريد مصر. والزئير: صوت الأسد.

«٦»

الشمس

سَلْ الشَّمْسَ مَنْ رَفَعها نـاراً، ونَصَبَها مَنـاراً[١]، وضَرَبهـا دِيناراً[٢]، ومَنْ عَلَّقها في الجَوِّ سَاعَة، يَدِبُّ عَقْرَبَاها إلى يَـوم السَّاعـة؟[٣] ومَن ذا الذي آتـاها مِعْـرَاجَها[٤]، وهَـدَاها أَدْراجَهـا[٥]، وأَحلَّها أَبْـرَاجَها[٦]، ونَقَّـلَ في سَماءِ الـدُّنْيا سِـرَاجَها؟ ومَن الـذي وَكَّلَها بهـذه الكُرَة[٧]، وشَغَلَهـا بهذه الـدَّسْكَـرَة[٨]، حتى اتَّخَـذَتْها مَجَـرَّ ذَيْلِهـا[٩]، وتَصَـرَّفَتْ بِنهـارهـا ولَيْلهـا[١٠]؛ تَنْهَضُ في السَّمـاءَ مستملحــة[١١]، وتَمْشي على الأَرض مُصْلِحَـة، وتَغْـدُو مُنْجِحَة، وتَـرُوحُ

---

(١) نصبها: أقامها. والمنار: منبعث النور.

(٢) ضربها: صاغها. والدينار: نقد ذهب مستدير، شبه قرص به.

(٣) العقـرب للساعـة، معروف: وهـو تلك الإبرة المتحـركة، وثمـة عقربـان، أحدهمـا يشير إلى الساعات في تحركه. والآخر يشير إلى الدقائق في تحركه، شبه الليل والنهـار في تعاقبهمـا بعقربي الساعة.

(٤) المعراج: المصعد والسلم، يعني ما عرجت عليه حتى استوت في السماء.

(٥) الأدراج: السبل والطرق، واحدها: درج، بفتحتين، يعني مسارها.

(٦) الأبراج: بروج السماء الأثنا عشر، يعني المنازل التي تغزلها الشمس على مدار السنة.

(٧) الكرة، يعني الكرة الأرضية. ووكلها بها: أسلمها إليها.

(٨) الدسكرة: الأرض المستوية، يعني الأرض.

(٩) ذيلها: يعني شعاعها.

(١٠) بنهارها وليلها: أي بنهار الحرة الأرضية وليلها.

(١١) مستملحة: أي مليحة حسنة.

مُرْجِحَة[1] ؛ كُلُّ إيَاة حَيَاة[2] أو ائْتِنَافُ حَياة[3] ، وكُلُّ شُعَاع صانِعُ صَنَاع[4] ، وكُلُّ رَائِد، مالٌ فائِد[5]، وخَيْرٌ زَائِد؛ هيَ المِصْبَاحُ الأَنْوَر، والمِغْزَل الأَدْوَر[6]، والمِرْجَلُ الأَزْهَر[7]، والصَّبَّاغُ الأمْهَر[8]، والرَّاوُوق الأَطْهَر[9]، والطَّبِيب الأَقْدَر الأَشْهَر.

الزَّمانُ هي سَبَبُ حُصُوله[10]، ومُنْشَعَبُ فُروعِهِ وأُصُولِه[11]، وكِتابُه بأَجْزائه وفصوله؛ وُلِدَ على ظَهْرِها، ولَعِبَ على حِجْرِها، وشابَ في طاعتها وبِرِّها؛ لولاها ما آتَّسَقَتْ أيَّامُه[12]، ولا آنْتَظمتْ شُهُورُه، وأَعوامُه، ولا آخْتَلف نُورُه وظَلامُه؛ ذَهَبُ الأَصِيلِ مِن مَنَاجِمها[13]، والشَّفَقُ يَسِيلُ مِنْ مَحَاجِمِها[14]؛ تَحَطَّمَت القُرُونُ على قَرْنِها[15]، ولم يَعْلُ تَطَاوُلُ السِّنِينَ بِسِنِّها[16]، ولم يَمْحُ التَّقَادُم لَمْحةَ حُسْنِها[17]؛ أَتَتْ دُونَها الأَيَّامُ وهي كَعَاب[18]، في غَرْب الشَّبَاب[19]،

---

(١) مرجحة: أي رجحت غيرها.
(٢) الإياة: ضوء الشمس وشعاعها.
(٣) ائتناف: استئناف.
(٤) صناع: ماهر في صناعته.
(٥) الرائد: من يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الماء. والفائد: الثابت.
(٦) الأدور: الأكثر دوراناً، أي الأكثر غزلاً.
(٧) المرجل: القدر، بالكسر. والأزهر، الصافي المشرق المضيء.
(٨) الصباغ: الذي يصبغ الثياب ويلونها، وكذا تفعل الشمس فيما على وجه الأرض.
(٩) الراووق: المصفاة، والأطهر: الأكثر نقاء، يعني الأكثر تنقية. وهذا بفعلها في بعض الجراثيم.
(١٠) يعني حدوث الليل والنهار اللذين بهما يحسب الزمان.
(١١) المنشعب: ما تفرقت عنه الأشياء وانتشرت.
(١٢) اتسقت: انتظمت.
(١٣) الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس للغروب. وذهبه الأصيل، يعني شعاع الشمس وقت الأصيل الذي يشبه الذهب صفرة. والمناجم: جمع منجم، بالفتح، وهو مكان وجود الذهب والفضة ونحوهما في الأرض.
(١٤) الشفق: حمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس، وتستمر من الغروب إلى قبيل العشاء تقريباً، والمحاجم: جمع محجم، وهو القارورة التي يجمع فيها دم الحجامة.
(١٥) القرون، جمع قرن، بالفتح، وهو مائة سنة: وقرن الشمس: أول ما يبزغ منها عند طلوعها.
(١٦) لم يعل بسنها، أي لم يجعله عالياً، يعني قد بدا عليه الكبر والهرم، وتطاول السنين: طولها.
(١٧) لم يمح: لم يزل، يقال: محا الشيء يمحوه، إذا ذهب بأثره، والتقادم: القدم، بكسر ففتح. واللمحة: ما يبدو لك وتراه.
(١٨) الكعاب: التي نهد ثديها، وهذا أول شبابها. (١٩) غرب الشباب: حدته ونشاطه.

تُصْبِحُ تَبْرزُ من حِجَاب، وتُمْسِي تَتَوارَى بِحِجَاب؛ طالما رَدَّتْ الغِرْبَانَ حَمَائِم[1]، ونَسَجتْ الثَّلاث العَمَائِم[2]، وغَزَلتْ الأكْفَان، لِحَيٍّ فَانٍ[3]، وطَلَعتْ على عَزَبٍ وغَربَتْ على بَانٍ[4]، قامَتْ على غَيرِ قَدَم، حتى طال عليها القِدَم، وقيل: ما لهذه عَدَم، كَلَّا لتَخِرَّنَّ عِمَادا[5]، ولتَذْهَبنَّ رَمَادا، ولَيَبْعَثَنَّ الله جَمَادا[6].

(١) الغربان: جمع غراب، طائر معروف، ويضرب به المثل في السواد، ويقال: دون هذا شيب الغراب، أي إنه لا يبدو عليه الشيب فيبيض شعره. والحمائم: جمع حمامة، والغالب على ريشه البياض، جعل الغربان مثلاً للشباب والحمائم مثلاً للشيب.

(٢) العمائم: ما يلف على الرأس، واحدتها: عمامة، يعني شعر الرأس. ويعني بالعمائم الثلاث: المراحل التي يمر بها شعر الرأس في أطوار العمر الثلاثة.

(٣) فان: أي فاني، أي هالك، فحذفت الياء.

(٤) والعزب: من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة، ويقال: امرأة عزبة. وبان، أي باني، وهو من بني بآمرأة، أي تزوجها، وحذفت الياء.

(٥) لتخرُّن: لتسقطن، والعماد: كل ما رفع شيئاً وحمله.

(٦) يشير إلى يوم البعث يوم يبعث الله الموتى.

«٧»

الموت

رَاكِبَ الأَعْـوَادِ إلى أَيْن؟[١] يا بُعْـدَ غايَـةِ البَيْن[٢]، ويا قُـرْبَ المِيـلَادِ من الحَيْن[٣]؛ وَيْحَ قَوْمِك! هل آنْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِك[٤]، ولَمَسُوا عِبْرَةَ الدَّهْرِ بِيَوْمِك؟[٥] حَمَلُوكَ على حَدْباءَ[٦]، يَقْعُد الأَبناءُ منها مَقْعَدَ الآبـاءَ، هي أَعدلُ إِذْ تَضَـعُ من حَوَّاء[٧]، تُلْقِي حَمْلَها فـإذا المَلِكُ والسُّوقَـةُ سَوَاء؛ حَقِيبَـةُ المَنِيَّة كُـلَّ يَوْمٍ في رِكَاب[٨]، مِنْ مَنَاكِبَ[٩] ورِقَاب، تَحْمِل الشَّيبَ والشَّبَـاب، إلى رَحَى البِلى في اليَبَـاب[١٠]، فَيَدُورُ عليهم الـدُّولاب[١١]، فـإِذا هم حَصَى وتُـرَاب؛ ومِن عَجَبٍ يَعْدِلُونَها بِكَ إلى السَّبِيل[١٢]، وما هي لعَمْـرُ أَبِيك إلا الـدَّلِيل، في مَـوْكِبٍ غَيْرِ

(١) الأعواد: جمع عود، وهو الخشبة صغيرة كانت أم كبيرة، يعني النعش، وهو سرير يحمل عليه الميت، وهو من أعواد من خشب.
(٢) البين: الفراق والانفصال.
(٣) الحين: الهلاك.
(٤) ويح: كلمة ترحم وتوجع. وانتبهوا، أي اتعظوا. ومن نومك: أي من موتك.
(٥) العبرة: العظة.
(٦) الحدباء: النعش.
(٧) هي، أي الحدباء، وتضع: تلقي. وحواء، أي امرأة.
(٨) الركاب: ما يوضع فيه الرحل.
(٩) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس العضد والكتف.
(١٠) الرحى: الأداة التي يطحن بها، تكتب بالألف وبالياء. والبلى: الفناء، واليباب: الخلاء لا شيء فيه.
(١١) الدولاب: الآلة التي تدار.
(١٢) يعدلونها: أي يوجهونها. والسبيل: الطريق، يعني الطريق إلى العبر.

ذي صَوْت، أَضْفَى عليه جلالَهُ الموت[1]؛ أَنْتَ فيه جِدٌّ في لَعِب، وصِدْقٌ في كَذِب[2]؛ لكَ فيه عُلُوُّ المَتْبُوعِ في التَّبَع[3]، واللِّواءُ في الخَمِيس والخَطِيبُ في الْجُمَع[4]، بَيْدَ أَن ذلك لا يَمنَعُك من الأَرض[5]، ولا يَنْفَعُك يومَ العَرْض[6]، لستَ والله صاحِبَ الآخِرة[7]، وإن كنتَ صاحبَ الجِنَازة الفاخرة؛ حتى تُشَيِّعَ بِيَتِيم بَعدك مُضَيَّع، أو بائِس مِن وَرائك يائِس. أَو وَطَنٍ يَبْكِيكَ عُقَلاؤه، ويَضِجُّ عليكَ فُضَلاؤه، ويَمْشِي بِنُورِك أَبناؤه، ويُضِيءُ حُفْرَتَكَ ثَنَاؤه[8]، انظر ـ رَحِمك الله ـ هل تَرى غيْرَ باكٍ كَضَاحِك المُزْن[9]،ليس وراءَ دَمْعِه حُزْن؟ أَو وارثٍ مَشْغُولٍ بِما مَلَك، أو فُضُوليٍّ يَسْأَلُ كَمْ تَرك[10]؟ زُخْرُفُ جِنَازَة، ويَنْفَضُّ دونَ المَفَازَة[11]، وضَجَّةُ الخُروج من الدُّنْيا وزُورِها، وآخِر عَهْدِكَ بِبَاطِل الحَياة وغُرُورِها، ولو أَطْلَلْتَ على فانٍ طالَما حَمَلَك[12]، وباطِلٍ بالأَمْسِ شَغَلَك، وقَلِيلِ مَتَاعٍ قَتَلك، ثم لَمْ يَبْقَ لك، لم تَرَ غَيْرَ حُلْمٍ بُتِر[13]، ومَلْعَبِ سُتِر، وماءٍ عُبِر[14]، وظِلٍّ هُجِر، ومالٍ خُسِر، ووَارِثٍ مُنْشَمِر[15]؛ يَسِيرون بك إلى

(١) أضفى عليه: أفاض عليه.
(٢) الأولى لعب في جد، وكذب في صدق، يعني بكليهما الدنيا والآخرة، فالأولى لعب، والثانية صدق.
(٣) فيه، أي في المركب، والمنبع: التابع، للواحد والجمع.
(٤) اللواء: العلم. والخميس: الجيش الجرار، سمي بذلك لأنه خمس فرق. والجمع، أي أيام الجمعة حيث تكون ثمة صلاة جامعة تسبقها خطبة.
(٥) بيد: اسم بمعنى: غير، ملازم للإضافة إلى (أن) ومعموليها. ومن الأرض، أي من أن ندفن في الأرض.
(٦) يوم العرض، أي يوم يعرض الناس على ربهم بعد البعث.
(٧) الآخرة، أي ما بعد البعث، أي إنك لا تملك عندها شيئاً.
(٨) أي إنك لا تجد في أخراك يتيماً يشيعك، ولا بائساً من ورائك، يبكي ما فقده بفقدك ولا وطناً يبكيك عقلاؤه، أو يصبح جزعاً فضلاؤه، أو يهتدي بهديك أبناؤه، أو يضيء قبرك ثناؤه عليك.
(٩) المزن: السحاب يحمل الماء، ويقال: ضحك السحاب، إذا برق وتلألأ.
(١٠) الفضولي، من الرجال: المنشغل بالفضول، أي الأمور التي لا تعنيه.
(١١) المفازة: الصحراء، يعني حيث المقابر.
(١٢) أطللت: أشرفت.
(١٣) بقر: قطع، بالبناء للمجهول فيهما.
(١٤) ماء، أي نهر أو بحر، وعبر: قطع من شاطىء إلى شاطىء.
(١٥) منشمر: أي قد جد وسعى.

المُنْفَرَق[١]، وسَوَاءِ الطُّرُق[٢]؛ ويأخذون بك ناحيَةَ الحَقِّ، وسَبِيلَ الخَلْق، وقَصَبَةَ السَّبْق[٣]؛ هُوَّةُ البِلى، وغَمْرَةُ الفَلا[٤]؛ والمِيعَاد، ومَدِينَةُ عاد[٥]، وعَرَصَاتُ المعَاد[٦]، والبَلَدُ الذي ابْيَضَّت فيه الأَكْبَاد[٧]، وخُلِّفَتْ بِظَاهِره الأَحْقَاد، وصَحَا الفُؤَاد، عن الأَمْوال والأولاد؛ كُلُّ مَكانٍ فيه مَضْجَع، وكُلُّ زَمَان فيه رُقَاد، ثُم إذا أَنتَ بِبَيْتٍ، لا ينزلُه إلا مَيْت: اخْتَطَّهُ الباطِلُ وبَنَاه، لِنُزُول الحَقّ وسُكْناه؛ كُلُّ حَجَرٍ فِيه مِنْ جِدَار، مُشَاعٌ بَين الدَّار والدَّار؛ حتى إذا أَطْرَق الجَمْع[٨]، وأُطْلِق الدَّمْع، وَفَرِق البَصَرُ والسَّمْع[٩]؛ قُذِفَ ما في السَّرير[١٠] فتَلَقَّفَه الحَفِير[١١]، ووُكِلْتَ لِمُنْكَرٍ ونَكِير[١٢]، لا بَلْ لِرَحْمَة المَلِك القَدِير.

فيا عَبْدَ المَال، أَضَرَّكَ أَنَّك عُتِقْت؟ ويا أَسِيرَ الآمال، أما سَرَّكَ أَنَّك أُطْلِقْت؟ ويا كِثيرَ التَّحَوُّل والتَّقَلُّب، قَلِّبْ إنْ اسْتَطَعْتَ جَنْبَيْك؛ ويا مُدِيمَ التَّطَلُّعِ والتَّطَلُّب، آطْلُب من البِلى نُورَ عَيْنَيْك؛ ويا مُزَحْزِح الصُّمّ الصِّلَاب زَحْزِحْ عن رأْسِكَ هذه الظُّلْمة[١٣]؛ ويا فاتِحَ المَغَالِق الصِّعَاب[١٤]، افتَحْ لَكَ اليومَ ثُلْمَة[١٥]. كأَنِّي والله بالدَّهْر وقد خَلَا، وبالمَحْزُون وقَدْ سَلَا، وكأَنِّي بِكَ

---

(١) المنفرق: حيث الافتراق.
(٢) سواء الطرق: أوساطها حيث يسير الناس.
(٣) قصبة السبق: القصبة التي توضع في آخر الحلبة فمن سبق أخذها.
(٤) الفلا: جمع فلاة، وهي الأرض الواسعة المقفرة، وغمرتها: شدتها.
(٥) عاد: جد قديم، ويضرب به المثل في كل ما أتى عليه الدهر.
(٦) العرصات: جمع عرصة، وهي البقعة الواسعة.
(٧) يكنى ببياض الأكباد عن خلوها من الأحقاد.
(٨) أطرق الجمع، أقاموا رؤوسهم إلى صدورهم وسكتوا.
(٩) فرق: جزع.
(١٠) السرير: النعش.
(١١) الحفير: القبر المحفور.
(١٢) منكر ونكير: ملكان، يتلقيان الميت في قبره يسألانه.
(١٣) الصم: جمع أصم، وهو الصلب الصامت، والهلوب الشديدة الجامدة. يريد الأحجار الضخمة القوية.
(١٤) المغالق: جمع مغلق، بالكسر، وهو ما يغلق به الباب.
(١٥) الثلمة: الشق.

وقد فَرَغَ مِنكَ الثَّرَى. وقـامَتْ عَنْكَ الـرَّحَى[1]؛ فإذا أَنتَ عِـظَامٌ، كما اخْتُـرِطَ العُنْقُود[2]؛ ثُم إذا أَنت رَغَامٌ[3]، جَفَّ الماءُ وذَهَبَ العُود.

(١) الرحى: الأداة التي يطحن بهـا، وهي ججران مستـديران يـوضع أحـدهما على الآخـر ويدار الأعلى على الأسفل. وقامت عنك، أي فرغت من طحنك.
(٢) اخترط العنقود، أي وضع في فم الآكل وانفرط عرجونه عارياً من حبه.
(٣) الرغام: التراب.

«٨»

دعاء(*)

اللَّهُمَّ قـاهِرَ القَيَـاصِر، ومُـذِلَّ الجَبَابِـر، وناصِـرَ مَنْ لا لَه نـاصِـر؛ رُكْنَ الضَّعِيف ومـادَّة قِوَاه، ومُلْهِمَ القَـوِيّ خَشْيَتَهُ وتَقْـواه، ومَنْ لا يَحْكُم بَين عِبَادِهِ سِوَاه؛ هَذِه كِنانَتُك فَزِع إِليك بَنُوها[1]، وهُرِعَ إِليك ساكِنُوها[2]؛ هِلالاً وصَلِيباً، بَعِيداً وقَرِيبا، شُبَّاناً وشِيبا، نَجِيبَةً ونَجِيبا[3]؛ مُسْتَبِقِينَ إلى كَنَائِسَك المُكَرَّمة[4]، التي رفعتـهـا لِقُدْسِـك أَعْتَابـاً، مُيَمِّمين مَساجِـدَك المُعـظَّمـة، التي شَـرعْتَهـا لِكَـرَمِـك أَبْـوابـاً؛ نَسْـأَلـك فيهـا بِعيسى رُوح الحَقّ، ومُحمَّـدٍ نَبيِّ الصِّـدْق،

(*) مع انتهاء الحرب العالمية سنة (١٩١٩م) ذهب إلى دار المنـدوب البريـطاني بمصر ثـلاثة من زعماء مصر على رأسهم سعد زغلول مفوضون عن الشعب المصري لمـطالبة انجلتـرا بالـوفاء بعهـدها الذي قطعته على نفسها بالجلاء عن مصر بعـد أن تضع الحـرب أوزارهـا، وأبت انجلترا أن تفي بما وعدت. عندها هب الشعب المصري هبته، وإذ الإنجليز يلقون تبعة هـذا على سعد زغلول ومن حوله، وإذا هم ينفونهم، ثم يعودون فيفرجـون عنهم، وكان همّ هؤلاء الزعماء أن تتاح لهم الفرصة ليمثلوا أمام عصبة الأمم، التي كان من مبادئها النظر في ظلامات الشعوب. وبقي وفد مصر في فرساي حيث كان مقر عصبة الأمم، يـطرق كل بـاب لينفذ إلى عصبة الأمم لعرض مظلمته.

عندها وضع شوقي هذا الدعاء ليدعو به المصريون ربهم كي يحقق لوفد مصر أمنيته.

(١) الكنانة: جعبة النبل، وبها سميت مصر على المجاز.

(٢) هرع: أسرع.

(٣) النجيب: الفاضل على مثله.

(٤) مستبقون: يسابق بعضهم بعضاً.

وبِمُوسى الهارِب من الـرِّق[1]؛ كما نَسـأَلك بـالشَّهْر الأَبـرِّ والصَّائِميـه[2]، ولَيْلهِ الأَغرِّ والقائِميه[3]، وبهذهِ الصَّلاةِ العامَّةِ مِن أَقباط الـوادي ومُسْلميه: أن تُعـزَّنا بالعِتْق إلَّا من وَلاَئِك[4]، ولا تُذِلَّنا بـالرِّقّ لِغيـر آلائِك[5]، ولا تَحْمِلْنـا على غَيْرِ حُكْمِـك وآسْتِعْـلاَئِـك[6] اللَّهم إنَّ المـلأ مِنَّـا ومنهم قـد تَـدَاعَـوْا إلى الخُـطَّة الفاصلة[7]، والكَلِمْة الفاصِلة، في قَضِيَّتنا العادِلة، فآتِنا اللَّهُم حُقُـوقَنا كـاملة؛ وآجْعـل وَفْدَنـا في دارِهمْ هو وفـدَك، وجُنْدَنـا الأَعْـزَل إلَّا مِن الحَقِّ جُنْـدَك، وقَلِّده اللَّهُمَّ التَّوْفِيق والتَّسْدِيد، وآعْصِمْهُ في رُكْنِك الشَّدِيد، أَقِم نُوَّابنـا المَقَامَ المَحْمُود، وظَلِّلْهُمْ بِظِلِّك المَمْدُود، وكُنْ أَنْت الوَكِيلَ عَنَّا تَوْكِيلاً غَيْرَ مَحْدُود، سُبْحَانك لا يُحَدّ لك كَرَمٌ ولا جُود، ويُـرَدُّ إليك الأَمْـرُ كلُّهُ وأَمرُك غَيْـرُ مَرْدُود؛ وآجْعَل القوم مُحَـالِفينا ولا تَجعلهم مُخَـالِفينا، واحْمِـل أَهْلَ الـرَّأْي فيهم على رَأْيك فِينا. اللَّهم تاجُنا مِنْك نَطْلُبه، وعَرْشُنا إليك نَخْطُبه[8]، وآسْتِقْـلاَلُنا التَّامُّ بكَ نَسْتَوْجِبُه[9]؛ فقَلِّدْنا زِمامَنَا[10] ووَلِّنا أَحْكَامَنـا، وآجْعَل الحَقَّ إِمَـامَنا، وتَمِّمْ لنـا الفَرَح، بـالتي ما بَعـدها مُقْتَـرح، ولا وَراءَها مُطَّرَح[11]؛ ولا تَجْعَلنا اللَّهمَّ باغِين ولا عادِين، وآكتُبْنا في الأَرْض من المُصْلِحين، غير المُفْسـدين فيها ولا الضالين. . . آمِين.

---

(١) الرق: العبودية، يعني حكم فرعون.
(٢) الشهر الأبر: يعني رمضان شهر الصيام. وكان هذا الدعاء دعي به يـوم الجمعة، الـرابع عشـر من رمضان سنة (١٣٣٨ هـ) أي الرابع من يونيه سنة (١٩٢٠م) دعا بـه المسلمون ربهم بعـد الانتهاء من صلاة الجمعة.
(٣) الأغر: المشهور بتـراتيله وأدعيته وقـائمـوه، أي الذين يقومون فيه مصلين.
(٤) العتق: أي الخلاص من الاحتلال الإنجليزي. ولاؤك، أي حمايتك لنا ونصرك.
(٥) الآلاء: النعم، واحدها: إلى، بكسر أوله وفتحه وفتح ثانيه.
(٦) الاستعلاء: العلو والرفعة.
(٧) تداعوا: دعا بعضهم بعضاً.
(٨) تخطبه: نسألك أن تعطينا إياه.
(٩) نستوجبه: أي يكون حقاً واجباً لنا.
(١٠) الزمام: ما تقاد به الدابة، يكون في يد قائدها.
(١١) المقترح: ما نقترحه ونسأله. والمطرح: المطروح الملقى بعيداً، أي تمم لنا ما لا نسأل غيـره كما لا ننزل عن شيء منه.

«٩»

الشّباب

الشَّبَـابُ أيَّامُ آذَار[١]، ودولـة خَلْع العِـذَار[٢]، وأَعِنَّـةِ الأَوْطَـار[٣]، ولَيْلَةُ العُرْسِ في هَذه الـدَّار[٤]؛ سِنَةٌ كـالطَّيْفِ سُـرَاها[٥]، وكقُبْلَةِ الخَلْسِ في حُلْمِ كَرَاها[٦]، ونَشْـوَةٌ يَتَلَفَّت المُسْتَفِيقُ لا يَرَاهـا[٧]، وجِنَّةٌ لَـو خُيِّر المُقْبِـل بالعَقْـلِ اشْتَرَاها[٨]، العِشْقُ في غَيْر جَنَاحِـه[٩]، طائـرٌ لا يَنْهضُ به جَنَـاح؛ والكَأْسُ مِن غير رَاحِه غَبيَّة السَّاقِي بَلِيدةُ الرَّاح[١٠]؛ والمالُ في غَيْر خزانته غَرِيب، ويَتحوَّلُ

(١) آذار: اسم لشهر مارس بالفارسية، وهو شهر الربيع، حيث تزدهر الأزهـار، تشبه أيـام الشباب بأيامه.

(٢) العذار: ما سال من اللجام على خـد الفرس. ويقـال لمن انهمك في الغي ولم يستـح: خلع فلان عذاره.

(٣) الأعنة: جمع عنان، بكسر أوله، وهو سير اللجام الـذي تمسك بـه الدابـة. والأوطار: جمـع وطر، بفتحتين، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة. وإلقاء هـذه الأعنة الضـابطة يعني الاستـرسال على غير هدى في تحقيق المآرب.

(٤) هذه الدار: أي الدنيا.

(٥) السنة: الأخذ في النعاس. والطيف: الخيـال الطائف، وهـو ما يـراه النائم، والسـرى: السير ليلاً.

(٦) الخلس: الاستـلاب في نهزة ومخـاتلة، وكراهـا، أي مـا يصحب تلك السنـة من نـوم. أي كالقبلة المختلسة في هذا الحلم، الذي يصحب تلك السنة، وما أقصرها وأقصره.

(٧) النشوة: سكر أول السكر. والمستفيق: الذي يعود إلى طبيعته بعد صحوته من نشوته.

(٨) الجنة، بالكسر، الجنون، والمقبل، يريد المفيق من جنونه.

(٩) جناحه: جانبه.

(١٠) غبية الساقي، أي ساقيها لا دراية له بإدارتها، والـراح: الخمر. وبليـدة الراح، أي لا نشـوة فيها.

عَن قَرِيب؛ رُؤْيا الوَارِث في نَوْمِه، وشُغْلُه في يَوْمِه؛ ومِلْكُ يَدِه، في غَدِه؛ السُّلْطَانُ والدَّوْلة، والإمْكَان والصَّوْلَة[1]، والمُلْكُ وكُلُّ ما حَوْلَه؛ نِعَمٌ إذا لم تُحْرَز في الشَّبَاب فما هي في الحِرْز الحَرِيز[2]، ودُوَلٌ إذا لم تَعْتَزَّ بِهِ فَلَيْسَت في الذُّرَا العَزِيز[3]؛ ولَذَّاتٌ إذا لم يَشْهَدْها غادَتْها حَسْرةُ الفَوْت، وراوَحَتْها فِكْرَةُ المَوْت[4].

أَرْوَعُ الشُّهْرة ما طَار في سمَائِه، وأَمْتَعُ الصِّيت ما سار تَحت لِوَائِه، وأَحْسَنُ الثَّناء ما أَتَى في أَثْنائه، ورَفَّ على قَشِيبِ رِدائه[5]؛ في مَطَالِعه يَرُوع النُّبُوغ، كَما تَرُوعُ الشَّمْسُ في البُزُوغ، أَو الهِلَالُ الغُلَام في البُلوغ[6].

فيا ناهِبَ شَبَابِه، قاعِداً للتَّجْر[7] بِبَابِه، يُسْرِفُ في الرَّحِيق وحَبَابِه[8]، ويُتْلِفُ الصِّبَا بين صَبَابَتِه، وأَحْبَابِه[9]، أَفِقْ! تلك دِنَان، لا تَقْوَى على الإدْمَان[10]، ولا يَملؤُها مَرَّتَين الزَّمان، كَرْمٌ لا يُوجدُ في الجِنَان[11] ولا يَنْبُت في مالَقَة ولا شَمْبَان[12]، عَنَاقِيدُهُ مُخْتَضَرَة الثِّمار[13]، مُخْتَصَرَةُ الأَعْمَار، بَرِيئَة الخَمْر من الخُمَار[14]؛ حَلَبُها الأَفْراح[15]، وجَلَبُها المِرَاح[16]، وهي فارِضيَّة

(١) الصولة: السطوة.
(٢) الحرز: الوعاء يحفظ فيه الشيء. والحريز: الحصين.
(٣) الذرا: الكنف.
(٤) غادتها: باكرتها. وراوحتها: أتتها في الرواح، وهو الوقت من زوال الشمس إلى الليل.
(٥) رف: رفرف، والقشيب: الجديد.
(٦) يروع: يحسن ويعجب. وبزوغ الشمس: بدء طلوعها.
(٧) التجر: التجارة.
(٨) الرحيق: الخمر. والحباب: الفقاقيع تظهر على وجه الشراب.
(٩) الصبا: بكسر أوله، الصغر والحداثة، والصبابة: الاشتياق.
(١٠) الدنان: جمع دن، بالفتح، وهو وعاء ضخم للخمر.
(١١) الكرم: العنب، ومنه تتخذ الخمر، والجنان: جمع جنة، بالفتح، وهي البستان.
(١٢) مالقة: مدينة في أسبانيا. مشهورة بإنتاج صنف من النبيذ ينسب إليها. وشمبان: مقاطعة في فرنسا، ينسب إليها نوع من الخمر.
(١٣) مختضرة: تؤكل قبل إدراكها.
(١٤) الخمار: ما يصيب شارب الخمر من ألم وصداع.
(١٥) الحلب: اللبن، تسمية بالمصدر.
(١٦) الجلب: الجلبة، والمراح: المرح.

الراح[1]، لم تَطَأْها الأَقْدام ولم تَمْسَسْها الرَّاح[2]؛ فلا تَعُبَّ الرَّاقُود[3]، وآشْرَبْهُ نُغْبَةً نغْبَةً[4]، ولا تَخْتَرِطْ العُنُقود[5]، وكُلْهُ حَبَّة حَبَّة.

---

(١) فارضية: نسبة إلى عمر بن الفارض (٥٧٦ ـ ٦٣٢هـ) شاعر متصوف، تردد ذكر الراح في شعره، وهي راح الربانيين المدلهين بحب الرب.
(٢) يعني راحاً ربانية.
(٣) الراقود: دن كبير عميق للخمر.
(٤) النغبة: الجرعة.
(٥) اختراط العنقود: أن تضعه في فمك وتنتزع عرجونه عارياً من حبه.

«١٠»

الخير

شَجَرةٌ مَرْآهـا جَمِيل، وظِلُّهـا مَقِيل[١]، وأَعَـالِيها هَـدِيل[٢]، وهي مُـذَلَّلَةُ السَّبِيل؛ الطَّيْرُ على جَوانِبِها تَمِيل، والناسُ في ظِلِّها الظَّلِيل؛ فأَمّا الطَّيْر فتَنْزِلُ مُجْمِلات[٣]، وترحَلُ غيرَ مُحَمَّلات، تَسْقُط مُشْفقات، وتَلْقُطُ مُتَرَفِّقات، وتَشْدُو بشُكْرِ الصَّنِيعِ مُنْطَلِقات[٤]؛ وأَما النَّاسُ فـلا يَتَّئِدُون في الثَّمـرة[٥]، ولا يُرَفِّهُـون عن الشَّجْـرة[٦]؛ يَهُزُّون أُصُـولَهـا بِعُنْف، ويَنفُضُـون فُـرُوعَهـا بِغَيـرِ لُـطْف[٧]؛ يُسَاقِطُون الجَنَى[٧]، بطَرَف الـعصـا، ويَسْتَنْـزِلون الثَّمـر بِرَمْي الحَجَـر؛ يَلُمُّون ويَلُومُون[٨] ويَطْعَمون ويَطْعنون، ويَلْعَقون، ويَلْعنـون؛ يَجْنُون الثَّمَـر؛ ويَلْحُون الشجر[٩].

---

(١) مقيل: يقال فيه، أي ينام وسط النهار.

(٢) الهديل: صوت الحمام.

(٣) مجملات: متئدات.

(٤) تشدو: تترنم.

(٥) لا يتئدون: لا يتمهلون. وفي الثمرة، أي في جنيها.

(٦) يرفهون: يخففون.

(٧) يساقطون: يسقطون، والجني: ما يجنى.

(٨) يلمون: يجمعون.

(٩) يلحون: يقشرون.

«١١»

الظّلم

قَليلُ المُدَّة، كَلِيلُ العُدَّة[1]، وإن تَظَاهر بـالشِّدَّة، وتَنَـاهَى في الحِدَّة[2]، عَقْـرَبٌ بِشَوْلتهـا مُخْتَالـة[3]، لا تَعْدَم نَعْـلاً قَتَّالـة[4]، رِيحٌ هَـوْجاءُ لا تلبثُ أن تَتَمـزَّقَ في البِيد[5]، أو تَتَحَـطَّمَ على أَطْراف الجـلَامِيد، فَتبيد[6]، جـامحٌ راكِبُ رَأْسِه[7]، مُخَايِلٌ بِبَأْسِه[8]، غايتُه صَخْرةٌ يُوَافِيها[9]، أو حُفْرةٌ يَتَرَدّى فيها[10]، سَيْلٌ طَاغ لا يعدَمُ هِضَاباً تَقِفُ في طَريقه، أو وِهَاداً تَجْتَمِعُ عَلى تفـريقه[11]، جِـدارٌ مُتَـدَاعٍ أَكْثَرُ مـا يَتَهَدَّد، حين يَهُمّ أَن يَتَهَـدَّد[12]، هو غَـداً خَرَاب، وكَـوْمَـةٌ من

---

(١) الكليل: الضعيف. والعدة، بالضم: الاستعداد.
(٢) تناهى: بلغ النهاية، والحدة، بالكسر، الغضب.
(٣) الشولة: ما ترفع العقرب من ذنبها. ومختالة: فخورة.
(٤) النعل: الحذاء، أي لا تعدم أن توطأ بالحذاء فتقتل.
(٥) هوجاء: المتداركة الهبوب كأن بها هوجاً، أي حمقاً وطيشاً. والبيد: الصحراوات واحدتها: بيداء.
(٦) الجلاميد: الجلامد، جمع جلمود، بالضم، وهو الصخر.
(٧) الجامح: الذي ركب هواه فلا يمكن رده. وراكب رأسه: أي عنيد.
(٨) مخايل: مفاخر. والبأس: القوة.
(٩) يوافيها: يفاجئها.
(١٠) يتردى: يهوى ويسقط.
(١١) الوهاد: الأراضي المنخفضة، واحدتها: وهدة، بالفتح.
(١٢) المتـداعي: المتصدع المؤذن بـالانهيار، ويتهـدد، الأولى: من التهديـد، وهو الـوعيد، أي يهددنا بسقوطه، ويتهدد الثانية: من الهدم، وهو غير وارد.

تُرَاب، نارٌ مُنْقَطِعَةُ المَـدَد، وإن سَدّت الجَـدَد[1] وملأَتِ البَلَد، يـأْكُل بَعْضُهـا بعضاً كَنَارِ الحَسَد.

(1) الجدد: الأرض المستوية.

«١٢»

القلب

يـا طَبِيبَ الجَمَاعـة، قُمْ أَلْقِ السَّمَّاعـة، وسَـلْ هـذه السَّـاعـة، مَن أدقَّ اللَّحْمَ صِنَاعَة، ومَنَح الدَّمَ المنَاعَة؟ مُضْغةٌ إذا فَتَرَتْ سُلِبَتَ البَرَاعة[1]، ولَبِسْتَ العَجْزَ والضَّرَاعَة[2]، تَدَابِيرُك عِنْدئذ مُضَاعة، وعَقَاقِيرُك مُزْجَاة بِضَاعَة[3].

---

(١) فترت: سكنت بعد جدة ونشاط.

(٢) الضراعة: الذل والخضوع.

(٣) مزجاة بضاعة، أي بضاعة مزجاة، أي خسيسة يدفعها كل من عرضت عليه.

«١٣»

الذّكرى

مِن البِرِّ يا قَلْبُ أنْ تَدَّكِر[1]
فَمِلْ بِي عَلَى الفائِتِ المُنْدَثِرْ[2]
ولا تَألُ[3] ذكرَى ولا تَدَّخِرْ

هَلُمَّ نَنشُرْ مَطْوِيَّ الصَّفَحَات، ونُقَرِّبْ نازِحَ اللَّذَّات[4]، ونَؤُبْ من سَفَرِ الأَيَّام بِغَائِبِ اللُّبَانَات[5]. أَعِدْ عَلَيَّ من دَقَّاتِ نَاقوسِكَ ترنيما، كان لَذِيذَ الحَوَاشِي رَخِيما[6]، ومِن دَقَائِق ساعَتِك ما رَنَّ في أُذُنِي قَدِيما، فما زِلْتَ يا قَلْبُ تَقْضِي الحُقُوق، وتَذْكُرُ العُهُودَ فَتَجْزِيها التَّلَفُّتَ والخُفُوق[7]؛ حَتَّى كأَنَّك قَلْبان اثْنَان: قَلْبٌ مع الماضِي مُتَخَلِّفُ العِنَان، وقَلْبٌ يُسَايِرُ رَكْبَ الزَّمَان[8]؛ بِعَيْشِك قُلْ لي: مَنْ عَلَّمَك رَدَّ الأَحْلَام، ورُجُوعَ القَهْقَرَى في نَوَاحِي

(١) تدكر، أي تذدكر، بمعنى تذكر.
(٢) مل بي، عرج بي واعطف، والمندثر: القديم الدارس.
(٣) لا تأل: لا تقصر ولا تبطىء ولا تفتر عن الذكرى، وهي الذكر.
(٤) هلم: كلمة دعاء، أي تعال، وهي من أسماء الأفعال تلزم لفظاً واحداً في كل حالاتها، كما تكون فعل أمر تلحق بها ضمائر الخطاب المرفوعة: والنازح: البعيد.
(٥) نؤوب: نعود، وهي مجزومة في جواب الأمر، واللبانات: الحاجات.
(٦) الحواشي: الجوانب، والرخيم: اللين السهل.
(٧) التلفت: الانصراف إلى الشيء.
(٨) العنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة، وتخلفه كناية عن البطء، والركب: الراكبون.

الأَيَّام؟[1] ومَن رَسَمَ لَكَ الإِلْمام بِدِمْنَةِ عَيْشٍ أو بِرَسْمِ غَـرَام؟[2] ومَن عَلَّم الدَّمَ وَصْـلَ الحِبَال[3]، وحَمَّـل اللَّحْمَ ما يُـوهِنُ الجِبَـال[4]، مِن الحَنِينِ إلى سـالِفٍ خَال[5]، أو البُكَاءِ على دارسٍ بَال؟[6] وما سُلطانُك يا قَلْبُ حتَّى تُدْنِيَ المُمْعِنَ في بُعْـده[7]، وتَجِدَه وإن تَـطاوَلَ العَهْدُ على فَقْـده؟ ومَن عَلَّمَك أَنْ تَتَحَـدَّث، وتَقْلِبَ الأَقْـدَم والأَحْدَث[8] وتَـذْكُرَ الصِّبَـا وأَيَّامَـه، ووَادِيَـهُ وآرَامَـه[9] وبِسَـاطَـه ومُدَامَه؟[10]. . .

هو الله الذي صَوَّرك فأَدَقَّك، وقَدَّر خُفُـوقَك ودَقَّـك، ومَهَّدَك وزَقَّك[11]، وكَتَب عَلَيْك في الضُّلُوع رِقَّك[12]؛ ومـا أَنت لولا التَّـذَكُّرُ والفِكْـر، إلّا كَبَعْض القُلُوبِ إذ هي حَجَر، يَنْفَجِرُ بالعَذْبِ ولا يَعلمُ كَيْف آنْفَجَـر، ولا مَتَى نَبَعَ ولا أَيْن آنْحَدَر، أو كالأَرْضِ يَذْهَبُ شَجَرٌ ويَأْتي شَجَر. فـلا تَذْكُـر ما غـاب، ولا تَشْعُرُ بما حَضَر.

---

(١) يعيشك: استحلاف، يستحلفه بعيشه، والقهقرى: الرجوع إلى خلف.
(٢) الإلمام: النزول بالمكان. والدمنة: آثار الناس وما سودوا. والرسم: الأثر البـاقي من الـدار بعد أن عفت. ورسم غرام، أي حيث ينزل من أحب.
(٣) الحبال: أي الشرايين التي يجري فيها الدم فيجعلها موصولة حية.
(٤) يوهن: يضعف ويُعْيي ويعجز.
(٥) سالف: متقدم سابق. والخالي: الذي مضى.
(٦) الدارس: الذي ذهب أثره.
(٧) تدني: تقرب. والممعن في بعده: الجاد فيه.
(٨) الأحدث: الأكثر قرباً من زمننا.
(٩) الآرام: الظباء، واحدها: رئم، بالكسر، يعني النساء.
(١٠) المدام: الخمر.
(١١) مهدك: أي أقرك في مكانك، وزقك، أي أمدك بما تحيا به.
(١٢) الرق: الأسر.

«١٤»

شاهد الزور(*)

يـا شَاهِـدَ الزُّور، أَنت شَــرُّ مَوْزُور[1]؛ ضَلَّلْتَ القُضَـاة، وحَلَفْتَ كاذِبـاً بـالله، ونِلْتَ الأَبْـريَـاءَ بـأَذاة[2]، وحُلْتَ بين القِصَـاص والجُنـاة، والله يَقـولُ: ﴿وَلَكُم في القِصَاصِ حَيَاة﴾[3].

(*) الزور: ألباطل والكذب.
(١) موزور: راكب للوزر، وهو الذنب.
(٢) الأذاة: الأذى.
(٣) البقرة: ١٧٩.

«١٥»

الصّبر

يَعْضُ الصَّبْرِ تَجَلُّد، وثَمَّ الحَزْمُ والرِّضَاء؛[١] وبَعضٌ تَبَلُّد، وهُنَا العَجْزُ والاسْتِخْذاء[٢]، لَيْسَ الصَّبْرُ غِلْظَةَ القَلْب، وبَلادَةَ اللُّبّ؛ أو الجَهْلَ على الأَقْدار، وإنْكارَ الإيرَادِ عليها والإصْدار[٣]؛ ولا هُو اكْتِظَاظُ الأَنْدِيَة، وأَلْفَاظٌ تَجْرِي بالتَّعْزِية[٤]؛ ورَجُلٌ يُحَدِّثك بالصَّبْر، وإذا أُصِيبَ تَمنَّى القَبْر؛ إنما الصَّبْرُ اسْتِرْجاعُك في النَّفْس الحَزِينة، حتى تَفِيءَ إلى السَّكِينة[٥]، وتَجِيءَ[٦] مِنْ نَفْسِها إلى الطُّمَأْنِينَة، إيمانٌ يَزَع، عِنْد الجَزَع[٦]؛ وعَقْلٌ يَزِنُ، إذَا القَلْبُ حَزِن؛ ومُقَابَلَةُ الأَحْكَام بالحِكْمة، والعِلْمُ بأَنّ النِّعْمة نَذِير النِّقْمة[٧]؛ وبأَنَّ الدَّهرَ حالَتان، والدنيا حُلَّتَان؛ وأَنَّ مَن لم يَنْتَفِعْ بالضَّجَرِ رَضِي، وأَنّ لِكُلِّ شَيْءٍ غايَةً ويَنْقَضِي.

---

(١) التجلد: إظهار الجلد ـ بفتحتين ـ وهو القوة. وثم: هناك.

(٢) التبلد: الفتور في العمل والتقصير. والاستخذاء الخضوع والذلة.

(٣) الجهل على الأقدار: التسافه عليها. والأقدار: جمع قدر، بفتحتين، وهو ما قضاه الله على عباده، والإيراد والإصدار: الأخذ والعطاء.

(٤) اكتظاظ الأندية: سعة امتلائها، والأندية: أمكنة اجتماع القوم، واحدها: النادي.

(٥) الاسترجاع: أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون وتفيء: ترجع.

(٦) يزع: يكف ويمنع.

(٧) النذير: الإنذار والمنذر.

«١٦»

شهادة الدّراسة
وشهادة الحياة

ما بالُ النَّاشِىءِ وصَلَ آجْتِهادَه، حتى حَصَلَ على الشَّهـادَة؛ فلما كَحَّـلَ بأَحْرُفها عَيْنَيْه، وظفِرَتْ بزُخْرُفِها، كِلتـا يَدَيـه؛ هَجَرَ العِلْمَ ورُبُـوعَه[٢]، وبَعَثَ إلى مَعَاهِدِه بأُقْطُوعَة[٣]؛ طَوَى الدَّفاتِر، وتَرَكَ المَحَابِر، وذَهَب يُخايِلُ ويُفَـاخِر، ويَدَّعي عِلْمَ الأَوَّلِ والآخِر.

فَمَنْ يُنْبِيـه[٥]، بـارَكَ الله فيـه لأَبِيـه، وجَـزَى سَعْيَ مُعلِّمِـهِ ومُـرَبِّيـه: أَنَّ الشَّهَادَةَ طَرَفُ السَّبَب[٦]، وفاتِحَة الطَّلَب، والجَوَاز إلى أَقْطَار العِلْم والأَدَب[٧]؛ وأَنَّ العِلْمَ لا يُمْلَكُ بالصُّكُوك والرِّقاع[٨]، وأَنَّ المَعْـرِفَة عِنـد الثِّقاتِ غَيْـرُ وَثَائِق الإِقْطَاع[٩]. ومَنْ يقولُ له ـ أَرشَدَهُ الله ـ: إن شَهَادَةَ المَدْرسـةِ غيرُ شَهَـادةِ الحَياة؟.

---

(١) كحل العين: جعل فيها الكحل لتبدو جميلة، ويقال لمن أدرك بغيتـه فقرت بهـا عينيه: كحـل بها عينه.

(٢) الربوع: الديار، واحدها: ربع، بالفتح.

(٣) الأقطوعة: ما يبعث به علامة الهجران.

(٤) يخايل: يباري معجباً.

(٥) ينبيه: أي ينبئه، بالهمز.

(٦) السبب: الوسيلة.

(٧) الجواز: ما يحمله المسافر من وثيقة تتيح له النزول بغير بلده.

(٨) الصكـوك: جمع صـك، وهو الـوثيقة بمـال أو نحوه. والـرقاع: جمـع رقعة، بـالضم، وهي القطعة من الورق أو الجلد يُكتب فيها.

(٩) الإقطاع: نظام يقضي بأن يملك السادة من دونهم قطعاً من الأرض على سبيل المنحة.

فيـا ناشِئَ الْقَـوْمِ بَلَغْتَ الشَّبَـاب، ودَفَعْتَ على الحَيَـاة البـاب؛ فهـل تـأَهَّبْتَ لِلْمَعْمَعـة[١]، وجهَّـزْتَ النَّفْسَ لِلْمَـوْقعَـة، ووَطَّنْتَهـا على الضِّيق بَعـد السَّعـة[٢]، وعلى شَظَفِ العَيشِ بعـد الـدَّعـة؟[٣] دَعَت الحيـاةُ نَـزَالِ[٤]، فهَلُمَّ آقْتَحِمِ المَجَـال، وتَـوَرَّد القِتَـال[٥]؛ أَعـانَـك الله على الحيـاة، إِنَّهـا حَـرْبُ فُجاءَات، وغَدْرٌ وبَيـات[٦]، وخِدَاعٌ من النـاس، ومن الحادثـات؛ فَطُوبى لِمَنْ شَهِدَها كامِلَ الأَدَوات[٧]، مَوْفُورَ المُعِدَّات؛ سِلاحُه صَلاَحُه؛ وتُرْسُه دَرْسُه؛ ويَلَبُـه أَدَبُه[٨]؛ وصَمْصَـامتُـه[٨] آسْتِقَـامتُـه[٩]؛ وكِنـانتُـه أَمـانَتـه[١٠]؛ وحَـرْبَتُـه، دُرْبَتُه[١١].

(١) المعمعة: صوت المحاربين في الحرب، يريد الحرب.
(٢) وطنتها: هيأتها لتحمل الضيق.
(٣) شظف العيش: شدته. والدعة: الترفه.
(٤) نزال: اسم فعل أمر بمعنى: انزل للقتال.
(٥) هلم: كلمة دعاء، بمعنى: تعال. وهي من أسماء الأفعال تلزم لفظاً واحداً في كل حالاتها، وتكون فعل أمر تلحقه ضمائر الخطاب المرفوعة. وتورد القتال، أي تقدم إليه واطلبه.
(٦) البيات: المباغتة ليلاً.
(٧) طوبى: حسنى وخير.
(٨) اليلب: الدروع من جلود.
(٩) الصمصامة: السيف الصارم لا ينثني.
(١٠) الكنانة: الجعبة من أدم يحفظ فيها النبل.
(١١) الدربة: المران والحذق، والجرأة على كل أمر، والكلام يستقيم بهما.

«١٧»

الحياة

القَبَس، والنَّفَسُ والرُّوحُ القُدُس[١]؛ ظاهِرُها هذه الجِيفة[٢]، وباطِنُها النَّفْسُ الشَّريفة؛ تَبِعَةُ الذَّنْبِ القَديم[٣]، وأَثَرُ آدَمَ على الأَدِيم[٤]؛ فيا طَرِيدَ القَدَر[٥]، ونَفِيَّ الحُظُر[٦]، وأَبا البشر؛ ما أَطْوَل ذَمَاءَك[٧]، وأَدْوَمَ ماءَك[٨]، وما أَكْثَر بنَاتِك وأَبْناءَك، وأَقلَّ آهْتمامَك بهم واعْتَناءَك! وَلدْتَ للمَوْت، وأَوْجَدْتَ للفَوْت[٩]؛ تَقَسَّمَ القَبَسُ نُفوساً بلا عَدَد، وتَفَرَّق النَّفَسُ في شتَّى الوَلَد؛ فَلَيْت شِعْري[١٠]، كيف آسْتَقلَّهما صَلْصَالُك[١١]، وكيف قَوِيَتْ عليهما أَوْصالُك[١٢]؟ آمَنَّا بأَنَّكَ الجَدّ، فهل لهذا التدَفُّقِ حَدّ، أَمْ ما لأَمْرِ الله مَرَدّ.

---

(١) القبس: الشعلة من النار. والروح القدس، أي نفحة الإله.

(٢) الجيفة: جثة الميت إذا أنتنت، يريد الجسم الذي مصيره إلى هذا.

(٣) يشير إلى خروج آدم عليه السلام لمخالفته عن أمر ربه بأن أكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها.

(٤) الأديم: وجه الأرض.

(٥) القدر: ما قدره الله على آدم من طرده من الجنة.

(٦) النفي: المنفي المبعد، الحُظُر: جمع حظيرة، وهي الجنة.

(٧) الذماء: حركة المذبوح بعد ذبحه.

(٨) وأدوم ماءك، يعني نسلك.

(٩) الفوت: الذهاب والمضي.

(١٠) ليت شعري: أي يا قوم ليتني أعلم.

(١١) استقلها: حملها، يعني النفس، والصلصال: الطين اليابس، ومنه خلق آدم عليه السلام.

(١٢) الأوصال: الأعضاء، واحدها: وصل، بالضم وبالكسر.

الحَيـاة كَعَهْـدِكَ بهـا مَعْصِيَـة، عن الحَـظِيـرة مُقْصِيَـة[1]؛ وخَلْوَةٌ حُلْوة، عَوَاقِبُها نَغَص، ومَشارِبُها غُصَص[2]؛ أَفْعَى خَدَّاعة، ولَذَّة لَذَّاعـة؛ شَوْكٌ بَغَّضَ الوَرْد، وَقذًى نَغَّصَ الوِرْد[3]: أُمُورٌ شَتَّى الأَعِنَّة، وحَوَادِثُ وُقَّـعٌ وأَجِنَّة[4]؛ فقُـلْ لِمَن أَطـال التَّفْكِير، وبـالَغ في النَّكِيـر[5]؛ وكَدَّ بَـالَه، ومـدَّ بَلْبَالَـهَ[6]، وآحْتَرَقَ آحْتِراقَ الذُّبَالة:

خَـلِّ اهْتمـامَـك نـاحِيَـهْ وخُـذِ الحَيـاةَ كَمَـا هِيَـهْ[7]

(١) معصية: يريد معصية آدم لأمر ربه. والحظيرة: الجنة.
(٢) النغص: فقدان المراد، والغصص: جمع غصة، بالضم، وهي ما يعترض في الحلق من طعام أو شراب. وبها يتأذى الانسان.
(٣) القذى: ما يقع في الشراب من قذر.
(٤) الأعنة: جمع عنان، وهو سير اللجام، ووقع: واقعة، والأجنة: جمع جنين، وهو الولد ما دام في الرحم.
(٥) النكير: المنكر.
(٦) البلبال: الهموم والوساوس.
(٧) خل: أترك.

«١٨»

الحياة

(ب)

أحقٌّ أنها هيَ الدَّمُ حتى يَجْمُد، وأنها هي الحَرَارة حتى تَبْرُد؛ وأنها هي الحَركة حتى يَقطعَها السُّكون، وأنها هي الجاران حتى تُفَرِّقَ بينهما المَنُون؟[١].

الحَقُّ أنّ افْتِئَاتَ الفَلْسَفة، على ضنائن الله سَفَه[٢]، وأنَّ عِلْم الحياةِ عند الذي يَهَبُها ويَستَرِدُّها، والذي يَقْصُرُها ويَمُدّها[٣]، والذي يُخْلِقُها ويَسْتَجِدُّها[٤]؛ والذي كُلُّ حَيّ سِوَاه يَموت، وكُلُّ شَيءٍ ما خَلاه يَفُوت[٥].

---

(١) الجاران، يعني الروح والبدن، والمنون: الموت، أنثى وقد تذكر.
(٢) الافتئات: الانفراد بالرأي. وضنائن الله: خواص خلقه، والسفه: الطيش والجهل.
(٣) يقصرها: يجعلها أقل طولا.
(٤) يخلقها: يجعلها تبلى، ماضيه: أخلق، ويستجدها: أي يخلقها من جديد.
(٥) يفوت: يمضي ويذهب.

«١٩»

الحياة

(جـ)

ماذا أَقُولُ في آبْنَـةِ المَوْتِ وأُمِّـه، وعِلَّةِ حُكْمِه، ونَبْعـةِ سَهْمِه، ومَنْقَعـةِ سُمِّـه؟ وكيفَ القَـوْلُ في صـاحِبـة، لم تُمَلَّكُ عن خِـطْبَـة، ولم يُبْنَ بهـا عَن رَغْبة، ولم تَبِنِ لِمَلَالِ صُحبـة، أو بِغْضَةً بعـد مَحَبَّة[1]؛ تُسِيءُ ولا تُفْـرَكُ[2]، ولولا المَوْتُ لم تُتْرَكْ.

(١) النبعة: واحدة النبع، وهو شجر ينبت في قمة الجبل تتخذ منه القِسِيّ والسهام. ومنقعة السم: حيث يطول مكثه. والصاحبة: الزوجة. ولم تملك: لم تزوج، بالبناء للمجهول فيهما. والخطبة: طلب المرأة للزواج. ولم يبن بها: لم تزوج، بالبناء للمجهول فيهما. ولم تبن: لم تنفصل بطلاق: والبغضاء: الكراهية.

(٢) تفرك: تكره، وأكثر ما يستعمل في بغضة الزوجين.

«٢٠»

اللّسان

مُضَغـةُ لَحْم، في عَظْم[١]؛ سَمَّـاها النـاسُ اللِّسَان، وعَـظَّموهـا لِفَضِيلة البَيَان، فَقَوَّمُوها بِنِصْفِ الإنْسَـان[٢]؛ عَضَلٌ نَبَت من الحُلْقـوم وقَـناته، وثَبَت في أَصْل لَهَاته، ولَبَثَ في السِّجْن ظِمْءَ حَيَاته، لا يَتَحَرّك مِنـه سِوَى شَبَـاتِه[٣]؛ رَسُـولُ العَقْل في النَّقْـل، وأَدَاة الدِّمـاغ، في البَـلاَغ، وتُـرْجُمـانُ النَّفْس في رِوَايَة العاطِفة، وحِكَايةِ الصَّحْوِ والعـاصِفَة؛ الْـوَحْيُ على عَذبَـاتِه ظَهَـر، ومنْ جَنَبَاته آنْحَدر؛ فكان أَوّل من سَفَر بَين الخَالِق وبَين البَشَـر، ثم فُجِّرَ بـالحِكْمَة فانْفَجر، ثم عُلِّم الشِّعْر فشَعَر[٣]؛ فسُبْحَـان الذي خَلَقـه، وعَلَّقه، والـذي قَيَّدَهُ وأَطْلَقه، والذي أَسْكَنَـه وأَنْطقَـه؛ والذي يُميتُـه فَيَنْدَثِـر. والذي هـو عَلَى بَعْثِه مُقْتَدِر.

---

(١) المضغة: القطعة.

(٢) قوموها: سعروها وثمنوها.

(٣) اللهـاة: اللحمة المشـرقة على الحلق، والسجن، أي الفم. وظمء حيـاته: أي مـا بين سقـوط الولد إلى وقت موته. وشباتـه: أي حد طرفه وعـذباتـه : أطرافه.

(٤) سفر: كان سفيراً. وشعر: قال الشعر.

«٢١»

البيان

رَحِيقُ النَّبِيِّين، وإبْـرِيقُ الـعَبْـقَـرِيِّيـن، وحَظُّ المـرْزُوقِـين. ونَـصِيبُ المُوفَّقين[١]؛ وذَرَا الجَمَال، وذُرى الكَمَال[٢]، والتَّوْفِيقُ الذي لا يُنَال، بِسُلْطَانٍ ولا مـال، والخُلْدُ الذي يُؤخَـذ باليَمِين وغَيْـرُه يُؤخَذُ بـالشِّمَال؛ صَـدِيقُ البَشَرِيَّـة، وعَدُوُّ الجَبَرِيَّة[٣]، حادِي الانْسَانِيّة، السَّائِقُ بالمَطِيَّة، حتى تَبْلُغَ الطِّيَّة[٤]، يَمُرُّ بها على الخَيْرورُبُوعِه[٥]، والبَرِّ ويَنْبُوعِه، ويُقْبِلُ بها على الحَقِّ وقَبِيله، ويَعْدِلُها إلى العَـدْلِ وسَبِيله[٦]، ويُلِمُّ بهـا على الجَمَـالِ ومَغْنَـاه، وغُـرَفِ لفْظِه تَحتَ حُـور مَعْناه[٧]: ويَلِجُ بِهَا على العَوَاطِف[٨]، حَنَايَـا الضُّلُوع اللَّوَاطِف؛ وهو المَلِكُ على كُـلِّ اللُّغات، قـد انْتَظَمَ سُلْطَانُـه أقـطارَ البَلاغـات؛ إذ انْتَقـلَ من لِسـان إلى لِسان، في أَمَانةٍ من الناقل وإحْسان؛ أَسْرَعَ في مُضَاهَاته، وتَمكَّنَ في جِهـاته، تَمكُّنَ اللِّسان من لَهاتِه[٩]، فكأنه التَّغْرِيدُ أو البُغَام، أو مَنْطِقُ الأنْغام؛ تَرْجِعُ له الأُمَم، وإن ذَهَبَتْ كلُّ أُمَّة بِكَلام[١٠].

---

(١) الرحيق: الخالص الصافي. والعبقريون: الذين فاتوا غيرهم.
(٢) الذرا: بفتح أوله، الكنف. والذرى بالضم، مع ذروة، بالكسر، وهي القمة.
(٣) الجبرية: الاستعلاء.
(٤) المطية: ما يُمتطى ويركب. والطية: الغاية.
(٥) الربوع: الديار، واحدها: ربع، بالفتح.
(٦) القبيل: الأهل. ويعدلها: يوجهها.
(٧) يلم بها: ينزل بها، والمغنى: المنزل غني به أهله. والحور: الحسان، واحدتها: حوراء.
(٨) يلج: يدخل.
(٩) اللهاة: اللحمة المشرفة في أقصى الحلق.
(١٠) البغام: صوت الظبية.

«٢٢»

المال

يا مالُ، الدُّنيا أَنْت، والنـاس حيثُ كُنْت، سَحَرْتَ القرون، وسَخِرْتَ من قارُون، وسَعَرْتَ النارَ يا نيرُون[١]؛ تَعوَّد الحِقْـدُ أَن يُحالفَـك، وأَبَى الحَسَدُ أَن يُخالِفَك، وكُتِبَ على الشَّرِّ أَن يُخالطَكَ ويُؤالفَك؛ الفِتْنَة إِن حرَّكْتَهـا اتَّقَدت، وإن تَركتَها رَقَـدَتْ؛ والحَرْبُ وهي الحَـرَب، تَبْعَثُها ذات لَهَب، منـك الرِّيـاحُ ومنـك الحَطَب[٢]؛ تُزْري بالكِـرَام، وتُغْري بـالْحَرام، وتُضْـرِي بـالإِجْـرام[٣]؛ فُقْدَانُك العَرُّ والضُّرّ، ونَكَدُ الدُّنيـا على الحُرِّ[٤]؛ حـالُك وحـالُ النَّاس عَجَب، تَمْلِكهم من المَهْد، ويَقُولون أَصَبْنا ومَلَكْنا؛ وتَرِثُهُم عِند اللَّحْد، ويقولون ورَّثْنا وتَركنا؛ مَن عاشَ قَوَّموه بما مَلَك، ومن هَلَكَ تَساءَلوا كم تَرَك؟[٥] المَحْرومُ من أَوْثَقَك، والضَّائع من أَطْلَقَك، وهما فقيران: مَنْ جَمَعَك ومَنْ فَرَّقك[٦]؛ كَثِيرُك هَمّ، وقَلِيلُك غَمّ؛ ومع التَّوسُّط الخَـوْفُ والطَّمَـع، والحِرْصُ والجَشَـع، حَذَرَ

---

(١) قارون، من قوم موسى وكان يضرب المثل بثرائه، ونيرون، من قياصرة روما. وهو الذي أحرقها لمتعته.

(٢) الحرب، بفتحتين: الويل والهلاك.

(٣) تزري بالكرام: تهون من شأنهم. وتضري بالإجرام: تقوى به.

(٤) العر: الجرب.

(٥) قوموه: قدروه.

(٦) أوثقك: شدك بالحبال.

النَّفَاد، ورَغْبَةً في الازْدِياد[1]، المَلِكُ سُوقَةٌ إذا نَزل إليـك، والسُّوقَـة مَلِكٌ إذا عَلا عليك[2]، أَرخَصْت الجَمـال، ونَقَصْتَ الكَمال، وخَـطَبْتَ لِهُجْنِ الرِّجَـالِ هِجَانَ ربَّاتِ الحِجَـال[3]، صُوَيْحِبـاتُك هُنَّ المُفَضَّـلات، وغَيْرُهنَّ المَتْـروكات المُعْضَلَات[4]؛ العُرْيـان مَن لَيْس دُونَكَ منـه سُتْرَة، والمُسْتَضْعَفُ مَن لَيس لـه مِنْك قِدْرة[5]، فسُبْحانَ مَنْ قَهَر بك الخَلْق. وقَهَركَ بِرِجال الخُلْق[6].

(١) النفاد: الفناء والذهاب.
(٢) السوقة: أوساط الناس، يطلق على الواحد وغيره.
(٣) خطبت: طلبت للزواج. والهجن، اللؤماء، واحدهم: هجين. والهجان: الكريمات، يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع. والحجـال: جمع حجلة، محركة، وهي ساتر كالقبة يزين للعروس.
(٤) المعضلات: اللاتي منعت عن التزوج ظلماً. والمسموع: المعضولات.
(٥) القدرة، بالكسر، القطعة المجتمعة من الشيء.
(٦) الخلق، بالضم: الخلق، بضمتين.

«٢٣»

الأهرام(*)

مـا أَنْتِ يا أَهْـرام، أَشَـوَاهِقُ أَجْـرَام، أَم شَـوَاهِـدُ إِجْـرَامٍ ؛ وأَوْضَـاحُ مَعَالِم، أَم أَشْبَاحُ مَظَالِم[١]؛ وجَلاَئِـلُ أَبْنِيَة وآثـار، أَم دَلاَئِلُ أَنَـانِيَةٍ واستِئْثَـار[٢]؛ وتِمْثَالُ مُنْصَّبٌ من الجَبْرِيّة، أَم مِثَالٌ ضاحٍ من العَبْقَرِيّة؟[٣] يا كَلِيـلَ البَصَر عن مَـوَاضِعِ العِبَـر، قَلِيلَ البَصَـر بِمَـوَاقِـع الآيـاتِ الكُبَـر[٤]؛ قِفْ نـاجِ الأَحْجَـارَ الـدَّوَارِس، وتَعَلَّمْ فإِنَّ الآثَـارَ مَـدَارِس[٥]؛ هـذه الحِجَـارة حُجُـورٌ لَعِبَ عَلَيهـا الأُوَل، وهذا الصُّفَّاحُ صَفَائِح مَمَالِكَ ودُوَل[٦]؛ وذلك الرُّكَامُ من الرِّمَـال، غُبَارُ

(*) أهرام، هي أهرام الجيزة الثلاثة، أكبرها لخوفـو، ومتوسـطها لخفـرع، وأصغرهـا لمنقرع. وثلاثتهم من فراعنة الأسرة الرابعة.

(١) الشواهق: العـظيمة الارتفـاع، والأجرام: جمـع جرم، بـالكسر، يعني الكـواكب السماويـة. والإجرام، بالكسر، مصدر أجرم، إذا ارتكب ذنباً. يشير إلى تسخير الفراعنة الرجال في بنـاء الأهرام. وأوضاح. أي دلائل، واحدها: وضح، بفتحتين، وهو الضوء والبيـاض. والمعالم: المظان، واحدها: معلم، بالفتح.

(٢) الأنانية: الأثرة، والاستئثار: أن تخص نفسك بالشيء.

(٣) منصَّب: منصـوب. والجبريـة: التكبر، والضـاحي: البادي الـظاهر. والعبقـرية: الإتيـان بما يعجز عنه غيرك.

(٤) الكليل البصر: الضعيفـه. والعبر: العـظات، واحدهـا عبرة، بـالكسر، وقليـل البصر: قليـل الدراية.

(٥) ناج، من المناجاة، وهي لمسارّة. والدوارس: التي ذهبت آثارها.

(٦) الحجور، جمع حجـر، بالكسـر، وهو الكتف والجـانب، والصفاح: حجـارة رقيقة عـريضة، والصفائح: الألواح، واحدها: صفيحة.

أَحْـداجٍ وأَحْمَال، من كُـلِّ رَكْبٍ أَلَمَّ ثمَّ مال[1]؛ في هـذا الحَـرَمِ دَرَجَ عِيسَى صَبِيًا، ومن هذا الهَرَم خَرَجَ مُوسى نَبِيًا، وفي هـذه الهالَـةِ طَلَع يُوسفُ كـالقَمرِ وضيًا، ووقَعتْ بين يَدَيْه الكَواكِبُ جِثِيًـا[2]، وهٰهُنا جَـلاَلُ الخُلْقِ وثُبُوتُه، ونَفَاذ العَقْل وجَبَروتُه، ومَطالـعُ الفَنِّ وبُيُوتـه؛ وهٰهنا تَتَعلَّمُ أَن حُسْنَ الثَّنـاء، مَرْهُـونٌ بإِحْسان البِنَاءِ.

---

(١) الركام: ما اجتمع وتراكم. والأحداج: مراكب النساء، واحـدها: حـدج، بالكسـر. والركب: الراكبون، وألَمّ: نزل، ومال: عدل وانصرف.

(٢) درج: أخـذ في الحركـة. ومشى قليلاً أول مـا يمشي، وهذا للصبي؛ والهـالة: الـدائـرة من الضوء، تحيط بالكوكب. يشير إلى مجيء عيسى عليه السلام إلى مصـر صبياً. وإلى خـروج موسى عليه السلام من مصر بقومههرباً من فرعـون، وإلى دخول يـوسف عليه السـلام مصر. وجثياً: بكسر أوله وضمه: راكعة يشير إلى رؤيا يوسف عليه السلام التي رأى فيها أحد عشر كوكباً ساجدة بين يديه.

«٢٤»

الامس

أَمْسِ ما أَمْسِ ، خُطْوَةُ إلى الـرَّمْس[١]، خَرَزَة هَـوَتْ عن السِّلْك، أَغْلَى من خَـرَزاتِ المُلْك[٢]؛ صَحِيفةٌ طُـوِيَتْ والصُّحُف قلائـلِ ، من كِتَـابِ العُمْـر الزَّائل؛ ثُلْمَةٌ في الجِدَار، وهَتْ لها الدَّار، وأَنْت غَيْـرُ دَار[٣]؛ جُزْءٌ من عُمْـرك حَضَرْتَ وَفاتُه، وقَبَرْتَ بِيَدك رُفاتَه، لم تُرِفْ عليه عَبْرةً ولم تُشَيِّعـه بالْتِفَـاتة[٤]؛ وهو القاعِدة التي يبنى عليها العُمُر، والحَبُّ الذي يَنْبُتُ عليه الشَّجَر، ويَخْرُج منـه الثَّمَر؛ وهـو الخَبر والأَثَـر، والكُتُب والسِّيَر، والأُسَى والعِبَـر[٥]؛ وهـو أَبُـو يَوْمِكَ، والوَلَدُ سِرُّ أَبِيه، وجَدُّ غَدِك، فاجْعَلْه النَّبِيلَ في الجُدُودِ النَّبيه[٦].

---

(١) أمس: اليوم الذي قبل اليوم الحاضر، وقد يدل على الماضي مطلقاً، وهو مبني على الكسـر، وإذا نكر أو أضيف أو دخلت عليه (إلى) أعرب. والرمس: القبر.

(٢) الخرزة: واحدة الخرزات التي تنظم في سلك ليتزين بها، وخرزات الملك، يعني: جواهره.

(٣) الثلمة: بـالضم: الشق. ووهت: اتشققت وهمت بالسقوط، وأنت غير دار، أي غير عارف.

(٤) الرفات: الحطام. والفتات من كل ما تكسر واندق. ولم ترق: لم تصب. والعبرة: الدمعة.

(٥) الأسى: جمع أسوة، بالضم، وهي ما يتعزى به. والعبر: جمع عبرة، بالكسر، وهي العظة.

(٦) سر أبيه، أي صورة منه. والنبيه: ذو الذكر الطيب.

«٢٥»

اليوم

طَلَعَتِ الشَّمْس، ونُفِضَتْ الخَمْس، من تُـرَاب أَمْس[١]، وآنْصَـرف بَنُـو الأَيّـام من الجِنَازة، وقـد هان عليهم اليـومُ الرَّاحِـل، كما هـان على المُسافـر مَـطْوِيُّ المَرَاحِـل[٢]، فـلا العَبْـرةَ أَرَاقُـوا، ولا على العِبْـرة أفـاقُـوا[٣]؛ شَغَلَتْهم دُنْيـاهم، وأَمِنوا مَنَـايَاهُم، وأَلهـاهـمْ هَوَاهـم، فَهَلكـوا دُون مُنَاهم[٤]؛ فسُبْحـان الـذي أَلْهَى بـالأَمَـل، وشَغَـل بـالعَمَـل، وآسْتَنْهض الإنسان لأَعْبـاء اليـوم فَحَمـل[٥]؛ والـذي جَعَـلَ الأَمسَ أَحـادِيث، ومَـوَارِيث؛ وجَعَـلَ اليـومَ مجـالَ النّـاهضِ النَّاهِـز، وجَعَل غـداً يوم العـاجز[٦]؛ فيـا ابنْ الأَيّام لا تَعْقِـدْ مَنَاحـةَ الأَمسِ، ولا تَقْعُدْ تَحْرُس الرَّمْس[٧]؛ ولا تُفْسِد شُغْلَ اليوم بـالإِرجاء، ولا تُلْقِ على غدٍ كُلَّ الرَّجَاء[٨]؛ واعْمَل في يَومك ما أَمكَنَ العَمَـل، وتَمتَّعْ بـه ما تَسنَّى التَّمَتُّع؛ فما تَعلم ما قُدَّامَك مِن عَوَائق، ولا ما دُونك من بَـوائق، وما تَـدْري: أَعْوَامٌ حَياتُك أَم دقائق؟[٩].

---

(١) نفضت: حركت ليزول ما عليها، والخمس، أي الأصابع الخمس، ونفضها: كناية عن خلوها من العمل.

(٢) المطوي: ما طوي وقطع، والمراحل: ما يقطعه المسافر في نحو يوم، واحدتها: مرحلة.

(٣) العبرة: بالفتح: الدمعة، وأراقوا: صبوا والعبرة، بالكسر: العظة، وأفاقوا: انتبهوا.

(٤) المنايا: جمع منية، وهي الموت، والمنى، جمع منية، بالضم، وهي البغية والأمنية.

(٥) استنهض الإنسان: دعاه إلى سرعة القيام بالأمر.

(٦) الناهز: المغتنم للفرصة.

(٧) المناحة: موضع النواح. والرمس: القبر.

(٨) الإرجاء: التسويف.

(٩) العوائق: ما يعترض سبيلك فيحول بينك وبين ما تريد. والبوائق: الدواهي والمصائب.

«٢٦»

الغد

غُيُوبٌ مَحْجوبَة، وحُجُبٌ مَضْرُوبة، وأَقْدَارٌ مَكْتُوبة؛ أَعْمارٌ مَوْهُوبة، أو مَنْهُوبة، وأَرْزاقٌ مَجْلوبة، أو مَسْلُوبة؛ بَرِيدُ المَلِكُ القَهَّار، مَوْعِدُه حَواشِي الأَسْحَار، أو غُرّة النَهار[1]؛ حَمَلت الفُجَاءَاتِ نَجائِبُه، وآشْتَمَلت على المُسْتَجِدَّات حَقائِبُه، وبَلَغت مُسْتَقرَّها مُغَرِّبَاتُه وجَوائِبُه[2]؛ أَقْبَل فَفَضَّ المَخْتُوم، وظَهَر المَكْتُوم، وانْفَجر المَخْتُوم؛ وإذا مَنَاعٍ وبَشَائر، وإذا دَوْلَات ودَوَائر[3]. واعلم يا آبْنَ الأَيّامِ أَنّ الغد أَعَدّه الله لَك خَيْرَ ما أَعَدّه، ومَدّه لك أَيْمَنَ ما مَدّه[4]؛ هو الشَّخْصُ الثالثُ، في رِوَايَة الأَيّام والحَوَادِث، والخَلَفُ من صاحِبَيه والوَارث[5]؛ وهو مَعْقِدُ الآمال، ومَوْعِد آسْتِئْناف الأَعمال، ومَرْمَى

(١) البريد: الرسول. والحواشي: الجوانب. واحدتها: حاشية. والأسحار، جمع سحر، بفتحتين، وهو آخر الليل قبيل الفجر. والغرة: بياض في الجبهة، وهي أول ما يطالعك.

(٢) الفجاءات: ما يفاجيء ويبغت مما لم يكن متوقع، واحدتها: فجاءة، بضم ففتح. والنجائب: خيار الإبل، واحدتها: نجيبة. والمستجدات: ما يجد ويحدث. ومستقرها: حيث تستقر، والمغربات: الممعنات في السفر. والجوائب: التي تقطع الأرض سيراً، يعني ما يجري فيه.

(٣) المناعيُ: أخبار الموتى. والدولات: ما يتداول. والدوائر: الدواهي.

(٤) الأيمن: الأكثر بركة.

(٥) الشخص الثالث: جعل الأمس واليوم والغد أشخاصاً في رواية الأيام؛ وكان الغد ثالثهم. وصاحباه: يعني أمس واليوم.

هِمّة المال[1]؛ تَنام الأَنْفُسُ وفي إيمَانها منه شَكّ، وفي أَيْمَانـها منه صَكّ[2]؛ فاعْمَل له ما آسْتَطعت، وانْتَظِرْه أَتَى أَم لَمْ يَأْتِ؛ وقُلْ سُبحان الذي أَتَى بـه، والّذي هو قادرٌ على طَيّ كِتَابِه، يَوْمَ يأْتِيه أَمْرُه فلا يَبْرُزُ من حِجَابه.

(١) معقد الآمال: أي الذي انعقدت عليه الآمال. والمرمى: الهدف.

(٢) الإيمان: بالكسر، الاعتقاد: التصديق. والأيمان، بالفتح: الأيادي اليمنى. والصك: الوثيقة بمال أو نحوه.

«٢٧»

المسجد الحرام

السَّاحَةُ الكُبْرَى، والدَّار اللَّمُوم[١]، والمَوْسِمُ الحاشِر[٢]. المُنْتَدى والمُؤْتَمر، وَمَثَابَةُ الزُّمَر[٣]؛ إبْرَةُ المُبْحِر، ونَجْمُ المُصْحِر[٤]؛ قِبْلَةُ البَدَوِيِّ في قَفْرِه، ووُجْهَةُ القَرَوِيِّ في كَفْرِه[٥]؛ حَرَمُ الله المُطَهَّر، وبَيْتُهُ العَتِيقُ المُسَتَّر[٦]؛ الذي وَجَّهَ إليه الوُجُوه، وفَرَضَ على عباده أن يَحُجُّوه؛ نَظَرَتْ إليه المَسَاجِدُ في كُلِّ خَمْس[٧]، وقامَتْ إليه قِيَامَ الحِرْبَاء إلى الشَّمْس[٨]؛ بَنَاهُ الله بِمَكَّةَ على فَضَاءٍ زَكِيٍّ لم يَتَنَفَّسْ فيه النَّاس[٩]، وخَلاَ إلاَّ من جُحْر أو كِنَاس[١٠]؛ فلا الدُّنْيَا

(١) اللموم: الكثيرة الجمع للناس، صفة مبالغة.

(٢) الموسم: زمن اجتماع الناس، يريد موسم الحج، والحاشر: الجامع.

(٣) المنتدى: مجلس القوم يجتمعون فيه للتحدث. والمؤتمر: حيث يجتمع القوم للتشاور. والمثابة: المجتمع. والزمر: الجماعات. واحدتها: زمرة، بالضم.

(٤) الإبرة، يريد الإبرة المغنطيسية تكون في علبة صغيرة، وهي تدور على محور دقيق لتعرف الجهات. والمبحر: المسافر بحراً، يعني القادمين بحراً إلى مكة. والمصحر: الماشي في الصحراء، فهو يهتدي في سيره بالنجوم.

(٥) القفر: الصحراء، والوجهة، بالضم وبالكسر: الموضع الذي تتجه إليه وتقصده. والكفر: القربة الصغيرة.

(٦) الحرم: حرم مكة، والعتيق: القديم والكريم. والستر: الذي عليه سترة وكسوة.

(٧) خمس، أي خمس صلوات. يعني اتجاه المصلين إلى الكعبة في صلواتهم.

(٨) قامت، أي المساجد، قامت إليه، أي اتجه إليه المصلون فيها. والحرباء: دويبته على شكل سام أبرص، تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيف دارت.

(٩) زكي: طاهر. يعني صحراء مكة.

(١٠) الجحر: حفرة تأوي إليها الهوام وصغار الحيوان. والكناس: مولج في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر.

سحَبَتْ عليه غُرُورَها، ولا النُّفُوسُ نَقَّلَتْ فيه شُرُورَها، ولا الحَيَاةُ أَزَارَتْهُ باطِلَها وزُورَها[١]، لو شاءَ الله لَبَنَى بيتَه بمصرَ على نَهر فيَّاض، ووادٍ كلُّهُ قِطَعُ الرِّيَاض، ولو شاءَ الله لاتَّخَذ بَيْتَهُ بالشَّام بَين الجَدَاوِلِ المُظَلَّلة، والرُّبَى المُكَلَّلة[٢]، والغُصُون المُهدَّلة، والقُطُوف المُذَلَّلة[٣]، ولو شَاءَ الله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لَرَفَع بَيْتَهُ على أُنُوفِ الجبابرة، مُلوكِ الأَعْصُرِ الغابرة، وفَوْقَ هام آلِهَتِهِمْ وهي مُمَهَّدَةٌ مُنَضَّدَة[٤]، في الْغُرَف المُشَيَّدَة، والقِبَابِ المُمَرَّدَة[٥]، ولكنَّه تَعَالى نَظَر إلى أُمِّ القُرَى[٥]، فرَأى بها ذُلًّا لِعِزِّ سُلْطَانِه، وافْتِقَاراً إلى غِنَاهُ وإحْسَانِه، ورَأى خُشُوعاً يَسْتَأْنِس به الإيمَان، وتَجَرُّداً تَسْكُنُ إليه العِبَادَة، ورأى انْفِراداً يَجْرِي في مَعْنَى التَّوْحِيد، فأمرَ إبْرَاهيمَ حَوَارِيَّه[٦]، ونَبِيَّه وخَلِيلَه وصَفِيَّه: أَنْ يَرْفَع بذلك الوادي رُكْنَ بَنِيَّتِه، ويَنْصُبَ بَين شِعَابِه مَنَارَ وَحْدانِيَّتِه[٧]، بُنْيانٌ قَامَ بالضَّعْف والقُوَّة، ونَهضَ على كاهِلِ الكُهُولةِ وساعِدِ الْفُتُوَّة، واشتركتْ فيه الأُبُوَّةُ والبُنُوَّة[٨]، فكُنْتَ تَرى إبراهيمَ يُزَاوِل، وإسْمَاعِيلَ بينَ يَدَيْهِ يُنَاوِل، حتى بَنَيا حَقّاً مَا أَعْيَا المَعَاوِل[٩]، وعَجَز عنه الذي دَمَّر تَدْمُرَ وأَبْلَى بَابِل[١٠]. فانْظُر

---

(١) أزارته: من الزيارة، أي جعلت الباطل يزوره. والزور: الكذب.

(٢) المظللة: على بناء اسم المفعول، أي التي تظللها الأشجار، والربى: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض، وهي أنضر ما تكون نبتاً. والمكللة: المزينة بالثمار والأزهار.

(٣) المهدلة: المدلاة المسترخية. والمذللة: السهلة التناول.

(٤) الهام: الرؤوس، واحدتها: هامة، وهي آلهتهم، أي أصنامهم، وممهدة: معدة، ومنضدة: متراصة، والممردة: المسواة.

(٥) أم القرى: مكة.

(٦) إبراهيم عليه السلام، هو الذي بنى الكعبة يعاونه آبنه إسماعيل عليه السلام، وكان هذا بأمر ربهما، والحواري: الناصر.

(٧) البنية: كل ما يبنى، وتطلق على الكعبة. وينصب: يرفع ويقيم. والشعاب: جمع شعب، بالكسر، وهو انفراج بين جبلين.

(٨) الضعف، يعني ضعف ما قاما ببنائه، والقوة، أي قوة الله وعونه لهما. والكهولة، أي الشيخوخة، يريد إبراهيم عليه السلام.

(٩) يزاول: يباشر ويمارس، يشير إلى قيام إبراهيم عليه السلام بالبناء ووقوف إسماعيل عليه السلام بين يديه يناوله مواد البناء، وأعيا: أعجز. والمعاول: جمع معول، بالكسر، وهو آلة من الحديد ينقر بها الصخر.

(١٠) تدمر: مدينة قديمة في برية الشام، وكانت من عجائب الأبنية. وبابل: مدينة بالعراق مشهورة.

إلى صُفَّاحِ الْبَاطِلِ كَيف باد، وإلى آجُرِّ الحقِّ كيفَ أَفْنَى الآباد[1]؛ وتأَمَّلْ عَجائِبَ صُنْعِ النِّيَّة، وكيف ظَفِرتْ لَبِنَةُ التَّوْحيدِ بصَخْرةِ الوَثنيَّة[2]؛ بُنِيَ البَيْتُ وإذا الجَلال حُجُبهُ وأَستارُه، والحَقُّ حائطه وجِدَارُه، والتَّوْحِيدُ مَظْهرُه ومَنَارُه، والنبيُّون بُنَاتُه وعُمَّاره، والله عزَّ وجلَّ ربُّه وجاره[3]؛ اضْطَلَعت به اضْطلاع المِشكاةِ بالمِصْباح، فَزهَرَ فأَضاءَ الْبَراح، وانْتَظمَ الهِضَابَ والبِطَاح[4]؛ أَضْوَأُ من الشَّمْس ذُبَالَة، وأَبْهَرَ من القَمَر هالَة، في مَنازلِ الشَّرَفِ والجَلالَة[5]؛ قد حازَ الله له من نَبَاهةِ الذِّكْر، وفَخامة الشَّأْن، ما لم يَحُزْ لِقَديمٍ من معالمِ الحَقِّ ولا حَدِيث[6]: بِرُّ العِبادة، وفَضيلةُ الحَجِّ، وشَرف الباني، ورَوْعةُ العِتْقِ، وجَلالَةُ التاريخ. يقول الغُوَاة: لو كانتِ الكعبةُ من ذَهبٍ أو فِضَّة، ويقولون: لو كانت كَبِيَع النَّصارَى في عَوَاصِم الغَرْب: رِفْعَةَ بِنَاء، ودِيباجةَ فَنّ، وَوَشْيَ زُخْرُف!. وأقُولُ للغُواة: لو تُرِكَتْ الكَعبة على فِطْرتِها الأُولَى، فلم يُطَوَّلْ بِناؤُها، ولم تُزيَّنْ بالذهب أَجْزاؤها، ولم تتعدَّدْ في الزُّخرُف أَشياؤها؛ لكانَ بِعَبْقَرِيَّتها، وبرُوحَانِيَّتِها، أَشْبَه وأَخْلَق؛ وفي تَقْدِيرِ قُدُسِها غاية ونِهَاية[7].

---

(١) الصفاح: حجارة رقيقة عريضة. والآجر: اللبن المحرق المعد للبناء. ولم يكن بناء الكعبة به بل كان من حجارة، شبهها بالآجر. والآباد؛ جمع أبد، بفتحتين، وهو الدهر.

(٢) اللبنة: واحدة اللبن، بفتح فكسر، وهو المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ.

(٣) العمار: السكان.

(٤) اضطلعت به: نهضت به. والمشكاة: كوة في الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح. وزهر: تلألأ وأشرق. والبراح: المتسع من الأرض. والبطاح: واحدتها: بطحاء، وهي المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

(٥) الذبالة: الفتيلة التي تسرج، والهالة: الدائرة من الضوء تحيط بالقمر.

(٦) حاز: جمع.

(٧) البيع: معابد النصارى، واحدتها: بيعة، بالكسر، والقدس: البركة.

«٢٨»

الشّهادة(*)

قَصِيدةٌ عُلْويّةُ الرَّوِيّ، مَطْلَعُها الله ومَقْطَعُهـا النَّبِيّ[1]؛ كَلِمَةٌ هي الـدِّين، وهي كُنْـهُ اليَقِين، وهي الحَقُّ المُبِين[2]؛ أَرْسَلَهـا الأَذانُ سَمْحــةً. فَقَـرَّت في الأَذْهَان أَوَّلَ وَهْلة[3]؛ ولِمَ لا؟ وهي الحَقيقةُ العُـرْيَانـة، والصُّبْحُ الَّـذِي عَرَضَ عِيَانَه، فكَفَى العُيونَ بُرهانَه وبَيانَه[4]؛ كانت شِعَار الدَّاخلِ في الدِّين الجَدِيد، وجَـوَاز الخَارِج إلى أَقْـطَار التَّوْحِيـد[5]؛ ولم تَـزَلْ مُقـدِّمَـةَ الكِتَـاب، وفـاتِحـةَ الخِـطَاب، ومِفْتَاحَ البـاب، وحافَـةَ الغَاب[6]؛ إِذْن، سَهْـل، وحِجَابٌ سَمْـح، وسـاحةُ فَضْـل، لا تَحْجُبُ مُسْتَـأْذِنـاً، ولا تَتَصَعَّبُ على مُعـالـج، ولا تَضِيقُ بنَـزِيل. ومِن عَبْقَـرِيَّةِ الشَّهـادة ـ أَماتَنـا الله وإيّاكَ عليهـا ـ أنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بـالله

(*) االشهادة، هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهي الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، وعليها يتبنى.

(١) الروي: الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وإليه تنسب. والمقطع: من كل شيء آخر حيث ينقطع وينتهي.

(٢) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته.

(٣) أرسلها: أطلقها، والأذان، أي أذان المؤذن للصلاة، وسمحة: فيها يسر وسهولة. وأول وهلة، أي أول كل شيء.

(٤) العيان: المعاينة.

(٥) الجواز: ما يسمح لك بدخول أي بلد. وأقطار التوحيد، يعني الأقطار السعودية، حيث مكة.

(٦) الغاب: جمع غابة، وهي الأجمة ذات الشجر الكثير المتكاتف، وإن صحت العبارة فلعله يريد التوحيد وما إليه.

طالما أوقعَ في نُفُوسِ الجَمَاعاتِ أَنَّها أَفْضَلُ عَمَلِ العَبْدِ عِنْد رَبِّه، وأَنَّها رُبَّما قامتْ مَقامَ الأَداءِ عَن سائر الفَرَائِض، حتى فَرَّط المُفرِّطون، وهُمْ عليها يَتَّكِلون، وتَكثَّرَ من الخَطايا المُذْنِبون، وهم يَرْجُون عندها النَّجَاةَ ويأْمُلون. إذا حضرَ الموتُ هَوَّنتْ لِقاءَه، وقلَّلتْ هَوْلَ ما وَراءَه، وجعلَها الخائفُ أَمْنَه ورَجاءَه، والقَليلُ العَزَاءِ أَسْوَتَهُ وعَزاءَه. وقدَّمَها المُقِل بين يَدَيهِ عَمَلاً يَرْجُو جَزاءَه.

«٢٩»

الوضوء

كَمَالُ أَدَبِ الصَّلاَة، وتَمَامُ الخِدْمَة، والتَّعْظِيم لله، عِند تَوَجُّـه العَبْدِ إلى مَـوْلاه. شُرعَتْ وَسِيلة، وسُنَّـةً جَمِيلة، وصالِحـةً وفضيلـة؛ حُكْمُ حِكْمتُـهُ لا تَتِمّ، حتى يَنْتَظِمَ النَّفْسَ والجِسْم[١]؛ فإن جَمَعْتَ نَقاءَ الباطِن والـظَّاهر، فـأنت الذي صَلَّى له وهو طَاهِر[٢]؛ ولو قُصِرَت الطَّهـارة على وُجوهٍ تُغْسَـل، وأَرْسَاغٍ تُبَلَّل، وثِيَـابٍ تُنَظَّفُ وتُجَمَّـل[٣]؛ لكانَ المَيْتُ أَطْهَـرَ من الحَيّ[٤]؛ فيا أَصْحَـابَ الـوُضُوءِ غَسَلْتُم الجَـوَارِح، فهل غَسَلتُمُ الجَوانِح؟[٥] وَرَحَضْتُمُ الأَطْـرَاف، فهل رَحَضْتُم الأَجواف؟[٦] طَهَّرتُم الـرَّاحَ من الأَنْجَاس، فهـل طهَّرتمـوهـا من أَشْيَـاءِ النـاس؟[٧] ونَظَّفتُمْ من الـطُّرُقِ الأَقْدام، فهـل نَظَّفْتُمُـوها من سُبُـل الحَرَامِ، ومَسَالِكِ الإِجْرامِ؟[٨] وتِلْكَ الوُجوهُ المَمْسُوحَة بالماءِ، هل تَرقْرَق فيهـا الحَيَاء؟ وهل نُقِّيت من وَضَرِ الرِّياء؟[٩].

---

(١) ينتظم: يضم. (٢) له، أي لله تعالى.
(٣) الأرساغ، جمع رسغ، بالضم، وهو مفصل ما بين الساعد والكف، والساق والقدم.
(٤) يعني الميت يسبغ عليه الغسل ويكفن في جديد.
(٥) الجوارح: الأعضاء العاملة من أعضاء الجسد كاليد والرجل، الواحدة: جارحة، والجوانح: الأضلاع القصيرة مما يلي الصدر، واحدتها: جانحه، يعني ما تنطوي عليه تلك الجوانح.
(٦) رحضتم: غسلتم.
(٧) أشياء الناس، يعني ما يملك الناس.
(٨) السبل: الطرق، واحدها سبيل. (٩) الوضر: الوسخ.

«٣٠»

الصّلاة

لو لم تكُنْ رَأْسَ العِبادات، لعُدَّتْ من صالِحة العادات؛ رِيَاضَةُ أَبْدَان، وطَهارُة أَرْدَان، وتَهْذِيبُ وجْدَان، وشَتَّى فَضائِل يَشِبّ عليها الجَوَارِي والوِلْدَان(١).

أَصْحَابُها هم الصَّابِرُون، والمُثَابِرُون، وعَلى الوَاجِب همُ القادرون؛ عَوَّدَتْهم البُكُور، وهو مِفتاحُ باب الرِّزْق، وخَيْرُ ما يُعالِجُ بِهِ العَبْدُ مُناجاة الرَّازِق، وأَفْضَلُ ما يَرُودُ به المَخْلُوقُ التَّوجُّه إلى الخالق(٢)؛ ولَهُم إليها بَعد البُكُورِ رَوَاح(٣)؛ فإذا هي تَصْرِفُهُم عن دَوَاعِي اللَّيْلِ ومُغْرِيَاتِه، وتَعْصِمُهم فيه من عَوَادِي الفَرَاغِ ومُغْوِيَاته(٤)، واللَّيْلُ خَلَواتٌ وشَهَوَات، وبَيْتُ الغَوَايَات.

وتجزئة الوَقْتِ مع الصَّلاَةِ مَلْحُوظَة، وقِيمَتُه عِند الذين يُقِيمُونها مَحْفُوظَة، عوَّدتْهم أن يَذْكُروه، ويُقَدِّروه، وأن يَسُوسُوه في أَعْمَالهم ويُدَبِّروه، والوَقْتُ مِيزانُ المَصَالِح، ومِلاَكُ الأُمُور، ودُولاَبُ الأَعمال(٥).

---

(١) الأردان: الأكمام، واحدها: ردن، بالضم.

(٢) يعالج: يزاول ويمارس. والمناجاة: المسارّة. ويرود: يسعى.

(٣) البكور: الخروج أول النهار قبل أن تطلع الشمس. والرواح: السير في العشي.

(٤) دواعي الليل: أسبابه الشاغلة الصارفة. ومغرياته، أي ما يحرض على الفساد، ومغرياته: مضلاته. والغوايات: الإمعان في الضلال.

(٥) وأن يسوسوه: وأن يوجهوه

أُنْظُرْ جلَالَ الْجُمَع، وتأَمَّلْ أثَرَها في المُجْتَمَعُ، وكيف ساوَتْ العِلْيَةَ بالزَّمَع[1]؛ مَسَّت الأَرْضَ الجِبَاهُ، فالنَّاسُ أَكْفَاءٌ وأَشْبَاه، الرَّعِيَّة والوُلَاة، شَرَعٌ في عَتَبةالله[2]؛ خَرَّ الجَمْعُ للمَنَاخِر، فالصَّفُّ الأَوَّلُ كالآخِر، لم يَرْفَع المُتَصَدِّرَ تَصَدُّرُه، ولم يَضَع المُتَأَخِّرَ تأَخُّرُه[3]،

(١) العلية: السادة. والزمع: الأتباع ومن لا يؤبه لهم.
(٢) شرع: سواء.
(٣) المناخر: جمع منخر، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه وكسره، أو بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه، وهو الأنف. يريد الأنوف.

«٣١»

الصّوم

حِرْمَانٌ مَشْرُوع، وتأْديبٌ بالجُوع، وخُشُوعٌ لله وخُضُوع، لكلِّ فَرِيضةٍ حِكْمة، وهذا الحُكْمُ ظاهرُه العَذابُ وباطنُه الرَّحْمة، يَسْتَثِيرُ الشَّفَقَة، ويَحُضُّ على الصَّدَقة؛ يَكْسِرُ الكِبْر، ويُعلِّمُ الصَّبْر، ويَسُنُّ خِلَال البِرّ[1]؛ حتى إذا جاع مَنْ أَلِفَ الشَّبَع، وحُرِمَ المُتْرَفُ أَسبابَ المُتَع[2]، عَرَفَ الحِرْمَانَ كيف يَقَع، والجُوعَ كيف أَلمُهُ إذا لَذَع.

---

(١) يسن: يضع، والخلال: الخصال، واحدتها: خلة، بالفتح.
(٢) الترف: التنعم.

«٣٢»

الزّكاة(*)

حِزْبُ الاشْتِرَاكِيّة، وحَرْبُ البُلْشُفِيَّة[١].

أَيُّهَا النَّاس:

أَمَـرَ الله فَصَلَّيْتُمْ، ونَهَى المالُ فمـا زَكَّيْتم؛ فَـرَّقْتُم بين الخَمْسَـة وكلُّهـا حُكْمُ الـواحـد، فَلِكُـلٍّ أَلفِ مُصَلٍّ مُـزَكٍّ واحـد![٢] آستَسْهلْتم فـأَخـذْتم، واستصْعَبْتُم فَنَبَذْتم؛ فلو دَخَلَ المالُ في الصَّلاة لأَقْفَرَتْ مِنْكم مَسَاجِـدُ الله[٣]، ولو غُرِّمَ أَحَدُكم على الشَّهادة، لكان به على نُطقِها زَهَـادة! أَعَلِمتم أَنَّ الزكـاةَ قُرُوض، وأَنَّها وِقاءُ الأَعْراضِ والعُروض[٤]، وأَنَّها لَيْسَتْ بالعَبَثِ المَفْروض[٥]؛ هي مالُ الفَقِير خَلَسْتُموه، ورزقُ المحرومِ حَبَسْتموه، وحقُّ العَاجـز في الحَياةِ

(*) الزكاة: حصة من المال ونحوه يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم بشروط خاصة.

(١) الحزب: الأعوان، والاشتراكية: مذهب سياسي اقتصادي يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج. والبلشفية: مـذهب شيوعي يـرى أن من المستحيل على الهيئـة الاجتماعيـة أن تنتقل طفرة من النظام الرأسمالي إلى النظام الشيوعي، وأنه لا بد من دور انتقالي يطبق فيـه مذهب الجماعية.

(٢) الخمسة، أي أركان الإسلام الخمسة.

(٣) أقفرت: خلت.

(٤) الزهادة: الزهد وعدم الرغبة في الشيء.

(٥) القروض: جمع قرض، بالفتح، وهو ما تعطيـه غيرك من مـال على أن يرده إليـك. يشير إلى قوله تعالى: **﴿واتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عنـد =**

بَخَسْتُمُوه، وحُكْمُ الذي أغناكم قد دُسْتُموه[1]؛ تُقْرِضُـون الوُلَاة، ولا تُقْـرِضون الله، وتُنفِقون تَمَلُّقاً لأَهلِ الجاه، ولا تُنْفِقُون تعلُّقاً بالنَّجاة.

= الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ [المزمل: ٢]، والأعراض، جمع عرض، بالكسر، وهو ما يمدح ويذم من الإنسان، سواء أكان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره. والعروض، جمع عرْض، بفتحتين. وهو متاع الدنيا قل أو كثر. والعبث: ما لا فائدة فيه. والمفروض الموجب.

(١) خلستموه: استلبتموه مخاتلة. ويخستموه: نقصتموه.

«٣٣»

الحجّ

مَـوْكِبُ الإسلامِ ومَـظْهَرُه، ولُبَـابُ حَسَبِه وجَـوْهَرُهُ، ومَـوْسِمُـه الحَـرَامُ أَشْهُرُه[١]؛ مِهْرَجانُه العَظِيم، وعُرْسُه الفَخِيم، ونَدِيُّه الكَرِيم، والنَّظْمُ الذي قَرَنَ فيـه الدُّنْيَـا إلى دِينِهِ القَـوِيم[٢]، وأَفَـاض بَـرَكَـاتِـه على التِّجـارة[٣]؛ وسَخَّـرهـا لِخِدْمَتِه، وإظْهَـارِ دَعْوتِـه، وجَمْعِ كَلِمتِـه، وتَوْثِيق عُـرْوَتِه[٤]؛ فـإذا أَطَلَّتْ أيامُ الحَجِّ المُبَارَكـات نَظَرْتَ إلى البِـلَاد فَرأَيْتَ أَسْـوَاقاً مـاجَت، ومَتَاجِـرَ راجَتْ، ومَـطَايَـا مِن مَـرَابِضِهـا آهْتَـاجَت[٥]؛ ورأَيْتَ الحِجَـازَ مُهْتَـزَّ المَنَـاكِب، يَمُـوجُ بـالمَـوَاكِب[٦]؛ مُفْتَـرَّ المَبَـاسِم، في وُجُـوهِ المَـوَاسِم[٧]؛ أَخلَفَـهُ الغَيْث فمُـطِرَ الذَّهَب، ويَبِسَ الزَّرْعُ فطَعِمَ الرُّطَب[٨]؛ أَزْوَادٌ تُعَدّ، ورِحَالٌ تُشَدّ، وشُرُعٌ تُمَدّ،

---

(١) اللباب: خالص كل شيء. وحسبه، أي ما هو من مفاخر الإسلام. والموسم: موعد اجتماع الناس. وأشهره حرام، أي حرم فيها القتل والعدوان..

(٢) الندي: مجلس القوم ومجتمعهم.

(٣) اليسارة: اليسار.

(٤) العروة: ما يستمسك به ويعتصم. وتوثيقها: إحكامها.

(٥) ماجت: اضطربت من زحمة الناس. والمطايا: ما يمتطى ويركب. واحدتها: مطية، والمرابض: جمع مربض، وهو موضع إقامتها.

(٦) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس العضد والكتف. واهتزازه يكون مع الفرح والنشوة.

(٧) المباسم، جمع مبسم، وهو الثغر، وافترارة: ابتسامته حتى تبدو ثناياه.

(٨) أخلفه الغيث: لم يسقط في موعده.

وحـاجـاتُ تَنشَـأُ وتَسْتَجِـدّ[1]؛ وأُمَمٌ أَتَـوْا مِن نَـوَاحي البِـلَاد يَضَعُـون التُّحَفَ المَجْلُوبة، ويَأْخُذُون الأَجْرَ والْمَثُوبة.

فيأَيُّها المُعْتَزِمُ حَجَّ البَيْت، المُشَمِّـر لأَداء الفَرِيضـة. لقد أَطَعْت، فهـل آسْتَطعْت، وأَجَبْت فهل تَأَهَّبْت؟ وهل عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ شِرْعَةُ السَّمَاحة، وأَنَّ رَبَّ البَيْت واسِعُ السَّاحة؟[2] يُعْفِي المَرِيضَ حتَّى يُعَـافَى، ويُقِيلُ المُعْـدِمَ حتى يجِـد[3]، ولا يُؤَاخِـذُ أَخَـا الـدَّيْن حتَّى يَقْضِيَ دَيْنَـه، ولا يُنْكِـر على الخـائِف القَرَارَ، حتى تأمَنَ السَّبِيل، من وَبَاءٍ مُهْتَاج، أَو لُصُوصٍ قـد أَخَذُوا الفِجَـاج، أَو حُكومةٍ جائِرة تَبْتَزُّ الحُجَّاج؟[4].

كُبْـرَى الكَبَائِـر أَن تَلْقَى الله في بَيْتِه وبَين وَفْـده، بِمَالٍ خَلَسْتَـه من أَحدِ آثْنَين يُحبُّهمـا الله حُبّاً جَمّاً: اليَتِيم، وأَنتَ تَعلمُ أَنَّ مـالَـه نـار، وأَنَّــه نَحْسُ الدِّرْهَم نُحَاسِيُّ الدِّينَار[5]، والفَقِير، وقد فَرَضَ الله له في مالِكَ حِصَّـةً سمَّاهـا الزَّكاة، فتَغَابيْتَ يا مُخَادِعَ الله، وخَرَجْتَ بهـا تَحُجُّ للتَّـظَاهر والمُبَـاهَاة؛ وهـل عَلِمْتَ أَنَّ الله لا يَقْبَـلُ مِنك مـالاً، ونَفَقَةُ المُـطَلَّقة، مِن مَـطْلٍ مُعَلَّقـة[6]، وذو القُـرْبَى وَرَاءَك جائِـع، والولَـدُ طريـدُ المَدَارسِ ضـائِع؛ وتِجَـارَتُـك مُختَلَّة، وأَمانَتُك مُعْتَلَّة؛ وجارُك الضَّعِيفُ يَضِجُّ من حَيْفِـك، وخصيمُك الأَعْـزَلُ يَشكو سَـطوَةَ سَيْفك[7]؛ فـإِنْ لم يَكُن شَيءُ من ذلك، أَو ممَّـا إِليه[8] فَسِـرْ على آسم ِ الله، وحُجَّ بَيْتَ الله، وارجعْ بِرِضْوان من الله.

---

(١) الأزواد: جمع زاد، وهو الطعام يتخذه المسافر. والشرع، جمع شراع، وهـو قلع السفينة. ومده: نشره للإقلاع.

(٢) الشرعة: المذهب المستقيم.

(٣) المعدم: الفقير، وإقالته: إنهاضه.

(٤) الفجاج: الطرق، واحدها: فج، بالفتح، وأخذها: الاستيلاء عليها ومنع الناس من عبورها.

(٥) نحاسي الدينار، أي ديناره من نحاس لا من ذهب فلا قيمة له.

(٦) المطل: التسويف، والمعلقة: المرأة التي لا يعاشرها زوجها ولا يطلقها.

(٧) الحيف: الجور والظلم.

(٨) أو مما إليه، أي ما يشبهه.

«٣٤»

خطيب المساجد

يا مُرْشِدَ العابِد، ورَادَّ الغوِيِّ الشَّارِد[١]؛ أَعَلِمْتَ أَيَّ مُقَامٍ أُقِمْت، ولأَيِّ بَلاَءٍ قُدِّمْت؟ إنَّما نُدِبْتَ للوَعْظِ والإرشاد، وتَعليم العِلْيةِ والسَّوَاد، أَدبَ المَعاش والمَعاد، وخلَفْت الخُلَفاءَ على تلك الأَعْواد[٢]؛ الآذانُ لك مُرْهَفَة، والأَذهانُ إليك مُتَشَوِّقة[٣]، فماذا عِندَكَ للأَتْقياء، من الأَغْنِياء؛ ولِكُلِّ مُموِّل، في الصَّفِّ الأَوَّل؛ من إشَارةٍ إلى الذَّهب المُدَّخَر. والقَريبِ الضَّجِر، والوارث المُنْتَظِر؛ وإلى الخَيرِ وجَمْعيَّاتِه، والبِّر وقَضِيَّاته؛ وماذا أَعَدَدْت للتاجر، من الوعظ الزَّاجِر؛ تَحُضُّه فيه على الأَمانة، وتُحَذِّرُه عَوَاقِبَ الخِيَانة، وتُوصِيه بِسُمعتِه ضَنًّا وصِيانة؛ أَو الذي بذلت للعامل والصانع، من لَفْظٍ رائعٍ، ووَعْظٍ جامع، في السُّلُوكِ الحَسَن والدَّعوةِ إليه، وإتقانِ العَمل والحَضِّ عليه، وهَل ذَكَرت للعامَّة أَن ضَرْبَ النِّسْوة، ضَرْبٌ من القَسْوة، وأَنَّ البَغْيَ بالطَّلاق، يَمْقتُه الدِّينُ والأَخلاق، وأَنَّ الطِّفْلَ مِن حَقِّه أَن يُهَذَّب، لا أَنْ يُضرَبَ ويُعَذَّب، وأَن يُكْسَبَ عليه، لا أَن يَكْسِبَ هو على أَبَوَيه؛ وأَن التَّيْسَ لو عَقَل ما اتَّخَذَ نَعْجَتَيْن، فكَيف يَتزَوَّجُ الفَقِيرُ العاقِل اثْنَتين؛ أَم أَنْتَ كما زَعَموا بَبَّغاء

---

(١) الغوي: الضال، والشارد: النافر المستعي.

(٢) الأعواد، أي المنابر.

(٣) مرهفة، أي منصته، ومتشوقة: مشتاقة.

لم تَحْفظْ غَيْرَ صَوْت، تُرَدِّدُه إلى المَوْت؛ كَلِمَاتٌ مَحْفُوظَة، في كُلِّ مَكْتُوبةٍ مَلْفُوظة، سَيفٌ من خَشب، وخُطُوبٌ في صُورة خُطَب[1].

(١) الخطوب: الدواهي والمصائب، واحدها: خطب، بالفتح.

«٣٥»

الطلاق

أَزمةٌ تَمنعُ أَزَمات، ومُلِمَّةٌ تَدفعُ مُلِمَّات[١]؛ دواءٌ ساءَ استعمالُهُ فصارَ هو الداء، ودِرْعٌ للتَّوقِّي عادتْ آلةَ آعْتداء، نَظْمٌ على غير أُصُولِه مُتَّبَع، عَبِثَ به الجَهْلُ حَتى آنْقَطع، وضاعت على الشارع حِكمةُ ما شَرَعَ[٢]؛ جَلالٌ عليه بَشَاعة الحَرَام، وحَقٌّ يَشْرَه إليه اللِّئَام، ويُكْرَهُ عليه الكِرام[٣]؛ مَنعَ الله به الظُّلْم، رَأْفةً بِكُمْ ورَحْمة؛ فما بالُكم قَلَبْتمُ الحُكم، وعَكَسْتُم الحِكْمة؛ تَخْتَلِقون الرِّيَب، وتُطلِّقون على غَضَب، وتُسَرِّحُون بلا سبب؟[٤].

أَيُّها الناس، إن كان الكِتابُ تَسمَّح، فإِنَّ الحديثَ قد لَمَّح[٥]؛ هَبُوا أَنَّ الشارعَ أَطلقَ الطَّلاق آتِّكالاً على الدِّين والأَخلاق؛ أَليس المَوْقِفُ مَوْقِفَ حَذَر، والمَسأَلة فيها نَظَر، أَمْرٌ تَبِعَاته على ضَمَائِركم، وسُوءُ آسْتعمالِه على سَرَائِركم، وفَضيحة بَعْضِكم به واقعةٌ على سائركم؛ أُولئك أُمَمُ النَّصْرانِيَّةِ أَصحابُ الحَضارةِ الحاضرة، حَرَّم الطلاقَ دينُهم، ثم حَلَّلَتْه قوانينُهم، ولكن في دائِرة الحَقِّ، ووُجوهِ الرِّفق؛ وبإِشرافِ قُضاةٍ يَحْمون نُظَمَ الزواج من عَبث الخَاصَّة، وجهالة العامَّة.

---

(١) الملمة: النازلة الشديدة من شدائد الدهر.
(٢) النظم: العقد المنظوم.
(٣) يشره: يشتد حرصه عليه.
(٤) تسرحون: تطلقون.
(٥) تسمح: تسهل. ولمح: أشار.

«٣٦»

البحر المتوسّط

سَيِّدُ الماءِ، وَمَلِكُ الدَّأْماء، مَهْدُ العِلْيَةِ القُـدَماء[١]؛ دَرَجَت الحِكْمَـةُ مِنْ لُجَجِه، وخَرجتِ العَبْقَريَّةُ مِنْ ثَبَجه، ونَشَأَتْ بَنَاتُ الشِّعْرِ في جُزُره وخُلُجه[٢]؛ بَـدَتِ الحَقِيقَةُ للوُجـود مِنْ يَبَسِه ومـائه، وجَـرَّب ناهِضُ الخَيَـالِ جَنَاحَيْـه بَين أرضِـهِ وسَمائـه[٣]؛ العُلومُ نَزَلَتْ مُهُـودَها مِنْ ثَـرَاه، والفُنُـونُ رَبِيَتْ في حِجَـال رُبَاه، والفَلْسَفَة تَـرَعْرَعَتْ في ظِلِّه وذَرَاه[٤]؛ بِنْتَـاءُور وُلِدَ على عِبْـرِه، وهوميـرُ مُهِّـدَ بَيْن سَحْرِه ونَحْـره، ونَحَتَ الإلْيَاذة مِنْ صَخْـره، وهِيرُودُوتُ دوَّنَ مُتـونَـهُ على ظَهْره، والإسكَندرُ آنْتَهَى إليه بفَتْحِهِ ونَصْره[٥].

(*) درج الناس قديماً على هذه التسمية، وهم الآن يسمونه باسمه الصحيح: البحر المتوسط.

(١) الدأماء: البحر. والعلية: جمع عليّ، بفتح فكسر فياء مشددة، وهو الرفيع القدر.

(٢) درجت: دبت. واللجج، جمع لجة، بالضم، وهي معـظم البحر وتـردد أمواجـه. والثبج: وسط الشيء. وبنات الشعر: قصائده، والخلج: جمع خليج، وهـو آمتداد من المـاء يتوغـل في اليابس.

(٣) الناهض: فرخ الطائر إذا قدر على الطيران، شبه الخيال به أول ما كان.

(٤) المهود: جمع مهـد، بالفتـح، وهو السـرير يهيـأ للصبي، وربيت: نشأت. والحجـال: جمع حجلة، بفتحات، وهي ساتر كالقبة يزين للعروس. والربى، جمع: ربوة، بـالفتح. وهي مـا ارتفع من الأرض. والذرا: الكنف.

(٥) بنتاءور: شاعر نشأ في عهد فراعنة مصر. والعبر، بالفتـح أوله وكسـره، السـاحـل والشاطىء. وهومير (هـوميروس): من أقـدم شعراء اليـونان. والسحـر: كل مـا تعلق بالحلقـوم من قلب ورئة. والنحر: أعلى الصدر والإلياذة: ملحمة لهوميروس تنتظم أربعة وعشرين نشيـداً تروي أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطرواديين، وهيرودوت (هيردوتس): مؤرخ يونـاني. يلقب =

المُـوسِيقَى دَبَّتْ في أَحْناء هَيَـاكِلِهِ، وشَبَّتْ في أَفْيَـاء خَمَـائِله[1]؛ ثُمَّ لم يَزَلْ بها ترسُّلُ الرُّهْبان، وتَرَتُّلُ الأَحْبَار والكُهَّـان[2]؛ حتَّى جَاوَزَت الحَنَـاجِرَ إلى المَعَازِف، فنَزَلَت اليَرَاعَ المُطرِّبَ والنُّحَاسَ الهاتِف[3]؛ لَمْ تَخْلُ ثُكْنَةٌ مِن بُوق، أو طَبْـلٍ مَـدْقُـوق؛ ولم يَخْـلُ كُـوخٌ مِن يَـرَاعٍ مَثْقُـوب، ولا قَصْـرٌ مِن وتَـرٍ مَضْرُوب[4].

وعلى أَدِيم الأَبْيَض المُتَـوَسِّط. مَشَى المَثَّـال الأَوَّل، وبِحِجَـارَتِـه وَقَف فَتَخَيَّل؛ فَلاَنَ لِبَنَانِهِ الحَجَر، ودَانَ لمِنْحَاتِهِ الصَّخَر؛ حتَّى زَيَّنَ الـزُّون بالبَـدِيع والغَرِيب، ونَثَرَ الدُّمَى على المَحَارِيب، وجاءَ في الفَنِّ بالأَعَاجِيب[5]؛ صَنَع أَبَا الهَوْل[6]، فجاءَ بالهَوْل والزَّوْل؛ كانَ ذلك حِينَ سائِـرُ المَعْمُور مَجَـاهِل والنَّـاسُ جُهَّال؛ عالَمٌ غافِل يَهِيمُ في أَغْفَال[7].

فيا ناشِئ الكِنَانة[8]:

إذا وَقَفْتَ على لُجَّـة الـرَّمْـل، أو نَقَّلتَ القَـدَمَ على رَمْلَة المَكْس في أَصِيلٍ لَذَّتْ حَوَاشِيه، وحَلَّى جِلْبَابَهُ بالذَّهَب واشِيه، وفَضَاءٍ أَصْفَرَّ مِن نَعِيِّ الشَّمْسِ

= بأبي التاريخ. وقد أرخ فيما أرخ للعراق وفينيقيا ومصر. والإسكندر، هو الإسكندر الأكبر المقدوني، امتدت فتوحاته إلى آسيا، وإليه نسبت مدينة الإسكندرية.

(١) الأحناء، جمع حنو، بالكسر، وهو الجانب. والأفياء: الظلال، واحدها: فيء، بالفتح، والخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر المجتمع الكثير الملتف الذي لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه.

(٢) الترسل: التمهل والترفق. والترتل: التأني.

(٣) المعازف، جمع معزف، بالكسر، وهو آلة للطرب. واليراع: القصب يزمر فيه، واحدتها: يراعة، والمطرب: الذي يرجع الصوت ويمده، والهاتف: الصوت، يعني آلات الموسيقى النحاسية.

(٤) الثكنة: مركز الجند.

(٥) الزون: الصنم.

(٦) أبو الهول: تمثال يجمع بين رأس إنسان وجسم أسد، وهو إلى جانب أهرام الجيزة. والزول: العجب.

(٧) يهيم: يخرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه. والأغفال: الأرض لا علامة فيها ولا أثر، واحدها: غفل، بالضم.

(٨) الكنانة: جعبة السهام، سميت بها مصر.

ضاحِيه، وقُرِّبَتْ لها الأَكْفَان مِنْ زَعْفَرَانٍ نَواحِيه[1]، فَتَبَصَّرْ هَلْ تَرى غَيْرَ ساحِلٍ طَيِّب البُقْعَة، وأَدِيمٍ جَيِّدِ الرُّقْعَة، وهَل تُحِسُّ غيْرَ بَحْرٍ ضاحِك الماء، مُتهلِّلِ السَّمَاءِ، حُلْوِ بَشَاشَة الفَضَاء؛ يَصْحَبُ الصَّحْوَ، ويَسْحَبُ الزَّهْوَ، ويَلْهُو وما عَرَفَ اللَّهْو، وخَرِيرُهُ تَسْبيحٌ وما هُو بِلَغْو؟

لآبَائِكَ عِنْدَه مُنْذُ ماجَت أَمْوَاجُه، ولجَّتْ لُجَاجُه، وهَدَرَ عَجَّاجُه، وأُنْشِىءَ للرِّيَاحِ شِرَاعُهُ وسَاجُهُ[2] - جِوَارُ الأَكْرَمِين، وصُحْبَةُ المُحْسِنين، وكَنَفُ السِّمَاحِ الخَيِّرين؛ شَمسٌ مُتَوَقِّدَة، وطَبِيعَةٌ مُتَوَدِّدَةٌ، ولُجَّةٌ غيْرُ مُتَمَرِّدة[3]، وغَيْرُه من البِحَار ذَمِيمُ الجِوَار، لَئِيم النِّجَار[4]؛ ضَبَابٌ مُخَيِّم، وسَحَابٌ مُدَيِّم[5]؛ أَعاصِيرُ مُرْسَلَة، وصَوَاعِقُ مُنَزَّلة؛ زَمَنٌ مُضْطَرِب الفُصُول، وطَبِيعةٌ تَخْتَلِفُ وتَحُول، كَما تَلَوَّنُ في أَثْوَابِها الغُول[6].

تِلكَ اللُّجَّة - أيُّها النَّاشِىء - هي من أَوْطَانِكَ عُنْوَانُ الكِتَاب، ومِصْرَاعُ البَاب، ووَجْهُ الخَمِيلة، وظَاهِرُ المَدِينة؛ وعَوْرَةُ الحصن؛ وإنَّ قوماً لهم على البَحْرِ مُلْك، وليس لهم فيه فُلْك؛ لَقَوْمٌ دُولَتُهم واهِيَة السِّلْك، وسُلْطَانُهم وإنْ طَالَ المَدَى إلى هُلْك.

ويأَيُّها الأَبْيَضُ الأَغرُّ سَلَام، وإن أَنْزَلْتَنا عَن صَهْوَتِكَ الأَيَّام، وأَبْدَلَتْنا مِن سُلْطانك الخافِق الأَعْلَام، بِمَمَالِكَ مِن كَلَام، ودُوَلٍ مِن أَمانِيّ وأَحْلَام؛

---

(١) لجة الرمل: الرمل المجتمع المضطرب. ولذت: كانت شهيّة، والحواشي: الجوانب. المكس: حي من أحياء الإسكندرية. والأصيل: الوقت حيث تصفر الشمس لمغربها. والواشي: الذي ينمنم الثوب وينقشه ويحسنه، والنعي: خبر الموت. والضاحي: الظاهر البادي.

(٢) لجت: عظمت واختلطت، واللجاج، اللج، بالضم، وهو معظم الماء حيث لا يدرك قصره. وهدر: صوت. والعجاج: صوت الماء. والشراع: قلع السفينة، والساج: ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً، ومنه تتخذ سواري السفن.

(٣) الكنف: الجانب، والسماح: جمع سمح، بالفتح، وهو اللين السهل.

(٤) النجار: الأصل.

(٥) مديم: ممطر.

(٦) الغول: نوع من الشياطين. يزعم العرب أنه يظهر للناس في الفلاة فيتلون لهم في صورة شتى ليغولهم ويضللهم ويهلكهم.

ويـا عَـرْشَ الأُبُـوَّة ثَنـاء، وإن ثَلَّك الأَبْنَـاء، ثُمَّ لم يُحْسِنُـوا البِنَـاءَ[1]؛ أَيْن دُوَلُ كـانتْ مَطَالِـعَ أَنْوَارِك، ومَعَـاصِمَ سُوَارِك، ومـا الذي نَـأى بِجَوارِيهـا عن جِوَارِك، وهَوى بِسَوَارِيها في أَغْوَارِك؟ أَيْن الفَرَاعِنَة وما جَدَفُوا من بُرُوج مُشَيَّدة، والبَطَالِسَـة وَمَا مَدُّوا من شُرُعٍ كالصُّـرُوحِ المُمَرَّدة؟[3] وأَيْنَ الشَّـوْنَات الأَيُّـوبيَّة، والبَـوَارِج العَلَوِيَّة؟ هَيْهات! أَزْرى الدَّهْر بالإِسْكَنْدَرِيَّـة[4]، فَحَجَبَ ذلك المنَـارَ، ونَصَبَ هذا الفَنَار، وأين اللَّيْلُ والنَّهار، وأين الظُّلُماتُ من الأَنـوار؟[5] ذلك كـان أَضْوَأَ هَـالَـة، وأَسْـطعَ على التَّمكُّنِ في الأَرضِ دَلاَلـة، وأَضْفَى على مَنَـاكِبِ البَـرِّ والْبَحْـرِ جَلالَـة؛ يَهْتَدِي بِـهِ الـدَّاخِـلُ والخَـارِج، ويَسْتَـأْمِنُ الـدابُّ في حِمَـاهُ والدَّارِج؛ وتُنِيفُ عليه البُروجُ وتُطِيفُ به البَوَارِج[6]؛ وهـذا سِرَاجُ بَيْت، وذُبَـالَة زَيْت، وشُعَاعٌ كنَفَسِ المُحْتَضَرِ حَيٌّ مَيْت.

مُلْكَنا الواسِـعُ مِن وَرَائِه بـابٌ ولا بَوَّاب، وسُـدَّة ولا حِجَاب، غَـابٌ ولا نَـاب، ووكْرٌ ولا عُقَـاب[7]؛ تَعَـاقَبَتْ عليـهِ حُكومـات أَلْقَت السِّـلاَح، وأَلْغت الإِصْلاَح،؛ تَقُول فتَجِدُّ، وتَعْملُ فتَهْزِل، ولا تُحْسِنُ مِن سِيَاسَة المُلْكِ غَيرَ أَن تُوَلِّي وتَعْزِل، وتَجْنِي القُطْنَ ولا تُفَكِّرُ في المِغْزَل، تُخَايِلُ بالبَحْـرِيّة والـوَزِير، وتَأْتي قَبْلَ الماء بالزِّير[8]!

---

(١) ثلّك: هدمك.

(٢) الجواري: السفن. والسواري، جمع سارية، وهي العمود ينشر عليه شراع السفينة.

(٣) جدفوا: دفعوا السفن بالمجداف. والبروج، يعني السفن العظيمة التي تشبه الأبنية العالية الذاهبة في السماء، والشرع: جمع شراع، وهو قِلع السفينة، يريد السفن، والصروح، القصور العالية، واحدها: صرح، بالفتح، والممردة: المملسة، يريد السفن العظيمة.

(٤) الشونات: السفن الحربية. والبوارج: السفن الحربية. والعلوية: نسبة إلى محمد علي مؤسس االدولة العلوية بمصر. وأزرى بالشيء: تهاون به.

(٥) المنار: موضع النور. يشير إلى منار الإسكندرية القديم، والفنار: مصباح قوي لهداية السفن، وهو المنار محرفاً. يندب حظ الإسكندرية بمنارها القديم.

(٦) الداب: الذي يمشي رويداً. والدارج: الذي أخذ في الحركة ومشى قليلاً أول ما يمشي، وتنيف: تشرف.

(٧) السدة: باب الدار، والغاب، جمع غابة، وهي مجتمع الأشجار، وتكون مأوى الأسد، والناب: السن جانب الرباعية وبها القضم، ويكنى بها عن الذائد المدافع. والوكر: عش الطائر، والعقاب: طائر من كواسر الطير.

(٨) تخايل: تفاخر.

«٣٧»

الظّبي

عَرُوسُ البِيد، الفاتِن كالغِيد، بالمُقْلَة والجِيد، الفارُوقة الرِّعْديد[١].

وَصَفْتُه فقُلْت: عَينان سَوادُهما داج، وبياضُهُما عاج، وإنسانُهما حائِر ساج[٢]، في رَأْس كأنَّه قَدَمُ الكَعَاب. أو كأنه خَزَفِيٌّ في الأَكواب، رُكِّب في عُنُقِ كإبْرِيق الشَّرَاب[٣]؛ وله رَوْقَان، كأنّهما نَصْلانِ صَدِئان؛ وكأنَّ إبْرَتَيْهما مِرْوَد انْتَشر عليه الإثْمِد[٤]، وكأَنَّ قَوَائِمه السُّمْرُ الخِفَاف، وكأنَّ زِجَاج أَرْماحِها الأظْلاف[٥]؛ كُلُّ ذلك في إهَاب أغْبَرِ اللَّوْن كَدِر، كأنَّه الثَّوب السَّوِيّ المُنْقَدر، لَيْس بفَضْفَاض، ولا بالمُنْحَسِر[٦]؛ وإذا عَدَا فَسَهم، وإذا أَخَذه المَدَى فَوَهْم؛ وثَبَاتٌ تَنْتظم الرَّبْوَةَ والحُفْرَة، وتُثْبِت وُجُودَ الطَّفْرة[٧]، وإذا قام على ظِلْفَيْه، وأَرْهَف للرِّيَاح خُرْتَيْه[٨]، وشَرَع في السَّماء رَوْقَيْه، خِلْتَهُ دُمْيَة مِحْرَاب، أو شُجَيْرَة عليها تُراب.

---

(١) البيد: الصحراوات، واحدتها: بيداء. والغيد: الحسناوات، واحدتها: غيداء والفاروقة: الشديد الفزع.

(٢) الداجي: الشديد السواد، وإنسان العين: ناظرها، والساجي: الساكن الفاتر.

(٣) الكعاب: التي نهد ثدياها.

(٤) الروق: القرن. والمرود: الميل من الزجاج أو المعدن يكتحل به. والإثمد: الكحل.

(٥) السمر: القنا. والزجاج، بكسر أوله، جمع زج، بالضم، وهو الحديدة في أسفل الرمح. والأظلاف، جمع ظلف، بالكسر، وهو الظفر المشقوق.

(٦) المنقدر: الذي جاء على مقدار. والفضفاض: الواسع، والمنحسر: المنكشف.

(٧) تنتظم: تضم. والربوة: المرتفع من الأرض، والطفرة: الانتقال الذي لا تدرج فيه.

(٨) أرهف: أحد. والخرت: ثقب الأذن، يعني الأذن.

«٣٨»

الأسـد

طـاغِيَةُ الصَّحْـرَاء، وجَبَّار العَـرَاء، وأَجْرَأُ مَن وَطِيءَ الغَبْـرَاءَ[١]؛ عَـرْشُـه غابَتُه، وحِجَابُه مَهَابَتُه، والوَحْدَة مَجْلِسُه وصَحَابَتُه؛ ابنُ الصَّحْرَاءِ البِكْر نُحِتَت أَجْـلاَدُه مِن صَخْرهـا، واسْتَوْقَـدَت بَأْسَـه مِن حَرِّهـا، وطَبَعَتْه على انْقِبَـاضِهـا وكِبْرها[٢]؛ وكأَنَّ الصُّورَ حَنْجَرَته، وكـأَنَّ نَفْخَة الصُّـور زَمْجَرَتُـه[٣]؛ إذا سُمِعْت خَفَتَت العَقَائِر، ولاذَت الهَوَامُّ بالحَفَائِر، وطار الواقِع ووَقع الطائر[٤].

وصَفْتُـه فقُلْت: هامَـةٌ من أَضْخم القِمَم، جَلَسَت على المَنْكِب العَمَم، ولَبِسَت تاجَ الشُّهْرة في الأُمَم[٥]؛ وَراءَ الهَـامَة غُفْـرة كأَنها اللأّمـة، هِي اللِّبْدة وهي عِمَـامَةُ أُسَـامة[٦]؛ دَارَت عَلى وَجْـهٍ كَوَجْـه المَوْت بـادِي الشِّرَّة، مُنْقَبِض

---

(١) الطاغية: العظيم الظلم الكثيرالطغيـان، والتاء للمبـالغة، والجبـار: القاسي القلب المتسلط. والعراء: الفضاء. والغبراء: الأرض.

(٢) الأجـلاد: التجاليـد، وهي جماعـة جسمه وبـدنه. واستـوقدت: أشعلت، والبـأس: الشـدة، والانقباض: الانطواء.

(٣) الصـور: شيء كالقـرن ينفخ فيـه، يشير إلى صـور يوم القيـامة، الـذي عليـه يهب المـوتى. والزمجرة: ترديد الصوت في الصدر.

(٤) خفتت: سكتت، والعقائر: الأصـوات، واحدتها: عقيرة، ولاذت: لجـأت. والهوام: جمـع هامة، وهي الدابة، وكل ذي سم قاتل.

(٥) الهامة: الرأس. والمنكب: مجتمع رأس العضد والكتف. والعمم: التام.

(٦) الغفرة: ما يغطى به. واللامة، أي اللأمة، بالهمز فسهل، وهي أداة الحرب، واللبـدة: الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. وأسامة: من أسماء الأسد.

الأَسِرَّة[١]؛ ذي جَبْهة مُغْبَرَّة؛ كجَبْهة القِتَال مُكْفَهِرَّة؛ وكأنها صَفْحة السَّيْف؛ تُلْقِي الحَتْف دون الْحَيْف[٢]؛ في الجَبْهة عَيْنَان كاللَّهَب؛ في حِجَاجَيْن كالحَطَب[٣]؛ بَيْنهما أَنْفٌ غَلِيظ القَصَبة، مُنْتَشِرُ الأَرْنَبَة[٤]، كأنّه الأُفْعُوان افترَش الْحَجَر؛ أو اضْطَجع في هَشِيم الشَّجَر[٥]؛ حَوْل الأَنْف كَلْحَة كأنها خِزَانةُ بأَسْلِحة[٦]؛ إذا انْطَبقَتْ فَعَلى كَوامِن الغُيُوب، وإذا انفتحت فعَن القَضَاءِ بارِز النُّيُوب[٧]؛ ومِن عَجَب الخَلْق رَأْسٌ كأنّه صَخرة، أو كأنّه أُرُومَة يابِسَة نَخِرة[٨]؛ يَنْهَض به ساعِدٌ جَدْل، لا هَزِيل ولا عَبْل[٩]؛ كما تَنْهَض أُسْطوانَة الحَدِيد على قِلّتها بالكَثِير الضَّخْم من البِنَاءِ؛ وللأَسد كَفٌّ كأَنها المُدَجَّج، أو كأَنها الحَجر المُدَمَّج[١٠]، إذا مَسَّت قِفَار الفَرَس قطعت نَظْمَه، ونَثَرَتْ لَحْمَه وعَظْمَه[١١]؛ كُلُّ ذلك في إهَاب أَغْبَر، وجِلْبَاب أَكْدَر، كأنّما صُنِعا من القَفْر، أو قُطِعا من الصَّخْر، أو كأَنما كُسِيَا لَوْنَ الصَّحْراء، كما تُكْسَى البَوارِجُ لَوْنَ البَحْر، وإذا قام على بُرْثُنه فتِمْثَال، وإذا انْقَضَّ فَهَضْب منْهَال[١٢]؛ وإذا تَرَاءَى بالسَّهْل فَدِعَامة، وإذا طَلَع من الحَزْن فَغَمامة[١٣].

---

(١) الشرة: الحدة. والأسرة: خطوط في الوجه والجبهة. واحدها: سرار، ويكنى بانقباضها عن الغضب.
(٢) الحتف: الهلاك، والحيف: الجور والظلم.
(٣) الحجاجان: عظما الحاجبين، يعني محجرين، وهما ما أحاطا بالعينين.
(٤) الأرنبة: طرف الأنف.
(٥) الأفعوان: ذكر الأفاعي. والهشيم: المهشوم المنكسر.
(٦) الكلحة: الفم وما حوله.
(٧) الكوامن: ما خفي، والنيوب: جمع ناب، وهي سن بجانب الرباعية، وبها القضم.
(٨) الأرومة: أصل الشجرة. والنخرة: المتفتتة.
(٩) جدل: قوي، والعبل: الضخم.
(١٠) المدجج: اللابس سلاحه، والمدمج: المستحكم.
(١١) نظمه، أي ما انتظم به ظهره، يعني العمود الفقري.
(١٢) البرثن: المخلب، والهضب. جمع هضبة، وهي الرابية، ومنهال: متساقط.
(١٣) الدعامة: عماد البيت الذي يقوم عليه. والحزن: ما غلظ من الأرض.

«٣٩»

الأسد في حديقة الحيوان

يا جارَ الجِيزَة، وأَسِيرَ الحَـدِيقَة، سَـرَت الهُمُومُ فلم نَنَمْ، أَرَّقَتْني شُؤُونٌ وشـجُـون، وذِكْرِيَاتٌ ممّا تَرَكَتِ السِّنُون؛ وأَرَّقَكَ حَزُّ القَيْد، وضَغْطُ الحَدِيـد، وأثارَكَ ذِكْرَى الصَّيْد، والحَنِين لِلْبِيد[1]؛ سُبْحَانَ المُعِزِّ بالحُرِّيّة، المُذِلِّ بالرِّقّ؛ ما أَرَّقك بالأَسْحَار، وكان غَطِيطُكَ أَرَقَ السُّحَّار[2]،وفَرَقَ السُّمَّار في الأَكْـوار[3]؛ ومـا بَالُ زَئِيـرِكَ يَنَامُ عليـه الطَّيْـرُ مِلْءَ جُفُـونِهِ، ولا يتحـرَّك له لَيْـلُ الجِيزَة من سُكُونِـهِ؛ أَصْبَـح أَقَـلَّ من النُّبَـاح، وأَذَلَّ من النِّيَـاح، وكـان بالأمس يُـرْعِـدَ البِطَـاح، ويُسْقِطُ مِن يَـدِ البَطَلِ السِّـلَاح[4]؛ وأَيْن أَبا لِبْـدَة طِلعَةٌ كـانت تَعْقِل الفَرَس والفارس، فأَصْبَحَتْ يَدْعو العُيُونَ إليها الحارِس[5]؛ يُـطِيفُ بها النَّشَـأ، ولا تُخِيفُ الـرَّشَأَ[6]. عَـزَاءً مَلِكَ البِيد، آبْنَ الفـاتِك الصِّنْـدِيد، وأَبـا الخَـالَـة

---

(١) البيد: الصحراوات، الواحدة: بيداء.

(٢) الغطيط : صوت النائم وتردد النفس في خياشيمه.

(٣) السحار: أي الذين في السحر، وهو الثلث الأخير من الليل، يقال: سحر فلان، إذا صار في السحر، فهو ساحر، والجمع سحار، وهـذا الجمع وإن لم يكن وارداً فهـو مقيس. والفرق: الفزع. والسمار: المتسامرون. والأكوار: جمع كور، بالضم، وهو الرجل.

(٤) البطاح: الأمكنة المتسعة يمر بها السيل، واحدتها: بطحاء.

(٥) تعقل: تحبس.

(٦) النشأ: الناشئون، والرشأ: ولد الظبية إذا قوي وتحرك ومشى.

(٧) الخالة: المختالون. والصيد: المتكبرون، الواحد: أصيد.

الصِّيد؛ وإنْ لم تَزدْني عِلْماً بالدّولة كيف تَزُول. ولا بما عِند الناس للنِّعمة المَنْكُوبة، والبُطولة المَقْهُورة، والأخلاق المَخْذُولة، والعُروش المَثْلُولة[1]، فقَبْلَك ضاقَتْ أَغْمَاتُ على سَجِينِها، وأَخْنَتْ أَمِيرجُون على قَطِينها، وأَضَرَّت القِدِّيسَة هِيلانَة برَهِينها[2]، أَجْوادٌ نَزَل بِهم الدَّهْر، وأَحْرارٌ أَنَاخَ عليهم الأَسْر، وأَمْلاكٌ جَرَى عليهم النَّهْي والأَمْر[3]؛ وأَنْت في صَحَاريك أَطْوَلُ في المُلْكِ بُنْيَاناً، وأَعْرَضُ في الأَرْض سُلْطاناً، وأَوْسَع شُهْرَةً وأَنْبَهُ مَكاناً؛ عَرْشُك أَبا الأَشْبَال، على السَّهْلِ والجِبَال، وكُل دابٍّ على الرِّمَال، رَعِيَّة لك أو مال؛ تَمْثَال القُوَّة، ومِثَال المُرُوَّة[4]؛ نَفْسُ بهيمة، وأَخْلاَق عَظِيمَة؛ أَلَسْتَ أَبا لِبْدَة تَحْمِي العَرِينَة، وتُحْسِن عِشْرَةَ القَرِينَة، وتَبْنِي الذُّرِّيَّة المَتِينَة[5]؛ وتَعِفُّ عِند الشِّبَع، وتُفْضِلُ على التَّبَع[6]؛ وتَذْهَب مَذْهَبَ الأَقْمار، فتَطْلُع باللَّيْل وتَسْتَسِرُّ بالنَّهار[7]؛ ولك قَبل البَطْش جَلْجَلَة مُنْذِرة، وبَهْنَسَةٌ مَحذِّرَة[8]؛ وغَيْرُك في السِّبَاع خَتَلَ وخَتَر، وجاءَ القِرْن على خَمَر[9]، من أَجل هذا ومثله في الأَخْلاق ضَرَبت الأُممُ بك الأَمثال، ونَحَتُوا على صُورتك التِّمْثال. واستعاروا أَسْماءَك للأَبطال وأَشباه الأَبطال؛ حتى قِيل للإِخْشِيدِيّ: أَسَدُ القَلب[10]، وقيل

(١) المثلولة: التي ذهب سلطانها.
(٢) أغمات: بلدة في المغرب قرب مراكش. وكان المعتمد بن عباد (٤٣١ ـ ٤٨٨هـ) صاحب إشبيلية لما انتزع منه ملكه حمل إلى أغمات فحبس بها. وبقي في حبسه إلى أن مات. وأخنت على قطينها: أتت عليهم. وأميرجون: ضاحية قرب الأستانة كان بها قصر للخديوي إسماعيل خديوي مصر عاش فيه بعد نفيه وإلى أن مات. والقطين: الساكن. وأضرت: ألحقت الأذى. والقديسة هيلانة، يعني سنت هيلانة: الجزيرة التي نفي إليها نابليون بونابرت. والرهين: المحبوس.
(٣) أجواد: كرماء. واحدهم: جواد. وأناخ عليهم: أتى عليهم. والأملاك: الملوك.
(٤) المروة: أي المروءة، والبهيمة: الحيوان الأعجم.
(٥) العرينة: العرين، وهو مأوى الأسد.
(٦) تفضل: تحسن. والتبع: الأتباع.
(٧) تستسر: تستتر.
(٨) الجلجلة: الصوت فيه حركة، والبهنسة: التبختر.
(٩) ختل: خدع، وختر: غدر أقبح الغدر. والقرن: مماثلك شجاعة، وعلى خمر في غفلة وخفية.
(١٠) الأخشيدي: كافور بن عبدالله أبو المسك (٢٩٢ ـ ٣٥٧هـ) ملك مصر سنة (٣٥٥ هـ) وكان شجاعاً.

للصَّلِيبِيّ: قَلْب الأَسَد[١]، شُبِّه بِك كلُّ شُجاع ولم تُشَبَّهْ من الشُّجْعان بأَحَد؛ عَطْفٌ بِقَلْبِي على صِغَارِكَ أَبا الأَشْبَال، أَنَّهم كصِغَاري. وُلِدُوا في الرِّقّ، وشَبُّوا على مَسِّ هَوَانِه، كِلَا النَّشْأَين مَغْلُوبُ على دِيَارِه، مَرْزُوء بالتشريك في وِجَارِه[٢]، مُغَامِرٌ في صَحْراءِ الحَياة بغير أَظْفاره؛ والآنَ لك فُؤادي أَبا لِبْدَة هذا الذُّلُّ بَعد العِزّ، وهذا الرَّسْفُ في الضِّيق بعد المَرَح في السِّعَة[٣]؛ واسْتَأْوَانِي قَيْدُ الحَدِيد، بَعْدَ تاج البِيد[٤]. وما أَسَفِي والله على ظُفْرِك المَقْلُوم، ولا على نابك المَحْطُوم[٥]، فإِنِّي وَجَدْتُ البَغْيَ ليس يَدُوم؛ ولَسْتُ أنكر عليك شِدّة لم يُنْكِرْها الناسُ على الحَضارة، وهم يَرَوْن ظُفْرَها يَقْطُر من دَم الجَبَل[٦]، ويَرَوْنَ نابَها يَقْطُر من دم الرِّيف[٧]؛ وإنما أَسَفي أَبا الأَشْبَال على تلك الشَّخْصِية المُتَظاهِرة، وتلك الرُّوحِيّة القاهِرة؛ وعلى حَضْرَةٍ كأنها مَجْلِس الحُكْم، ونَظْرَةٍ كأَنها الأَمْر النَّافذ، وعلى صَيْحَةٍ تأْتِيكَ بالصَّيْد مَشْكُولاً، مُتَهيِّئاً من نَفْسه مَأْكولاً[٨]؛ أَدَوَات زَعَامة، وآلات سِيَادة؛ مما يَهَب الله لأَفْراد البَشَر أَحْياناً، ويُلْقِي على آحاد الرِّجال آناً فآناً؛ فإذا هم القامَةُ والسَّادة، وإذا الأُمَم تأْتِيهم مُنْقادة؛ وقد زادك الله عليهم رَعِيَّةً سُلِبَتْ منها العُقُول، فاسْتَرَحْت من الرَّأْي وصَرَاحته، والفِكْر وشَجَاعته، والمَبْدأ وصلابته؛ وكُفِيتَ سُيوفاً بَيْنا هي لك، إذا هي عليك؛ وأقلاماً مأْجُورُها أَسِيرُك، وطَلِيقُها أَنت أَسِيرُه؛ أَعَلِمْتَ أَبا الأَشْبَال إلى أَيِّ الآجَام نُقِلْت، وفي أي الآطام اعْتُقِلْت[٩]؛ أَسَمِعْتَ عن أَسَدٍ

---

(١) الصليبي: هو ريشارد ملك انجلترا، وهو الذي قاد الحملة الصليبية.
(٢) الوجار: جحر الضبع والأسد والذئب وغير ذلك.
(٣) الرسف: المشي في القيد رويداً.
(٤) استأواني: استرحمني، أي سألني الرحمة.
(٥) المقلوم: المقصوص.
(٦) الجبل، يعني جبل الدروز بلبنان، يشير إلى ما لاقاه الدروز.
(٧) الريف: يعني طرابلس، حيث كان المجاهد عمر المختار الذي حارب الإيطاليين دفاعاً عن وطنه حرباً طال أمدها انتهت بأسره ثم قتله.
(٨) المشكول: الذي قد شدت قوائمه بالشكال، وهو القيد.
(٩) الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف. والآطام، جمع أطم، بالضم وبضمتين، وهو الحصن.

نَجَمَ، في هذا الأَجَم[1]، وضِرْغَامِهِ غابَ، عن هذا الغَـاب[2]. أَذلّت الحَوَادِثُ بالأَمْسِ عِرْنِينَـه، واحتلَّت الخُطُوبُ عَـرِينَه، وعـطَّلَتْ نَكْبَتُهُ الـدُّنْيا من زِينَـة، وغادَرَتْهَا بَعْدَ فَرَح حَزِينة[3]؛ وكان أَكْثَرَ مِن آبائِك أَسْمَاء، وأَطْوَلَ من عَشِيـرَتك في العِـزّ سَمَاء، وأَمْنَـعَ وادياً وأَعـزَّ ماء[4]؛ مَنَعكم القَـرَارَ بـالصَّحْـراء صَهِيلُه، وخَلَفَ زَئِيرَكم عليها صَليلُه[5]؛ وغَلَبكم على أَطْرَافها فكُلُّ ماءٍ بها ماؤه، وكُـلّ يَبَس غِيلُه[6]؛ وكـانت هذه الحَـرَجَات تحتـه أَجَمَةَ الأَغْلَب الهَصُـور، وكـانت نَظْماً من قُصُور، لم تَرَ أَمْثَـالُه العُصُـور[7]؛ فلا الجَعْفَـرِيّ حَكَاه، ولا الـزَّهْرَاء أُعْطِيَتْ حُلاَه، ولا الإِيـوَانُ سَاوَاه، في شَـرَفه وعُـلاَه[8]. وكانت هـذه الجَنَّات وَشْيَ دُورِه، وحَلْيَ قُصُـوره، وكانت هـذه العُيُـون مَحَـاجِـرَ العِينِ من حُـوره، ومعـاصِمَ رِيمِه ويَعْفُـورِه[9]؛ وكانت السَّـاحَةَ، سَمَـاءَ النَّدَى وأَرضَ السَّمَـاحة؛ جَنَّاتٌ وقُصُور، ونَعِيم وحُبُور. وعِينٌ حُور، يَـطَأْن المِسْكَ والكـافُور[10]؛ مَـرْمَرٌ

---

(١) نجم: نشأ، يريد الخديوي إسماعيل.

(٢) الضرغام : الأسد الضاري الشديـد. وغـاب: اختفى. والغـاب: الشجـر الكثيـر الملتف. الواحدة: غابة، يريد مصر.

(٣) العرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشم. والعرين: مأوى الأسد.

(٤) يشير إلى آباء إسماعيل وأجداده.

(٥) صهيله، أي صهيل خيله، والصهيل: صوت الخيل. وخلف: جاء بعده، والزئير: صـوت الأسد، وعليها، أي على الصحراء. وصليله، أي صليل سيوفه، والصليل: رنين مقارعة السيوف.

(٦) اليبس: الأرض اليابسة. والغيل: موضع الأسد.

(٧) الحرجات: جمـع حرجـة، بفتحات، وهي غيضـة الشجر الملتف. والأجمـة: الشجر الكثيـر الملتف. وبها يستكن الأسد. والأغلب: الأسد. والهصـور : الأسد. والنـظم: المنظوم.

(٨) الجعفري: قصر بناه أمير المؤمنين جعفـر المتوكـل على الله قرب سـامراء. وحكـاه: أشبهه، والزهراء: مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس احتلهـا عبد الرحمن الناصر وعملها مُتنَزَّهـا لـه، والإيوان، يعني إيوان كسرى حيث كان يجلس.

(٩) الجنات: يعني الحدائق التي كـانت تحيط بقصر إسمـاعيل في الجـزيرة. والـوشي: النقش. والعيون: عيون الماء، والمحاجر: ما يحيط بالعيون، واحدها: محجر، والعين: الواسعـات، العيون: واحدتها: عيناء، والحور: اللاتي آشتد بياض أعينهن وسـوادها واستـدارت حدقـاتها ورقت جفونها وابيض مـا حولهـا. وهذا الـوصف يستحسن في الجواري. والمعـاصم: جمع معصم، بالكسر، وهو موضع السوار من اليد، واليعفـور: الظبي لونـه كله عفرة، بـالضم، أي بياض تخالطه حمرة.

(١٠)الندى: الكرم. والحبور: السرور والنعمة.

راعَ مَسْنُونُه بِلْقِيسَ الزَّمان، فكَشفَتْ عن ساقَيْها بَين يَدَيْ سُلَيمان[1].

---

(١) راع: أعجب. والمسنون: المصقول من حجر. وبلقيس: ملكة سبأ، يمانية من أهل مأرب. وسليمان: هو ابن داود، عليه السلام. وكانت له مع بلقيس أخبار جاء ذكرها في القرآن الكريم. والمؤلف يشير هنا إلى الآية الكريمة: **﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾** [النمل: ٤٤].

«٤٠»

الجمال

جَمَعت الطَّبِيعةُ عَبْقَرِيَّتها فكانت الجَمَال، وكان أَحْسَنَه وأَشـرَفَهُ مـا حلَّ في الهَيْكَل الآدَمِيّ، وجَاوَر العَقْلَ الشَّرِيفَ والنَّفسَ اللَّطِيفـةَ والحَياةَ الشـاعِرة؛ فالجمالُ البَشَرِيُّ سَيِّدُ الجَمـالِ كُلِّه... لا المَثَّال البـارِعُ آسْتَطاع أَن يَخْلَعَـه على الدُّمَى الحِسَان، ولا لِلنَّيِّـرات الزُّهْـر في لَيالي الصَّحْـراء ما لَه مِن لَمْحةٍ وبَهاء، ولا لِبَدِيع الزَّهْر وغَرِيبه في شَباب الرَّبِيع ما لَهُ مِن بَشَاشةٍ وطِيب. ولَيْسَ الجَمَـال بِلَمْحَـة العُيُـون، ولا بِبَـرِيق الثُّغـور، ولا هَيَفِ القُـدُود، ولا أَسَـالـة الخُـدود[1]، ولا لُؤلؤ الثَّنَـايـا وراءَ عَقِيق الشِّفـاه، ولكن شُعَـاعُ عُلْوِيٌّ يَبْسُـطُه الجَمِيلُ البَدِيعُ[2] على بَعض الهَيَاكِل البَشَرِيّة، يَكْسُوها رَوْعةً، ويَجْعلها سِحْراً وفِتنةً للناس.

---

(١) الهيف: دقة الخصر وضمور البطن. والقدود: جمع قد، بالفتح، وهو القامة والقوام والأسالة: الملاسة والاستواء.

(٢) يعني الله سبحانه وتعالى.

«٤١»

الأمومة

الأُمُومة هي رِسالةُ المَرْأَة على هَذِه الأَرض، وشَأْنها الأَوّل في الحَياة، وهي حَجَرُ الأَساس في الأَسْرَة، وقَواعِدُ المُجْتَمع وأَرْكانُـه مُنذ قـام إِلى يوم يَنْقَضّ[1]. وفي الأُمُومة اجْتَمعت خِـلالُ البِرِّ، وَنَـوائِبُ الحَقّ[2]، وتَبِعَاتُ الـواجِب، وصُوَرُ البُطولةِ، وفَضَائِل الإيثـار[3]، ومَوَاطِن الصَّـبْر الجَمِيل. وكـأَنَّ الأُمُومـة في البَيت المَلِكَة في الخَلِيّة، أو العَذْراءُ في البِيعَة[4]؛ فيا أَيَّتها الفتاة المُدِلَّة بِصِبَاهـا، المَزْهُـوّة بِحُسْنها[5]، المُترقِّبَة مِن وَرائِها لَذَّة الحُب وفَيْضَ السَّعَادة: اذْكُري أَنْ الجَمَال حُـرٌّ طَلِيق إِلا من قَيْدَيْن. كِلاهما أَجملُ منه: الشَّرَفُ؛ والعَفَاف؛ إذا انْسَلَّ مِنهـما عثَرَ في خُـطاه الأُولى[6]، وذَوَى في إِبَّان النَّضْرَة[7]. وسَـلِي ذَواتِ الشَّعـر الأَبْيض مِمّن حَوْلك مِنْ غَوَاني أَمسِ: هل دَولة الحُسْن إلا كدَوْلة الزَّهْر، وهل عُمْر الصِّبَا إلا أَصِيلٌ أَو سَحَرْ[7]، وهل غَيْرُ الأُمومة تَاجٌ للمرأَة تَلْبَسه من مُخْتَلِف الشَّعر أَلواناً.

---

(١) ينقض: يسقط.

(٢) النوائب: جمع نائبة، وهي الكارثة المؤلمة. يريد ما يلحق المرء في قيامه بالحق من متاعب.

(٣) الإيثار: أن تؤثر عليك غيرك وتفضله.

(٤) الملكة، يعني ملكة النحل. والعذراء: التي لم يمسها بشر. والبيعـة: معبد النصـارى، يريـد الراهبة.

(٥) المدلة: ذات التيه.

(٦) انسل: خرج. وعثر: تعثر.

(٧) ذوى: ذبل.

جَمالُ الأُمومة لَمحةٌ من جَمال الحَيَاة، وشُعَـاعٌ، من عَبْقَرِيَّتِهـا، وهوَ أَحْفَـلُ أيّاماً، وأَطْوَلُ مُقاماً، وأَصْدَق أَحلاماً.

حُبُّ الأُمُومة أَشْهُرٌ وسِنُون، وبَنَاتٌ وبَنُون، وأَشْغال وشُؤُون، ويَبْقى مـع الثُّكْل، ويَتَّقد عند حَشْرَجة الصَّدر[1]، ولا يَنْطَفِىءُ إلا بآنْطِفاء القَلب.

لـذَّةُ الأُمُومةِ مَعْنىً قُدْسيٌّ وسِرٌّ خَفِيٌّ، وحَـالٌ كمَنَاعِم الخُلْد ولَـذّاتـه[2]، ليسَ منّا إلاّ مَن قرَأَه في تلكَ العُيون التي رَعَتْنا في المُهُود صِغَاراً، وسَهِـرَتْ علينا في فِرَاش المَرَض كِبَاراً[3].

---

(١) الثكل: فقد الحبيب.
(٢) مناعم الخلد: ما ينعم به في دار الخلود.
(٣) المهود، جمع مهد، بالفتح، وهو الفراش يهيأ للصبي.

«٤٢»

الكاتب العمومي(*)

تِمْثالٌ من الجَهل العامّ، صَنَعتْهُ القُـرونُ والأَجْيال، حَفَّـارُهُ عَبَثُ الحاكِم، وطِينَتُـه غَفْلَة المَحْكُوم، وهُـو الأُمِّيَّة عـلى قارِعـة الطَّريق، لا يَجْمَعـه والحَضَـارةَ مَكَان.

(*) ثمة كتبة يتخذون مقاعدهم أمام دور المحاكم في الأكثر، ليس لهم غير إلمام بالقراءة والكتابة ثم شيء قليل من الدراية بأحوال القضاء. يفزع إليهم عامة الناس في شئونهم القضائية الأولى وفيما يشبهها.

«٤٣»

الحياة وهم ولعب

الحَيَاةُ تَوَهُّم، عِشْنا، بالوَهْم الزَّمَنَ الرَّغْد، وعِشْنا بالوَهْم الزَّمِنَ النَّكِـد؛ طافَ بنا الـوَهْمُ على السَّعَـادة أَحْيانـاً، ومَرَّ بنـا على الشَّقَـاء آناً فـآناً؛ وبـالوَهْم عادَيْنَا، وبالوَهْم والَيْنَـا، وبالـوَهْم مَرِضْنـا، وبالـوَهْم تَدَاوَيْنَـا؛ حتى إذا جاءَت سَكْـرةُ الموْت كـانَ ذلك أَوَّلَ العَهْـدِ بالحَقِيقَـة؛ والحَيَاةُ لَعِبٌ، قَضَيْنـا الطُّفُـولـةَ باللَّعِبِ، وقَطَعْنـا الشَّبَابَ مَـلاهِيَ ومَلاَعِب، ولَعِبْنـا في ظِلِّ المَشِيب؛ حتَّى إذا جاءَت سَكْرَةُ المَوْت؛ كان ذلك أولَ العَهْدِ بالجدِّ.

«٤٤»

العلم

شِعـارُ الأُمَم وفَخَارُهم، اتَّخـذ الناسُ في شَبَـابِ الـدُّوَلِ الأَعْـلاَمَ، ولا يَـزَالُـون في ظِـلِّ الحضـارة الكُبـرى يَبْلُغـونَ في مَحَبَّـة العَلَم وإجْـلالـه إلى التَّقدِيس، فهو، حَيثُ يَخْطِرُ وحيث يخْفِق[1]، شَبَحُ الـوَطَن المَنْظُور، ومـاضِيهِ المَنْشُور، وتاجُ الرُّؤوس، كُلِّها، وقِبْلَةُ الوُجُوه جَمِيعـاً؛ إذا نُشِرَ في السِّلْم خَلَع على أَيَّامِها الجَمَال، وكَسَا مَـوَاكِبَها المهَـابَةَ والجَـلاَل؛ وإذا رُفِعَ في الحَـرْب كـانَ نَـظْمَ الصُّفـوف، وأُلْفَـة القُلوبِ، ومَثَـارَ الحَمَـاس، وداعِيَ التَّضْحِيَــة، وسُحُبَ النِّسْيَان على الأَحْقاد، وحَسْمَ ما اشْتَهَتْه الأَعَاد[2]. مِنْدِيـلٌ طالَمـا رُفع على أَيْدِي الآباءِ، فكَفْكَفُوا به دَمْعَ الحُزْن[3]، وتَلَقَّوْا فيه دَمْع الفَرَح، ضَحِكُوا وَرَاءَه كَثِيراً في نصيبين[4]، وقَعَدُوا حَوْلَه في عُرْس، وبَكَوْا حَوْلَه كَثِيراً في التَّلِّ الكَبِير[5]. وقامُوا ورَاءَه في مَأْتَم.

---

(١) يخطر : يميل يميناً وشمالاً. ويخفق: يهتز.

(٢) الحسم: البت.

(٣) كفكفوا به دمع الحزن، مسحوه مرة بعد مرة ليجف.

(٤) نصيبين: من مدن الجزيرة على الطريق من الموصل إلى الشام، وقد فتحها المسلمون صلحاً سنة سبع عشرة. وإلى هذا يشير المؤلف.

(٥) التل الكبير: قرية مصرية بين الزقـازيق والإسماعيلية، وعندها كانت هزيمة أحمد عرابي على أيدي الإنجليز سنة (١٨٨٢م).

فيا أيُّها العَلَم الأَخْضَر، كَدِيبَاجَة السِّلْم، أو كظِلَال الخِصْب، المُسْتَعِيرُ الهِلَال غُرَّتَه، المُفَصَّلُ بنُجُوم السَّعْد[1]، المَوْسُوم بالحَضَارَة مِن عهد خُوفُو ومِينَا[2]،الْمُحَلَّى بالفَتْح مِن زمَن آبنِ العاص[3]، النَّابِه الأَيام والوَقَائع بين يَدي إبراهيم[4]، لا زِلْتَ تُرْفع لِمَجْد، ولا زالت الأَجْيال تَتَلَقَّاك يَميناً، ولا نُشِرْتَ إلا في حَقّ؛ ولا طُوِيتَ إلا على حقّ.

ويا آبن مصرَ، على قَدَم[5]؛ حيِّ العَلَم!

(١) غرة الهلال، أي هلال السماء، يعني طلعته، ولقد كان علم مصر على صورة هلال.
(٢) خوفو ومينا: من فراعنة مصر، وأولهما هو باني الهرم الأكبر، وثانيهما هو موحد الوجهين.
(٣) آبن العاص، هو عمرو بن العاص، وكان على يديه فتح مصر.
(٤) إبراهيم، هو ابن محمد علي المؤسس الأول للدولة العلوية بمصر. ولآبنه ابراهيم وقائع مشهورة.
(٥) على قدم، أي نهض على قدم.

«٤٥»

السّجع

السَّجْعُ شِعْرُ العَرَبِيّة الثانِي، وقَوَافٍ مَرِنَة رَيِّضة[١]، خُصَّتْ بها الفُصْحَى، يَسْتَرِيح إليها الشَّاعر المَطْبُوع، ويُرْسِل فيها الكاتِب المتفنِّن خَيَالَه، ويَسْلُو بها أحياناً عمَّا فاتَه مِن القُدْرَة على صِياغة الشِّعر، وكُلُّ مَوْضِع للشِّعر الرَّصِين مَحَلٌّ للسَّجْع، وكُلُّ قَرار لِمُوسِيقَاه قَرَارٌ كذلك للسَّجْع[٢]؛ فإنما يُوضَع السَّجعُ النَّابِغ فيما يَصْلُح مَوَاضِعَ للشِّعْر الرَّصِين، من حِكْمَةٍ تُخْتَرع، أو مَثَلٍ يُضْرَب، أو وَصْفٍ يُسَاق؛ وربَّما وُشِّيَتْ به الطِّوَالُ من رَسائل الأدب الخالِص، ورُصِّعتْ به القِصَار من فِقَر البَيَان الْمَحْض؛ وقد ظَلَم العَرَبِيَّة رِجالٌ قَبَّحُوا السَّجْع، وعَدُّوه عَيْباً فيها، وخَلَطوا الجَمِيل المُتَفَرِّد بالقَبِيح المَرْذُول منه. يُوضَع عُنواناً لِكتاب، أو دَلَالَة على باب، أو حَشْواً في رَسائِل السِّياسة، أو ثَرْثَرَة في المَقَالات العِلْمِيّة؛ فيا نَشْءَ العَرَبِيّة، إنَّ لُغتكم لَسَرِيَّة مثرية؛ ولن يَضِيرَها عائِبٌ يُنْكِرُ حَلَاوة الفَوَاصِل في الكتاب الكَرِيم، ولا سَجْع الحَمَام في الحَدِيثِ الشَّريفِ، ولا كُلَّ مَأْثور خالد من كَلَام السَّلف الصالح.

---

(١) السجع: الكلام المقفي غير الموزون. والريضة: المذللة.

(٢) الرصين: المستحكم البناء. والقرار في الموسيقى: نغمة تتكرر في آخر كل جزء من أجزاء اللحن الموسيقى.

«٤٦»

النّقد(*)

فَنٌّ قَدِيمٌ كَرِيم وتالِدٌ من رَأْس مـالِ الحَضَارة في عُلوم الأَدَب وفُنُـونه؛ تَوارَثَهُ الأَواخِر عن الأَوائل، فأَخذتُه حَضارتُهم فحَسَّنْتُهُ على عادَتها، وضَخَّمَتْ كِتَابَهُ، ووَسَّعتْ أَبْوَابَهُ، وهَذَّبت أُصُولَه، وَوَضَعتْ قُيُودَه، حتى صـار مِن دَعائم الصِّحـافة، وأَضْحَى ظِـلَّ التَّأْلِيف، ومَعْـرِضَ العَبْقَرِيّـات، ومِـرْآةَ آثـارِهـا في مَسائل الأدب، وشَتَّى مَطَالِبه.

والنَّقدُ حارِسُ الأَدب، ومُكَمِّلُ الكُتَّاب والكُتُب، وهـو آلةُ إِنْشـاءٍ، وعُدَّة بِنَاءٍ. ولَيْسَ كما يَزْعَمُهُ الزَّاعِمُون مِعْوَلَ هَدْم، ولا أَداةَ تَحْطِيم.

والنّاقِد مُسْتَهْدِفٌ[1] يَعْرِضُ عَقْلَه وبِضَاعَته وخُلُقـه وحُكْمَه على النـاس، وربمـا آرْتَدَّ مِعْـوَلُه إليـه كما يَـرْتـدّ سِلَاح البَغْي إلى صـاحِبـه، فهَـدَمـه على المَكان، والنَّاسُ يَرَوْن وهو لا يَرى، من سَكْرة الغُـرُور. ومَنْ نَقَد على غَضَبٍ أَسْخَطَ الحَقَّ، ومَن نَقد على حِقْدٍ آخْتَرَق، وإِن ظَنَّ أَنَّه حَرَقَ، ومَن نقَدَ على حَسَدٍ لم يَخْفَ بَغْيُه على أَحد، ومَن نقَدَ على حُبٍّ حابَى، وجَمَحَ به التَّشيُّع.

(*) النقد: فن تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده.

(١) مستهدف: متعرض لأن يؤاخذه الناس فيما يقول.

«٤٧»

الزّهرة

صورةُ الرِّقَّةِ، ورَمْزُ العاطِفَة، وهَيْكَل الخَيْر والحُبّ والجَمَال. قَدِيماً أُولِع بها النَّاسُ، وقَدِيماً ظَلَمُوها؛ أمّا هي فطالما مَلأَتْ حَدَائِقَهم بَهَاءً وحُسْناً، وحُجُرَاتِهم زِينةً وطِيباً؛ وجَمَّلَت عُرَى ثِيابهم[١]، وحَسَّنَتْ أَعْرَاسَهم وولاَئِمهُم؛ فكانت مِنَصَّة للعَرُوس وإكليلاً[٢]، وشَارَة للمائِدة ومِنْدِيلاً، وسَفَرَت بينَ العشَّاق فَحُسنَتْ رِسَالةً ورَسُولاً[٣].

وأَمَّا هُم فَمَا أَشدَّ ما جَنَوْا عليها، فَطَمُوها عن عُصَارَة العُود، وفَجَعُوها في وَثِير المُهود[٤]، وأَبْدَلُوها مِن طُول الفَضَاءِ وعَرْضه بالبَوَاطِي الضَّيِّقة[٥]، ومن سَماءِ الرَّوض وأَرْضِه بالجُدْرَان المُزْهِقَةِ[٦]، ومِن ماءِ العُيون بماءِ الجِرار[٧]،

---

(١) العرى، بضم ففتح، جمع عروة، بالضم، وهي من الثوب مدخل زره. وثمة في معطف البذلة عروة لا يدخلها زر ولكنها تستخدم في الأكثر لوضع زهرة.

(٢) المنصة: مقعد مرتفع يتخذ للعروس لتجلى، مزين بالورود ونحوها. والإكليل: التاج يتوج به الرأس.

(٣) سفرت: كانت سفيراً.

(٤) فجعوها، أي حرموها بقطفها وثير المهود. والوثير: الفراش الموطأ. والمهود: جمع مهد، بالفتح، وهو الفراش يوطأ للصبي.

(٥) البواطي، جمع باطية، وهي إناء من الزجاج وغيره يعد للخمر.

(٦) المزهقة: التي تضيق بها النفس.

(٧) العيون: يعني عيون الماء.

ومِن شُعَـاع الفَضَـاءِ الـطَّلْق بِشُعَـاع الـنَّـافِـذة والكُـوّة[1]. . . ظُلْمٌ عَبْقَـرِيٌّ[2]، وإحسان، جُزِيَ بِغَيْرَ إِحْسِان.

(۱) الكوة: الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء.
(۲) ظلم عبقري: أي لم يعرف منك.

«٤٨»

السّاقية

أَصَوْتُ السَّوَاقِي في سَمَاءِ اللَّيلِ، وعلى فَضَاءِ الرِّيفِ، أم تَنْغِيمُ المَلاَئكة في الأَراغِيل؟[١] أَمْ خُوَار الثَّوْر خَرَج مِن الأَرض وقدْ أَخَذه الضَّجرُ، ونَاءَ قَرْناهُ بِذُنُوبِ البشَرِ؟[٢].

نَغَمٌ كالنَّفْخ في الغَابَ[٣]، طَبِيعةٌ قادِرَةٌ ساحِرَةٌ، لها في كُل شَيءٍ مُوسيقَى حتَّى في اللِّيفِ والخَشَبِ[٤]، فيا قَيْنَةَ الأَجيال[٥]، ما هذه الدُّمُوعُ الفوَاجِر، التي لم تُغْرَفْ مِن شُؤُون، ولم تُرْسِلْها مَحَاجر؟[٦] وما هَذه الضُّلوع الهاتِفة بالشَّكْوَى، الصَّارِخةِ مِن البَلْوَى، وما عَرَفَتِ الْهوَى، ولا باتَت ليلةً على الجَوَى؟[٧] حدِّثينا عَن القُرون الأُولى، قُرُون خُوفُو ومينَا[٨]. . .

---

(١) الأراغيل: جمع أرغول، بالضم، وهو مزمار ذو قصبتين مثقبتين، إحداهما أطول من الأخرى.
(٢) ناء بالشيء: عجز عن حمله.
(٣) الغاب: القصب المثقوب ينفخ فيه، الواحدة: غابة.
(٤) الليف: قشر النخل الندي يجاور السعف، ومنه تتخذ الحبال. يشير إلى أن الساقية مصنوعة من ليف وخشب.
(٥) القينة: الجارية المغنية.
(٦) الفواجر: أي المسترسلة في أعنتها. والشؤون: مجاري دموع العيون. والمحاجر: ما يحيط بالعين.
(٧) الجوى: اشتداد الوجد من عنق أو حزن.
(٨) خوفو ومينا: من فراعنة مصر، أولهما من الأسرة الرابعة وإليه يرجع بناء الهرم الأكبر، وثانيهما رأس الأسرة الأولى وإليه يرجع توحيد الوجهين.

«٤٩»

الشّيخ المهندم

أيها الشَّيْخ المُهَنْدَمُ المُقَذَّذُ[١]: ما غَرَّكَ بالسِّنِّ حتى لَبِسْتَ للصِّبَا ثِيَـابَه، ونـازَعْتَ حَفِيدَكَ شَبَـابَه، إنَّمـا مَثَلُك في هذا البَـرِيق المُزَوَّر، وهـذه النَّضَـارة المُصْطَنَعة، كَمَثَل الضِّرْس المحْشُوّ المَكْسُوِّ، نُزِعَ منه العَصَب، وخُلِعَ عليـه الذَّهَب.

(١) المهندم: الذي بدت ثيابه على مقادير مناسبـة ونظام حسن، والمقـذذ: الحسن العنايـة بثوبـه وهندامه.

«٥٠»

خواطر

مَنْ بَغَى بِسِلَاح الحَقِّ بُغِيَ عليه بِسِلَاح الباطِل.

قُبِّحَ الدَّين، نَطَق فَفَضَح، وسَكَت فَقَدح[١].

يَسْتَـرِيحُ النَّـائم من قُيُود الحَيـاة، كما يَتَـرَوَّح السَّجِينُ سـاعـةً في فِنَـاءِ السِّجْن.

ما نَبَّه على الفَضْل الكاذِب، مِثْلُ الثَّنَاء الكاذِب.

نَخْوَةُ الكَلْب من الرَّاعِي، ومَنَعة الدِّيك من السَّطْح[٢].

إذا بالَغ الناسُ آسْتعارُوا لِلْهِرِّ شَوَارِبَ النَّمِر.

قَضَـاءُ السَّماءِ بِقَضَـاءِ الأَرْضِ آخْتَلَط، وهـذا مَعْصُـوم، وهـذا عُـرْضَـة لِلْغَلَط.

الفَضَائِلُ حَلَائِل، والرَّذَائِل خَلَائِل[٣].

---

(١) قدح: عاب. أي إن الدين إن ظهر فهو فضيحة، وإن خفي فهو عيب.

(٢) النخوة: المروءة. المنعة: العز والقوة.

(٣) حلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، ولها حرمتها التي لا يفرط فيها. والخلائل: جمع خليلة. وهي الصديقة والمعشوقة.

هَلَكتْ أُمّة تَحْيَا بِفَرْد وتَموت بِفَرْد.

في الغَمْرِ تَسْتَوِي الأَعْماق[1].

فِرَاشُ المُتْعَب وَطِيء، وطَعامُ الجائع هَنِيء[2].

تُغَطِّي الشُّهْرةُ على العُيُوب، كالشَّمْسِ غَطَّى نُورُها على نارِها.

للرِّيَاسات أذْنَاب، فلا يَكُنْ ذَنَبُك كذَنَبِ الطّاوُوس، فيَذْهَبَ بِبَهائِك كُلِّه لِنَفْسه، ولا كَذَنَب الفَأْر فيَنْقَطِعَ عَنك عِند العَسَل، ولا كَذَنَبِ النَّجْم فيَصْبُغَك بِنَحْسِه[3].

من عَجَزَ عَفَّ، ومن يَئِسَ كَفَّ، ومن جاع أَسَفَّ[4].

الأُمَمُ بُنْيَانُ الْهِمَم.

الصَّالِحُون يَبْنُون أَنْفُسَهم، والمُصْلِحون يَبْنُون الجَماعات.

المَدْرسة تُعلِّم ولا تُحَلِّم، والحَياة تُحَلِّم وتُعَلِّم[5].

المُتَحَيِّز لا يُمَيِّز.

مات العالِمُ فعاش، ونَفَقَ الجاهِلُ كالسَّائِمَات[6].

الخاصَّة أَذْوَقُ لِحِكْمَة البَيَان، والعامَّة أَذْوَقُ لِحِكْمَة الأَلْحَان[7].

المـالُ عُرْضَـة للآفـات فلا تَتَعَجَّلوهـا بـالسَّـرَف[8].

وَلَدُ البَخيل مَرْحُوم، وَوَلَدُ المُبَذِّر مَحْرُوم.

---

(١) الغمر: خلاف الضحل.
(٢) وطيء: لين سهل.
(٣) النحس: ضد السعد، يشير إلى ما يكون مع ظهور المذنبات من نحس.
(٤) أسف: طلب الدنيء من الأمور.
(٥) تحلم: تجعله حليماً.
(٦) نفق: مات، وهو للدابة، والسائمات: الإبل أو الماشية ترسل للرعي ولا تعلف.
(٧) أذوق: أكثر تذوقاً.
(٨) الآفات: ما يصيب الأشياء فيفسدها. والسرف: الإسراف.

الثَّقِيلُ جَبَل إذا تَلطَّفَ سَقَط.

يَدُ القاتِلِ حَمْرَاءُ، تَنِمُّ عليه في الدُّنْيَا، وتَشْهد عليه في الآخرة[1].

آسِ ثُمَّ انْصَحْ[2].

رُبَّما تَقْتَضِيك الشَّجَاعة أن تَجْبُن ساعة[3].

الخَيْرُ فيه ثوابُه وإنْ أَبْطأ، والشَّرُّ فيه عِقَابُه وقَلما أَخْطَأ.

الخَيْرُ تَنْفَحُك جَوَازِيه، والشَّرُّ تَلْفَحُك نَوَازِيه[4].

عَلَيْك أن تَلْبِسَ النَّاسَ على أَخْلاَقِها، ولَيْس عليك تَرْقِيعُ أَخْلاَقِها[5].

العِتَاب رِفَاءُ الودّ.

لا سُلْطَانَ على الذَّوْق فيما يُحِبُّ ويَكْرَه.

ذَنَبُ الطَّاوُوس رَفَع له رَأْساً، وذَنَبُ النَّجْم جَرَّ له نَحْساً[6].

الغَنِيُّ مع الفَقِير في كَبَد، إذا مَنَعه حَسَد، وإذا أَعطاه حَقَد[7].

النُّصْح ثَقِيل فلا تَجْعَلْه جَدَلاً، ولا تُرْسِلْه جَبَلاً[8].

الـرُّوحُ اللَّطِيفَة تَسْتَشِفّ، والنَّفْسُ الشَّـرِيفَة تَسْتَشْـرِف، والضَّمِيـر النَّقِيّ مِرْآة، لو ٱلْتَمَس فيها الْمَرءُ وَجْهَ الغَيْبَ لَرَآه[9].

---

(١) تنم عليه: تفشي سره.
(٢) آس، من المؤاساة، وهي إزالة الحزن والتعزية والتسلية.
(٣) تقتضيك: تطالبك.
(٤) تنفحك: تمر عليك مر النسيم. والجوازي، جمع جازية، وهي الثواب. وتلفحك: تحرقك. والنوازي: البوادر.
(٥) الرفاء: الإصلاح.
(٦) يشير إلى ما يصحب ظهور المذنبات من نحس.
(٧) كبد: تعب ومشقه.
(٨) الجدل: المناقشة.
(٩) تستشف: ترى ما ستر. وتستشرف: ترفع بصرها لتنظر.

رُبَّ قارِض للأَعْرَاض، وعِرْضُهُ بَين شِقَّي ِ المِقْرَاض[1].

الحِكْمَةُ قِوَامُ الخَيْر الخاصّ، ودِعَامَة الخَيْر العامّ[2].

البَصَائِر كالأَبْصَار، إذا تَوَجَّهْتَ في وَجْهٍ ثُمَّ لم تَتَحَوّل عنه رَجَعَتْ حَوْلاءَ[3].

أَكْثَرُ الفَضَائِل آصْطِلَاح، وجَوْهَرُها كُلُّها الصَّلَاح[4].

الذَّلِيل بِغَيْر قَيْدٍ مُتَقَيِّد، كالكَلْبِ لو لم يُسَدْ بَحَثَ عن سَيِّد[5].

تَحْسُن المرأةُ نِصْفَ عَلِيمَة، ويَقْبُح الرَّجُل نِصْفَ جاهل.

مَنْ أَثْرَى أو سَاد، فلا يَعُدَّنَّ الْحُسَّاد[6].

إِذَا خَدَع الطَّبِيبُ المَرِيضَ أعان الدَّوَاء، وإذا خَدَع المَرِيضُ الطَّبِيبَ أعان الدَّاء.

العامّة أَذْنَابُ مَنْ يَمْسَح رُؤوسَهم.

يَهْدِمُ الصَّدْرُ الضَّيِّق ما يَبْني العَقْلُ الواسِع.

العاقِلُ مَنْ ذَكَر الموتَ ولم يَنْس الحَياة.

يَسْتأْذِن الموتُ على العاقل، ويَدْفَع البابَ على الغافِل.

قد يُدَاوِيك من المَرَض اتّقاؤه، ولا يُنْجِيك من المَوْت إلّا لِقاؤه.

الغَلَطُ. إذا أُدْرِك تَبَدَّد، وإذا تُرِك تَعَدَّد.

---

(١) القارض: القاطع بالمقراض. والأعراض، جمع عرض، بالكسر، وهو ما يمدح ويذم من الإنسان.

(٢) القوام والدعامة: ما يقوم عليه الشيء ويعتمد.

(٣) البصائر: قوى الإدراك والفطنة، واحدتها: بصيرة، والحَولاء من العيون التي تنحرف إبصاراً.

(٤) الاصطلاح: ما يتعارف عليه.

(٥) لم يسد: أي لم يصبح له سيد.

(٦) أثرى: من الثراء، وهو الغنى.

المَسِيح بِكْرُ الحِكْمَة[1].

على كُتُب السَّماء تَهَجَّى الحِكْمَةَ الحُكَماءُ.

كُلُّ غائِبٍ يُسْلَى إلا غائِبَ الثَّكْلَى[2].

قَلَّما طارَ آسمُ الشَّاعِرِ في حَيَاته فَوَقَعَ بَعْدَ مَماتِه.

إذا كَثُرَ الشُّعَراءُ قَلَّ الشِّعْر.

أَكْثَرُ الشُّعَراء هُتَافاً بِشِعْرِه أَقَلُّهم رَاوِيةً.

الحَقِيقَةُ ثَقِيلَةٌ فاسْتَعِيرُوا لِحَقَائِق العِلْمِ خِفَّةَ البَيَان.

ما رَاعَ البِيضَ الرَّعَابِيبَ مِثْلُ رواعي المَشِيب[3].

تَحْمِلُ المَلِيحَةُ ثُكْلَ الجَمَال، كما يَحْمِلِ البَخِيلُ ثُكْلَ المال[4].

الشَّبَاب أَعْرَاسُ الجَمال، وْالْمَشِيبُ مآتِمُه.

عِنْدَ الكَمَال يَبْتَدِىءُ الجَمَال.

لِلْجمال حِينَ يَزُولُ جَلاَلَةُ المَلِك المَعْزُول.

العُلَمَاءُ أَشْبَاهٌ إلاَّ مَنْ زاد في العِلْمِ حَرْفاً.

السَّقْيُ بَعْد الْغَرْس، والتَّرْبِيةُ قَبْل الدَّرْس.

اجْتَنِبِ التَّفْرِيطَ والإِفْرَاط، تَسْتَغْنِ عن بُقْرَاط[5].

بُغِّضَ الكِبْرُ إلى النفس الكَبيرة، وحُبِّبت الصَّغَائِر إلى النَّفْس الصَّغيرة.

---

(١) المسيح: عيسى عليه السلام.

(٢) يسلي: من السلو. وْالثكلى: من فقدت عزيزاً عليها.

(٣) الرعابيب: جمع رعبوب، بالضم، وهي من النساء: البضّة الطويلة الممتلئة الجسم. ودواعي المشيب: مقدماته وأوائله.

(٤) الثكل: فقد الحبيب.

(٥) بقراط: أشهر أطباء اليونانيين القدماء.

يا أخا العُزلة أَنْتَ لو طِرْتَ عن النَّاسِ مـا وَقَعْتَ إلّا عَلَيْهم.

من آسْتَقَام آسْتَدَام.

الكَسَلُ فالِجُ النَّفْسِ[1].

الـوَقْت مُصَارِعٌ لا يَـزَال بكَ حتَّى يُصَيِّرك أَجْلَاداً رَثَّـة، ولا يَدَعـك إلَّا وأَنت جُثّة[2].

في شَهْوَة النَّفْسِ شِقْوَةُ الجَسَد[3].

العَادةُ شَهْوَةٌ لازِمَةٌ قاهِرَةٌ.

تَهْرَمُ القُلوبُ كما تَهْرَمُ الأَبْدان، إلَّا قُلوبَ الشُّعْراءِ والشُّجْعَانِ.

الشِّعْر فِكْرٌ وأُسْلُوبٌ، وخَيَالٌ لَعُوبٌ، ورُوحٌ مَوْهُوبٌ[4].

مَنْ ذَهَبَ يَسْتَقْصِي سَرَائِرَ النُّفُوس لم يَرْجِع.

رُبَّ آسْتِحَيَاءٍ تَحْتَه رِيَاءٌ.

مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بَعد جَهْلٍ وَجَدَها؛ ومن جَهِلَ نَفْسَهُ بعد مَعْرِفَةٍ فَقَدَها.

مَنْ ظَنَّ أَنَّه يُرْضِي أَبَداً يوشك أَن لا يُرْضِي أَحداً.

مَن ذَهَبَ بِنَفْسِهِ فَقَدَها، ومن ذَهَبَ بِوَلَدِه ضَيَّعَه[5].

السُّجُون إذا آمْتَلأَت آنْفَجَرت.

للنَّفْسِ على كُلِّ ما عَمِلَتْ عِلَلٌ مِن هَوَاها.

رُبَّما مَنَعَتْك الحُقُوقُ الكَلام، وأَلْجَمَتِ العُهُودُ فاكَ بِلِجَام.

---

(١) الفالج: شلل يصيب أحد شقي الجسم.

(٢) الأجلاد: جمع جلد، بالكسر: غشاء الجسم.

(٣) الشقوة: الشقاء.

(٤) لعوب: فيه تيه ودلال.

(٥) ذهب بنفسه: أزالها ولم يقدرها.

البُلْشُفيَّة قَيْصَرِيَّـة، لها جَبـرُوتُ المَلِكْ وسَرَفُـه، ولَيْسَ لـها جَـلاَلَه ولا شَرَفُهُ[1].

الوَقْتُ عَدُوٌّ مُجْتَهِد، لا يُدَافِعه إلاّ مُجْتَهِد.

الوَلَدُ ثِقْلٌ إذا فَسَد، ثُكْلٌ إذا فُقِد.

لَوْ لَمْ يَرْقُص الدِّينَارُ في النَّار، ما رَقَصَ على الأَظْفَار.

قَيْدُ الحَدِيدِ عَسِر، وقَيْدُ الحَرِير لا يَنْكَسِر، لَعَنَ الله الْقَيْدَ كُلَّه.

لا يَقَعُ المَلَقُ إلاَّ في نَفْسٍ غَرِير أَو مَغْرُور.

قادَةُ الثَّوْرَةِ مَقُودُونَ بهَا، كالجَلاَمِيدِ تَقَدَّمت السَّيْلَ، تَحْسَبُها تَقُـودُه وهي به مُنْدَفِعة.

الثَّوْرَةُ جُنُونٌ طَرَفاه عَقْل.

من آسْتَقَلَّ بِنَفْسِه آسْتَوْحَش، ومن استقلَّ بِرأْيِه ضَلّ.

خُطَّةُ العاقِل في رَأْسِه، وخُطَّة الجاهِل في نَفْسِه.

عادَةُ السُّوءِ شُهْدٌ آخِرُه عَلْقَم، ووَرْدٌ في أُصُولِه أَرْقَم.

الحَظُّ طَيْرٌ يَقَعَ غَيْرَ مُسْتَأْذِن، ويَطِيرُ غَيْرَ مُؤْذِن.

مَن أَحَبَّ المالَ تَعِبَ بِجَمْعِهِ، ومن أَحَبَّهُ المالُ تَعِبَ بِتَبْدِيدِه.

---

(١) البلشفية: مذهب شيـوعي يرى أن من المستحيـل على الهيئة الاجتمـاعية أن تنتقـل طفرة من النظام الرأسمالي إلى النظام الشيوعي. وأنه لا بد من دور انتقالي يطبق فيه مذهب الجماعية. وقيصرية: نسبة إلى قياصرة روما الذين تفردوا بالسلطة. والسرف: والإسراف.

أَبى الله أَنْ يَتَسَاوَى عِبادُه إلاَّ في النَّوْم والْمَوْت.

الأُمِّيَّة شَلَلُ الأُمَم، النَّاسُ مَعها مُقْعَدُون،وإن خُيِّل إليك أنهم يَعْدُون.

الرَّأيُ المُسَيَّر، إن قَعَدْتَ عنه تَغَيَّر.

العَامّة تَدَعُ صَاحِبَها عِنْدَ بابِ التَّارِيخ.

الحَقُّ مَلِكٌ وإن مُلِك، عزيز وإن أُهِين، دَيَّان وإن دِين.

صَبْرُ الحازِم تَجَلُّد، وصَبْرُ العاجِزَ تَبَلُّد.

الْقَدَمُ إلى جارِي المَقْدُور، أَسْرَعُ مِن الماءِ إلى الحُدُور.

الماضِي يُسَلُّ عَلَيْك يوماً.

إخْدَعْ مَنْ شِئْتَ إلاَّ التَّارِيخ.

ما ماتَ الحَقُّ في قَوْم وفيهم رَجُلٌ حَيّ.

أَصْدِقَاءُالسياسة أَعْدَاءٌ عِند الرِّيَاسة.

حِيَـلُ العُقُـول تَجْـرِي في وُجُـوه المَنْفَعـة، وحِيَـلُ النُّفُـوس في وُجُـوه المَضَرَّة.

التَّاجِرُ في حانُوتِه بينَ يَدَيِ الرَّازِق، فلا يُنازِعُ ولا يُنَازِق.

مَن لم يَتَحرّك جَمَد، ومن جَمَد هَمَد.

مَحاسِنُ وَجْه الدَّارِ الخَمِيلَةُ، ومَحاسِنُ وَجْهِ البَلَدِ الفُنُون الجميلة.

خُلِقَت المَرْأةُ تَنْبُلُ بالجَمال، فإن فَاتَها الْتَمَسَت ما يَنْبُلُ به الرِّجالُ.

عَجِبْتُ من الصَّدْر يَسَعُ الحادِثَ الجَلِيل، ويَضِيقُ بِحَدِيث الثَّقِيل.

الحِكْمَةُ مِصْبَاحٌ يَهْدِيك حتَّى في وَضَح الصَّبَاح.

حُبِّبَتْ إلى الشُّيُوخ أَحادِيثُ الشَّبَاب.

حَنِينُ الرَّجُل في عِلَّته، إلى أيام صِحَّته.

خَدَع العَقْلُ الأُمَم، ويَخْدَعُ الهَوَى العَقْلَ.

رُبَّ حُسْنِ سَمْت، أَتَى الرِّجَالَ مِن الصَّمْت.

حُبُّ القُلُوبِ يَزُول، ويَبْقَى حُبُّ العُقُول.

مَجْدُ السِّيَاسَة عُرْضَةٌ للأَحْدَاث، وقد يَنْهَدِمُ على أَهْلِه في الأَجْدَاث.

إذا طال البُنْيَانُ عن أُسِّه، آنْهَدَم من نَفْسِه[1].

سُلْطَانُ الفَضِيلة أَعَزُّ من سُلْطَان العِشْق.

سل عُذرَة عن العَفَافِ كَيف قَتَلها، وسَل الأَدْيِرَة عَمن دخلها؟[2].

مَنْ فَقَدَ الضَّمِير، لم يَجِد مَسَّ التَّحْقِير.

إرْحَمْ نَفْسَك من الحِقْد فإنَّه عَطَب، نارٌ وأَنت الحَطَب[3].

كُلُّ نارٍ طاهِرة مُطهِّرة إلَّا نَارَ الحِقْد.

كاد صَفْحُ الوالِد يَسْبِقُ ذَنْبَ الوَلَد.

لو حَطَّمَت السِّنُّ المَرْأَةَ ما حَطَّمت مِرْآتَها.

---

(١) الأس: الأساس.

(٢) عذرة: قبيلة اشتهرت بعفة الهوى، وكان له ضحاياه.

(٣) العطب: الفساد والهلاك.

إنما المَرْءُ مُرُوءته.

لا رَعْدَ مع صَحْو، ولا كَوَعِيد العاجِز لَغْو.

الْقُمَّل في لِبْدَة الأَسَد وهو مُطْلَق، أَعَزُّ من الأَسَد وهو وَراءَ الحَدِيد.

الحَقُّ المُسَلَّح أَسَدُ عَرِينة، والحَقُّ الأَعْزَل أَسَدُ زِينَة[1].

لا يُبْحَث عن القَتْلَى والقِتَالُ دائِر.

الحَقُّ كَبِيرٌ فلا تُصَغِّروه بالصَّغَائِر.

مَنْ حَمَل نَوائِبَ الحَقِّ حَمَل الأَمانَة كُلَّها.

العَالِمُ في كُلِّ زَمَانٍ بَلَد، المالُ فِيهِ أَميرٌ آخِرَ الأَبَد.

الأَعْمَى مَنْ يَرَى بِغَيْر عَيْنِه، والأَصَمُّ مَن يَسْمَع بِغَيْر أُذْنِه.

التَّواضُع المُتَكَلَّف زَهْرٌ مُصْطَنَع، لا فِي العُيُون نَضِر، ولا في الأُنُوفِ عَطِرْ.

كُلُّ بُنْيَانٍ يُهْدَم من رَأْسِه، وبُنْيَانُ الأَوْهَام يُهْدَم مِن أُسِّه.

يُؤذِي العاقِلُ المَفْتُون، كما يُؤذِي المَجْنُون.

الحِكْمَةُ أَن تُحْسِن قَوْلاً وفِعْلاً.

زواج العِشْق وَرْدُ ساعَة، وزَوَاج المالِ وَرْدُ صِنَاعَة؛ والبَرَكَة في زَوَاج مُوَفَّق، يكون لِعِمَارة البَلَد، وفي سَبِيل الوَلَد.

ثَلاَثة مُسَخَّرُون لِثَلاثة آخِرَ الأَبَد: الفَقِيرُ للغنيِّ، والضَّعِيف للقَوِيّ، والبَلِيد للذَّكِيّ.

قَلَّما رَفَعَتْ رَجُلاً نفسه فوُضِع، وقَلَّما وَضَعَتْ رَجُلاً نَفْسُه فرُفِع.

مَنْ سَاءَ خُلُقه آجْتَمَع عليه نَكَدُ الدُّنْيَا.

---

(١) العرينة: العرين، وهو مأوى الأسد.

ضِيقُ الرِّزْقِ مِن ضِيق الخُلُق.

نَسْجُ القُلُوبِ من شَهَوات.

دُودُ الحَرِيرِ أَخْرَقُ، هَلَك تارِكاً للنَّاسِ خَيْرَ ما لَبِسُوا، فما تَركُوا له مِنه كَفناً؛ والنَّحْلُ حَكِيم، طَعِم من كُلِّ الثَّمَرات ثم أَطْعَم[1].

الشَّبَابُ مُلاَوَة كُلُّها حَلاَوة[2].

لا أَعْلَمُ لك مُنْصِفاً إلّا عَمَلك، إذ أَحْسَنْتَه جَمَّلك، وإذا أَتْقَنْتَه كَمَّلك.

إذا رأَيْتَ ساعِياً مُجتَهِداً تَمْطُلُه الأَسبابُ، وتُطاوِله الغايات، فاعْلَم أَنَّ حظه قاعِد[3].

القَوِيُّ مَن قَوِي على نَفْسه.

العُقُولُ الكِبَارُ دُرَرٌ كِبَار، لا تَخْلُو واحِدَةٌ مِن خَدْش يُظْهِرُه الخُلُق أَو يُخْفِيه.

جَلاَئِلُ الرَّغَائب مَخْبُوءَة في كِبَار الهِمَم.

يَتَّقي الناسُ بعضُهم بعضاً في الصَّغائِر، ولا يَتَّقون الله في الكَبَائِر.

مَنْ عَلِم مِن نَفْسِه الكَرمَ رَبأ بها عن مَوَاقِف اللُّؤم[4].

كَفَى بِزَوَال الأَلَم لَذَّة، وكَفَى بِفِطَامِ اللَّذَّة أَلَماً[5].

مَنْ لم يَكُن في عِنَان لَذَّة، أَو تحت مِهْمَاز أَلَم، فليس على مَيْدان الحَياة[6].

---

(١) أخرق: أحمق.

(٢) ملاوة: مثلثة الميم: مدة العيش.

(٣) تمطله: ترجيء الوفاء بحقه.

(٤) ربأ بها: ارتفع بها.

(٥) الفطام: قطع الولد عن الرضاعة، ويريد كبحها عن الاسترسال فيما تشتهي.

(٦) العنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة. والمهماز: ما تهمز به الدابة، أي تدفع على السير.

مَن عاشَ وعاشَر أَمَلَّ مُحِبّاً أَوَ ملَّ مَحْبُوباً[1].

الجَماعاتُ مَطَايَا أَهْلِ المَطامع، تُبَلِّغُهم إلى مَنَازِل الشُّهرة[2].

في الثَّورة لا يُقْبَلُ الرَّأْي مِن أَهلِ المَشُورة، على أَصَالَـة رَأْيهـم، وصِدْق نَصِيحَتهم، ولكن على أَسْمائِهم في الأَلْسِنة، ومَوْقِعِهم في القُلُوب.

الناسُ في الأَلم والموت سَواء، لم تَسْلم من الدَّمع جُفون، ولم يُمْتنـع على الصَّدِيد مَدْفُون.

الفَتَيَات نائِمات، فإِذا تَـزَوَّجْن آنْتَبهْن، والفِتْيَان سُكَـارَى، فإِذا تَـزوَّجوا صَحَوْا.

شَبَحُ الفَقْرِ عادٍ رائحٌ على آثْنَين: زَوْجِ المُضَيِّعة، وآمْرَأَة المُقَامِر.

بانِي نَفْسِه لا يُبالِي ما هَدَم.

رُبَّ باكٍ كضاحك المُزْن، دَمْعٌ ولا حُزْن[3].

مَن قَعَدَ به المالُ لم يَقُم به شَيْءٌ.

ثَوْرَةُ النُّفُوس تَقْطع الجِبال، وثَوْرَة العُقول تَقْلَع الجِبال.

المُقْعَدُ خَيْرٌ من القاعِد، والكَسِيح خَيْرٌ من الكَسْلان[4].

إِذا صَدَقَت النِّيَّة فكُلُّ مَذْهَبٍ جَمِيل، وكُلُّ رَأْيٍ أَصِيل.

عَجَزَ المُغْتَابُ أَن يكون سَبُعاً، فَرَضِي لِنَفْسه أَن يكون ضَبُعاً.

رَأْيُ الجَماعات بَعْضُه من بَعْض، وكُلُّه من الفَرْد، كمَـوْج البحر بعضـه من بعض، وكُلُّه من الرِّيح.

---

(١) أمل: أسأم.
(٢) المطايا: ما يمتطى ويركب، واحدتها: مطية.
(٣) المزن: السحاب يحمل الماء، وضاحكه: الذي يمعن بالبرق ولا يمطر.
(٤) المقعد: الذي لا يقوى على النهوض لداء. والكسيح: الذي لا تحمله رجلاه فهو يحبو.

مَن رَفَعَ شِرَاعَ العِلْمِ بَلَغَ ساحِلَ الحياة، وهو في أول اللُّجّة[1].

الجَمِيلُ إلى الجَمِيل يُمِيل، والحِكْمَةُ تُحِبُّ الفَنَّ الجَمِيل.

مَثَلُ الشَّاعِر لم يُرْزَق الحِكْمة؛ كالمُغَنِّي صِنَاعةٌ ولا صَوْت.

العاقِلُ يُكلِّمُ أناساً بِبَعْض عَقْله، وأُناساً بِعَقْله كُلِّه.

ذَكَرُوا للبُخْلِ مائةَ عِلَّة، لا أَعْرِفُ منها غيرَ الجِبِلَّة[2].

الاعْتِرافُ أَوْجَهُ الشُّفَعَاءِ.

إعْتِرَافُ الخاطِئات آسْتِبْسال، وفِرَارٌ من الاسْتِرْسال، فَآنْتَشِلوهن بعَفْوكم من الهُوَّة، وأَحِيطُوا ضُعْفَهُنَّ من حِلْمِكم بقُوّة.

الحِكْمَة في أَفْواه العُلَماء، وعلى شفاه الدَّهْمَاء؛ كالدُّر يكون في قاع البُحور، ويكون في نَواعِم النُّحور، وكشُعَاع الشَّمْسِ يَقعُ على الْوَحل، كما يقعُ على الزَّهْر.

المَوتُ أَوَّلُ المَخاوِف وآخِرُها.

مَنْ نَقَضَ مَوْثِقَه، نَفَضَ عنه الثِّقَة[3].

إذا ذَهَبت الأُمَم بَقِيَت الرِّمَم.

إذا زاد تَوَاضُع الكُبَراء كان تَلَطُّفاً في الكِبْر.

لا يَزال الشِّعر عاطِلاً حتى تُزَيِّنه الحِكْمَة، ولا تَزَال الحِكْمَة شارِدَةً حتى يُؤْوِيها بيتٌ من الشِّعر.

الوَقْفُ مِن حِرْص النُّفوس، ويُرَاد به المالُ لا البَنُون.

---

(١) الشراع: القلع للسفينة وبه تسير. واللجة: معظم ماء البحر.

(٢) الجبلة: الخلقة: يعني ما هو خلقة وطبع.

(٣) الموثق: العهد، ونقضه: عدم الالتزام به. ونفض: أزال.

بَيْن الحِلْم وَالخَورَ جِسْرٌ أَدَقُّ من الصِّراط[1].

ثَـلاَثَةٌ لِثَـلاَثة بـالمِرْصَـادِ: الموتُ للحيـاة، والشَّقَـاء للذَّكـاء، والحَسَـد للفضل[2].

خَفِ اليائِسَ فإنه لا يَخَاف.

كِبْرُ الصَّغِير قَبِيحٌ كتَوَاضُعِه، كِلاَهُما في غَير مَوْضِعه.

حَظُّ النَّفْسِ من الحِرْصِ حظُّ المُقَاتِل من السِّلاَح، إذا زاد عن حـاجتِه تَخَبَّل، وناءَ بما حَمَل، وإذا قَصَّر عنها تَقَهْقَر وانْخَذل[3].

إثْنان في النار دُنْيَا وأخْرَى: الحاقِد والحاسِد.

الدِّين السَّمْح في الرَّجُل السَّمْح، والجِنْسُ الكَرِيم في الرَّجُل الكَـرِيم، فأَحْبِبْ مَن ليس مِن دِينك تُحَبِّبْ دينَك إليه، وأَكْرِم مَن ليس من جِنْسِك يَكْـرُمَ جِنسُك عليه.

آفَةُ النُّصْح أن يكون جِدَالا، وأذاه أَن يَكون جِهَارا.

في الدُّنيا مَزِيد من العَقْل للعاقِل، ومُتَمَادَى فـي الجَهْل للجاهِل.

إثْنَان مُعَادِيهما في خُسْرٍ: القَوِيّ المُغَلَّبُ، والرَّجُلُ المُحَبَّب[4].

شَـرَفَ الكُبَرَاء كـالوَرْد في إبّـانَ غَضَاضَتِـه، إذا نَزَعْت منـه وَرَقَةً آنْحَـلَّ وآنْتَشر، وآنْتَقَض جَمِيعهُ على الأثَر[5].

تَجْمَـع اللُّغَاتِ على آخْتِـلاَفها الحِكْمَـةُ، كمـا تَجْمَـعُ شَتَّى المَعـازفِ النَّغْمَة[6].

---

(١) الخور: الضعف والانكسار.
(٢) بالمرصاد: يراقبك فلا تفوته.
(٣) تخبل: جن وفسد عقله. وناء: عجز.
(٤) المغلَّب: الذي أمر الناس بالغلبة.
(٥) انتشر: تفرق. وانتقض: فسد بعد إحكامه.
(٦) المعازف: آلات العزف.

لا يَكُنْ تَلَطُّفُك مُذَالاً، ولا تَحَبُّبُكَ آبْتِذالاً، فإنَّ الطُّفيليِّين أعذبُ النَّاسِ كلاماً، وأَكْثَرهُم آبْتِساماً(١).

أَسَاطِينُ البَيَان أَربعة: شاعـرٌ سارَ بَيْتُـه، ومُصَوِّرٌ نَـطَق زَيْتُه، ومُـوسِيقيّ بَكَى وَتَرُه، ومَثَّال ضَحِك حَجَرُه(٢).

من الأُمَّهات تُبْنَى الأُمَم.

الأُمِّية في العُقلاءِ شَكَائِم، تَتَأَسَّى بها البَهائِم(٣).

الشَّبَابُ من المَوْت خُطْوَةٌ أَو ما فَوْقَها، والمَشِيب من المَوْت خُطْوة أو ما دُونها.

الـطَّير لا يَقْـرُبُ أفْقـاً فَسَـد فَضَـاؤُه، والحُـرِّيَّـةُ تَهْـرُبُ من بَلَدٍ اختـلَّ قضاؤه.

إذا ضُغِط على قاضِي الأَرْض في بَلَدٍ ضَغَط عليه قاضي السَّمَاء.

شُورَى من الحَجَّاج وزِيَاد، خَيْرٌ من الفَرْد ولو كان عُمَر(٤).

خُذْ من مال النَّاسِ ما شِئتَ، فإنَّ وارِثَك رَادُّه إليهم.

لَيس العِلم لـك بِسِفْر، حتّى يكـون لك فيـه سَـطْرٌ، وليس الأَدَب لـك كِتاباً، حتى تَزِيد فيه باباً.

الإِنْسَانُ لولا العَقْلُ عَجْمَاء، ولولا القَلْبُ صَخْرةٌ صَمَّاء(٥).

---

(١) المذال: المهان المبتذل.

(٢) الأساطين، جمع أسطوانة. وهي العمود يقوم عليه البناء.

(٣) الشكائم، جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام تكبحه. وتتأسى: تتعز.

(٤) الحجاج: هو آبن يوسف الثقفي (٤٠ ـ ٩٥هـ) قائد داهية وسفاك، وزياد، هو ابن أبي سفيان (١ ـ ٥٣هـ) من الولاة الدهاة. وعمر، هو ابن الخطاب (٢٣ هـ)، الخليفة الثاني، وكان معروفاً بالعدل، يعني الشورى في ظل حاكم مستبد خير من الحكم الفردي وإن كان الحاكم عادلاً.

(٥) العجماء؛ الخرساء، يعني بهيمة، وصماء: صلبة مصمتة.

مَنْ وَضع نَفْسَه قَصَّر عن فَضِيلةِ التَّوَاضُع[1].

المَرْءُ كَلِفٌ بما أَلِفَ[2].

المَغْرُورُ مَن يَظُنُّ الناسَ لا يَسْتَغْنُون عنه؛ والمَخْدُوعُ مَن يَظُنُّ أَحداً من الناس لا يَسْتَغْنِي الناسُ عنه.

من أَخَلَّ بِنَفْسه في السِّرِّ أَخَلَّتْ به في العَلَانِيَة[3].

إذا رأَيتَ المَرأَةَ لا تَدَعُ صَلَاتَها فلا تَثِق بها كُلَّ الثِّقَة؛ وإذا رأَيتَها لا تَضَعُ مِرْآتَها فلا تَتَّهِمها كُلَّ الاتِّهام.

العاقِل لا يَثِق حتَّى يُجرِّب، ولا يَتَّهِمُ حتى يَتَبَيَّن.

ثِقَةُ العاطِفة شَهْر، وثِقَةُ العَقْل دَهْر.

الثِّقَةُ وثَاقُ الأَحْرَار[4].

الثِّقَةُ مَرَاتِبَ، فلا تَرْفَع لِعُلْيَا مَرَاتِبها إلا الشَّرِيكَ في المُمِرّ، المُعِينَ على الضُّرّ، الأَمِينَ على السِّرّ[5].

مَن أَحْسَنَ الثِّقَة بِنَفْسِه، فَلْيَثِقْ بَعدها بِمَن شاءَ.

الوَقْتُ آلةُ الرِّزْق إذا اسْتُعْمِل، وآفةُ الرِّزق إذا أُهْمِل.

يا عَدُوَّ الزَّواجِ؛ لو كُنْتَ العَزَبَ القُدْسِيَّ عِيَسى ابْنَ مَرَيم، ما استطعت أَن تَقْطَعَ له نَظْماً، أو تُعَطِّل له سُنَّة.

لَيس للدُّنيا بِبَعْل مَنْ خَطَبها بلا عَمَل، وصَحِبها بلا أَمل[6].

---

(1) وضع نفسه: امتهنها. والتواضع: عدم الكبر.
(2) كلف: مولع.
(3) أخل بنفسه: نقصها حقها.
(4) الوثاق: الرباط.
(5) الممر: المر.
(6) البعل: الزوج.

الحَقُّ نَبِيٌّ قَليل التَّبَع، والباطِلُ مُشَعْوِذٌ كَثِيرُ الشِّيَع[1].

جِئْني بالنَّمِر العاقِل، أَجِئْكَ بالمُسْتَبِدِّ العادل.

لـو طُلِبَ إلى النَّاس أَن يَحْـذِفُوا اللَّغْـوَ، وفُضُولَ القـول من كَـلامهم، لكـاد السُّكوت في مَجَـالِسهم يَحُلُّ مَحَـلَّ الكـلام. ولـو طُلِب إليهم أَن يُنَقُّـوا مكـاتِبَهم من تافِـه الكُتُب وعَقِيمها، وألا يَـدَّخِروا فيهـا إلا القَيِّم العَبْقَـرِيّ من الأَسْفار، لَمَا بَقِي لهم من كُلّ أَلف رَفٍّ إلَّا رفّ.

إِثْنان مِن نِعَم الله عليك: عَدوٌّ تَشْغله كثيراً، وصديقٌ يَشْغلك كثيراً.

إنْ كُنْتَ عصاً فكُنْ لَيِّناً، وإن كنت سَيْفاً فكُنْ قاطِعاً.

القَلَم كالمِصْباح، نُورٌ في يَدِ الكَبِير، نارٌ في يَدِ الصَّغِير.

الإقْدَام والجِدُّ إذا آجْتَمعا لِرَجُلٍ لم يَقِفْ له شيءٌ في طَرِيقه.

السَّعَادَةُ في الدُّنيا لا كامِلة ولا شامِلة. سَل أسْعَد النَّاسِ يُخْبِرك.

بَين الحِلْم والحَـذر، وبين المُدَارة والـرِّيَاء، وبين التَّـوَاضُع والتَّـدَنِّي، مَسَـافـةٌ أَرَقُّ من الصِّـرَاط، فمن شـاءَ وقـع في الفَضِيلة، ومن شـاء وَقــع في الرَّذِيلة.

مُودِعُ المعروف عند الأشرار كمُودع الحَطب عند النار.

مَن وَثِق بالله مَشى على الماء.

الأصِيلُ مَن كان لِنَفْسِه أَصْلًا، لا من كان عالةً على الأُصول.

العِلْمُ أَرفع النَّسَب، والعَمل أَرفَع الحَسَب.

بَعضُ الفَضْـل كَنُور الكـوكب، يظهـر من نَفسه وهـو الحقيقي، وبعضُه كضَوْء السُّرُج تُظهره بنفسك، وتُجلبه بيدك، وهو الفَضل الكاذب.

---

(١) التبع: الأتباع. والمشعوذ: الماهر في الاحتيال.

إثْنان لا مال لهما: الكريم والبخيل، إلا أنَّ عِرْضَ الأوّل مَوْفُور.

في النَّفس ألفُ داء، وفي القُرآن ألفُ دواء له ودَواء.

مَن أحْسن إلى لَئيم أساء إلى نَفْسه.

جاهُ المَناصِبُ مُبَدَّد، وجاه الفَضل مُحَدَّد.

لا أدبَ في أُمة يَتسابّ أُدباؤها.

مَثَل رِجال الأعمال في المُنافسة والمُزاحمة كأصائل الخَيل، تجرِي على آنفراد ومُنْدَفِعة، وهي أَحْرَى إذا آنبرت مُجتمعة.

إن كان ولا بُدَّ فَخُذْ من شَهواتك ولا تَدَعْها تَأْخُذْ منك.

حَظُّ البَخِيل من ماله حظُّ اليسر من آماله، ورُبَّما كان الأخير أسْعد[1].

صَداقة اللَّئيم ندامة، ومُدَاراته سلامة.

مَن حَدَّث الناسَ عن نفسه بما يَرضى، تحدَّثُوا عنه بما يكره.

نَفْس الظالم على كَفّ المَظلوم، كلّما بَسطها إلى الله وكُلّما قَبَضها.

الحقُّ يَطلُب بعضُه بعضاً، فكيف إذا طَلبه صاحبُه.

العالِمُ الفَخور، كالعَارِض يتكسّر بعضُه على بَعض. والعالم المُتواضع كالغَدِير الصافي يُمسك بعضُه بعضاً[2].

لا تَزال النفسُ تَهْزِل حتّى يَحْضُرها الموتُ فَتَجِدّ.

العُمر ساعتان، ساعة الموت، والساعةُ التي أنت فيها.

الوُجوه مَرَايَا، أصدقُها ما أَخذ من قلبك. والعُيون مَرَايا، أَصدقها ما تُرِيك من عَيْبك.

---

(١) اليسر: الذي يضرب بالقداح في الميسر.
(٢) العارض: السحاب المعترض في الأفق.

كُن مع الله ثم كُن كيف شِئت، فإنك مع كريم.

حامِل الحقد حامِل التَّعب كُلِّه.

إذا أُصيبت أُمة في الأخلاق أُصيبت في أَنفس الأعْلَاق[1].

الشَّرفُ الرفيع تؤذيهِ ريبة، كما تُؤذَى ضوءَ الشمس غَمامة.

الدُّنيا حسناء تُحَبُّ مُقْبِلَةً ومُدْبِرَةً.

هِمَّةَ تَنهض بأُمة. وعَزْمة تُفَرِّج أزمـة. وصَوْلـة تَبْني دَوْلة. والعَـزَائِم تَلِدُ العِظَام. وبالإقدام تَضع الممالك حُدودَها أنَّى تشاء.

لا جِدّ لمن لا هَزْل له، ولا هَزْلَ لمن لا جِدّ له.

الموتُ داءُ النَّوْعِ البشريّ ودواؤه.

تِسعة أعشار الفَضل في الاعْتراف بِفَضل الغير.

مَن كَثُرَتْ أدواؤه كَثُرَت أعداؤه.

جَوهرةٌ في الدماغ خَيرٌ من ألف جَوهرة في الجَيْب.

ما اشتريَت بمالك أغلى من عِرْضِك.

ثلاثة يَمرّون بالدنيا مرّاً: البخيل، والجاهل، والمجنون.

كُن من تُسْتَقْبَح عليه النِّقمة، ولا تكن من تُسْتَقْبَح عليه النِّعمة.

النَّصِيحةُ دَيْنٌ لا يُؤدَّى مَرَّتين.

الرَّذِيلة في الرَّجُل بعضُ الشَّر. وهي في المَرأة الشَّرُّ كُلُّه. والفَضِيلة في الرَّجل بعضُ الخَير. وهي في المرأة الخيرُ كُلّه.

قَلب المرأة خَلف عينيها، وعقلُها بين جَنبيها.

---

(١) الأعلاق: جمع علق بالكسر. وهو النفيس من كل شيء.

الدُّنيا يَوْمٌ. والناسُ قَومٌ وقَوم. فدارِ الأنام. ودُرْ مع الأيَّام.

لا تَزال في الصِّغر حتى تَعلم فَتَدْخُل في الكِبَر.

كُن ابن نفسك، ثم كن ابنَ من شِئت. واصنع المعروف بين الناس، ثم آصنع ما شئت.

الله أعْيَن، والناسُ أَلسُنُ، فأين المَفَرّ.

شُهرة أُخِذت غَصْباً تُرَدُّ عَفْواً.

الدُّنيا إذا آتسعت ضاقت. وإذا ضاقت آتَّسعت.

الحياةُ مع الموت على الناس.

الخَوَاصُّ حَفَظة الدُّنْيا، والعوامُّ حَفظة الدِّين.

القاهِر فوق نَفسه، قاهر فوق شَياطين الأرض والسَّماء.

على الأرض كما في السماء ملائكةٌ هم الرَّاحمون والرَّاحمات.

من أمِن الـدَّائراتِ أن تَـدُور. والموتَ أن يَـزُور. فَلْيَشْمَت بمن عاش، ويَلْعن من مات.

لا تجمع النفسُ بَين الكُبْر والكِبْر[1].

الناسُ في آتِّقاء اللَّئيم، وخِدَاع الكريم.

لو دخل الجنةَ دينارٌ لأخرج منها الأبرار.

من حَمل غَمّاً حَمل سُمّاً.

بَطن الأرض أوسعُ من بَطن حَوَّاء.

أُرْجُ الذَّكِيَّ وآخْشَه، فإنَّ صَداقته بِعَقْل وعَداوتهِ بِعَقْل.

---

(١) الكبر، بالضم: الشرف والرفعة. والكبر، بالكسر: الإثم الكبير.

مَثل الأماني والأحلام كالأزهار، ما تَراكم عليك منها قَتل.

ليس بعد القَلَم واللَّوْحُ أَجَلُّ من القَلَم والطِّرْس بين يَدي حَكِيم[1].

النفسُ الصغيرة مُولعة بالصَّغائر.

المَرء مُروءته.

الدُّنيا باب الآخرة، فآئتِ الآخرةَ من بابها.

عُلوم الدُّنيا شارحةٌ لِعُلوم الدِّين.

أُمة تُزْري بعُلمائها أُمة ذاهبة[2].

إذا ضَحِكت سِنُّ اليَتيم ضَحِكت سِنُّ العِنَايـة؛ وإذا بَكَت عَيْنُ اليَتيم بَكت عَيْنُ العِنَاية.

لكلّ حالٍ حُلو ومُرّ، فاشرب بكأسَي الحَياة حتى تَمُرّ.

الله مُنتقم لا يُحب المُنتقمين.

ما أضاء زَيْتُ الحِكْمة في أوهج من سُرُج الشِّعر.

السَّعادة الحقيقيّة في آحتقار السعادة الوهميّة.

ليس فوق الصِّحةِ نعمة، ولا فوق المَرَض نِقْمة.

العاقِلُ حيثُ يَجعل نَفسَه؛ والجاهلُ حيث تَجعله نفسُه.

تَكَثَّر من الحُسَّاد بِفَضْلك. ولا تَتكثَّر من الأعداء بِجهلك.

شَرُّ الإمَاءِ نُفُوسُ اللُّؤماء، من مَلَك مِنها هَلَك.

السَّعادةَ صديقٌ يَعرفك إذا أنكرتْك السعادةُ.

الناسُ في غِبطة المُلوك، والمُلوكُ في حَسد العُلماء.

---

(١) الطرس: الصحيفة.

(٢) تـزري: تعيب.

المُسْتَبِسلُ مَن عَشِق فَعفَّ، والباسِلُ مَن صَدَقَ فَوَفَّى[1].

كُلُّ الأُمهات بِقُلوب إلاَّ الدُّنيا.

صديقُك مَن ساهَرك فوق الرَّمْس، لا مَن ساهَرَك ليلةَ أَمس[2].

يُكْتَشف ألفُ كَوكب في السَّماء، قبلَ أن يُكْتَشف حَكِيمُ فوق الأرض.

العادل من ظلم نَفْسَه في إنصاف الغَيْر.

مَثل أُمة يَضِيع عالِمُها كمريض يَضيع طَبِيبُه.

البَخِيل حَيٌّ يُرْزأ مِن حَيثُ يُرْزَق[3].

زَكاةُ العِلم العَمَل، وزَكاة الجاه النَّفْع.

عَدُوَّانِ لم يُبْتَلَ الإنسان بِشَرٍّ منهما: نَفسه، ولِسانه.

الظالِم لِنَفْسه أظلم.

الجاهِل ميِّتُ الأحياء.

شاهد الزُّور شَرُّ القَتَلة، يُبَرِّىء القاتِلْ، ويَقْتُل البَرِيءْ.

النَّفس حُرَّة إذا مَلَكت، أَمَة إذا مُلِكت.

النَّفس كالْمرأة لا تُرَدّ في حالَيْن: إذا آنْصرفت، عن هَوَى، وإذا آنصرفت إلى هوى.

إذا كُنت في أَمْرٍ فكُن على نَفسك في صُدُوره تَكُنْ معك في عَواقبه.

هوى النَّفس أغلب، فَدارِها كما تُدَارِي السَّفِيه، وأَعْطها بمقدار ما تَشْتهيه.

---

(١) المستبسل: المقدام.
(٢) الرمس: القبر.
(٣) يرزأ: يصاب بمصيبة.

النَّفس حاكم مُستبدّ، إن لم تستطع خَلْعه فَقَيِّده بدُستور من الاعتدال.

مَن كَرمُت نَفْسُه عليه هانت الدُّنيا في عَينيه.

مالِكُ نَفْسِه المُعتدل في الأمر كُلِّه.

السَّفِيه مَن بَذل نَفْسَه، لا مَن بَذل نَفِيسَه.

ما عَرف قَطُّ النَّدامَة مَن عَرَف لِنَفْسه الكرامة.

النَّفْسُ أضعفُ ما تكون قاهرةً. وأقوى ما تكون مَقْهورة.

ما أَوْلَعَ الناسَ بالناس. يشتغل أحدُهم بُشؤون أخيه، وفي أَيِسر شَأنِه ما يُلهيه.

إثنَان في النار دُنْيا وأُخرى: الحاسِد، والحاقد.

لَيس للعِلْم وَطَن. ولا للحِكمة دار. بل العاقلُ مَنْ له في كُل أرض مدرسة، وعلى كُل طريق أُستاذ.

لكُل زَمان كتاب. ولكُل جِيل آداب. ولكل كاتب قارىء. ولكل شاعر مُنشد. والناس أَحْوجُ إلى أدب من غير أَدِيب مِنهم إلى أديب بِغَيْر أدب.

العاقلُ مَن رَضي الدُّنيا حَليلة. ولم يَتَّخذها خَلِيلة. لأنها كالمَرأة تَسْكُن إلى بَعل. ولا تَصْبِر على خِلّ[1].

العَدل أساسُ الملك. ولا عَدْل إلا حيثُ القضاءُ يَدور دُولاَبُه. ويُوَلاَّه أَرْبَابُه. وتَوَثَّقُ أسبابُه. فهو مِرآة الحُكومات التي تَتراءى فيها بما هي من آستقامة أو عِوَج؛ وظُلم أو عَدْل. وصَلاح أو فساد، وآرتقاء أو آنْحطاط. وأَساس المَمالك إذا سَلِم سَلِمَت؛ وإذا تَهَدّم آنهدمت. وعُنوانُ شُعور الأُمم وتَعلُّقها ودَرجتها في القوانين التي تَضعها كُل أُمَّة، وتَتَواصى بالخُضوع لها، ليست إلا مَجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها. ولأنَّ القائمين عليه

---

(١) الحليلة: الزوجة. والخليلة: الصديقة. والبعل: الزوج. والخل: الصديق.

بهذه القوانين لَيسوا إلّا أفراداً من أبنائها يُبصرون بعينها؛ ويَسمعون بآذانها؛ ويَشعرون مِثْلَ شُعورها. ويجدون مِثْلُ وجْدَانها. فإذا زَكَوا زَكَا سائِرُ الأُمة؛ وإذا خَبِثُوا خَبِثَت الأُمة جَمعاء[1].

الأَوهام داء الأُمم. مُنذ القِدَم. لم تَخْل منها أمة خالِية، ولن تَخْلُو منها أمة آتية.

خُلق الإنسان من ضَعف، فكان الوَهْمُ أوّلَ دِينٍ دان به، وأوَّلَ حُكومة دان لها، وأوّلَ شيطان سَكن إليه. يَستقبل المُجَسَّمات. ويتخذ منها آلهة يَسجد لها، ولا يزال آخرَ الدهر يَتَوجّه إليها بالتّأليه والتَّقديس والتَّنزيه. وإذا عَبد الله كما تَعبدونه أنتم والنَّصارى واليَهود، كان لله الشَّطْرُ من تلك العِبادة وللأوهام الشَّطر. فالمَسِيحيّ يُبْلِي الحديدَ في كَنيسة القديس بُطْرس بِرُوما آسْتِلاماً وتَقبيلاً. كما يَضع المُسْلِمُ خَدَّه في عَتب الأَضرحة بالقاهرة تَمسُّحاً وتَأْمِيلاً. وتَعظيماً وتبجيلاً. وكان في شَبِيبة الدَّهر يُؤلِّه الجَبَابِرةَ من البَشر أمثالَه. ويُحكِّمهم في عِرْضه ودَمه وماله.

الوَهْم أوّلُ شَيطان سَكَن إليه الإنسان، تَولّد منه يَقِينُه، ونَشأ عنه عِلْمُه، وجَرت عليه أُموره. وآنبنى عليه حُكْمه، وتألَّف منه مألُوف عاداته. يُحِسّ به وَيَشْعُر. ويَسمع به ويُبصر، ويَعْجَز به ويَقْدِر. وبه يَعيش، وعليه يَمُوت.

الأَوهام لا تَخلو منها الأُمم الكَبِيرة، والشُّعوب الحَيّة، إلا أنها تَقِفُ حينئذ حيثُ العامّة، ولا تَتجاوزها إلى الخاصّة، إلّا ما نَدر؛ كما أنها تتملَّك الأُمم الصَّغيرة، والشُّعوبَ المُنْحَطَّة، فيكون للخاصة منها مِثل حظّ اللَّمَّة وهنا عَظِيم البَلْوى، ومُنتهى نَكَد الدنيا[2].

أَلَيْس من الوَهم القاتلِ للأنْفُس، المُمِيت القلوب، أن يُصبح في أَذهان خاصّة المِصْرِيِّين من أُمراء وعُظماء وأُدباء وعُلماء أَنّهم أُمة ليس فيهم

(١) زكوا: صلحوا. وخبثوا: مالوا عن الحق إلى الباطل.
(٢) اللمة: الناس المجتمعون، يريد عامة الناس.

فَلَاح، ولا يُرْجَى في أَمرهم صَلَاح، وأنّ اتّفاقهم سابِعُ الجهات، ورابعُ المُسْتَحِيلات، وأن الوَطن مَيِّت وأنّهم مَيِّتون، وما أشبه ذلك من الدَّعاوَى الباطلة، التي لا تَنْطبق على نَوامِيس الوُجود، ولا تُرَدّ إلى أَحوال البَشَر وحوادث التاريخ[1].

الأَوْهام داءُ الأُمم، ومَنِيّة الشُّعوب. إذا تمكَّنت من قَوم كانت كالفأس في الأساس. وكالنّار في الشِّعارِ. وكالحَبْلِ في الخِنَاق. وكالعِلَّة في القَلب، لَا يَخْفِق معها إلَّا إلى حين. ومِن تَبَالُغ نَكَدِ الدُّنيا على الشَّرق الحاضرِ تَبَالُغُ هذا الدَّاء فيه، حُكوماته دَواليبُ تَدُور بالأوهام. وبُلْدانه مملوءة ما بين السِّمَاكَيْن من الأَوهام. وأُممه تَروح وتَغدو حيث تجعلها الأوهام، نَظَرُ الواحِد منهم في الأمور عَرَضاً وبِعَيْنِ غَيْرِه. وحُكْمُه فيها عن الهَوى، وانقيادها في إيرادها وإصدارها بأَزِمّة الأوهام[2].

ليس مع السَّلْوة عَيش. ولا مع القُنوط عَمَل. ولا مع اليأس حياة. وليس أَجْلَبُ للشَّر والضَّر من الدعوة إلى الرُّبوض، وتَوْهين العزائم. وإماتة القُلوب. وإخراج النفوس من الرَّجاء إلى اليأس، الذي هو الموت في أشنع صُوره، وأقبح أحواله[3].

الأُمم تَمُوت. ولئن بَدت عليها دلائل الموت في أزمنة الاضمحلال، فما تلك إلا بُؤْسَى تَزول. وحالٌ سَتَحول. الأُمة تَصِحّ ثم تَعتلّ. تَتجدّد من حيث تَبْلَى. وتَقُوم من حيث تَسقط، وتَصِحُّ بالعِلَل. هذه اليابان، هل كان في حُسبان أحدٍ أن يُضمَّ صَوتُها يوماً إلى أصوات دول الغَرب، في مسألة من أكبر مسائل العصر. وتَطمع مع الممالك الطامعة. وتُسَيِّر الجيوشَ في البرّ،

---

(١) سابع الجهات، وهذا من المستحيلات؛ إذ الجهات ست. ورابع المستحيلات، المستحيلات ثلاث: الغول، والعنقاء. والخل الوفي.

(٢) الشعار: ما ولي الجسد من الثياب. والخناق: ما يختنق به. والسماكان: نجمان نيران، أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب.

(٣) الربوض: اللصوق بالأرض.

وتُخرج الأساطيل في البحر. وقد كانت، وأنت في زَمن الدراسة، لا يُذْكَر آسمها إلا مَقروناً بآسم الصين. عُنوان الهمجيّة، ومِثال التوحُّش، والمُشَبَّه به إذا ذُكر التأخُّر والانحطاط.

الغَضبُ يُعْمِي صاحبَه، ويُضل راكِبه. يُريه صُدُورَ الأمر ولا يُريه عَوَاقِبَه.

عَرفتُ صُنوف الفَلسفة، فلم أَرَ كالفَلسفة يَأْخُذها المرءُ من نَفسه، ثم من حيثُ التفتَ فرأى. وكلما قِيل له فَسمع من حديث المُتكلِّم، إن صِدْقاً وإنْ كَذِباً، وصُموت الصامت إنْ بَكَامَةً وإنْ بُكماً، ونَعِيم المُنعم. وبُؤْس البَئِيس. ومِشْية المُتكبِّر، وهَذَيان المُهوَّس، وعَرْبدة السَّكران، ومن النَّمل في مَشاغلها، والنَّحل في مَعاملها، والذَّرّ في مُسْتَثاره، والبَرَق في مُسْتَطاره، ومن الدَّهر في إقباله وإدباره، والفَلَك في ليله ونهاره، والبحر في مُضْطربه وقَراره، ومن النفس إذا اعتلّت، وإذا صحّت، وإذا طَمِعت، وإذا رَغِبت، وإذا تَسلَّت، وإذا جَشأت، وإذا آطمأنّت، وإذا شَكرت، وإذا جَحدت، ومن الطباع إذا آمتُحنت، والسَّرائر إذا بُليت، والأهواء إذا آختُبِرت. مَدارس لا يَفْرُغ اللَّبِيب منها، ودُروس لا يَصْبِر الحكيم عنها.

عليكم بالإقدام فإنَّه مِفتاح الغِنَى، والطَّريق المُختصر إلى العَلْياء، والسِّلاح الأَمضى في مُعترك الأحياء. به سُدْت، وعليه آعتمدت، فيما أسَّست وشَيَّدت. وإنه ليُخرِج أصحابَه من غِمَار العامَّة إلى عُلْيَا مَراتب الملوك، ومن هُون الخُمول إلى العِزّ والسُّؤدد والذِّكْر الجميل.

الذي يُمَيِّزُ عُلماءَ هذه الأُمة عن غيرهم، ويَجْرِي بهم إلى الغايات، ويَكْفَل لهم السَّبْق، ويَجعلهم أساتذَة وَقتهم، ومصابيحَ عَصْرهم، أنهم

---

(١) البكامة: الانقطاع عن الكلام جهلًا، أو تعمداً. والبكم، بفتحتين: العجز عن الكلام خلقة. والمهوَّس، على بناء اسم المفعول: من اصابه الله بالهوس، وهو التخليط والذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة. ومستثاره: أي في إثارته. والفلك: المدار يسبح فيه النجم. والغمار: الجمع المزدحم.

يطلبون العِلْم لذاته، ثم لأنفسهم. ثم للأحاديث مِن بَعدهم. وهذه الثلاثة ما قامت بِنَفس طالب عِلْم رُزق الحِجى والذَّكاء وفسحة الأجل إلا نَبغ في حياته، ثم جاوز ذلك إلى رُتبة الخلود بالذِّكر بعد مماته[1].

لا تَتهافت على اللَّئيم فتُتَّهم في مُروءتك، ولا على الغَنِيّ فتُتَّهم في عِفَّتك، ولا على الجاهل فتُتَّهم في فِطْنتك.

لا تُعْطُوا الغَوَايَةَ أزِمَّتكم فَتسْلُب مِنك ذَكَاءكم وهِمَّتكم.

دَخل الرُّعاةُ بلادكم في شَبيبة الدَّهر، فأَفسدوا فيها، وجعلوا أعِزّة أهلها أَذِلة. وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة، يأخذون الفضيلة، ويَذَرون الرذيلة، صِحَاحَ العُقول، صِحَاحَ النُّفوس. صِحَاحَ الأبدان، فاَسْتَجْمَعوا في وقت السكون، ثم وَثبوا في وقت الوُثوب، فاستردّوا مُلْكهم بقُوّة. ويُرَاد منكم أن تكونوا في الأَمن في دِرْعٍ مُضَاعَفَة مِن الفَضِيلة. لا تأمنوا الدَّهْرَ أن يأتِيَ على عَجَل. يا حَمَلَةَ السِّلاح، لا تَقتلكم في السِّلْم الرَّاح. يا حَملة العِلْم، لا تَغْلِبكم الخمرُ على الحِلم[2].

أنْظُر إلى هذه الجبال كيف قُطعت. وإلى الآساس كيف وُضعت. وإلى العُمُد كيف رُفِعت. وإلى الزَّخارف كيف جُمعت. هل تَرى في جميع ذلك إلَّا مَعْرِفة في العِلم. ودِراية في الفَنّ. ومَهارة في الصناعة. وغَيْرَ إحكام في الصُّنْع، وإتْقان في العِلم، ورَغْبة في الثَّناء، وهِمّة عالية في الأَمر، وذكاء فائِق، وطاعة واجبة للحاكِم على الرَّعايا، وعَدَالة مَفْرُوضة للرَّعَايَا على الحاكم. وهذه يا بَنِيّ أُسس الآداب، ورُؤوس الأخلاق، وقوى الحياة في الأُمم، وسِرُّ نَجاح الشُّعوب.

---

(١) الحجى: العقل.
(٢) الغواية: الإمعان في الضلال. والرعاة: يعني الهكسوس. والأزمّة: جمع زمام، وهو المقود.

القِسمُ الثّاني
الكلماتُ التي جاءت مُتفرّقة



اهداء

وقال يهدي كتابه «أعمالي في المؤتمر» إلى الخديوي عباس حلمي سنة (١٨٩٤م): إلى سيدنا ومولانا، وليّ النعم الأكبر، الجناب الخديوي المعظم.

مولاي:

همّة تُحيي أمة، هي كلمة صَحبت ميلاد زمانك العبَّاسي الحُرّ، وقيلت في تحية أيامك الحِلْميّات الغُرّ.

وإنا لنرجو أن ستعتزُّ بها دولتك. المسؤول لها طول البقاء، ويتأيّد حُكمك، المُشتهى له دوام الارتقاء، كما أنا نعمل في سِرّنا الخالص إليك، وجَهرنا المقصور عليك، لتحقيقها بالله ثم بك، في كُل عمل تُزلفه لنا الثقة الجميلة، وتقيمنا فيه الدعوة الجليلة.

وفي عالي رأي مولاي، أيَّده الله، أنّ العِلم من البيان، والبيان من العِلم، والفكر منهما معاً، وأن الفكرة أُمُّ الرأي، وأن الرأي زمام الأمَّة، وأن ليمين الملك هدى. في أن يكون للأمَّة زمام.

ومولاي ـ أطال الله بقاءه، أعلم أن الفكرة الآن تكون بين الناهضين الأذكياء أبناء الأوطان. وأن أكبر أسباب ذلك تَرَقِّي الإحساس بين الأفراد. وتقدُّم الأدب العربي، الذي هو أدب البلاد.

وأذكر أنّي قمت بين يدي مولاي أستوهبه الإذن في السفر. والخروج إلى بلاد المؤتمر، أخذت من خلال اللفظ الشريف أنه يَسرُ الجناب العالي أن يقف علماء المؤتمر على شيء من حالتنا الفكرية، ونهضتنا العلمية الأدبية.

فلما سافرت، وخالطت المشتغلين بأشياء الشرق الحاضر، من بين أولئك العلماء. كان من سَعدي أن وجدت الأكثرين على رأي مولاي، من الرغبة في عرفان منزلتنا من الفكرة، ومنزلتها منّا، ليتسدلوا بذلك على مركز مصر الحديث في العالم الأدبي، وإن كانوا يُقرُّون أنها في ظل مولاها، كبيرة النهضة، ملأى من الحياة.

على أن ذلك هَمّ سائر علماء أوروبا أيضاً، يعرفه الإنسان من حديثهم مهما حدَّثوه، ومن أسئلتهم كلَّما سألوا.

وإنما يمنعهم من تناول حقيقة الحال، والوقوف على جملة الأمر، ضياع كل اللغة العربية بين معلوماتهم الجمَّة، ومعارفهم المتنوِّعة الكثيرة، وآنحصار معرفتها على غير وجهها في جماعة المستشرقين.

وهؤلاء يُلقون لغير ماضي العرب بالاً، ولا يشتغلون إلا لأنفسهم ولطائفتهم القليلة..

وإذ كانوا وحدهم حملة اللسان العربي في أوروبا، المنتدبين بمقتضى الحرفة للترجمة منه إلى لغاتهم المنتشرة، وكانت الترجمة عليهم سبيلاً غير مأمون، هم فيه يتعثرون، فلا سبيل إذن إلى وقوف الرأي العام الأوروبي على حاضر بلاد كمصر. أجمعت الخلائق أنها اليوم رونق وجود الشرق واليتيمة العصماء في عقد ممالكه المحروسة.

ولقد دعاني اعتقادي هذا إلى أن أبعث من همَّة السادة المستشرقين، وأهزّ من أَرْيحِيَّتهم، عسى أن يروق لهم الذهاب في هذا المذهب من خدمة العصر، بتأييد المعرفة بين أممه، وإحكام الأُلفة بين أقوامه. فكانت أعمالي

في قسم اللغات الإسلامية من مؤتمر هذا العام ناشئة عن مبـدأ، مؤسسة على اعتقاد.

وهذا ما جرَّأني على أن أقدِّمها بين يدي الآمر العظيم، حساباً مسؤولاً، وهدية إلى خير من أكرم العلم وأهله.

والهدايا على مقدار مهديها.

خطبة

هذه ترجمة عربية موجزة لخطبة خطبها شوقي بالفرنسية مطوَّلة في قسم اللغات الإسلامية، من المؤتمر الشرقي، الذي كان منعقداً بجنيف، من مدن سويسرا، في شهر سبتمبر من سنة (١٨٩٤م).

أيها السادة:

لقد كان من إحسان العرب إلى العقل الإنساني، ومنّتهم على المعارف البشرية، ما لا يزال أثره موجوداً في الحضارة القائمة، ظاهراً في العلم الحاضر، ملاحظاً في الأشياء الشاهدة. فهو في الكتب مسائل شتَّى كبار، ورموز للعلم وأسرار، وألفاظ طويلة الأعمار، وفي حياة هذا العصر آثار يتأمَّلها العارف، وأحوال يعرفها المتأمل الواقف، لا سيَّما في قسم من أوروبا، تعلم أنه حمل حضارة من حضاراتهم الكبار، وأقلَّ دولة من دولاتهم الجسام.

فالحضارة العربية إذن خليقة أن يشتغل الزمان وأبناؤه بأمرها، حَرِية أن تتقدَّم في نفوسهم على كل تمدن خلا، وعمرانٍ زال، وذلك:

أولاً: لأنها هي التي أخذ منها العصر مباشرة، وعنها نقل أولاً بالذات، ففيه منها أشياء، وعليه لها آثار، وبها استعان ويستعين مع الزمن والأيام.

ثـانياً: لأنهـا لم تتوحـد فتُتّهم بصِغر، أو تُـرْمى بقصور، وإنمـا هي في الحقيقة حضارات قد تنوَّعت، وتعدَّدت وتعاصرت، وتعاقبت وتنقَّلت، فلكـل واحـدة منها في التـاريخ حيـاة ذاتية، ووجـدان خاصّ، وقسم من الـدنيا إليـه نقلت. وفيه سرت، وبه آضطلعت، وكان لها وله شأن.

ثالثاً: لأنها لم تنقض ولا ماتت، كمـا يزعم الجهـل، ويدَّعي الغـرور، بـل ما زالت في أخـلاق الأمم، وعادات الشعـوب، وأحـوال العـائلة، وآداب الشرق الحاضر، الذي هو بتلك البقيَّة باقٍ، وبآثار ذلك الفصل حيٌّ سعيد.

وإن أمة كالعرب، هذا في التاريخ شـأنها، وذلـك في الدهـر مكانهـا، لجديرة أن يهتمَّ لها الأذكياء بصيـانة لسـانها، وأن يسهـروا على حفظ بيانهـا. فإذا فعلوا خدموا العلم، وأكرموا العقل، واتخذوا يداً عند الإنسان.

وهـذا ما يُذكر لكم، أيها السادة،فيُشكـر ويُؤثر، لأسـلافكم الفضلاء ولا يُنكر.

إلا أن اهتمـامكم للغـة العـرب بمـاضيهـا وحـدَه، مـع إعـراضكم عن حاضرها كُلَّ هذا الإعراض. ما يُشير إلى أنكم إنمـا تشتغلون بشيء فات، أو تراث حيّ قد مات. ولا يفوِّته عليكم ولا علينا ما في هذه الإشارة من الإساءة إلينا. مع أنا نحمد الله على حاضره الأدبي، إذ دخل في الحركة العصرية من نحـو نصف قرن. فنمت مـادته، وآتسـع نطاقـه، وتعدَّدت مـذاهبه، وتنـوَّعت مطالبه، وأضحى لا ينـزل عن سواه مكـاناً، إذا هـو قيس بما لـدى الكثير من شعوب أوروبا، التي لا نُنكـر أن لنا أعـواماً طـويلة نقبس من نور حكمتهـا، ونقيس على مثالها الجديد في الأدب، وتُعزُّ لغتنا بما يصل إلينـا عن يدهـا من آية في العلم؛ إلى أن تكافأنا فأمكن أن نستغني، وأن ننوِّه بإنكار الافتقار.

وإن سألتم، أيها السـادة،مَن ربّ هـذه المـأثـرة الجسيمـة؟ قلت: هـو المغفور له محمد علي باشا، فإنه رحمه الله أنقذ الضَّاد فيما أنقذ من أشيـاء البـلاد؛ ودعـا المصـري ليعلم، بعـد أن عـاش كـل تلك القـرون يشكـو

المماليك، وبُخلهم عليه بالقراءة والكتابة.

وما أقرب ما بين ذهابه في هذا المذهب من التمدين، وبين ظهور العلّامة رفاعة بك وتلامذته، الذي ليس لمشتغل بأشياء الشرق أن يجهلهم، أو أن يُنكر على المصريين الفخار بهم، وترقيتهم لمقام تراجمة العبَّاسيين، في خدمة العلم والأدب، والوفاء للوطن وللأمير.

ومن ذلك العهد أخذ المالكون من أبنائه، يبنون المجد مثل بنائه. إلى أن عاد القريض والإنشاء، فهزأ بدولتهم اللواء. ووفّياها الثناء. وقامت المطابع، وظهرت التأليف من كل صِنف، وأنشئت الصحف من كل حجم، وسالت بالحبر الأقلام، فالقاهرة اليوم في ظل مولانا الخديوي القائم عباس حلمي الثاني، بغداد العوالم العربية، يأتيها الأقوام من أقاصي البلاد قرَّاء لأمثل الكتّاب. أو كتاباً لأذكى القرّاء.

وهذا كتاب العيون اليواقظ. في الأمثال والمواعظ. لمعرِّبه وناظمه الفاضل محمد عثمان بك جلال، لا يقلُّ عن إنشاء لافوتين رقة وسلامة. ومتانة وفخامة. وإنا لنفتخر به. ونقدّمه دليلاً كافياً عل أن منّا اليوم من يحكي الشهير لافونتين، وهو كما تعلمون من آباء الفكرة الأدبية الفرنساوية التي ينتهي إليها في العالم الأوروبي كل جلال وجمال.

على أن عثمان بك ما كان ليرتفع محله هذا العظيم لو لم يُصِب بالضاد لغة تعدل لغة لافونتين، غنًى وليناً وسعة واقتداراً. وهو أيضاً أدلُّ دليل على أن هذه اللغة التي يزعم جمهور الأوروبيين أن آدابها قاصرة على مدحة نزلت لأمير، أو كلمة يحيا بها وزير، صالحة لأن تنظم بها القصائد الطنَّانات، وتعمل الرسائل السيَّارات. في الإشادة بذكر عظماء الأبطال. والتغنِّي بكبائر الوقائع ومشهورات الأيام.

فهل ما تزالون، أيها السادة، على جفاتكم لحاضر لغة العرب، وإعراضكم عن كل طريف لنا في الأدب، وأنتم أنتم شعراؤه الوحيدون في الهيئة

الاجتماعية العربية. وإن لنا لبراءة وشرفاً في أن تعرف أوروبا مكان الفكرة بيننا، وما نحسبها هي أيضاً تكره ذلك، أو تعرض عن شيء من هذا القبيل تعرضونهاعليها، مشكورين.

فقد علمت أن نابليون لمَّا فتح مصر بالجيش، من أرباب السيوف وحملة الأقلام، كان أول ما انصرف إليه اهتمامه أن أمر بقصائد الوقت وأدبيَّات الجيل أن تنقل إلى اللغة الفرنساوية. فترجم الكثير منها، وبُعث به لفرنسا لينشر بين الأمة. وقال تراجمته الأعلام أقوالهم في درجة الأدب إذ ذاك عندنا، ومقدار الفكرة بيننا، إلا أنهم لم يروا ما يسرُّ فحكموا بما يضرُّ، وَفَاتهم أن أمة تَلبث في الظلام والظلم قروناً قلّما تجود بأدب، أو تظهر بفكرة إلا بعد حين.

والآن أَختصر من القول لضيق الوقت، وألقي بين أيديكم أعمالي التي حاولت بها أن أزيد، فكلُّها من طراز في الأدب جديد.

١ ـ وهذه هي رواية علي بك، وهي واقعة تاريخية منظومة، ضمنتها دقائق تاريخ المماليك. وشرحت فيها حياة المملوك الأعظم الطاغية علي بك، وقتلته المشهورة.

٢ ـ مصر، وهي قصيدة تاريخية لخصت فيها كبار حوادث وادي النيل، من يوم قام إلى هذه الأيام، مهيباً عند ذكر الفراعنة، والكلام عن الديانات التي اختلفت على البلاد المصرية.

٣ ـ القليل الكثير في أدب الصغير والكبير. وهي مجموعة حكايات منظومة على ألسنة الحيوانات، بإنشاء عربي محض، وفكر مصري خالص، لم أستعن على نظمها بتقليد ولا ترجمة.

فالمرجو من السادة أهل هذا النادي، أن يقابلوا معروضاتي بمأمول القبول، وأن يذكروا أني إن تبرّأت من التطفُّل لم أتبرأ من كوني ناشيء القدم في هذا السبيل.

«١»

في وصف ربوع الأندلس

لما وَضَعت الحَرْبُ الشُؤْمَى أوزارَها، وفَضَحها الله بَيْنَ خَلْقه وهَتَك إزارَها، ورَمَّ لهم رُبُوعَ السّلم وجَدّد مَزارَها[١]؛ أَصْبَحْتُ وإذا العَوادِي مُقْصِرة! والدَّوَاعِي غَيْرُ مُقَصِّرة[٢]، وإذا الشَّوْقُ إلى الأَنْدَلُس أَغْلَب، والنَّفْسُ بِحَقِّ زيَارته أَطْلَب[٣]؛ فقَصَدْتُه من بَرْشلُونة، وبَيْنهما مَسِيرة يومَيْن بالقِطار المُجِدّ،

---

(١) الحرب، يعني الحرب العالمية الأولى التي نشبت سنة (١٩١٤م) بين انجلترا وحلفائها وبين ألمانيا وحلفائها، ودامت ما يقرب من أعوام خمسة وإذ كان انتهاؤها سنة (١٩١٩م) وكان من مآسيها خلع الخديوي عباس، ونفي المقربين إليه من مصر. وكان فيهم أحمد شوقي الذي أبعد من مصر سنة (١٩١٥م) وكان قد اختار إسبانيا مقاماً له. فسافر إليها وبقي فيها إلى انتهاء الحرب سنة (١٩١٩م).
وقد جاءت هذه الكلمة تقديماً لقصيدة في الأندلس، التي استهلها بقوله:
اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
فاقتطعناها من مكانها، لنضمها إلى نثره، ليكون وحدة كاملة.
الشؤمى: المشؤومة. مؤنث الأشأم. وأوزار الحرب: آلاتها. ويقال: وضعت الحرب أوزارها، أي انقضى أمرها، وخفت أثقالها، فلم يبق قتال، والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من الجسم. يريد الثوب عامة. ورم الشيء: أصلحه بعد أن فسد بعضه. والربوع: الدور، واحدها: ربع، بالفتح. والسلم، بالفتح وبالكسر: خلاف الحرب.
والمزار: الزيارة.

(٢) العوادي: ما يشغلك ويصرفك عن الشيء، الواحدة: عادية، ومقصرة، أي كافة مانعة.
والدواعي: النوازع والأسباب الداعية، ومقصرة: متهاونة.

(٣) الأندلس، يعني الإقليم الجنوبي من اسبانيا حيث بسط العرب سلطانهم، وشيدوا آثارهم، أطلب: أكثر تطلبًا.

والبُخار المُشْتَدّ، أو بـالسُّفُن الكُبْرى الخـارجة إلى المُحيط، الـطَّاوِيَة القَـدِيم نَحْوَ الجَدِيد من هذا البَسِيط[1]. فبَلَّغت النَّفْسَ بِمَـرْآه الأَرَب، واكْتَحَلَت العَينُ في ثَرَاه بآثارِ العَرَب[2]، وإنها لَشتَّى المَوَاقِع، مُتَفَرِّقة المَطالِع، في ذلك الفَلَكِ الجامِع[3]، يَسْرِي زائِرُها من حَرَم، من حَـرَم، كمن يُمسِي بالكَـرْنَك ويُصْبح بالهَرَم، فلا تَقَارُبَ غَيْـرَ العِتْقِ والكَرَم[4]: طُلَيْـطِلة تُطِلُّ على جِسْـرها البـالِي، وأَشْبِيلِيَة تُشْبِلِ على قَصـرها الخـالي[5]، قُرْطُبـة مُنْتَبِذَةٌ نـاحِيَةً بـالبِيعَةِ الغَـرّاءِ، وغَرْناطَـة بَعُيدةُ مَـزارِ الحَمْرَاءِ[6]. وكـان البُحْتُرِيّ ـ رَحِمـه الله ـ رَفِيقي في هذا التَّـرْحَال، وسَمِيـري في الرِّحـال، والأَحْوال تَصْلُح على الـرِّجَال، كُـلُّ رَجُلٍ لِحَال[7]. فإنّه أَبْلَغُ مَن حَلَّى الأَثَر، وحَيَّا الحَجَر، ونَشَـر الخَبَر، وحَشَـرَ العِبَر، ومَنْ قام في مَأْتَم على الدُّولِ الكُبَر، والمُلوكِ البَهـالِيل الغُـرَر[8]، عَطَف على الجَعْفَـرِيْ حِينَ تَحَمَّلَ عنـه المَلاَ، وعُـطِّلَ مِنه الحلى، ووُكِـل بَعْد المُتَـوكِّـل لِبِلى[9]. فَـرَفَعَ قَـوَاعِدَه في السِّيَـر، وبَنَى رُكْنَه في الخَبَـر، وجَمَع مَعـالمه في الفِكَـر، حتى عاد كقُصُـور الخُلدِ آمتـلأت مِنهـا البَصِيـرةُ وإن خـلا البَصَـر[10]

---

(١) البسيط: الأرض المنبسطة الممتدة.

(٢) بمرآه: أي برؤيته: والأرب: الحاجة.

(٣) الفلك: المدار يسبح فيه النجم السماوي. شبه به هذا النظام الجامع تلك الآثار.

(٤) الحرم: ما تجب عليك حمايته. والكرنك: معبد فرعوني بجنوبي مصر. والهرم: أثر فـرعوني بشمالي مصر، والعتق: القدم. بكسر ففتح.

(٥) طليطلة، وإشبيلية، من مدن الأندلس ـ وتشبل: تحن وتعطف.

(٦) قرطبة وغـرناطـة: من مدن الأنـدلس. ومنتبذة: معتـزلة. والبيعـة: معبد النصـارى. والغراء: المشهورة. والحمراء: من ألقاب غرناطة.

(٧) البحتري : شاعر عربي وصـاف للديار والآثـار. والترحـال: السفر، والسمير: من تسامره وتحادثه ليلاً. والرحال: جمع رحل، بالفتح، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

(٨) فإنه، أي البحتري، والعبر: المواعظ، واحدتها: عبرة، بالكسر، والبهـاليل: جمـع بهلول، بـالضم. وهو السيـد الجامـع لصفات الخيـر. والغرر: السـادة الشرفـاء. واحـدهم: غـرة ـ بالضم.

(٩) الجعفـري: قصر للخليفـة العباسي جعفـر المتوكـل على الله. وتحمل عنـه: ارتحل عنـه. والملا: أي الملأ ـ بالهمز، وهم الخلق، بـالفتح. وعـطل: نزع، بـالبناء للمجهـول فيهما، والحلى: بكسر ففتح، جمع حلية.

(١٠) البصيرة: العلم والخبرة، ويريد تخليد البحتري للجعفري.

وتَكَفَّل بَعد ذلك لكسرى بإيْوَانِه، حتى زالَ عن الأَرْض إلى دِيوَانِـه[1]، وسينيَّتُه المَشْهورةُ في وَصْفه؛ لَيست دُونـه وهو تَحت كِسْـرٍ في رَصِّه ورَصْفـه[2]، وهي تُـرِيك حُسْنَ قِيَـامِ الشِّعْرِ على الآثـار، وكيف تتجَّـدد الـدِّيَـارُ في بُيَـوتـه بعـد الانـدثار[3]. قـال صـاحب الفَتح القُسِّي، في الفتـح القُـدْسِي، بعـد كـلام:

« ـ ففانْظُروا إلى إيوان كِسْرَى، وسِينيَّةِ البُحْتَرِيِّ في وَصفه، تَجِدُوا الإيوانَ قد خَرّت شَعَفاتُه، وعُفِّرت شُرُفاته[4]، وتَجِدوا سِينية البُحْترِيِّ قـد بَقي بها كِسْـرى في دِيَوانه، أَضْعَاف ما بَقي شَخْصُهُ في إيوانه.

وهذه السِّينيّة هي التي يَقول في مَطْلعها:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّـا يُـدَنِّسُ نَـفْسِـي ... وتَـرَفَّعْتُ عَن نَـدَى كُـلِّ جِبْسِ[5]

والتي ٱتَّفقُوا على أَنّ البَدِيعَ الفَرْدَ من أَبياتها قولُه:

والـمَـنَـايَـا مَـوَاثِـلٌ وأَنُـو شِـر ... وَان يُزْجِي الجُيُوشَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ[6]

فكُنْتُ كلَّما وَقفتُ بِحَجر، أَو أطفت بأثر، تَمثّلتُ بأَبياتها، وٱسْتَرَحْتُ مِن مَوَاثِلِ العِبَر إلى آياتها، وأَنشدتُ فيما بَيني وبَين نفسي:

وَعَظَ الـبُـحْـتُـرِيَّ إيـوانُ كِـسْـرَى ... وشَفَتْني القُصُـورُ من عَبْـدِ شَمْسِ[7]

ثم جَعلتُ أَروض القَولَ على هذا الرَّوِي[8]، وأُعالِجه على هذا الوَزن، حتى نَـظْمت هذه القـافية المُهْلَهلةِ، وأتمَمْت هـذه الكَلِمـة الـرَّيِّضـة[9]. وأنـا

---

(١) كسرى: من ملوك الفرس. وإيوانه: هو المجلس الذي أعده لجلوسه. وزال: أي الإيـوان، والديوان. يعني ديوان شعر البحتري.

(٢) سينتيـه: أي قصيدتـه التي على حرف السين في وصفـه أيـوان كسـرى، أي كسـرى، ورص البنيان، أي رصفه، وضم بعضه إلى بعض.

(٣) قام على الشيء: تولى حفظه. وبيوتـه، أي بيوت الشعـر، والفتح القسي في الفتحالقدسي: كتاب في التاريخ لعماد الدين الأصبهاني محمد بن محمد (٥١٩ ـ ٥٩٧هـ).

(٤) الشعفات: من كل شيء: أعاليه، واحدتها: شعفة.

(٥) الندى: الكرم والجود. والجبس: اللئيم.

(٦) المواثل: الحواضر، ويزجي: يسوق، والدرفس: الراية الكبيرة.

(٧) عبد شمس: جد من جدود العرب الأوائل.

(٨) أروض: أذلل.

(٩) الريضة: المطوَّعة.

أعْرِضها على القُرّاءِ، راجياً أَن يَلْحظوها بِعَيْن الرِّضاءِ[1]، ويَسْحَبُوا على عُيُوبها ذَيْلَ الإغَضاءِ[2].

(١) الرضاء: الرضا، فمد.
(٢) الإغَضاء: السكوت والصبر.

«٢»

رومة

صديقي المحترم[١]:

صَـدَرْتُ عن باريس[٢]، وكـأنها بـابِلٌ، ذات البُـرْج والجِسْـرِ، وهي في دَوْلتها[٣]، أو طِيبةٌ في الزَّمن الأوّل[٤]، إلاّ أنها مَدِينةُ الشَّمْس، وباريسُ مـدينةُ النُّور، أو رُومة مَقـرُّ القَيَاصِـر، ومُزدَحمُ الأجنـاسِ والعَنَاصِـر، وهي في رِفْعة مُلْكِها الفاخِـر، تَمُوج بـالأُمَم كالبَحْـر الزَّاخِـر، أو الإسكندريّـةُ ذاتُ المِسَلَّة ـ والْمِسلَّة في باريس، وهي في ذِروة سَعدهـا، وأَوْج كَمَالهـا، تُغِيرُ الشَّمْس في سَـرير مجـدها، بجـلالها وجَمـالهـا، أو «بَغـدادُ» في إبّان إقبـالهـا، وسُلطان أَقْيـالها[٥]، وأيْمَنِ أمـرها، وأَسْعـدِ حـالهـا، فسُبحـان المُنْعِم، أَعْـطَى مَـدِينَـةَ المَعْرِضِ الأَسْماءَ كُلَّها، وجَلَّت قُدرتُه، بَعث المدائن في واحدة.

---

(١) هو المرحوم إسماعيل بك رأفت، وكان من أساتذة التاريخ الملحوظين. وكان الشاعر قد نظم قصيدته في وصف رومة التي مطلعها:

قف بـروما وشـاهـد الأمـر واشهـد ... إن لـلـملك مـالـكـاً سـبـحـانـه

وأهداها لإسماعيل بك رأفت.

وقد اقتطعنا هذه الكلمة من مكانها وأثبتناها هنا لتنضم إلى النثر.

(٢) صدر عن المكان: مضى عنه.

(٣) بابل: مدينة قديمة في العراق، عرفت ببرجها.

(٤) طيبة: مدينة مصرية قديمة وكانت مقر عبادة الشمس.

(٥) الأقيال: ملوك اليمن في الجاهلية، الواحد: قيل، بالفتح.

رَحلتُ عنهـا في اليوم الـذي أَسْفر صَبـاحُه عن ليلةِ الاحتفـال بتـوزيـع الجَـوَائِز على العـارضِين، وقد نـالها مِنهم سِتُّـون ألفاً أو يَـزِيـدون، كُلُّهم من مَشْهـوري الصُّنَّاع، وكِبـار المُخترعين، شيَّعـوا في ذلك جَنـازة القَرن التـاسع عشـر، ومَشى الخَـلاَئِق فيهـا حتَّى دَفَنَّـاه، وكـأَنَّـه نَهـار مـرّ، أو لَيْلةٌ تَقَضَّت بالسَّمَر[1]. ثم آنْقَلبنا نَنْفُض الأَنامِـل مِن تُرابـه، ونَذْكُـر من مَحاسنـه أنه جِيـلٌ واضِح الغُرَر والتَّحْجِيل[2]، يَذْكُره التاريـخُ بالتَّعـظيم والتَّبْجيل، قـام العِلْمُ فيه على أَمْتَن بُنْيـان، ورُفِعت الحُجُب بين الحَقائق والإِنْسـان، ضُرِبت لـه أَطْوَلُ سَماءٍ من ضُروب العِـرفان، وآسْتَمَـدَّ من القادر، مَبـالغ الإِمْكـان، فآقْتـاد البَرَّ بِشَعْرَة، وزَمَّ البَحْرَ بإِبْرة[3]، وفَرَق الأَرْض وبَلَغ الجِبَال[4]، وأَوْشَك أنه يَمُدّ إلى السَّماءِ بِحبال، ونفذَ على النَّجم المَدَى، ووَجَـد على القُطْب هُـدَى، وغاص على الحُـروب الماء، وركب إلى الـوقائـع الهَواءَ، وكَسـر شِرَّة الـداءِ، وقَتَـل قَتَّـاله، وراضَ العَيَـاء[5]، ودَخَـل بَصَـرهُ على الجِسم الأَحْشَـاء، وأَنْـطق الآلَـة الصَّمّاء، ونَقل الحديث من فَضاءٍ إلى فَضـاء، على آنقطاع الصِّلةِ بَين النُّـطْق والإِصغاء، وحَرَّك الصُّوَرَ وهي هَباء، إذا رأَيتَها حَسِبْتَها جماعةَ الأَحيـاء، ونال سَـرَائِرَ الحَوْباء[6]، وخـاض في الطَّبـائع والأَهْـواء. فآنْكَشف لـه الغِطاء وبَـرِح الخَفاء، ونَثرَ فكاد يُوحَى إليه في الإِنشاء، ونَظَم فلم يَدَعْ من آيَـةٍ في الأَرض ولا في السماء.

كلُّ هذا، أَيها الأُستاذ، عرضَتْه باريسُ للناس، في خَيْـر مَعْرِضٍ أُخْرِج لهم، فَواهاً له من سُوق ثم يَنْفَضّ، ويا أَسَفاً على بنيانه يَومَ يَنْقَضّ.

---

(١) السمر: حديث الليل.

(٢) الغـرر: جمع غـرة، بـالضم، وهي بيـاض في جبهـة الفـرس والتحجيـل: بيـاض في قـوائم الفرس. وكلاهما مما يستحب.

(٣) اقتاد البر بشعرة، أي أطاعه له بأهون الأسباب، إذ الشعرة أهون ما يقـاد به. وزم البحـر، أي جعل زمامه في يده. والإبرة، يعني إبرة البوصلة.

(٤) فرق الأرض: بيَّن معالمها.

(٥) العساء: الذي لا سرعة منه.

(٦) الحوباء: النفس.

بَرِحتُها وهي تَجُرُّ الذَّيلَ على المَدائن الكُبَر، وتُزْرِي بالحضارات ما حضرَ منها وما غبر، وقَصدت إلى رُومةَ لعلِّي أَرُدُّ النَّفْسَ إلى الخُشوع، وأُداوِي الفُؤاد من نَشوة آغترارِه بما رأى، فبلغتُها وإذا أَنا بين أَثرٍ يكاد يتكلَّم، وحَجَرٍ كان لِكرامته يُسْتَلم[1]، فَوَقفتُ أتأمل ذا الجِدَارَ وذا الجِدَار[2]، وأَنْشُد[3] ذلك القَصْر وتلك الدار، إلى أن ثار الشِّعر، والشِّعر آبن أبوين: «التاريخ، والطبيعة»، فنَظَمت، وكأني بها في يَدَيْك تُقْرَأ.

أَحَبُّ التَّوفيق إليّ، أيها الأُستاذ، إكرامُ العالِم، وإجلال الصَّدِيق، أنت لي ـ بحمد الله ـ هذان كلاهما، فَهل تَمُنّ بِقَبُول هَدِيّة هي إلى التَّاريخ أدنَى منها إلى الشِّعر؟.

* * *

(١) يستلم: يقبل، بالبناء للمجهول فيها.

(٢) ذا الجدار، وذا الجدارا. يشير إلى قول المجنون:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجْدارا

(٣) أنشد: أطلب.

«٣»

الى روزفلت(*)

أتأْذَنَ لِرَجُلٍ تَعوَّد أن يَخْرُجَ عن دائرةِ المُوظَّف كلما عَرَضَتْ حالٌ يَخْدُمُ الوَطَنَ فيها الرِّجَالُ، أن يَرْفَعَ لِشِعْره ذِكْرَه، ويُشَرِّفَ قَدرَه، مُهْدِياً إليكَ منه هذه القصيدةَ في لُغة الضَّاد، وهي مما قُلْتُ في أنس الوُجود، ذلك الأثر المُخْتَصَر، الذي جَمع العِبَر(١)، ومَحاه الدّهرُ أو كاد، وكان إحْدى آياتِه الكُبْرَى هَياكِل لِفِرْعَون وبَطْليموس. تَوارَثها عن الكَهَنة القُسُوس، وصارتْ لِلْمَسيح وكانت لهُورُوس، ثم ظَهَرَ الأذانُ فيها على النَّاقُوس(٢)، ثم لا تَكون

(*)روزفلت: هو ليو دور روزفلت الذي كان رئيساً للجمهورية الأمريكية (١٩٠١ ـ ١٩٠٩م). وهو جد الرئيس الأمريكي فرانكلين ديلانوروزفلت (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥م).
وكان هذا الجد قد زار مصر في الرابع والعشرين من مارس سنة (١٩١٠م) بدعوة من الأمير أحمد فؤاد رئيس الجامعة المصرية (الملك أحمد فؤاد فيما بعد). وكانت له خطبة ألقاها في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة فيما بعد) نال فيها من الأمم التي تنال دساتيرها عجلة، كما نال من الإسلام وأطرى المسيحية، والاستعمار البريطاني.
ولقد أثار هذا الخطاب نفوس الكتاب والشعراء. فكانت لهم كلمات وقصائد. وكان لشوقي في هذا قصيدته التي مطلعها:
أيها المنتحي بأسوان داراً كالثريا تريد أن تنقضا
وكانت هذه الكلمة التي أثبتناها هنا مقدمة لتلك القصيدة.

(١) أنس الوجود، قصر فرعوني عند أسوان. والمحتضر، على بناء اسم المفعول: من حضره الموت. يشير إلى ما كانت عليه حال القصر من غمر للمياه له. والعبر: العظات، واحدتها: عبرة، بالكسر.

(٢) بطليموس: اسم لكل من ملك مصر من البطالسة السنة عشر ٣٠٩ ـ ٣٠ق.م). وهوروس :=

عَشِيَّةٌ أو ضُحَاها، حتى يَهْوي في الماء كُلُّ حَجرٍ كان يُقبِّلُ كالأَسْوَد[1]، وكُلِّ رُكْنٍ كان يُسْتَلَمُ كالحَطِيم[2]. شَهِدْتُ على أُنس الوُجود ما يُعلِّم الإنسانَ ولو أنه زُوزْفِلْت عِلْماً وحِكْمةً وأدَباً، كيف يَحْتَقِرُ الدُّنْيا ويَحترِم الدِّينَ جَمِيعاً.

دخلتُه ذاتَ يوم وكان الدُّوق أُوف كُونوت لَدَيْه يَتمشّى في ظِلالِه. ويَتنقّلُ بين رُسومه وأطلالِه. عَيناه ونَفَسُه في إكْبَارِه وإجْلاَلِه[3]. فكانت منّي الْتِفَاتةٌ، فرأيتُ فَلّاحاً قد أَقبلَ ثُم ألقى عَبَاءتَه، وتَوجَّه يُصَلّي العَصْر غيرَ مُلْقٍ بالاً لِفِرْعَون كيف كان يَعْبُد ويُعْبَد. ولا لِبَطْلَيْمُوس كيف كان يُعظِّم ويُمَجَّد. ولا لِلْمَسِيحيّة السَّمْحَةِ كيف دخلتْ على الوَثَنيّة المَعْبَد. ولا للملِك إدْوارد[4] الذي تَحتلّ جُنودُه الآن مِصْرَ، وهو في ثيابِ أخِيه الدُّوق يَرفَع البَصَرَ ويَسْدُله[5] مُمتلئاً من آيات الدَّهر مَهابةً وإعجاباً، مُشْتغِلاً بالتاريخ القائِم المُجَسَّم، يقرؤه كِتاباً كِتاباً. دِينٌ سَهلٌ سَمْحٌ يَسَرٌ، وإلهٌ واحدٌ يُعْبَد حيثُ وُجِد العابد، على العَراءِ كما في الهَياكلِ، والكَنائِس والمَسَاجد.

التَّاريخ أيُّها الضَّيْفُ العَظِيم غابِرٌ مُتَجدِّد، قَدِيمُه مِنْوَال، وحاضِرُه مِثَال، والغَدُ بِيَدِ الله المُتَعال[6].

وأنت اليومَ تَمْشِي فوق مَهْد الأعْصُر الأُوَل، ولَحْدِ قَواهِر الدُّول، أَرْضٌ اتَّخذها الإسْكَنْدر عَريناً. ومَلأها على أهلها قَيْصرُ سَفِيناً. وخَلّف ابنُ العاص فيها لِسَاناً وجِنْساً ودِيناً. فكان أعْظَم المُستَعمرين حَقِيقةً وأكبرَهم يَقِيناً، وهو الَّذي لم يُعْلَم عليه أنه بَغى. أو ظَلم أو سَفك الدَّمَ أو نَهى، أو أَمر إلاّ بين

= معبود من معبودات قدماء المصريين، له جسم رجل ورأسه رأس طائر الخاطف. وهو طائر يحسب ظله صيداً فينقض عليه ليخطفه.

(١) الأسود، يعني الحجر الأسود بالكعبة.

(٢) الحطيم: بناء قبلة الميزاب من خارج الكعبة.

(٣) أوف كونوت: أحد دوقات انجلترا.

(٤) إدوارد، هو ملك بريطانيا حينذاك.

(٥) يسعد له: يرضيه.

(٦) المنوال: ما ينسج عليه، يعني يحتذى به.

الرَّجاء والحَذَر، مِن عَدْلِ عُمَر، الذي تُنْبيك عنه السِّير.

قُمْتَ، أيّها الضَّيْفَ العَظِيمُ، في السُّودان خَطِيباً فأَنْصتَ العَصْر، وٱلْتَفتتْ مِصْر، وأقبل أهلُهـا بَعضُهم على بَعض يتساءلـون، كَيف خالَف الـرَّئِيسُ سُنّةَ الأحرار، مِن قادةَ الأُمم وسَاسَة الممـاليك أَمْثـاله، فـطارد الشُّعورَ وهـو يَهُبّ، والـوجْدَانَ وهـو يَشُبّ، والحيَـاةَ وهي تَـدِبّ، في هـذا الشَّعب، ومن حُـرْمـة العَوَاطِف السَّامِية، ألاَّ تُطَـارد كأنّها وُحـوشٌ ضاريـة، على صَحراء أو بـادية، كما طارَدْتَ السِّباعَ بالأَمس نَقَماً من طَبَائعها الجافية[1].

المِصْرِيُّ أيّها الضَّيْف العَـظِيم سَمْحٌ كَـرِيم كَثِير التَّجَـاوُز، فقد ظَفِـرْتَ بمن مَهَّـدَ عُذرك، ونَفى الـظَّن عَن كَرمـك، وٱدَّخر وُدَّك الـذي تَخْطُبـه الأُمَمَ المُسْتَضعفـة، والشعوب المُتلَهِّفـة، المُتشوِّقـة، إذ قيل: إنمـا أراد الرَّئيس أن يَمدح ديناً من حقّه أن يُمْدحَ بِكُل لِسان، وفي كُلّ مَكان، فكيف بـه في بعض مَعاهده في السُّـودان، وأراد كذلـك أن يُحذِّر من الفتنـة من الجُيوش، ويَنْهَى عن إيقاظها، ويَذْكُر للمُحْسِن من الحُكَّام ما رأى أو سَمِع من حَسناته، ويَـدْعو هذه الأُمةَ التي حَـرَكَتُها المُسْتَقَبلَة في السُّكـون إلى العَملِ، في ظـلّ الحق. والصَّبْرُ بإذن الله مَضْمُـون، ومُسْتَقبلٌ بِمَشيئـة الله مَأمـون، وقَدِيمـاً فاز بـالصَّبْر الصابِرون.

فإن كان ذلك، أيّها الضَّيف العَظيم، وهو ما لا نَعتقِد غيـرَه، فمِثْلُك مَنْ نَصحَ للأُمم، وبَعث العَزائمَ والهِمَم، وعَلّم باللِّسان والقَلَم.

على أنَّنا نَرْجو أن سَتَذْكُرنا عِند قَوْمِك الكِرَامِ الأحرار، بما أنتم جَمِيعـاً أهْلُه، وأن ستُعطينا عَهْدَك، وتُصْفِينا وُدّك، وتَملأ من أجمل الـظُّنُون وأَحْسنهـا بُـرْدَك، يوم تُقِـلّ السَّفِينـةُ عَـظمتَـك ومَجْـدَك، وتَنْقُـل من أَقْصَى البُـرُوج إلى أقْصَاها سَعْدَك.

على يَـدِ الله تَجْرِي إنْ هي ٱندَفَعت وفي حِمَى الله لا في المـاء تَحْتَجِبُ

(١) نقماً: انتقاماً.

«٤»

النيل(*)

أيها الأُستاذ الكَريم:

تَذكَّرتُ «آثينا» مَدِينةَ الحِكْمة في الدُّهُور الخالِية، وأيَّاماً غَنِمْناها على رُسومها العافِية، وأطلالها البالية، فكأني أنْظُر إلى المُؤتمر، عُلماؤه الهالةُ وأنت القَمر، أو زُمَرُ الحَجِيج وأنت حادي الزُّمَر، وأَرى المُلوكَ في الحُفَر، بُنْيانُهم مَصْدوعُ الْجُدُر، وبَيانُهُم نُورُ البَشر. فإذا الدُّوَلُ خبر، وإذا المَمالكُ أثر، والطُّلولُ شُغلُ الفُؤاد والبَصر، مِنَّا العَبَراتُ ومنها العِبَر، صَمَت الإِنْسانُ ونَطَقَ الحَجر، فسُبْحان العَزِيز المُقْتَدر، القاهِر فَوق عِباده بالقَدر.

كان ذلك والحوادثُ أجنَّة، والأُمورُ في أَحْسَن الأعِنَّة، والأَرضُ بالسِّلْم مُطْمئِنَّة، مُغْبَطةٌ بسَلامةِ الشَّبابِ، مُنْبَسطةٌ بتَلاقي الأحْباب، والصَّفْو في الدّار والأكْدارُ بالباب.

ثم أَخذَ الله الأُممَ بذُنوبهم فَرَماهم بِعَوَانٍ في الماء، ضَرُوسٍ في

(*) مرجليوث: كان أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وكانت بينه وبين الشاعر مودة نشأت حين كانا معاً في أثينا.

وهذه الكلمة أهدى بها الشاعر قصيدته في النيل، والتي مطلعها:

من أي عهد في القرى تتدفق ... وبأي كف في المدائن تغدق

الأرض والسَّماء. مَنْهومةٍ بالأموالِ مُدْمِنةٍ للماء[1]، نَزَلتْ بالبَرِيّة فعَصَفَتْ بأحسن شَبابها ونَباتها، ونقَصتْ موفورَ أَمْنها وأَقواتها، وهَتكَتْ في الثَّرَى مَصُونَ رُفاتِها، وخلَطتْ في الخَنادِق أحياءَها بأمواتها، وعَدَتْ على الوَحْشِ في فَلواتِها. وعلى الطَّيرِ في وُكناتها. وعلى الرِّياح في مُخْتَرقاتها، وعلى بَلَمِ البِحَار وأَخواتها[2]، وهَوام القِفَارِ وحَشَراتها، وعلى بُيوتِ الله في سُتْراتها، والنَّوَاقِيس في قِبابها، والمآذنِ في سماواتها، فَسُبْحان المَلِكِ الأكبر، الذي يقهر ولا يُقْهَر، ويُغَيِّر ولا يَتغيَّر، والذي يُقيم القيامةَ في مِيقاتها.

الشِّعْرُ كالأَحلامِ تُدْخِل على المَسْرُورِ الكَرَى، وتَكثر على المَحزون في السُّرى، وقَرِيحةُ الشاعر كَعيْن صاحب الأيام عندها للحُزن عَبْرةٌ، وللسُّرور عَبْرة.

وهذه أيها الأستاذ الكَريم كَلمةٌ قِيلَتْ والهُموم سارِية، والأَقدارُ بالمَخاوف جارية، والدِّماء والدُّموعُ مُتبارية، وذِئابُ آلبشر يَقْتَتِلون على الفانية.

نَظمتُها تَغنّياً بمَحاسن الماضي وَتقْيِيداً لمآثر الآباء، وقَضَاءً لحق النيل الأَسعد الأمجد، ونَسَبْتها إليك عِرْفاناً لِفَضْلِك على لُغة العَرب، وما أَنْفَقْت من شَباب وكُهولة في إحياء عُلومها، ونَشر آدابها وإلْقائها، كلما طَلعت الشمسُ خَلْف الضَّباب، دُروساً نافعةً على أنبل شَباب العَصر، في أعظم جامعات العالَم، فلعلّها تَقع إليك، فنتذاكرَ على النّوى تلك الأيام، ونتنادمَ من بُعْد على بِساط الأَدب والكلام، ونسأل الله أن يَحْقِن الدِّماء، ويُقيم جِدارَ السلام.

---

(١) الغَوان: الحرب قوتل فيها مرة بعد أخرى. والضروس: العضوض.

(٢) البلم: صغار السمك.

«٥»

«اعتذار»(*)

صَدِيقيَّ العَزِيزَيْن:

اَطَّلَعْتُ في المِنْبَـر، المُتَّصِـل - إن شـاء الله تعـالى - بـالجَـوزاء، على فاتِحة رِوَاية بإسم (عَذراء دِنْشواي). رَأى حَضرة واضِعها الفاضل، تلطّفـاً منه وإحسـاناً، أن يُهْـدِيهَـا إليّ. ورأيتُ أن أعتـذر على أعْـواد المِنْبـر، من قَبُـول الهَـدِيَّة، وأن أنْفُضَ يَـدَيَّ من عَذراء نَشـأت بين حَمَام كم جَلَب من حِمَـام، وبَين أَجْـرَان كم جَرَّت من أَحْـزان. ولو سَـألني حضـرةُ المؤلِّف رَأيي قَبـل أن يَنْشُر ما نَشر، كما هو مَألـوف في مِثْل هـذا المَقام، لَـدَلَلْتُه على من هـو أحقُّ

(*) كـان للكاتب القصصي طـاهر حقي روايـة بعنوان «عـذراء دنشواي»، كـان ينشرهـا تبـاعـاً في حلقات على صفحات جريدة المنبر لصاحبهـا أحمد حـافظ عوض، وفي الحلقـة الأولى منها استهل الروايـة بإهـداء منه لأحمـد شوقي. فسـارع أحمد بـاعتذاره عن قبـول هذا الإهـداء، وأرسل به إلى صاحب المؤيد.
ودنشواي: قرية من قرى المنوفية بمصـر قصد إليهـا نفر من الضبـاط الإنجليز لصيـد الحمام، وكان هذا في موسم حصاد القمح، والحصاد في الأجـران، فخاف الأهلون أن تكـون طلقات البنادق سبباً في إشعال النار في هذا الحصاد، فحاولوا أن يحـولوا بين هؤلاء الضبـاط وبين ما يفعلون. وخاف الضباط من الأهلين ففـروا فزعين، وسقط واحـد منهم مغشياً عليـه من العدو ومـات. وتثـور ثـائـرة العميـد البـريـطاني، وإذا هـو يقبض على جملة من أهـل دنشـواي لمحاكمتهم، وتعقد لهذا محاكمة صورية، يحكم فيها ظلماً على نفر بالقتل شنقاً، وعلى نفر بالجلد، وإذا هذا كله يجري تحت أعين أهل القرية.

منّي بِحُسنِ ظَنّه كَعَشْماوي، أو نابغة المحامين الهلباوي، أو غيرهما من جُنود الحادثة، وشُهود الكارثة والسَّلام[1].

(١) عشماوي: اسم لجندي اختص بتنفيذ الشنق، ثم شاع هذا الاسم على كل من تولى هذا بعده. والهلباوي، كان المدعي العام في هذه القضية، والغريب انه على الرغم من بغضه للاستعمار أولاً، إذا هو يحمل على هؤلاء المتهمين ظلماً حملة منكرة، وإذا هو يطالب بإعدام سبعة وإدانة واحد وعشرين جلدوا. ولم يفقد الإنجليز في هذه المعركة الموهومة غير واحد.

«٦»

عتاب(*)

أيها الرئيس، وإنْ أَذِنْتَ قلتُ أيُّها الصَّدِيق الحَمِيْم.

أَتقدّم إلى معاليـك مُبالِغـاً في الخِطاب، مُتلَطِّفـاً في العِتاب، نـافِياً عن شَرَفي بعض ما أَحْلَلتَ بـه من التُّهم على صفحات هـذا اللِّواء، الذي طـالما كنتُ في السِّلْم هَمْـزَتَه، وفي الحَـرْب جَمْرَتـه. حتى أنْتقل من يَـدٍ إلى يَـد. وهكذا الدُّنيا دُوَل ونُقَل. قَضى الله، أيها الرَّئيس الكَريم، أن تَتَصَّرف باللِّواء فَقُل فيه عَنِّي ما شِئْت، فـإنَّ لك من طُـوله وعَـرضه مَجَـالاً ومُتَّسَعاً، وأنـا المُغْضِي المُسَامح، كرامةً لِعهد مُؤَسِّسه المَبْكِي، والعَهد يَحفظه الأكرمون.

أَبَـحْتُـك عِرْضي، أيُّهـا الرَّئِيس الكَـريم، تُلِمّ به مـا شِئت، وتَنال منـه مـا أَردت، إلاَّ وَطَنِيَّتي التي لن تَحُلَّ بها التُّهم، ولن تَرْقَى إليها الشُّكوك والرِّيب، والتي أَرْجُـو أن أَموت عليهـا وعلى الشَّهادة معـاً، يومَ كِلْتـاهما حَقّ، ويـومَ لا يَسْتَوِي الذين يُحْسنون والذين لا يُحْسِنون.

أَرَاك أيّها الرئيسُ الكَـريم قد خَفِي عليـك مكانُ وَطَنِيَّتي، فهـل تأذن أن

(*) بعد أن آلت رياسة الحزب الوطني إلى محمد فريد (بك) بعد وفاة زعيمه الأول مصطفى كامل (باشا) أخذت جريدة اللواء لسان الحزب الوطني تكيل التهم على صفحاتها لأحمد شوقي. فكتب إليه أحمد شوقي هذا العتاب الذي نشر في جريدة المنبر في الثاني عشر من أكتوبر سنة (١٩٠٨م).

أَدُلُّك عليه، ولا فَخْر، فقد أحْرَجْتَني إحْراجاً، وأَخْرَجتني من خُلُقي المُتَواضع إخراجاً، فإن زُهِيتُ وآسْتَكْبَرْتُ مَرَّةً في العُمر واحدة، فإنّ القُرَّاء كِرَام والكِرَامُ يَغْفِرُون.

وَطَنِيَّتي، أيها الرئيس، هي في فُؤَاد وَلدك الصَّغير المَحْرُوس، فإذا آنْقَلب إليك من المَكْتَب فآدعه يَتْلو عليك من آياتها ما يَخْفِق له فُؤادك، وتَهْتَزُّ له جَوَانِحك اهتزازاً، لأنّ فَرِيقاً يَهزُّون الرضيعَ في مَهْده، ويُوحون الوَطنيّة إلى الصغير في دَرْسِه. أولئك هم المُفلحون.

وَطنِيّتي، أيها الرئيس الكريم، تُطِيف بكُلّ حَجَر أُلْقِي أساساً لِلْعِلْم في هذا القُطر، من الجامعة إلى النادي، إلى أمثالهما من مَصادر الحياة الحقيقة للأمم والشُّعوب، يَعرف ذلك ويَذكره المُؤسِّسون.

وَطنِيّتي أيها الرئيس الكريم هَتف بها البَدْو، وتَغَنَّى بها الحَضَر، وجاوزت ذلك إلى الأَعجام من تُرك وفُرْس، فهي مُعَلَّقة على جُدران قُصورهم وخدورهم، يقرؤها هنالك القارئون.

وطنيّتي، أيها الرئيس الكريم مُخَبَّأة ناحيةً في مَقْبرة سَلَفِك العظيم، فطُفْ بها وناجِه يَخْرُجْ إليك من جانب القَبر صَدَى الصِّدق، صَدَى الحَقّ، صَدَى الحياة التي لم يتغلَّب عليها الموت، ولا تَمكَّن منها البِلَى، صَدَى الشَّبَاب الذي نِصْفُه في الجنة ونِصْفٌ لا يزال في هذه الدنيا يملؤها ويَسْري فيها، وهذا الصَّدَى يقول: شَوقي هَمزة اللِّواء، طالما تَبَاهَى به وآفْتَخَر، وآعْتَزَّ به وآنْتَصر، وصال بِوطنِيَّته، ما ظَهر منها وما آسْتَتر، وهو أصدقُ مَن نَظم فيه ونَثر، في وَقت عَزَّ فيه الصادقون.

وطنيتي، أيها الرئيس الكريم، في (الأَهرام)، كان قَلَمي في قمتها، كانت هِمَمِي في خِدْمتها، وكان صاحبها يُحبُّني كما يُحبُّ واحِدَه جِبرائيل[1]، وليس

(١) الأهرام: جريدة مصرية، وكان رئيس تحريرها عندها جبرائيل تقلا.

وَراء الحُبِّ غاية في الاحترام. ثم في «المُؤيّد» مَدرسة الوطنّيين الأُولى[1]. ثم في «اللِّواء»، الذي كان صاحبه الوفيّ الكريم يتلقّى الكلمةَ منّي وكأنما يتلقّى مِنْحَةَ تَقْدير لِجَريدته[2]، عِرْفاناً للفَضل، والفَضْلُ يذكره الخَيّرون.

وطنّيتي، أيها الرئيس الكريم، في الشَّوْقِيّات، قليلها الذي ظَهر وكَثيرها المُنْتَظر، وفي عَذْراء الهند، ودَلّ وتيمان، ولادياس، وبنتاءور[3]. ولو آطَّلَعت على واحِد من هذه الآثار التي تقتنيها ربّات الحِجَال، ويَفهمها الرِّجالُ والأطفال، لعلمتَ، كما عَلِم كثير من العُقلاء قبلك، أنني كما وَصفني المرحوم مُصطفى، ذلك الغَدِير الصافي في أَلْفاف الغَاب، يَسْقِي الأَرْض ولا يُبصره الناظرون.

وطنّيتي كُل وطنّيتي، أيها الرئيس الكريم، في هذه الشهادة مِن سَلفك العظيم، وإليك الحديث: عُدْتُ فِقَيدَ الوطن المرحوم مصطفى ذاتَ ليلة وهو مُحْتَضَر. لا يَأْتي ولا يَذَر، وكان بحُجْرة نومه شَقِيقُه ووارِث عَواطفه ومبادئه الأخ علي بك، وثلاثة من كِرامَ الأصدقاء، وكُنت قد قمتُ للفقيد الكريم بخدامة أراها أنا لا تُذْكر، وآعْتبرها هو أنها لا تَصْدُر إلا عن أوفياء الرِّجال وشُجعانهم، فسُرَّ خاطِرُه وآنْشَرح صدره، وامتدّ بنا السَّهر إلى ما بعد مُنتصف الليل، حتى إذا استأذنا من المَريض الكريم قال لي بِسَمْع من الإخوان الأربعة: هكذا فَلْيَكُن الرجل، وهكذا فلتكن الوطنية.

والموتُ حقّ، والحقّ ما يقول المُحْتَضَرُون.

هذا، أيها الرئيس الكريم، دِفاعي عن وطنّيتي التي تَوهَّم بعضُهم أنّك آتَّهمتني فيها، وما قدّمتُه مُداراةً للسفهاء، ولا مُسايرة للغوغاء، ولكن لأَنْفي الظنّ عن أدبي في أَعْيُن الشَّبيبة المصرية، خُصُوصاً الطلبة الكِرام، الذين لا

---

(١) المؤيد: صحيفة مصرية، كان صاحبها علي يوسف، الذي يعد مؤسس الصحافة الإسلامية المصرية.

(٢) المنحة: العطية.

(٣) الشوقيات: هي ديوان شعر، وما عداها فقصص لشوقي.

يَهّمني فوق شأنهم شأن، والذين هم مُستقبل هذه الأوطان.

وما سوى ذلك، أيها الرئيس الكريم، ممّا ورد في الرسالة المُشرَّفة باسمك، فلا رَدّ عندي عليه، اللهمَّ إلاّ أن تُحرجني فأُخْرج من آنْكماشي ذائداً من كَرامتي، مدافِعاً عن شَرفي، هذا مع آعتقادي أنك في مُقدّمة المُخلصين للجناب العالي، المُصادقين لحاشيته الكريمة، وأنا في أوّلهم. ولقد ذكرتَ من أَعظم ذُنوبي لديك أنني ألُوذ بالأَفاضل رِجال الصحافة، من وطنيّين وأوربيين، ويَلُوذون بي، ولو سألتني عن السبب لأجبتُك بالصِّدق والصراحة، اللذين هما في طِباعي: إنّ لي من المَركز الأدبي والمادّي، بحمد الله، ما يجعل الوُزراء والكُبراء يُقْبِلون عليّ، إن لم أَقُل يُحبّون لقائي، ولكنّي أَمِيل بجُملة عواطفي إلى تلك الفِئة القليلة من أهل الأدب والرأي في الأمة. ولرُبَّما دُعِيت إلى مائدة أَعظم عظيم في القُطر فآعْتَذَرْت، من أجل دعوة تكون قد سَبقت من أحد أُولئك الأفاضل، وهذا ما لا يفعله الأكثرون.

«٧»

شكر(*)

سيدي الأستاذ صبري:

أَحْبِبْ بك مُهْدِياً، وأكرم بكتابك هديّة، ولا بَرِحْتَ تُوالينا بالطُّرَف من أدبك، وتُوافِينا بالتُّحف، من كُتُبك، وجَعل الله هذه الآثار وأمثالها، مِن نتائج القَرائح في مصر، نَمَاءً وبَركة، في رأس مال الأُمة، من حَضارةٍ مُسْتَقْبَلة، ودَوْلةٍ مُؤَمَّلة، ومَكانٍ بين المَمَالِك ومَنزلة، فما رأسُ أموال الأُمم إلا وسائلَ الأَدب السَّليم، وذَرائِعَ العِلْم الصَّحِيح. وكُلُّ أدب سليم فهو أدبُ كل زمان. وكُلُّ عِلْم صحيح فهو عِلْمُ كُلّ أَوَان.

سألتني عن رأيي في رسالتك الجَلِيلة، فإنّ كان له من القِيمة ما زَعَمْتَ، فهو رأي الغَوَّاص في الجُمَانَة، والبُسْتانِيّ في الرَّيحانة، والتَّجْر في مُعْتَّقَة الحانَة[1]، تَرْجَمة كُلُّها حَسَن، وأَحْسَنُ ما فيها المُتَرْجِم، وتَحْلِية كُلّها رَوْعة، وأَرْوع ما فيها المُحَلِّي. مَنْكُوبٌ كريم آجْتَمع لِشَهوات الدَّهْر فيه ما تَفرَّق في البَرَامكة. من جاهٍ يَطْوِيه، ونَعِيم يُذْوِيه، ووَلَدٍ يُرْدِيه، ونُور يَطْفِيه،

(*) أهدى الدكتور محمد صبري إلى أحمد شوقي دراسة له عن محمود سامي البارودي، فرد عليه شوقي يشكره.

(١) له، أي البارودي، والجمانة: اللؤلؤة. والريحانة: واحدة الريحان، وهو نبت عطر، والتجر: التجار، والمعتقة: الخمر تركت لتقدم وتطيب. الحانة: حانوت الخمر.

وحَسَب وَضَّاح يُخْفيه، وحُكْم بـالأمس نافـذ يَحْكُم فيـه[1]، جـاورتُـه بِحُلوان الشُّهـورَ الطِّوالَ يَشُـدُّ بَيْتَيْنا طُنُب[2]، ويَنْتَـظِم دارَيْنا جِـدار، فإذا الجـارُ كَرِيم، وإذا الشاعرُ عَظِيم، ما سمعتُه مـرةً عَـرض شِعْرَهِ على جُلسـائه، ولا رأيتُـه إلا سقِيماً من الحَيَاء، كُلّما عُرِض شِعْرُه عليه. وهكذا كان ـ رحمه الله ـ إذا جَرى ذِكْرُ الحَوادث العُرَابيّة في مَجلسه تَوَارَى بالإطـراق، حتى يُمْسِـكَ المُتَكَلِّم[3]. سأله مرةً صَبْرِي بـاشا[4]: هَـل له مُـذكِّرات عن الثـورة؟ فقال: لا، قـال: وما منعـك؟ قال: عِلْمي بـأنَّ الغَضَب في طِبَـاعِي. وخَـوْفي مِنْ أن يَمْلِكني عنـد بعض الذِّكْريات، فيَبْغِي القلمُ على الرجال. فقال حامدُ بـك خُلوصي، وكان ممن ضَمَّ المجلسُ: صدقت، ألستَ القائل:

«ونغْضَبُ في شَرْوى نَقِيرٍ فَنَشْتَدُّ»[5]

فتبسّم ـ رحمه الله ـ ثم قال: ولا يُغضبني مثلُ حديث الثـورة، فَلْنَخُض في غيره.

وعلى ذِكر الثورة أقول للأستاذ، إنه كان له غِنًى عن الإشارة إلى مَواقف المَرحوم البارودي في الثورة العرابيّة، فإن في ذلك مِن مُسَابَقة التاريخ ما فيه، ومن سابَق التاريخ لم يأمن أن يَضِـلَّ الأَعقاب، ويُحَـرِّف مواضـع التَّبِعات من الرِّقاب.

---

(١) منكوب: أصيب بنكبة. يعني البارودي. والبرامكة: أسرة اتصلت بـالرشيـد الخليفة وكـان لها من الجاه حظ عظيم، ويذويه: يبليه، ماضيه أذوى، ويرديه، أي يفقده، يشيـر إلى ما تـوفر للبارودي من نعم خرج منها جميعها.

(٢) الطنب: حبل يشد به الخباء.

(٣) الثورة العرابية، هي الثورة التي تزعمها أحمد عرابي، التي بدأت بمطالب عرضها عرابي باسم ضبـاط الجيش على الخديـوي توفيق. وانتهت بحـرب بين مصر والإنجليـز كتب لهم بعدهـا احتلال مصر بحجة حمايـة العرش. وكـان البارودي من المشـاركين في الثورة. ولقـد قبض عليه وسجن. وحكم عليه بـالقتل، ثم خفف الحكم ونفي إلى سيـلان حيث أقام بهـا إلى أن عفي عنه سنة (١٨٩٩م) بعد أن أقام بسيلان سبعة عشر عاماً.

(٤) صبري، هو إسماعيل صبري باشا (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م) من شعراء مصر المعدودين. وكان آخر منصب تولاه وكالة وزارة الحقانية.

(٥) النقير: النقرة في ظهر النواة. وشروى الشيء: مثله.

«٨»

كلمة اطراء(*)

غَرِّد، عَبْدَ الوهَّاب، غَرِّد، يا كَناريّ النَّاي. وآصْدَح يا هَزَار الوادِي. واحْدُ الرِّكَّاب وهُزَّها، يا حادِي[1].

أهذا يا بُلْبل النَّادِي تَغْرِيد. أم هذا وَسْوَاس الحَلْي على الخُرَّد الغِيد. وجَرْجَرة الوَشْي من الهِيف الرَّعاديد. أم هذا هَمْس الجَدَاول في سَمْع الأماليد[2].

غَنِّ من الكَبِد آناً. ومن القَلْب أحياناً. وقُلْ عاطفةً ووجْدَاناً.

غَنِّ نَرَ العُشَّاق كيف يَبْكون. وحَملةَ الأَشْواق مِمَّ يَشْكُون. ونَرَ المُغَنِّين كيف يُمَثِّلُون ويَحكون. آمنتُ بِبيَان الحَناجر، وباللَّحن السَّاحِر. والعَصَب

(*) وله يمتدح غناء المطرب الأستاذ محمد عبد الوهاب، وكان قد غنى في حفل قران ابنه علي، على كريمة يحيى بك علمي سنة (١٩٢٥م).

(١) الكناري: طائر حسن الصوت. ينسب إلى جزيرة كنارية، والناي: آلة موسيقية من آلات النفخ. وأصدح: ارفع صوتك وطرب. والهزار: طائر حسن الصوت. له أصوات كثيرة. وآحد: غنِّ أمام الركب تحدوه وتحثه. والحادي: الذي يسوق الإبل بالحداء، وهو الغناء.

(٢) الوسواس: الصوت الخفي. والخرد: جمع خرود، وهي المرأة الحبيبة. والغيد: جمع غيداء، وهي المتثنية نعومة. والجرجرة: ترديد الصوت. والوشي: الثياب الموشية. والهيف، جمع هيفاء، وهي الممشوقة القد. والرعاديد: جمع رعديدة، وهي الرخصة الناعمة من النساء. والأمالي، جمع أملود. وهي الغصون الليّنة.

الشَّاعر. وشَهِـدْتَ أنَّ وَتَراً يَخْلُقـه الله. يشُدّ بـه اللِّسان إلى اللَّهَـاة. لا يَصْنَع الناسُ له مَثِيلاً. وإنْ أَلْفَيْتَهم صَنعوا جَلِيلاً. وسَمَّوا صُنْعهم فَنّاً جميلاً[1].

وقد وَهب الله لك، عبدَ الوهاب أَندَى الحَنَاجر. وخَلَق لها أَلْيَن الأَوتار. وخلق منهـا أرْخَم الأصوات. وولَّاك على الصَّـوْت تَنْشُره وتَـطْوِيه. وتُمِيتـه ثم تُحْيِيه. وتَقْلِبه وتَنْظُر فيه، كأنما صوتُك في يَدِك. وكُلُّ مُغَنّ صوتُه في فِيه.

حَفِظ الله نادياً أَوَاك في صَدَفه. وربَّاك بين أَيْكه وغُرَفه. وجَلَّلك بِجَلال الفَنِّ وشَرَفه.

(١) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق.

«٩»

عـزاء*

عزيزي الأستاذ:

قُلُوب الآباء حَولَ قلبك المُصاب بِحَبَّته وحَبِيبه عُمَر.

«عرفتُه طفلاً وصبيّاً فعرفتُ زَيْنَ البَنين. وصُورة الـرُّوح الأَمين، فاْحتسبْه في رحمة الله فإنها خيرٌ له من قَلبكِ منزلاً. وأَبقَى له منك ذُخْراً ومَـوْئلاً. وهـو سبحانه المَسؤول أن يَلْطُف بقلبـك المحزون، في زَلْـزَاله المُسْتَمـرّ. وبُركـانه المُسْتَعر[1].

أُنـظُر إلى الآمال كيف تَفُـوت. وإلى الأَنفس كيف تَموت. بَينـا الأرضُ تَقُـوتها، إذا هي لـلأرض قُوت. أَمْـرُ الله المُتصرِّف في مُلكـه، القـاهـر فـوق عباده، الذي يَأْسُو بلُطفه ورحمته ما جَرح بِقَضائه وقَدَره[2].

(*) في السابع من ديسمبر سنة (١٩٠٨م) نشرت المؤيد أبياتاً من الشعر لإسماعيل صبري (باشا) ينعي ابنه عمر، فسارع شوقي وبعث لتوه بهذه الكلمة إلى المؤيد يـواسي بها والـد الفقيد، ونشرها المؤيد فيُ الثامن من ديسمبر سنة (١٩٠٨م).

(١) احتسبه: ادخره، والذخر: ما يذخر. والموئل: المرجع والملجأ. والمستعـر: المتوقد.

(٢) تقوتها: تغذيها: والقوت: الغذاء.

«١٠»

وداع ورثاء*

جراغان، يا مَهْبِطَ حاسِرِي التِّيجان.. يـا دَار الأَشْجان والأَحْـزان.. يا مَصْدَرَ تَصَارِيف الزَّمان![1].

هـا قد خَلَعْتُ إزارَ المُلك، هـا قد سُلِلْتُ من ضَمِيـر الكَـوْن، ضَـرَبني الـزَّمانُ فَقَصَم ظَهْـري. وغَلَّني الإخوان فَثُلّ عَـرْشي. وآنْتَثَـرت في القُصُـور نِسَـائي، وجُبَّت عن الحَيَاة أَحْشَـائي. وحِيل بَيْني وبين مُلْك، مـا كـان يَتَّسِـع لِنَفْسي، ولا يَنْفَسِح لِسَرِيري[2].

إليك، يا جراغان السَّيْر، وفيك يا جراغان تَمْضِي البقيَّة الباقية، من هـذه الـدنيا الفـانية... فـالقَدَر الـذي كـان على لِسـاني. والـزَّمَن الـذي كـان من خُـدّامي، والجُنُود التي كـانت تَصْدَع بـأَمـري، والـرَّعِيّـة التي كـانت تَسْجُـد لِذِكْرِي، أَصبح الكُلُّ منتفضاً عليّ، وناهَضَني الإخوان. وأَسْلَمني الأعوان..

(*) في السابع والعشرين من ابريل سنة (١٩٠٩م) أفتى شيخ الإسلام في الآستانة بخلع السلطان عبد الحميد الثاني ومبايعة ولي عهده محمد الخامس. فكتب شوقي هاتين الكلمتين: أولاهما على لسان السلطان المخلوع يودع ملكه إلى قصره جراغان الذي سيكون مقره. وثانيتهما لشوقي يرثي لهذا السلطان المخلوع.

(١) جراغان: القصر الذي ظن شوقي أنه سيكون مقر السلطان المخلوع. ولكن الثائرون ضنوا به على عبد الحميد وأبعدوه إلى سالونيك وحاسرو التيجان، أي النازعوها عن رؤوسهم.

(٢) غلني: خانني. وثل عرشي: ذهب سلطاني. وجبت: قطعت. بالبناء للمجهول فيهما. وجبت عن الحياة أحشائي، أي لم يعد يلتذ بالحياة.

وجَرَّت سَوَاقي الزَّمان، ذُيُـولَها على مـا كان لي من إحسـان وآنْطَمست معـالمُ حَسَنـاتي. . وفُسِخت مُحْكَمـات آيـاتي. وكـأنّي مـا كنتُ في المُلْك، شِـرَاع الفُلْك، ولا في الإيوان، ورِقّ التِّيجان. فسُبحان الواحـد الديّـان. قُضِي الأمرُ الذي كان[1].

نَفْثَـةُ مَصْدُور، وَرنّـة حَنين، بَلَّلتها دَمعـةُ مَقْرُوح، آنْخلع قلبُـه، واندكَّ طَوْدُه، وقد وَقَف أمام تَصَاريف الأقدار، خاضعاً لله الواحد القّهار.

فأَينَ مَن كانت الدُّنّيا تَهْتِف بآسمه، والأَقْدَارُ طَوْع أَمـره، يُصَرّفهـا كيف يشاء. لا رَادّ لما أراد. أين مَن كانت الأَطيارُ تَلْحَن إليه. والسَّحاب يَنْفَجِر بين يديه. وكُلُّ ما في الكَـون لا يَعزّ عليه. أَمْسَى، والله سجيناً في جراغان، التي يُنـاجِيها بمـا نَقلناه عن لِسَـان الحال. والمُتَـرْجِم عن الحقّ كُلَّ نبـأ صِـدْق. . أمسى فيهـا لا يملك من أَمـره، إلا مـا مَلك الضَّبُّ من ذَنَبـه، والضَّيْفُ من مُضِيفه، فعَزاء للإسلام[2].

---

(١) السواقي: الرياح تحمل التراب. وشراع الفلك: القلع الذي به تسير. ورق التيجان: أسرها.

(٢) النفثة: النفخة. والصدور: الذي يشكو صدره، ويقال: هذه نفثة مصدور، أي مـا يخفف به عن صدره، ويروح به عن نفسه. وتلحن إليه: تقصد إليه وتميل. والضب: حيوان من جنس الـزواحف وله ذنب عـريض حرش أعقـد، وهـو الـذي يجـر على الضب الـويـلات، إذ منـه يمسك، والمضيف: الذي ينزلك عنده ضيفاً. وكثيراً ما يضيق بمن ينزلون عليه.

«١١»

حـلـوان*

طالما آعتقدتُ مع النّاس، وآعتقد النّـاسُ معي، وهذا هـو التَّقْليد، أنَّ حُلوان رُبُوع الصِّحَّة، ومنازل العافية، إلا أَنها رُبُوع ليس للأُنْس فيهـا أَعلام، ومَنـازل ليس فيها بَشـاشة تُسْتَـام[١]. فهواؤهـا إنّما هـو الدواء يُشـرب في كُـل كأس، ومن كُل يَد، وكيف كان المَـذاق[٢]. وما زال هـذا آعتقادي في مـدينة الشَّمس القويّة. وحُلْوان أحقُّ بهذا اللَّقب من طِيبة القديمة[٣]، وأنـا من القِطار إلى البيت، ومن البيت إلى القـطار، لا أَلْـوِي على شيء من نِعم الله الكثيـرة الكبيـرة. على هــذه البلدة القليلة الصغيــرة. حتى لقيتُ من أرشــدني إلى مواضعها، وأشهدني عَرُوس الـطبيعة في بَـدائع حُـلاَها، وحُلَى بَـدائِعها[٤]، وخُصُوصاً منظر غُروب الشمس في النهر بين الرِّمال، وبين النَّخيل والأَهـرام، فقد أَخذ مُرْشدي على نفسه أن أجد أُفُق حَلوان وهو يُودّع النَّهـار، فوق آفـاق

(*) حلوان: ضاحية من ضواحي القاهـرة. عرفت بجفـاف هوائهـا، فاتخـذت بها لـذلك مصحـة للمصدورين. وكان ينزل بها من ينشدون الراحـة والبعد عن الجلبـة والضوضـاء، والاستشفاء بمياهها المعدنية.

(١) الانس: بالضم: ضد الوحشة. وتستام: تشترى، بالبناء للمجهول فيهما.

(٢) يشير إلى أن مياهها معدنية.

(٣) طيبة: عاصمة مصر القديمة، ومكانها الآن الضاحية المسماة: عين شمس.

(٤) الحلى، بكسر ففتح، جمع حلية، بالكسر، وهي ما يتزين به.

سِويسرا جَمَالاً وجَلالاً. وأن الطَّبيعة الصُّغرى تَلُوح لي وقتئذ عند غاياتها، كما طالما شَهِدْتُ الطبيعَة الكُبرى في سِويسرا عند نهاياتها. فخرجتُ إلى فَضاء البلد في يوم أقبلت الشمسُ عليه، فانتهى الصَّحْوُ إليه[1]، أَسْتَقْبل النِّيلَ وما يَكْتَنِفه من زَرعٍ ونَخيل، وظِلٍّ ظَلِيل. وأنا على سَفينة الرِّمال يجري بي الأَصِيل[2]. وأميل مع مَلِك النَّهار حيث يَميل، فإذا أنا بِسَماء قد أَخذتْ زُخْرُفَها وازَّيَنت للنَّاظر، كأنها مجموعةُ صُورٍ تَحْوِي أحسَن المَناظر. بَيْدَ أنَّ المَنْظَر الواحد في مَجموعة المُصَوِّر العظيم يَتبدّل ويتحوّل، ويتلّون ويَتشكّل. فَيَبْيَضُّ الأَسود، ويَسْوَدُّ الأَبيض، ويَزْرَقُّ الأَحمر، ويَحْمَرُّ الأزرق، ويَسْتَمِيل المُسْتَقيم، ويَسْتقيم المُسْتَمِيل، ويَسْتَطِيل المُسْتَدِير، ويَسْتَدِير المُسْتَطِيل، وتَتمثَّل أشياءُ الأرض في السّماء أبدع تمثيل:

فكَمْ مِنْ جِبَالٍ وكَمْ مِنْ ظِلَالٍ ... وكَمْ مِنْ بُرُورٍ وكَمْ مِنْ بُحُورْ[3]
مِدَادٌ من النُّور يَجْرِي بِهِ ... على صَفْحَةِ النُّورِ أقلامُ نُورْ
تَأمَّل تَجِدْ مُبْدِعَ الكَائِنَاتِ ... إذا كُنْتَ تَقْرَأُ بَيْنَ السُّطُورْ

والأرضُ تحت ذاك صَفْراء من قُرْب، حَمراء من بُعد، خَضراء يَمْنَةً، سَوداء يَسْرَةً، قد ذَهَّبَ الأَصِيلُ وُجوهُها باللآلىء فماجت كما تَموج الصُّوَرُ بأَثَرِ الكَهْرَباء[4]، والرَّمْلُ لُجَّةُ عَجَب[5] والنِّيلُ فِضَّةُ ذَهَب. والزرع كالزَّبرجد في أُفق كالعَسْجَد[6]. والنَّخِيل كالعَرَائس، أو عُمُد الكَنَائِس، والفَلَكُ كالمِنْطَاد، من رائح وغاد[7]، والأَهرام أُمُّ طُغْرَى هذا الكِتاب. وجلال هذا المنظر العُجاب[8]. تَلُوح من بُعْد كأنها أَجْرَانٌ على مَزْرَعة، أو خِيام وَسْط

---

(١) الصحو: ما لا غيم فيه.
(٢) الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغيبها.
(٣) برور، جمع بر، بالفتح، وهو ما انبسط من سطح الأرض ولم يغطه الماء.
(٤) ماجت: اضطربت.
(٥) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه، جعل الرمل في كثرته واضطرابه من هذا.
(٦) الزبرجد: من الأحجار الكريمة، له ألوان كثيرة أشهرها الأخضر. والعسجد: الذهب.
(٧) الفلك: مدار النجوم. والمنطاد بالضم: ضرب من الطائرات كبير الحجم. وغاد: أي غادي، فحذف للوقف.
(٨) الطغرى: الطغراء، وهي الطرة تكتب في أعلى الكتب والرسائل فوق البسملة.

مَعْمَعة. أو إبل مُسْتَجْمِعة، أو نُهود الطَّبيعة المُضْطجعة. وبالجُملة فالْمَنظر فَخْمٌ شائق، يَبْدُو عليه جَلاَل القِدَم، ويَلُوح وَقار الهَرم.

فكأنَّما فِرْعَوْنُ حَيٌّ لم يَزَلْ وكأنَّ مِصْرَ جَدِيدَةُ الأَهْرَامِ
وكأنَّما خَلت القُرُونُ وما خَلَتْ وكأنَّما الأجْيَالَ رَهْطُ نِيَامِ
النِّصْفُ تَحْت الأَرْضِ في سِنَةِ الكَرَى والنِّصْفُ فَوْق الأَرْض في أَحْلاَمِ[1]

حتى إذا آخْتُصِر النهار، وظَهرت الظُّلْمُ على الأَنوار. وآذن ملكُ الشَّمس بالإدبار. مَهَّد لها المُنْحَدَر. فانحدرت بالتُّؤدة والوقار. فأخذتها الأهرامُ حَمراء، فكأنها عَلَمٌ في رأسه نار، ثم آحتواها النِّيل. فكأنه طار سَقَط فيه دِينار[2]، فوقفتُ أَنتظر اللَّيل، واللَّيلُ لا يأتي. حتى شَكَكْتُ أنِّي رأيتُ مَصْرَع الشَّمْس، وشَهِدْتُ النَّهار يَنْزِل إلى الرمس، فالتفتُّ حولي، إذ أنا بالبَدر قد خَلَفَ الشَّمسَ على الآفاق، فكأنما أَوْمأ إلى النهار فَوَقف، وآتصلت مادَّةُ الإشراق. وهكذا حلوان:

اللَّيْلُ فيها نَهَارٌ لا عَنَاءَ بِهِ والبَدْرُ شَمْسٌ ولَكِنْ تَجْتَلَي أَبَدا[3]

ولمّا كانت ليلةُ الأَحدِ الآتِي من لَيالي القَمر، في هذا البَلد، كان مَيْسُوراً للقادِم عليه فيها، أن يَتمتَّع بجميع ما وَصفنا الطَّبيعةَ عليه، من الجَمال والجلال، حتَّى إذا أَخذت العينُ قِسْطَها من ذلك كُلِّه، سمعت الأُذُنُ (إسحاقَ) المَشَارِق، و(مَعْبَدها)[4] حَضرة المُوسيقي الأَشهر عَبْده أفندي الحمولي[5] مُؤدِّياً بصوته الجَميل، عملاً خَيْرِياً مَحْضاً، وقد خَصَّصْتُ ثَمرته لإحياء (كُتَّاب)[6] في حُلوان، يأوي إليه فُقراء أبناء العِزْبة. وإنَّ إنساناً يَسعى بقَدمه إلى البِرّ لخَلِيقٌ أنْ تَسْعَى به قَدَمه إلى الثَّناء في الدنيا، والأَجر في الآخرة.

---

(١) السنة: الأخذ في النعاس. والكرى: النوم.
(٢) طار: أي إطار، وهو ما أحاط بالشيء من خارج.
(٣) يُجتلي: ينظر إليها مجلوة.
(٤) اسحاق ومعبد من المغنين السابقين.
(٥) عبده الحامولي: مغن معاصر كانت له شهرته، وكان هو الآخر يسكن حلوان.
(٦) الكتّاب: المكان تعلم فيه الصبية.

«١٢»

بضعة أيّام
في عاصمة الاسلام*

هَمَّت الفُلْك بآسم الله، وعلى يَدِه وفي حَمِاه(١)، كأنَّها الصَّرْحُ إذا ماد. وكانت في مَرْسَاها كالصَّخْر بالوَاد(٢). فما زال الزِّمام بِيَدَيْها، وهي تتمهَّل بِمَنْ عليها(٣)؛ حتى آستدبرت الميناء. وآسْتَقبلت الدَّأماء، فآنْدَفعت تَشُقّ عُبَاب الماء كأنَّها بين الأبيض والزَّرقاء، هِلال الشَّكّ تُلوِّح به السَّمَاء. أو وَجْناء على بَيْداء. أو جَرادة بأرض عَرَاء. تَقْلِبَ الثَّرَى عن غِذاء. أو كأن الأمواج جنَازةُ هي فيها الآلةُ الحَدْباء(٤).

وكان الوقتُ صَحْواً، وفَضاء البَحْر زَهْواً(٥)، والسَّفَرْ لَهْواً ولَعِباً. فحينَما ذَهَبنا تَنَحَّى التَّيَّار. وعَبَرَ البُخَار، وألَّف الله بين الماء والنار(٦)، نَسِير في لُجّة.

(*) كان هذا في سنة (١٨٩٨م).

(١) همت: أخذت في الإبحار. والفلك: السفينة، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع.

(٢) الصرح: القصر العالي وماد: تحرك واضطرب. والمرسى: محط السفينة بالساحل. وبالواد، أي بالوادي. يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾. (الفجر - ٩).

(٣) الزمام: المقود.

(٤) الدأماء: البحر. والأبيض: الماء، والزرقاء: السماء. وهلال الشك: الذي لم تستيقن رؤيته. وتلوح به: تظهره. والوجناء: العظيمة الوجنتين، يعني ناقة. والبيداء: الصحراء. وعراء: فضاء لا يستتر بها بشيء. والحدباء: التي بدت عظام ظهرها. والآلة الحدباء: النعش.

(٥) زهو: صاف مشرق.

(٦) عبر: مر والبخار، أي السفينة، إذ بالبخار تسير.

لا ساكِنَة ولا مُرْتَجَّة[1]، تَتَلألأ رَوْنَقاً وبَهْجة، ولَدَى فَضاء مائج بالأَصِيل وضَّاء. فقد تَوَحَّد أدِيمُه الأزرق، وتَمَهَّد مِن كُلّ الجِهَاتِ وتأنَّق، كأنَّه حَوْضٌ من زئبق، أو بِسَاط من آسْتَبْرق؛ أو مَعَادِن العَسْجَد. آخْتَلط بها الزَّبَرجُد، أو زَرْعٌ تأْخُذه الفُلْكُ وهي كالْمِحْصَد[2].

والماءُ يُحْدِقَ من كُلّ الجِهَات بِنَا	ويَبْسُطُ الأُفْقَ للأَبْصَارَ فالأُفُقَا[3]
إذا تأمَّلْتَه والفُلْكَ تَعْبُرُه	بذلك البَحْرِ مُنْسَدّاً وما آنْفَلَقَا
فَتِلْكَ تَسْلُكُ سَهْلاً فِيهِ مُنْبَسِطاً	والعَيْنُ تَنْفُذُ مِن آفَاقِهِ حَلَقَا
كأنَّما الفُلْكُ فِيهِ أينما ذَهَبَتْ	إنسانُ أَحْوَلُ عَيْنٍ حَيَّر الحَدَقَا[4]

إلى أن حِيلَ بين الشَّمْس والنَّهار، وحَكَم فيها الواحدُ القَهَّار؛ فشَهِدْنا مَصْرَعها وهي تُحْتَضَر،حثيثة المُنْحَدَر، كأنها قِطْعَة مِن سَقَر، مَسَّت الماءَ فآسْتَعَر، أو جُرْنٌ على مَزْرَعة، تَلْتَهِمه النَّارُ مُسْرِعة؛ أو جَنَاحُ مَلَك، سَقط من الفَلَك، فآحْتَواه البَحْرُ كالشَّرك[5]؛ أو مِنْطَادٌ يُحْرَق، لا يُمْسِكه إلاّ زورق، الزَّوْرَقُ في المَاءِ مُغْرَق؛ وهنالك خاشَنَ البَحْرُ بعدما لان[6] ودَهَمَ الظَّلامُ من كُلّ مَكَان؛ فكَأَنَّ البَحْرَ بَحْرَان، وكأنَّ اللَّيْلَ لَيْلاَن؛ وإذا نحنُ بِمَوْجٍ كالهِضَاب، لكنّه مُتَنَقِّلٌ وثَّاب، أو كالإبل الصِّعَاب، أو كالآسَاد الغِضاب، أو كالفِيَلة ماجَ بها الغاب؛ فكُنْتَ تَرى المَطِيَّة تُدَافِع العَبَب، هَوْجَاء الخَبَب، شَدِيدَةَ الصُّعُد والصَّبَب[7]، يأتي بها المَوْجُ ويَذْهَب. ويَجِدّ البَحْرُ

---

(١) اللجة: معظم الماء.

(٢) الأصيل: حين تميل الشمس لمغربها. وأديمه، أي سطحه، يعني الهجر. والعسجد: الذهب. والزبرجد: حجر كريم له ألوان كثيرة أشهرها الأخضر. والمحصد: آلة الحصاد.

(٣) يحدق: يحيط. الأفقا، يعني أفقاً بعد يفق.

(٤) الأحول: الذي اختلف محور عينيه، والحدق: السواد المستدير وسط العيون.

(٥) الشرك: حبالة الصائد.

(٦) خاشن: غالظ، ولان: لاطف.

(٧) المطية: ما يمتطى ويركب: يعني السفينة. والعب، أي العباب، وهو ارتفاع الموج واصطخابه. والهوجاء: الحمقاء. الخبب: سرعة السير. والصعد، بضمتين: الصعود. والصبب: الانحدار.

وتَلْعَب، تَـرْقُص على نَقْر الـرِّيح، بِـطَارِ الفَضَـاء الفَسِيح[1]. فـاسْتَبَقَ الـرُّكّـابُ المَخَـادِعِ يَجْتَمعـون في المَضَـاجِـع، وتخلَّفت أنـا في زاويـة، فَـوق سَـطْح الجـارِية، حتَّى إذا خَلَت إلى النَّـاحِية، شَـرَعْتُ أبالِـغُ لِلْبَحْـر في الخِـطَاب وأتلطَّف له في العِتاب، فقلت:

أَيُّهـذا الأبيضُ الزَّاخِـر، لَحْدَ الأوائِـل ومَهْدَ الأَواخـر، ودائِـرة المـآثِـر، وحَلْقَـة المَفَاخِـر، وغَيْلم مـعَـالم العِلْم الدَّاثر[2]؛ ورَوْضَ الأدب الـزَّاهـر. من الـزَّمن الغابـر؛ وواعِيَ يَتيم الفِكْر والخَـوَاطِر، وكـافِلَ بَنَـاتِ الشِّعْر للشَّـاعـر، ومَهْبِط النَّــوَاقِيس الأُول والمَنَـائِــر، ومَــوْطِنَ الحَضَــارات الخـالِي منهـا والحـاضر، أين نِقْـرَاطِيسُ عَرُوسُ البِحَـارِ، أين الإسكندرية ذاتُ المَنَار، أين أثِينـا مِنْبَر الخُـطَباء الكِبَـار، ومَوْضِـعُ إنْشاد الأَشعـار، وأَوَّل مَرَسحٍ وُضـع للتَّمْثيل في هذه الدَّار، أين صُور وصَيْدا وما أَخْـرجتاه من تُجَّـار، وآتَّسعَتَا من آستعمار. رَفع الكُلُّ شِرَاعَك مِن قَبْل لا قِبْلَةٌ ولا بُخار. وكنتَ وكانـوا أولَ من مَدَّن الأَمصار. وحَمَل النُّورَ إلى سائِر الأَقطار[3]. مَمَالِك مَنِيعة، ودُوَل رفيعـة، وأمم إلى داعِي المَجْد سَرِيعة؛ يقول فيها أفلاطـون: نَحنُ حِيَالَ هـذه البُحَيْرة كالضِّفدع حِيَالَ المُسْتنقع. فَلَيته يُردّ إلى الحيـاة، لِيَنْظُر فَيَـرى كيف آنْقسموا، ففريقٌ صَلِيبيّون، وآخرون أَيُّوبيّـون[4]، وهذا عـربيّ لا يَنبغي لِسِوَاه أن يَسُـود، وهـذا رُوميّ لم يُخْلَق إلا له الـوُجـود، وهؤلاء أصحـابُ الفَلْسفـة الأُولى فَهُم أَوْلَى بالتَّقْدِيم، وغيرُهم له في وَضْع العُلوم اليَدُ الـطُّولَى، فإليـه يَرْجِـع الطَّوْل من قـديم[5]. أقوال ذاهِبـة. ودعاوَى كـاذبة، مُلوك وَجـدُوك رخيصـاً فبـاعُـوا.

---

(١) الطار: ما ينقر عليه من آلات الموسيقى.

(٢) الغيلم: البحر.

(٣) نقراطيس: مرفأ يوناني زاحم الإسكندريـة شهرة. وصـور وصيدا: بـلاد على البحر المتـوسط لهما شهرة قديمة. ولا قبلة، يعني البوصلة.

(٤) أيوبيون: نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي الذي خاض معارك ضد الصليبين.

(٥) الطول: الغنى واليسر.

وأضاعوك وأيّ فتًى أضاعُوا[1]، فنـزلَت عن عَرْش مُلْكـك وسُلْطانك، وهَبَـطْت من هَـالة عِـزِّك وإمْكانـك، تُصْبح مَـطِيَّـة الـرَّاكِبين، وتُمْسِي قَنْطَرَةَ الـذَّاهِبين والآيبين، تَحْمِل للغُربـاء الأَحْمَال، كـأنك بَغْلَة الأثْقـال؛ فسُبْحان المُغيِّـر مِن حـالٍ إلى حـال، ومَنْ بِيَـده الإعْـزاز والإذلال، ومَنْ مُلْكـه المُلْك لا يَعْتـريـه آضْمحلال، ولا يَرْقى إليه زَوَال.

وبينمـا أنـا أذهب كُـلَّ مَـذْهَب من الشَّكْـوَى. وأَنْتَقِـلُ في السِّـرّ إلى النَّجْوَى، آعْتَقل النَّوْمُ لِسَاني، وأَخَذَ الكَرَى بِمَعـاقد أجفـاني، فما انتهـيت إلّا على نَقْـل أَقدام، وحَـرَكة إنسـان؛ يَدْلِف إليّ في الـظلام[2]، فرأيتُ شَبَـح رَجُلٍ شَيْخٍ هِمّ[3]. يَحْبُو إلى المائة أو يستتمّ[4]، عليه رداء، يَلُفّه كالقَبـاء[5]، وهو مَهِيب في الخَفَاء. كأنه من كَهَنـة المِصْريّين القُـدَماء، وقـد آقترب منّي. يُفَتِّش الظَّلَام عنّي؛ فقلتُ في نَفْسِي: مِسْكِين الشيـخ أَحْرَجه البَحْرُ بِدَائه[6]، وأخرجه يَتَدَاوَى من مائه بِهَوَائـه، فما لي ولـه أَزِيدُه في عَنـائِه، وأُتْعِبُ النَّفْسَ بِنِدَائه، ثم عاوَدني النـوم فَنِمْتُ، لكنّي ما هَوَّمْت[7]؛ حتى آسْتيقـظتُ بحالٍ شِرِّ حال: وما أَيقظني إلّا صوتُ عال. قد دَوَّى صَدَاه في مَوْجٍ كالجِبال، وإذا هو الشَّيْخ يُومِىء بالإصْبَع. إلى الرِّيَـاح الأربع: ويُشِيـر بِوَجْهـه نحوَ السَّمـاءِ، ويَضْرِبُ الفُلْك بِقَدَمِه فَتَشَقَّق ويَخْرُج منها الماء، وهو يقول:

يا ريحُ، أَقْصِري إقْصَاراً، ولـو كُنْتِ إعْصَاراً[8]، ويا ماءُ، دِنْ للإِنْسان[9]،

---

(١) أضـاعوا: يشير إلى قول العرجي:
أضـاعـونـي وأي فـتـى أضـاعـوا ليوم كـريـهـة وسـداد ثـغـر
(٢) يدلف: يمشي رويداً.
(٣) الهم: الفاني.
(٤) يحبو: يزحف، ويستتم: يكمل.
(٥) القباء: بفتحتين، ثوب يلبس فوق الثياب.
(٦) أحرجه: أوقعه في الضيق.
(٧) هومت: نمت نوماً خفيفاً.
(٨) أقصري: كفي.
(٩) دن: آخضع، مـاضيه: دان، ومضـارعه: يـدين.

ولو كنت الطُّوفان.

فكان ما أَمر الشيخُ أن يكون، وآشتمَل عالَمُ الماء بـالسُكُون، فـدَهِشْتُ لِمَا رأيتُ وسمعت.

قمتُ إلى الشيخ فقلتُ: أيها الإنسان المُجَازي، والـزَّائر الـرُّوحانيّ، مَن أنتَ وفيما جِئْت؟ لعلّك طائِفُ الْمنون، أو عَساك هاتِفُ الطّاعُون، أم أنت نُوح وهذا الفلْك المَشْحُون، أم تُراك الخضر[1] أم أنت الدَّهـر، أم ما يـزعمون من سلطان للبَحْر، وما هذا المَوقف النُكْر، والنَّظر الشَّزْر، وما لك عِنـدي وطَرٌ فتنالَني بِضَرّ[2]، وهيهات أن تَضُرَّني أو يَأذن الله، إنه لا ضارّ إلّاه.

الشيخ: ما هذا الفَزع، وممّ، يا آبنَ مِصْرِ، الجَزَع، ألست في آرْتِقَابي. ولم تَدْعُني بأسمائي وألقابي. سَمَّيتني بِصِفَاتي. ووَصَفتني بسماتي. وذكّرتني شَبِيبَة خالية، وذُرّية غالية، وكَلِمة كانت ولا تـزال عاليـة؛ فقد زَعَمْتني خُلِعْتُ من مُلْكِي العـظيم، وجُرِّدت مِن عـزِّي القديم، وسُلِبتُ كُـلَّ نِعْمة وأيّ نَعيم؛ وتالله ما هُنْتُ ولكن هُنْتَ أنت وقومك، ولا تَخـالَف أمْسِي ويَوْمي ولكن تنكّـر يومُك، وإنما قَعد شـاطِيء وقام شـاطىء، وهان جـانب، وعزّ جـانب، وفَسَد بنون، وصَلَح بَنُون. وشَقِي أَقوام وسَعِد آخرون. فما هومير بأعلى من هُـوجُو مكـانَه[3]، ولاَ زمـان بِسَابِق في المَجـد زمانَـه، وأَين أُبُقْـراط وإن حـاز بِسَبْقٍ تَفْضِيلاً[4]. ورتَّلت الأَعْصُر ذِكْرَه تَرْتِيلاً: من بَسْتُور مَنَـارُ الطَّريقـة[5]. ومُخْرِجُ الطبّ من ظلمات الرَّيب إلى نُور الحَقِيقة. وما رأيت مَرَاسح أثينا وإن جَلّت، مِثْـلَ سارابرنار[6] حين تُبكي الـطِّفل النَّـاعم. وتُضْحِك الثَّكِـل الواجِم، وتَعْتَـلّ

---

(١) الخضر: نبي من أنبياء بني إسرائيل..

(٢) المنكر: المستقبح والشزر: الاستهانة، والوطر: الحاجة.

(٣) هومير، أو هوميروس: من أشهر شعراء اليونان قديماً. وهـوجـو: فكتـور هوجـو: من شعراء فرنسا.

(٤) أبقراط، أو بقراط: من أشهر أطباء اليونان قديماً.

(٥) بستور، أو باستور: عالم فرنسي، اكتشف لقاح الكلب.

(٦) سارا برنار: ممثلة فرنسية، وكان لها مسرح سمي باسمها.

فَيَجزع الطَّبيب. ثم تَصِحّ صِحَّة لا تَريب. وتَشِيب ثم تَشِبّ من بعد المَشِيب. ثم تَموت ثم تَحيا في أمد قريب؛ من للإسكندر أَسَدِ الحُروب الهائم، وآخِذ العَظائم بالعَزائم، أن يُقاس بنابليون قاهِر مُلوك الزَّمان وطاعِن الجُيوش بالرَّأْي قبل تَطاعُن الأَقْران؛ وكل هؤلاءِ لي أبناء، وأنا بهم أسعدُ الآباء. وجهي أبيضُ وعِرْنيني في السماء.

قلت: الآن اطمأنَّ قلبي. ورُدّ عليّ لُبِّي، فيا مَرْحباً بِسَيِّد الزُّوْار، وأهلاً وَسهلاً بأميرِ البِحار، وإن يَكُن أَزعجني مِن مَرْقدي. وأطار سَكِينتي مِن يدي؛ فلو علمتُ بأنّك قريبٌ تُدْعَى فتُجِيب، ما عَرَّضْت نفسي لِهَوْل هذا المَقام، ولا بِعْتُ ذَهَب السُّكُوت بفضّة الكلام.

الشيخ: وأنا ـ يَشهد الله ـ ما علمتُ أنك تَنْطق سُدَى. ولا تَنْفُذ على العَوَاقِب المَدَى، وأنك كالطفل يَدعو أُمّه لِلغمَّة ولغير الغُمّة، ويُخرجها من الصلاة بأَدْمُعة المُسْتَهِلَّات. ثم ينصرْف عنها بعد ذلك لاهِياً. كأن لم يُجاذبها الثوبَ شاكِياً باكِياً، ما نقلتُ نحوك القَدَم. ولا حَفِلْتُ لك بِوُجود ولا عدم.

قلت: ما بال الشيخ يُبالغ في الكلام، ويَبْلُغ في المَلَام إلى الإِيلام، كأنه القَيصر وأنا قد مَزَّقْتُ مَنْشُور السَّلام، أو أنه أديسُون قد عَطَّله مَعْمَلُه لأَجلي بِضْعة أيام[1].

الشيخ: ويحك ياابن مصر، قد كان لي غِنًى عن أن أُعرِّفك مَن أنا، فأين من ذكرتَ، ممن ٱزْدَرَيتَ وٱحْتَقَرت. إن له مائة قَرن لا سَنة، لم يَحُزْ مَضجع، ولم تأخذه سِنَة. يَمُرُّ نَهارَه بالشواطىء مَرّاً. ويتعهدها بالليل بَرّاً فَبرّاً، يخْبُر أَحْوالَه جيرانُه، ويَنْظُر في أعماله سُكَّانه. يُوكِّل إحدى مُقْلَتيه بالبَرّ؛ ويَلحَظ بالأُخرى أحوال البَحْر. وما القَيصر بالآمِر القَويّ. ولا مَنْشُوره بالنَّافذ المَرْعِيّ، ما دامت هذه الأَعلام، تَخْفِق فوق هذي الجَواري المُنشآت في البَحر كالأَعلام، وما بَقِي هذا اللُّجّ يُرَجُ ويَرُجُّ، وما أقام هذا الساحل

(١) أديسون: أمريكي، وهو مخترع الآلات الكهربائية.

يُخْرِج نباته؛ ويَقُوت الأنامَ أقواتـه؛ وليس إديسون بـالقادر على كَهْـربائـه، ولا الآمِن فيها على أشيائه. ما دُمْتُ أنا الطريق، والقرار السَّحِيق؛ فوقي الأفلاك، وتحتي الأسـلاك، إن شِئت سَلَبْت؛ وإذا شئت أُوجدت، تيّـاري هـو الأعلى، ومـادّتي لا تَفْسُـد ولا تَبْلَى. هـذا مَن أَهَنْت، فمن أنت؛ يـا من فَخَـارُه بغيـر قومه. وآستشهاده بأَمْسِـه لا بِيَوْمـه، وليس هو في هـذه الهَيئة إلّا كـالمُحتفلين بمـوكب الرُّؤْيـة[1] يَبرز للنـاس في ثياب لم يَصنعهـا، وعلى مَطِيّـة لم يَبْتَعها. يَرْكَبها إلى أجل، ويردُّها على عَجل؛ ثم يَزْعم أنه السيّد الأَجَلّ. وأنـه يُحْسِن ضَرْب الأمثال، ويَزِن مقادير الرجال.

ثم أَمسـك الشيـخُ مُقْتَضبـاً، وراح عـابسـاً مُغْضَبـاً، فخشيت أن يَنقلب مُحْتَجباً، وما أخذت منه، ومـا أحفظ عنه؛ فجعلت اللِّين لي عـدَّة، أتَّقي بها ما في طِباعه مِن حِدّة. وأَسْتَدْفع ما في لَهجته من شِدة، فقلت:

مـاذا غَيَّر سيّـد البِحَار، على ولـده الـطائـع البـارّ. والخَبـرُ عنـه كـريمُ المَقالة. حَلِيم عن الجهالة، هـادٍ من الضَّلالـة، صَفُوح عن الـزلّات. يلتمس المَعْذِرات، ويتجاوز عن الهَفَوات.

الشيخ: قد كان ذلك، يا بُنَيّ، لما كان العَقلُ آيةً الناس، والإنصافُ سِمَة الكُـلّ في الأجناس. واليـومَ تَقع أمـورٌ أراها، ولا سُلطان لي على مَجـراها، تَكادُ تُفسد عليّ أخلاقي، ويكاد شَهِيدُها يَأْخُذني بِخِنَاقي؛ ومما يَـزيد البَلِّيـة، أنّني راعٍ مَسؤول عن الـرعيّـة، أُدَبِّـر الأَمْـرَ جَليلَه وحَقِيـرَه، ولا تَخفى عليّ صَغِيـرة ولا كَبيرة. كـأنّني من هذا البَحـر في فُلْك. أو كأني عبـد الحَميد في المُلْك[2].

قلت: لقد خُلِقْتَ، يا مولاي، عَدوّ البَطالة. أَجدها مُزْرية مُفْقِرة قَتَّالـة، وأَرى صاحبها مَيِّت الأحيـاء، لا جاه لـه وإن حكم في الأُمراء. ولا مـالَ وإن

---

(١) الرؤية: يعني رؤية هلال رمضان.
(٢) عبد الحميد: سلطان تركيا، وقد خلع عن عرشه.

آنتهى إليه الثَّراءَ، ولا عِلمَ وإن انْكَشف له الغَطاء، واطّلع على أسرار الأرض والسَّماء، وتعَلَّم أن أيّام الحَجْر طويلة[1]، وأنها شديدة على النَّفْس ثَقيلة؛ لا حول للمسافر فيها ولا حِيلة. فلو آسْتَصْحَبتني مَعك، أو أذنت لي أن أتبعك، لعلّي أرتفع بِخِدمتك، وأنتفع بِحِكمتك، فأقيم الدهر على شُكران نِعمتك.

الشيخ: على أن تَلزم الصَّبر. ولا تكون معي ما كان مُوسى مع الخِضر.

قلت: وأنت لا تَكُن معي ما كان ألنبي مع المِصْري[2]. قَريبَ الغَضب سَرِيعاً إلى الدم الزكّي.

فتبَسّم الشيخ ضاحِكاً ثم قال: الآن تظهر كأنك قادم على الكوثر. فإن لي رَعِيّة كاسِبة عاملة دائبة. أُشفق عليها من غُبار الكَسل؛ أن تَختنق به فتمتنع عن العمل؛ إذ سُرْعان ما يَدبّ دَبيبُه. ويُعْدِي مُكْرُوبُه. وتَتفاقم خُطوبه.

قلت: الأمر لِمولاي، فلينظر ماذا يأمر.

قال: كُن مع القَول بِشَبَحِكَ وجُثمانك؛ وكُن معي بفُؤادك ولسانك، وآنغمس في هذا الماء. ولْيَكُن رَأْسُك فيه ورِجْلاك إلى السماء.

قلت: أمَا للشَّيخ عَن هذا المُقْتَرح، فإنّه مَرْدُود مُطَّرح، إذ ما أنا من الأَسماك، ولا أظنّ بنفسي الرَّغْبة في الهلاك، خُصوصاً ونحنُ الآن نسير في لُجَّة أَزْمير، وهم يَقُولون إنّ الحِيتان فيها كثير، فلا آمن إحداها أن تَفْغَر فاهاً، فَتَلِتْقِم الهامَة وما تراها[3].

الشيخ: قالوا: إنَّ سُوء الظَّن من أقوى الفِطَن، لكنّه لا يكون في الكَبيرة والصَّغِيرة، ولا يُستعمل في المَواقف الخَطِيرة، فإنّه حينئذٍ يكون آفةَ الإقْدام،

---

(١) الحجر، يريد الحجر الصحي.

(٢) ألبني: معتمد بريطاني في مصر عرف عنه الشطط

(٣) أزمير: مرفأ تركي على بحر إيجه. وتصفر: تفتح، والهامة: الرأس.

وحَيْلُولةً دُون بُلوغ المَرَام[1]. وأنـا لا أَجد مـا يَحْمِلك عليه، ولا أرى من داعٍ يُلْجِئك إليه، ألم أَقُل لك إنِّي معك، أضرَّ نَفْسِي لأنفعـك، وأَعْصِمُك إلاّ من أمر الله. وأَقِيك إلاّ ما قَدَّره وقَضاه.

فقلت في نفسي: وما يُدْرِيني، أنّه قَدَرُ حَيْني[2]، لكنِّي لم أجـد بُدّاً من التَّسْليم والسُّكـوت. فَتَلَوْتُ ﴿وما تَـدْرِي نَفْسٌ بـأيِّ أَرْضٍ تمـوت﴾[3] أَبِقَـرَار البَحر، أم بِبَطْن الحُوت، ثم اَغْتَمضَت جُفوني من نَفسها، وتَجَرَّدت أعضـائي من حِسِّها، فسَقطتُ في الماء، كَمَن به إغْمـاء، وما هـو إلاّ أن فَتحتُ عَينيّ، أنـظر هـل فَـارَقتني نَفْسي أم نَفْسِي لَـدَيّ، حتى رأيتُ اللُّجَـج؛ تَنْفَتِـح لي فـأَلِج[4]، وأنـا أَنْفُذ التَّيَّـار، على القَـرَار[5]، فيَتَنَحَّى لي الصَّخْـر. وتُفْسِـح لي السِّباعَ في البَحر. إلى أن مَرَرْنا بِشَبح جُسَام مـائِل، كـأنه البُـرْج الهائـل، قد اَتّخـذت السَّمكُ فيـه البيوت، واَقْتَتلت على أطـرافه في طَلب القُـوت، وهـو يَتحـرّك ثَقِيلَ الحَـركات، شَبِيـهَ الكائن الحيّ ولا حيـاة، فعجبتُ ممّـا رأيتُ، والتفتُّ إلى الشَّيخ فسألت: لِمَن جُثَّةٌ بلا حَـرَاك، تَقتتل عليهـا الأَسماك؟ ومـا هذا الحَيوان؟ وما بالُه قد سَهُل عليه الهَوان، وهو لـو تقلَّب لَقَهر وتَغَلَّب، ولـو ضَرب بالذَّنب، لأَورد هذه العُصَبَ مَوارِدَ العَطَب؟

الشيخ: هَذِه، يا بُنيّ ،الحُوت الكَسْـلانة، تُصْبـح في الـذُّلّ وتُمسي في المَهانة، ما زال الكَسَل بها حتَّى أَكلت شَحْمَها. وتُـوشك أن تُلْحِقَ بـه لَحْمَها وعَظْمها، أتَتْنا فارّة مِن مِياه الصِّين، لِكَثْرة مـا تَختلف عليها السُّفين، في هـذا الحِين. وعَلِم الله لـولا أنهـا بَغِيضَـةٌ إلى الخـالق. وأنّ كـارِه السَّعْي يَكْـرَهـه الرَّازق. لأذقتها لِبَاس الأَمان. ولأَجَرتُها من هـذه الدِّيـدان، لكنّي أخاف على رَعِيّتي منها، فلا أُذُود جُنـودي عنها، ومـا هي بين حَيوان البَحـر، إلا كالصِّين

(١) حيلولة، أي حاجز، يقال حال بين الشيئين، حولاً وحيلولة، إذا حَجَزَ بينهما.
(٢) الحين: الهلاك.
(٣) لقمان: ٣٤.
(٤) ألج: أدخل.
(٥) أنفذ التيار: اجتاز وسطه، والقرار، أي القاع.

بين إنسـان البَرّ، ومـا أَصْدَق رُوشْفُـور حيثُ يقول: «لـو خَرَجت أُمـة الصِّين، وفي يَدِ كُل واحد منهم غَلَقٌ من طِين، لَرَدَمُوا أُوروبا والأُوروبيين»[1].

قلت: صَدق رُوشْفُور ومـا صَدق، إذ من أين صُنـع الغَلَق، لأُمَمٍ خَلق الله وما خَلق، كالنَّمل لكنّ النَّمْل تَحْسُب للغـد حِسابـه. وكالحَصَى ولكنّ في الحَصَى مُقَاوَمةً وصَلَابة، والعَصْرُ، يا مَوْلَاي، عَصْر عِلْم وعَمَل، وسَعْي وأَمَل، الأَمْرُ فيه للعُـدَد لا لِلْعَدَد، والنَّهيُ لِلْحَـديد لا لِلْبَـطل، لِدَمْـدَم ومَكْسِيم[2]، لا للجَيْش العَظِيم. والنَّصْر كمـا قال الـوزيرُ الأَلمـانيّ مَعْقُودٌ بِحِـذْق الكِيماويّ، والدُّنيا لمن غَلب، لا لمن طَلَب، والمُلْك بيـد الله، مَن شاء أَعـطى ومَن شاء سَلَب.

الشيخ: سُبحان ربِّي، قَتل اليأسُ الرِّجالَ. حتى بِيعوا بَيْعَ النِّعَـال، هذه يا بُنَي، مَعاذِير مكسال، وتَعِـلّات تنبـال[3]، وأَقـوالٌ يُراد بهـا الإضْلال. ويُهيب بأَمثالها الأطفال[4]، لا تَجْري بها الألفاظَ إلّا في بلادكم، ومـا أعظمَ مـا تَجْني عَوَاقِبُها على أولادكم، تَلِدُونهم لليأس، فيا شُؤْمَ ما تَلِدون، وتُنَشِّئُونَهم في خَوف الذُّلّ، فهُم في الذُّل خالِدُون. العَصْرُ، يا بُنيّ، إباءٌ واستعظام. ورُوح وإقدام، وحَرْبٌ خَلْفَ سِتَار السَّلَام، النَّصْرُ فيها لمن آسْتَقام، ثُمَّ سَعى لِيُـدْرِكَ المرام، عَصْرٌ نازلَ الهِرُّ فيه الأَسد، وبَرَز الأعْزَلُ الأَحَد، إلى العَدِيد والعَـدَد، وقاتلت الضَّفادعُ الحِيتان. وآصْطدم الفَخَّارُ بالصُّوّان. كل ذلك في سِنين مَعـدودات، وحِقَب مُتعـاقبات[5]. تَقـرؤون إجمالـه في التلغرافـات، وتجـدون تَفصِيله في الصُّحُف السيّارات. لكنّكم بإزائـه كالطِّفل تَشْجُوه الحِكَايات[6]. ولا يَهتدي

---

(١) روشفور: صحفي فرنسي، والغلق: وعاء مجدول من ألياف يحمل فيه التراب ونحوه، عامية.
(٢) ودمدم: قرية في البنغال ينسب إليها نوع من الـرصاص القـاتل، ومكسيم: أمـريكي ينسب إليه اختراع البندقية.
(٣) المكسال: الكسلان. والتنبال: المتواكل.
(٤) يهيب: يصيح.
(٥) حقب: جمع حقبة، بالكسر، وهي المدة لا وقت لها.
(٦) تشجوه: تشوقه.

لما فيها من الرُّمُوز والإشارات. أو كالمُقبِلين على سِيرة عَنْترة[1]، فريق يَنْتصر للتِّرنْسفال وفريق مع انكلتره[2]. إذا استقلّت اليُونان، قُلتم حَرَّرَتْها الدُّول ذاتُ الشأن. وإذا ذَهبت كريد قُلتم لأن أَهلها نَصارى[3]. ولأن لهم من المجموع الأوروبي أنصاراً، وإذا مَدّت إيرلندا إلى الله يداً قلتم لن تفلت من مخالب الأسد أبداً. وإذا استقلّت الترنسفال، في طلب الاستغلال[4]، قُلتم زَلَّة يأتيها الرَّئِيس. ولا كَزَلَّة إبليس. يَخْلِطون الجِدّ والمُجُون، ويَخْبِطون في الظُّنون. ناسِين أنفساً قُتِلت، وأموالاً بُذِلت، وطَمَأنينة سُلِبت، وخُطُوباً تَألَّبت، وحَوادث شَيَّبت، إلى أن ساعَفت المقاديرُ الآمِل. ووَضعت العناية يَدَها في يَدِ العامِل، فكم من ضَعِيفٍ كان الله نَصيره. وكم من فِئَة قليلة غَلَبت فئةً كَبِيرة.

قلت: لقد ذَكَّرْتَني القاهِرَة والأحاديث فيها. كأنك تَجلس على قَهاويها. وتَلْعب البُوكر في نواديها. فَخَلِّني بالله مما أنا فارٌّ منه، لو لم يَفتح الحديثُ بعضُه بعضاً ما سألتُك عنه. وكُنّا قد بَلغنا إلى القَرار فنظرت، وإذا أنا بملايين من السَّفين بين سافِلٍ وعال، وعاطِل وحال[5]. وجَدِيدٍ وبال. ومنها الفِخَام والضِّئَال. والخِفَاف والثِّقال. بعضُعها فَوق بعض، فالتفَتُّ إلى الشَّيخ وسألتُه لمن، يا مولاي، هذه الأَساطيل، إني إخالك المَلِكة وهذا هو اليُوبِيل. وما بالك تُبْلِي سَفِينة. وتُجِيز أُخرى على البِلَى. وتُعَطّل واحدة. وتُبْقي على أُختها الحِلَى.

الشيخ: تالله تَفتأ تضرب الأَمثال، وتَذْهب كُلَّ مَذْهب من الخَيال. هلاّ تَرَكْتَ المَلِكة ويُوبيلها، وبِحارَها وأَساطيلها. ونظرتَ إلى سُفُن الإسكندر. عِند جَوَارِي قَيْصر. يَلِيهِنّ أُسطول بُخْتنَصَّر[6]، فمُنْشآت

(١) عنترة: شاعر عربي، وله سيرة تقرأ.
(٢) الترنسفال: إقليم افريقي كان تحت النفوذ البريطاني.
(٣) كريد: إحدى جزر البحر المتوسط. وكانت تتبع تركيا.
(٤) ايرلندا: إحدى الجزر البريطانية. وكانت تسعى لاستقلالها عن بريطانيا، والأسد: يعني بريطانيا.
(٥) العاطل: من لا حلية له. والحال: من له حلية.
(٦) بختنصر: من ملوك الكلدانيين. وأغار على مصر وفتح أورشليم وأحرقها وأجلى أهل يهودا إلى بابل.

سُلَيمان[1]، مَشْحُونة باللُّؤلؤ والْمَـرجان. بَلِيت الجِبَـال، وفَنِيَت الأَجيال. وهي باقية لا تزال. تَضحك من غُرور الرجـال. وتَبكي من خَشية المَلِكِ المُتعـال. ما كان منها هالكاً فَبِـظُلم أهله. وما كان منها حافظاً لِشَكله. باقيـاً على أَصله. فآبنُ داود يَدل على فَضله. ويَشهد على الأَمد بِتَقواه وعَدْله. وها أنا أَعْرِضهـا عليك جَمعاء. لِتَخْتَـار منها مـا نَصْعَد عليـه إلى الماء. ونَـركب فيه إلى حيث نشاء.

فقلت: سُبْحانك اللهمَّ خَيْر المُنَعمين. مَن أنا حتى أَحْكُم في أَسـاطِيل الأَوّلين، وأرثي سُليمـان والإسكندر والمُلوك المُتقـدّمين. ثم حِرْتُ في نَفسي ماذا أختـار. وجَدِيـر أَنّني أَحـار. وخَشِيت إن أنـا قَبِلت السُّفـائن. عن ذات الكُنـوز والخزائن. والمَـرْأى الفـاتن. والـرُّواء الـزَّائن. وآتَّخـذتهـا يَخْتي في البَحر. كأني أَحَدُ ملوكِ العَصر. أن تُبْصِر بها غُولُ أُوربية، فتغتالها ولـو كانت أَبِيـة. فاقتـربتُ من فُلْك خَفِيف الوَزْن. قَلِيـل الشأن. ضـائِع بين السُّفن، ثم قلت للشيخ: قد آختـلات، يا مـولاي، هذه الجـارية، فهـل تراهـا كافية؟

الشيخ: تعالَيْ، يا بِلْفرون[2]، حَدِّثينا عن المَنْفى المَيْمُـون، ماذا كَشفت من حال. وعَلاَمَ هذا السؤال؟.

قلت: أخاف، يا مولاي، أن يَهتدي الإنكليـز إليها. أو يَـرانَا الفـرنسيون عليها، فتقوم قِيـامة الـدولتين بِسَببها. وتَجِـدُّ كِلْتا الأُمتين في طَلبهـا. ويُصْبح دِرِيفُوس[3] آثنين. وتُعَادفَشُـودة مَرّتين[4].

فضحك الشيخ من هـذه المُبالغة فى الحِذَار وقال: مَضَى، يا بُنَيّ، زمنٌ

---

(١) سليمان الحكيم، هو ابن داود، ملك اسرائيل وهو الذي بنى هيكل أورشليم ومباني أخرى.
(٢) بلفرون: اسم للسفينة التي حملت نابليون إلى منفاه.
(٣) دريفـوس: ضابط فـرنسي يهودي، اتهم بـالخيانـة وإفشاء أسـرار حربيـة وحوكم فحكم عليـه بالنفي إلى جزيرة نائية، وقد أثارت قضيته هذه ضجة كبيرة في فرنسا.
(٤) فشودة: أو فاشودة بلدة في السودان، كانت فيها بين الإنجليز والفرنسيين حـرب، انتهت بطرد الفرنسيين منها.

فيه تَنَصَّرت الأَشرافَ من أجلِ لَطمةٍ[1]، وقالت آمرأةٌ: وامعتصماه، فجمع المُعتصم بُهَمه. وأَضاق بها ذَرْعَ الأَرْضِ من أجل هذه الكَلِمة[2]، وأَثْخَنت الحربُ على بكر وجارتها، من أَجل عجوز وناقتها[3]. وتَفانت أَساطِيلُ الفرنسيّين والإنكليز، على عَهد لويز، من أجل سَفِينة لم تَرفع الأعلام، للتحيّة والسلام، ولم تُقابل رايةَ المَلِك بالإكرام[4].

وهذا، يا بُنَيّ، زَمنٌ تاجِر، لا يَهُمّه فَلَكٌ دائِر، ولا يهمّه مَلِك غابر، بابُ الحق فيه مُبْهَم، ودينار الشَّرف عند بَنِيه دِرْهم، فكأنهم القُرْصان، في كل مَكان، غَزْوُهم غارة، وحَرْبهم تِجارة، ورِبْحهم غير الأَصْفر الرنّان خَسارة، من آستند إليهم فقد آستنام إلى جدار مائل[5]، ومن آعْتمد دون النَّفس عليهم فما أَمِنَ الحَبائل[6]. ولا سَكن الرَّجاء إلاّ إلى ظل زائل، عَلّقتم بهم الآمال، آمالَ المُصاب بالسُّلاَل[7]، كلما أَعضل الداء، وعَزّ الدواء، جَذَبه الرَّجاء، وتمثّل له الشِّفاء. أُمراؤكم عليهم مُتهافتون؛ وسَرَاتُكم إليهم مُتلفِّتون، وشُبّانكم بهم مَفْتونون، يَحْرِمُ غَنِيُّكم فَقِيرَكم، وكان عليه أن يُعطيه بكلتا اليدين. ويَخْذُل كَبيرُكم صَغِيرَكم، ومُؤاساته عليه دَين، من مَشى منكم مع قُبَّعة فكأن أبا بكر معه[8]، ومن تَكلّم لهم بلسان، فكأنما جاء بقُرآن، ومن

---

(١) يشير إلى تنصر جبلة بن الأيهم ملك الشام بعد أن أسلم. حين لطم أعرابياً وطىء إزاره في الحج وأراد عمر أن يقتص منه.

(٢) المعتصم، هو أبو إسحاق محمد بن هارون الخليفة العباسي. والبهم: الشجعان، الذين لا يقوى عليهم، واحدهم: بهمة، بالضم. يشير إلى ما كان من أمر تلك المرأة المسلمة التي وقعت أسيرة في أيدي الفرنج، وبلغ المعتصم عنها أنها صاحت مستغيثة به. فهب لفك أسرها.

(٣) يشير إلى الحرب التي نشبت بين قبيلتي بكر وتغلب وظلت أعواماً بسبب ناقة كانت لعجوز آسمها البسوس من تغلب، رماها كليب، وهو رئيس بكر بسهم فقتلها.

(٤) يشير إلى الحرب التي وقعت بين لويس ملك فرنسا وانجلترا بسبب تراخي سفينة إنجليزية في رفع العلم تحية لأخرى فرنسية عليها الملك.

(٥) آستنام، أي ركن.

(٦) الحبائل: جمع حبالة، وهي الشرك.

(٧) السلال: السل.

(٨) قبعة: غطاء الرأس عند الإفرنج، ومع قبعة، أي مع رجل واضع على رأسه قبعة، وأبو بكر، هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول.

شاركهم مِنْكم في رياسة، زَعم الذُّلَّ من حُسن السياسة، وحَسِب احتمال الهَوان زيادةً في الكِيَاسة، فنَصِيبكم من مَعالي الأُمور. في نظر الجُمهور. ما لِمَوْتى البَطَارِقة فوق كراسيّهم في القُبور، وهيهات! تجرّدتم أُحياء من الرياسات، وما نَزل البطارقة عن عُروشهم وهُم أموات، فإن كان لكم عند القَوم جَزاء، فالسُّخرية والاستهزاء؛ أو مُكافأة، فالاحتِقار والمُجافاة، أو قِيمة معلومة، كقيمة الأَمة المَمْلوكة المَحْكومة، فآرْكَب، يا بُنّي، التي وَقع عليها آختيارُك، ولا تَخَف فأنت جارُ الله وأنا جارُك.

ثم أَوْمأ فأَغمضت الجفون، واحتوتني بلْفرون، فما آنتبهت إلا وقد صارت السُّفلى هي العُليا، ورَدّتني الآخرةُ إلى الدنيا، فقلتُ سبحانك اللهمَّ المُلك لك، ولا حولَ ولا قوّة إلا بك. أعطيت الشيخَ ما لم تُعْطِ سُليمان، ووَهبت لي ما لم تهب للهُدْهد في الزَّمانَ[1]، أين أَمْسِي من يومي، وهل نالها سِوَاي من قَوْمي.

وهنالك آلتفت الشيخُ إليّ. وقال: الآن يَقْتَرِحُ آبنُ مصر. وما عليه من إصر[2].

قلت: إنّ لي نفساً مُولعةً بالجديد، مُتطلِّعة إلى المَزِيد. من كل شيء مُفيد. وليست إسْبانيا بالقاصِية، فلو أَمر الشيخُ بالجارِية[3]، فجاءت ساحلَها راسية. لعلِّي أرى كيف نَقَضتها الحربُ من الأُسس. وآنظُر كيف لَحِقت إسبانيا بالأندلس.

قال: ما أَعْجَل المصريّ إلى تناول ما لا يُغْنيه. وما أَسْرَعه إلى الدخول فيما لا يَعْنِيه، يَستهزىء بالكَبيرة. ويهتزّ من الصغيرة. ويَذَر القُبّة. ويَبْتَدِر الحبّة[4]، ويُقدّم المُهِم على الأَهَمّ. ويَشتغل عن الأخصّ بالأعمّ، ولا يَنظر

(١) الهدهد: يعني الهدهد الذي جاء سليمان عليه السلام بخبر ملكة سبأ.
(٢) الإصر: الذنب.
(٣) الجارية: السفينة.
(٤) يبتدر: يعاجل.

إلى الحـريق في داره، وينظر إلى شُعـاع الشمس المُنعكس على الزجـاج في بَيت جـاره، ولا يهمُّـه الـدنيـا كيف زالت، ولا الحـال كيف حـالَت. ولا المَصـائب كيف آنهالت. ولا الخُـطوب كيف جلَّت وهـالت، ويَلْفِتـه ويَهُـزّه، ويُثيـره ويُفِزّه، خَبَـرٌ في رَوتر عن الـرَّئيس كُرُوجـر[1]، أو نَبـأٌ في هـافـاس عن القَضِيّة في فَرنسا[2]، أو الرّوسيـا في الصين. أو أمريكـا في فيليبين. فما لَـك ولأسبانيا تنظُر لحالها. ، وتهتم بمآلهـا. ولَست من رجالهـا. ولا لك عَيش في ظِلاَلها.

فقلت في نفسي: اللهمَّ صَبـراً جميلاً، وحِلْمـاً عَرِيضـاً طـويـلاً، فلئن دامت الحـال، على هـذا المِنـوال. فبيني وبين الشيـخ أخـذٌ ورَدّ. وخـلاف مُمتّد. وشِعب مُنْسَد[3].

ثم قلت للشيـخ: إن كان، يا مولاي، ولا بُـدّ فإنمـا المؤمنـون إخـوة. وإنمـا بعضُهم لبعض أُسوة. وللمُسلمين من إفريقيـا شمالُهـا، فلو أشهدتني الجـزائر كيف حالها. وأَرَيتني تُونسَ كيف آحتلالها. وخبرتني عن طَـرابلس ما مـآلها، ونبَّأتني عن مَرّاكش أيّان زوالها.

الشيـخ: هـذا أعجب من تلك، تكاد، وآيم الله، تَضحك منهـا الفُلْك، ويحك؟ متى آهتمّ غريقٌ بمُبْتلّ، أو سأل مَيْت عن مُعتلّ. وهل يُغني مَحـزون عن مَحزون، أم هل يُؤدِّي مُفْلِس عن مَـدْيون. فلا تُطَبِّب، يا بُنيّ، وآسْتَطِب[4]، وآبدأ بنفسك ثم بمن تُحب. وآعلم بـأنك إذا صَلَحْتَ صَلَحَتْ الأَقـوام، وإذا فَسـدت فالفَسـاد عامّ، وأن مَثـل الإسلام فيمـا يَنتابـه من المصـائب والآلام. ويَتوالى عليه من الخُطوب الجِسام. كمثَـل الجِسم في حالـة المرض، يَنْتفـع

---

(١) روتر: صحيفة انجليزية. وكروجر: زعيم أفارقة الجنوب في حرب البوير ضد بريطانيا.

(٢) هافاس: صحيفة فرنسية.

(٣) الشعب: انفراج بين جبلين.

(٤) تطبب: تداوي. واستطب: استشار الطبيب.

الجزءُ المُصاب بمقاومة سائِر الأجزاء. ويَسْتَمِدّ العُضْو السَّقِيم بما يكون من قُوّة في باقي الأعضاء.

قلت: صَدقت، يا مولاي، لو صادَفْتَ أُذُناً سامعة، لكنِّي من الذين يقولون بالجامعة[1].

الشيخ: أَغَير الكتاب جامعةٌ، يا بُني، أم دُون السُنَّة تَبْيين للرُّشْد من الغيّ، فإذا نَشأ صِغاركُم في حِفظِها؛ وآزْدَجَر كِبارُكم بِقَوارع وعَظْهِما[2]. ونَفَضْتُم الأَيدي من النِّفاق، وتحلَّيتم بمكارم الأخلاق، وسِرْتم على نَهج الأمة الغَرْبِيّة، في المُعاملات الأدبيّة، تعظِّمون الرَّجلَ العظيم. وتُكرمون المُحسن الكريم. وتَختصُّون المُسْتحقِّين بالتَّقديم. وتَحْقِرون عالماً لا يُبَرِّر أعماله. وتَنْبُذون غَنِيّاً يَحْبِس عن البِرِّ مالَه. وتَلعنون الحاكِمَ الكَسلان. كما تَلْعن الملائكةُ الشَّيطان. كُنتم أجْمع لِشَمْل الإسلام، في هذا المَقام، منكم في تلك الدَّعَاوَى والأَوْهَام. وإلا فمَثلُكم في حُبِّكم المُسلمين، ورقّتكم لإخوانكم في الدِّين.

كدَجاجَةٍ حَضَنت لأُخرى بَيْضَها تَحْنُو عليه وبَيْضُها في النَّارِ
أو ذاتِ عِجْلٍ أُرْضِعَت تِمْثَالَه وصَغِيرُها في قَبْضَة الجَزَّار[3]

وفي هذه الهُنَيهة مرَّت بنا بارِجَة. داخلة في الماء خارجة. كأنها حوت هائِجة. فلم أدر إلا بالشَّيخ قد خَفّ وآسْتَقْبلها. ثم قال يَدعو لها: يا يدِي كُوني زِمَامَها. ويا ريحُ، كوني وَرَاءها. ولا تكوني أَمامها. إنها رسولُ العَدالة في البِحَار. وسَفِير الحقّ العالي المُنَار.

فالتفتُّ إلى الشَّيخ وسألته: لمن، يا مَولاي، هذه الباخرة؟ وما يُعْطِفك على هذه المَاخِرة[4]؟

---

(١) الجامعة: الرابطة بين المسلمين عامة التي تمثلت أخيراً في الجامعة العربية.
(٢) القوارع: أي النواهي.
(٣) يشير إلى ما يفعل مع الجاموس ونحوها حين ينتزع منها رضيعها فيحشى جلد عجل تبناً ويقرب إليها لتدر عليه.
(٤) الماخرة: السفينة تشق الماء.

الشيخ: لأُمَّةٍ بالعَدْل قامت وبه تَقوم؛ ولا ينام لها مجموعٌ وبينها فَرْدٌ مَظلوم. ظَنَّت بقُضاتها الجَوْرَ في الحُكم، وآتَّهمتهم بالانحياز إلى الظُّلم، فآنْتَفضت نِسَاءً ورِجَالاً. وهَبَّت شيوخاً وأطفالاً. تَطْلُب إزالة الشكّ والأوهام. وتُريد أن يَتبيَّن النورُ من الظلام. وهذه السَّفينة تَنْقُل اليَهُودِيّ من مَنفاه[1]. إلى حَيث يُرفع عنه العِقَاب أو يُوفّاه.

قلت: لعلّك تُشير إلى القَضِية. وتَعني الأُمة الفرنسوية. فلا دَرَّ دَرُّ اليَهودي[2]. حتى في البَحْرِ له دَوِيّ. لكن ماذا آنْتفاعي بحديثه. وماذا يهمّني مَعْرِفةُ طَيِّبه من خَبِيثه، وأنت قد علَّمتني أنْ لا أُشتغل بالبَعِيد عن القَريب. ولا أنْصَرِف عن النَّسِيب إلى الغَريب. وأن لا أَدَع أمراً واقعاً وآخُذَ بآخرَ مرِيب.

فضَحِك الشيخُ من هذا الاستنكار، ثم قال: من عَلَّمَ المِصْرِيّ أَخْذَ الثأر. فلو أنك قَسَّمت الفُلْك. لِتعلم أنه لولا هذه ما كانت تلك. فهذه حَمَلَةُ طاغيةِ الزَّمان. ومُقَوّض العُروش ومُسْقِط التِّيجان[3]، وكان أقاربه يُطلقون الرَّصاص على الخواصّ. ثم لا يَلْقَوْنَ القَصَاص. كانوا يَنْفون الرِّجالَ المشاهير. بِمَرْأى من الجماهير. فلا يُمانعهم أحد. ولا تُغَلّ لهم يَد[4]. كانوا يُذِلّون من شاؤوا. ويُعِزّون كلما راحُوا وجاءوا. كانوا يَفُضّون المجالسَ النيابيّة. ويُديرون دُولاب الأَغراض بالدَّوائر القضائية. وبالجُملة كانوا يَحُولون بين الكتّاب والأَقلام. ويَجعلون أعواد المَنابر نُعوشاً للخُطباء العِظام. وتلك يا بُنيّ تَرُدّ إلى الأُمة من آتهمته بالجناية عليها. والإساءة بالخيانة إليها. وإطلاع العدوّ على ما لديها. وهي مع ذلك تَتطوّح في المهالك. وتَقتني عداوة الدُّول والممالك. لا من أجل دِريفوس. ولا حُبّاً بِشَخصه النَّحِيس. لكن في سبيل

---

(١) اليهودي، يعني دريفوس، وكان قد أعيدت محاكمته وبرِّىء.
(٢) لادرّ دره: دعا عليه بالضر، أي لا كثر دره، وهو اللبن التي تدره الحلوبة. ويعني باليهودي دريفوس.
(٣) يريد نابليون.
(٤) لا تغل: لا تقيد، بالبناء للمجهول فيهما.

آية يُجلُّـهـا الله ويُكْبِرها. ولا يَخْذُل أُمةً تَنصرها. وهي لا جِنَاية لمن لم تَثْبت جنايته.

ومَـا بين السَّفِينتين إلا جِيل. وهـو زَمن ليس بالـطويل. وأَمَـد في حياة الأُمم قليل. فانظر كيف بَلغ القومُ فيه أَوج العَلاء. وأصبحـوا عَرْشُهم كُـرْسِيّ القَضاء. وتاجُهم العـدالةُ الشَّمّـاء. وغيرُهم لا يَنفـكّ عَن حالاتـه. يُصبح في جهالاته. ويُمسي في ضلالاته. يَغدو بالنِّيـر مَسروراً. ويَـروح بالقَيْـد فَخُوراً. يَضع الخدَّ لِيَلْطُم. ويَبْـذُل النفس لِتُظْلَم. ويُسـامح في الحق أن يُهْضَم. ويَنِمّ على أخيه. ولو كُلِّف لَوَشَى بصاحبته وبَنِيه.

وكانت حِدّة الشَّيخ تَزداد. كلما تَدفَّق في الإيراد. حتى بلغ إلى الإرغاء والإزْبَاد. فأردتُ أن أُخْرِجَه من الكلام. وأن أُغيِّر من مَقام إلى مَقام، فقلت: أرى، يـامـولاي. ذاتَ شِـراع لهـا في المَـوج آنـدفـاع. وهي بين وُثُـوب وآسْتجماع. كشُرْب الطائر المُـرْتاع. أو كَنِفَـار الظَّبي في القـاع[١]. أو كخَيمة أَطارتها الرِّياح. فتقاذَفَتْها البِطاح[٢]. أو كلُجّة متطايرة الرَّشاش. تَنساب أحيانـاً وتنحاش. فماذا لديها؟ ومَن يا تَرى عَليها؟.

فلم يكن من الشيخ إلا أن رَفع يَمِينه. فآقتربت السَّفِينة. فأَشرفَتُ أَنْظُرُ مَن فيها. وأَطّلع على باديها وخافيها. فإذا أنا بأطفال قُعود، بينهم رجل قائم. يَسقي هذا ويُطعم الآخر، ويَسهر على ثالث نائم. وهو يَخْدُم إشـارةَ الجميع. كالعَبد الـوَفِيّ المُطيـع. ويَحْنُو عليهم حُنُـوَّ الوالـد الشَّيْخِ الكبيـر. على ولده الواحد الصغير.

فقلت للشيـخ: لعلهم، يا مـولاي، أبناءُ بعض الملوك. وهـذا الرجـل خادم لأبيهم أو مَملوك.

الشيخ: بل هم صِبية مِن بَني الإسلام. فُقراء مُنذ الـوِلادة أيتام. وهـذا

---

(١) القاع: الأرض المستوية المطمئنة.

(٢) البطاح: الأمكنة المتسعة يمر بها السيل، واحدتها: بطحاء.

قِسِّيس يُـؤْويهم. ويُـطعِمهم كمـا تـرى ويَسقيهم. قـد جمعهم من تُـونس والجزائر. وهـو بهم إلى بلاده سـائر. حتى إذا كَمُلت نشـأتُهم فيها. وأخـذوا العُلوم على مُعَلِّميها. كان لهم العُذْرَ أن يُحِبُّوا من البِلاد ما نَشَـأُوا لديـه. وأن لا يَعْرِفوا عن الدِّين إلا ما فَتحـوا العَيْنَ عليه. وكَم لهـذا من أمثال. يَجُـوبَون جبـالاً تَشْهد أنّهم الجِبـال. وبحـاراً شـاهـدةٌ أنهم الـرِّجـال. رِجـال العَـظائم والأهوال.

لقدرأيتَ، يا بُنّي، شيئاًوغابت عنك أشياء. ولم تَعلم إلا ظاهراً من أمر هؤلاء. إنهم هم الجُنود الفاتِحون. والسُّفراء الناجحون. والعُلمـاء العاملون. والأغنيـاء الباذلـون. ودَعائم السَّـلام في الأنام. وكُهُـوف الأرامـل ومَـلاجيء الأيتـام. عَهِـدتهم لا تَخْلو منهم في البَحــر سَفينـة. ولا تُقْفِـر منهم في البَرّ مدينة. ولولا أن المُسلم لا يُفارق دينه. ما تـركوا نفسـاً مُطمئـنة بدينهـا أمينة. والآن ألا أُطلعك على نُظرائهم من الفُقهاء. والسَّادة حَمَلة الدين الأجلّاء؟

قلت: بلى. ولِمَ لا؟.

فأمرني الشيـخُ أن أُغمض عيني، فامتثلتُ. ثم قـال: افتحهما ففعلتُ. فسألني: ماذا ترى؟ ولمن هذا الثَّرى؟.

قلت: أهلاً بالبلد الحَبيب. وألفَ سَلام، أيها الشاطىء الخَصيب. هذه الجَـزائر، فهـل أُوافِيها. ولـك الشَّنطة ومـا فيها. ومُـدّة الحَجْـر تَقْضِيهـا عنّي وتُوَفِّيها. فقد زُرْتُها مرةً في الدَّهر. وأقمتُ بها شَهراً أو بعضَ شَهر. فيـا طِيبَ ما بَلَوْتُ يومَ ذلك وناهِيك بِمآربَ قَضاها الشَّبابُ هنالك.

فلمـا رأى الشيـخُ أني أُودِّع الصَّبْـر. من طُـول بُـرْهـة الحَجْـر. وأُجُـود بـالقَطْر[1]. على البَحـر. تبسّم ضاحكـاً ثم قال: أراكَ مَلِلْت الغُـربة. وسَئِمت من الصُّحبـة. وأضاقَت ذرعَـك الأسفارُ. وغـالَبْتك البحـارُ على الاصـطبـار.

---

(١) القطر: أي الدمع.

واشتقت إلى الاستقرار لَدى الدار. والاقتصارَ على الجار. تَزور وتُزار. وتُنفق أيامَك القِصار. في جمع الأَحاديث والأسمار. وَيحك! هل العُمْر عُمْران. أم هل لِخَرَابِه عُمران؟

أم أنت تُحبّ أن تكون مثلَ هؤلاء. وأراني الشيخُ منزلاً على الماء. فيه ثلاثة من العُلماء. أحدُهم صاحب الدار. والآخران من الزُّوّار. وهم جُلوس في حُجرة. يَأْنَف الضَّبُّ أن يَتَّخذها حُجْرَة. قد سَمَج بناؤها، وآنْحطّ سماؤها. وفَسد هواؤها. وأَظلمت أرجاؤها. وخَلت من النِّظام أشياؤها. وخُلِعت النِّعال لدى الباب. ووُضع في الحُجرة نَحْو ألفُ كِتَاب. يَمرَحُ الفأرُ فيها ويَحْجُبها التُّراب. والقَوْم هناك قُعود. لكنّهم رُقود وسُجود. وما صَلّوا لِلمَلك المَعْبود. عُيونُهم في الأَرض من الإطراق. وتكاد رُؤوسهم تَسْقط من الأَعناق. وقد لَزِم البابَ فِتْيان. يَقُومون لصاحب الدار مَقام الغِلمان. وهذا يَجيء بِمَتْن ويَرْجِع بحاشِية[1]. وما يَحملها إلا كالماشية.

فالتفتُّ إلى الشيخ، وقلت: تالله لَمِيتَةٌ في قَرار الماء. خير من حَياة هؤلاء. هذا الفَضاء حَولهم فهلّا خَرجوا إليه. وهذا البَحر دُونهم فهلّا جَلسوا لديه. وما لهم ولِكَثرة الخدم. وقِيام الإنسان لهم على قدم. وهم العُلماء الأعلام. حملة آداب الإسلام.

الشيخ: لو أن هؤلاء خَدَمٌ كما ذكرت. لكان الشرُّ أهونَ ممّا قَدَّرت. لكنهم بَنُوه. وقَرَابَته وذَووه. فانظُر كيف يَسْتَخدمهم. ويتعلّم بهم ولا يُعلِّمهم. ويَحْرِم الدنيا منهم ويَحْرِمهم. ويُوجدهم الله وهو يعْدِمهم.

ثم انظر، يا بنيّ، إلى البَلوى كيف عَمّت. وإلى المَقادير كيف حُمّت[2]. وكلمةُ الله على الشّرق كيف تَمَّت. إني لأَقِيس هذا العالِم بذاك القِسّيس. فأحار في صُنع الله وحكمته. وأعجب من آختياره وقِسْمته. وأسائل نفسي

---

(١) المتن: ما في صلب الكتاب، والحاشية: ما جاء في حواشيه، أي أطرافه.
(٢) حُمّت: وقعت.

كيف يُرْزَق دين. ويُرْزأ دين. ويَمنح الله قوماً. ويَمنع آخرين. فلا يَستوي الرجلان، هذا ذِئب يَسْتَرِق الأُمم لِدَوْلته. ويُدْخِلهم في مِلّته. وهذا زاهد في الصَّيد. كأنه عَمْرو بن عُبَيد[1]. وقد تَقَيَّد ولا قَيْد. فلم يَرَ إلا زَيْداً ولم يَمْرُر إلا بِزَيْد[2]. شَغلته البَسْملة. بَسْملة القرآن. ووقف به العِلم حيثُ النملة. نَمْلة سُليمان[3]. فٱستوقف الإنس والجان. يُسائلهم، أمِن الإناث هي أم من الذُّكران. فسُبحان المُنعم وتَبارك الرحمن. خَلَق الإنسانَ علّمه البيان.

قُلت: إنّ لمولاي لَعُذْرا. أن يَضِيق بهذا ومِثله صَدْرا. على أنني أنظر الآن إلى مَشْهدٍ من الغَرابَة بمكان. فلو أَرْشدني الشيخُ إلى السَّبب. لعلّي أَخْرُج من العَجب.

الشيخ: إنما تَنظر إلى الرَّجُلين في العَمل. هذا في السَّهل وهذا في الجَبل. فأمَّا ربّ السَّهل فنائِم. في وَقْت الغَنائم. سالٍ سُلُوَّ البَهائم. تَراه على الفِطْرة لم يَتَحوَّل. كأنه الفلّاح الأول. أو قابِيلُ في زراعته. أو هابِيل في رعايته[4]. قد حَمّل دابَّته فوق الطاقة. وسامَها الأشغالَ الشاقَّة. يَقْتُلها وهي تُحييه. ويُجِيعَها وهي تُطعمه وتَسْقيه. حتى أصبحت أرضُه ياقوتةَ الجَدْب الصَّفراء. وحَقُّها أن تكونَ زُمرُّدة الخِصب الخَضراء. نباتُها من عندها لا من كَدْح اليد وكَدّها. وإثمارُها مِن نَفسها. لا من فِعل اليَد وغَرْسها. بحيث لو لم يكن هذا المَيْت رَجُلها. لأتتِ مِن نَفسها أُكُلَها.

وأما رَبُّ الجَبل فكَما تراه. لا يَنْقَبِض يداه. ولا تَسْكُنَ قَدماه. مُوكَّلاً بالذُّرِيّ يَطْلَعُه. والصَّخر يَقْطعه. والحَصى يُحْصِيه ويَجمعه. وفَضاء الأرض يَذْرعه ويَزْرعه. قد خَرق قُلَل الأَطْوَاد. وجَعل فيها التُّربة والسِّماد. كما تُملأُ السِّنَّ النَّخِرَة فتَصْلُح بعد فَساد. حتى أصبح الجَبل مُتنزَّهاً وجَنَّة. وقَريةً آمنة

(١) عمرو بن عبيد: معتزلي زاهد.
(٢) يشير إلى تردد آسم زيد في الاستشهاد النحوي.
(٣) يعني النملة التي حذرت النمل مِن وطء سليمان عليه السلام وجنوده.
(٤) قابيل وهابيل: ولدا آدم عليه السلام.

مُطمئنّة[1] الهُبوط منه مَيْسور. والصُّعود إليه مَقْدُور. والنَّعِيم كُلّ النعيم لديه مَوْفور. فمِن كَهْرُباء. يُراح عليها ويُجاء. وتَجْلِبِ للزَّرع الماء. وتُضيء منه الحَواشي والأثناء. فهي بالنَّهار سُخْرة وباللَّيلِ ضِيَاء[2]. ومن بُخار أراح الأنعام. وأقعد الإنسان وقام. تُغني الساعاتُ معه عن الأيام. ويَستوي عنده اليَد الناعمة والساعد العَبْل الجُسام[3]. ومن ماشيةٌ عني بها في التَّغذية. وبُولغ لها في التَّربية. ورُفِق بِها في الأشغال. وحِيلَ بين قواها وبين الأثقال. فبَلغ بها السِّمَن. وبَلغت من الثَّمن. فأصبحت مرجوةً النَّسل مع الزمن. وبالجُملة فلولا هذه العَين الراعية. والقَدَم الساعية. والهِمّة العالية. والعَزِيمة الماضِية. ولولا هذه الشِّمال الغارسة. واليَمِينُ الجانِية. ما نَبْت الشَّجر من الحَجَر. ولا جُني من الصَّخْر الثَّمر. ولما أُصبح لِلجَبل الفَضْل على السَّهل. وما الفَضْلُ في الحقيقة إلا للعَقل.

الرَّجُلان. يا بنيّ أخوان. يتجاوزان. منذ ستّين عاماً لَدى هذا المكان. هذا جَزْائريّ. وهذا فَرنسويّ. وفي الجزائر اليَوم منَ معامل الصّناعةِ لمن أراد أن يتعلّم. أو رَغِب في أن يُستخدم. ما لا يَنقطع تَشييده. ولا يُحْصَى عديده. ولا يُرَدّ مرِيدُه. وفيها من المدارس العالية. ما يُرَشّح للوظائف السامية. ويؤهِّل للمُحاماة والتَّطبيب في كُل ناحية. والشهادات التي تحصَّل منها. كشهادات باريز، أو تَقِلّ في النفقة عنها. يتخرّج فيها الفرنسويون، ويتربّى بها الطِّليانيون. والمالطيّون. والأهالي عنها عَمُون. وفي نَعْماء العِلْم والتَّربِية زاهِدون. قد رَضُوا لأنفسهم الهُوْن[4]. وقَنِعُوا من مَتاع هذه الدنيا بالدُّون. وأنا أرى هذه الأحوال وأُشاهدها. وأعانِي هذه الأُمور وأُكابدها. ساحلي مَعْرِض المُتعارضات. ومَجمع المُتناقضات. ومَجْلَى الآيات. ومرآة المُدهشات. هاهنا الظّلام. وهُنا النُّور التام. وأمامك الحياةُ والأملُ، والعلم

---

(١) الذرى: الذي بلغ الذروة علواً.

(٢) سخرة، أي يسخرها الإنسان في أمور شتى.

(٣) الجسام: العظيم الجسم واليدين.

(٤) الهون: الخزي.

والعَمَل. والمَمالك والدُّول. والمِثالُ الأعلى الأجلّ. لِتعاون الأُمم والمِلَل. ووَراءك الجَهل والكَسل. والعِثارَ والزَّلل. والخَطأ والخَلل. والتَّخاذُل والفَشَل. والأدواء والعِلَل. والتّحاسُد في ساعة حُلول الأجَل. فحيثُ التفتَّ رأيتَ النَّعيم ضافياً على أقوام. يُقابله عند آخرين الشَّقَاء العام.

وما كاد الشيخ ينتهي من المقال. وَيفرَغ من شَرح الحال. حتى جاءته سَمكة في لون المَرْجان. كأنها سَبّابة الإنسان. أو لِسان الميزان. أو عُقدة الشيطان. أو نَملة سُليمان. فسألها: ما وراءك يا دودة البحار؟ وما أزعجك عن مَثْواك بالقَرار.

قالت: جئت، يا مولاي، إليك، أُمثّل جاراتي لَديك. لِنَستجير بك من حُوت. دَهَمت البيوت، تُقلّبها عن القوت. فدمَّرتها تدميراً. وأكلت منا شيئاً كثيراً.

قال: هل تَركْتها تَفتك فيكُنّ. أم أخَذت الغَيْرة مِنْكُن. وأغنى الثبات بعض الشيء عَنكن؟

قالت: بلِ خلّفت قومي، يُدافعونها، دِفاع أهل الفُتُوَّة. ويُعدّون لها ما استطاعوا من قُوّة. حتى أُدموا لها عيناً وبَقِيت عَين. وغادَروا ذَنبها أثراً بعد عين.

قال: الآن استوجبتُنَّ عطف الله ورِقَّة القويّ. فلَتُنصرنّ على العدوّ والبغيّ.

ثم إنه التفت إليّ وقال: أما أنت فَلَك فلْكُك. ولي فُلْك. فلن تَشغلني عن إجراء العدل في المُلك، واعلم أنّ الليلة تَحتفل مملكة الماء. بِذِكرى الولادة الزَّهراء. ولادة أَشرف الأنبياء. فهل تريد أن تُشاطرنا الهناء. أم تُؤثر العودةَ إلى السفينة. وتَكتفي بما تَتّخذ المحروسة من زينة في مياه كَلازومينة[1]؟

---

(١) المحروسة: سفينة الخديوي عباس. وكلازومينة: القصر الذي كان له، وكان مطلاً على البحر.

قلت: فِداك أبي، إن المَحْرُوسة وصفا البحر لمولانا ولنا على مَمر الدهر. وإن ما ذكرتَ من آحتفال الدّأماء. واحتفال عالَم الماء. لمما لا يُدرك. فإن أُدرك. فمن الحق ألا يُترك. فكيف أكره أن أُوخذ إليه. أو أُوثر منظراً، ولو كان الجَنّة، عليه.

الشيخ: إذن، فإن الزينة لا يُشرع فيها. ولا تأخذُ زخْرُفَ مَجاليها. حتى يَعتلي القمر، ويبلغ في السُّمو المُستقر. فإذا سَفر. وأشرق وزَهر، ودخل في يَومه الثاني عشر. هَبطت بك بلفرون بعد صُعود. وهنالك أُطلعك على المَشهد المَوعود.

فلم أدرِ إلّا بالشَّيخ قد غاب. في أَلفاف العُبَاب[١]. والسَّمكةُ بين يَديه تَنْساب. كطَلِيعة لِشَرِيف الرِّكاب. فنظرتُ حولي وإذا أنا وَحدي في تلك كالمَنار. المُنَصَّب في البِحار. لا مِجذاف ولا بُخار. ولا مُؤْنِس إلا الأَلْطاف والأَسرار. ثم تَقَصَّيت النَّظَرَ، فبَدَا لي من جانِب الأُفق شَبَح أغَرّ. يَتلألأ كعَمُود الفَجر. فَحَقّقته فإذا هو صَفَاء البَحر[٢]. قد أَخذ زُخْرفه وازَّيّن. وتَجلّى في رُوَاءٍ ما أَحسن. تَلِيه المَحْرُوسة، مُنَوَّرة مَأْنوسة. يَوَدّها البحرُ عَروسة، وهي تَموج بأَبهى زِينة. كأنها في البَحر مَدِينة. فقلتُ في نفسي: هذا المَوْلِد السَّعيد. وتلك بَشائر العِيد. فكيف بها في عَالم الخَفاء. ولُجّة اللُّطف والبَهاء. وكان الغُروب. فتمثَّل، أيّها القارىء، اليَخْتَين وما يُجارهما من السُّفن في الحَجْر، لدى لُجةٍ تَملك أطرافَها جِبال. الجبالُ ذاتَ اليمين وذات الشِّمال. بعضُها ناهِض يُناغِي السماء. ومنها المُنْحِني على الماء. وغيره يُحْسَب من الأرض وهو صَخرة صَمّاء. حتى إذا وَفد الهِلَالُ على هالَة الجَلال والجَمَال. يَحْبُو به السُّرَى إلى الكمال. لم تَرَ العينُ أحسنَ منظراً من سَواد هذه الجبال. في بَياض الأُفق لِضَوْء البدر المُتعال:

---

(١) العباب: ارتفاع الماء واصطخابه.

(٢) صفاء البحر: سفينة أخرى كانت للخديوي عباس

فَـدَيْـنَـاه مــن زَائِـرٍ مُــرْتَــقَــبْ بَــدَا لـلوُجُــودِ بِـمَــرأىً عَـجَـب[1]

فبينما القمر يَتجلّى بجميع جمالـه. ويَتكمَّل قبـل أوان كَمالـه. ويُشارك الكـون في آحتفائـه وآحتفالـه. ويُوفّي المَـوْلد الأسنى حَقَّ إكبـاره وإجلالـه. مَضت بي الفُلْك مُضِيّاً. تَهْوي في المـاء هُوِيّـاً. لَدى لُـجّ كالعَـاج لو لَـطُف. والمَرْمَر لَـو شَفَّ. والبِلُّور لو خَفّ. وهي تَنْفُـذ من الماء. كمـا تَخترق الـطيرُ الهواء. ويَسْرِي شُعاع الشَّمس في الفَضاء. حتى هَبطت القَرَار. فألْقَت عَـصـا التَّسيار[2]. وهُنالك ضَحِك الشيخ إليّ. وأقبل من بين الصُّفوف عليّ. يَسحب المَـطَارِف والأَردان. كأنـه كِسْرى أنـو شِرْوان. مُقْبِـلاً من الإيـوان[3]. فبـدأتُ بـأذْيالـه فَلَثَمْتُها. ثم ثَنَّيتُ بِيـده فَقَبَّلْتُها. فـأعـرض كـالمُشْمَئِزّ. ثم نَفَـر كمن آسْتُفِـزّ. فـداخَلني من أَمــره العَجب. وسـألتُــه عن السَّبب، فقـال: إن في المجلس، يا بُني، من صحابة النَّبيّ، ومن آستشهد من بعـدهم من الذَّرَارِيّ، من كـانوا يَقولون، يا محمّد، في الخـطاب. ويَدعـون عُمَرَ، بيا آبن الخَطّاب. وأخاف أن تَغْرّهم هـذه الآداب. فيفْسدوا بعـد المَمات. وتَلْفِـظهم الجنةُ لَفْظَ النَّواة. فإذا جِئْتَهم فقل: السلام. ولا تَزِدْهم على تحية الإسلام.

ثم مشى الشيخ فتبعته، وهو يَلْوي بي على سُفن مَصْطَفَّة. عندها زُمَرُ مُلْتَفّـة[4]. بـالأعـلام مُحْتَفَّـة، وهي بَيْنهم مُجلوّة مُنْـزَفّـة[5]، يتعلّق بهـا الجَنِين والصَّبِيّ، واليافع والفتِيّ، والكَهْل القَوِيّ. والشيخُ المئينيّ، والكُلّ في الثياب الخُضر يرفلـون، وبِذِكْرى مَولد النبيّ يَحْتَفِلون. فقضيتُ العجبَ ممّـا رأيت، وهَمَسْت في أُذن الشيـخ فسـألت: مَـن هؤلاء الأقــوام؟ وفيمَ تَعلُّقهم بهــذه الأعلام؟

---

(١) هذا البيت من قصيدة لشوقي (انظر الديوان).

(٢) التسيار: السير. وألقت عصا التسيار، أي استقرت وسكنت، إذ السائر يعتمد في سيره على عصاه، فإذ وقف ألقاها.

(٣) المطارف: أردية من خز ذات أعلام، واحدها: مطرف، بالكسر وبالضم.

(٤) يلوي بي: يذهب بي.

(٥) مجلوّة: متجملة. ومنزفة: زفت كالعروس.

الشيخ: هؤلاء، يا بُنّي، شُهداء البحار. من الأُمم الإسلاميّة الكِبار. وجُلّهم من أبطال الحُروب الأندلسيّة. وجُنود فاتح القُسْطنطينية. ومنهم من عَرَّضه طلبُ العِلم للأخطار. فوقع في مَهاوِي الدَّمار. وآخَرونَ وَقف لهم الموتُ في سَبِيل الاستعمار. أولئك قومٌ جاهدوا في الله حَقَّ جهاده. وزَادُوا الإسلامَ عِمَاداً على عِمَاده. أَعْطَوا الأَجِنَّة، وأَخذوا الجَنّة. وقاتلوا الناس. ولو أَمرهم الله لقاتلوا الجِنّة[1]. فكم عَرُوسٍ زفّت إلى الله بَعلها. وذات حَمْلٍ قَرّبت لله حَمْلَها. وشَيْخٍ فانٍ كَبيرٍ جَادَ بالرَّمَق الأخِير. حتى أعزُّوا آيَةَ الإسلام بين الأنام. ورَفَعوا دَولتَه لأَسمى مَقام. إن شِئتَ دَعوتُ خَطِيبَهم ليُسْمِعك. لَعَلَّ بيانه أن يَنْفعك.

ثم أومأ الشيخ بالإصبع. ونادى فأسْمع: أيها الأَشباح الغالية. والأَرواح العالية. عُودي سيرَتك الأُولى. وأَشْهِدي المُسْلِمَ تلك اليدَ الطُولى. ولْيَقُم منك خَطِيبٌ يَعِظ الناس. ويَصف لنا تلك الشّدّة وذلك البأس.

فكان ما أَمر الشيخُ أن يكون. وخرجتْ الأشباحُ من السُّكون. فرأيتُ ما لم تَره عَيْنٌ. ولا سَمِعَت أُذن. رأيت أساطيلَ تَمُوج. كأنها البُروج[2]. قد ملأت البَحْرَ تَرْفَعُ شِرَاعَه. وتُخْرِج ثُغوره وقِلاَعَه. وهي بين غادٍ ورائح، وهاوٍ وطافح. وجانح جامح[3]. وهالك بَيْدَ أنه سابح. عليها المُقاتلة. من الجُنود الباسلة. والأُسود المُنَازلة. تُصِيبهم الجائِحات. وتَصُوبهم المَقْذُوفات[4]. فَتَزِيدهم من إقدام وثَبات. إذا بادت السُّفُن قاتلوا على الألواح. وتكاد الجُسوم تَسْبِق إلى الله الأرواح[5]. فَمَلكوا وصَالُوا. وعزُّوا وطالُوا[6]. ونالوا مِن

---

(١) الأجنة: جمع جنين، وهو الولد ما دام في الرحم، يعني الأولاد عامة، وهم أعز ما يملكون والجنة: بالكسر: الجان.
(٢) تموج: تضطرب. والبروج: الحصون، واحدها: برج، بالضم.
(٣) الهاوي: الساقط في الماء. والجانح: الذي مال إلى ناحية. والجامح: المتوقف عن السير.
(٤) الجانحات: المصائب. وتصوبهم: تصيبهم.
(٥) بادت: هلكت. والألواح: ألواح السفينة.
(٦) صالوا: سطوا ليقهروا: وطالوا: أفضلوا، وأنعموا.

مُلْك البَسيطة ما نالوا. وأنا أنْظُر إلى المَمالك كيف تُبْنَى. وإلى المَعالي كيف تُقْنَى. وإلى الدُّول كيف تُرفع. وإلى الأُمم بأي شيء تُخضع. فلا أرى إلا الإقدام. ما يَتفاوت به الأنام. ويتغلّب أُقوام على أقوام. فهو رأس أُموال الأُمم. وما سواه فَثَمرات تَأْتي على قَدْرِ الهِمَم. لا تَزال على الشَّعب المُقَدَّم. رَهْبَةُ المُنَوِّم[1]. ومَهابةُ المُعَلِّم. وتأبِّي الرَّائض المُطَاع. في نُفوس السِّباع[2]. تَظُن الوُحوشُ به القُوَّة. وتُطيعه الطاعةَ المَرْجُوّة. حتى إذا أَحجَم إحجامها. أو تَخبَّل مرةً أمامها. ذهب عنه المُلْكُ والسلطان. وافترس الحيوانُ الإنسان.

ثم أَقبل من الصفوف غُلام. كأنه البدرُ عند التَّمام. تَزْدَهي الجنةُ بشبابه. ويَقْتَبِس الأَبرارُ من آدابه. كالمُتَنَبِّي كِبْريَاء وعِزّة. وكالبُحْتُرِيّ إنشاداً وهِزة[3]. إذا قام تَلْتَفُّ المَجامع. وإذا قال آمتلأت خُروق المَسامع. فهلَّل وكَبَّر. وحَمد الله وشَكَر. وذكر صاحب المولد ما ذَكَر. ثم قال: كنا معشرَ الإسلام بالأندلس وثلاثةٌ تجمعنا: الدَّرس، والصلاة، والجهاد. بالدرس تتفتّح البصائر المُغلقة. وبالصَّلاة تَثْبُت الأفئدة القَلِقة. وبالجهاد تُجمع الكلمةُ المُتفرِّقة. وكان الأدبُ سِرَّ تَقدُّمنا، جُمِعت لنا فيه مكارمُ الأخلاق. وعُقِدَت من الفضائل حُبُك النِّطَاق[4]. يَتواضع منّا الكَبِير. ولا يَسْتكبر الصَّغير. ولا يطغى الأمير. كان آعتمادُ الواحد منّا على الله ثم على نفسه. ثم على أبناءِ جنسه. نَعتمد على الله فيما لا نَملِك من الأخذ، ولا نَقْدِر من الدَّفْع، فلا يجدنا الله إلّا شاكرين للنِّعمة. صابرين حالَ النِّقْمة. وعلى النَّفس فيما نَطْلُب مِن مَحْيَا. ونَخْطُب من دُنْيا[5]. ونَتَّسِع من رِزْق. ونُحاول من حَق: العَمل، قَبل الأَمل. والمَسْعَى قبل المَدْعَى. والعَزائم، قَبل العَظائم.

(١) المنوم: الذي يتسلط على من بيديه ويجعله ينام.

(٢) التأبي: الاستعصاء: والرائض: الذي يروض الحيوان ويذلله.

(٣) المتنبي: أحمد بن الحسين، شاعر حكيم طموح. والبحتري: الوليد بن عبيد: شاعر وصاف.

(٤) الحبك: جمع حباك، بكسر ففتح، وهو ما ثنى وخيط من أطراف الثوب. والنطاق: حزام يشد به الوسط.

(٥) المحيا: الحياة. والمدعى: الدعوة.

والأفعال، قبل الأَقوال. كُلُّ آخـذ بِعَمل هـو مُتْقِنُه. والله بـالنَّجاح يَقْـرِنه. مَن أصاب لم يقف به النَّجاح. ومَن خاب لم يُلْقِ السِّلاح. وعلى سائر المسلمين فيما لا يكون إلا بـالتَّعاون والتـآزُر. ولا يَتِمّ إلا بالتَّكـاتُف والتَّضافـر. مِنْ أَمْرٍ نَجمعـه. ومُلْكٍ نَرْفعـه. وجُرْمٍ نَمنعـه. وبَلاء نَـدْفَعُـه. وَحَقّ مَسْلوب نَسْتَـرِدّه ونَسْتَرْجِعه. فما زِلْنا بالمَجد المُؤَثَّل نَسعى له حتى آنفردنا بـالإنشاء، وأَعْجَـزنا في فنّ البناء. وبَثَثنا في الأَرض العُلماء. وشَيّدنا للإسلام دَولة عَرْضها الثَّـرى والسَّماء.

وبَينما الغُلام في الكَلام. أَشرق المكان. وتأَلّق البَحْـرُ وآزدان. فرَفَعتُ العَيْنَ مُنْـذَهِلاً. ثم نَـظرتُ مُتأمِّـلاً. وإذا أنا بِنَجَفـة . أَلْفِيّة مُـزَخْرفـة[1]. على العَـوالِم مُشْرِفـة. تَدَلَّى بهـا يَدُ ضَلفة[2]. لكنها مُـرْتَجفة. ثم إذا الـرِّياح تَخْفِق فيها. والعواصِف من كُل ناحية تُوَافِيها[3]. فلا تُطْفِىء لها قِنديلاً. ولا تُؤثِّر فيها فَتيلاً[4]. وحَوالَى هذا المِصْباح الأكبر. والسِّراج الأَنوار الأَزهر. بِضْعةُ مصابيح مُتَـوهِجة. لا يعـدِل مجموعُهـا من النَّجَفة مِسْـرَجةَ. وراء كُـل واحدٍ منهـا يـدٌ خَفِيّـة. تُدْنيـه من زُجاج الألفيّـة. ثم تُصدَم بـه صَـدمة قـويّـة. فيَنْصَـدع السِّـراجان كـلاهما. ومـا كان أَغنـاهما. فـوقفتُ وَقْفـة مَسْحُـور. تَلقـاء هـذه الأُمـور. وأنا أَلتمس الشَّيْـخَ بين الجُمهور. ولعلّه يكشـف لي المَستـور. عن سِرّ هذا المَنظور. وإذا به قد آقْتَرب منّي. ثم سأل: ما بال الفَتى يُفَتّش عني.

قلت: أُريد لأعلم ما هذه الأنوار. وما هذا المِصباح الزَّاري على ضَـوء النهار.

الشيخ: هذا يا بُنَيّ، نُور عُثمان[5]. ومِصْباح دَولتـه في كُلّ زمـان. وهو

---

(١) ألفية: فيها ألف مصباح.
(٢) كذا: يريد يداً قوية. يعني ذلك القضيب الذي تتفرع منه المصابيح.
(٣) توافيها: تجيئها.
(٤) الفتيل: الخيط الذي في شق النواة، وبه يضرب المثل في الشيء التافه.
(٥) عثمان: مؤسس الدولة العثمانية بأوروبا.

يُمثّل في المَقام. مكانَها من الإسلام. ويُظهر فَضْل القوم على سائـر الأقوام. وهـذه الرِّيـاح الضاغِـطة. والعَواصِف المُسَّـاقِطة. إنمـا هي عَـدَاوات الغَـرْب البيِّنات. وثاراتُ الصَّلِيب المُثَارات. وما تَـرى كُلَّ يـومٍ مِنْ تَعَصُّب المَمالـك والـدُّولات. لكن ذلـك لا يُنْقِصهـا من قُـوى الحيـاة، ولا يَغْلبهـا على الصبـر والثبات. إنما تُصيبها المصائب. وتَنتابها النَّوائب. من هذه المصابيح الرّديئة. في هذه الأيدي المُسيئة. وهي إنما تُمثِّل سائر الأقوام، ومَن في يَدَيه الـزِّمام. مِن أُمراء الإسلام. كـأن لم يَكْفِهم ما صَنعـوا بأنفسهم. ومـا جَرُّوا من البـلاء لأَبناء جِنسهم. حتى آشتغلوا من أمرها بما لا يملكون. وحاولُوا من مُلْكِها مـا لا يُـدْركون. هـذا يَنْأى بجـانبه عنهـا. وهذا يَنْفُض اليَـدين يَأْسـاً منها. وهـذا يَغُضّهـا بِقَلبه ولِسـانه[1]. وهـذا يَجْرَحهـا بسيفه وسنـانه. مختلِفين مُشتَّتين في الأرض. مُنْقَسمين بعضهم على بعض. يَنْسـون أنه لـولا هذه النَّجفـة. وهـذه اليدُ القويّة المُرْتجفة. ما وَجـدهم الوجـودُ إلا ضالِّين حَيـارَى. يَمْقُتُهم اليهود ويَمقتهم النصارَى[2].

وأخذ الاحتفالُ بعد ذلك مَأْخذ جِـدّه. وآتخذ الجـلالُ والجمال واسـطةَ عِقْده[3]. فجعل الشيخُ يُقدّمني لدى المَحْفِل. ويمْثُل بي في الجمع فـأَتمثَّل. وهو يُكثر من الإيماء. ويَذْكر من الأسماء، ما لا يُحيط به الإِحْصـاء. من كِبار قُوَّاد الإسلام. وساسَة دَوْلته العِظام. وعُلمائه الأعلام، ورُقَاة المَنابِر فيه وحَمَلة الأَقلام. فألفيتُ أَكثرهم من الأَتراك والأَعجـام. ولم أَرَ بَينهم مِصْريّـاً. رَفَعه الله مَقَاماً عَليّاً. فأَخذ مني العَجَب، وسألتُ الشيخَ عن السَّبب.

فقال: هؤلاء، يا بُني، هم الآحَاد. لا أُمّة إلَّا بهم ولا بِلَاد. حيثُ كانُـوا فـالحَقّ مُتَحقِّق. ونَهَار العِرْفان مُشْـرِق. ومَنَار الهُـدَى مُتأَلِّق. وغَيْث الـرَّحمة مُغْدَوْدِق. والله لا يَخْتص بهم بِلاداً دون بِلَاد. ولا يَهبهم لِفَريق دون آخـرَ من

---

(١) يغضها: ينقص من قدرها.
(٢) يشير إلى مكانة الدولة العثمانية وما كان من تفرق الدول العربية عنها.
(٣) واسطة العقد، هي اللؤلؤة الكبيرة التي تتوسط العقد.

العِبادَ. لكنكم تَقْتُلونهم أَجِنَّة في الأَرْحام. بِجَهْل الأُمهات الجَهْلَ التَّـامّ. فإنْ سَلِموا فسُوء التَّرْبِية لهم حِمَام[1]. فإنْ سَلِمُوا قَتَلهم الحَسَدُ العام، حَسَد الغَنِيِّ للفَقير. والكَبير للصَّغير. والآمِر للمأمور. والمَوْلى للأَجِيـر. فلم لا يَسْلُب الله من عُقَلائكم العُقُول. ولا تَقفُ لهم الشَّقَاوة في طَريق الـوُصول. أُنْظُر، يا بُنَيّ إلى أُمم العَصر. هل تَرى بلاداً مِثْلَ مِصر. عامَلت الغَرْبَ وعامَلها. وواصَلْتـه قَـرْناً كـامِلاً وواصلهـا. تَأْخُـذ مِن تَعاليمـه وآدابه. وتَشِبّ على الحَضـارة مِثْل شَبَابه. يَأْتيها منه الأَساتذة. ويُوَافيه منها التَّـلامذة. وتُنَـظِّم جُنودَهـا على مِثال جُنوده. وتَكاد تَجمـع في بُنودهـا أشكالَ بُنُـوده. وتَأخُـذ الأُوْبرا عنـه. وتَجْلِب المُمثِّلين منـه. وتَبني الكُلوب مِثْـلَ بنـائـه[2]. وتُنْشِيء السِّبَـاق مِثْـلَ إنشـائـه. وتُنَـافِسه في الإيتيكيت. وتُـزاحمه على البِسْكليت. وتَسْتَعمـل مِثْله السُّونيت. وتُوصل البُخار إلى المَطبخ والكَرار. وتُدخِل الكَهرباء. في الحباء. وتَسْتَعيض بـالصُّودة عن المـاء. وهي مـع كُـل هـذا الارتبـاط، والاختـلاط والاختبـاط. تَستحضر المِسْطَرة. من آنكلترة. والأَجندة من إيرلندا. والفُوتبول من لفربول. والإبرة من دُوفر. والدَّبُّوس من الإيْكُـوس. والتِّكَّة من سُـوريا. واللِّحـاف من تُركيا. يـا للعار. ثم يـا للعار. وقُبِّـح مِن عَيش مُستعار. أخفُّ منـه النار. أين الطَّبيب الذي آخترع عِلاجاً. أين الأُصوليّ الذي آشترع منهاجاً. أين الصـانع الـذي آمتاز. أين الكـاتب الذي آنفـرد بِطِراز. أين الخَـطِيب الـذي آسْتَنهضَ وآسْتَفَـزّ. أين القـائـد الذي حَمَى وأَعَـزّ. وآرتفع بـه اللِّواء وآهْتَـز. أين الاسم الذي سُجِّل في التاريخ. اللهمَّ إلا في صَحِيفة اللَّوم والتوبيخ. أين غِنيّ مُثْرٍ. أَطلق يَـده بالخَيـر. وأَرْصد مـالَه للبِـرّ. أين شاعِـرٌ مَدَح الكِـرام. وذَمّ اللِّئام. وفَضَح الظَّلام. ومَزَّق بنُور الحَقِيقة ظُلُمات الأَوهام.

وبينمـا الشيخُ في المَقـالة. يَـرْمِيني وقَـوْمي بـالجَهـالـة. والتَّمـادِي في الضَّلالة. مَرَّ بنا رجلٌ كالمَلاَك. في زيّ الدَّراويش الأَتراك. قد ضَحِك برأْسه

---

(١) الحمام: قضاء الموت وقدره.

(٢) الكلوب: يعني النادي، عامية.

المَشِيب. فزاد في منظره المَهِيب. ومَظْهره الرَّهِيب. فآستوقفه الشيخُ فوَقَف. ثم بَالغ له في التحيّة وتلطَّف. وقال له بعد ذلك وهو يُقَدِّمني لديه. ويَعْرض آسْمي عَليه. هذا آبنُ النِّيل. الشَّرِيف النَّبيل. الآخِذ بِنَصيب من مَدنيّة الجِيل. المتردِّد بين القُرآن والإنجيل. المُسْتذْرِي بظلّ المَلِكة الظَّليل[1]. المُرشَّح للاستقلال عمّا قليل. قد دعاني في الحَجْر، حين خانه الصَّبر. فلبَّيت نداءه. وآسْتَجْبت دُعاءه. وحَقَّقت رَجاءه. لا لأنه قُطب وأنا أكْرِمُ في الله أولياءه. لكني آنَسْتُ فيه الرَّغْبة في الصَّحبة. والاجْتهاد في الاسْترشاد. والوَفاء لِقَومه وبلاده. والإخلاص في مَحبة الله وعباده. أمّا الآن وقد آنقضت المُدّة. وزالت الشّدة. وأمست الفُلْكُ مُسْتعدة. فإنّي أتركه لك يا ابن العمّ، وأسألُك أن تُعْنَى بأمره وتَهْتَمّ. وأن تكون مُرْشِدَه الأمين. وصاحِبه المُعِين. وذُخْره الثَّمين. وراحَته وهناءه في جِوار أمير المؤمنين.

قال الدَّرْويش: سَمْعاً، يا مَولاي، وطاعة. فلأخدمنّه الخدْمة المُستطاعة. وأنت ألفَ سلام. يا ضَيف الإسلام. وجار النَّوال والإكرام.

وعندئذ آلتفت الشيخُ إليّ، وقال: هذا، يا بُنيّ، مَلِك البَرَّين. وأمير القارَّتين. وحامِي حِمَى الحَرَمين. ومِفْتاح الحَرْب والسَّلام. ومِيزان السِّياسة في الأنام. والعَلَم الباقي من الأعلام. والمَلاَذ الأوْحَد للمُسلمين والإسلام.

قلت: لعله البُوسفور، فلقد، والله عرفتُ يوسُف بِجَماله. وآسْتَدْللت على الشَّهر بِهلاله. وسَبَقْت إلى المَوْصُوف أوْصاف كَمَالِه. فأهلاً بآية الله المَشْهورة. ونِعْمَته المَشْكورة. وعَظَمته المَقْدُورة. وكَلِمته المَنْصُورة. ورُبُوعه المَعْمورة. جَعلني في ذَرَاها وظِلّها. وسيُوَفقني لأُؤدِّي شُكْرَ فَضْلِها.

وما هو إلا أن فَرَغت مِن قَولي حتى نَظرتُ حَوْلي. وإذا أنا على الباخرة. وهي بي وبالدَّرْويش ماخِرة. في اللّجَّة الزاخرة. تَؤُمّ بنا الجَنّة الفاخِرة. جَنة الدُّنيا والآخرة.

---

(١) استذرى بالشيء: استتر.

وكان الدرويش يَرْعاني بِعَين الحَكِيم. ويُراعيني وأنا أهيم. عالماً بأنَّ الطَّبِيعة قد شَغلت الشاعر. وهَيَّجت وَجْداً لهذا الخاطر. وأنّي إنما أَعْبُد الله. وأُمَجِّده فيما صَوَّره وَجَلاه. فتركني في فِكْري. ولم يُخْرِجني من سُكْري. حتى أخذت العينُ قِسْطَها من المُشاهدة. وبلّ صَدَى النَّفْس الواجدة. وآلتفتُّ فالتقت اللَّحظةُ باللَّحظة.

وسَبق الدرويش باللَّفظة. فقال: كيف تَرى هذه المناظر. وما أَثرها في الخاطر. إنّ الطَّبيعة الكُبْرى لَطِلْبَة آبن النِّيل[1]. وإن عَهده بها لَعَهْدٌ طَويل.

قلت: ولكن أيُريد الإنسان، كيما يَجلو آثارها. وأين فِكرته كيما يُذيع أسراها. وأين لسانه كيما يُحدِّثنا أخبارها. فإنّ من حق هذه الجواهر. أن يُصْنع منها القُرْطُ الفاخر. ويُصَاغ التاجُ الزاهر. وأن تُحْمَل في النُّحور والخَناصِر. لِتَزْدَاد قِيمةً على قِيمة. وتَظهر في الجِدّة وهي قديمة.

الدرويش: إنّ أصحابها أهلُ أَدب ولَطافة. فلا تزال أَيديهم عليها بالنَّظافة. وزيادة ما تَحْتمله الطَّبيعة من الإضافة. أُنْظُر إلى البَيت الفقير. بَجنب قَصر الأمير. هل تَراهما آختلفا في الرَّسم. أو تَفاوتا إلا في الحَجم. ظاهرهُما واحد في البَهجة والرُّواء. وباطنهُما في النَّظافة على حَدٍّ سَواء. على أنّهم أصحابُ الضَّفَّتين. ولهم وَحْدَهم جَنَى الجَنَّتين. ولَفَصٌّ في خزانةَ مَصُون. خَيْرٌ من عِقْد مَبِيع أو تاج مَرْهُون. فلا تَخْلِط أشياءك وأشيائي. وإيّاك أن تُفْسِد عليّ أبنائي.

فقلت في نفسي: مالي أَدخل فيما لا يَعنيني. فأَسمع ما لا يرضيني. وكان المُرْسَي آقترب. ودَخلت السَّفينة في قَرْن الذَّهب.

فالتفت الدَّرويش إليّ وقال: مالنا، يا أخي، للجمارك. وما تَقْتَضينا من زِحام ومَعارك. ووَقْفة بين آخذ وتارك. فإنّ جِئْتها بَعْدي وَحْدَك. ودُعِيتَ لِتُبْرِز

---

(١) الطلبة: المطلوب.

ما عنـدك. فلا تَلْقَ القومَ مُـرِيباً. ولا تَكُن عـدوّاً وكُن حَبِيباً. فـإنك واجِـدٌ من المُجاملة. ومَزِيد التلطُّف في المُعاملة. مـا تَذْكُـره في هذا البـاب. ولا تَنْساه لهذه الرِّحاب.

والآن هـل لك في طـريق غيـر طَـريق النـاس. ومـا عَليـك من بـأس. والمُرْوق من حيثُ لا يَمْرُق الطَّير[1]. وما عَليك ضَيْر. فلم أخْلُ من فَـرح. عند هذا المُقترح.

وقلتُ للدرويش: لَبَّيك. الأمْرُ لك وإليك. فلم أدْرِ إلا وأنا على جَنَاحِ مَلَك. وهو يَخِفّ بي في أثِير الفلك[2] حتى آقتربنا من بناء عال. بـادِي العِظَم والجَلال. مُشْرِف على سائر المَحالّ. إشْرَاف النَّفس على الآمال. فدَنـونا من ذِروة المَغْنَى. فكُنّـا قـابَ قـوسَيْن أو أدنى. وهنـالـك أحسستُ بـالجنـاحَيْن يَتثـاقـلان. ثم وجـدتُهمـا يَضـطربـان. كـأنهمـا في شَـرَكٍ يتخبّـطان. ورأيتُ الدَّروِيش يَسْبح في العَرَق. ويَنْتَفِض من الغَرَق. فأخذني القَلق. وخَشِيتِ أن أسْقُط منه في مَهْواة الأفق. فسألته: ما بالك تَضطرب آضـطراباً. ومـالي أراك وَجِلاً هيّاباً. وأنت قد أمَّنتني من أن أخاف. وزَعمت أنِّي في جَناح الألطاف؟

الدرويش: ما بِصـاحبك من خَـوف ولا رَهبة. إذ ليس لمَلَك أن يخشى إلّا ربّـه. وإنما كنت أُصلي لله في حَـرمه وحِمـاه. وأرجوه في بَيتـه وأخشـاه. وأستأذِنُه فيه هل أغشاه.

ثم أَشـار فهَبَطْنـا من قُبَّة لم يُشِدْ مِثْلَها شـائِد. ولا الـدَّهر بمثلهـا على النّاس عائد. وهي تُناغِي بهلالها السَّماء، وتَتهدّد بِخِنْجَره لَبَّات الجَوزاء[3].

فنظرتُ أتأمّل ما فيها. وأقلِّب الطَّرْفَ في نَواحيها. فوجدتُ ريحِ كَنِيسة قديمة. ورأيتُ آثارَ نَقوش رَمِيمـة. ثم نظرتُ دوني في فَضـائها الفَسَيـح. وأنا

(١) المروق: الخروج في سرعة.

(٢) يخف: يسرع. والأثير: سيال يملأ الفراغ. والفلك: المدار يسبح فيه الجرم السماوي.

(٣) خنجره، أي خنجر الهلال، يعني ذلك النصاب الرفيع في وسطه، واللبات: جمع لبـة، وهي موضع القِلادة من العنق. والجوزاء: برج من بروج السماء.

أتوهَّمه معبداً للسيِّد المَسِيح. فكان لي عجباً إن رأيتُ تحت القُبّة. مِحْراباً للصَّلاة ومِنْبَراً للخُطبة. وبِسَاطاً لسُجود المُوحِّدين. ومُصَلًّى للخُلفاء السَّلاطين. ودَراويشُ هنا وهُناك. ومُجاورين من الأتراك. وآمرأةً تصلِّي في ناحية. وأُخرى تقرأ القرآن في زاوية. وقد سَرَتْ جلالةُ المَعبود في المَعبد. فأَغْنَتْ عن صُورة مَنْقوشة، وتِمْثال مُشيَّد. فلم يَبق عِندي رَيْبٌ أنّ المكان مسجد. وكُنّا قد نزلنا نَمْشي على الحصير. لا على السُّنْدس والحرير. ونُلْوِي[1] على الآيات والسُّور[2]. لا على التماثيل والصُّور. ونَمِيل خاشِعين حيثُ تَعْنُو الوجوه وتَدِين الجِبَاه. وحيث تَضِجُّ الأفواهُ بأن لا إله إلا الله.

فقلت للدرويش: أمّا المسجد فَرَفِيع البُنيان. مُشَيَّد الأركان. ليس له في الإسلام ثان. فهلّا ملأتموه من الزَّخارف. وعَزَّزتم هذا التَّالِدَ من عِندكم بِطَارِف؟ إنّ عَهْدِي بالمَساجد الطاهرة في القاهرة. كأنها القُصُور العامرة. لِكَثرة ما فيها من الأمْتِعة الفاخرة. وهي وإن تَكُنْ بُيُوتَ الملك الديّان. تَختلف سعادةً وشقاءً كبُيوت بني الإنسان. فمنها الواسِع اليَسَار. الكثير العَقَار. المتقلِّب في صُنوف النِّعم. المُزْدَحِم بالخَدَم والحَشَم. الضافي السُّجوف والسَّتائر. من خالِص الحرائر. المَفْروش من المَقاصير إلى المَنَائِر. وبَعْضُها عُطْل قَفْر. من شِدّة الفَقْر. ومَسَاس الضُّرّ. يَشْتَهِي الحَصِير فلا يجده. ويَلْتَمِس السِّراج فلا تَناله يَده. فإنْ وَجَده لم يَجِد مَن يُوقِده.

الدرويش: ثلاثة، يابُني، عِظَمُها فيها، وجَلالها بالذَّات يَكْفيها. الموتُ ومشاهده. والعلم ومَوارده. والله ومَعابده. فالموتُ جِدٌّ لا لَعِبَ فيه. والعِلْم فَرْقَدُ نُوره الذاتيّ يُحَلِّيه. والعِبادة تَجرُّدٌ يأبَى الزُّخْرُفَ ويَنْفِيه. ولو أن للزُّخرف موضعاً في المساجد. أو للحَلْي مَحلّاً في المَعابد. لكان الأحقُّ بذلك. الأجدرُ بما هنالك. هذا البُنيان. الذي شُيِّدت فيه للإسلام أركان. وآل المَشرقان والمَغربان. إلى أعظم سُلطان. من آل عثمان.

---

(١) نلوي: نميل.

قلت: أفي أيا صُوفيا أنا. لقد تُوِّج الإسلَام هنا. وشُيِّدت لأول مَرة دولتُه. وآمتدت إلى الشَّرق والغَرب صَوْلَته. وطَلعتْ وهِلالُ العِزِّ على الخافِقَيْن رايته. وكأنّي بالفاتح وقد وَقف قَبْلَنا هذا الموقفَ، يأخذ الشَّرق باليمين والغرب بالشّمال. وتَمِيل الوجوهُ خاشعةً حيثُ مال. وأنَّى شاء نُصِب المِنبر ورُفع الهِلال. فأشرقت هذه الآفاقُ بِعَدْله. وشَهِد الأعداءُ، وسَيْفُه على رِقابهم بِفَضْله.

وبَشَّر النَّاقُوسُ بالمُسْلِم الـ ـعادِلِ مِن قَبْلُ بَشِيرُ الأَذَانِ

الدرويش:

ما هَيَّج البُسفور مِثْلك شاعِراً بَين الطَّبيعة فيه والتَّارِيخ

فجعلت شِعْرك فيهما ولَطَالَما قد كُنْتَ عَبْدَ المَدْح والتَّأريخ

فلما كشفتُ مُراد الدَّرويش من هذه الإشارة. وعرفتُ مَوْضِعَ اللَّوم من هذه العبارة. لم أجد بُدّاً من الامتثال. فأنشدته في الحال.

كنيسة صارت إلى مسجد هدية السّيِّد للسّيِّد[1]

فلما فرغتُ من الإنشاد، وآسْتَحسنه الدرويشُ وآسْتَجاد، وقال: ليس بعد الخُلفاء الراشدين أفضلُ من محمد الفاتح، وصلاح الدين، فأمّا الأيّوبي فدرْع الإسلام ووِقاه. وعَرِينُه وحِمَاه. وسَيْفه الذي آنْتضاه. فنجّاه من الغَمّ. وكَفاه البلاءَ الجَمّ. وجَعله مَهِيباً في ماضيه. رَهيباً في نُفوس أعاديه. وأمّا الفاتحُ فحياتُه المُنبعثة، ووجدانه المُتجدّد. وشَبابه العائد. ودولته الكُبرى، ولواؤه الأعلى، سَمَك بِنْيانه. وشَيَّد أركانه. وأعلى مكَانه. وأظهر عِزَّه وإمكانه. وأيَّد مُلكه وسلطانه. وكِلاَ المَلِكَيْن أبِيّ هَمّام. كَريم في الوَلاء والخِصَام. عَظيم في الحرب والسلام. رؤوف بِصُنوف الأنام. شَريف القناة عَفِيف الحُسام. وإني أعجب للكُتّاب الحاضرين. والشُّعراء المُعاصرين. كيفَ غَفَلُوا عن تجديد ذكرهما. وقَعَدوا عن تَأْييد فَخرهما. وفي ذلك ما يُوقِظ

(١) انظر الديوان.

راقِدَ الهِمَم. ويُحْيِي مَوَات هـذه الأُمم. ويَـدْعُـو إلى التعلُّق بِكَبِيـر الآمـال. ويَحْمِلُ على التَّشبُّه بِمَشاهير الرِّجال. حين نَرى غابِرَ المُلوك الغربِيِّين. ومَوْتَى الأَقيَـال الأُوروبيين[1]. مَذكـورين بكُلّ لِسـان. أحياءُ وإنْ مَضى بهم الـزَّمان. لِكَثرة ما شُحِنَت بأسمائهم الآثار. وآمتلأت مِن وقائعهم الأَشعار. وسَرت بهم الأحـاديثُ وسارت الأخبـار. هذا نـابليـون مَلِك مَلَك، ثم خـانـه الفَلَك، ثم هلك. وذِكْـرُه لا يزال يَـسيـر مَسِيرَ الشَّمْس والبَـدْر. ويَهُبّ هُبوب الـرِّيح في البَرّ والبحر. فما مِن غربيٍّ إلا ويَحفظ نادرةً عن نادر ذكائه. بَلْ ما مِن شَـرْقيٍّ إلا ويَرْوِي شيئاً عن مُـدْهِش إقدامـه وعَجِيب دَهائـه. يَسْتَوي في ذلـك النِّساء والرجال. ويَشترك فيه الشُّيوخُ والأطفال. وتَغْدُو عليه الأَعْصُر وتَروح الأَجيال. وليس الفَضلُ في بَعث هذا المَجد حَيّاً. وبَقائه بعد المَمات مِثالاً للأُمم عَلِيّاً. إلا لِقَوْمه الفَرنسويين. وبَني جِلْدته الشارِفين به المُتَفخِّرين. فإنك لا تَقرأ لهم جريدةً إلا وفيها نادرةً عنه جديدة. أو طُرفة من غَرائب سِيرته المَجِيـدة. وكلَّما نَفِد الوِطَاب. وأَظْمأت الكِتابةُ الكُتَّاب. وضعوا الغَـريب. وآختلقوا العَجيب. وأَدْخَلوا على الناس الأَكاذيب. أمّـا نحن ـ معاشـرَ المسلمين ـ فما زال تِسْعَـةُ أَعشارنا جاهلين. حتى عَرفنا غَليوم من صَلاح الدين.

قلت: لي، يا مولاي، أبياتُ قليلة، أصدرتُها لهذه الحـادثة الجليلة، فهـل لك في أشعاري الضئيلة؟

الدرويش: هات عَجِلاً، ولو مُرْتَجِلاً، فوالله ما تَجمّل تاريـخُ المُسلمين بمثلك، يا صلاح الدين.

فأنشدتُ في الحال، وأوردتُ هذا المَقال:

عَـظِيمُ النَّـاسِ مَنْ يَبْكي العِـظَامَـا وَيَنْـدُبُهم ولـو كـانُـوا عِـظَامـا[2]

ثم كـان مني آلتفاتٌ إلى النِّسـوة المُصلِّيـات. والأُخْـرَيـات التَّـاليـات.

---

(١) الأقيال، جمع قيل، وهو من دون الملك.

(٢) انظر الديوان.

فـرأيتُ لهنّ في الإسْفار. جَمَـالَ الأقمـار. في جَـلال الأَبـرار. أو هُنّ الحُـورُ العِينُ في هذه الدار. قد أخذتِ ما أُمرت به الشَّريعـةُ الطاهـرة. فلم تَبْدُ منهنّ إلا وُجوه ناضرة. إلى ربِّها ناظرة. ليس بِحُسْنهـا تَـطْرية. ولا بلَوْنها تـطلية[1]. تُنْبىء عن صحَّة كاملة. وقُوّةٍ للجسْم شاملة.

فلمَّـا فَـرَغْن من صَـلاتهنّ. وآنتهين من تِـلاوتهنّ. خَفَفْن للذِّهــاب. وآبْتَدرن الأَبْوَاب. فرأيتُ الرِّجـالَ يَتنحَّوْن حتى تَعْبـر النِّساء. وقـد مُلِئُوا وقـاراً كأنهم جُنْدٌ والمرأة بينهم لِوَاء. فعَلِمْت حينئـذ أنّ سِعَة الآداب، أغنت المـرأة العثمانِيّة عن ضِيق الحِجاب. وأنّ إغضاء الـرِّجال قـد ناب لهنّ عن النِّقـاب. فقلتُ في نفسي: يا عجباً! خَـرجتْ من الصَّدَف الجُمـانة. إلى أَصْـدافٍ من التَّكريم والصِّيانـة. وسُبحانـك ربي، جعلتَ مضارَّ الحِجَـاب في الآستـانة. مَنافَع في مِصْر الكِنانة.

وكـان الدّرويش يُصْغِي لي بفُؤاده. ويُنْفِـذُ الضَّمِيرَ على مُـراده. فالتفتَ إليّ يقـول: أهكذا عَهِـدْت بيوتَ الله في هـذا العَصر. وشَهِـدْتَ الكنائس في الغَرب والمساجد في مصر؟.

قلت: كـلَّا، بل عَهِـدْتُ الأُولى في أكثر البـلاد. لا يخـلو زُوّارهـا من غَوَايَة وفَساد. وإساءة إلى المَعبود والعِباد. ويَأْوِي إليها كُلُّ فاسِق النظر. ساعٍ لِمَوْعِدٍ مُنتظر. يَرْقُب مَن غاب ويُغازل مَن حضر. أمّا مِصـر فطالمـا جَنَت فيها المَـوَالد، على المَسـاجد. وضـاقت الزَّوايـا عن الخَبَـايـا. وانقلبت الخلوات فصارت للشهوات. وعُصي الله جهـرة في الحضرة. وأصبحت الـزيارة. حِيلة مُختـارة. وحُلَّة مُستعارة. وآفـةُ البُيـوت. تُـوهنهـا كـالعَنْكبـوت. فكم شِقَـاق أوجَبت. وطـلاق سَبَّبت. وفَضِيحـة جَلَبت. . جـارةٌ تَـدفـع جـارةً نحـو زَارٍ وزِيـارة. بِدَعٌ في مِصْـر شَتَّى. ما خَلت مِنهنّ حـارة. صَـدَق القـائِـلُ: مِصْـرُ للسَّخافات قَرارة.

---

(١) تطرية: أي تجميل بالعطور، والتطلية: التجميل بالدهون.

وبَينمـا المرأةُ تَـأْخُذ من قُـوت العِيال. مـا تُنْفِق في القُرْط والخَلْخـال. وتَقْتَصِد مِن خَمِيس الكُتّاب. ما تَنْثُره حُلًى على الثِّياب. ترى الـرجلَ يَتمسَّـح بـالباب. ويُقَبِّـل الأعتاب. ويَسْتلم الشُّبّـاك. ويَسْكُب دَمْعَ النُّسّـاك. ويَخْشَـع للوَلِيّ. لا لله العَلِيّ. ويُصَلِّي لحاجةٍ في النَّفْس. ويتـرك الصلوات الخمس. ولو كانت العامّة هي الْمَخصوصة بهـذا البَلاء. المَمْنُـوّة وحدَهـا بهذا الـداء. لخَفّ مَحْمَل هذه الداهية الدَّهْياء. ولقُلْنا نحن والناسُ في هـذا سَواء. لكنّهـا أمور. يُنْزَلُ إليها مِن شَاهِقة القُصور. ويُشْتَغَل بها في رَفيعـات الدُّور. وتَقْتُـل بِسُمِّها الفَرِيقَ المتوسط من الجُمهور. حتى لَترى الأفندي الـذي يَقْرأ المؤيَّـد والمُقَـطَّم[1]. ويَسْتَغـرِب مـا يُنْقَـل عن القـوم ويُتَـرْجم. ويَنْـدَهِش من أخبـار التِّـرنْسفال. ويَعجب كيف هَبَّت النِّسـاءُ للقِتال. ويُـدَافِعن عن أوطـانهنّ دِفـاعَ الرِّجال. لا يستحـي أن يَبعث بِطِفْله المُعتلّ. إلى أَقْـذَر مَحَلّ. ليقـرأ الشيخُ على رأسـه. فيَطْرُد الشيـطانَ بِبأْسـه. أو لِيَلْحَس عَمُوداً تَتَنـاوب عليه الشِّفـاه. وتَـزْدَحِم عليـه بلُعـابهـا الأفـواه. حتّى أَصبـح مـركبَـةَ القـاذُورات. ومَغْـرس المِكْرُوبات. ومُسْتَوْدَع العِلَل والآفات.

الدرويش: الآن عَرَفْتُ مِن أين مَـأْتَى الضَّرَر. وآسْتَـدْلَلْتُ على الحَرِيق بالشَّرر. فهلاّ أخذتُم من عواقبه الحَـذر. فسلَّطتم عليه مَـطَافىء الأقلام. قبـلَ أن يكون ضِرَام. ويكون وَقُودَه الجُثَثُ والهَام.

ثم غيَّـر الـدَّرويش، من كـلام إلى كـلام. فسـألني كيف رأيتَ رَفـع الحِجَاب. وهل تَعُدّه من الخطأ أم من الصَّواب؟

فهـالني هذا السؤال وأَشفقت منـه. وأَبيتُ باديءَ بَـدْء أن أُجيب عليـه. لِعِلْمي بمـا يَكُـون مِن عَـواقب الخَـوْض فيـه. والتعـرُّض لانتقـاد العـالِم المُتَجاهل، وتحامُل الجاهل السَّفيه، فأردت أن أُخدِّعه.

فقلت: لقـد أفادَتني تَجاربي القَلائـل. في هذه المسـألة التي هي من

(١) المؤيد والمقطم: جريدتان مصريتان ليس لهما وجود اليوم.

أكبر المَسائِل. أنّ للحجاب المَرفوع في الغَـرب مَضارًّ لا تُحْصَى. كمـا أن له مَنافع لا تُسْتَقْصى. فمن فوائده عِند القَوْم نِصْفُ السعادة التي هي فيها اليوم، فإنّ التِّجارة الصُّغرى، وهي أعظمُ موارد الثَّراء، لا يُدِيرُ دُولابها في فَرنسـا إلا النِّسـاء. فالمـرأةُ هي البقّال والعـطّار، والخبّاز والجـزّار، والفكهانيّ والـزهّـار والخُـرْدَجِيّ، حين الـرجـلُ يَشتغـل بتجـارة أُخـرى. أو يُمَـارس صنـاعـةً هي بآستعداده أَحْرَى. وبَدَهِيٌّ أن ذلك يُضاعف للعائلة مَوارد كسـبـها. ويَزيـدها ربّـاً على رَبِّها. ويُلْقِي بـالمَرأة في الجمعيَـة. ويَمُرّ بهـا على مدرسـة الحياة العَمَلِيّـة. فتتعلم كيف تُورد وتُصْـدِر. وتَقول وتُفكّـر. وتَقْتَصد وتُـدبِّـر. وكيف تَلْتَقِي السَّنَوات العِجَاف. إذا مات الزوجُ عنهـا وعن ذُرّية ضِعـاف. ولم يترك لهم من بَعده الكَفَاف.

ومن الأدلّة الجليّة. على صحّة هذه القضيّة. ما أُثبته الإحصاءُ على أثـر حادثة بَنَاما، من كون مُعظم الثَّروة، التي ألقاهـا الفرنسـويّون في تلك الهُـوّة، إنما هي ثَمَرات آقْتصاد الأَرامل. وجَني مَتاعِب هذا العُضو الحيّ العامل.

ومنها أنه يُوجد ببـاريز صُنـدوق للتَّوفيـر. تُشْرِف عليـه الحكومـةُ لِتَحْمِل الأَهالي على الاقتصاد والتَّدْبِير. ولا يـودع فيـه إلا المَبْلَغُ اليَسِير. ولا يُقْبَـل من ذلـك إلا ما خَـرج من جيـب الفَقِير. وهـذا الصُّنْدُوق يَسْتَغِـلُّ الانُ أربعة مِلْيَارات من الفَرَنْكات. تَؤُول بأَكْثر من النِّصف إلى الفَرنسويات الفَقيرات.

ومنها أن صناعة الزخرف، التي تكاد تَنفرد بها الأُمة الفرنسـاوية. والتي هي أكبر قوى حياتها التجـارية. تـرجع بمُعْـظمها إلى النسـاء. وتُقَوّم بـالذَّوق الحَسن من الحَسناء.

وبالجُملة فما أصدق من قال، يَصف منزلة المرأة من الأُمة الفرنسويـة: فرنسا الاقتصادية كائن كبير الحياة، جِسْمه الفلاّح ورُوحه المرأة.

على أنني أنا أتكلّم عَن بلاد جاورتها. وأُمـة خالـطتها وعـاشرتهـا. ولا أحسب الفــرنسـويين إلا كغيــرهم من الأَقـوام. ولا أظُن القِسْم إلا كســائـر

الأقسام. فما أوروبا إلا شَمل والحَضارة له التئام. ولا مَمالِكها إلا عِقْدٌ والمدنيَّة له نظام.

ومن فوائد الحجاب المَرْفوع. عند هذه الجُموع. بَقاء الصحّة على النِّساء. وتَمتُّعهن بالصِّحة الكافِلة للبَقاء. المُعِينة على الدَّفع والإيجاد والإنماء. إذ لا يَخفى أنّ الحركة تُنَشِّط الجِسم وتُوقِظه. وتُحدِّد قواه وتَحْفَظه. وتجعل المرأة بحيثُ إذا حَملت حَمَلت مُقْتَدِرة. وإذا وَضَعت وضَعت مُيَسَّرة. وإذا أَرضعت أرضعت مُشْبِعة مُرْوية. مُقوّمة مقوّية. فحياتها إذاً حياتان. والمسؤولية اثنتان.

ولا يَخفى أن مَسألة النسل وتَكثيره. وأَمر السَّهَر على حِفْظه وتدبيره. مما عُنِيت به شريعة الإسلام. واهتمّ به صاحبُها عليه الصلاةُ والسّلام. والإحصاء في مصر شاهدٌ عَدْل. ودَليلٌ فصل. على أنِ النَّسْل أَبرك في الأَرياف ونواحيها. منه في المَدائن الكُبرى وضَواحيها. وأنّ الموت أشدّ فَتْكاً بالأطفال في مِصر. منه في قُرى القُطر.

ولا يُمكن نِسْبَةُ ذلك إلا لاختلاف حُظوظ النساء. فيما يُباح لهنّ مِن نِعْمة الحَرَكة ويُتَاح من تناول الهَواء.

وأذكُر أنَّ حَكِيماً من الأطبّاء، النُّطْس الأذكياء. قال لي: أنه ما دُعي في مِصْر لمباشرة ولادة. إلا وَجد ريح الخَطَر وزِيَادة. وأَشْفق من النِّفاس وبَلاياه المُعتادة. وإنه لا يَنْسُب ذلك إلا لِحرمان النِّساء من الحركة، وسُكونهن إلى الأَجواء الرَّاكدة المُهلكة. فنشأ عن ذلك دَبِيبُ الضَّعْف في الجسم. وآسْتعداده بذلك للسَّقم. وانتشار أمراض الرَّحم في المُدن المصرية. إلى درجة بآندهاش الأطبّاء حَريّة.

قال الدرويش: حَسْبِي ما ذكرتَ من المَزايَا والفوائد. وبَيَّنت من الخَصائَص الفَرائد. فليس يَحتاج رَفْعُ الحِجاب إلى بُرْهان. بعدما تَكَفَّل بِسَعادة الأُمم وصِحّة الأَبدان. والآن ما هي المَضارّ. وماذا يَلحق منها بتلك الديار؟

قلت: منها، يا مولاي، أنه جهَنّم العائلات. وهادِم اللذّات. والمُفرّق بين الجماعات. فكم من نَـظْرَةٍ بَعثت من الزَّوْج الغَيْـرة. أو خَيّلت للمرأة أن لهـا ضَرّة. ولو كانت المَنْظُورة إليها شَريفة حُرَّة. فواهاً لهـا يومئـذ من جَمْرة تَهْـدِم معالمَ الراحة البَيْتِيّة. وتَحُلّ نِظَام السَّعـادة المنزليّـة. وتَجرح الشَّـرف الرفيـع بِغَير سَهْم. وتَجْعَل بين المرء وزَوجه مهـواةً من الوَهْم.

ومن لطيف ما سمعتُ في هذا المقام. أن أَحـدَ كبار الأُدبـاء والحُكّام. ذُكِر عنده تحريرُ المرأة. واستُنْزِل رأيه في هذا الشأْن. فقال: أما أنا فـلا أكون زوجاً وبُوليصاً في آن.

يريد ما أشرتُ إليه من دوام المُنازعات. وامتداد سَبب المُشاحنات. مـا دامت الغَيرة أمراً طبيعياً بين الأزواج والزوجات.

ومن مضارِّ رَفع الحجاب ونقائصه، التي هي آية على الإنسانية وعاب. تطاولُه على الآداب. وجنايته على الأنسـاب. وهذه المَضـرة بل المَعـرّة، إنما نشأت عن تجاوز حدّ الاعتدال. وتَغلُّب النِّساء على حِلْم الرِّجال. حتى تَكدّر صَفْوُه. وغام صَحْوُه. وأَصْبح الـرَّجُلْ عَبْـدَ زوجته، وأسيـرَ إشارة آمـرأته. إذا آرتاب بصاحبٍ طال آنتيابه[1]. وكَثُر جَيئُـه في البيت وذَهابـه. لم يَنْفَعه آرتيـابه. ولم يُغْلِق دونَ هـذا المُريب بـابه. وإلاّ عَـرَّض نَفْسه لتُهمـة القَذْف. ووَصْفـه الجـارات بأَقبـح الوَصْـف. فيُقـال عنه إفـريقيّ ويقال شَـرقيّ. ومعنـاه مُتَبَـربـر وَحْشي.

فانظر لحال الزوج المِسكين. وتأمّل في مَوقفه الحَرِج المهين.

قال الدرويش: ألا أدُلّـك على المرأة التي هي في وَسط من الأمـرين. والتي تَقِي نفسها وزوجها كلا الخطرين؟

قلت: ومن تلك الآخـذة بالقَصْـد المُعتدلـة. التي لا بالمـائِتة حيّـة ولا

(١) انتيابه، أي نزوله.

بالمُبتذلة؟ أتراها التي صلّت. ثم رتّلت. ثم تولّت؟

قال: والآن ستراها. وهي تَعمل لدُنياها. فإذا لَقِيتَها فلا تَدْنُ منها. وغُضَّ البَصر عنها. كذلك تَعوّدتُ الحَيَاء من الرِّجال. وعَهِدْتُ تَقْوى الله في الأبطال.

ثم مشى الدرويش، وأنا على أثره. أنظر ما سَيكون من خَبره. حتى خرجنا من باب المَسجد. وصَدَرنا عن ذلك المَوْرِد. فَجَعلَ يَنْتَقِل بِي من حارة إلى زُقاق. ويجتاز الشوارع ويَخْترق الأسواق. ويَنْتاب الأحياء شرقيّها والغربيّ. ويَغْشَى المَواطن أهْلِيّها والأجنبيّ. فكنتُ أرى نِسَاء التُرك مِن كَثَب. وأنْظُر إليهنّ في الحُجُب عن شأن عَجَب. إذ أُلفيتُهنّ جَمعاء مُتَجَلْبِبات. لكنّ منهنّ السافرات والمنتقبات. فمن سَفَرت فمِثْل سُفور الأَخَوات الرَّاهبات. لا تَبْدُو منها إلا محيَّاها. وإن كان ولا بُدّ فيدَاها. ومن ٱنْتقبت فبالسَّواد الشفَّاف الهافي. أو بالبَياض المُسْبَل الصافي. كما تَفعل المُنْتَقِبات من الإفرنجيّات. لا لِيَصنّ الوُجوه عن اللَّحظات. ولكن كي يَذُدْن عنها الأَتربة والحَشرات.

فعلمت من هذا الأَخذ والتَّرْك. أنّ النِّقاب عند نساء التُّرك. ليس بالضَّروريّ اللازم. ولا بالمَنْبُوذ المُحتَقر. ولا تَرْكه بالقاضي قاسم. ولا ٱستعماله بالقاضِي عُمر. حتى لقد تَتَّخذه الفَتاة الحَسناء. ولا يَسْتَحقُّ أن تَنْبُذه القَبِيحة الشَّمْطاء. إلا أنهن يُطوِّلن من الجِلباب. بِقَدْرِ ما يُقصّرن من النِّقاب. ويجْتنبن مُخالطة الرّجال التي يَنْعَدم معها الحِجاب. والتي هي بابُ النَّدامة في ذلك الكِتاب. فقد عَهِدْتهنّ لا يَقْتَصِرْن في مُعاملة الرجال. على تَرك الخُضوع في المَقال. لئلّا يُصيبهن ما أصاب مِن قَبْل الأَمثال. فيُحْسَبْن فَواجِرَ من لِينِ الكَلام. ويَصُدَّهُنّ عن الخَنا الإسلام. بل هن يُسْرِفْن للباعة في النَّهْر. ويُبالغن للتجّار في الزَّجر. ولا يَتَجاوزن في البَيع أو الشِّراء. حُدود الأَخذ والعطاء. فلا تُقَدَّم لإحداهن القَهْوة كأنها في قَهوة. ولا تَتَجمّد يداها

على الفِنجان. كأنها في مَخازن سَمْعان. ولا تُلْحِق الغَداة بالعشّية. كأنها في الجَوْهَرْجية.

فكنت أراهنّ يَمْرُرْن بالحوانيت مَرّاً، يأْخُذن زاداً ويُعْطِين وَفْراً[1]. مُحترمات عند الباعة. وَقِرات لدى الجماعة. سواء في ذلك حَرم الوزير. وامرأة الرَّجُل الفقير. لِمَا دانت النظافة بين الجميع. وسَوَّى حُسْنُ المَنْظر بين الرفيع والوضيع. وآحتشمت النساء. فتَشابهت الأزياء، وآمْتَنع باطِلُ الفَخْر والفَخْر. فتَشاكل الغِنَى والفقر. فكَما أنّ طبقات الرِّجال في الآستانة أَشْباه. ولمولانا السُّلطان وَحْدَه الذِّكْر والفَخْر والمَظهر والجَاه. كذلك النّساء لا تَفَاوَتُ أقادرُهنَّ. اللّهمَّ إلا في مَقرّ دارهنّ. بين الخَدَم والحشم. ولَدى مَعَالِي النَّسب والنِّعم. وأما في طُرقات الآستانة. فلا يُشار إلى راكبة أنّ هذه فلانة. ولو كانت سُلطانة. ولمّا كان لجوّ العاصمة بَغَتات. وكانت شَمسها شديدة الهاجِرات. آعتاد النّساء حَمْل المِظَلّات. ويُسمّيها بعضُهم بِعِصِّيْهن. اللاَّتي يتوكَّأن عليهن. ويَضْربن فَجَرة الأجانب بهنّ. وقد رأيت بعينيّ شيئاً من ذلك. وشَهِدْت ما جَرى هنالك. فقلت:

شَمسُ النَّهارِ وأُخْتُها ... في الأَرْضِ مِنْها مُسْتَظِلَّةْ
هَذي لَدَى أُفُق وذِي ... من أُفْقِ عِصْمَتها مُطِلَّه
رامَ الجَهُولُ نُزُولَها ... والجَهْلُ يَرْكَب ألفَ زَلَّه
فترفَّعت عَنه ولَمْ ... تُنْزِلْ عليه سِوى المِظَلَّه[2]

وكان الدرويشُ قد أمهلني بُرهة. كي أُمتّع البَصر والبَصِيرة من هذه النُّزهة. ولم يَسِرْ معي على نهج الأدلّاء. الذين يُحدثونك بكاذب الأنباء. ويشغلونك عن مسألة المعالِم والأشياء. بكثرة كلامهم الذي كلُّه تَلْفيق وآفتراء. فحين فرغتُ من النَّظر والاختبار. وبلغ بي التأمُّلُ والاعتبار. آبتدر خِطابي يقول: أرأيتَ ربَّة السُّوق كيف تَذُوق وتَدْرِي. وتُساوم وتَشْري.

---

(١) الوفر، يعني ما ادخره.
(٢) انظر الديوان.

وتَكْشِف وتُغطِّي. وتأخُذ وتُعْطي. كيلا تُطْعِم الزوج والأولاد. إلا ما صَلح من الغِـذاء وجاد. ففي خُـروجهـا إلى السـوق، وتَـدْقيقهـا الحسـاب وبَحثهـا عن الحقوق. فوائد آقتصاديّة جَمّة. ومَنافع تَدبيريّـة مُهمّة. يَعيش بفضلهـا الفَريقُ الفُقراء من الأُمة. وتَظل الطَّبقة المتوسِّطة، راضيةَ المَعِيشة مُغتبطة. فـإنّ قليل الفقير. في القليل كثير. ولا قِوام للطبقات الوُسْطى إلا بالتدبير. وهـذه المرأة إنما تَقتصد من الخـادم وأُجر خِـدْمته. وتَـأْمَن الخطَرَيْن من غَبـاوته وسَـرقته. وتُذيق البَيت من هذه الجهة راحةَ الخـاطر. وسَكِينـة السَّرائـر. وطِيبَ الرِّضـا بالخاطِـر. ومن جهة أُخـرى فإنهـا تهيِّيء لأولادها الغِـذاء. كما وَجب لا كمـا جـاء. وتَعتني بصحّة الجميـع من هذا السَّبب أشدَّ الاعتناء. هـذا وإنها تُعَلّم أولادهـا القراءةَ والكتـابةَ. وتُلقِّنهم منـذ الصِّغر الـدِّين وآدابه. فقـد علمتُ أنّ عائلة مصرية. نَزلت في الآستانة بأُخرى عُثمانيّة، فكانت الأُولى تستعير الثانيةَ طِفلةً في الثامنة من العُمر. تَستعين بها على مُراسلة مَن لها في مصر.

وهنا آقتضب الدَّرويش فسألني: الآن أسألـك رأيك في كتـاب، وضعه قاضٍ في مصر عَدوّ للحجاب[1]. ثم آحتجب كـالمُقصِّر في الـطِّلاب. أو غير الـراضي لكلمة قـالها أن تُعـاب، مع أن الله سُبحـانه وتعـالى طالمـا أُنْكِـرت كلماتُه. وعيبت رسالاته. وجُحدت آياتـه. وحلّ الأذى بـأنبيائـه ورُسله، وقُتل سُقـراط وألف سُقْراط من أجله[2]. وإن أحقَّ النـاس بالصَّبـر على أَذى الناس. وأَولاهـم أن يُجاهدوا جِهّادَ أُولي العَزم والبأس. أفراد ينتدبون القَلم[3]. لتَغْييـر مـا بنُفوس الأُمم. ويحـاولون الانحـراف بالـزُّمـر والأَخـلاط. عن صِـراط في الأَخلاق إلى صِراط. وليُخْرجوهم عن ظَلاَمٍ يَزعمونه. إلى نُور يتوهّمونه. إلا من رَشَـد من هؤلاء. وكـان في الحَقِيقـة تحت اللِّواء. ثم لم يَتقهقـر الـوَراء. فذلك هو الرجل الأَحد. العظيم على الأَمَد. الحيّ إلى الأبد.

---

(١) يشير إلى كتاب قاسم أمين في السفور.
(٢) سقراط: فيلسوف يوناني اضطهد في سبيل آرائه وحكم عليه بشرب السم في السجن.
(٣) ينتدبون: يدعون..

قلت: إن بعض الظنّ إثم، أو أنت عندك بالسَّرائـر عِلْم. إذ ما يُـدريك أنّ الرَّجل يَستعدُّ ليؤيِّد كلمة آقترحها. ويَسُدّ فتحةً فتحها.

فكانت حينئذ من الدَّرويش آبتسامة، ثم قال: أيّ مصريّ فَتح ثم سَدّ. وأيّكم الـذي طَلب ثم جَدّ. ومَن مِنكم الـذي بَلغ مِن عَمـل. إلى حيثُ يبلُغ بـالعاملين الأَمـل. وهل منكم مَن صَبـر على مَباديـه، صَبْرَ الحُـرّ على العيش الكَريه. إنّي أَراك تعمل لنفسك. من حيثُ تُمهِّد عُذْرَ آبن جِنْسك. فلا تُكْثِـر جِدَالي. وأَجِبْني عن سابق سُؤالي، فقد كشفتَ حالاً عن نِساء الأقوام. وعرفت اليـومَ مـا هي المـرأةُ في عـاصمـة الإسـلام. وأَصبحتَ عليـك في الحجـاب الحُكم وليس عليك الأَحكام.

قلت: إذن فالرأي عندي أنَّ مَثَل صاحب تحرير المرأة كمثَل من سَلَّط على الحريق المَهُول. خـراطيمَ من غاز البتـرول. يَحْسبه مـاء، وهو لا يـزيد النار إلا إذْكاء. أو هو فيما قَصَدتْ نِيَّاتُه الحسنةُ إليـه. ولَوت سـرائرهُ الـطاهرة عليه. يُريد لأُمتَّه المأخوذة بخِناقها. المُصـابة في أخـلاقها. أن تكـون حالُهـا كحال المرأة التي تقـولون عنها، معاشرَ التُّرك، في أمثـالكم: أرادت أن تُنَظِّف دُبُرها فلوّثت قُبُلها.

ثم آسْتَحـوذ عليّ الخجل، من إيـراد هـذا المثـل. فقلتُ للدرويش، عُذْراً، يا مولاي إذا قَدَّمت هذا المَثل. فإن الحقيقة ظاهرة فيه ظُهـور الشَّمس في الوحل.

قال: لا لنا ولا علينا. بِضَاعَتنا رُدّت إلينا. فـأَتمم الآن كلماتـك. وفرِّج عنا غُمَّاتك.

قلت: نحن اليوم غادُون على ثلاثة أَخـطار. أَيْسرُهـا عاقبـةُ أَسْبَقُها إلى الـدَّمـار. وكلُّهـا آتٍ لا ريبَ فيه. أو يَتدارك الله هذا الوطن بِتَنْبيه بَنِيه.

أوّلها آنحلال العائلة المصريّة. بجميع أحوالها المادية والأَدبية. فإنه لا يَمضي يومٌ إلا ويتحَادث القومُ عن ثَروة طـائلة أَهارهـا التَّغريـر. أو بَيْتٍ كريم

هَدمه التَّبْذِير[1]. أو شَـرف رَفيع آذاه الفَسـاد. أو نَسب شَريف دنَّسه الأولاد. فهل على الرِّجال من حجاب فتَنْحَصر فيه الأسباب. ويُقال هـو الجالبُ لكُـلِّ مُصاب.

على أنّ هذه المِحَن تَقع وتُعاد. وتَتوالى شَدائدُها على البلاد. والمـرأةُ لا تـزال بين التَّقنُّع والسُّفـور. نِصْفُها في الشـوارع ونِصْفٌ في الخُدور. وهي مـع ذلك تُشـارك زوجها في التَّـوقيع على الكِمبيـالات. وقد تَجعـل إمضاءهـا بإحدى اللُّغات. لِيعلم المُقْرِضُون أنها أشبه شيء بـالأوروبيَّـات. وتُعين زوجها أو أخاها أو أباها على التَّزوير في بَعض الحالات.

فـأيُّ يَدٍ هنا للجهل. حتى يُقال هو الأصـل. والمَعلوم أنه مـا مِن مُصيبة آنْفَـطر لها الفُؤاد. وتَفَتَّتت من وَقعهـا الأكباد. إلا تَـأَتَّت من بَنات البُيـوتـات. اللَّاتي تعلَّمن في المدارس صَغِيرات. وتهافتْن على أَسباب التمدُّن كَبِيـرات. كُـلُّ هذا وهنَّ لم يَنْزِعْن بعدُ النِّقـاب. ولـم يَرْفَعن البقيّـة الباقيـة من الحجاب. فكيف بهنّ إذا خَلَعن العِـذْار[2]. وركِبن البسكليت والدُّوكـار. وآعْتَدَن القهـوة والنّـادي والبار. أيُـرْجَى منهنّ يـومئـذ آعتـدال. أم هـل يَكُنّ أصلحَ حـالاً من الرجال؟ كـلا بل تكـون البليّة ثِنْتَين. وتكـون الفأس الهـادمة فَـأسين. ويكون البَلاء أَنزل. والخَراب أَعْجل. والفَساد أعمَّ وأَشمل. والأَمر يومئذ لله.

أمـا الخطر الثـاني فنتيجةُ الأوّل. خلاصته والمحصَّل. وذلـك أن الأَهليّ والأجنبيّ في مِصـر اليوم كـلاعبَي مَيْسرٍ مُستمـرَّيْن. لا يَتجـاوز المـال بينهمـا يدَيْن. كلتاهما لكلتيهما فرض عَيْن. فما تَفْقِـدُه إحداهمـا تَكْسِبُه الأُخـرى. وما كان رِبْحاً لهذه كان للثانيـة خُسْراً. ثم لا تلبثـان أن تَفترقـا. وقد آمتـلأت إحداهما من حيثُ تركت الأُخرى صِفْرا.

وإذا كان الواقع المُشاهَد أن الجِدّ والجَـدّ كليهما في جـانب الأجانب.

---

(١) أهارها: هدمها.

(٢) خلعن العذار: فعلن ما يستحى منه.

فقد أصبح من مَحْتوم العَواقب. أن يكون يومٌ آت. يَرث الأجنبيّ فيه الأحياء والأموات. ويَستأثر بأنقاض تلك البُيوتات. فَيُصبح وله النَّهْيَ والأمر. والجاه والوَفْر. والمحاسن الكُثْر. فإذا عُرِضَت عليه يومئذٍ النِّساء. ورُفِعت الحُجُب بين العَمَى والضِّياء.

فـوَيْـلٌ ثـم وَيْـلٌ ثم وَيْـلٌ   لقاضِي الأَرْض من قاضِي السَّمَاءِ

وليس الخطر الثالث إلا ثالثة الأثافي[1]. وهو كسابقَيه بالتأمُّل حَرِيّ. وذلك أنَّنا في بلاد يَحْكُم الأجنبيُّ فيها نَفْسَه بنفسه. ولا يُسامح أحدُ القَناصِل في أحدٍ من بني جِنْسه. وأنَّ بِجَنْب هذه الحكومة الدَّوليّة، حكومة الاحتلال الإنكليزيّة. التي هي أينما حلَّت. وفي حيثما احتلّت. تاجرٌ لا يَشغله إلا التجارة. ولا يُراقب إلا الرِّبح والخَسارة. فلا تهمها مَسائلُ الآداب، ولا تُبالي رُفِع الحجاب. أم تَمزَّق النِّقاب. ثم هي في أخلاقها أنّ الإنسان على نفسه بَصير. فحيثُ شاء لها كان المَصِير. فهَبْ أنّ الحِجاب قد ارتفع. وأن الاختلاط قد وقع. وأن ضَعف الرجال منّا أضاع النساء. وصارت الغَلبة في أمرها لمن هو الغالب في سائر الأشياء. فأصبحنا هذا يَبْكي أُخته. وهذا يَنْدُب زَوْجته. وهذا يُسائل الناس هل رأوا ابنته. وتوالَت المصائب. وانهالت النَّوائب. وأصبح قليلُ ما يَقع في أوروبا من الفَساد بالعقل. كثيراً في مصر بالغَفلة والخَوَر والجهل. فأيّ باب يومئذ نَطْرُق. وبأيّ ذَيْلٍ نتعلّق، أباب القُنصل، وهو لا تَستطيع الحكومةُ دُخولَه. أم ذَيْل الحُكومة. وهي بالشَّركات عنا مشغولة.

قال الدرويش: الآن أسألك عن التَّعليم. وما أُرْصِدَ له في ذلك السِّفر الكَريم. وأستخبرك كيف نزل الجهلُ بالمرأة في مصر. عن نظائرها المُتمدّنات من نساء القَصر. لعلّي أُخبرُ زَيْن المؤلِّف وشينه. وأسْبُر مَهواة ما بَينك وبينه.

---

(١) الأثافي، جمع أثفية، وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر، وثالثة الأثافي: حرف الجبل يجعل إلى جنبه أثفيتان، ويقال: رماه بثالثة الأثافي، أي داهية كالجبل.

قلت: معاذ الله، ما بيننا إلا عَهد كريم. وذِمامٌ مَرْعِيّ قديم. إذن ما أَثِم مَن آجتهد. ولا ظَلم من آنتقد. ولا صاحبي بالزَّريّ ولا أنا مَنْ يُزرِي بأحـد. لكنّي سئمتُ اقتراح المُقترحين في كل حين. ولَيْسُوا في كُـل شيء مُفْلِحين. لِنُزول أكثرهم عن المَرْكَب الوَسَط. وذهابهم كُلّ مَـذْهب من الشَّطَط. ومَيْلُهم في الأقـوال. عن سَعة الاعتـدال. إلى ضِيق الصَّعب والمُحال. فـإنّ الـرجـل الذي يُسَمِّر شبابيك الـدار. مخافـةَ أن تَسْمو إليهـا الأبصار. أو أن تَقـع عليها عينُ الجـار. ثم يَحْمي آمرأتـه أن تــزور وأن تُـزار. وأن تَخْـرُج في العـام إلا نَهاراً أو بعضَ نهار. إذا قيـل له: مـاذا عليك إذا اجتمـع في المَنزل رُفْقَتُـك. وكانت رَبَّة المجلس آمرأتك. لعلّها تَنتفع بمُحادثة هـذا العلِيم. أو تَقْتَبس من أدب ذاك الحَكيم، لا جَرم أنّ الرجـل يُصاب في قـرينـه. إن لم أقُـل يَخْرُج من دِينه. بخلاف مـا إذا قِيل لـه، أنت أيها الـرجلُ قليـلُ الثِّقة بمن هي أَولى الناسِ بثقتك. كثيرُ المِقَة لمن تُؤذَى طـولَ الحياة مِن مَقْتـك[1]. فهلّا أحسنتَ الظن. وأَخرجتها من هذا السِّجن. وقَنِعْت منها بالحِجـاب الشَّرعيّ. والحـال الطَّبيعيّ. تحتشم في الائتزار. وتختصـر من الازْدِيار. ولا يَجمعهـا والرِّجـالَ قَرار. فما هي بالأَمةِ الدَّنِيّة. ولا خُلِقت لتموت حَيّة. بل هي نَفْسٌ أعزُّ عليك من نَفْسك. تُشاركك في نَعِيمك وبُؤسك. من عُرْسك إلى رَمْسك. فما بالُهـا تَحرمها نسيمَ الحياة. وما حَـرَم الله منه الحشـرات. ولا حَبَسه عن السِّبـاع في الفَلَوات. فلعلَّ الرَّجـل يَقْتنع. أو عَسـاه يَنْخدع. لأنـه حينئذ يَـدْرُج على تَرك العادة، حتى يُغيِّر اعتقاده. إذا النَّصيحة المُعتدلة تُلين الفؤاد. وتتملَّك القِيَاد. وتُغلّب الطِّباع الشِّـداد. على النِّفار والعِنـاد. ومن نَظر في كتـاب الله المُبين. وهـو سُبحانـه وتعالى خيرُ القـائلين. وأَحكَم الحُكمـاء والمؤدّبين. وَجـد من القَـول الكَـرِيم. والتلطُّف في الارتيـاد والتَّعليم. والتـدرُّج في الـوصـول إلى التَّحـريم. وما يَقتـدي بمثله الوُعّـاظ والنُّصّـاح. وتَسْـرِي في ضَـوء مصبـاحـه العُقول الصِّحاح.

---

(١) المقة: الحب.

الـدرويش: وهـل في مصـر مَن تُسجن، العُمْرَ، ومن تَمـوت مئـاتٍ من الأيام ثم تبدو مرةً في كل عام.

قلت: أمَّا الشَّبابيك المُسَمَّرة. كأنها مَنافذ المَقْبرةُ. أو بَعض الغُرف في طُـرة[1]. فَشَيء حَقَّقْتُه بنفسي. وشَهِـدْته بعيني رَأْسي. ولم أَسمـع بمثل هـذه البَلِيّة. إلّا في بعض المدن الفـرنسيّة. حيثُ يحـرِّم البوليسُ بُيـوتَ الفَساد أن تَفْتح شَبابيكها على رُؤوس العِباد. مخـافةَ أن تُـطِل منها الجِيفـة. على الحُرّة العَفِيفة. أو أن تُسَوَّى الحُجرة المُدنَّسة بالحُجرة الشَّرِيفة.

فانظر، يا مولاي، كيف تَفـاوت البَشر بـالغرائـز والطَبـائـع. وتبـايَنُـوا في المَشارب والشرائع. حتى أصبح مـا يَجعل هنـاك تَضْيِيقاً وعِقَـاباً. يُسَمَّى هُنـا حِجاباً. ويُعتبر كمالاتٍ وآداباً. وأما التَّضْيِيق في الخُروج والدُّخـول. والقَضاء على نَجم المـرأة بالأُفـول[2]. فبَلَاءٌ مـع الأَسف واقع. ما لـه من دافِـع. لكن يُخَفِّف من وَقعه علينا. ويُقلِّل من مَصائبه لدينا. كونُه أصبح مُخْتَصّاً. بفريقَيْن من النـاس. مُنْحَصراً في جِنْسين من الأجنـاس. أولاد البلد الكُبراء. والسَّـادة العُلماء الأجلّاء. وقد يَتعدّاهما في الأَرياف إلى بُيوت العُمد والـوُجهاء. على أنّني لا أَنْسُب ذلـك إلى الجَهل. ولا أَحْمِلُه على قِلّة العقـل. ولكنهـا العـادةُ رَسخت أقدامُها. ونَفَذت أحكامُها. وآستبدّ بالعقول السليمة زمامُها.

ولولا أن الضَّرورة أشدُّ من العادة حُكْماً. وأنّ الفَقر أصمُّ على مـا خِلْت أَعْمى. ما سارت الدَّهماء في المدن والأرياف. إلّا على نَهـجِ مَن ذَكَرنـا من الأعيان والأشراف. ولما بالغوا في الحجاب للنّسـاء. ولو آستـطاعوا لَصعـدوا بهنّ إلى السماء. فإنّ العامة في مصـر أَشِدَّاء على أزواجهن. مِن شـدة الغَيرة عليهن. ومـا نَراه كـلَّ يـوم من ضَـربهم النسـاء. أو نَسمـع بـه من تَفنُّنهم في الإيـذاء. ليس إلا أَثَـراً من آثـار تلك العـادة. التي يُخْفِيهـا عنـدهم الشقـاء. وتُظهرها عند الآخرين السَّعادة.

---

(١) طرة، يريد سجن طرة.

(٢) الأفول: المغيب.

على أن من تـأمَّل في حـديث تاريـخ الأُمـة المصـريـة. وتَتبَّـع مجـرى أحـوالها الاجتمـاعية. حَكم لأول وَهْلة أنّ مَـرْجع الفَضـل في آرتفـاع المـرأة بعضَ المَنْزلة. وحُصولها على الحرية المُعتدلة. إنما هو للنِّسـاء العثمانيّـات. من تُـركيات أو جـركسيّات. أو كـريديّـات أو أُسيويّـات. فقد طـالمـا تَهـافت المصـريّون عليهن. وثَنُـوا آنْصبابهم إليهن، فهـذّبن الأَصل. وقَـوَّمن النَّسل. وزِدن البَيت من عِماد. وَوتَّدن العائلة بأَوتاد. وبَلَغن إلى حدٍّ تَبْـرَأ المرأةُ عنـده أن تُستزاد. إلا أن هذا العَدد قليلٌ لا يكفي للقُـدوة. ولا يَسير التَّقليـدُ معه إلا خُـطوة خُطوة. فليت صـاحب تَحريـر المـرأة لم يَخْلِط العُجْم والعُـرْب. ولم يَقْلِب الشَّرق والغَرب. بل نَظر إلى هذه الأُمة عن حَقيقة حالاتها. وهابهـا في أَخلاقها وعاداتها. فَسَلك سَواء الطريق. وأَغار فريقاً من الأُمة بفريق. وضَرب العُضْوَ مثلاً للعضـو. ثم دَعاه ليحـذُو الحَذْو. لعـلّ السَّاجن لـزوجته. الآخـذ بخِنَـاق امرأتـه. إذا عَرف أنّ نسـاءً غيـرهـا عُلِّمن فتعلَّمن. وأُكْـرمن فكَـرُمْن. وأَرْخى لهن الحِجـاب. فمـا آزْدَدْن إلاّ طهـارةَ ثِيـاب. وأُصبحن ريـاحينَ الأَزواج. وأَسبـاب الانشراح والابتهـاج. عَرف كيف يُمتّـع زوجته. ويَستمتـع بها. ويَثق بها ثقة تزيد في عَقلها وحُبها.

فخرج من هذا إلى أن التَّعليم كذلكمُبالَغ في أمره. وأن للأُمة عُذْرًا أَن تَرْمِي على المؤلف ما ورد في سِفره. إذ من الحقائق التي لا تَقْبل المِرَاء، إنه بقَدر الرّجال يكون النساء. وأنّ النِّسبة بين الرجل والمَرأة محفُوظـة. ودرجـة التفاوت بينهما في كـل زمان ومكـان ملحوظـة. فكما أن امـرأة المسيو ريبـو، الذي يَقضي نهاره في حَمل أعباء الـوزارة، فإذا جـاء الليل رأيتَـه على كُرْسِيّ التَّـدْريس في «الكوليـج دي فرانس»، يَخْلِبُ الألبـابَ بِسِحْر بَيـانـه. ويُفيض على العُقول من عُلوم زَمانه، لا يمكن أن تَزيـد معارفُهـا عن قراءة صحيحـة. وكتـابة فَصيحـة. والعِلْم بمبادىء العُلوم الضـروريّة. وقِسْط وافـر من الآداب الاجتماعية. مما يَرْجِع إلى الزَّوج أَثرُه. ويَنتهي إليه أكثرهُ.

كذلك الوزير الشرقي الذي لا يُحسن كتـابة كتـاب في لُغته. ولا يَـأخذ

من لُغة الأَجنبيّ غير ظاهر لَهْجته. ولا يَعرف من العُلوم فوق ما حَصّل منها في شَبيبته. لا يُحِلّ مُطالبة حُرمه أو بناته. بالتقدُّم عليه في مَعارفه ومعلوماته. بل مُسْتكره منهنّ قراءة القرآن. عن ظَهر القلب أو من طَرف اللسان. ومِقدار من اللغة الفرنسيّة يُمكّن من فهم الرومان[1]. فَهْمَ مَن لا مَعقول له ولا بَيان.

بِقَدْر الرِّجال تكون النساء، ونساؤنا، مَعْشَر المصريّين، على قدر أُبوّتهنّ وأخواتهنّ وبُعُولتهنّ.

فكما أن الأَب في البيت شَبَحُ إنسان. وجُثمان ولا وُجْدان. ضَجِر كسلان. يتلهّى بقَصّ أظافره. ويَلْتمس في الضَّجْعة الطَّويلة راحة خاطره. ولا يَقْرُب خِزانة كُتبه ودَفاتره. يَفوته المجدُ والفخر. ولا تَفوته نومةُ الظهر، ولا ركعة العصر. وهو والله لم يعرف التَّعب. ولم يَذُق في نهاره النَّصَب. فإن كان في وَظيفة فقد أَزاحه المُحتلّون عنها. وإن كان ذا أملاك فقد أَراحه المُستأجرون منها. عُلومه إلى نِسيان. وآدابه في نُقصان. وأحاديثُه فَوْضى. ومبادئه مَرْضى. وكُتبه للتَّجليد والزِّينة. وإن كانت ثَمينة. له في البَيت نَفخة البَوّ. وفي النَّظّارة طَأطأة الدَّلْو[2]. يَستكبر على صِغاره. ويَنأى بجانبه عن جاره. ويَحْتقر الناسَ والناسُ في آحتقاره. كذلك تَنشأ البنت في عَداوة العمل. ومحبَّة الكَسل. متقلِّبة الأهواء. مُتَلوّنة الأخلاق كتلوُّن الحِرْباء. إذا تعلَّمت ذَهب التعليم سُدًى. وإذا رُبِّيت لم تُفِدها التربية على الحياة هُدى.

وكما أن الأخ مَشغول بِلُعبه. مَشْغُوف بعُجْبه. ويَبحث عن أُحدث الأزياء ويتعلَّق بصغار الأشياء. ولا تَستقرُّ به برهة في مَدرسة. من السآمة والوَسوسة. فمن مارْسِلْ إلى كِليبير. إلى الجِزْويت إلى الفِرير[3]. ومن الفرنسويّة، وهي لسان الملوك والسلاطين. ولُغة القَصر بكُل بلاد وفي كُل

---

(١) الرومان، أو الرواية أو القصة.

(٢) البو: جلد الحيوان يحشى تبناً ويقرب من الحلوبة لتدر عليه، تحسبه رضيعها. والدلو: إناء يستقى به من البئر. والطأطأة: الخفض من الشأن. وكذا الدلو مخفوض شأنه.

(٣) هذه كلها أسماء مدارس أجنبية.

حين. إلى الإنجليزية التي هي المَحل الأَوّل. ولها في وظايف الحُكومة الشأن والمُستقبل. إلى أن تكون النّتيجة ضَياع اللُّغتين. كما ضاع من قبلُ لسانُ الوالدين.

كذلك البِنت تَشُبّ على مثال من أَخيها تَحتذيه. وأَثر من أحواله وأخلاقه تَقْتفيه، فإذا تعلّمت تعلّمت مُضطرة. وزارت كُل مدرسة مَرة. تَأْلَف العُجْب والاختيال. وتَعْتاد الكَسل والإِهمال. وتُعلّق بالصَّغائر الآمال. حتى إذا وَجب الزواج، وهي لم تَستعدّ له. ولم يَدخل هلالُها بعدُ في هذه المَنزلة. آقترن بها مَن عَقْله كعقلها، وأدبه كأدبها، ومَن طابقت حالته مُنذ النشأة حالَها. فلم تَكُ تَصْلُح إلا له، ولم يك يَصْلح إلا لها. أَخذها مُتعلِّمة قارئة. كاتِبة متكلِّمة. وأَخذتْه ليسانسييه. من إكس أو مُونبلييه. تَعرف الحِساب لكنها لا تجد ما تَحْسُبه. لأن رَب البيت يُنفق ما يَكْسِبه وفوق ما يَكْسِبه. وتتكلّم بالفرنسوية لكنها لا تجد مَن تكلّمه. لأن زوجها المُتمدّن في مكانٍ لا تَعلمه. وقد حَبَس عنها حقيقةَ الحُب وجلاله. وغادَرها تأخُذ من الروايات كَذِبَه وخياله.

وبالجُملة فالمتعلّمات في مِصر، ياموْلاي كثير. والتّعليم فيها للبنين والبنات غَزير. والنِّسبة بين الأزواج مَوْفُورة. والمَنزلة بين الرَّجل والمرأة. من كل طبقة مَقْدُورة. فالمُتعلِّم لَا يتزوّج إلامُتَعلِّمة. والمُظْلِم لا يتزوّج إلا مُظْلِمة. وقلَّ شاب. نَشأ في المعارف والآداب. إلا وآمرأته تُناسبه حَسَباً ونَسباً. وتُدانيه عَقْلاً وأدباً. إلا أنها حركةٌ تَقطع بالأُمة المَدَى. ثم لا تُبلّغها إلا المُبْتدا. ما دام البِناء على الماء. والتعلُّق بالهَباء. إذ الرجل والمرأة كلاهما في حاجة إلى أَساسَيْن عظيمين. وسببين وَثيقين. ليبلغا الشَّأْو المَطلوب. ويَحْصُلان من التعليم على النَّجاح المَرغوب. لُغة علميّة يجتمعان في التعلُّم لديها. وأَخلاق قوميّة يَرْجعان في التربية إليها. فإذا فاتنا هذا فات الأَمل. من كُل سَعي وعَمل. ولم نَكُن في نُهوضنا المَزْعوم. ورُقيّنا المَوْهوم. إلا كالطَّير آرتفع ثم وقع. أو كالدُّخان تعالَى ثم تبدَّد وانقطع. وقد أوشك إخواننا

السُّوريون يَجتازون العَقبة الأُولى. ويكون لهم في إذلالها اليدُ الطُّولى. فإن من عاشر شُبَّانهم، وخالط فِتْيانهم. بل إنّ مَن حادث أحداثهم وصِبيانهم، يندهش من تَساويهم في قِراءة اللُّغة صَحِيحة. وكتابتها فَصِيحة. والعِناية بها. والدَّأب في طلبها، والتهافت على دَرس قوافيها. والإعجاب بما يُغْرِب المُغْربون فيها. ولا جَرَم أن آنشغالهم بالعلوم العربيّة. وآجتهادهم في تحصيل الفنون الأدبيّة. مما يُلِين لهم أزمّة العُلوم الأُخرى. ويُدِين أعنة اللُّغات الكُبْرى. ويُبشِّرهم بمُستقبل مُحجَّل أغرّ.

الدرويش: نَنتهي من هذا إلى أنك مُعْجَب بالمرأة العثمانيّة. وأنك تَغْبِطها بلسان أُختها المصرية. وانك عَرفت في مصر آثارها. قبل أن أحدِّثك أخبارها. وأن ترى وطنها وتُزود ديارها. فأي بِرٍّ أنت به جازِيها. وهل لك أن تَقول شيئاً فيها؟.

فجعلتُ أَتنصَّل وأَعتذر. وأَتوارى وأَستتر. والدَّرويش يَقترح آقتراحاً، ويُلِحُّ إلحاحاً، حتى وَجد الامتثال. وحَقّ المقال. فقلت في الحال:

يا مَلِكاً تَعَبَّدَا   مُصَلِّياً مُوَحِّدا[1]

فلما فرغتُ من الإنشاد. أنشأ الدَّرويش ما أراد. قال: جزيت عن النِّساء خيرَ الجزاء؟ ولا أضاع الله أَجر الثناء. فهل من جديد تَرتاح الآن إليه. وتريد أن تطلع عليه؟

قلت: وَددْت لو جَمعتني ببعض رجال الأدب. من خاصّة الترك. لا مِن خاصة العرب. فما زالت القرائح مَرائي الأُمم والشعوب. وما آنفك الكُتّاب من الأَقوام بمنزلة النِّياط من القُلوب.

الدرويش: إني جامعك برجل كَبير الحياة الأدبية. جليل السِّيرة السياسية. مؤلّفاته عند قومه لا تُحصى. وآثار فَضله بينهم لا تُستقصى. حتى ليقولون عنه: إنه أول من علمنا القراءة والكتابة. وبَث فينا معارفه ونشر

---

(١) انظر الديوان.

آدابه. ولكن لا أَكْتُمك أنّهم بعد أن اشتدّت سواعدهم. انسحب من الميدان قائدهم، وأصبحوا يَنتقدونه بالحق. ولا يَرَونه قد بلغ من الشُّهرة ما يستحقُّ. فمَثله في نظرهم كالأساتذة. قد يَسبقهم التلامذة. وإن كانوا فحولاً جهابذة. فلا يَبقى إلا فَضْل التعليم. وحقُّ التربية القديم.

فذكَّرتني عبارة الدرويش هذه رجلين عظيمين. عزيزين على المصريّين كريمين؛ ألا وهما المرحوم رفاعة بك، أول من تَرجم ومن علَّم بالقلم. والمغفور له علي باشا مبارك، روض المعارف وظِلّها الوارف. ورافع لوائها. ومُلقي أساس بنائها. وإذ كُنت أحب العلماء المجدِّين. وأختصّ بالحُب العاملين منهم المُرشدين. سألت الدرويش[1].

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) عالم مصري، من أركان نهضة مصر في العصر الحديث، وعلي بن مبارك بن سليمان (١٨٩٣م) وزير مصري مؤرخ عالم. وإليه تنسبه منشآت كثيرة.

«١٣»

الكاظمي*

في هـذه الأيّام التي يَفِـدُ فيها على مِصْـرَ الكُبَراء والعُـظمـاء، من أَهـل الـذِّكْر السَّـائِر، والصِّيت الـطّائـر، بين الغـربيْين، يَجْمُـل بي أن أُجَـدّد على صَفحـات المؤيَّد ذِكْـرَ ضَيْف عَظِيم، ونَـزِيل كَـرِيم، يُجـاورنـا منـذُ عـامين، وتجمعه بنا جامعتان تَقْصُر دونهما جامعةُ الأوطان: الشرق، والإسلام.

قَدِم هذا الفاضلُ مِصْـرَ وكأنّـه آبنُ هانىء جـاء من بَغداد، إلى البـلاد، فَجعلها مَوْضِعَ الإنشاد، ومَلأها أدباً ثم عاد[1].

سَخَّـر الله لـه من المُؤيَّـد راوِيـة[2]، لم يُسخَّـر لشـاعـرٍ، في العُصـور الخالية، فما أَلْقَى عَصاه حتى أَخذت هذه الصحيفـةُ تجلو لنا شِعْـرَه، مَدِيحَـه وفَخْره سُلَافة وسِحْرَهُ[3]، فإذا نحن بحِكْمة أبي الـطَّيِّب[4]، وبالـوليد يَنْسُب[5]،

(*) الكـاظمي، نسبة إلى الكـاظمية ببغـداد، وهو عبـد المحسن بن محمـد بن علي بن محسن، شاعر فحل. كان يلقب بشاعر العرب. امتاز بارتجال القصـائد الـطويلة. كانت صلتـه بجمال الدين الأفغاني حين نزل العراق مما أثار شكوك الحكومة حوله، فطورد، وخـاف أن ينال منـه فترك العراق وأخذ يطوف البلاد العربية، ودخل مصر سنة (١٣١٦هـ) وحبب إليه المقام بهـا، فعاش بها إلى أن وافته منيته سنة (١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م).

(١) ابن هانىء: هو الحسن بن هانىء أبو نواس، شاعر العراق في عصره.

(٢) المؤيد: جريدة مصرية كان يصدرها علي يوسف.

(٣) السلاف: أفضل الخمر وأخلصها.

(٤) أبو الطيب: هو المتنبي أحمد بن الحسين الشاعر الحكيم.

(٥) الوليد، هو البحتري الوليد بن عبيد، شاعر وصّاف.

وابن أبي رَبيعـةَ يُشبِّب[1]، وابن زُرَيق يَشتاق[2] إلى الأهـل والبِلاد، ويَحِنّ إلى قَمَرٍ له في بغـداد، لَفْظٌ سَهـلْ، ومَعْنًى مُبْتكـر، وصَـوْغ كمـا تُصاغ الـدُّرر، وقَصـائـد لا يُمَـلُّ منهـا طُـول، ولا يُغْفَـر لقـائلهـا قِصَـر، وآرتجـال في بَعض الأحايين، يُدْني الشاعِرَ إلى جَيِّد الشِّعْر، ولا يَنْزِل به إلى رَدِيئه.

وبالجُملة فقد طـالما سمِعتُ بـالشَّاعِـر المَطبـوع فلما قـرأتُ شِعْرَ هـذا الأديب آنْطبعت صورتُه فيه لِعَيْنِي، وتمثَّلت في خاطري.

عـرفتُ الرجـل فيمن عَرَفـه، فوجـدتُه شـاعراً أديبـاً، يَفيض شِعْرُه رِقَّـة وتَهْذِيباً، وصَدِيقاً تَدُوم مَودّته، وجَلِيساً لا يُمَلُّ حَدِيثُه، ورَاوِيةً لم أَرَ أحسنَ منه آختياراً، ولا أشـدَّ منه غَيْرَةً على أَشيـاء الغَيْر، ورَجُـلاً كَثِيرَ التجـارب، طويـل الأسفار، إذا وَصف لك البلدان، وَرَدَ بك مِصْر، وصَدَر عن مِصْر.

أمَّـا مثل سُلْطان الشِّعـر على هذا الشـاعر، فـإني ما سَمِعْت ولا رأيت، فهو كما يتمثّله أصدقاؤه من قُرّاء هذه السُّـطور، نَظْرتـه شِعْر، ومَنْـطِقه شعـر، وجَلْسته شعر، وضحِكَتــه شِعْر، ومشْيَتـه شعر، وهـو في كُل ذلـك يُحبِّب إلى النَّفس الشّعر.

وناهيك بروح الشاعر إذا لَطُفت، ونَفْسُ الأَديب إذا خَفَتت، تَـدفعه إلى الإنشاء، فيُغْضِي حياء، ويَنكمش في ثيابه، حتى إذا آندفع تَغَنَّى على طَـريقة أهـل تلك البلاد في الإنشـاد، لكُل وَزن عِنـده مَقام، ولكُـلْ بـابٍ من أبـواب الشعر نَغمة، ولكُلْ قافية رَنّة، إذا ذُكـر الحَبِيب، والمَنزل والسِّنين الخَوَالي، كان قَيْسَ عامـر[3] رِقَّةً ونُحـولاً، وهُيَامـاً وذُهولاً، وأَنينـاً طويـلاً، حتى إذا جَلُد خَرج إلى الفَخر، ودَخل في نَمِر من الحَمـاسة[4]، فـإذا أنت بعَنترة، بين عَبْلة

---

(١) ابن أبي ربيعة، هو عمر بن أبي ربيعة، شاعر غزل.

(٢) ابن زريق، أبو الحسن علي الكاتب شاعر، وهو صاحب العينية التي مطلعها:

لا تَعْـذُليـه فـإن العَـذل يُـولِعُـهُ ... قـد قلت حقـاً ولكن لـيس يسـمعـه

(٣) قيس عامر، هـو قيس بن الملوح بن مزاحم العـامري، وهـو الذي جن بحب ليلى، ولـه فيها أشعار كثيرة.

(٤) النمر، جمع نمرة، وهي كساء فيه خطوط سود وبيض، أشبه ما يكون بجلد النمر.

وأهل عَبْلة [1]، يَصف أيّامه المَشهورة، ويَذكر مَواقفه المأثورة.

وهو أقدرُ الشُّعراء على الفَخر في شعره، وأبعدهُم عنه في حديثه، يَفِرّ من الثناء، ولا يَحتال على التَّقْريظ، ولا يَأْخذ الشُّهرة غَصْباً، ولا يُزْهَى ولا يتكبَّر، ولا يَحْسُد ولا يَحْقِد ولا يغتاب، وهكذا نفس الشاعر، وأدب الأديب.

ليس بين أُدباء هذه العاصمة، وأفاضل القوم فيها، مَن يجهل الشيخ عَبد المُحسن البَغدادي، فهو قَمَرُ بَغداد الذي لم يَكُن يَخْفى في مِصر، وهي أعظمُ أُفق في الشَّرق، تتجلّى فيه أَقمارُ الأَدب العَربيّ وشُمُوسه، وليس بينهم لذلك مَن لا يُحْزنه أنْ يَعلم أن هذا النَّزيل الكريم، يَذْهب اليومَ للرَّحيل من القُطر، غيرَ مُخلِّف فيه من لَطائف شِعره، وطَرائف نَظمه ونَثره، غيرَ حَسنات نذكرها، مثلَ ما نذكر مِن عَهده الكريم، وأيّامه الطّيبة فينا.

فهل يأذن الشيخُ عبدُ المُحسن لِصديقه، كاتب هذه الجُملة، أن نتقدَّم إليه بطَلِبَةَ يَشترك معه فيها جماعةُ الفَضل والآداب، ممن عَرفوا الأستاذ بالذات، أو قرأوا له تلك الحَسنات، وما نَطْلُب إلاّ ديوانه، لِطَبْعه في مصر، ويُخلِّفه في أهلها، إبقاءً لحديثه الحَسن عندهم، وأثراً له خالداً فيهم على الأيام [2].

---

(١) عنترة: شاعر جاهلي فارس، وعبلة، هي محبوبته.
(٢) كان الكاظمي قد فكر في مغادرة مصر، غير أنه عاد عما فكر فيه.

«١٤»

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمدُ لله الذي علَّم البَيان. وجعله أثراً من رُوحه عِند الإنسان. والصَّلاَةُ والسَّلام على نَبيّ الأُمة. القائل: إنّ مِن الشِّعر لَحِكْمة.

أما بعد: فما زال لِواء الشِّعر مَعْقوداً لأُمراء العَرب وأَشرافهم، وما بَرِح نَظْمُه حَبيباً، إلى عُلمائهم وحُكمائهم؛ يُمارسونه حَقَّ المِرَاس. ويَبْنُون كُلَّ بَيْتٍ منه على أَمتن أَسَاس. مُوفِّين إجْلاَله. حافِظين خِلالَه. مُدْنِين إلى الأذهان خَياله.

قاله آمرؤ القَيس واصفاً وحاكياً. وضاحكاً وباكياً. وناسباً وغازلاً. وجادّاً وهازلاً. وجَمع شَمله بحيثُ تُعَدُّ المَنظومة الواحدة له أثراً في البَيان مُسْتقلاًّ، وبُنْياناً قائماً برأسه[1].

ونَظمه أبو فِرَاس فَخراً عالياً. ونَسِيباً غالياً. وحِكماً باهرة. وأَمثالاً سائرة. لكنه لم يَقُلْه فَوْضى، ولا قارب في نَظمه الخَلط، فإنّ قِصيدته المشهورة التي يَقُول في مَطلعها:

أَراكَ عَصِيّ الدَّمْع شِيمَتُك الصَّبْرُ   أَمَا لِلْهَوى نَهْيٌ عليكَ ولاَ أَمْرُ

(*) هذه هي الكلمة التي قدم بها شوقي لديوانه في طبعته الأولى.

(١) امرؤ القيس: شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات.

لَيست إلّا عِقْداً توحَّد سِلْكه، وتَشابهت جَواهـرُه، ودَقّ نِظَامُـه، تعاونت فيه مَلَكة العربيّ وسَلِيقة الشاعر، على حُسن الحكاية. فإذا فرغت من قراءتها فكـأنك قـد قرأتَ أحسنَ رِوَايـة. وهذا وكـونُها أشبـهَ شَيْءٍ بالشّعـر في شُعـور الأَنْفُس هما سرُّ بقائها مَتْلُوّة إلى الأبد[1].

وكان أبو العَلاء[2] يَصوغ الحقـائق في شِعْره ويُـوعِي تجارِبَ الحيـاة في مَنظومه، ويَشرح حالات النَّفس، ويكـاد يَنال سَـرِيرتهـا، ومن تأمَّـل قولَـه مِن قَصِيدة:

فَـلاَ هَـطَلَتْ عَـلَيّ ولا بـأَرْضِـي سَـحَـائِبُ لَيْسَ تَنْتَـظِمُ الـبِـلاَدَا

وقابَل بين هذا البيت،وبَين قول أبي فِراس:

مُعَلِّلتي بـالوَصْـل، والمـوتُ دُونَــه إذا مِتُّ ظَمْـآنـاً فَـلاَ نَـزَلَ القَـطْرُ

ثم نَظر إلى الأول كيف شَرَع سُنَّة الإيثار، وبـالغ في إظهـار رِقّة النَّفِس للنَّفس، وآنْعِطاف الجِنس نحوَ الجِنس؛ وإلى الثاني كيف وَضع مبدأ الأَثَرة، وغالى بالنَّفس، ورأى لهـا الاختصاص بـالمَنفعة في هـذه الدنيـا، تَعِيش فيها جافية، ثم تخـرُج منها غيـر آسِية، علم أنّ شُعـراء العَرب حُكمـاء، لم تَعْزُب عنهم الحقائق الكُبَر، ولم يَفُتْهُم تقـريرُ المبـادىء الاجتماعيـةِ العاليـة، وأنّهم أقـدرُ الأُمم على تَقـريبهـا من الأذهـان، وإظهـارهـا في أجلى وأجمـل صُـور البَيان.

وكان أبو العَتاهية يُنْشِيء الشِّعر عِبْرَة ومَوْعظة. وحِكْمة بالله مُوقِظة[3].

وكـان أميرُ المُؤمنينَ عليٌّ بن أبي طـالب ـ رَضِي الله عنه ـ يُرْجَعْ إليـه كذلك في الوَعظ، والإرشاد والتَّحذير من الرَّذائل. والإغراء بالفضائل[4].

---

(١) أبو فراس: الحارث بن سعيد الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧هـ) أمير، شاعر، فارس.

(٢) أبو العلاء، هوأحمد بن عبدالله بن سليمان (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ) شاعر فيلسوف.

(٣) أبـو العتاهيـة: إسماعيـل بن القاسم بن سـويد (١٣٠ ـ ٢١١هـ) شـاعر كـان يجيد القـول في الزهد.

(٤) علي بن أبي طالب: الخليفة الرابع، وكان له بيانه.

وكان الشافعيّ[1] ـ رحمه الله ـ وهو القائل:

وَلَولاَ الشِّعْرُ بالعُلَماء يُزْرِي لَكُنْتَ اليومَ أشْعَرُ مِنْ لَبيدِ

تَجري ألفاظه بالشِّعر، وله مقاطيع مُختارة. وحِكَمٌ في النَّاس سيَّارة. وحَسْبُك أنّ الطِّبّ جميعَهُ لو جُمِعَ، لما خَرج عن البيتين المَنْسوبين إليه، وهما:

ثَلاثٌ هُنَّ مَهْلَكَةُ الأنَامِ وداعِيَةُ الصَّحِيح إلى السَّقَامِ
دَوَامُ مُدَامَةٍ وَدوام وَطْءٍ وإدْخَالُ الطَّعَامِ على الطَّعَامِ

ولو آنْفسح لهؤلاء وأمثالهم المَجَالُ من الزّمان والمَكان، وشَهِدوا عَصْر البُخَار كما نُشاهده، وكابدوا الدَّهر في الهَرَم مِثْلما نُكَابِدُه. لامتلأت الصدورُ من مَحْفوظ أشعارهم. ولَضَاقت المَطابع على تَنَافُسها عن نَشْر آثارهم.

قَدَّمنا هذا لِيعلم فَريقٌ يَحتقرون الشّعر، وآخرون منَّا، معشرَ الشُّبّان يُضمرون للعربيّ منه عداوةً، مِن جَهل الشيء، ويَرَوْن بينه وبين الشِّعر الإفرنجي بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، ناسِين أن العَرب أُمة قد خَلت، ودَولة تولّت، فلا ينبغي إن يُؤخذوا إلا بما تركوا، إن المسؤول عن خُروجه بعدَهم من هَالته إنما هو الخَلَفُ المُفَرِّط، والوارث المِتْلاف.

إشتغل بالشِّعر فريقٌ من فُحول الشُّعراء، جَنّوا عليه، وظَلموا قَرَائِحَهم النادرة، وحَرَموا الأقوام مِن بَعدهم، فمنهم مَن خَرج من فَضاء الفِكْر والخَيال. ودَخل في مَضيق اللَّفظ والصِّناعة، وبعضُهم آثَر ظُلمات الكُلْفة والتَّعْقيد على نُور الإبانة والسُّهولة. ووَقف آخرون بالقَريض عِند القَوْل المَأثور: القَدِيمُ على قِدَمِهِ. فوصفوا النوق على غير ما عَهدَها العربُ عليه، وأتَوْا المَنَازِلَ من غَيرِ أبوابها، ودَخلوا البَيداء على سَرَاب. وآنْغمس فريقٌ في بِحار التَّشابيه. حتى تَشابهت عليهم اللُّجج، ثم خرجوا منه بالبَلَل.

وزَعمت عُصْبَةٌ وحَسبت أن أحسنَ الشِّعر ما كان بِواد، والحقيقةُ بِوَاد،

(١) الشافعي: محمد بن إدريس (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) أحد الأئمة الأربعة.

فكُلَّما كان بعيداً عن الواقع. مُنحرفاً عن المَحسوس. مُجانباً للمُحْتمـل. كان أدنى في آعتقـادهم، إلى الخيال. وأَجمـع للجلال والجمـال. حتى نَشـأ عن ذلك الإغراقُ الثَّقيل على النُّفوس. والغُلوّ البَغِيض إلى العُقول السَّليمة.

على أنّ الكُلّ قد مارسُوا الشِّعْر فَنّاً على حِدَة. وآتخذوه حِرفَةً، وتعاطَوْه تجارة، إذا شاء المُلوك رَبِحت، وإذا شاءوا خَسِرت. ثم لم يَكْفهم ذلك حتى هَجَوْا الشِّعر وذَمُّوه بكُلِ لِسان، فزعموه مَجلبة الشَّقـاء، وقالـوا: إنه مَحسُـوب على الشُّعراء. يُغِيضُ من أرزاقهم، ويَنحت من قُلوبهم، ويُعرّضهم لإراقة ماء الوجوه.

ولقد، والله، زَعموا صِدْقاً، وقـالوا حقّـاً، وإن هذا لجـزاء فِئة يتـوقَّعـون أرزاقهم من مُلوك كرام، يخلقهم الله لِرواج حِرْفتهم، فإذا لم يُخْلَقـوا كَسَدت الحِرْفة، وأخطأت الأرزاق.

على أنـه يُستثنى من هؤلاء قليلٌ لا يُـذكر، في جَنب الفـائدة الضـائعـة بضياع الشعر، مديحاً في الملوك والأمراء. وثَناءً على الرؤساء والكُبـراء. وإلاّ فمن دواوينهم ما يَخْلُق أن يكون المِثال المُحتذى في شِعْر الأُمم.

كابن الأحنف[1] مُرْسِل الشِّعر كُتُباً في الهَوى ورَسائل. ومُتَّخذه رُسُلاً في الغرام ووسائل.

وكـابن خَفاجـة[2] شاعـر الطَّبيعـة، ومَجنون لَيـلاها. وواصف بـدَائعهـا وحِلاَها.

وكـالبهَاء زُهير[3]، سيِّدَ مَن ضَحِـك في القول وبَكى. وأَفصـح منَ عَتَب على الأَحِبّة واشتكى.

---

(١) ابن الأحنف، هو العباس بن الأحنف (١٩٢هـ) شاعر غزل.

(٢) ابن خفاجة، هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله (٤٥٠ ـ ٥٣٣هـ) شاعر أندلسي غزل وكاتب بليغ.

(٣) البهاء زهير: زهير بن محمد (٥٨١ ـ ٦٥٦هـ): شاعر كاتب.

وحَسْبك أنه لو آجتمع ألفُ شاعر، يُعزِّزهم ألف ناثر، على أن يَحُلُّوا شِعْر البها، أو يأتُوا بنَثْر في سُهولته، لانْصَرفُوا عنه، وهو كما هو.

ولا أرى بُدْاً من استثناء المُتنبيّ مع عِلْمِي أنه المدّاح الهَجّاء. لأن مُعْجِزَه لَا يزالَ يرفع الشِّعر ويُعْليه. ويُغرِي الناسَ به فيُجدِّده ويُحييه. وحَسبك أنّ المُشتغلين بالقَرِيض عُموماً والمَطْبُوعين منهم خُصوصاً، لا يتطلّعون، إلا إلى غُباره. ولا يجدون الهوى إلاّ على مناره. ويَتمنَّى أحدُهم لو أُتيح له مَمدوح كممدوحه ليمدحَه مثل مديحه، أو لو وَقع له كافور مثل كافُوره[1] ليهجُوه مثلَ هجائه، فَمَثَل أبي الطيّب في تَشَبُّه الشُّعراء به. وسَعْيِهم لبُلوغ شَأوه في المَدح أو الهَجْو، كمثل قائدٍ مَشهور الأيام، معروف بالحَزم والإقدام. قد أُشْرِبَتْه قُلوبَ الجُنْد. ومُلئت نُفوسهم ثِقةً منه، فلو قَذف بهم في مَهاوي الهَلاك، وهُم يَعلمون، لما جَبُنوا ولا أُحْجَموا، هذا مع آعترافي بأن المُتَنبِّي صاحب اللِّواء. والسماء التي ما طاولتها في البَيان سماء، ولو سَلِم من الغُرور، وسَلِم الناسُ من لسانه، لأجْلَلْتُه إجلال الأنبياء.

والحاصل أنّ إنزال الشِّعر منزلةَ حِرْفَةٍ تَقُوم بالمدح ولا تَقُوم بغيره، تَجزئة يَجِلّ عنها؛ ويتبرّأ الشُّعراء منها. إلا أَنّ هناك مُلْكاً كبيراً ما خُلِقوا إلا ليتغنَّوا بمَدحه، ويَتفنَّنوا بوَصْفه، ذاهبين فيه كُلَّ مَذهب، آخذين منه بكُل نصيب، وهذا المُلك هو الكَوْن، فالشاعر مَن وَقف بين الثُّريّا والثَّرَى. يُقلِّب إحدى عينيه في الذَّرّ، ويُجيل أُخرى في الذُّرى[2]، يَأسِرُ الطَّيْرَ ويُطْلِقه. ويُكلِّم الجَمادَ ويُنطقه. ويَقِف على النَّبات وِقْفَة الطَّلّ. ويَمُرّ بالعَرَاء مُرُور الوَبْل[3] فهُنالك يَنفسح له مجالُ التَّخيل، ويَتّسع له مَكان القَول، ويَستفيد من جهةٍ عِلْماً لا تَحْويه الكُتُب. ولا تُوعِيه صُدورُ العُلماء، ومن جهةٍ أخرى يَجد

---

(١) كافور، يعني كافور بن عبدالله الإخشيدي (٢٩٢ - ٣٥٧هـ) صاحب المتنبي، وكما مدحه المتنبي هجاه.

(٢) الذر: صغار النمل، والذرى، جمع ذروة، بالكسر وبالضم، وهي من كل شيء: أعلاه. يريد ما تحت قدميه وما يعلوهما.

(٣) الطل: المطر الخفيف، والوبل: المطر الشديد.

من الشِّعر مُسْلِياً في الهمّ. ومُنْجِياً من الغَمِّ. وشاغلاً إذا أمَلَّ الفَراغ، ومُؤْنِساً إذا تَملَّكت الوَحشةُ، ومن جِهة ثالثة لا يلبث أن يَفتح الله عليه، فإذا الخاطرُ أسرع، والقولُ أسهل، والقَلَمُ أجرى، والمادَّة أغزر، بحيث لا تَمْضِي السِّنون حتى تَتداول الأَيْدي مؤلّفاته. وإذا مات أَكْبَر الناسُ مِن بعده مُخلَّفاتِه.

أو لم يَكُن من الغَبْنِ على الشِّعر والأُمة العربيّة أن يَحيا المتنبي مَثَلاً حياتَه العالية. التي بَلغ فيها إلى أقصى الشَّباب، ثم يَموت عن نَحو مائتي صَحيفة من الشِّعر، تِسْعة أعشارها، لِمَمْدوحيه، والعُشْر الباقي، وهو الحِكمة والوَصف، للناس.

هُنا يسأل سائلٌ: وما بالك تَنهى عن خُلق وتَأْتي مِثْله؟

فأجيب: أنِّي قَرَعْتُ أبوابَ الشِّعر، وأنا لا أعلم مِن حَقيقته ما أعلمه اليومَ، ولا أجد أمامي غيرَ دَواوين لِلْمَوتى، لا مَظْهَر للشِّعر فيها، وقَصائد للأَحياء يَحذُون فيها حَذْوَ القُدَماء، والقومُ في مِصْر لا يَعْرفون من الشِّعر إلا ما كان مَدْحاً في مَقامٍ عالٍ، ولا يَرَوْن غيرَ شاعِر الخِديوي، صاحب المَقام الأَسْمَى في البلاد. فما زِلْتُ أتمنَّى هذه المَنزلة، وأسمو إليها على دَرَج الإخلاص في حُبّ صِناعتي، وإتقانها بقدر الإمكان. وصَونها عن الابتذال، حتى وُفِّقت بفَضل الله إليها، ثم طلبتُ العِلْمَ في أوروبا. فوجدتُ فيها نُورَ السَّبِيل، من أوّل يومٍ، وعلمتُ أنِّي مَسْؤُول عن تلك الهِبَة. التي يُؤتيها الله ولا يُؤتيها سِواه، وأني لا أؤدِّي شُكْرَها حتى أُشاطِر الناسَ خَيراتِها، التي لا تُحَدّ، ولا تَنْفَد، وإذ كنتُ أَعتقد أن الأَوهام، إذا تمكَّنَت من أمة كانت لِباغِي إبادتها كالأَفعوان، لا يُطَاق لِقاؤه، ويُؤخذ مِن خَلْف بأطراف البَنان، جَعلت أبعثُ بقصائد المَديح من أوروبا، مملوءةً من جَديد المَعاني، وحديث الأساليب، بقَدْر الإمكان إلى أن رَفَعْتُ إلى الخديوي السابق قصيدتي التي أقول في مَطلعها:

خَدَعُوها بقولهم حَسْناءُ والغَواني يَغُرُّهُنَّ الثَّناءُ

والتي غَزَلَها في أول هذا الديوان. وكانت المدائحُ الخديويّة تُنشر يومئذٍ

في الجريدة الرسميّة، وكان يُحرّر هـذه أُستاذي الشيـخُ عبدُ الكـريم سَلْمان. فدفعتْ القصيدةَ إليه، وطُلِـب منه أن يُسْقِط الغزل ويَنْشُر المـدح، فودّ الشيـخُ لو أَسقط المَديح ونَشر الغَزل. ثم كانت النتيجةُ أنّ القَصِيدة بـرُمَّتها لم تُنْشَـر، فلما بَلغني الخبرُ، ولم يَزِدْني عِلْماً بأن آحْتراسِي من المُفاجأة بالشِّعر الجـديد دَفعةً واحدةً، إنما كان في محلِّه، وأن الزَّلل معي إذا أنا آسْتَعجلت.

ثم نظمتُ روايتي «علي بك، أو فيما هي، دولة المماليك» مُعتمـداً في وَضع حَوادثها على أَقوال الثِّقات من المُؤرِّخين، الذين رَأوا ثم كتبوا، وبعثتُ بها قَبل التَّمثيل بالطَّبع إلى المَرحوم رُشْـدي باشـا، ليعرضَهـا على الخديـوي السابق، فوردني منه كتابٌ باللُّغة الفرنساوية، يقول في خلاله:

«أمّا روايتك فقد تفكّه الجنـابُ العالي بقـراءتها، ونـاقَشني في مَواضِـعَ منها وناقشتُه، وهو يدعو لك بالمَزيد من النَّجاح، ويُحب أن لا تشغلك دُروس الحُقوق، التي يمكنك تَحْصِيلُها وأنت في بيتك بمصر، عن التمتّع من مَعالم المدنيّة القائمة أمامَك، وأن تـأتَينا من مـدينة النـور باريـز، بقَبَس تَستضيء به الآداب العربيّة».

فصـادفت هذه النصيحـةُ العاليـة، من أمير ذَكيّ حكيم، هَـوًى في فُؤاد مَـطْوِيّ على طـاعتـه، نـازل على حُكْم الشِّعـر والأدب. فتـرجمتُ القصيـدة المُسمَّاة «بالبُحَيْرة»، مِنْ نَظم لامرتين[1] وهي من آيات الفَصاحة الفـرنساويـة. ثم أرسلتُها إلى البارع المُشـار إليه، في كُـرَّاس وبَعض كُرَّاس لِيُـطلع الجناب الخـديوي عليهـا، وإذ كنتُ لا أتَّخذ لِشِعـري مُسَوّدات، رَجـوتُ أني أجدُهـا عنده بعد العَودة إلى مصر، ثم عَدَتْ دون ذلك عَوادٍ.

وجَرَّبْتُ خاطِـري في نَظم الحِكـايات على أُسلوب لافـونتين[2] الشَّهِير، وفي هذه المَجموعة شَيء من ذلك، فكنتُ إذا فرغتُ من وَضْع أُسْـطُورتين أو

(١) لامـارتّين (١٧٤٤ ـ ١٨٢٩م): شـاعـر فـرنسي، يمثـل المـذهب الـرومـانسي، ومن مؤلفـاتـه الشعرية: التأملات، ومن النثرية: السفر إلى الشرق.
(٢) لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥م): شاعر فرنسي، صاحب كتاب الأمثال.

ثلاث، أجتَمع بـأَحْدَاث المصـريّين، وأقرأ عليهم شيئـاً منها، فيفهمـونه لأول وَهْلة، ويَأنسُون إليه، ويَضْحكون من أكثـره، وأنا أَستبشـر لذلـك، وأتمنّى لو وَفَّقني الله لأَجعل لأطفال المِصْرِيّين مثلَ ما جَعل الشُّعـراء للأطفـال في البلاد المُتمدِّنة، منظومات قريبة المُتناول، يأخذون الحِكْمة والأدب من خِلالها على قَدر عُقولهم.

والخُلاصة أنّي كنتُ ولا أزال أَلْوي في الشّعر على كُلِّ مَطلب، وأَذْهب من فَضائه الـواسع في كُـلّ مَذْهب. وهنـا لا يَسعني، إلاّ الثَّناء على صـديقي خليـل مطران[1]، صـاحب المِنَن على الأدب، والمؤلِّف بين أُسلوب الإفـرنـج في نَـظم الشّعر وبين نَهْـج العرب. والمَـأمول أنّنـا نَتعـاون على إيجـاد شِعْـرٍ للأطفال والنِّساء، وأن يُساعِدَنا سائرُ الأدباء والشُّعراء على إدراك هـذه الأُمْنية، على أنّي لا أَستصعب في مِصَـر اليـومَ صَعْبــاً، بعـدمــا علمتُ أنّ كثيـراً من المُخَدَّرات في العاصمة أُصبحن يَرْقُبْن ساعةَ ظُهور الجرائد، بِصَبْرٍ نافِد، وأن إحداهنّ طَردت خادماً لها، أرسلته يَشتري نُسخة من جريدة، فـأبطأ مـع عِلْمه بأنّ مولاته لا تُعْطى صَبْـراً عن أخبار الحَـرب التّرنسفالية. إذاً، فـالواجب على الكُتّـاب، ورجال الصَّحـافة في أولهم. أن يُهيئـوا أسباب النّجـاح لهذا المَيـل الحـادث، وعلى الأُدبـاء والشُّعـراء أن يَعْـرِضُـوا فـاكهتهم على النّســاء مثـلَ الرِّجال، حتى تُصبح جنّات قرائحهم فيها من كُل فاكهة زَوْجان.

بَقي آستدراكُ لا بُدّ من إيراده، وذلك أنّ بَعضَهم يَستنتج مِن كَوْن الناثر لا يَنْظِم، أنّ الشاعـر لا يَنْثر كـذلك، ولا يَنبغي لـه، وهذا وهمٌ يُـدَاني اليقين عنـدهم، وقد جـاوز الشُّعراءُ في الانخـداع به حَـداً أَضَرّ بهم، مـع أنه يكفي للخُروج منه أنْ نَعلم أنّ أكثـر ما أَعْجَـز به أدبـاءُ الإفرنـج اليومَ، في القَصص والإنشاء، وما يُمَثَّل على أكثر مَلاعبهم، وتتداولـه أَلسنتَهم، من مُرْسَـل الكَلم ومَنْثُـور الحِكَمُ، وما كُتب في هـذا القَـرن والـذي قبله، في الفلسفـة العُلْيـا،

(١) خليل مطران، من الشعراء الذين عاصرهم شوقي وكان قد نزح من لبنان إلى مصر، واتخـذها مقاماً.

والسياسة الكُبرى، إنما هو من قَلمٍ مَشاهير الشُّعراء، حتى لَتَسمع عن أحدهم أنـه مات عن عَشَـرات من المؤلَّفات، ثم تـرى المنـظوم منهـا أقلّهـا، بـل إنّ بعضهم يُقـدِّم «الأشقياء»، كتـاب لفكتُور هُـوجو، على سـائر مؤلّفـاته، وفيهـا الشِّعر. كما يَرون «آعتراف آبن العصر» لألفريـد دي مُوسِيـه، أجلَّ أثـر له بين كثير من الآثار، وفيها الروايات المَنظومة، والأشعار، وكـلا الشاعـرين مَطبـوع لم يختلف في سَليقته آثنان.

على أنّي كنتُ أولَ من آنقاد بأزِمَّة هذا الوهم، وطالمـا أُوذيت به فكنتُ إذا عَـرَضَت لي كتابـة أُشفق منها، وأُجْفِـلُ عنهـا، فصـار مَثَلي مَثَـل الشّـاعـر الفـرنسويّ الـذي يُحْكَى عنه لمـا رأى أهل بـاريز يُبـالغـون في الحَفـاوة بـه، ويُكثرون من دَعوتـه إلى موائـدهم ومُجالسهم لِيسمعـوا حديثَـه، على ظَنٍّ أنه يَقُـول ما لاَ يَقُـوله النـاس، بلغ به الاحتـراس منهم إلى أن كـان إذا دُعي إلى وَليمة حَضر والقومُ على المائدة، فأكل صامتاً ثم آنصرف، والقـومُ لم يَفْـرَغُـوا من الطَّعام فقِيل له في ذلك، فقال: أنـا على المائـدة كأَحـدكم، فإذا جلستُ إزاءَ مَكتبتي فتصوَّرُوني كيف شِئتم.

أمَا كَوْنُ الناثر لا يَنْظِم إلا إذا كان حاصلاً على هذه المَلَكة المَـوْهُوبـة، فَحقِيقـة لا مُشَاحـة فيها، وإن لم يَكُن بـذلـك عـارٌ على الكـاتب، بـل الغُبْن الفاحِشَ، والخُسْران المُبين، أن تَضِيع حَياةُ الكَثِيـرين من الكُتّاب والعُلمـاء، وليست بقليلة الثمن في مُحـاولة المُحـال، والتَّمادي في مِثـل هذا الضَّـلال، على أنَّ الشِّعر ليس من حاجيّات العُمران الماديّ، الذي تتـوقّف عليه سَعـادة الإنسـان في هذه الحيـاة الدنيـاَ، ولكنّه من كمـاليّات العُمـران الأدبيّ، الذي تَسـأم النفسُ عنده الحقيقـةَ المُجسَّـدة. والمـادّة المُجـرَّدة. وتَميـل في بَعض أوقاتها إلى التنقُّل بشُعورها. من عالَم إلى آخر، ومن فَضاء إلى سـواه، ولعلَّ هـذه هي الحِكْمة في كَـون الشُّعراء قليـلاً عَدِيـدُهم في كُل زمـان ومكان، لا تُعْطَى الأمم منهم إلا بقَدْر حاجتهاإليهم. ومما يَجمل إيراده في هذا المَقام أنه بَدا لأحد الإنكليز أن تَكُون عِنده مَجموعة، فيها من كُـلّ شاعِـر عصريّ شَيء

من نَظمه بِخَطه، فجعل يَطُوف بها على مَشاهير الشعراء، حتى وَفد على «جول سيمون» فقيد فرنسا وفَيلسوفها المشهور، فَطلب منه أن يَكْتُب شيئاً من نَظمه، فآعتذر الرجلُ بكَوْنه ما نَظم قطُّ، ولا يَمْلِك قولَ الشِّعر، فما زال الإنكليزي يُلِحُ عليه، حتى أخْرَجه. وكان «جول سيمون» يَحفظ أبياتاً للشاعر الشهير «لامارتين» وكانت أحسنَ ما في مَنْظومته التي سمّاها «البحيرة»، فأخذ المجموعة وكتب الأبيات، ثم جعل آسمه تحتها وآتفق بعد ذلك أنّ المَجموعة وَقعت في يَدِ مُنْتقد أدبي لبعض الصُّحف السيّارة في باريز، وكان لا يعرف الشِّعر ولا يَدري لمن هو، فلم يكن منه إلّا أن مَلأ أعمدة الجريدة من آنتقادها، ورَمى «جول سيمون» بالدخول فيما لا يعنيه، والتطفُّل على موائد الشُّعراء، ثم نَصح له أن يَبقى فَيْلُسوفاً، كما كان، ومن الفَلسفة أن لا يحاول الإنسان ما ليس في الإمكان.

يُعلم مما تقدّم جميعه أنّني أرى للمُشتغلين بالشّعر من أبناء الوطن العربي، أن يَجمعوا في مَسِيرهم على الدَّرْب، بين أَزواد ثلاثة لاوصول بدونها مجتمعة:

الأول: ثقة الإنسان من كَون الشِّعر في باعه، وهذا هو الشَّرط الأَوجب، وأنه لأَمْرٌ يَعني الآباءَ والأساتذة أكثر مِن سواهم، ولا يَنْبغي لهم أن يَتصرَّفوا في مُستقبل الأطفال الذين هم أَمانة الله في أيديهم، بمُقْتَضى أَميالهم الشَّخْصِيّة، وأفكارهم الخُصوصية، بل عليهم إذا آنَسُوا هذه الهبة عند الطِّفل، أن يَأخذوا بيده، ويُعينوه عليها، ولو كانوا ممّن ينظرون إلى الشِّعر بِعَيْن السُّخط، لأن الله سبحانه وتعالى ـ وهو الواهب ـ قد رأى له ذلك، وما يَرى الله أفضل، وإذا وَجدوه دَعِيّاً في الشِّعر، دَخِيلًا منذ الطُّفولة، وَجب عليهم تَبْغِيضُه إليه، ومُمانعته عن نَظمه، ولو كانُوا من مُحبِّي الشِّعر ونُصرائه.

والثاني: أخذُ العلوم، وتناوُل التَّجارب، لأن الشِّعر لا يَخرج عن كونه أخباراً وحكمة، وهما لا يكونان إلّا مِن عَلِيم مُجَرِّب.

والثالث: أن لا يتخذ الشِّعر حِلْيَة عليه عَطَلِ من سائر أُمور الدنيا

وأشغالها، فإن كان ولا بُدَّ من التفرُّغ للأدب حُبّاً به، أو طلباً للكَسب، فليكن الشعر هو اليَتيمة القَعْساء في عِقْد عُلومه، وصاحب العِلْم في مَوكب فُنونه، لا يُنافي تَعاطيه الكتابةَ نثراً، في جميع المطالب، وضُروب المواضع، فإنّك لا تَجد الشِّعر وسُلطانه عندئذ، إلاّ مُرْشدَيْن أمينَين، وذخرَيْن ثمينَين.

فمن جَمع بَين هذه الأمور الثلاثة، وكان عاملاً مُتْقِناً لِعمله، حريصاً عليه، مُتَرقياً فيه، يخاف الله في الغُرور، ويَخشاه في إيذاء خَلْقه، فقد آنكشف له سِرُّ النَّجاح، وأحرز قَصَب السَّبْق في حَلْبَة الكُتَّاب والشُّعراء.

الآن أَدْخُل في الحديث مع فريق طلبوا منِّي أن أَجْعَل صُورتي في هذه المَجموعة، وآخرين رَغِبُوا إليّ في كلمة تُقال عنها وعن صاحبها، وأن لا يقولها سواي.

مَعذرتي إلى الفريق الأول أنّ مَن يَعْرِض صُورته على الناس، كمن يَعْرض وجهه عليهم، وأعوذ بالله وبالمُحبِّين، أن أكون ذلك الرَّجُلَ، على أن صُورتي ما عِشْتُ بينهم ينظرون إليها، فإذا مِتّ فليأخذوها من أَهلي إذا جَدّ بهم الحِرْصُ علبها.

وللآخرين أقول: إني لا أزال في أول النَّشأة، وإن حياتي لم تَحْفِلْ بعدُ بالعجائب، ولم تمتلىء من الفوائد ولا المَصائب. حتى أحدِّث الناس بأخبارها، لكني لا أثق بيومي الآتي، وأخاف بَعدي رُجُومَ الظن، وضِلّات الأحاديث، فلي العُذر أن أُجيبُ طَلَبهم، على أن يكون الحديثُ بيني وبينهم، كما يكون بين الأحباب.

سَمِعْتُ أبي ـ رحمه الله ـ يَرُدّ أصلنا إلى الأكراد، فالعرب، ويقول: إن والده قَدِم هذه الدِّيار يافعاً، يَحْمل وَصاةً من أحمد باشا الجزّار إلى والي مِصر محمد علي باشا، وكان جدّي وأنا حاملُ آسمه ولقبه، يُحسن كِتابة العربيّة والتركيّة، خطاً وإنشاءً، فأدخله الوالي في مَعِيّته، ثم تداولت الأيام؛ وتَعاقب الوُلاة الفِخام، وهو يتقلّد المَراتِب العالية. ويتقلّب في المَناصب

السامية، إلى أن أقامه سَعيد باشا أميناً للجَمارك المصريّة، فكانت وفاته في هذا العَمل عن ثَروة راضية، بَدَّدها أبي في سَكْرة الشَّباب، ثم عاش بِعَمله غيرَ نادِمٍ ولا مَحروم. وعشتُ في ظِلّه وأنا واحدُه، أسمع بما كان من سَعةِ رزقه، ولا أراني في ضِيق حتى أَنْدُب تلك السَّعة، فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل. أن لا أقتات من فَضلات المَوتى.

أما جَدّي لوالدتي، فاسمه أحمد بك حليم، ويعرف بالنجدة لي، نِسْبة إلى نَجدة. إحدى قُرى الأناضول، وفد على هذه البلاد فَتِيّاً كذلك، فآستخدمه والي مصر، إبراهيم باشا من أول يوم، ثم زوّجه بمَعْتوقته جدّتي، التي أرثِيها في هذه المجموعة، وأصلُها من مُورة، جُلبت منها أَسِيرة حَرب لا شِراء، وكانت رفيعَة المنزلة عندَ مَولاها، وكان زَوجها محبوباً عنده كذلك، فما زالا كلاهما مَغْمورَيْن بِنعمة هذا البيت الكريم، حتى تُوفِّي جدّي. وهو وكيلٌ لخاصة الخديوي إسماعيل باشا، فأَمر بنَقل مُرتَّبه برُمَّته إلى أرملته، وأن يُحْسَب ذلك معاشاً لا إحساناً. وكان الخديوي المُشار إليه يقول عنهما: لم أر أعفَّ منه، ولا أَقنع من زوجته، ولو لم يُسَمِّه أبي حَلِيماً لِحِلمه لسمَّيتُه عَفيفاً لِعِفّته.

أنا إذاً عربيّ. تركيّ. يونانيّ. چركسيّ، بجدّتي لأبي. أصولٌ أربعة، في فرع مُجتمعة. تَكْفُله لها مِصْر، كما كَفلت أبويه من قبل. وما زال لمصر الكَنف المَأمول، والنائل الجَزْل. على أنها بلادي. وهي مَنْشئي ومهادي. ومَقْبَرة أَجدادي. وُلد لي بها أبوان. ولي في ثَراها أبٌ وجدّان. وببعض هذا تُحبّب إلى الرِّجال الأوطان.

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة، وأنا اليوم أَحْبُو إلى الثلاثين. حَدَّثني سيِّد نُدماء هذا العَصر المَرحوم الشيخ علي اللَّيثي، قال: لقيتُ أباك وأنت حِمْلٌ لم يُوضع بعدُ، فقَصَّ عليّ حُلْماً رآه في نَومه، فقلت له، وأنا أُمازحه: ليولدنّ لك ولد يَخْرق ـ كما تقول العامة ـ خَرقاً في الإسلام.

ثم اتَّفق أني عدتُ الشَّيخ في مَرض الموت، وكانت في يَده نُسخة من

جريدة الأهرام، فآبتدر خِطابي يقول: هذا تأويل رُؤيا أبيك، يا شَوقي، فوالله ما قالها قَبْل في الإسلام أحدٌ، قلت: وما تلك، يا مولاي؟ قال: قصيدتك في وصف (البال) التي تقول في مطلعها:

حَفّ كَأسها الحَبَب ... فهي فِضَّة ذَهَبُ

وها هي في يدي أقرأها. فاستعذتُ بالله، وقلت له: الحمد لله الذي جَعل هذه هي «الخَرْق» ولم يُضَرَّ بي الإسلام فَتِيلاً.

أخذتني جَدّتي لأُمي من المَهد، وهي التي أُرثيها في هذه المجموعة، وكانت مُنَعّمة مُوسِرة، فكفلتني لوالديّ، وكانت تَحْنُو عليّ فوق حُنُوهما، وتَرى لي مَخايل في البِرّ مِرْجُوَّة.

حدثتني أنها دَخلت بي على الخديوي إسماعيل، وأنا في الثالثة من عُمري، وكان بَصري لا ينزل عن السّماء من آختلال أعصابه. فطلب الخديوي بَدْرَة من الذَّهب، ثم نثرها على البِساط عند قَدَميه، فوقعتُ على الذهب أشتغل بجَمعه واللَّعب به، فقال لجدّتي: آصنعي مَعه مثلَ هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النَّظر إلى الأرض. قالت: هذا دواء لا يَخرُج إلا من صَيدليّتك، يامولاي. قال: جيئي به إليّ متى شِئت، إني آخِرُ من يَنْثُر الذَّهب في مصر.

ولا يزال هذا الارتجاج العَصبيّ في الأبصار يُعاودني، وكان المَرحوم الشيخ علي الليثي، كلما آلتقت عَيْنه بِعَيني، يُنْشِد هذا المِصْراع للمُتَنبِّي[1]:

مَحاجر مِسْك رَكبّت فوق زئبقِ

دخلتُ في مكتب الشيخ صالح. وأنا في الرابعة، وهي من أهلي جناية على وجداني أغْفرها لهم، ثم انتقلتُ منه إلى المبتديان فالتجهيزية، فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة، وأنا في الخامسة عشرة، وكان ناظرها المرحوم

(١) علي بن حسن الليثي (١٨٢١ - ١٨٩٦) شاعر، من الندماء، وكان من أطيب أهل زمانه فكاهة وظرفاً وحسن عشرة.

صادق باشا شَنن، قد حَصل لي من النَّظارة على المجانية، بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها، ولكن على سَبيل المُكافأة، ثم رأى لي أبي أن أَدْرُس القوانين والشَّرائع، فدخلت مدرسة الحقوق، وكان ناظرها المأسوف عليه فيدال باشا، لا يراني أهلاً لذلك بالسنّ، فما زال أُستاذي وصديقي المهذّب يحيى بك إبراهيم، وكيل المدرسة يومئذ، يؤيِّدني عند رئيسه إلى أن قُبلت، ثم لم يَكْفه ذلك حتى حَصل لي من النّظارة على مائتي قرش من الشهر، فدرست الحُقوق سنتين، ثم ارتأت الحكومة أن يُنشأ بمدرسة الحقوق قِسْم للتَّرجمة، يتخرّج فيه المُترجمون الأكفاء، فنَصح لي الوكيل أن أَدْخُل هذا القسم، ففعلتُ وأقمت به سَنتين، ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فَنّ التَّرجمة.

وبينما أنا أتردد على المغفور له المرحوم علي باشا مبارك، في شأن وَرَد عليه مَرْسوم، من المعيّة السنية بِطلبي إليها، فكان سروره بذلك أضعاف فرحي بالنعمة المُفاجئة، فذهبت إلى السراي، وهنالك آستؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا، فلما مَثُلت بين يديه، ولم أَكُنْ رأيتُه من قبل، ولكن مدحتُه مراراً وأنا في المدرسة، خاطبني بهذا اللفظ الشريف: قرأت يا شوقي في الجريدة الرسميّة أنك أُعطيت الشهادة النهائية، وكنت أَنتظر ذلك لأُلحقك بمعيّتي، لكن ليس بها الآن محلّ خال، فهل لك في الانتظار ريثما يُهَيِّىء الله لك الخير.

فاستلمتُ أذيال العَزيز وقبّلتها، ثم قلت:حسبي، يا مولاي، أنك قد ذَكَرْتني من تِلقاء نفسك الشريفة، وأي خير يُهيّىء الله لعبدك أفضل من هذا، فأطرق هَنيهة ثم قال: قد سمعتُ أن أباك عُطِّلَ من الخدمة، فبلِّغه أني ربما أُدخلتُه في عَمل قَبْلك، ثم تهلّل وأذن لي في الانصراف.

فلبثتُ في المعيّة بضعة شهور، أنتظر فرجاً يأتي به الله، وكان المرحوم علي باشا مبارك لم يَقطع عنّي الراتب، إلى أن كان يوم كَثُر غَيْمُه، وتثاقل مَطره، فخرجت قُبيل الأَصيل، في حاجة لي على حمار أبيض، كان

لوالدي، وبينما أنا عائد إلى منزلي أجتاز ميدان عابدين، بَصَرْت بالعزيز في بَهو السراي يُشرف منه. فنزلتُ عن الدابة أَمشي، كرامة للمليك المُطِلّ، وأمرتُ الخادم أن يبتعد بها، وأن يُلاقيني خَلْف القصر، ثم مشيتُ على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان، آعْترضني رسولٌ من الأمير يَدعوني إليه، فوافيتُ حَضرته، وأنا لا أعرف السَّبب، وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رُشدي، فتحلّى الحَليم بصُورة الغضب ثم قال: أليس لي أن أطل من بَيتي حتى نزلت عن حمارك، وألجأتني إلى الانثناء، قلت: عفواً يا مولاي هكذا أدّبنا الأوائل حيثُ يقول شاعرُهم:

وإذا المَطيّ بنا بَلَغْن مُحَمَّداً فظُهورُهُن على الرِّجال حَرَامُ

فتبسّم ضاحكاً وقال: ثم إنكم، معشرَ الشُّعراء، تَتفاءلون بالغُيوم، وهذا اليوم من أيامكم، فاسمع للباشا فإن عنده لك فألاً. فالتفت الباشا عندئذ إليّ وقال: الآن أمرني أفندينا أن أُبلِّغك تعيين أبيك مُفتشاً في الخاصة الخديوية، وأما أنت فتُعيَّن بعد شَهر، ثم مد العزيز إليَّ يده فقبَّلتها واجماً، قد غلب عليَّ السرور، حتى أنساني الشِّعر، وكان ذلك وقْته.

ثم لم يَحُلْ عليّ حَوْل في الخِدمة الشريفة، حتى رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوروبا، فخيّرني في ذلك وفيما أريده من العُلوم، فاخترتُ الحقوق، لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب، وأن لا قَدَم فيها لمن لا لِسان له، فأشار الأمير عليّ عندئذ أن أجمع في الدّراسة بينها وبين الآداب الفرنسوية بقدر الإمكان، ثم سافرت على نفقته، فكنت أُنقد سِتَّة عَشَر جنيهاً في الشهر، نِصْفُها من المعيّة ونصفها من الخاصَّة، وأعطاني يوم سَفري مائة جنيه، أُرسل نصفها إلى مُدير الإرسالية ليهيّىء لي جَميع ما أحتاج إليه حالَ وُصولي، ودَفع إليّ النصف الآخر بيده الشريفة.

وما أنس من مكارمه ـ رحمة الله عليه ـ لا أنسىٰ قولَه لي في ساعة الوداع: لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك. فلا تُعْنتهم بطلب النقود، وأَغْنِت أباك هذا الغِنَى.

فركبتُ البحرَ لأول مرّة يوم أؤم مرسليا. فلما قَدِمْتُها وجدتُ مُدِيرَ الإرساليّة في انتظاري بها، فأخبرني أنّ الأمير يأمُر بأن أَقْضِي عامَيْن في مدينة مُونبلييه، وآخرين في باريز. وكان المدير قادماً من مُونبلييه للقائي، فعاد بي إليها على الفَوْر، وهُنالك قَدَّم لي جميعَ ما أحتاج إليه. وأَدخلني في مدرسة الحُقوق الجامعة، ثم رجع إلى العاصمة.

فلمَّا آنقضت السنةُ الأُولى، التمستُ من وليّ النِّعم أن يَأْذَن لي في الأَوْبَة إلى مصر لقضاء زَمن العُطلة بين أهلي، فأوقع إليّ أَمْرَه أنّ هذا من نَزَق الشباب، وأنه يَرى لي أن أُقيم أربع سنوات كاملة في أوروبا، وأن لا أُضيع منها دقيقةً واحدة، ثم أرسل إليّ خمسين جنيهاً لأُنفقها في رحلة أُزمْعها إلى أي بلد أشاء، إلا مصر. وكانت الدعوات قد توالت عليّ من الفرنساويين رُفقائي في المَدرسة بالذهاب إلى مُدنهم المتفرّقة في الجنوب، وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك. فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قَريرَ العَين، طيِّب النَّفْس، ناعمَ البال. حيثُ التفتُّ رأيتُ حواليَّ مناظر رائقة. ومَجالي شائقة. ومَعالم للحضارة في أقاصي القُرى شاهقة. وآثاراً لدَولة الرُّومان. تَزداد حُسْناً على تَقادُم الزَّمان. وعرفت الفلاّح الفرنساوي في داره، وكنت ألقاه في مَزرعته، وأُماشيه في الأسواق. فيُخيّل لي أنه قد خَلَفَ العربَ على قِرَى الضَّيف، وإكرام الجار. وكان أعجبَ ما رأيت مدينة كركسون، وجدتها قسمين، ولَقِيت القومَ عليها صِنْفين، فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوُسطى، بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس، وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق، والآخرون خَلْقٌ جديد، وشُعبة كسائر شُعب الأمة، في أخذهم بأشياء التمدُّن العصريّ، وبالجملة كانت نَتِيجةُ هذه النُّقَل من أجَلِّ نِعَم الله عليّ، وأَسْنَى أيادي الخديوي السابق عندي.

ثم ما كِدْتُ أنتهي من السنة الثانية، حتى كتب إليّ مديرُ الرِّسالة المصريّة يستقدمني لباريز، ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا، لقضاء

أكثر أيام العُطلة فيها، وأن الأمير ـ رحمه الله ـ أدّى نَفقة هذه السياحة عنّي، ريثما أَهَّبْتُ للرِّحلة، ثم سافرنا إلى عاصمة انكلترا، فلبثنا فيها نحو شهر، نَغشى من معالمها في الحضارة، ونشاهد من دَوَران دُولاب التجارة والصناعة فيها، ما ينتهي إليه العِظَمُ والجلال في هذا العصر، لكنَّا لم نَلبث أن سَئِمناها ـ وهذا أكبر عُيوبها، فخرجنا إلى بعض المَدائن على بَحر الشمال، وهناك وجدنا راحة الخاطر، وقُرّة الناظر، وإن يكن الجوّ كَثِيرَ التقلُّب، غدَّاراً في غالب الأحيان.

فلما كانت السنةُ الثالثة، وهي الأولى لي في باريز، أُصِبتُ بمرض شديد، كنتُ فيه بين الحياة والموت. فاستخدمتُ مُمَرِّضة تسهر عليّ، وتَعمل بإشارتي في الحركة والسَّكنة، فكنتُ أَسمعها وأنا في سَكَرات الحُمّى تقول: أفي مثل هذا الشَّباب تذهبون؟ ثم تُكَفْكف الدَّمع، لكن الله خَيَّب ظُنونها، ومَنّ عليّ بالشِّفاء. وعندئذ أشار عليّ الأطبّاء أن أقضي أيّاماً تحت سماء إفريقيا، على زَعم أن الذي بي من الضَّجر والسآمة، ليس إلا حَنِيناً إلى الوطن. فوقع آختياري على الجزائر. فرحلتُ إليها مع أحدِ قُضاتها الفرنساويين، فنفعَتْني مُرافقته، وظلَّ دَليلي على الهُدَى في عاصمة المُستعمرة، نحو عشرين يوماً، ثم بَرِحها إلي أَوران.

أمّا جوّ الجزائر فلا يَعْدِلُه بين الجواء، في صَحْوه، وطِيب نَسْمته، مع توقُّد شَمْسه، إلاّ جَنُوبُ فرنسا. ولم أتأثر فيها كتأثُّري مِن رؤية المصريّين في القَهاوي البلديّة، إذ أكثر أصحابها وغِلمانها منهم، وكان قد بَلَغهم جلوسُ مولانا الخديوي القائم عبّاس باشا على الأريكة المصرية، فكنت أراهم فَرِحين بالنبأ، وأَسمعهم يَدْعون لسُمُوِّه.

ولا عَيْبَ في الجزائر سِوَى أنها قد مُسِخت مَسْخاً، فقد عَهِدْتُ مَسّاح الأحذية فيها يَسْتنكف من النُّطق بالعربيّة، وإذا خاطبتَه بها لم يُجِبك، إلا بالفرنساوية.

على أنّ حَركة العُمْران في المدينة عَجِيبةُ، وآثار التمدُّن الفرنساويّ

بادية عليها، ولكن المُسلمين من أهلها لا يُشاركون القـومَ في شيء من ذلك، ولا يَتهافت مُتْرَفُوهـم إلا على مضَارِّ التمدُّن وأسوائه، فَكأن حظّنا واحدٌ في كُلّ مكان.

أقمتُ بالجزائر أربعين يوماً أو تزيـد، ثم حَثَثْتُ الرِّحـال عنها قـافلاً إلى بـاريز، وهنـاك تَمّت لي السنةُ الثـالثـة في الحُقـوق، وحَصَلت على الشهـادة النهائية فيها، فرأى لي الجنابُ العالي ـ أيّده الله ـ أن أقضي في العاصمة سِتّة شهور، أتمكّن فيها من مَعرفة أشيـاء باريـز وأهلها، وقـد كان في الـدراسة مـا يَشغل عن ذلك. ويَحُول دونه. ثم ٱنقضت تلك المدة على ما رَسَم لي الرَّأيُ العالي ـ أيده الله ـ فعُدت إلى الوطن، وأنا نِضْوُ فِراق[1]. تهزّني إليه الأشواق.

وفي سنـة ١٨٩٦ للميلاد، نَـدبني جَنابُـه الفخيم لأنُـوب عن حكـومتـه السنّة في مُؤتمر المستشرقين، الذي كـان ٱنعقاده في مـدينة جنيف، عـاصمة سويسرا، فكانت خَيرْ فُـرصة تُغتنم لمشـاهدة هـذه البلاد، التي هي المَجْلى البديع لِعَرُوس الطَّبيعة، فرحلتُ إليها، وأقمتُ بها شهراً، ثم ٱنفضّ المُؤتمر، فَبَرِحتها إلى بلجيكا، لمُشاهدة عاصمتها، وزيارة المَعْـرض الذي أقيم بمـدينة أنفرس في ذاك العام.

ولما كانت السنة الماضيـة[2]. وكنت قد سَئِمْتُ الحَضـر، على أثر رَمَـد طال أَمَدُهُ، خرجتُ إلى الأستانـة، طلباً للعـافية على ضِفـاف البُسفور، فـأذِن الله، وكان ما رجـوتُ، وعُدْت من عـاصمة الإسـلام، وأنا أعتقـد أنّ خَطَرات النَّسْيم فيها، تَفعل في أربعين يوماً ما لَا يفعله طِبُّ الأطباء في أربعين شهراً.

هـذه هي أيام صِبَـاي، وخَطَوات شَبـابي، وأوائل نَشـأتي، أَجَبْتُ عنها السـائل، لِيَعْلم كيف تَقضَّت، وفيم أُنفِقت، وأين ذَهبت، وأنـا أستغفر الله لي ولأهلي، ولمن ينـظُر إلى هـذا الكتـاب بعَين الكـريم، المُتجـاوز أو المُنتقـد العَذْل.

---

(١) نضو فراق، أي قد هزلني الفراق.

(٢) السنة الماضية، أي سنة ١٨٩٧، فلقد كان ظهور هذا الجزء سنة ١٨٩٨.

جَمَعتني باريز في أيّام الصِّبا بالأمير شكيب أرْسِلان[1] وأنا يومئذٍ في طَلَب العِلْم، والأمير ـ حفظه الله ـ في آلتماس الشّفاءِ، فانعقدت بيننا الأُلفة. بلا كُلفة. وكنتُ في أول عَهْدي بنَظم القصائد الكُبْرى، وكان الأمير يقرأ ما يَرِدُ عليه منها مَنْشوراً في صحف مصر، فتمنّى أن تكونَ لي يوماً ما مَجموعة، ثم تمنَّى عليّ إذا هي ظَهرت أن أسمِّيها «الشوقيّات».

ثم آنقضت تلك المُدّة، فكأنّها حُلم في الكَرَى، أو خِلْسة المُخْتلِس، أو هي كما قُلت:

صَحِبْتُ شَكِيباً بُرْهَةً لم يَفُزْ بها	سِوَايَ على أنَّ الصِّحَابَ كَثِيرُ
حَرِصْتُ عليها آنةً ثم آنةً	كما ضَنَّ بالماسِ الكَرِيمِ خَبِيرُ
فلمّا تَساقَيْنا الوَفَاء وتَمَّ لِي	وِدَادٌ على كُلِّ الوِدَادِ أَمِيرُ
تَفرَّق جِسْمِي في البَلادِ وجِسْمُهُ	ولم يَتَفَرَّقْ خاطِرٌ وضَمِيرُ

هذا أصل التَّسمية، سبقت به إشارة لا تُخَالَف، ودَفعت إليه طاعةٌ واجبة، وأنا بين هاتين هَدَفٌ للقال والقِيل، يُظَنّ بي نِسْبة الأَثَر الضَّئيل، إلى الاسم القليل[2].

كانت وفاة والدي من نَحو ثلاث سنوات، فكان لي عجباً أن وَجَدْتُ بين أوراقه شيئاً كثيراً، من مُشَتَّت مَنظومي ومَنْثوري، ما نُشِر منهما وما لم يُنْشَر، قد كُتِب بَعْضه بالحِبْر، والبَعض الآخر بالرَّصاص، والكُلُّ خطُّ يد المرحوم، وقد لَفّه في وَرقة، كُتبت عليها هذه العبارة: هذا ما تَيسّر لي جَمْعُه من أقوال ولدي أحمد، وهو يَطْلُب العِلْم في أوروبا، فكنتُ كأني أراه، وأنّي آمره أن يَجمعه، ثم يَنْشُره للناس، لأنه لا يَجد بَعدي من يَعْتَني بشُؤونه. وربما لم يُوجد بعده من يُعْنى بالشِّعر والآداب.

فبينما أنا ذاتَ يومٍ تَعِبٌ بهذه الأوراق. حيرانُ لوصيّة الوالد كيف

---

(١) شكيب بن حمود بن حسن بن يونس ارسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. عالم بالأدب والسياسة ومؤرخ، وكان يلقب بأمير البيان.

(٢) يعني اسمه.

أُجَـرِّيها، زارني صـديقي مصطفى بـك رفعت. فحدثتـه حَديثي، فسـألني أن أُعِيره الأوراق أيّامـاً، ثم يُعيدهـا إليّ، ففعلت: ثم لم يَمْضِ شهرٌ حتى بَعَث بهـا إليّ، وإذا هي قـد نُسِخت بِقَلم مَليـح. يؤيّـده ذَوْقٌ صحيـح. بحيثُ لم يَبْقَ، إلا أن تُدفع إلى المطابع، فـأخذتهـا، وبودِّي لـو وَفَّيْتُ صَديقي المُشـار إليه حَقَّهُ، من شُكْر الصُّنُع، وأنـا أقول في نفسي: لئن صَـدِق أبي في الأُولى لقد ظُلِم في الثانية، فإن الخير لا يزال في الناس.

على أن ما جُمع في «الشوقيّات» ثم طبـع، ليس هو كُلّ ما قِيل، فقـد أسقطتُ منه الكثير، وعَثَرْتُ على غيره ولكن في الزَّمن الأخير، فأمـا ما أُسْقِط عمداً فأكثره من قولي في زَمن الصِّبا، الذي لا يُـؤْمَن فيه على المَـرء الغُرور. ولا يَسْلُك الفتى فيه سَبِيلاً إلا وهو مُضَلَّل عَثُور. وقد خَشِيتُ أن يَقع مثلُ ذلك في أَيدي الناشئة، فأسْـأل عن سُوء وَقْعـه. ويكون إثْمُـه أكبر من نَفْعـه، لكنِّي حَـرَصْت على إثبات بَعض الشيء منـه، كما يَحْـرِص الإنسـان على ذِكْـرِ مـا طاب، مِن أيّام الشباب، وأما مَا عَثرت عليه، والمَجْموعـة في أَيدي الـطَّباع، فلم يكُن في الوسْع أَخْذُه، لئلا يَخْتلط الكتاب، ويختلَّ تَرْتيبُ الأبواب. على أنه مَحفوظ لِيُنْشَر في الجزء الثاني، إن شاء الله تعالى، مع سائر القصائد التي قِيلت بعد الإعلان عن الشوقيّات، إن شاء الله تعالى، مع سـائر القصـائد التي قيـلت بعد الإعلان عن الشوقيّات، ولم يَتيّسر إدخالُها في أبواب هذا الجزء.

وقد عزمتُ بحول الله ومَشيئته على أن أَنْشُر في آخِر كُلّ عامٍ هِجْريّ ما يَحْصُل عندي من مَـنظوم ومَنْثور، ولـو قَلّ عَـدَدُه، وصَغُر حَجْمـه، وأن أُجعل ذلك بمثابة أجزاء مُتتالية للشوقيّات، تسمَّى باسمها، وتكون لها مُتَمِّمة.

أَمِيرَةُ الأَنْدَلُسْ

تَمْثِيلِيَّة نَثْرِيَّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

«١»

بعد أن ثار الجند بالخليفة الأموي هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وخلعوه عن عرشه بالأندلس سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (٤٢٢هـ) واضطروه إلى أن يلجأ إلى جامع قرطبة بنسائه وخدمه. حيث عاشوا به أياماً على إحسان المحسنين. ثم أخرجهم بعدها الجند من قرطبة، ونادى مناديهم: أن لا يبقى أحد من بني أمية، كما أنه ليس لأحد أن يظلهم.

وكانت هذه هي نهاية الحكم الأموي بالأندلس، فإذا المتوثبون للسلطة ينفرد كل بما في حوزته، وبما يقوى على أن يقيم نفسه عليه حاكماً.

فإذا بنو جهور يستقلون بقرطبة، وبنو الأفطس ببطليوس، وبنو ذي النون بطليطلة، وبنو هود بسرقسطة. وبنو عباد بإشبيلية.

وكان هذا العهد في الأندلس هو العهد الذي جرى المؤرخون على تسميته بعهد ملوك الطوائف.

وكان أقوى هؤلاء الملوك شوكة، ملوك الطوائف بنو عباد بإشبيلية، كما كان أقوى من حكموا من بني عباد هو المعتمد بن عباد.

وكان المعتمد هذا يؤدي ضريبة للأذفونش، ملك الإفرنج بالأندلس. ولم تكن تلك حال المعتمد وحده مع الأذفونش، بل كان على هذه ملوك

الطوائف جميعاً، إذ كان الأذفونش، قد قوي أمره في ذلك الحين.

ويحس الأذفونش بعد أن استرجع طليطلة من بني ذي النون أنه غدا على حال من القوة تجعله لا يقبل الضريبة المفروضة على المعتمد، ويرسل إليه يتهدده بأخذ إشبيلية منه.

وفزع لهذا المعتمد والمسلمون معه وأجمعوا أمرهم على أن يستنجدوا بملك الملثمين، صاحب مراكش يوسف بن تاشفين.

«٢»

ولم يخيب ابن تاشفين الرجاء، وسارع بجيشه إلى الأندلس، حيث انضم إليه المعتمد بن عباد بجيشه، وسار الجيشان للقاء الفرنجة عند مكان يقال له الزلاقة، وإذا النصر يكتب للمسلمين، وإذا الفرنجة لا ينجو منهم من القتل غير قلة قليلة، وإذا الأذفونش يفر هارباً.

ويعجب يوسف بن تاشفين بالأندلس، وتتطلع إليها نفسه. وتكون له جولات تنتهي بالاستيلاء على الأندلس.

ويُقْبَض على المعتمد بن عباد ويرسل إلى أغمات أسيراً. ومعه زوجه وبنوه وبناته، ليقضوا حياتهم في السجن، إلى أن ماتوا الواحد بعد الآخر.

وكان موت المعتمد بن عباد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٤٨٨هـ)، وكان هو آخر من ملكوا من بني عباد.

وكان مولد المعتمد في باجة، مدينة بالأندلس، سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة (٤٣١هـ).

وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة إحدى وستين وأربعمائة (٤٦١هـ).

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة (٤٨٤هـ) كان خلعه عن العرش، ثم أسره وحمله إلى أغمات، إحدى مدن مراكش، ليسجن في سجنها. وبقي في سجنه إلى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٤٨٨هـ). كما قلت قبل.

ومن هنا نرى:

أن المعتمد بن عباد ولي الملك وهو في الثلاثين من عمره.

وأنه عاش ملكاً نحواً من ثلاثة وعشرين عاماً. تزيد قليلاً، نهض فيها بإشبيلية، حتى أصبحت في عهده سيدة مدن الأندلس.

ولقد كان المعتمد شاعراً أديباً، يجتمع على بابه الشعراء والأدباء، ولقد ترك لنا ديوان شعر، يمثل حياته خير تمثيل.

هذه كلمة أولى عن ملوك الطوائف، وعن المعتمد بن عباد، تليها كلمات أخرى موجزة، تعرف بأشخاص القصة. وبالأماكن الرئيسة، أما غيرها فقد عرف بها في مواضعها، ليكون للقارىء من هذا كله ما يجعله موصولاً بالحديث:

«٣»

١ ـ إشبيلية، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء مثناة ساكنة ولام وياء مثناة خفيفة: مدينة في الأندلس، قريبة من البحر، يطل عليها جبل الشرف، وهو جبل كثير الشجر.

٢ ـ مراكش: بفتح الميم، وتشديد الراء، وضم الكاف، وشين معجمة: مدينة بالمغرب، تبعد عن البحر، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين، من الملثمين، وكان يلقب بأمير المسلمين، وكان ذلك حوالى سنة سبعين وأربعمائة (٤٧٠هـ). وكان موضعها قبل ذلك مَخَافة، فيه لصوص يقطعون الطريق على القوافل. فكانت القوافل إذا انتهت إليها قالوا: مراكش. وهي كلمة بربرية، تعني: أسرع المشي.

٣ ـ أغمات: ناحية من أرض المغرب، قرب مراكش، وهي في سفح جبل هناك. وفيها يقول ابن اللبانة أبو بكر محمد بن عيسى الشاعر، يذكر المعتمد بن عباد:

انْفُض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرضُ قد أُقفرت والناس قد ماتُوا
وقُل لعالَمها الأرضيّ قد كَتَمت ... سريرةَ العالم العُلْويُ أغماتُ

٤ ـ قرطبة: مدينة أندلسية، وكانت قصبة البلاد أيام بني أمية، وحين آل

الأمر إلى ملوك الطوائف. كانت لكل ملك منهم منها ناحية، حتى إذا ما قويت شوكة بني عباد، طمع فيها المعتمد وضمها إلى ملكه وولى عليها ابنه الظافر.

٥ - الرميكية: بضم ففتح فسكون، اسمها اعتماد، وكانت جارية لرميك بن حجاج، فنسبت إليه، ثم آلت إلى المعتمد بن عباد فتزوجها، فولدت له:

أ - عبَّاداً، الملقب بالمأمون، وبسراج الدولة، وبالظافر.

ب - عبدالله، الملقب بالرشيد.

جـ - يزيد، الملقب بالراضي.

د - المؤتمن.

هـ - بثينة.

و - وبنات أخريات.

واعتماد الرميكية هي صاحبة يومْ الطين.

وحديث هذا أنها رأت يوماً بعض نساء البادية بإشبيلية، يَبعن اللَّبَن في القِرَب. وهن ماشيات في الطين. فاشتهت أن تفعل فِعْلهن. فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصير ذلك كله عجيناً أشبه ما يكون بالطين، وجعل المعتمد لها قِرَباً، وحِبَالاً من الإبريسم، فخاضت فيه هي وبناتها وجواريها.

وكانت اعتماد الرميكية شاعرة، وسجنت مع المعتمد في سجن أغمات، وماتت قبله بأيام.

٦ - العبادية: جارية المعتضد عباد، والد المعتمد، أهداها من دانية مجاهد العامري إلى المعتضد، فَبَنى بها.

وكانت أديبة ظريفة، كاتبة شاعرة، ذاكرة للكثير من اللغة.

وهي أم المعتمد.

ويقال إن عباداً زَوْجَها سهر ليلة لأمر حَزَبه، وهي نائمة، فقال:

تنام ومُدْنَفها يَسهر ... وتَصْبر عنه ولا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة:

لئـن دام هـذا وهـذا لـه ... سيَهلك وَجْـداً ولا يَشْعُـرُ

٧ ـ بثينة: بنت المعتمد بن عباد، وأمها اعتماد الرميكية.

وكانت بثينة هذه نحواً من أمـهـا في الجمال النادر. ونَظم الشعر.

ولما أحيط بأبيها خرجت هاربة. فوقعت لتاجـر من تُجَار إشبيليـة، على أنهـا جاريـة سُرِّيَـة، فوهبهـا لابنـه. فلمـا أراد الـدخـول عليهـا امتنعت وأظهرت نسبها، وقالت له: لا أُحلّ لك إلا بعقد نكاح، إن رضي بذلك أبي، وأشـارت عليه بـأن يكتب خطابـاً على لسانهـا. وكان الـذي أملته نظماً، وهو:

إسمـع كلامي وآستمع لمقـالَـتي ... فـهي الـسُّلوك بَـدَت من الأَجْيَـادِ

لا تُـنكـروا أنـي سُبِيـت وأنـني ... بـنـتٌ لِـمَـلْكِ مِـن بَـنـي عَـبَّـادِ

مـلك عَـظيم قـد تـولَّى عصـرُه ... وكـذا الـزمـان مُـوَكَّـل بـفَسـادِ

لَـمّـا أراد الله فُـرْقَـة شَـمْـلنـا ... وأذاقـنـا طَـعـم الأَسى مِـنْ زادِ

قـام النِّفاق عـلى أبي فـي مُلْكـه ... فـدنـا الفِـراق ولم يـكن بـمُـرَادِ

فخـرجتُ هـاربـةً فحازنِيَ آمـرُؤٌ ... لـم يَـأْتِ في إعـجـالـه بِسَـدَادِ

إذ بـاعني بَيْـعَ العَبيـد فـضَمَّـنِي ... حَسَنُ الخـلائق من بَني الأَنْجـادِ

ومضى إليك يَسُوم رَأْيك في الرِّضَـا ... ولأَنْتَ تَنْـظُر فـي طَـريق رَشـادِي

فـعسـاكَ يـا أبتِي تُـعَـرِّفني بـه ... إنْ كـان مـمـن يُـرْتَـجى لِـوِدَادِ

وعَسَى رُمَيْكِيَـةَ المُلوك بفَـضلهـا ... تَـدْعُـو لنـا بـاليُمْن والإسـعْـادِ

فلمـا وصل هـذا الكتاب إلى أبيهـا، وهو بـأغمات، آطمـأن شيئـاً على آبنته، وأشهد على نفسه بِعَقد نكاحها من الفتى المـذكور، وكتب إليهـا أثناء كتابه:

بُـنَـيَّـتـي كـونِـي بـه بَـرَّةً ... فقـد قضى الـوَقْتُ بـإسْعـافِـهِ

وهذا الشعر مما كان يَتداوله أهل المغرب.

وقِصة بُثينة هذه هي التي أوحت إلى شوقي بأن يكتب هذه المسـرحية، التي أسمـاهـا: أميـرة الأنـدلس، ولم تكن تلك الأميـرة غيـر بُثينـة بنت المعتمد بن عباد.

٨ - ابن أدهم: وهو عبيد الله بن محمد بن أدهم، ويكنى: أبا بكر.
كان قاضي الجماعة بقُرطبة، ثم آستقضاه المعتمد سنة ثمان وستين وأربعمائة (٤٦٨هـ). وكان ابن أدهم ممن أشاروا بالاستنجاد بيوسف بن تاشفين، حين جاءه مشايخ الإسلام وفقهاؤه يبادلونه الرأي فيما اعتزم عليه الفرنج من غزو إشبيلية.

ثم اجتمع القاضي ابن أدهم بالمعتمد وأخبره بما كان، فوافق على أن يمضي ابن أدهم إلى يوسف بن تاشفين، يحمل إليه تلك الرغبة.

فامتنع ابن أدهم أولاً، ثم سار إلى يوسف بن تاشفين بعد أن ألحّ المعتمدُ عليه.

٩ - حَرِيز: بفتح فكسر - ابن حكم بن عكاشة.
كان يلي قلعةَ رباح للقادر بن ذي النون.

وكان أبوه حكم بن عكاشة قد لَحق بالمأمون بن ذي النون، ونَصح له، فولّاه الحصون المجاورة لقرطبة. فدخلها بعد أن قَتل أمِيرها حينئذ: عبّادَ بن المعتمد، وهو الملقب بسراج الدولة، وبالظافر، وبعث برأسه إلى المأمون بن ذي النون بِبَلَنسية. وكان ذلك في سنة سبع وستين وأربعمائة (٤٦٧هـ). وورد المأمونُ قرطبةَ، وأقام بها نحواً من ستة أشهر، ثم تُوفي، وبقي حَكَمُ بن عكاشة بقُرطبة نائباً عن القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون بن ذي النون.

وبلغ ذلك المعتمد بن عباد، فأقبل في جموعه طالباً بثأر آبنه الظافر، وعَلِم حكمُ بن عكاشة أنه لا طاقة له به، فَهَرب وأسلم قرطبة، فدخلها المعتمد، وأرسل خيلاً في طلب الحَكَم، فقُبض عليه وجيء به المعتمد، فَصَلبه.

وَوَلي ابنُه حريز قلعةرباح للقادر بن ذي النون.

وإذا أهل فحص البلوط يأسرونه ويسوقونه إلى المعتمد، ولكن المعتمد مَنَّ عليه وأطلقه.

وكان حريز هذا من فرسان الأندلس المعدودين، وكانت بينه وبَين

الأذفونش مناوشات، اعتدى فيها الأذفونش على ضياع فَخَرَّبها، وعلى أشجار فقطعها، فكتب إليه حريز يقول: ليس من أخلاق القدير، الفساد والتدمير، لو كان الملك في عشرة أمثال عددي لم ينزل لي بساحة، ولا تمكن منها براحة.

فلما وصلته الرسالة عفّ، وأمر بالكف، وبعث يُرَغِّبه في الاجتماع به.

فلما صارا بالمدينة البيضاء، وهي قلعة رَباح، غربي طليطلة، خرج حريز لابساً لأمةَ حربه، وكان قد أوتي بسطةً في الجسم.

ولما وصل فسطاط الملك، وأراد النزول عن فرسه، رَكَز رمحه. ورأى الملك منه ما كان يسمع عنه، ودعاه إلى أن يبارز عظيم أبطالهم.

فقال له حريز: المبارز لا يبارز إلا أكفاءه، وإن لي بَيِّنة على صِدق قولي، أن ليس لي فيهم كفء، هذا رمحي قد ركزته، فَمَن رَكِب وآقتلعه بارزتُه، كان واحداً أو عشرة.

فركب عظيمهم فلم يَهُزّ الرمح من مكانه حين رامَه، ثم فَعل ذلك مِراراً.

فقال له الملك: أرِني، يا حريزُ، كيف تقلعه؟ فركب وأشار بيده وآقتلعه.

وكان حريز هذا إلى شجاعته شاعراً، ومن شِعره مجاوبته، وهو يومئذ أمير قلعته، لأبي المطرف بن المثنى، كاتب ابن ذي النون، وكان اجتاز بحريز، فكتب إليه:

يا فريداً دون ثانٍ وهلالاً في العِيَانِ
عُدِمَ الراحُ فصارت مثل دُهن البَلَسَان

فجاوبه حريز:

يا فريداً لا يُجارَى بين أبناء الزمانِ
جاء من شِعرك روضٌ جاده صوبُ البَيَانِ
فبَعثناها سُلافاً كسَجاياك الحِسَانِ

وقُتل حريز في سنة ثمانين وأربعمائة (٤٨٠هـ) على حصن مِسطاسة، بكسر الميم، بالقرب من قلعة رَباح.

١٠ - أبو القاسم بن مرزقان، مولى المعتمد بن عباد، قُتل يوم دخول الملثَّمين إشبيلية على المعتمد، وكان أبو القاسم شاعراً. ومن شِعره في شَمعة على صِفَة مدينة أُهديت للمعتمد:

مدينة في شَمعة صُوِّرت قامت حُمَاةٌ فوق أسوارِهَا
وما رأينا قَبلها رَوْضة تَتَّقد النارُ بنُوَّارِهَا
فَصُيِّرَ الليلَ نهاراً إذا ما أَقبلت تَرْفُلُ في نارها
كأنها بعضُ الأيادي التي تحت الدُّجَى تَسْرِي بأنوارهَا
مِن مَلِكٍ مُعْتَمِدٍ ماجدٍ بلادُه أوطانُ زُوَّارِهَا

١١ - ابن لاطون، هو عبد الحميد بن لاطون، وكان كاتباً لحَرِيز، وكان فيه تَغَفُّل شديد، ومن شعره يمدح حَريزاً:

يُذَكِّرني بِهِمُ العَنْبَرُ وظَلْمُ ثناياهُمُ سُكَّرُ
ولولا مَعاليك يا ذا النَّدَى لَمَا كان في الأرض مَنْ يَشْعُرُ
فلا تُنْكِرَنَّ زحاماً على ذَرَاكَ وفي كَفِّك الكَوْثَرُ

١٢ - البازي الأشهب، سارق مَشهور، كان في زمان المعتمد، وكان له في السرقة كلُّ غريبة، وكان مسلَّطاً على أهل البادية، ولما آنتهى أمره إلى المُعتمد اسْتَتابه، وأَجْرى عليه رِزقاً، وجعله من جملة حُرَّاس المدينة. وقد ذكر في التمثيلية محرَّفاً باسم: الباز بن الأشهب.

١٣ - ابن شاليب اليهودي.

وتذكر كتب التاريخ أن المعتمد لم يزل بخير إلى أن كانت سنة خمس وسبعين وأربعمائة (٤٧٥هـ)، ووصل اليهودي ابن شاليب لقبض الجزية المعلومة، مع قوم من رؤساء النصارى. وحين وجه إليهم المعتمدُ المال رَدّهُ اليهودي إلى المعتمد وقال: والله لا أخذت هذا العِيار. ولا آخذه منه إلا مُشَجَّراً، وبعد هذا العام لا آخذ إلا أجفان البلاد. فكان أن غضب المعتمدُ عليه وعلى من معه، فصلبه وسَجنهم، وكان هذا سبباً في حَرْب الزلّاقة.

١٤ - ابن حيون: لعله أبو العباس أحمد بن حنون الإشبيلي. وكان من بيوت إشبيلية وأغنيائها.

١٥ ـ أبو الحسن، وحسون، أولهما تاجر بإشبيلية، وثانيهما: ابنه. وليس لهذا ولا ذاك ذكر في كتب التاريخ.

١٦ ـ مقلاص، مضحك الملك، ومقلاص كمفتاح، من الأسماء المعروفة، وكان جد والد عبد العزيز بن عمران، الفقيه.

«٤»

ويبدو أن هذه التمثيلية كتبها شوقي فيما بين سنتي (١٩١٥م) وسنة (١٩١٩م) وهي السنوات التي قضاها شوقي في منفاه في أسبانيا.

وبعد هذا التمهيد الذي عرفك بالأشخاص والبلاد جاء بعده تعريف آخر ستقرؤه في ثنايا الكتاب مع ضبط للكلمات كان لا مَعْدِلَ عنه ليستوي الكلام، ثم ترقيم يستقيم به المساق.

وأرجو أن أكون بهذا كله قد قدمت هذه التمثيلية على صورتها الجديرة بها.

إبراهيم الأبياري
شوال ١٤١٢ هـ
مايو ١٩٩٢ م



مقدّمة المؤلف

جَرت حوادثُ هـذه القِصّـة في زمنٍ كـان قِـطعـةً من لَيْـلِ المُلمّـات. أخذت الأَنْدَلُسَ في جُنْحِها الحالِك ثم تَرَكَتْهُ نَظْمـاً مُنْحَلًّا، ورُكْنـاً مُضْمَحِلًّا، وشَمْساً من دُوَل الإسلام سَقُمت فألَّح عليها السَّقم فاحْتَضَرت، فكانت لها في الغَرب هَدّة، وكـانت عليها في الشَّـرق ضَجّة. وخِـلاَلَ تلك القِطْعـة من لَيْلِ المُلِمّـات كـان الأَنْـدَلُس تحتَ مُلوك الـطوائف، وكـان هؤلاء المُلوكُ، على شَـرَفِ بُيُوتِهم، وتَمَيُّـز شخصيّاتهم، ونُبـوغِهم في كُلّ عِلْمٍ وأَدب، أصحـابَ بَذَخٍ وتَرَف. وأَخْدانَ صَبْوة وخَلاَعةٍ، لاحَظَّ لهم من هِمّـة المُلْك، ولا نَصِيبَ من مَـرَاشِـد السُّلطان. وإنـك لَتعجب من آنغمـاسهم في اللذّات، ونِسْيـانهم لذِكْرِ العَواقِب، وهم أَتْعبُ خَلقِ الله. وأكثَرُ المُلوك رُكُوباً للغَرَر[1]، وآسْتِهدافـاً للخَطَر، وَمشْياً على الحَبَائِل والحُفَر[2]؛

فأما في داخِل دُوَيْلاتهم فكَيْدٌ وآئتمار، وفِتْنةٌ نَومها غِرَار[3]، وسَيْفُهـا في الغِمْـد قَلِيلُ القَـرَار، حتى لا تَكـاد الشمسُ تَـطْلُع إلا على مَلِكٍ مَخلوع، ولا تَغْرُب إلّا على مَلِكٍ مَقْتول.

---

(١) الغرر: الخطر.
(٢) الحبائل: المصائد. والحفر، جمع حفر، بالضم، وهي ما يحفر.
(٣) الغرار: القليل من النوم.

وأمّـا في الخارج فكُنْتَ تَـرى هؤلاء المُلوكَ بين نارَيْن تَتـواعدان، وبين سَيْلَين يتهدَّران: فملِكُ الإسبان الفُـونس يَتجنّى ويَعْتَدِي، ويَضْـرِب الجِزْيَـة. ويَفْرِضُ الإتاوات، ويَبعث لأخذ الأَموال جُبَـاةً أهلَ غِلْظة وقِحَةٍ.

وصـاحبُ مَرَّاكش يُـوسُف بن تاشِفين، هـو وقُـواده ووزراؤه مَشْغُـوفُـون بالأندلس. يُمْطِرونه الـرُّسُلَ والـرَّسائـل، إلى قُضَاتِـه وفُقَهائـه، مُهَيِّئين بذلـك لِفتحٍ بَنَوا عليه الرَّجاء، وعلَّقوا به الآمال.

وكان مُلوكُ الطوائـف يَخافون جـارَهم هذا المُسَلَّحَ المُتَـوثِّبَ، سُلطانَ المَغرب ويَرْجُونه، فكان تَمَلُّقهم له لا يَنقطع، وكانت الأمـوال تُحْمَل إليـه في صُورة المَعونة، وكانت الرِّشى تُقَدَّم لوزَرائـه ورُؤساء دولتـه، في صُورة الهدايا والألطاف؛ وكُل هذا المال إنّما كان يُجْمَع من المُكُوس والمَغارم.

فتَخيَّـل كيف كان بُـؤْس الرَّعِيَّـة، وتَأَمَّـل كيف تَذْهَب مَعـالِم البلاد بين عَبَثِ الفَرْد وغَفْلة الجماعة.

ولقـد كان على قُـرطبة، وهي حـاضـرة المَلك، أن تَحمِـل شَـطر هـذا البَلاء، فلم تَلبثْ أن آنحطَّت عن ذلـك المكان العـالي، الذي كـانت فيه دارَ الخـلافة، ومَـطْلعَ القَصْرَيْن: الـدِّمشق، والرُّصـافة[1] فصـارت كُرْسِيَّ إقليم، وقـاعدةَ دُوَيْلة، وعَـرْشَ مُلْك صَغِير، يُؤدّي الجِـزْيـة، ولا يُحِسّ لهـا ذِلَّـة ولا هَوَاناً.

---

(١) الدمشق، والرصافة: من قصور بني أمية بالأندلس.

المشاركون والمشاركات في التمثيلية

المعتمد بن عباد : ملك إشبيلية.

الرميكية : الملكة.

العبادية : أم المعتمد.

بثينة : بنته.

القاضي ابن أدهم : قاضي القضاة.

الأمير حريز : من أبطال الأندلس.

الأمير بولس : شقيق ملك الاسبان.

أبو الحسن : تاجر بإشبيلية.

حسون : ابنه

ابن حيون : من الأدباء.

أبو القاسم : منْ الأدباء.

مقلاص : مضحك الملك.

لؤلؤ : من حجاب الملك.

جوهر

ابن شاليب : رسول ملك الأسبان.

البازي الأشهب : لص شهير.

أمراء

جند.

الفصل الأول

المنظر الأول

«مقصورة من مقاصير البديع، قصر المعتمد بن عباد في إشبيلية. وإلى يمينها مُصَلًّى، وفي مؤخرها ستار كبير يحجب. وقد وقف على بابها جوهر حاجب ابن عباد، ولؤلؤ ساقيه، ومقلاص مضحكه».

جوهر [إلى لؤلؤ]: كيف وجدتَ وَجْهَ المَلِك اليومَ، يا لُؤلؤ؟

لُؤلؤ : كسُنَّتِه، يَفِيض من البَشَاشةِ والبِشْر.

جوهر : بل أنتَ واهِم يا لُؤلؤ! إنّ وجه الملِك تَغيَّر في هذه الأيّام. وبدا عليه التغضُّن، وأثّرت فيه الهُموم أثرَها الظاهرَ المُبين.

مِقْلاص : كان الله عَوْنَ المَلِك، إنّه لَيَحْمِل من هُموم المُلْك، وأكدارِ السياسةِ، ما تَنُوء به الجِبال، لَعن الله السِّياسة، وقَبَّح الوِلَاية، ولا جَعل لي من أشغالهما نَصِيباً.

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص]: وأيَّ نَصِيبٍ كنت تُؤَمِّل من أُمور الدَّولة، يا مِقْلَاص، حتى سألتَ الله أن يَحْرِمَكَ منه؟

مقلاص [ملتفتاً]: دَعْني من هَذَيانك، يا جَوهر، وآنْظُر: هذه الأميرَةُ أقبلتْ كأنها البدرُ في اللَّيلةِ الظَّلْماء، أو كأنها الظَّبيُ يَتَخَطّر على الحَصباء.

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينة : يا بشرايَ، ما هذا الحظُّ العَظِيم؟ أصدقائي الثَّلاثةُ ههنا، يَجمعهم بابُ المَلِك: جَوهر حاجب الملك، ولُؤلؤ ساقي الملك، ومِقلاص.

مقلاص [مقاطعاً]: مِقلاص المُهَرِّجُ السَّاقِطُ، والمُضْحِكُ الوَضِيع.

الأميرة [بثينة]: لا تَقُلْ هذا، يا مِقْلَاص! ولكنْ قُلْ: نَدِيمُ المَلِك، وصَديقُ آبنتِهِ بُثَيْنة.

مقلاص : أنا مِقلاصِ المُهَرِّجُ! صَدِيقُكِ أنتِ، يا أميرة إشْبِيلِيَة؟ بل يا مَلِكة الأندلُس، بل يا شَرِيكة الشَّمسِ في عَرشِ الوُجود!

الأميرة : أعرفتَ الآن مكانَك؟

مقلاص : عرفتُه، يا سيدتي، وإنِّي به لَمَزْهُوٌّ فَخور.

الأميرة : إذاً، فاعلم أيضاً أنّ هذا الحاجب جَوهر، قد يَأْذن على المَلِكِ لرجالٍ يَكره لِقاءَهم، ويَغُمّه رُؤْيتُهم وسَماعُهم.

مقلاص : أمّا أنا، يا سيدتي، فما وَقفتُ على باب المَلِكِ مَرَّةً إلا حَجبتُ عنه الفِكْر والغَمّ.

الأميرة : وهذا السَّاقِي يا مِقلَاص؟

مقلاص : هذا السَّاقِي، يا مولاتي، يَقْبِضُ كُل يومٍ من دِماغِ المَلِك شُعَاعاً؛ ولولا أنّ دِماغه الشَّريف كالشَّمس، التي لا تَنْفَد أشعَّتُها، لكانَ اليومَ جُمْجُمَةً لا عَقْلَ فيها، كأكثرِ هذه الرُؤوسِ التي نَراها في الطُّرُقات.

الأميرة : وأمّا أنتَ، يا مِقْلاص، فَتَسْقِي المَلِك كلَّ ساعةٍ من رَحِيقِ مَزْحِك ودُعابتِك ما يملؤه غِبْطةً وعافيةً وسُروراً.

جوهر [مُقاطعاً - متدخلاً]: لقد آستأثرتَ يا نَدِيمَ المَلِكِ. ويا صَدِيقَ الأَميرةِ.

مقلاص [مغضباً]: بالرَّغْمِ من أَنْفِك!

جوهر : لقد آستأثرتَ، يا مِقْلاصُ، بِحَدِيثِ الأميرةِ، فَتَنحَّ ساعةً وآترُكْ لنا فَضْلةً من الشُّهْد.

جوهر [للأميرة]: مَولاتي، سَيِّدتي بُثَّينة، أيَّةَ وَحْشَةٍ خلَّفْتِ في القَصرِ يا مولاتي؟

الأميرة : أَوَأَبَداً تُبالغ؟

جوهر : كَلَّا، يا مَوْلاتي! هي كَلِمةٌ طافَتْ بالقَصرِ مُنْذُ آفتَقَدْناكِ هذا الدَّهرَ الطَّويل.

الأميرة : أتعُدُّ الثَّلاثةَ الأيّام دَهْراً، يا جَوهر؟ ألم أَقُلْ لك: إنّك تُبالغ كثيراً، لِمَ لَمْ تَسألني، يا جوهرُ، أين كنتُ؟

جوهر : أعلم أنّكِ كُنْتِ في قُرْطُبةَ، يا مَوْلاتي.

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سخر]: أجَلْ، كنتُ في مُلْكِنا الجَديد يا جَوْهر.

جوهر : وكيف وَجَدْتِه؟

الأميرة : العُنوانُ قُبّة. والكِتَاب حَبّة.

جوهر : أَرجُو ألّا يَكُون غَرامُ الأميرةِ بإشْبِيليةَ، وطنها الغالي، ومَهدِها العَزيز، قد أنساها ذكر الفَضلِ لقُرْطبةَ دارةِ المُلْكِ الأولى، ومَهدِ الفَتح والعُمْران، و...

الأميرة : أجل، وَسَماءِ الرُّعودِ والعَواصفِ، ووَكْرِ الفِتَنِ والقَلاقِل... آهِ من قُرْطُبة وفُجاءاتها يا جَوهر، ووَيلِي

على أخي الظَّافِر[1] من هذه الوِلاَيةِ الحَمراءِ، التي لم يقلّدها أميرٌ إلا قُتِل أو عُزِل . . . عَرشٌ يَضطرب تحت كُلِّ جالس، وتاجٌ لا يَسْتَقِرّ على رَأْسِ كلّ لابس.

مقلاص : مولاتي!

الأميرة : مِقْلاَص، إشبيليةُ، وأبي، وأنتَ، كانتْ ذِكْراكُم مِلْءَ خاطري في قُرطبةَ، هل مِنْ دُعابةٍ جديدةٍ يا مِقْلاص تُنْسِيني ما لقِيتُ من الغَمِّ والكَدَر على تلك العاصمةِ الثانية لِمَلكنا السَّعيد.

مقلاص : لا تقولي هذا، يا مَولاتِي،فيَغضبَ القُرْطُبيون؛ إنهم لا يُقَدِّمون على مدينتِهم حاضِرةً من حواضِر الدنيا، ولو كانت دِمَشقَ أو بغدادَ، فكيف يَرْضَوْن أن تكون الثانيةَ لإشْبِيليةَ؟ وما مَدينتنا في زَعمِهم إلاّ بلدُ الخَلاَعةِ والمُجُون.

الأميرة [ضاحكة]: وأين قُرْطَبةُ منّا الآن؟ وأين القُرْطبيُون يا مِقْلاَص؟ وبيننا وبينهم سَفَرٌ شاقّ طويل؟ تُرى مَن عَلّمك كُلَّ هذا الحِرْصَ؟ ومَن أين لك كُلّ هذا الدَّهاء!

مقلاص : هي الأيّامُ،يا أميرتي. هي الأيّام. وهذا السَّيفُ، ماذا . . . كُنتِ تَصنعين به، يا مولاتي؟

الأميرة : كُنتُ أتَّقي بهِ عَوَادِي الفُجَاءات.

مقلاص : وهذا اللِّثام؟

الأميرة : كُنْتُ أذُود به عنّي العُيونَ والظُّنونَ، في بَلَدٍ ضَيِّقِ الصَّدْرِ. مُبَلّدِ العَقل؛ شَتّان بينه وبين إشبيلية، ذاتِ

(١) انظر التمهيد.

العَقْلِ الواسع، والصَّدْرِ الرَّحِيب.

الأميرة [لجوهر]: لقد نَسِيتُ، ياجَوهر، ذِكْرَ وَاجِبٍ كانَ عليّ أن أُقدّمه قَبلَ كـلّ شيء.

جوهر : وما ذاك، يا سيّدتي؟

الأميرة : السُّؤالُ عن الملِك.

جوهر : هو، يا مولاتي بخَير، أبداً يَسألُ عنكِ.

الأميرة : وأين هو الآن؟

جوهر : هو في الصَّلاةِ، يا سيّدتي.

الأميرة [تطرق في تأثر ثم تقول]: يا وَيْحَ أبي! لقد نظرتُ إليه وهو في قَصْر البُسْتَان[1] الضيِّق الصَّغير بقُرطبة، فوجدتُه كَئِيباً مُتملْملاً، كأنَّ تلك السُّقوفَ المُنخفِضَةَ لم تكن تَلِيقُ برأسِه العالِي. وكأن تلك الحُجُراتِ الضيِّقةِ لم تُصْنع لعَينِه السامية الطمّاحة. وكأنما كان يَرى الزَّهْراء[2] أَوْلَى بأن تُقِلّه. وأجدرَ بأن تُظِله. وهُناكَ دَنوتُ حتى صِرْتُ خَلفه بحيث أَسمعه ولا يراني. فسمعتُه يقول، وكان وحدَه في الحُجرةِ، مُطِلًّا من نافذةٍ يلقي نظرَه على قُرطبةَ.

جوهر [باهتمام]: وماذا كان يَقُول، يا مولاتي؟

الأميرة : كان يقول: قُرطبة... مُلْك جديد أُضيفَ إلى مُلكِ إشبيليَة؛ ما أصغَرَ المُضافَ والمُضافَ إليه. أنْظُر، ابنَ عبّاد إلى العَرشِ كيف صَغُر، وإلى الصَّوْلجان كيف

(١) قصر البستان: قصر كان لبني أمية بقرطبة، بباب العطارين.
(٢) الزهراء: مدينة صغيرة قرب قرطبة. اختطها عبد الرحمن الناصر سنة (٣٢٥هـ) وعملها منتزهاً له. وأنفق في عمارتها ما تجاوز الحد.

قَصُر، وإلى الملك كيف اختُصر، وتأمَّل مكان الحُكْم في قُرطبة كيف سُدَّ اليوم بـالمُعْتَمِدِ، ومَجلسَ النّـاصِر كيف شُغِل بابن عبّاد.

جوهر : نحن بانتظار القاضي آبنِ أدهم، يا مَولاتي.

مقلاص [متداخلاً]: لعلَّه هذه الكُرُنْبة التي تَتدحرج من بعيدٍ مُنحدِرَةً إلينا.

الأميرة [مستضحكة لجوهر]: إستقبل أنتَ، يا جَوهرِ، القاضي وأدخِلْه على أبي، فإن قُضاة الأندلسِ لا يُستأذَن لهم على مُلوكِه.

الأميرة [ثم لمقلاص]: وأنت، يا مقلاص. أعَرَفتَ أنِّي وَجدتُه.

مقلاص : وما ذاك، يا مولاتي؟ ومَن هو؟

الأميرة : أنسِيت، يـا مِقْلَاص،حين تقــولُ لأبي بِمَسْمـع منِّي: إنّ الـزوجَ الكُفْـءَ لبُثَينة لم يُخلَق بعـد، لا في الأندَلُس ولا في غيره.

مقلاص : لا، لم أنْسَ، يا مولاتي. قُلتُ هذا ولا أزال أُعِيدُه.

الأميرة : إذاً، فآعلم أنّ الزَّوجَ الذي يَصْلُح لي قد خُلِق.

مقلاص : ومن ذاك؟ ما آسمُه؟ وأين هو الآن؟

الأميرة : كُلَّ هذا تَعلمـه بعد حين يـا مِقْلَاص. تعـالَ مَعِي الآن، اتبعْنِي ودَعْ جَوْهَراً ولُؤلؤاً يَسْتَقْبِلان القاضي الجَلِيل...

الأميرة [إلى جوهر]: في حِفْظ الله، يا جَوْهر.

الأميرة [إلى لؤلؤ]: في حِفْظِه، يا لُؤلؤ.

جوهر ولؤلؤ معاً: في ذِمّه الله وكَلاؤته، يا مَولاتي.

الأميرة : لا تَنْسَيا أنْ تَذْكُراني عِنْد الملك، وأنِّي رَهْنُ إشارتِه.

[تخرج الأميرة مع مقلاص]

جوهر : أشْكُر الله أنْ أُخّر مَجيءُ القاضي.

لؤلؤ : كذلك كنتُ أُحدِّث نفسي، وأَخْشى على مولاتي في زِيّها هذا مِن عَين الشَّيْخ ولِسَانِه.

[يظهر الملك]

الملك : هل جاء القاضِي ابنُ أُدهم، يا جَوْهر؟

جوهر : أَجَلْ، يا مولاي، رأيتُه في ساحةِ القَصرِ.

لؤلؤ : وقد عادت الأميرةُ من قُرطبةَ، يا مَوْلَاي.

الملك : أَوَعادت الآن؟

لؤلؤ : أجَل، يا مولاي.

الملك : أهِيَ بِخَيْر؟

لؤلؤ : بأتَمِّ عَافِيةٍ، يا مَولاي.

الملك : إذا آنتَهى ابنُ أدهم مِن زيارتِه، فَأْتِ بها إليّ

لؤلؤ : أمْرُكَ، يا مَولَاي.

[يخرج لؤلؤ]

الملك : وعَلَيْك يا جَوهر أن تَسْتَقْبِلَ ابنَ أدهم، وتَأْتِيني به في أوْفَرِ بَشَاشةٍ وتَعْظيم.

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدّم القاضي]
[ابن أدهم وينادي من باب الحجرة]

جوهر [منادياً من الباب]: القاضِي آبنُ أُدْهم.

القاضي : السلامُ على المَلِك ورَحْمَة الله وبَرَكَاته.

الملك : وعليكم السَّلامُ، أيها القاضي، ومَقْدَم الخَيْر، فقد عَلِمْتُ

أنـك كُنْتَ نَزِيـلَ المَغْرِبِ في الأيّـامِ الأخيرةِ، وكُنتَ بـه ضَيْفاً على أمير المُسلمين يُوسُف بن تاشِفين.

القاضي : هو ذاك، يا مَولاي.

الملك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هُناك؟

القاضي : عِنْدِي من ذلك الشَّيءُ الكَثِير، وسأذْكُره في مَجْلسٍ تالٍ يَأْمُر بـه الملك، ولا أذْكر الآنَ إلاَّ رِسـالَةً حَمَّلنَيـها الأميرُ سِيرُ بنُ أبي بَكر[1].

الملك : وما هي، أيُّها القاضي؟

القاضي : أوَيَعرِف المِلكُ الأمِيرَ سِيْر؟

الملك : كَيف لا أعرفه! هو كافِـلُ الدَّولـةِ المَغْربيّـة، وكَبيرُ وُزراء السُّلطان، وقائدُ جُيوشهِ الأكبر. وما يَبْتغي منِّي الأمِيرُ أيها القاضي؟

القاضي : إنه يَخْطُب إليكَ الأميرةَ بُثَينة.

الملك : أَلِشَخْصه يَخْطُبها أم لواحدٍ من أولاده؟ فهم ـ فيما أعلم ـ كُثْر، وأصغرهم ـ فيما أذكر ـ يُوافق مِيلادُه ميلادَ بُثينة.

القاضي : بَلْ يَخطبُها لِنَفْسِهِ أيّها الملك.

الملك : إنّ هذا عجيبٌ، أيها القاضي! وما كان جَوابُك؟

القاضي : قلتُ لـه: إنّ الملكَ ابنَ عبّـاد يَـذهب بِبنتـه بُثَينـة كُـلّ مَذْهبٍ، ولا أظُنّ قَلْبَه يُطاوعه على تَـزْويجها في الغُـربةِ وإخراجِها إلى بِلادٍ بَعيدة.

الملك : أَحْسَنتَ، أيها القاضي! فما هـذا زَواج! إنْ هـذا إلاّ قَبْـرٌ

(١) سير بن أبي بكر: أحد قواد يوسف بن تاشفين المشهورين، وأحد عظماء دولته.

أُخُطُّهُ بيدَي لِبُثَيْنة، على أنَّني مُحْضِرٌ إلَيك بُثَيْنة لتُحَـدِّثها وتَسْمَعَ منها.

الملك [إلى جوهر]: جَوهر، جِئنا بالأَميرة، يا جَوهر.

[يختفي جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبي!

الملك : بُنَيَّتي!

الأميرة : أطلبتَني، يا أَبي؟

الملك : تعالَيْ، بُثَينةُ، حَيِّ عَمَّكِ القاضي آبنَ أَدهم.

الأميرة : السَّلامُ عليك، يا مَولانا القاضي، ورَحمة الله وبَركاته.

القاضي : وعَلَيـكِ السَّلامُ، يـا بِنْتَ أَكْـرمِ المُلوك. تَعَـالَيْ خُـذِي مَجْلِسَكِ بَين أبيكِ وعَمك.

الملك : مَعْ مَنْ عُدْتِ مِنْ قُرْطُبة؟

الأميرة : مع لِثَامي وجَوَادِي[1].

الملك : وكيف وَجَدْتِ قُرْطُبة؟

الأميرة : وجدتُ طرقاتها تَمُوج بالفُقهاءِ، يَعرفهم النَّـاظِرُ بِـزِيِّهم، فذَكَرْتُ عندئذٍ شُهَـرة هذا البلدِ بـالفِتنةِ والشَّغَب، وجُرأة أهلهِ على أمـرائِهم وحُكـامهم، وأشفقتُ منــه على أخي الظافر[2]، وإن كنتُ واثِقةً بحَزْمِه وعَزْمِه.

القاضي : ومن أَنبأَكِ، أيَّتهـا الأميرةُ، أن الفِتْنـة والشَّغَب يَجِيئـانِ من ناحية الفُقهاء؟

---

(١) اللِّثام: النقاب يوضع على الفم. وكان هذا شأن بثينة حتى كادت تبدو كأنها فتى قد تلثم.
(٢) انظر التمهيد.

الأميرة : لَم يَبقَ سِرّاً، يا سَيِّدي القاضي، أنَّ الفُقهاء يُعَلِّقون سَعَادةَ الأندلسِ وخَلاصَه بإلْقائِه في أحضان جيرانِه سَلاَطِين المَغْرب.

القاضي : وأنتِ، يا بِنْتَ مُلوكِ المُسلِمين: أَما تَجِدين ما يطلُبُه الفُقهاءُ في قُرطبةَ أَجْدَى على الأندلس مِنْ بَقَائِه على الحالِ التي هو فيها، مُشْرِفاً على التَّلَف والضَّيَاع؟

الأميرة : لا،يا سيّدي القاضي، لَيس في الحقِّ أن يَغْتَصِبَ جَماعةٌ مِن المُسلمين أَوْطَانَ جماعةٍ غَيْرِهم من المُسلمين، فإنّ الوطن هو كالبَيتِ في قَدَاسته، وكالضَّيعةِ في حُرْمتِها.

الملك [متدخلاً في الحديث]: لقد بَعثتُ، يا بُثَينة، في طَلبك لِغير هذا الشَّأْن، وفي أَمْرٍ ذي بال، وإنِّي أترُك للقاضي التَحدُّثَ مَعكِ فيه.

الأميرة [ملتفتة إلى القاضي]: تَكلمْ، يا عمُ، فكُلِّي إصْغاء.

القاضي : لَقد خَطَبكِ إلى أَبيك رَجُلٌ من عُظماء الإسلام في هذا الوقت، هو الأمير سير بن أبي بكر، وزيرُ الدَّولة المَغْرِبيّة.

الأميرة : أَفارغٌ أم هومَشْغُولٌ،يا سيِّدي القاضي؟

القاضي [في حيرة]: بل له من الأَزواج ثلاثٌ، وسَتَكونين الرابعة، وستَكُونين المُدلَّلة من بَين أَزْوَاجِه.

الأميرة [في غضب]: إنّك، يا سيّدي القاضي، تَدْعُوني إلى خُطَّةٍ لا أنا مُضْطَرَّة فأَحْمِلُ النَّفس الكارِهَةَ على قَبُولها، ولا الأمِير ابنُ أبي بكر مُعَطَّلُ البَيْتِ من الرَّبَّةِ الصالِحة، فَيتشبَّث بها ويُصِرّ عليها، بَلْ تلك خُطَّةٌ لم أَجِدْ أبَويَّ عليها، ولم آلَفْ رُؤْيَة مِثْلها في حَياةِ أُسْرَتي؛ فَهذا أبي، جعلني الله فِدَاءه، لم يَتَّخِذْ على أُمِّي ضَرَّة، ولم يَكْسِر قَلْبَها

بالشَّريكةِ في قَلبه، فجاءت بنا أُولَادَ أعْيَان[1]، نَجتمع في جَناحِ الأبوّة، ولا نَفترق في عاطفةِ الأُمومة، ولو شاء أبي لكان له كنُظرائه المُلوكِ والأُمراءِ. نِسَاءٌ كَثِيـر، ولكانَ لـه مِنْهُنّ بنو العَلّات[2]، تَحْسبهم إخْوَةً وهم أَنصاف إخوةٍ، من كُلَّ دَجَاجةٍ بَيضة، ومن كُل شاةٍ حَمَل.

القاضي [متلطفاً] : شَهِـد الله لقد أَحْسَنْتِ، يا آبْنتي. ولكنَّ مَصْلحـةَ العمـلِ أُنسيتِها، ونُصْرةَ الوالد غَفَلْتِ عَنهـا؟ وسَلَامـةَ الأَنْدَلُسِ، أَهْمَلْتِ شَأْنها؟

الأميرة : لا، يا سيّدي القـاضي، كُلُّ ذلـك في المَحَلِّ الأَولِ من نَفْسي واهتمامي، ولكنّنا مُخْتلفـان في النَّظَر، فـأنتَ تَرى أنّ الأَندَلُسَ لا يَنْهَضُ من كَبْوَتِه إلا إذا مَدّ السُلْطانُ[3] إليه يَده، وأنا أَتخيَّلهَا يدَ الذِّئب يَمُدّها إلى الحَمَلِ، وأنتَ يا سيّدي القاضي، قد أخذك اليأسُ في أَمر الأَندلسِ، وأنا كُلّي رَجَـاءٌ. ولا أَسْتَبعـد أن تتهيَّـأ لأَبي، وهـو كَهْف الأنـدلس ومَـلَاذُه، الفُـرْصـةُ لجمـعْ الكَلِمـة، وضَـرْبِ الإِفْرنج ضَرْبةً تُـريح العَـرَبَ منهم السِّنين الطِّوالَ، وأنتَ تَعْلم أنّ تـاريخ الأنـدلس مُفْعَمٌ بالفُجـاءات السَّعِيـدةِ من هذا الطِّراز.

القاضي : يُـريد الله بكم اليُسْـرَ ولا يُريـد بكم العُسْرَ، ولقـد رَدَدْتُ عَنْـكِ أيتها الأَميـرة، وعن أَبيـك المَلِك، وأَحْسِبُ أنّي أحسنت الرَّدّ.

الملك : كُلَّ الإحْسان، أيّها القاضي.

---

(١) أولاد أعيان: أي لأب وأم.

(٢) بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى.

(٣) السلطان: تعني سلطان المغرب حينذاك يوسف بن تاشفين.

القاضي : الآن، لم يَبقَ إلّا أن أَنْصَرِف.

الملك : مُشَيِّعاً بِحِفظِ الله ورِعَايته.

[ينصرف القاضي ويشيعه الملك]

الملك [للقاضي]: كَيف تَجِدُ بُثَيْنَةَ، يا ابنَ أَدْهم؟

القاضي : بُورِك لكَ فيها، وبُورِك لِلأَنْدَلُسِ في عَقِيلته![1] إنِّي أَجِدُها رُوحَ الوالِدِ، وأَرى عليها طَبْعَةَ الزمنِ، وحَضارة الجِيل.

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضي]

الملك : أَعَلِمْتَ يا مِقْلَاص؟ أَسَمِعْتَ أن سِيرَ بن أبي بكر يَخْطُبُ إليَّ بُثَينة؟

مقلاص [ملتفتاً إلى بثينة بصوت خافت]: أَهذا الذي وَجَدْتِه، يا سَيِّدتي؟ إنِّي لأُهنيك بتَيْسِ المَغْرِب.

الأميرة : لا يا مِقْلاص، إنّ الذي وَجدتُهُ هو غَزال الأنْدَلُس لا تَيْس المَغْرِب.

الملك : خَبِّريني، يَا بُثَيْنة، ماذا وَجَدْتِ في قُرْطُبة.

الأميرة : حالٌ، من القَذارةِ تَتَنزَّه عن مِثْلهِ إشبيليةَ.

الملك : هذا مِن تَوَالِي الفِتْنة، والاضْطرابِ على الناسِ، حتى شُغِلُوا عَن تَنْظِيف مَدينتهم. التي كانتِ المِثالَ المُحْتَذَى بَين المُدُن نظافةً ونظاماً، ثم ماذا؟

الأميرة : راعَتْني قُصورُها المَهْجُورةُ المُوحِشةُ كأنها الأَطْلَال.

---

(١) العقيلة: السيدة المخدرة.

الملك : هـذا من آنقراضِ الـوارثين، أو ضِيقِ نِعْمَتِهِم عن سُكْنَى الـدُّورِ الواسعـة، وصِغَـرِ أقـدارهم عن نُـزولِ المنـازِلِ الرَّفيعة.

[يظهر على بثينة التأثر والاغتمام]

الملك : ماذا غَمَّك، يا بثينةُ.

الأميرة : تَذَكَّرْتُ، يا أَبِي قُصُورنَا فَجَزِعْتُ، قلتُ: الزَّاهِي، تُرَى ما نَصِيبُه، والتَّاجُ، مـاذا غَداً يُصِيبـه، والبَدِيـعُ، مـا يكـونُ مَصِيرُه، والمُؤنِسُ، هل تُوحِش مَقاصِيرُه؟[1].

الملك : بُنَيَّتي، خَلِّي عنـك هـذه الهَـوَاجِسَ، ولا تَحْمِلي على الشَّبـابِ العُبوس والهَمّ، فـإنـه لم يُخْلَق لهمـا. اصـرفي الشَّبابَ إلى الضَّحِكِ والغِبْطَةِ، فإنهمـا طَبيعته ودَيْـدَنه[2]. ألاَ نَعُود لِحَدِيث قُرطبة؟ خَبِّريني كيف وَجَدْتِ أَسواقَها؟

الأميرة : دُون أسواقِ إشبيلية حركةً ونشاطاً، إلاّ سُوقَ الكُتُب، فلا أَحْسِبُ بَغـدادَ أقامت مِثْلَهـا، دَخلتُها، يا أبي، فلَبِثْتُ فيهـا سـاعةً أتـأمّل مـا يَقَع في جـوانبهـا، وأَشْهَـد النِّدَاءَ على نَفـائِس الكُتُب. وذَخائِـر المَخْطُوطـات، وهي في أَيـدي الناس يُقَلِّبونها في آعتناءٍ وإشفاقٍ، كأنها كرائمُ الحِجـارَةِ في أسواق الجَوْهَر.

الملك : وهل كُنتِ تَهتمِّين بكِتَابٍ هناك؟

الأميرة : أَجَل، يا أبي. نُـودِيَ على رِسَـالـة المُنَجِّم الضَّبِّي[3] التي سمَّاها: هـل القَمَرُ مَسْكون؟ وكنتُ سَمِعتُ بها، وكُنتُ

---

(١) هذه كلها كانت قصوراً بقرطبة.

(٢) ديدنه: عادته.

(٣) الضبي: منجم كان معروفاً زمن هشام بن عبدالرحمن. وكان له علم بالحركات العلوية، وكان بطليموس زمانه حذقاً وإصابة.

أُريد إحرازَها، فسرَّني الظفرُ بها، وكان بالقُربِ منّي فتًى حَسنُ الهَيئةِ، ظَريفُ الثيابِ، هو لا شَكّ من بَني البُيوتات، وكان يُنازعني الرَّغبة في الرِّسالة، فلم يَزل يَزيدُ فيها، وأنا أُحْرِجُه فأَزيد، حتى بَلَّغها إلى خَمسِ مائة دينار، فقَبضتُ يدي، فرَجع إليهِ المُنادي، فأخذَ المالَ وناوَله الرِّسالة.

الملك : لا أَظُنّ حِرْصَ الشابّ على الرِّسالة إلا للمُباهاة، ولكي يقال: عِنده خزانة كُتب حَوتْ كُلَّ ثَمينٍ ونادرٍ، حتّى رِسالةَ المُنَجِّم الضَّبيِّ، فإن الشُهرةَ في قُرطبة مِن قَديم الزمان أَنْ يَتنافَسَ الناسُ في آتّخاذِ الخزائنِ للكُتب، حتى الذين لا عِلْمَ لهم بما فيها.

الأميرة : ظَلَمتَ، يا أبي غَريمي الشابّ، فقد كُنتُ أَلحظ عليه الحِرْصَ على الرِّسالة، والسَّعْيَ لإحرازِها، حتى ما بقي في نفسي شَكٌّ أنّ الفَتى من أهلِ المَعرفةِ والاطِّلاع.

الملك : وكيف هو، يا بُثَينة؟ ما شَكْلَهُ؟ ما صِفَتُه؟

الأميرة : شابٌّ يُناهزُ الثلاثين، جَميلٌ وَقُور، يُشبِهُك يا أبي، أو كأنّه أخي الظّافر، وما كان أعظمَ أدبَه ومُروءَته، فإنه حين غَلبني على الرِّسالة بادر فقال: أيها الفتى المُلَثَّم، إن كان آعتناؤك بهذه الرِّسالة شديداً، كما رأيتُ، فعرِّفني بموضعِ إقامتك، وأنا أَستَصْنع منها نُسخة وأبعثُ بها إليك. فشكرتُ وآعتذرتُ بكثرةِ أسفارِي في الأَنْدَلس، فآنطلق شديدَ الفَرحِ بما نال. وكان جَواده بآنتظارِه فآعتلاه، فوالله، يا أبي، ما رأيتُ قطُّ بعدَك وبَعد أخي الظافر أَرْشَقَ وثُوباً على جَوادٍ، ولا أَحسَنَ قِياماً في

صَهْوةٍ[1] من غَرِيمي الشاب.

الملك [مبتسماً وهو يضع يده على كتفها]: أخشى يا بُثينة أن يكون غَرِيمُك الشابّ أَعرفَ بتَصَيُّدِ القُلوبِ منه بآعتلاءِ الجِياد.

مقلاص : الآن عرفتُه، هو فَتَى السُّوق، هو فتى الرِّسالة.

[يدخل لؤلؤ ويقول]:

الجماعةَ يَتوارَدُون على مَجلِس الشرابِ، أيّها الملك، فآنْظُر ماذا تأمر؟

بثينة : وأنا أيضاً ذاهبةٌ لِبَعْضِ شأني، إن أَذِنْتَ.

الملك : في كَلاءةِ الله، يا بُثينة.

[تخرج بثينة].

(١) الصهوة: موضع السرج من ظهر الفرس.

المنظر الثاني

«ترفع الستّار، الخليفة عن مجلس شراب إلى جانبه ستر مسدل وفي وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته. وتطل هذه المنظرة على الوادي الكبير حيث للملك زورق».

الملك : ما عِندَكَ من الشَّراب لأصحابنا، يا لُؤلؤ؟

لؤلؤ : خُمورُ مالقة، وزبيبُ أشْبِيلية[1].

الملك : وماذا هيأتّ لهم من نَقْلٍ وطَعام؟[2].

لؤلؤ : الجوزُ واللوزُ من وادي الطَّلْح[3].

الملك [يرفع عقيرته ويغني]: الجَوزُ، اللَّوْزُ، يا ربَّ الفَوْز.

أحد الحاضرين [إلى جاره]: هذا لَحنُ الملك الذي يُحِبّه ويَهتِف به، حتى في الحَمَّام.

مقلاص ولَحني، أيّها الملك، أتَسْمَعه؟

---

(١) مالقة: مدينة بالأندلس معروفة بجودة خمورها.

(٢) النقل: ما يتنقل به على الشراب من فواكه وكوامخ وغيرها.

(٣) وادي الطلح: واد ملتف الأشجار كثير ترنم الطير، وهو يشرف إشبيلية. وكان المعتمد بن عباد كثيراً ما ينتابه.

الملك : قُل، هاتِ، يا مِقْلَاص.

مقلاص [يغني]: الجَوزُ اللَّوزُ بوادي الخَزّ[1].

الملك : مَرْحَى! مَرْحَى!

الحاضرون جميعاً: مَرْحَى! مَرْحَى!

الملك [لمقلاص]: تعالَ، قِفْ خَلْفِي، يا مِقْلَاص، وقُم عِنْدَ رأسِي.

مقلاص : ها أنا قائمٌ عِنْدَ رَأسِك الشَّريف، هل أُفلِّيه؟

الملك : تأدّبْ، يا وَقَاحُ، القُمَّلُ لا يُوجَدُ في رؤوس المُلوك.

مقلاص : ما أَدري، يا مَولاي، ولكنِّي أَعلم أنَّ القُمَّلَ يُوجد في لِبْدَةِ الأَسد[2]، وأنت أَسدُ الأَنْدَلُس الذي يَعْنُو[3] له المُلوك.

الملك : لله ما أَمرَّ لِسَانَك وما أَحلاه؟ فهو كمِشْرَطِ الجَرَّاحِ المَاهِر، جَمعَ مَرارةَ القَطْعِ وَحَلَاوةَ الشِّفاء.

الملك [إلى لؤلؤ]: ثُمَّ ماذا، يا لؤلؤ؟

لؤلؤ : كُلُّ ما لَذَّ وطابَ من السَّمَك. بَعْضُه مَجْلُوبٌ من بَحْرِ الزُّقاق[4]. وبَعْضٌ من صَيدِ الوادي الكَبِير[5].

الملك [يتغنى]: الجَوزُ اللَّوزُ يا رَبَّ الفوز.

الملك [إلى وزيره ابن سعيد]: ماذا يَقُولون في المَدينةِ يابنَ سَعِيد؟

---

(١) وادي الخز، أو مرج الخز: من متنزَّهات قرطبة.
(٢) لبدة الأسد: الشعر المتراكب بين كتفيه.
(٣) يعنو: يخضع ويذل.
(٤) بحر الزقاق: هو المسمى الآن، مضيق جبل طارق.
(٥) الوادي الكبير: نهر قرطبة العظيم.

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهـل إشْبِيليَة إلا تلك النَّكبـةُ التي حَلَّتْ بأبي الحسن التاجر.

الملك : واهاً لأَبي الحَسَن! ووَيْحَ الأندلُسِ ! ما أَعظَمَ مُصيبتَهُ في تاجرِه العامِلِ المُوفَّقِ الأمين!

الملك [الى ابن سعيد]: وكَيف وَقَعتِ الكارثةُ يابن سَعِيد؟

الوزير : كانتْ لأبي الحَسنِ التاجر في لُجَجِ البحارِ ثَلاثُ بَوارج، وهي، الزُّهَرة، والثُّـريّا، والجَـوْزاء، خَرجتِ الـزهَرةُ إلى الإسْكَنْـدريَـة تَحمـل إليهـا مقـداراً عـظيمــاً من الـزَّيتِ الإشبيليّ، فـأَخـذهــا عـاصفٌ، فغَــرِقتْ في الـطَّريق. وأقلعتِ الثـريَّا بعـد ذلك بِـأيامٍ ، مَشْحُـونـةً بـالتِّجَـارات المُتنوِّعة إلى ثُغور الأَندلسِ ، فصادفها أُسطولٌ للفرنْجة، كان يتجوّل على الشَّواطىء، فَأخذها مَغْنَماً بارِداً. وكانتِ الجَـوزاءُ قـد سبقتْ أختيْهـا إلى عُرْضِ البحـرِ، تَقصِـد سَواحِلَ المَغرب، مُحمَّلةً بالشَّيء الكثيـر من مَصنوعـاتِ الأندلسِ وتجاراتـه، فشبّتْ فيها النـار، فأعيـا إطفاؤهـا، فسَقطتْ شُعلةً في الماء.

الملك : وَيْح أبي الحَسن! وَيْح!!

الوزير : إنّ أبـا الحسنِ، أيُّها الملك، شَيـخٌ كبيـر، قـد فَـرَغ من الدُّنيا وفَرَغتِ الدُّنيـا منه، فمُصيبتُـه أقصرُ عُمـراً، وأهونُ وقْعـاً، من مُصيبةِ آبنـهِ الـواحـدِ، وولـدِه النـابـهِ الشـابْ حَسُّون.

الملك : قـد ذُكـر لي آسمـه، وسَمعتُ الثَّنـاء عليــه مِن كثيـرٍ من الناسِ.

الوزير : وإنّه لَكما نَعَتُوه لك أيها الملك، وَفوق مـا نَعتوه: شـابٌ

جميـلٌ وَقُورٌ جَـريء، وافـرُ القِسْطِ، من العِلمِ والأدبِ، تَعلّم لُغةَ الأَسبانِ حتى أَجادَها، حديثاً وكتابةً، يَجري بها لسانه كما يَجري بها قَلمُه.

الملك : إنّ شاباًّ هذا شأنه، وهذه هِمَّته في الحَياةِ، لا يُتْرَكُ نُبوغُه سُدًى، ولا يُوكَلُ إلى اليأسِ القـاتل، بـل يَجْمُلُ بِنَـا أنْ نَأْخُذَ بيدِه فنُهوِّن عليه عَثْرَةَ أبِيه البَريء.

الجماعة [يتهامسون]: ما هذا السِّتْر؟

آخر [همساً] : ماذا خَبأَ لنا الملِكُ وَراءَه؟

الملك : فِيمَ تتهـامَسُون؟ لعلّكم تَـذكُرون السِّتْـر، اشْرَبـوا الآن ما بَدَا لكم وآطْرَبُوا؛ وأمّا السِّتـر فَستعلمون نَبـأَهُ بَعْدَ حِينٍ. لقـد وَزَّعتُ عليكم من أيـامٍ وَفْـدَ النَّصـارَى مِن نُبـلاءِ الأَسْبان، فماذا صَنَعتم بهم؟ وكيف كانت أَنْصبتُكم؟

الملك [ملتفتاً إلى وزيره الداني][1]

الوزير الداني : كانتْ حِصّتي، يا مَولاي، أَطْيبَ الحِصَصِ، فضَيْفي شابٌّ نبِيـلٌ طَرُوبٌ، لَـطِيفُ الأُذنِ، مُولَـعٌ بالقيثـارةِ، لا يَضَعُها من يدِه، وله عليها ضَرْبٌ يأخُذ بالأَلْباب.

الملك [مبتسماً]: يَسأَل آخَر من الجُلَساء: وأنت يآبن الصَّائغِ، كيف ضَيْفُك؟

ابن الصائغ : أنـا أقلُّ الإخـوانِ حَظّاً أيُّهـا الملك، فضَيْفِي رَجُلٌ كهْـلٌ قِسّيسٌ، يَقْطع اللّيلَ بالصَّلاةِ وتِلاوةِ الإنْجيل.

الملك : بَلْ لعلّك أَعظمُ الجَماعةِ حظّاً ولا تَدْرِي.

ثالث من الجلساء : أمّـا أنا، أيها الملك، فقد آبْتُلِيتُ بِـرَجُلٍ شَيْـخ، شـرِّيب

---

(١) الداني: نسبة إلى دانية: بلدة بالأندلس.

[مخاطباً الملك] خَمرٍ، لا يُرْوِيه في اليوم دَنٌّ ولا دِنَان، فإذا كان قَبْلَ كُلِّ طَعامٍ، قدّمتُ له زبيبَ إشبيلية، فأَقْبَلَ يَعُبُّه عَبّاً، كما يَقع الظَّمآنُ على الماءِ الزُّلَال؛ وقد شَرِبَ من خمر مالَقة، في ثَلاَثِ لَيَالٍ أقامها عِنْدِي، ما يَكْفيني أنا شَهْراً، وأنا الذي يعرف المِلكُ وَلَعِي بالخَمْرِ المَالقيّ.

الملك : وأنتَ يا لُؤلؤ، كيف ضَيفُك، وما حالُه؟

لؤلؤ : إنه شابٌّ، يا مَولاي، خَفيفُ الظِّل والرُّوح. مُولَعٌ بالرَّقْص، وأنا أتلقّى عليه كُلَّ لَيلةٍ دُرُوساً في الرَّقصِ الإسبانيّ، حتى كِدْتُ أُحْسِنُه.

الملك : وأنتَ، يا مِقْلَاص، كيف ضَيفُك؟ وما يَصنع مَعك؟

مقلاص : ضَيفي، يا مولاي، رَجُلٌ كَهْلٌ، بادِنٌ ضَخمُ الجُثّةِ كالخِنْزيرِ المُتدَلّي البَطنِ، مِن تَراكُبِ الشَّحمِ واللَّحمِ إذا جاء في البيتِ وراح آرتجَّتِ الجُدرانُ، واهتَزَّ ما على الرُّفوفِ من آنِيةٍ، وإذا نام خَرج الغَطِيطُ والنَّخِيرُ من حَلقهِ ومن أَنفهِ، ومن كُلّ مَوضع فيه، ولو نام في جَبَّانةٍ لأيقظ غَطِيطُه الأموات.

الملك : وكيف طَعامُه، يا مِقلاص؟ وما أَحبُّ الألوانِ إليه؟

مقلاص : هو، يا مولاي، مَجنون المَعِدةِ بالإوَزّ، له كُلَّ صَباحٍ على الرِّيقِ إوزّة، وغَدَاؤه إوزّة، وعَشاؤه...

الحضور جميعاً : إوزّة!

الملك [ملتفتاً لوزيره الداني]: وما عِندك أنتَ، يا داني، ممّا يَقُولون في المَدينة؟

الداني : يتهامَسون في المدينةِ بأن الفِتنة قد تَحرّكت شياطينُها في قُرْطُبة، وأن القادِرَ صاحبَ طُلَيْطُلَةَ يَسْعَى لأخذِها من

ولدِكَ الأَميرِ الظافر، وأنه يَستعين في دَسّه وكَيـدِه وتَدْبيـرِه بالبَطل حرِيز[1] وصاحِبه آبن لاطون[2].

الملك : الـولاياتُ يـا داني كخـلايا النّحـل، فيها العَسَـل وفيها الأَسَل[3]، وأنا واثقٌ بحَزْمِ الظافر وعَزْمه، والله يَفعل بعد ذلـك مـا يشـاء، إنّ ضُيُـوفَكُم النُّبلاءَ، أيّهـا الأَصحـاب، سيكونون هنا بعد ساعةٍ.

الملك [إلى جوهر]: وأنتَ يا جَوهر آنْظُر، أين الجُنديّان؟

جوهر : بالباب، يا مَولاي.

الملك : أدْخِلْهما.

[يدخل الجنديان]

الملك [إلى الجنديين]: أين الكَلْبُ؟! أجِئْتُما به؟

الجنديان : هو بالبابِ، يا مولاي، يَرْسُفُ في قُيودِه.

الملك : أَدْخِلاه.

[يدخل ابن شاليب اليهودي يجر قيوده]

ابن شاليب : التحيّة والإجلال للملك.

الملك : تحيّـة لا نَتقبّلها من رجُـلٍ شَتَمنـا بـالأمسِ بِمَسْمَـع من رِجَالِنا وأعواننا.

ابن شاليب : معاذَ الله، أيّها الملك! ما شَتَمتُ ولا تَهَجَّمتُ، ولا نَسِيتُ أنّي نَـزِيلُ هـذه المملكة، يَجِبُ عليّ لصـاحِبها التَّـوقِيـرُ والإكْبَار.

---

(١) انظر التمهيد.
(٢) ابن لاطون: هو عبد الحميد بن لاطون، وكان كاتب حريز.
(٣) الأسل: الشوك، يعني إبر النحل.

الملك : بل أنت تَكْذِبُ يآبْنَ شالِيب.

ابن شاليب : على رِسْلِك أيّها الملك، أنَسِيتَ أنَّ وَرَائي مَلِكاً عَظِيماً، يَسْأَلُ عن أمرِي، وأنا سَفِيرُه عندك، وَرسُولُه إليك، وقد يَغْضَبُ لي إنْ أنتَ نِلْتَنِي بسُوء.

الملك : فإن كان السَّفِيرُ وَقَاحاً قَلِيلَ الأَدب؟

ابن شاليب : هذا كثير، أيّها الملك، فآجْعل للإهانةِ حَدّاً، ولا تَنْسَ لي مَكانِي.

الملك : ستَعلم مَكانَك بعدَ قَلِيل.

[إلى ابن وهب]

أعِد يآبن وَهْبٍ على هذا الكَلْبِ ما لَهَثَ به[1] حين عَرَضْتَ عليه مالَ الجِزْيَة.

ابن وهب : لقد همَّ، يا مَولاي، بردِّ المالِ مُعتلاً بسُوءِ العِيَارِ[2] ونُقْصانِ الإتَاوَة[3] عن السنةِ الماضية، وقال: بَلِّغ سيدَك أنّه لا يَحُول الحَول[4] حتى آتِيَ فآخُذ عَيْنَيْه.

ابن شاليب : هذا كَذِبٌ وآخْتِلَاق.

الملك : بل أنتَ الكَذّاب. فما أنا بالمَلِك الذي يَكْذِب عليه وُزراؤه وأعوانُه. وما شَرَفُ الأَنْدَلُسِ وجَلَالُه إلاّ عَدْلُ قُضَاتِه، وقلّة شاهدِ الزُّورِ فيه.

ابن شاليب [يمرّغ خدّيه على البساط ويقول]: ألا تَعْفُو، أيّها المَلِكُ الكَرِيم، فهمُ يَقُولون: إنَّ العَفْو شِيْمَتُكم مَعْشَرَ العَرَب.

---

(١) لهث به، أي نطق به. والأصل فيه: إخراج اللسان من حر أو عطش. ويقال هذا للكلب.
(٢) العيار: مقدار ما فيها من ذهب خالص.
(٣) الإتاوة: الجزية.
(٤) يحول: يمضي. والحول: العام.

الملك : إلّا ما مَسَّ الشَّرَف والكَرامَة.

ابن شاليب : أَتَقْتُلني، أيّها المَلِك، من أَجلِ كَلِمَةٍ سَبَق بها لِسَاني، وأَعْمَاني الغَضَبُ فلم أزِنْها، ولم أُقَدِّر عَوَاقِبَها؟

الملك : عَجَباً يا وَزِير ألفُنْش[1]! أنت تَزِن القَناطِيرَ المُقَنْطرةَ مِن الذَّهبِ والفِضة، فلا يُفْلِتُ مِن حِسَابك بُرادةُ مِثْقَال[2]. ثُم لا تُحْسِن أنْ تَزِن كَلِمةً تَخْرُج من فِيك!...

ابن شاليب : أعفُ عنّي وآسْتَبْقِني، أيها الملك، وأنا أَشتري منك حياتي بوَزْنِ جِسْمِي ذَهَباً.

الملك : لا والله. ولا بِثِقْلِهِ لآلىءَ وَيواقيت، وأنا أَعلم أنّ وراءَك مَلِكاً عَظيماً،، هو عَبْدُ المال، أمَا أنا يابن شاليب فعَبْدُ الله.

الملك [للجنديين]: أيها الجُنْدِيّان، خُذَا هذا المُجرم فأَمْضِيَا أَمْرِي فيه.

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب
فيأخذانه إلى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل] : نُبَلاء الأسبان بالباب، يا مولاي.

الملك : يدخلون.

كبير النبلاء : التحيات للملك.

الملك : مَرْحَباً بضُيوفِنا النُّبَلاء، تفضَّلوا وخُذوا مَجْلِسَكم وآطْرَحُوا الكُلْفَة.

كبير النبلاء : شُكْراً، يا مولاي؛ هذه الحَفَاوةُ بالضَّيفِ لا تُسْتَغْرب من

---

(١) الفنش، هو الأذفونش، ملك أسبانيا حينذاك.

(٢) البرادة: ما يتساقط من المعدن حين برده. والمثقال: وزن مقدار درهم ونصف الدرهم تقريباً.

مَلكِ العَربِ الكريم.

الملك : تَعالَ، آجلسْ بجانبي، أيها النَّبِيل.

[يجلس كبير الإسبان حيث أشار الملك
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب وبالنقل]

لؤلؤ : ماذا تَشتَهِي من الشَّراب؟

كبير الأسبان : ما دُمْنا في إشبِيلِيَة يافتى المَلِك، فإني لا أُقَدِّم على زَبِيبها الصَّافي المُعَطَّرِ شيئاً.

أحد الحاشية [في أذن جاره]: أُنظر السِّكّير، يا أخي، كيف تَجاهلَ خَمْرَ مالَقَة! وكيفَ نَسِي أنه أنْفَدَ ذَخِيرتي منها ثلاث ليالٍ أقامها عندي.

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [إلى لؤلؤ]: دُلَّنا، يا لؤلؤ، على ضَيْفك الرَّقّاص.

لؤلؤ [يشير إلى أحدهم]: هو هذا النَّبيل، يا مولاي.

الملك [إلى الأسباني]: إنّ فَتايَ لؤلؤ، أيها النبيل، مُغْتَبطٌ بما تَعلَّم عليك من أُصول الرَّقص.

الأسباني : وأنا، يا مولاي، ما رأيتُ أسرعَ خاطراً، ولا أرشَقَ حَركاتٍ، ولا أحْسَنَ حِفْظاً لما يُلْقَى عليه في فُنون الرَّقْص، من صاحبي لُؤلؤ.

الملك : إنّ مُطْرِبي هذا آبنَ حَزْم، يُحْسِن الضَّرْبَ على القِيثَارة. وقد تَعلّم في صِغْرِه الكثِيرَ من ألحانكم ونَغْمات رَقْصِكم.

الملك [إلى لؤلؤ]: فلْيرقصْ لؤلؤ على إيقاعِه.

الملك [إلى الأسباني]: وأَنتَ تَرْسمُ له، أيها النَّبيل، النَّغْمة التي تَصْلُح للرَّقْصة.

[لؤلؤ وصاحبه الإسباني يرقصان ويعزف لهما ابن حزم. . . ويصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والإعجاب]

الملك[في جد إلى جليسه الأسباني]: أيهـا الضَّيفُ النَّبيـل، أَمْـرٌ يَشْغَـلُ بـالي، ويَهتمُّ بـه أصحـابي، ويَنتظرون حُكْمِي فيـه. وقـد رأيتُ أن أنتهـزَ فُـرصـة الأُنْس بحُضـوركم لأَسِيـرَ على ضَـوْءِ رَأيـك في تَصْرِيفِهِ.

النبيل الأسباني : لَيس أَحَبَّ أليّ، أيُّهـا الملك، ولا أَزْيَـدَ في شَـرَفي من مَشُورةٍ خالصةٍ نافعةٍ، أُلْقِيها إلى جلالتك.

الملك : إذن، فاعلم، أيها الضيفُ النَّبيل، أنّ أحدَ جيراننا المُلوكِ أَوْفَـد إليّ رَسُـولاً، في مهمّـةٍ مَعلومـةٍ، فنَسي الـرَّسـولُ مَكَانِي حتّى سَبَّني، بِمَسْمَع من رجـالي، وأَوْعَد وتَهـدّد، فما الذي يَقْضِي به عُرْفُكم على رَجُلٍ هذا فِعْلُه؟

النبيل الأسباني : مِثْلَ هذا جَزاؤه القتلُ، يا مولاي.

الملك [إلى النبلاء]: أَسَمِعتُم، يا مَعشرَ النُّبلاء.

النبلاء : سَمِعْنا، أيهـا الملك، وقـد أفتى كَبِيـرُنـا، وهـو العَـدْلُ والصَّواب.

الملك : إذن، فانظُروا.

الملك [ثم لأحد الجند]: أيها الجُنديُّ، ارفَعْ هذا السِّتْر.

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابنُ شاليب؟

الملك : هـذا صاحبَكم آبن شـاليب، قد رَمـاني أنا ووزيـري هذا آبنَ وَهبٍ، بتـزويـرِ العِيـار، والغِشّ في الميـزانِ، وقـال لرجالي وأعواني: بَلِّغوا سيِّدكم أنني آتٍ في العام القابل

فآخذُ عَيْنَيهِ مِن رَأسه.

أحد الجماعة مستنكراً: وما ذَنبنا نحن، أيها الملك، حتى عَاقَبْتنا بهذا المَنظر؟

الملك : لقد تَردّدتُ بين أن أَقتُلهُ بأَعْيُنِكُم، وبَين أن أَعْرِضَه عليكم، وهو، كما تَرون، جُثة بلا رُوح، ولكني وجدتُ في الرأي الثاني تخفيفاً على ضُيوفي، فعمِلْتُ به.

[ثم ينهض الملك علامة الإذن في الانصراف ويختلط بهم وهو يشيِّعهم]

الملك : أُنقلوا، أيها النُّبلاء، إلى الملك أَلْفُنْش ما سمعتُم، وصِفُوا له ما رأيتُم، وتحدّثوا به في طُولِ بلادِكم وعَرضِها، لِيعلَمَ الناسُ هناك أن الأَسد العربيّ لا يُشْتَم في عَرِينِه[1]، وأنه لو غُلِبَ على غابَتِه، حتى لم يَبْق له منها إلا قابُ[2] شِبرٍ من الأَرض لما آستطاعتْ قِوى الإنس والجنّ أن تَنْفُذَ إلى كَرامتِه من قابِ هذا الشِّبْر.

[ينسل النبلاء الإسبان من المنظرة وهم جيرُّون سيقانهم جرّاً من الرُّعب]

الملك [إلى حاشيته]: الآن، يا نُبلاءَ العَرَب، نَحطِوي هذا البِسَاطَ، ويَبْقَى هذان الجُنْدِيّان، حتّى إذا خَلت منَّا المَنْظرة[3] رَفَعا السِّتْر عن جُثةِ آبن شالِيب، ليعلم أهلُ إشبيلية كيف يَحِلُّ العِقابُ بمن يَجْتَرِىء على شَرَفِ أميرِهم، الذي هو شَرفُهم الرَّفِيع.

(١) العرين: مأوى الأسد.
(٢) القاب: المقدار.
(٣) المنظرة: مكان من البيت يعدُّ لاستقبال الزائرين.

المنظر الثالث

«الملك نشوان، ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق على الوادي الكبير فيثب فيه ويقول . . . . »

الملك : انظر يا، مِقْلَاص، إلى هذا الزَّوْرَق، ما أَلْطَفَه، صَدَقَ القَوْلُ: كُلُّ صَغِيرٍ لَطِيف.

مقلاص : إلّا وَظيفَتي في قَصْرِكَ، فإنها لا لَطِيفَةٌ ولا شَرِيفَة، وإنّ هذا الزَّورقَ قد يَنْقَلبُ فيأخُذُ شَكْل النَّعْشِ، ولن يكون النَّعشُ لطيفاً أبداً.

الملك : هَبْه آنقَلب، يا مِقلاص، فصار نَعْشاً، أَلَيْس النَّعْشُ مَرْكَبَ كُلّ حيّ، وإن طالتْ سَلَامَتُه؟

مقلاص : أمّا أنا فيُعفيني المَلِكُ.

الملك : لا، يا مقلاص، لا أُعْفِيكَ، ولا أَحْسَبُك تَدَعُني أَسِيرُ في لُجَّة النَّهرِ وَحْدِي، وأنا كما تَراني نَشْوَانُ.

مقلاص : وإن كان، ولا بُدَّ، أيها الملك، فإنّي أَقْتَرِح.

الملك : وما تَقْتَرِح؟

مقلاص : أن أكون أنا المُجدِّفَ وَحْدِي.

الملك : ولماذا؟

مقلاص : الأَمْـرُ بَيِّن: التَّيَّـار مَجْنـون، والسُّكْـر مَجْنـون، وأنت سُلطان، وكُـلُّ سُلطان مَجنون، وهـذا الـزَّورَق خَشبـة لا عَقْـلَ لها، فهـو أيضاً مَجْنـون؛ وإني أَرْبأ بحيـاتي[1] أيها الملك، أن أُجمع عليها مجانِين أربعة.

الملك [مستضحكاً]: لا يكون إلّا ما آقترحتَ، يا مِقْلاص، تَعـالَ آرْكَبْ وَجَدِّفْ وَحْدَكَ، واتْرُكْ لي أنا الدَّفَّةَ.

مقلاص : أمّـا هذا فَنَعم. وإنّي أَرْجُـو أن تَكُونَ دفَّةُ هـذا المَـرْكَبِ الصَّغيرِ أَحْسَنَ مَصيراً في يَدَيْك من دِفَّةِ المَمْلكة.

الملك [مستضحكاً]: **تعال، ثِبْ[2]؛ هاتِ يَدَك.**

[مقلاص ينزل إلى الزورق ويأخذ المجدافين]

الملك : أُنْظُر، يا مِقْلاص،وراءَك، إنِّي أَرى قارِبـاً يَنْدَفـعُ نَحـونـا مُسْرِعاً، كأنه حُوتٌ مُطَاردٌ مَذْعُور.

مقلاص : هــوذا قد دَنَـا مِنَّـا يـا مَـولاي، فـأَحْسِنْ مَسْـكَ الدَّفَّةَ، وآجْتَنِبْ الصَّدْمة، وأنا أَذُوده عنّا بِمِجدافي هذا، وأَضْرِبه ضَرْبةً تَقذِفُ به إلى الشاطِيء الآخَرِ من النهرِ.

الملك : إيّاكَ أن تَفعلَ، بل انْسِرْهُ فلا بُدّ لنا أن نُؤدّب هذا الشـابَّ المَغـرور، فإني أرَى المَـلاَّحَ فتًى كَـرِيمَ الهَيئـةِ، فهـو لا شَكَّ من أبناء أَعيان إشبيليَة.

---

(١) أربأ بحياتي: أنزهها.
(٢) ثب: أقفز.

[يصطدم الزورقان ويظهر مقلاص ارتباكاً وجبناً فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قويَّة ويقول لمقلاص]

الملك اقْذِف الآن بـه إن آستطعتَ إلى الشـاطىءِ الآخَـرِ من النَّهـرِ، [ثم يلتفت إلى الشاب الملاح ويقول]: مَكـانكَ أيهـا الغُلام الوَقَاح، ما هذه الجُرْأة على التيّـار، وعلى شَبابك هذا الغَضِّ النَّضير. وما غَرَّك بالمَلك حتى قَرَّبتَ عُودَك[1] من عُودِه، تُريد أن تأخُذ عليه الطَّريق.

الملاح : مـولاي. إنّ الـرَّعيَّـة يَهْفُـون[2]. وإنّ الملوك يَعْفُـون، وزَوْرَقي إنّمـا آندفـع بقُـوة التيَّـار القـاهـر، فـوافَق مُـرُورَ مَرْكَبك المَحْروس، فكان ما كان ممّا أعتـذر إلى الملك منه.

الملك [بصـوت منخفض : وَيْحَ أُذني! مـاذا تَسْمع؟ هـذا الصَّوتُ أَعْـرِفُـه! [ثم يلتفت إلى الملاح قائلًا]: قد عَرَّفناك أيّها الفَتى مَن نَحْنُ، فعَرِّفنا بِنَفسِك.

[يرفع الملاح قناعه]

الملك [صائحاً]: بُثَيْنة؟

الأميرة [الملاح]: أَجل أيها الملك، ابنتُك وأَمَتُك بُثَينة.

الملك : عَجباً! أأنتِ هُنا بين' العُبَـابِ[3] والتيّار، وعلى هـذا العُود الـذي يُشْفِق أَبُوكِ من رُكُـوبه، وأَبُـوكِ مَن تَعلمين أَشجعُ العَرَب قَلْباً.

---

(١) عودك، أي قاربك. والعود، في الأصل: الخشبة.
(٢) يهفون: يخطئون.
(٣) العباب: الموج.

الأميرة : ولِمَ لا تَكُونُ ٱبنة المَلكِ شُجَاعةَ القَلْبِ مِثْلَه، إنّ الأَسَـدَ لا يَلِدُ إلا اللَّباة[1].

الملك [يهدأ غضبه]: ومن أين مَجِيئُكِ، السَّاعة، يا بُثَينة؟

الأميرة : من المَـوْضِع الذي أُحِبُّه، كما أُحِبُّ الحُجـرة التي وُلِدتُ فيهـا، ومن نـاحيـةِ السَّرْحَةِ[2] التي أَحنُّ لهـا كَحَنينِي للمَقَاصِيرِ التي ضَمّتني طِفلةً ممّهـدة[3]، ومن بُقعةٍ مُبَاركةٍ وَقَفتِ السَّعادَة بكَ في ظِلّها على أُمّي الرُّمَيْكيّـة، فرأيتَهـا فـأَحْببتَهـا أوّلَ وَهْلَة. ولم تَكُن إلا غَسّـالـةً مَغْمُـورةً، فتزوجْتَها فَرَفَعتَها أعلى ذُرَى[4] للشَّرف، ومن هذا الـزَّواج المُوَفَّق السَّعيد، وُلِـدْتُ أنا لأبٍ، قَصّـر الآباءُ عن بِـرّه، ومَلِكٍ جَـلَّ عن النُّظَراء والأَمثـال، أليس ذلك المكـانُ الـذي هـو مَهْـدُ حُبِّكمـا الأول، مِن حَقّـه أن يُحَنَّ إليـه أحياناً، بَلْ مِنْ حَقّهِ أن يُحَجَّ، آناً، فآناً؟

الملك [متأثراً] : بنفْسي ورُوحي أنتِ، يـا بُثَينـة. لقـد عَـظَّمْتِ المَهْـدَ، وقَضَيْتِ الحَقَّ، والآنَ ألاَ تَـرْجِعين إلى القَصْـر بسَـلام، فـلا أَحْسَبَ القَصْر إلا قـائمـاً لِغَيْبَتـكِ على سَـاقٍ، حتّى لكـأنّي بأمّـكِ تَسأل عن أمـرِكِ، وبِجَدّتـك أشْغـلَ وأشـدّ قَلَقاً.

الأميرة : لقد كُنتُ، يا مولاي، في طَريقي إلى القصـر، لـولا هـذا الاتفـاق السَّعيد، الـذي صُدِم عُـودي بعُـودِك، والآن إذْ

---

(١) اللباة: الاسدة.
(٢) السرحة: الشجرة العظيمة.
(٣) ممهدة: ميسرة لها الأمور.
(٤) الذراء جمع ذُروة، وهي من كل شيء: أعلاه.

أَمَـرْتَ، فـإنِّي أَنْـطَلق في سَبيـل، وأَسْتَـوْدعـك الله يا مَولاي.

الملك : اذهبي، يا بُنيَّتي، في كِلاَءةِ الله، وإيّـاك والمُجـازفـةَ فيمـا تَفعلينَ، فإن الحَيَاة أعـزّ وأنفسُ من أن تُعرِّض للتَهْلُكَـة، وأَنْهـاكِ عن الخُـروج بَـعد اليـوم إلاَّ مَصْحُـوبـةً بلُؤلؤ أو جوهر، فإنهما لا يَأْلُوانِك[1] خِدْمَةً وحِرَاسة.

الأميرة : لا يكونُ يا مولاي، إلاّ كما أَشَرتَ.

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك ـ وقد أطرق مليّاً إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السِّنة»[2]

مقلاص : مـولاي، إنّ الشطّ قَـريبٌ، وإنّ الأرضَ أَصلحُ مَجْلِسـاً لمثل ما أنتَ فيه من الهمِّ والتَّفكير.

الملك : كيف رَأيتَ بُثينة؟ وكيف وَجدتَ جُرْأتها، يا مِقْلاص؟

مقلاص : تلك اللَّبَاةُ من هذا الأَسد، يا مولاي.

الملك : مـا كُـلُّ جَـريء فَـطِن؛ وهــذه الفتـاةُ جَمعت الحِجَى[3] والشَّجَـاعـة. إنّهـا تَعلم أنَّني رجـلٌ رَقيقَ القَلبِ، مُجيب العاطفة، وتَعلم كـذلك أنّ شيئـاً من النُّفور[4] قـد دَخلني نحـو أُمها مُنـذُ حينٍ، فٱنْـظُر كيف تَحيَّلَتْ حتَّى ذَكَّـرتني العَهدَ القَديم، فوالله ما أنا، الساعةَ، بأَقـلَّ حُبّاً للرُّمَيْكِيَّة، ولا عَـطْفـاً عليهـا، منّي منـذُ عِشـرين سنـة. جَــدِّفْ يـا مقلاص جَدِّف، سُبحـانك اللهم، جَعَلتَ الـولَدَ سَفِيرَ

---

(١) لا يألوانك: لا يتركان جهداً ولا يقصران.
(٢) السنة، بكسر أولها: النعاس، وهو مبدأ النوم.
(٣) الحجا: العقل.
(٤) النفور: المباعدة.

المودّةِ والرًّحمة بين الوالدين.

[يندفع الزورق]

الملك [يتغنى]: الجَوزُ، اللَّوْزُ، يا ربَّ الفَوْز.

مقلاص [يجيب]: الجَوزُ اللوزُ بوادي الخَزّ[1].

ستار

(۱) وادي الخز، أو مرج الخز: من منتزهات قرطبة.

الفصل الثاني

«خان التميمي في إشبيلية حيث صفت المـوائد والأرائـك وجلس إليها قوم يتحدّثون ويحتسون الشراب. ابن حيون متفرد وحده إلى مائدة، وأبو القاسم قادم عليه من بـاب الخان. حـريز يجلس إلى مـائدة أخـرى، وأمام ابن حيون. ورجال هنـا وهناك يلعبـون النرد والشطرنج أو يطالعون بعض الرسائل»

أبو القاسم إبنَ حَيُّون[1] ما أطيبَ هذا اللقاء!

ابن حيون : سَيّدي أبو القَاسم[2]، يا مَرْحباً، يـا مَرْحبـاً، ها هنـا صُفَّةٌ لَيِّنة[3] ومَجْلِس كريم، فلو جَلسنا ساعةً نَتحدّث. أزائـري أنتَ أبا القاسم؟ أم جِئت الخانَ[4] في شَأنٍ يَعنِيك؟

أبو القاسم : بل إيّاك قَصدتُ يآبن حَيّون، وإنَّ الشَّوْقَ إليك لَشَدِيد.

ابن حيون : شَوقٌ بَعْضُه من بَعضٍ يا أبا القاسم، ولكنْ من أُنباك أني مُقيمٌ بخان (التميميّ.

---

(١) انظر التمهيد.
(٢) انظر التمهيد.
(٣) الصفة: المكان المسقف. واللينة: ذات الفراش الوثير.
(٤) الخان: الفندق.

أبو القاسم : لقد عَرفناك كالرُّوّادِ الرُّحّل. لا تُرى إلاّ في خانٍ أو عِنْد دَوَارِس الأحجار[1].

ابن حيون : الخانُ والسُّوقُ يا أبا القاسم، مَدرستان من مَدارِس الحياة، يَنتفع بهما الرَّجلُ الأريب. ألستُ في هذا الخانِ كُلَّ يَوم؟ أُبَدِّل أهلاً بأهلٍ، وجيراناً بجيران، وأستعرضُ صُوَراً مُتحرّكة مِن الخَلائق، كُلما احتجبتْ صُورة خَلَفتْها صُورة، وكيف حالُ إشْبِيليَة، يا أبا القاسم؟ وهل مِن حَوادثَ هناك؟

أبو القاسم : الحالُ إنْ لم يُصْلِحها الله فمال لها من صَلاح، والحوادثُ يابن حَيُّون تَتوالى ولا تَتولَّى[2] واليَومُ مُغْبَرّ، والغدُ مُكْفَهِرْ.

ابن حيون : وابنُ عبّاد في غَوَايَتِه مُسْتَمِرّ!

أبو القاسم : خَلِّ ابنَ عبّاد، يا أخي، لا تُجرِ ذِكرهُ بسُوءٍ فإنّه السَّيْف الذي يَرجوه العَرب، والحِصْنُ الذي يَحْتَمُون غداً فيه.

ابن حيون : لم تُنْصِفْ، يا أبا القاسم، طَبَعْتَ[3] للعَربِ مِن الخَشَب سَيْفاً، وبَنَيْتَ لهم من الشَّفِير الهائر حِصْناً[4].

أبو القاسم إتّقِ الله، يابن حَيُّون، بَعْضَ هذا البَغْي، للمُعْتَمِد من المحاسنِ ما يُغَطّي على مَساويه. أجَهِلتَ إحْسانه على أهل العِلم، وعَطْفهُ على أهلِ الأدبِ؟ أجَهِلتَ كيف يُرَبِّي أولادَه تَربية لم نَعْرِفها من الأمراء والمُلوك؟ أجَهِلتَ

---

(١) الدوارس: القديمة.
(٢) تتوالى: تتتابع، وتتولى: تذهب وتمضي.
(٣) طبعت: صنعت.
(٤) الشفير: الحرف. والهائر: المتهدم.

كيف يعامل الرُّميكيَة زَوجته الفاضلة مُعاملةً تَحْسُدها عليها عَقائِلُ الأندلس؟[1].

ابن حيون : آهٍ، يا أبا القاسم! مِن هَهُنا دائي، وهَهُنا ثَأرِي عِند صاحِبك.

أبو القاسم : يَا عجبًا كُلَّ العَجب! ما هذا الثَّأر؟ ما حَدِيثُه؟

ابن حيون : إسمعْ أبا القاسم وأَنْصِفْني.

أبو القاسم : تَكلَّم يابنَ حَيُّون، فكُلِّي مَسَامع.

ابن حيون : كُنتُ في صَدْر شبابي صيَّاداً شابّاً مَلِيحاً، رَأسُ مالي شَبَكة، وقِوَام مَعِيشتي سَمكة، وكانت تَختلف إلى المَواضِعِ التي أَختلف إليها من النَّهر للصَّيدِ، وآبتغاء الرِّزق، صَبِيّة غَسَّالة، حُلوةُ الدَّلاَلِ، بارِعةُ الجَمالِ، كأنّ حديثها السِّحرُ الحَلال. فآنعقدتْ بيننا أُلفة، وكانتْ لنا مَجالس على الماءِ، كأنها أَعْرَاسُ النهرِ، ولقاءاتٌ على الوادي الكبير[2] كأنها أعيادُ الدَّهرِ؛ أَحْبَبتُ الصَّبيَّة وأَحبَّتني، وتكلَّمنا في الزواج، وشَرَعنا نَأخُذ له أُهْبته.

أبو القاسم [مقاطعاً]: وبينما أنتما على ذلك طَلع عليكما من النَّهر فُلْكٌ عليه شارةُ الملك، يحمل مَلِكاً شابّاً جميلًا، فنَظَر الصَّبيَّة فراعهُ حُسْنُها، وكلّمها فأَعجبه أَدَبُها. وآرْتَجلت الشُّعْر بين أُذُنيه، فبلغ إعجابُه بها الغاية، فتَزوّجها مِن يَومِه، فملأتْ قُصورَه غِبْطة وبَهْجة، وولدتْ له الشُّموسَ والأقمار.

هذا حَدِيثُ الرُّميكيّة يابنَ حَيُّون، وهذا خبرُ زواجِها،

(١) العقائل: السيدات.
(٢) الوادي الكبير: نهر قرطبة.

يَعْلَمه كُلُّ مَنِ في الأنـدلس ويَتنـاقلونـه بـالإعجـابِ، ويَتحـدّثون أن بِنتَ الشَّعْب نَـزلتْ قُصورَ الملكِ من أولِ يومٍ نُزولَ الأقمارِ في هالاتِها[1]، وأنها من عشـرين عامـاً إلى اليـوم قُدوةُ عَقَـائِل الأنـدلسِ ، والمِثَـالُ الأَعْلَى بين أميراتِه ومَلِكاته.

ابن حيون : ومـا كـان ذَنْبي، يـا أبـا القـاسم،حين آحْتَقـرتْ حُبِّي، وآستهانتْ بِخِطْبتي! وكيف تُريد منِّي بعـد ذلك أن أكـون لصاحبِك المعتمد من المُخلصين.

أبو القاسم : هَبِ الأَمرَ كان مَعْكوساً يـابنَ حَيْون، وهَب الفُلْكَ الـذي وَقف يومئذٍ بكما كان يَحمل مَلِكةً شابة، فاتنةَ الجمـالِ، بيمينهـا الجاه وفي شِمـالِها المـال، فنظرتْـك فـأَحبَّتـك، ودَعتْك لتَبْني بها وتُشـاطرهَـا عِزّة المُلْكِ، وثـراءَ المالِ، أتُـراك كُنتَ تُعرِض عن المَلِكـة وفاءً بعَهـدِ الغَسّـالـة؟ لا والله، يابنَ حيّون، مـا كنتَ فاعـلاً ذلك! وهـذا ما فَعلتْ الرُّمَيْكِيْة، رأتْ مَلكاً كبيراً، وشباباً نَضِيـراً، وفَضْلاً وأَدبـاً غَزيراً. فـأَحَلَّت نَفْسَها من ذلك الوِدَادِ، وفَضَّلتْ أَصْيَـدَ[2] على صَيّـاد. عرفتَ يـابن حَيّون أن ذَنْب الـرُّمَيْكِيّـة ليس بالعَظيم كما تَوَهَّمْتَ. بَقي المُعتمد، وأنا لا أجدهُ آقترفَ إليـك ذَنباً، أو أراد لـك ضُراً، بـل أنا أُقسم لـو عَلِم ابنُ عبّاد يومئذٍ بما كان بَينكما من الحُبّ، وما صِرْتُما إليه من الخِطبةِ، ووَشْكِ الزَّواج. لأخـذكـما في كَنَفِـه، وتَكَفَّلتْ لكما نعمتُه بالزَّواج ونَفَقتِه، وبالبَيتِ وجِهازه، وبالضَّيعْـةِ

(١) الهالة: الدائرة من النور تحيط بالقمر.
(٢) الأصيد: كل ذي حول وطول من ذوي السلطان.

التي تُغِلّ عليكما وتَبقى بعدكما على الأولاد.

[ابن حيون مطرقاً]:

أبو القاسم : إبنَ حَيّون، ما لك مُطْرقاً لا تَنْبِس؟ ما بالُ عَيْنيك تَمتلئان؟ اسْتَرْخِ[1] يا أخي للبُكاء، واسكُبْ دُموعَ النَّدم.

ابن حيون : الآن آسْتَرَحتُ يا أبا القاسم، وآنطرح عن صَدْري أتُونٌ[2] من الحِقْدِ حَملتُه عشرين عاماً، حتى حَنَى الظَّهر، وَأَكلَ الصَّدْرَ، وأَدْنَى من القَبر.

أبو القاسم : مِسْكينٌ أنتَ ابنَ حَيّون، إنّ حِقْدَ عِشرين عاماً لو جُمِع وقُذِف به في جَهَنّم لكان لها منه وَقُودٌ لا يَنْفَد.

ابن حيون : لقد شَفَيْتَني، أبا القاسم من ضَلالي القديم، فأَرشِدْني كيف أعتذر إلى الرُّمَيْكية عن سُوءِ ظَنَنْتُهُ وبُغضٍ أسررته وأعلنتهُ، وكيف أُكفِّر عمّا سَلَف منّي في ذاتِ المُعتمدِ، من جَهْرِ السُوءِ وهَمْسِه.

أبو القاسم : يَغفِر الله لك، يا بن حَيون، إنّ الحِقْد ما خَرج من قلبٍ إلاّ دخلتْه الرَّحمة، وإني لأَرجو أن ستُحِبّ صاحِبَيكْ وتَرحمهما، وتُحسن إليهما، كُلما وجدتَ إلى الإحسانِ سَبيلاً.

[يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف عن الطواف]
[على المائدة التي جلس إليها حريز وابن لاطون]

قيم الخان : لعلّ السّيدينْ قد وجدا الراحة في هذا الخانِ الصغيرِ ببنائِه، الكبير بأقدارِ رُوَّادِه ونُزلائه؟

---

(١) استرخ: انبسط واتسع.
(٢) الأتون: الموقد الكبير.

حريز : ومَنْ السيّد؟

ابن لاطون : هذا الأديبُ التَّميميّ صاحب الخان وَقيِّمه.

قيم الخان : لعلِّي، أيّها السيِّدان، بحَضرةِ الأمير حَرِيز[1] أسدِ الأَنْدَلُس، وصديقِهِ ابنِ لاطُون[1] نَمِر الجزيرة.

ابن لاطون : هو ذاك، يا أخا تَميم، هذا الأميرُ حَرِيز بطلُ الأندلُس وواحدُه، وأنا ابن لاطُون خادمُه وكاتبُ ديوانِه.

قيم الخان : يا طِيبَ هذه الزِّيارة، وما أَعظمَ شَرفي بها، لقد مَرّ بنا أيها الأَمير منذ ساعةٍ رُكْبانٌ حَدَّثونا العجب عن ذلك السِّباق، الذي أقامه مَلِك الفرنجة ألفُنْش في معسكره، إكراماً لك وحفاوةً بك، وخَبَّرونا كيف آحتلْتَ على الطاغيةِ فَمَرقتَ من ذلك الجيش الجَرّار ناجياً بجوادِك الصاعقة، وظافراً بالأميرِ بُطْرُس شَقِيق الطاغية.

حريز : وكلاهما، الساعةَ، تحت سَقْف خانك هذا. ففي بعضِ غُرَفه بُطرس أمير الإسبان، يأخُذ قِسْطه من الراحة. وفي الإسْطَبل الصاعقة أمير الجياد يُعْلف ويَسْتَجِمّ.

قيم الخان : يا فرحاً، يا شرفاً، أخو الطاغية أسِيرٌ في خانِي، نَبأٌ، والله عظيم، لا تَطْلُع شمس الغد حتى يَنْتشرَ في الأندلس، فتَشتغِل الدُّنيا بالتميميّ ويَهْتَمّ بخانه الناسَ.

حريز : والصاعقة، أمير الجياد، أنسِيتَه، يا رَجُل؟ إن آسطَبِلك لَيَتيهُ بهِ على مَغاني الفِرنجة وقُصورِهم، فاذهبْ فمُرْ رِجالك أن يَعْتنوا به، وليَأْتُوا بما كان عليه من الأَمتعةِ والأَسباب، فيضعوا ذلك كُلّه في هذه الزاوية من الخان.

---

(١) انظر التمهيد.

قيم الخان : سَيكونُ ما أمرتَ، يا سيّدي.

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بُطْرس، لعلّك أخذتَ قِسْطَك من الراحة.

الأمير بطرس : أَجل، قد آسترحتُ، يا حَرِيز، والآن خَبِّرني ما أنتَ صانع بي؟ لقد أصابتِ الحُبَالة[1] فما أنتَ صانعٌ بالصَّيد.

حريز : إنها، أيها الأمير، حُبالةٌ كَرِيم.

بطرس : ولكنّي على كل حال أسِيرُك، يا حَرِيز.

حريز : أجل، ولكنّك الحاكمُ في الأَسر

بطرس : لم تُنْصف أخي الملِكَ، يا حَرِيز. آطمأنّ إليك فخدعتَه، ووثِقَ بك وخُنتَه، وأَطلق لك جَوادَك الصاعقةَ وأَسَرْتَ أخاه.

حريز : نَحن في حربٍ معكم، أيها الأَمير، والحرب لا تُسأل عمّا تَفعل، وأنا صاحبُ حِصنٍ للعَرب يُحاصره أخوك، وفي الحِصن أبطالٌ لَا يعرفون الخوفَ، ولكنهم بَشرٌ يَعرفونَ الجُوع. ومِنهم المرأة والصغير، والشيخ الفاني الكبير؛ وحِصْني يُوشك أن يَسْقُط بعد طُولِ الحصارِ وضِيقِه.

بطرس : إذن، يَهمك أن يَخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحِصْن.

حريز : أُراك فَهِمْتَ، أيها الأمير.

بطرس : إذن، فاعلم، يا حَرِيز، أنك إن خَلَّيتَ الآن سَبِيلي،

---

(١) الحبالة: المصيدة.

فرجعتُ، الليلةَ، إلى مُعَسكري وقومي، فإنه لا يُصبح الصُّبحُ حتى يُطْلَق سَراحُ كلِّ من في حِصْن رَباح[1] وينالهم من أخي وعطفِهِ ما يُنسيهم جراحَهم، ولا ينزع من رِجالك سِلاحهم بل تُترك للأسد أظفارُها.

حريز : هذا ما أَبغي أيها الأمير.

بطرس : وأيَّ الأَقْسَام[2] تُريد أنْ أُعْطِيكَ عليه؟

حريز : إنَّ الرجلَ الشَّريفَ كَلِمتُه قَسمٌ، وإشارتُه يَمين؛ فأنا أكتفي بما سمعتُ من وَعدِك، فأنْطلق الآنَ مَحروساً بعناية الله، وعُدْ لأخيك المَلك فَبلِّغه تحيَّتي وإجلالي، وخبِّره بأنّ رِبْحي من ذلك السِّباق كان عظيماً، فقد غَنِمْتُ صُحبةَ أخيه الأمير النَّبيل الكَريم، وغَنِمْتُ أيضاً خَلاص رِجَالي في الحِصْن، وخَرجتُ فوق ذلك من المَيدان بكُنوز طُلَيْطُلَةَ، وجَوَاهِر مُلوكها بني ذي النُّون.

الأمير بطرس : كُنُوز طُليطلة؟ خرجت بها بين عَين الجيشِ وأُذنه؛ يا لك من داهيةٍ عَتِيد. أكانتْ هذه الكُنوز معكَ حين أتيتَ للمُعَسْكر؟

حريز [ضاحكاً] : كلا، أيها الأمير، بل كانتْ في طُليطلة، وفي خَزائن ملوكها بني ذي النُّون، وإنما آحْتَلْتُ حتى حُمِلَتْ إليّ مع الصَّاعقة، إذ أَمر أخوك الملكُ أن يَذْهَبَ إلى المدينة المَحصورة، من رجاله ورجالي، من يأتي بالصَّاعقة.

بطرس : عجباً! لقد رأيتُ الصاعقة حين جيء به من طُليطلة، فلم

---

(١) حصن رباح، أو قلعة رباح: من أعمال طليطلة.
(٢) الأقسام، جمع قسم، بفتحتين، وهو اليمين.

أَرَ عليه شيئاً من الأَحمال والأَثقال، فهل كان يَحْمِلُ في بَطنه الكُنوز؟

حريز [ضاحكاً]: ولِمَ لا تقول إنها كـانتْ على ظَهره، أيها الأمير؟. . . . . (منادياً): يا تَميميّ.

التميمي : مولاي.

حريز : إدفع إلى الأميرِ جَـوادَه قَيْصر، وشَيِّعـه بفارسَيْن من أشـدِّ رِجالك، يُرافقانِه حتى يَبلغ خُطوطَ الفرِنْجة.

بطرس : في حِفْظ الله يا حَريز.

حريز : بذمّةِ الله أيها الأمير.

[يخرج حريز مشيعاً الأمير بطرس إلى باب الخان
ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حريز همساً]: لقد ذكرتَ، أيها المولى، كُنوزَ طُليطلة للأمير الأسباني، فأين هي منَّا الآن؟

حريز : هي مَعنـا يآبن لاطُـون، بين أعيننا، وفي خِفَـارةِ سَيْفَيْنا، ولكنك لا تراها ولا يَقَع في وَهْم واهمٍ بـأيِّ مَوضـع هي من الخان.

[يسمع من خارج الخان مناد ينادي متغنياً]

المنادي :

أنـا ذا طَـاهٍ أتـاكُـمْ مِنَ شَـرِيش بقَـطَائِـفْ[1]
مَن يَـذُقْ حَلْوَايَ يَبْـرُزْ لِحَـرِيْـزٍ غَيْـرَ خـائِـفْ

حريز : لله ما ألذَّ الصَّوتَ! وما أَحسنَ الشِّعْر!

---

(١) الطاهي: الطباخ. وشريش: مدينة بالأندلس من أعمال اشبيلية.

ابن لاطون : وإنّا نرجو ألا تكونَ القَطائف دونَهما لذةً وجُوْدة.

[حريز متجهاً إلى باب الخان]

حريز : تَعالَ، يا صاحبَ القَطَائِف. أَتَعْرِفُ أيها الرجل حَرِيزاً الذي أَشَدْتَ بذِكْره فيما أَنْشَدْتَ؟

البائع : أوَتَجْهَلُهُ أنتَ؟ كائناً مَنْ كُنتَ، وهو عَنْترةُ البيد، وحَيْدرةُ الحِمى[1] ونادِرةُ الزمان؛ أَعْرِفُه بأمسِه ويَومِه، كما يَعْرِفُه سائر النَاس.

حريز : وكيف صِفَتُه؟

البائع : رَجُلٌ عِمْلاقٌ، أَشَمُّ، طويلُ الساعدَينِ، عَبْلٌ شَمَرْدَل[2].

حريز : كَفى يا شَرِيشيّ كفى، اكْشِفْ عن بِضاعتك لِنَرَى أينَ المُنادَى عليه من النِّداء.

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين: تَعالَى الله ما أَشْهَى!

صوت آخر : تعالَى الله ما أَطْيَبَ!

حريز : بكَمْ تَبيعُني هذه الصِّينيّةَ، يا رَجُل؟

البائع : كُلّ ما أَعطَيتَ مَقبول، أيها السّيّدُ الكريم.

حريز [ويلقي إليه صرة دنانير]: خُذْ هذه الصُّرَّةَ مُباركاً لك فيها.

البائع : ولكُمْ في القَطائِف، أيها الطَّاعِمُ الكَرِيم.

---

(١) عنترة، هو ابن شداد. فارس شاعر. والبيد: الصحراوات. وحيدرة: من أسماء الأسد. والحمى: ما تجب حمايته.

(٢) الأشم: المترفع المتكبر. والعبل: الضخم. والشمردل: الجند.

حريز [للحاضرين]: تعالَوْا أيها الإخوان نَتقاسمْ هذهِ اللُّقْمَة الطَّيِّبة تفضلوا. أقْبِلُوا، ذُوقُوا معنا من هذا اللَّون الذي ذَاعتْ شُهرتُه في البلاد، حتى قِيل: إنّ مَنْ دخل الأندلسَ ولم يَذُقْ من مُجَبَّناتِ[1] شَرِيش، فما عَرفِ من مَتاع الأندلُس شيئاً.

أحد الحاضرين : إنّ لهذه القَطائف لَطِيباً يُسْكِر من بَعيد.

[الجميع يأكلون]

أحدهم : ما ألذّ!

ثان : ما أَطْيَب؟

حريز [وهو يأكل ملتفتاً إلى ابن حيون]: ما بالُ الأَدِيبِ لا يُجيبُ الدَّعوة؟

ابن حيون : إنّي صائمٌ، أيها الأميرة.

حريز : تَقبَّل الله مِنكَ، وإن أَنتَ لم تَقْبَلْ مِنَّا.

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل]: هذه المائدةُ جَمَعتْ العلَفَ[2] والشَّرفَ، فوالله ما كان أحدُكم يَحْلُمُ أنْ يُؤَاكِلَ أَسدَ الأندلُس!

آخر : حَقٌّ إنّ هذا لَهُو الشَّرفُ العَظِيم.

[يفرغون من الأكل]

حريز : يا إلـهي ما هذا الدُّوَار؟ ابن لاطُو. . . . .

ابن لاطون : وأنا أيضاً كأني داخلُ في غَيْبُو. . . . . به.

رجل [لصاحبه]: كيف تَجِدُ الدنيا في عَينِك، يا ضَبِّيّ؟

الضبي : مُظْلِمةٌ صاعدةٌ نازِلة.

---

(١) المجبنات: ما عمل من الجبن.
(٢) العلف: الطعام.

الرجل : وأنا أيضاً أجِدُ الدنـ. . . . . ـيا.

أبو القاسم : لقـد رُجِمْتَ بصِيَامـك يابنَ حَيُّـون، فإني أظُنّ القَـطائف طُبِختْ بالبِنْج، وأخذتْ تَصْرَعُـ. . . ـني.

ابن حيون [مذعوراً]: وَيْحٌ للجماعـة غُودِرُوا صَرْعى، ووَيْحٌ لك، أبا القاسم، سَقَطْتَ سَلِيبَ العَقلِ والحَرَاك.

[يظهر صاحب القطائف ويصفر فيدخل جماعة من اللصوص]

ابن حيون [وقدامتلأ المكان باللصوص] : يـا إلهـي! آمتلأ المكـانُ باللُّصـوص. الآن تبيَّنتُ أنّ القطائف كانت مِصْيَدة، لم يَعْصِمْني منها إلا الصِّيام.

[ثم لنفسه [همساً]: تَنَاومْ يابَن حَيُّون ويَتناوم على مِقعده .

صاحب القطـائف : يا أصحاب البـازي. غداً يتحـدّثُ الأندلُس أنّ صـاحِبَكم صَـرعَ الأَسد، وأخـذ الصاعقـة من فارِسـه الجبّار، وقـد خَصَصْتُ نفسي بأميرِ الخيـل الصاعقةِ، فهـو حِصَّتي من غَنائم اليوم، وما سِواه فهو لكم تَقْتَسِمُونه بينكم، فدُونكم الجُيُوبَ ففتِّشوها، وعليكم بالحَقائب فآنْبُشُـوها، وخُـذوا أثـاثَ الخانِ وعُـروضَه، كُـلّ مـا خَفَّتْ زِنَتُـه، وعَـظُمتْ قِيمتُه.

أحد اللصوص : ولكنّ الصاعقة عُرْيَانُ لا سَرْج عليه، أيّها الزعيم!

البازي : بجياد الأندلُس جميعاً هو، كاسِياً كان أو عُرْيان.

لص آخر : لقد لَمَحْتُ، أيها الزعيم، في زَوايا الإِسْطَبل سَرْجاً محلًّى بالذَّهب والفِضّة.

البازي : أوأنتم تـارِكُـون لي السَّـرْجَ المُـذهّبَ المُفضّضَ أيهـا الأصحاب؟

اللصوص : نحن وما نَمْلِك للزَّعيم.

البازي اللص : إذن،فاسْبِقْني ، يـا شِهَـابُ،فضَـع السَّـرجَ المُـذَهَّبَ على الصاعقة، وآنْتَظِرْني هناك.

[يأخذ اللصوص في السلب والنهب وينسلُّون واحداً إثر واحد بمـا حوت أيديهم، ويبقى رجل منهم فينحني على سرج عـاطل يتـأمَّله ويظن ابن حيون المكـان قد خـلا فيستوي في مجلسـه ويقع نـظر اللص عليه فيرمي السرج العاطل عليه قائلاً. . .]

أحد اللصوص [لابن حيون ويرمي عليه السرج العـاطل]: خُذْ،يا شَيـخَ السَّوْء، هذه الخَشبَة لعلَّ فيها العِوَضَ عمَّا أفَاتك الصِّيامُ من القطائف.

[ويخرج اللص]:

ابن حيون [لنفسه] : شُلَّتْ يدُ اللِّص؛ لقد قَذَف السَّرْجَ بقُوّةٍ حتى كَسره، ولـو أصـابني به لَتَـركني جُثةً بـلا رُوح، يـا إلاهي، تُـرى أيُّ شيء في فُروج هذا السَّرج.

رَبِّ، مـا هذا الحَصى؟ أيُّ مَجْنـون يَمـلأ سَـرْجَـه بهـذه الأحجار. . . !

[ثم يستخرج عدداً من الأحجار البارقـة ويقلبها بين يـديه مذهولاً قائلاً]:

لآلىء! يواقيت! أبا القـاسم، قُم فآنـظُر، إن الذي حَشَـا رَأسَـكَ بـالعِلْم والفِقْـه، قـد حَشَـا رُدْني[1] بـالـلآلىء واليَواقيت.

[ثم لنفسه] : يـابن حَيُّون، أين يُذْهَبُ بك؟ هـذا كَنزُ مَلِك عـظيم من أقيال الرُّوم[2] جَدّ به الحِـرصُ، وخاف آمتـدادَ الفِتنة إلى

---

(١) الردن: الكم.

(٢) الأقيال: الملوك، واحـدهم: قيـل، بـالفتـح. وكـان هـذا اللقب خـاصـاً بملوك اليمن في الجاهلية. أما لقب ملوك الروم فهو قيصر.

كَنزه، فآختار له هذا السَّرج البالي، وفي نَفسه أن يَصُونَه أو يَمُوتَ دونه، فأَخلَفَ الدَّهرُ ظُنونَه.

[يجمع اللآلىء بين الدهشة والاضطراب ويقول]:

ابن حيون [وينظر إلى اللآليء]: لآلِيء! يواقيت! ماس! زُمُرُّد! رَبّاه! هذا عِجْـلُ الذَّهَب[1]، هذا هو مَعبودُ الناسِ بعدَك. هذا هو المال.

ستار

(١) يريد العجل الذي اتخذه السامري، صاحب موسى عليه السلام، من الذهب.

الفصل الثالث

«بستان أمام دار أبي الحسن. إلى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطيء الوادي الكبير - أبو الحسن جالس في هذه الساحة وبين يديه تابع له هو (سعيد) وجماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون»

أبو الحسن : ما هذا؟ ما أرى؟ إني لا أعرف هذهِ الوجوه؛ فمن الرجالُ، يا سعيد، وما يبتغون؟

سعيد : هذه الوُجوه تَحُومُ على الدَّارِ مُنذُحينٍ، يا مولاي، وتَسألُ عن أَجزائها، وتَستفهمُ عن مُشْتَملاتها؛ وتَتحدَّثُ عن المَكْتبةِخاصّة،وما عَسى تَضُمّ من نَفائِس الأَسْفار[1].

أبو الحسن [رافعاً وجهه إلى السماء]: لُطْفَكَ اللَّهُم! لقد لَهِج الناسُ بالنَّكْبةِ، وآشْتغلوا بالمَنْكوب، وما أولع الناسَ بالناس.

[ثم إلى الرجال]: أيها الرِّجال، تَعالوا فإن كُنتم ضُيوفاً فيا مَرحباً بكم، وإن كانتْ لكم حاجاتٌ تُرِيدون قَضاءَها، فهاتُوا آذْكُروا.

---

(١) الأسفار: الكتب. واحدها: سفر. بالكسر.

أحدهم : إيذنْ لي، يا سيِّدي التاجر، أنْ أُصارحَك القَولَ، فليس مَرْكَزُك بِسرٍّ؛ والدَّارُ مَعْروضَةٌ لاَ محالة، فَلْنَبِعْها اليوم، فقد تُغْبَنُ جِدًّا في الغد.

أبو الحسن : أَتُشْفِق على الدارِ أن يَكْسُدَ سُوقها في غدٍ؟ أم تُشْفِقُ على نَفسِك أن يكون السِّمسارُ غيْرَك؟... بكَم قَوَّمتم الدارَ، أيها الوسيطُ المُجتهد؟ وأيَّ ثَمنٍ تُعْطُون؟

أحدهم : عندي المُشترى لها بخَمسِين ألفَ دينار، يا سيِّدي التاجر، تُحْمَلُ إليك في الصباح إن قَبِلْتَ.

أبو الحسن [إلى الثاني]: وأنتَ فماذا عِندك؟

الثاني من السماسرة: عِندي الرَّاغِبُ الذي يَزيد خمسةَ آلافِ دينار.

أبو الحسن [مشيراً إلى الثالث]: وهذا الثالثُ الآخَر، ماذا عِندَه؟

الثالث : عِندي أيها السيِّد أنَّ صديقاً لك لا أُسمِّيه، يُريد أن يَشْتَرِي مَكتَبَتَكَ بالثمن الرَّبيح. فهل أنتَ بائع؟

أبو الحسن [في غضب] : والمَكتبةُ أيضاً أَخذوا يتحدّثون في شِرائِها! ووِسادتي وفَرشُ نَوْمي، أما لهما عِندك من طالِب، أيها الرَّجُل؟ أُغْرُبْ عَنّي! أغْزُبْ وخُذ صاحِبيْك معك وآنْطَلِقوا. إنّ النّكبة لم تَبْلُغ، بَعدُ، تَمامَها، ولم نَبْلُغ معها إلى اليأس.

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتاً إلى الرجال الثلاثة قائلاً]:

[المغربي الشيخ]: تلك، والله، وَقاحة!

أحد السماسرة : خَجلتَ فيها يا وَجْهَ النَّحس!

[ينصرف السماسرة]

أبو الحسن [يناجي نفسه]: ظَهَرَ فيكِ السِّمسارُ يا دَار! اللَّهُمْ أنتَ أَعطيتَ،

وأنتَ أخـذتَ، وأنتَ تَعلم أنِّي لَسْتُ التَّـاجـرَ اللِّص ولا المُحتال، فآلْطُف بي فيما قَضَيتَ، وأعِنْ وَلَـدِي حَسُّونـاً على ما يُواجِه من فِرَار النِّعمةِ، وانتقال الأيّام.

[ثم يشعر براحة ويقبل على الشيخ المغربي قائلًا]: وأنتَ يا شيخَ البَرْبر، ما وَراءَك؟

المغربي : أنا زائرٌ يا سيّدي التـاجر. وربمـا كَلَّمْتُك في شَـأنٍ يكون فيه آرْتياحك ورِضاك.

أبو الحسن : مَرْحَباً بالزائر. تعالَ يا سيّدي نتحدَّث على هذا الفَضـاء الـطَّلْق. وفي ظِلّ هـذا الرَّوْضِ الكَرِيم. [يسيران قليـلًا ثم يجلسان].

المغربي : أنا يا سيّدي التاجر، رَجُلٌ من أغنيـاءِ المَغرب. حَبَّبَ الله إليَّ السِّيَـاحةَ في أرضِـه. أجُوبُ مُـذْ كُنتُ البَـرَّ. وأرْفـعُ شِـراعَ البَحـر. إلى أن دَفعتْني الأسفـارُ منـذُ أيـامٍ إلى مَدينتِكم هذه إشبيلية الغَنّاء، وكنتُ سَمِعْتُ عنها، وقرأتُ الشيءَ الكَثيـر. فلمـا نَـزَلْتُهـا، ودَخلتُ في مَــواضِعهـا، وخرجتُ، مَلأتْ نَفسِي، وشَغَلتْ خاطِري، فاعتزمتُ أن أجعلَها قَـرَارِي، ومُلْقَى عَصايَ في رِحلْةِ الأيّام.

أبو الحسن : ما أسعد إشبيلية يا سيدي بابنِها الجديد البارّ!

المغربي : مَهلًا، يا سيّدي التاجر، وخُذ الحَديثَ إلى آخره، لم يَبْقَ في نَفسي من هَـوى الأسفارِ إلاّ جَـوْلةٌ أجُـولها فيمـا وراء هذا الأندلُس، من ممالكَ للفرنجة ودِيَار، فإذا كتبَ الله لِيَ السَّلامة، أتيتُ هذه المدينةَ فاتَّخذْتها وطناً ودِيَاراً.

التاجر أبو الحسن : مُشَيَّعـاً بالسلامة والكَرامة.

المغربي : ولكنِّي مُزْمِعٌ سَفراً شاقّاً بَعِيداً. وما يَدْرِي المُسافرِ ما وراء

الغُربةِ من الفُجَاءاتِ، وما تَدْري نَفْسٌ بأي أرضٍ تَمُوت، ومعي، يا سيّدي، مِن كَريم الجَوْهرِ ونادِره، ما أخشى عليهِ السَّرقة أو الضَّياع، وأنا مُنْقَطِعُ الوارثِ، لا أهلَ يَنْتظرونني ولا ولَد، ولقد مَرَرْتُ بدارِك هذه مِراراً. . . فكنتُ كلما زِدْتُها تأمُّلاً زَادتْني بَهجةً ورَوْعةً. حتى حَدَّثتني النَّفسُ بشرائِها.

أبو الحسن [في غضب]: أأنتَ أيضاً يا سيد أتيتَ تُساومُني في الدار!

المغربي : دَعْني أستَتِمُّ يا أبا الحَسن. فإني جادّ، ما أنا بالمُساوِم ولا بالرَّجُلِ الذي يَلْتمس الفَوائدَ لنفسِه مِن مَصائِبِ الناس؛ ولكني جِئتُ أَخطُبُ إليك الدارَ، وأجعَلُ مَهْرَها ما أُقدِّرُ أنا لا ما تُقَدِّرُ أنتَ ولا الناس.

أبو الحسن : ماذا تُريدُ يا سيد؟ بيِّن! صَرِّح! إنّي لا أفهمُ ما تقول!

الشيخ المغربي [ويخرج عقد لؤلؤ من كمه]: هذا عِقْدٌ مِن كَبيرِ اللؤلؤ وخالِصه. قِيمتهُ زُهاء المائةِ ألفِ دينار، فخذْه يا سيّدي ثمناً لدارِكَ وآبقَ فيها وآحْرُسْها لي حِرَاسَة القَيِّم الرَّفِيق، فإنِ لَقِيتُك سالماً بَعد ثلاثةِ شهورٍ تَمضي من يومنا هذا نزلتُ في داري؛ وإن مَضَتْ هذه المدة ولم أَعُد، بَقِيتْ عليك الدارُ مُباركاً لك فيها ولوَلدِك.

أبو الحسن : ولكنّ يا سيّدي هذا الثَّمنُ كَثيرٌ جدّاً لدار يشتغل بها الآنَ السِّمْسارُ والدّلاّل.

المغربي : بربِّك أيها السيّد، لا تُعْرِض عن خَير ساقه الله إليك. ولا تَقِف لأهلِ المُروءات في سَبيلهم، ولا تَسْتَنكِرْ على رَجُلٍ قد زاد مالُه حتى ما يَدْرِي ما يَصنعُ به، أن يُعين بفَضْلةٍ منه كَرِيماً مثلكَ، طالما آسَى الجُروحَ، وأقالَ

عَثراتِ الكِرَامِ. فأَجِزْ الصَّفقة، يا سيّدي، أجِزّها.

أبو الحسن [ينظر إلى العقد قائلاً]: أمائةُ ألفِ دينار؟

المغربي : أجل، يا سيّدي، في أَقلّ تَقدير.

[أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه وفي هذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة في ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ]

أبو الحسن : ماذا أَرَى؟ ما هذا الشِّرَاع؟ مَن الفِتْيةُ يا تُرَى؟ إيذن لي أيها الزائرُ الكريم، وآنتظرني فإني عائدٌ إليك من فَوْري.

[يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع. المغربي يزيل تنكره فإذا هو ابن حيون. حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه]

حسون : تعالَ، يابنَ حَيّون، أُلاعبْكَ الشِّطْرَنْج.

ابن حيون : لبيكْ يا سيّدي حَسُّون.

[ويدخل ابن حيون إلى حسون عند اقتراب أبي الحسن من القادمين. يسارع إليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر]

ابن غصين [بثينة]: السلامُ عليكم يا عَمّ.

أبو الحسن : وعليكُم السلامُ يا بُنيّ.

ابن غصين : لمن، يا عمّ، هذا القَصرُ المُنِيفُ، وهذه الرَّبْوةُ الغَنَّاء؟

أبو الحسن : هذا الكُوخُ، يا بُنَيّ، لخادِمكم أبي الحسن التاجر.

ابن غصين : تُسمِّي غُرْفةَ الفِردوْس كوخاً! هذا منتهى التواضع، يا سيدي التاجر!

أبو الحسن : ومن السيِّد؟

ابن غصين : وَلَدُك ابنُ غُصَين، من أبناء أعيان قُرطبة، وهذان جَوهر ولؤلؤ، صاحباي ورَفيقا سَفَري.

أبو الحسن : مَرْحَباً، مَرْحَباً بشَباب قُرطبَة النَّابه. إنّي أَرى الدار قد أَعجبتكم، يا بُنيَّ، وإنه لَيُسرُّني ويُشرِّفُ قَدْرِي، أن تَدْخُلوا فتَقْضُوا ساعةً مع ولدي حَسُّون، فإنّي أرى عليكم الفَضْلَ والأدبَ والمَجادَةَ[1]، وحَسُّون لا يُصاحبُ ولا يُجالسُ إلا أهلَ الفَضلِ والنُّبْلِ، فتفضَّلُوا، أيّها الأُدباء، وشَرِّفوا أخاكم بزَوْرة، وأنتم واجدون عند حَسُّون كلَّ ما يشتهي النَّشْءُ المُثقَّفُ، ففي خِزانتِه ما قَدُم وما حَدُث من آلات الطَّرَبِ، حتى عُود زِرْيَاب[2].

جوهر [يصيح] : عُودِ زِرْياب؟

أبو الحسن : أجلَ، يا بُنيّ، ذلك العُودُ الذي على أَوتارِه كان عَوَّاد[3] الأَندلُسِ يُسْمِع الخُلفاءَ، ما تُوحِي إليه الجِنُّ من رَوائع الأَلحان، وتَجِدُون كذلك عند حَسُّون مَكتبةً لم يُجْمَع مِثلُها في البلاد. قد حَوَتْ الذَّخائرَ في كُلِّ عِلْمٍ وفَنّ.

ابن غصين : وكيف وَلَعُ فَتاك يا سيّدي بعِلْم الفَلكَ؟

أبو الحسن : أَشدُّ الوَلَع يا بُنيّ، وقد جَمع الكثيرَ من نَفائس المَخْطوطاتِ فيه، وفي أولها رَسائل الضَّبيِّ المُنَجِّم[4].

ابن غصين : الضَّبيّ المُنَجِّم؟

أبو الحسن : أَجل، يا بُنيّ، وأَذْكر أنه مِن شَهرين، أو أكثرَ أو أقلَّ، قد

(١) المجادة: المجد.
(٢) زرياب: أبو الحسن علي بن نافع (٢٣٠هـ) مولى المهدي العباس، نابغة الموسيقى في زمنه، دخل الأندلس أيام عبدالرحمن بن الحكم. وأقام بقرطبة، وبها مات.
(٣) العواد: العازف على العود.
(٤) مرّ التعريف به ص.

آنتهت إلى حَسُّون رِسالـةٌ مما وَضـع الضَّبِّيّ، فدَخلَه من ذلك فَرحٌ يُشبه الجُنون.

ابن غصين [لنفسه]: رسالة للضَّبِّيّ! من شَهرين! أو أكثر أو أقـل! بُشْرَاك، يا قَلب، إنّـه هو،وبُشراكِ، يا عين، ستَكْتحلين بهِ، الساعةَ، [ثم إلى أبي الحسن]: لقـد شُقْتَنا إلى ولـدِك الفاضـل أيُّهـا السيّد، فأينَ مَن يَستأذن لنا عليه؟

أبو الحسن : يا مَرحبـاً! يا مَـرحباً! مـا أَعظم حظّ حَسُـون! اتبعوني يا سادة، اتبعوني فـإنّي دَليلُكم إلى ناديـه، وإني أَرجـو أن سيُعْجِبكم، إنّ حَسُّـون شـابٌّ قـد أَلَقى الله عليـه مَحبَّةً للناس.

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام كشـك حسون. ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج]

أبو الحسن [لابن غصين]: هو ذا حَسُّون، يا سيّدي، يَلعب الشُّطْرنْجَ مع صَـديقٍ لنا قَديم كَريم، لا تَخلو منه الدارُ ساعةً.

[أبو الحسن ينادي ابنه]

حسون : لَبَّيْك.

أبو الحسن : هذا آبنُ غُصَين، من نُبلاءِ فِتيـان قُرْطُبَـة، ومعه صـاحباه ورَفيقَا سَفْرِه، يُريدون أن يجتمعوا بك ساعةً.

حسون : يا مَرحبا! يا مَرحبا! أهلاً وسَهلاً بالسَّادة.

أبو الحسن : لقد جَمَعتُك بضِيفانِك الكِرام يا حسُـون، والآنَ أتركُكُم في حِـراسـةِ الله، لأَعُـود إلى زائـري المَغــرِبيّ، فـإنـه بآنْتظارِي وأخافُ أن يَأخُذه القَلَقُ.

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربي فلا يجده]

أبو الحسن : يا إلاهي! أين الشيخَ؟ أين ذهب؟ [منادياً]: سَعيد.

الخادم : لَبَّيك، يا مولاي.

أبو الحسن : ما صَنع الله بالشَّيخ المَغرِبيِّ، الذي كان ههنا منذ لَحظة؟

سعيد : لا أدري أين ذهب، يا مولاي.

أبو الحسن [ينظر في يده وكان قد نَسي فيها عِقدَ اللؤلؤ].

أبو الحسن [لنفسه]: وَيْحِي! ماذا أرى؟ هذا عِقْدُ اللُّؤلؤ في يَدي، نَسِيتُه فيها. يا خجلًا! ماذا يَقُولُ الرَّجُلُ عَنِّي؟

ابن حيون [من داخل الكشك]: سيِّدي أبا الحسن، لقد لَمحتُ زائرَك المغرِبيّ خارجاً من الدارِ يُهَرْوِلُ، فعَبثاً تَبْحَثُ عنه.

[حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون]

ابن غصين [لنفسه]: إلهي. صَدَقني القَلْب؟ ما حَدَث، وقَلَّما تَكْذِب القُلوب، هذا هو شاب قُرطبة الذي لم يَخْلُ منه القَلْبُ دَقَّةً. [ثم إلى حسون]: الآن صَدَقْتني الذَّاكرةُ، فنحن، يا سيِّدي، قد تعارفْنا قبلَ اليوم.

حسون : وأين كان ذلك؟ وكَيف نِلْتَ هذا الشَّرف؟

ابن غصين : في سُوق الكُتُب بقُرْطُبة، من نحو شهرَين. أو أقلَّ أو أكثرَ.

حسون : لله ما أَعْظمَ حظِّي! أنتَ، والله، يا سيِّدي، ذلك الفتى المُلَثَّم الذي نازعتُه رِسالةَ الضبيِّ ونازعَنِيها، حتى غَلَبتُه عليها. نعم أنتَ هو، وهذا صَوته، وهذه شَمائِلُه، فكيف آهتَدَيتَ إلى كُوخي أيها السيِّد العزيز؟ يا مَرْحَباً!

يا مَرْحَباً! جَعلها الله بيننا صداقةُ الدَّهْر.

ابن غصين : ولكن أنتَ، يا سيّدي، تُلاعبُ صاحبكَ الشِّطْرنج، وأخشى أن أقطعَ عليكما لذَّة اللَّعِب.

حسون : لا، يا سيـدي، هـذه لـذة نَجـدهـا في كُـل وقت، وأمّـا لِقـاؤكم، والأنس بكم، فلذةُ الـدَّهْــر وخِلْسَـةُ الأيــام. تفضَّلوا يا سادة.

ابن غصين [لجوهر همساً]: آجتهد، يا جوهر، أن تُلَاعِبَ هـذا الشيخ وتَشغَلهُ حتى يَخْلُو لي وَجْهَ حَسُّون.

ابن غصين [إلى لؤلؤ]: وأنت يـا لُؤلؤ، إذا أخـذا في اللعِب فقُمْ عنـدَ رَأْسَيْهِمـا ولا تَدَعْهما حتى أَهُمَّ بالانْصِراف.

جـوهر [الى ابن حيـون]: أتَـأْذَن يـا سيـدي أن أحُـلَّ مَحَـلَّ السيّـد حَسُّـون في مُلَاعبتِك.

ابن حيون : تَفضَّـل يا سيّـدي، خُذْ مَكَـان حَسُّون وأرِحْني من قُـدْرته العَجيبـة على الظَّفـر بالمُـلاعبين، ومن حَظِّه، الـذي هو أعجبُ من قُدرته.

ابن حيون [إلى لؤلؤ]: وأنتَ يا سيّدي، أتُحبُّ أن تكـونَ من النَّظَّارة؟

لؤلؤ : يا حَبَّذا لو أذِنتَ يا سيّدي.

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون ويبتعدان ناحية]

ابن غصين : أحقٌّ أننا التقينا يا حسون؟ أحقٌّ أنّنا آلتقينا يا حَسُّون؟

حسون : أجل! وكُنَّا نَظُن أَلّا نَلْتَقي.

ابن غصين : عِنَايةٌ ولُطفٌ وتَوفيقُ أقْدارٍ لأقدار.

حسون : وقـديمـاً جمـع الله الشَّتِيَتين، وطَـوَى الأَرْضَ للبعيــدَيْن [يجلسان]:

ابن غصين : أتذكَر، يا حَسُّون، قُرطبة، وسُوقَ الكُتُب؟

حسون : أجَلْ، وأذكر رِسَالة الضَّبِّيّ، وكيف كُنَّا نتنافسُ فيها، وكيف غَلَبتُك عليها.

ابن غصين [مبتسماً]: وأينَ هي الآنَ يا أخي؟

حسون : هي هاهنا يابن غُصَين بالقُرْب منك، وفي مُتَناوَل يَدكِ، إن شئتَ آنتقلنا إلى المكتبة فأخذتَها.

ابن غصين : لا يا أخي، بل دَعْها في مَوْضِعها من خِزَانتك، فإنّها عندك في الحفظ والصَّوْن، وكأنها عِنْدي، ويَكْفِيني نَظْرَةٌ أُلْقِيها على الرِّسالة، من حِينٍ لحين، كلما جِئْتُ دَارك زائرةً.

حسون [في دهش]: زائرة؟

ابن غصين [لنفسه]: وَيْحَ لِسَاني، قد عَثَر وكَشَف السِّرَّ القَدَرُ!

حسون [مبتسماً] : كَيف تأنَّثتَ أخي؟ ما أَنتَ الفَتَى الذَّكَر؟ أمَا كَفاك هذا الصَّوتُ الساحر الرنَّة، اللَّذيذُ النَّبْرة، حتى جَمعتَ إليه أُنوثةَ اللَّفظ، ولينَ الكَلام؟

ابن غصين [في تلجلج وغضب]: عَثْرةُ لسانٍ يا شاب، فمُرَّ عليها مَرَّ الكِرَام.

حسون : وما أَثارك يا أخي، وليس فيما قُلتُ ما يُغْضِب؟

ابن غصين : لِنَطْوِ هذا الحَدِيثَ ولْنَرْجِعْ لما كُنَّا فيه.. أَمَا يَسُرّك يا حَسُّون أن أَخْلق لزيارتك العِلل والأَسبابَ، وأن أَجعلَ رسالَة الضبِّيّ سُلَّماً إلى دارِك، كُلما اشتقتُ إليك؟

حسون : كُلَّ السُّرور يابن غُصَين، أنا واحِدُ أبي، ولم أَعرِفْ عاطِفةَ الأُخوّة، ولم أجدْ لها حَنَاناً ولا رِقةً، ويُخيَّلُ إليّ

مُنْذُ عَرفتُك أنّ قلبي يَفِيضُ منها، وأن وِجْدَاني بها مُتْرَع؛
لهل تَرْضَاني أخاً لك شَقِيقاً، بـرّاً بك شَفِيقاً؟

ابن غصين [ويتنهد]: يا مَـرْحَباً، وإن كُنتَ حَلَلْتَ مِن قَلبي مَحـلَّ أخي الظافـر من أوّلِ يَوم.

حسون : ويحَ أُذني! مَا أُسمع؟ وما أنتَ من الـظّافِرِ يـابن غُصَين؟ وما الظافرُ منك؟

ابن غصين [ويتلجلج في الجواب]: عَثرةٌ أُخْـرَى، وَيْحَ لسـاني! اخْتلَّ عَصَبُـه، واخْتَلطَ عَضَلُه، اغْفِرْ لي هذه أيضاً، وآنْسَها يا حَسُّون.

[وكـان ابن غصين ينظر إلى ربـاط بـذراع حسـون فـوثب في الحـديث وقال:]

ابن غصين : وَقَى الله ذِراعَـكَ بيَمينه يـا أخي، ما هـذا المِنْـديـل؟ مـا وَرَاءه؟

حسون : جُرحٌ اندمـل أَكثَرُه وبقِيَ أَثَرهُ.

ابن غصين : بَعُدَ عَنك الشرُّ يا أخي، مَن جَرَحَك؟

حسون : هذا واحِدٌ من جِراحٍ لَمْ يكن يُرْجَى أنْ أَقُومَ منها، لـولـم تُلْقِ عليها العنايةُ يَدَها الآسيةَ الشَّافِيَة.

ابن غصين : بالله إلاّ حَدّثتني حَدِيثَك، أطَلَعَ عليك اللُّصوصُ يـا أخي في مكـان خالٍ من النـاس، فـأبليْتَ فيهم وأَبْلوْا فيـك؟ أفـاجأتْـكَ عِصابـة البـازي الأَشهب، فَجَرَحْتَ رِجـالهـا وجَرَحُوك؟

حسون : لا يا سيّدي، إنّ القتالَ الذي شَهِـدْتُ أعظمُ شـأناً وأنْبَـلُ أقراناً ممّا ذَهَبتْ إليه ظُنونُك.

ابن غصين : وما خبرَهُ؟ وأين كان؟ وكيف؟

حسون : كان ذلك في قُرْطُبة.

ابن غصين : قَبْلَ تلاقِينا في سُوق الكُتب أو بعدَه؟

حسون : بل بَعد ذلك بأسابيعَ، وكنتُ نَزيلاً على بعض حانات المدينة، فكان من عَجائب القَدر أني اكتشفتُ مُؤامرة تُدَبَّر في الخان، لاغتيال الأمير الظافر، وإزالة إمارته عن قُرْطُبة، وكان شيطانُ الفِتْنة، ورأسُ أفْعَاها، هو الأميرَ حَريز، بَطَل الأندلس المشهور، فما اطَّلعتُ على سِرّ المُؤامرة، وخُطط أصحابها، حتى ثارَ ثائِري، وغَضِبتُ لِوَطني ولِقَوْمي، فانْسَلَلْتُ من الخان ليلاً، ورَكِبْتُ جَواداً كان مُعَدّاً لِيركبَهُ بوقُ الثورةِ والفِتنةِ، فَعَدَوتُ حتى أتيتُ قصر البُسْتان فنَبَّهتُ الأميرَ وحاشيتَه وحَرسَه، ولم أكُن إلى تلك الساعة رأيتُ الظافِر وجهاً لِوَجه، ولا حَضَرتُ له مجلساً، وتأهَّبَ الجميعُ للقِتال، وما لَبِثَ الثُّوّارُ أن طَلعوا علينا آتِين من نواحي المَدينة، يَقُودهم بَطلُ الأندلس حريز، فتلَقّيناهم بصُدورٍ قد رَحَّبَتْ بالموت، ونُفوسٍ قد هَشَّت إليه، وذَكرنا إذ ذاك الوَطنَ وَحقَّه، وإشبيلية ومِنّتها في الأَعناق، فَحملْنا حَمْلةً تَحِيد عنها الجِبال، وكان الظافرُ، طيَّب الله ثراه.

ابن غصين [منزعجاً]: حدّثني يا سيدي عن الظافر؛ قُل لي كيف قاتل؟ وكيف قتله الغادرون؟

حسون : تسألني عن الظافر كيف قَاتَل؟ سَلْ حَريزاً عنه، فهو يُنْبئك أنه الأَسَد.

ابن غصين : وأين كُنتَ من الأمير في ساعة البَأس يا سَيِّدي؟

حسون : كنتُ حَوْله أَحْمِي ظَهرَه، وَيَشُدّ سَيفي سَيفَه، إلى أن

ناءتْ به جراحاتُه، فسَقط عن جواده، وكنتُ أنـا أيضاً قـد أُثخِنْتُ بالجُروح، فسقطتُ إلى جَنبه، حتى إذا أَفقتُ من غَشْيتي نَـظَرتُ حَـوْلي، فـرأيتُ عنـد رأس الـظّافـر هـذا الصديقَ الذي تراهُ يُلاعب صاحِبَك الشَّطْرَنْج الآن.

ابن غصين : وما آسمه يا سيّدي؟

حسون : ابن حَيُّون، وهو مِن رِجال العِلم والأدب.

ابن غصين : وماذا كان آهتمامه بالقَتِيل؟

حسون : طبَـعَ على جَبِينِـه قُبْلة، وبَكـاه ورَحَّم، ثم أَلقى عليـه ردَاءَه.

[ابن غصين يدخل في الإغماء]

حسون : مـا هذا؟ مـاذا أرى؟ مـا أصـابـك يـا أخي؟ مـا لِعَيْنَيْـك تَغْمُضَان؟ وما بـالُ رَأْسِك يَمِيل؟ وَيْحِي؟ ماذا جَنَيْتُ على الشابّ؟
قد كان عن حَـديث الظافـر لي غِنىً، رَبِّ أصاحٍ أنـا أم حالِم؟

[وعند ما يميل ابن غصين في الإغماءة تقع القلنسوة]

حسون : هـذه ضَفائـر فتاة قـد هَـوَتْ عنهـا القَلَنْسـوة، فـانْسَـدلتْ كجُنْـحِ اللَّيـل على جَبينٍ كغُـرّةِ الصَّبـاح. أيهـا الملكَ الكـريم، لقد عَبَثْت بي إذ كنت تَتَنكَّـر وتَترجَّـل، فاعْبَثْ اليومَ بقَلْبي ما بَدَالـك. فقد دَبَّ لك الهَوى فيه، إن شِئتَ فتنكَّر، وإن شِئْتَ فاظْهر، فلأكْتُمنّ حَـديثَك، ولأقدِّسَـنَّ سرَّ هَواكَ أن يُذَاع، ويَـلاه! إن الإغْمَـاءَة قد طـالتْ. ابن حَيّون. . ابن حَيّون.

ابن حيون : لَبَّيْك، يا سيدي.

حسون : أنا في حاجةٍ إليْك، تعـالَ وَحْدَك أَسْرِعْ.

[يحضر ابن حيون]

حسون : ابنَ حَيُّون، انْظُر ماذا تَرى؟ لقد أُغْمِي على آبن غُصَيْن، فإذا الظَّبيُ مَهـاةٌ[1]، وإذا البَدْر يابنَ حَيُّون شَمس.

ابن حيون [بعد تأمل عميق]: يا لغَرائبِ القَدر! هذا الـوجهُ عـرفتُه وعَشِقتُـه قبلَ عِشْرين عاماً من هذه الأيام، وقد لَقِيتُ بعِشْقِه الدَّواهي.

حسون [مندهشاً]: قبلَ عِشرين عاماً من هذه الأيام! أهازلٌ أنتَ، يا عمّ؟

ابن حيون : بل جادّ كُلَّ الجدّ، يابن أَخي. إسْمع، حسَّون، هَذه بِنتُ الـرُّمَيْكيّـة، هذه أُختُ الظافر، هذه بِنْتُ آبنِ عبَّاد.

ستار

(١) المهاة: أنثى الظباء.

الفصل الرابع

«بإحدى مقاصير قصر الزاهي. العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة»

العبادية : لقدعَلِمْتُ، يا بُثينةُ، ما كان من زيارتِك لدار التَّاجر أبي الحسن، وجُلوسِك ساعةً مع ولده حَسُّون، وأنكِ كُنْتِ في زِيِّ الغُلامِ، وكان مَعَكِ لُؤلؤ وجَوهر.

بثينة : ومَن خَبَّركِ الخبرَ، يا جدّة؟

العبادية : عيْنٌ من الحُبِّ وَكَلْتُها بِكِ تَرْعَى خُطاكِ، وتَحْرُس حركاتِك وسَكَناتِك، وإن كُنتُ عَظِيمةَ الثِّقة بنَفْسِك الأَبيَّة العالية، وخُلقِك الفاضل الشَّريف.

بثينة : أنتِ إذن، يا جَدّة، كالمَنصورِ بن أبي عامر[1]، لكِ في كُلِّ نادٍ عَين، وفي كُل سامِرٍ أُذن.

العبادية : لا بل أنا عَجوزٌ، يا بُثينةُ، والعَجائزُ يَتَلَمَّسنَ الأَخبار، وأنا أرْمَلُ مَلِكٍ، وأمُّ مَلِكٍ، يَتَجَسَّس لي مَن لم أنْدُبْه

(١) المنصور بن أبي عامر. محمد بن عبدالله بن عامر. أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي. وأحد الشجعان الدهاة، مات سنة (٣٩٢هـ).

للتَّجَسُّس ، ويَجيئني بـالأخبارِ من لـم أُزَوِّد. وَمهمـا يَكُنْ من الأمرِ، يا بُثينة، فلا تَنْسَيْ أَنَّنا ما أَرْخَيْنالكِ الحَبْـلَ إلاّ ونحنُ نَعلم أنَّـكِ الفَـرَسُ النَّجِيبَـةُ، التي إذا أُرخِيَ لهـا الرَّسَنُ لم يُخْشَ لها جِمَاحٌ ولا شُرود[1].

بثينة : جَعلني الله عِند ظَنِّكم، يا جَدّة. وَببَّغاؤُكِ «نادِر» يا جدّة، أَنسِيتِهِ؟

العبادية : كيف أَنساه، يا بُثينـة، وقد كـان لَديّ كـريماً، وكـان سَيِّدَ الطَّيْر. وكان أَخفَّها ظِلاًّ، وأَبْيَنَها حِكايةً ونَقْلاً.

بثينة : أَتَذْكُرين يا جَدَّة، كيف أَشْفَقْتِ عليه، فلم تَرْضي أن يُنْزَع من رِيش جَنَاحَيه، كمـا يَصنع النـاسُ بالـطَّيرِ الكـريم، فَيَـأمنون طَيـرانه وفِـرَارَه، وإنمـا آكْتَفيتِ بـوَضْـع حَلْقـةٍ صَغيرة من الذَّهب في رِجلِهِ اليُمنى، تَمنعه من النُّهوضِ وتُقيِّـده، وإن كـان في الـظَّاهِـر حُـرّاً يَتنقَّـلُ في نَـواحِي القَصْر.

العبادية [مندهشة]: وماذا أَخْطَرَ ببَّغائي نادر على بالكِ، يا بُثينة؟ ومـاذا تُريـدين بذِكْر الحَلْقة؟

بثينة : أُريـد أن أقولَ لكِ، يا جَدّة: إنَّ حالي كحـالِ المَرْحـوم نادِر. قَيَّدْتُموني بِجَـوْهـر ولُؤلؤ ومِقْـلاص، وبـالعُيـون والأَرصاد، ثم زعمتُم أنِّي حُرةٌ طَلِيقةٌ أفعلُ ما أشاء.

العبادية [مبتسمة]: ولكن لا أُظُن حَلْقةَ الـذَّهب تُثْقِل رِجْلَكِ، يا بُثينة فإني أُرى خَدَم أبيك المَلِك لا يُقَصِّرون في صُحبتِكِ عن خِدْمةٍ ولا طـاعة. على أنّ كُـلَّ هذا لا يَهِمُّني إنّما يَهِمُّني أنّ أعلمَ

---

(١) الرسن: المقود.

رَأْيكِ في الشابّ، وكيف وَجَـدْتِه؟ وهَـل هو على جـانبٍ من الفَضلِ والعَقل يتميّز به عن اللِّدَاتِ، ويَسْمُو به على الأتراب؟[1].

بثينة : أمّـا هذا، يا جَـدّة فَنَعم، حَسّـون فتًى جَمُّ العِلم، غَـزِيـرُ الأَدَبِ، عَظِيم الحَظّ من الفُنون جميعاً، إلى ما وَهب لـه الله من الشَّجـاعـةِ التي لا يُضـارعـه فيهـا اليـومَ إلاّ أبي المَلِك، وإلاّ شـابٌّ كان زَيْنَ الشَّبـاب، طاحَ[2] بـالأمسِ شَهِيدَ الكرامة والواجب.

العبادية : أوَ أبـداً تَذْكـرين الظافـر، يـا بُثينـة، دَعِيه، يا آبنتي، في أعراسِ نَعيمِه بين شبابِ الجنة، خَبّـريني هل في شُبَّـانِ أمـراءِ الـدِيـارِ اليـومَ من هــو الكُفْـءُ لأَميـرةِ الأنــدلسِ وعَرُوسِه؟

بثينة [في حياء] : هَبِي الكُفْـءَ مَوْجوداً حاضراً، يـا جَدّة. أهـذا وقتُ الفِكْرِ في زَوَاجِي، والاهتمـامِ بهِ؟ وأنتِ تَـريْنَ الحوادثَ يَجِـدُّ جِـدُّها، والأُمـورَ تَسوء مَصَـايرُهـا. مِسْكينٌ أبي المَلِك، أَصبـح لا يَـدْري مِنْ أينَ يَتَلَقَّى البَـلاء: المَـغـاربـة وسُلطانهم ابن تـاشِفين يَطْلُعون من البَحـر، والإسبـانُ وعاهلُهم الفُنْش يَزْحَفُون من البر، والمَلِكُ بينهما كالصَّيْـدِ المُطارَدِ من جانِبَيْه، إنْ تلفَّت عن يَمينِهِ قُتِـل، وإن تَلفَّتَ عن شِمـالِه أُكِـل، والأَنْـدُلس في هـذه الأَثنـاء كـالأَسـدِ الـواقِعِ في الحُفْـرة، إنْ سَكن لم يَنْفَعْه، وإن تَحـرْكَ لم يَـرْفَعْه، وحْدَةٌ مُمزَّقـة، وكَلِمَةٌ مُتفـرِّقـة، وآمـالٌ بـالعَـدُوّ مُعَلَّقة.

---

(١) اللِّدَات: الذين ولدوا يوم ولادتك. والأتراب: المائلون في السن.
(٢) طاح: هلك.

العبادية : إنّ بَناتِ المُلوك إذا بلغْنَ إلى مِثل سِنك، يا بُثينة، كان الزَّوَاجُ أزْكَى بِسَتْرِهِنَّ، وأَلْيَقَ بجَلاَلِهِن، وأمّا ما ذَكَرْتِ من إظلام الجَوّ، وجَهَامةِ الحوادثِ، فتلك حالُ آختلفَتْ علينا بها السُّنون حتى أَلِفْناها، وقد تَصِير إلى الأَرْدأ الأسوأ، وقد يَبعثُ الله بِرِيَاحِ اللُّطفِ فتَعْصِمُ السَّفِينةَ من الصَّخرةِ، وتَقِيها كارثةَ الاصْطِدام. بُثينة، بُنَيتي، أنا الجَدّة، ولَدْتُكِ مَرَّتيْن، آستَرِيحي إليّ بِسرِّك، وبُوحي إليّ بِمَكْنُونِه، فلن تَجدِي أرْحَبَ بِسِرّك، ولا أَرْحَم لكِ، من هذا الصَّدر. خَبِّريني، يا بُثينةُ، أتَعْرِفين بَين أبناء سَرَوَاتِ إشْبيلية اليوم فَتًى يُتَوَسَّم فيه الخَيرُ، ويُرْجَى في أَمرِه الصلاح، ويَقول الناس عنه: فلانٌ كُفْء لبناتِ المُلوك؟ بُثَينة، لقد مَرَرْتِ بآسمِ حَسُّون مَرّاً ولم تَصِفيه لي، فما شَكْلُه؟ . . وما أوصافه؟

بثينة : هو يا جَدّةُ، شابٌّ في أواخر العِقد الثالث من عُمرِه، رَشيقُ القامة في طُولٍ، أَسْمرُ اللون، فاحِمُ الشعرِ جَعْدُه، ساحرُ النَّظْرة، إذا تَبَسَّم جَذَب، وإذا تَكَلَّم خَلَب.

العبادية [مبتسمة]: هو إذن فَتًى جَميلٌ، يا بُثينة؟

بثينة : جِدّاً، وخَفِيفُ الظِّلّ فوقَ ذلك.

العبادية [بعد إطراق]: ولكن. . . . . .

[فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدّة ذلك]

العبادية : لا تَغْضَبي، يا بُثينة، فليس وراء «ولكن» شَيْءٌ أقولُه يَحُطُّ من شأن حَسُّون، ويَنْزِل به عن مَرْتبة الفتْيان الأمجاد بَلْ كُلّ ما هُناك أنّ النَاس يَتحدّثون اليومَ في

هَمْسِهم عن نَكْبَةٍ نَزلتْ بالتاجر أبي الحَسن، فذَهبتْ بمُعْظَمِ مالِه.

بثينة : وما يَعيبُه من هذا، يا جَدّة؟ أليس أبو الحسن تاجراً، والتِّجارة جَزْرٌ ومَدّ، وحِرْمان وجَدّ، ونَحْس وسَعْد؟ فكم من تاجرٍ بمنزلةِ أبي الحسن قد نُكِب فَذَهبَ عنه كُلُّ شيء إلاّ الخُلُق، ثم لم تَمْضِ مُدّة من الشُّهورِ أو الأعوام حتى سَمِعَ الناسُ وتَحدّثوا أن التاجرَ فُلاناً المَنْكُوبَ تَغَلَّبَ بالخلُقِ على نَكْبتِه، فعاد دُولابُ تجارتِه كأمسِ، عَظيمَ الحَركة، عَميمَ البَركة، ومثلُ أبي الحسن في خُلُقِه وأمانتِه، وشَرفِ آسمِه في الأسواقِ، لا يَبْعُدُ أن يَقُومَ من هذهِ السَّقْطة، ورِجْلاَهُ في عافية.

بثينة [صاغية ثم قائلة]: . . . أسَمِعْتِ يا جدّة؟

العبادية : أجل! سَمِعْتُ تَنفُّساً.

بثينة : تُرى مَنِ الطارق؟

[يدخل عليهما الملك]

الملك : صَفْحاً، يا أُمّ، وعُذْر، يا بُثينة، إذا كَدَّرتُ عليكما الخَلوة، وقَطَعْتُ عليكما الحديث، فوالله ما دَفعني إليكما، الساعةَ إلاَ هَمٌّ سارٍ وشاغِل جَلِيل.

العبادية : لا بأس عليكَ، يا بُنيّ، وعافاك الله، أيها المَلِكُ، تَفَضَّلْ، آجْلِس.

بثينة : خُذْ مكانَك بَيْننا، يا أَبتِ، وآسْتَرِحْ إلينا من هُمومِك، فهاهنا الرَّحمةُ قد بَسَطتْ جناحَيها: ها هُنا الأُم والبِنت.

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكياً]

بثينة [باكية] : . . . هَـوِّن عليك، يا أبتِ، وتَجَمَّلْ، أيها الملك، فقَبْلك لم تَبْكِ الآساد، ولا آشتكتِ الأَطْواد[1]، ولا ضَاقَ البَحْـرُ عن الأعاصيرِ الشِّدَاد. تَحَدَّثْ إلينا، يا أبتِ، لا تيْـأسْ من رَوْحِ الله، وعَليـك بهذه الجَدَّة الشَّفِيقـةِ، والأُمْ البَـرَّةِ، فآئتمنْها على سِرِّك.

الملك : الملك ألْفُنْش مُنـذ سَقـطتْ طُلَيْـطُلَةُ، وقَضـاهـا الله لـه، أَصبحَ لا يَعْرِفُ لي مَنْـزِلةً، ولا يَـأْلُوني تَحْقِيـراً وإهانـة، ويَطْلُب المالَ بآسْتِكْلابٍ وشرَهٍ، والبِلاَدَ بآستِطالةٍ ولُؤمٍ؛ ومن عَجِيب أمـرِه أنه يَغْضَبُ من جِهَـةٍ فَيَصْخَبُ ويَتهدّد، ويَلِينُ من أُخــرى فَيلُومني على الاستغـاثــة بيُـوسفَ بن تاشِفين وآستنجادِ جُنـودِه، ويَدَّعي الـطاغيةُ أنـه أَوفَى لي منه عَهْداً وذِمّة، وأصفى صَدَاقة ومودّة، وأنّني إن حالفتُ سُلطانَ المَغرب كانت مُحالفةَ الـذِّئبِ للحَمَل، وأنَّ بَـربر المَغـربِ إذا دَخلُوا الأندلس طَغَـوْا في البـلاد، وهَـدَمـوا بُنْيان الحَضَارة فيها، ومِنْ نَكد الدُّنْيا أن تَصْدُق فينا نُبـوءة هـذا الناصِـح الغَاشّ، فقـد طَمِع ضَيْفُنـا ابنُ تاشفين في مُلْكِنـا وسُلطانِنا. وتَطَلَّعت نَفْسُـه إلى خَيْراتنـا وأَرزاقنا، وآسْتَنْصَرناه على ألْفُنْش فإذا نحن الآنَ نَخشى منه بَـطْشَ النَّصِيـر، وإذا إشبِيلِيَـة قــد تَضَمّنت منّي ومنـه العَجب، النِّمـر في قَصْرٍ هنـاك وراء الضَّفَّـة يَجتمـع بـه أعـدائي، وأعـداءُ الأندلس من أبنـائه الأَنـدلسيّين، وصغارِ العُقـول من الفقهاءِ ومن يَلتَفُّ عليهم، وهؤلاء يُحَسِّنون لـه البَقاء في الأنــدلس، وآغتنـام الفُـرصـة لضَمِّــه إلى سَلطنته، ويُقيمــون عنـده الحُجَــج على فَسـاد مُلوك الــطَّوائف،

---

(1) الأطواد: الجبالُ العظيمة.

ويجعلونني الهَدَف الأوَّل، وهنا في هذا القصر أسد مُقلَّم. مَغلوب على العَرِين، وَحِيدٌ من الأنصار والأعوان.

الحاجب : شَيخٌ يُدْعَى ابنَ حَيُّون بالباب، يا مولاي.

بثينة : أدْخِله، يا أبي، وبالغ في إكرامه، فقد سَلفَ للرَّجُل إحسانٌ إلينا، لا يَنبغي لنا أن نَنساه أبَدَ الدَّهْر.

الملك : أدخِله، أيُّها الحاجِب... [يخرج الحاجب من الباب]: خَبِّريني، يا بثينة، ما إحسانُ آبنِ حَيُّون إلينا؟

بثينة : لقد حَدَّثني من لا أَشُكَ في صِدْق روايته، أنّ هذا الرَّجُل صلَّى على أخي الظافر وبَكاه، وألقى عليه رِدَاءَه.

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع]

ابن حيون : السَّلَامُ على الملك ورَحْمة الله.

الملك : وعليكم السلام، أيها الوَليُّ الشَّفِيق الحَمِيم.

ابن حيون : لو أَذِن لي المَلِكُ في خَلْوة؟ [وقد رأى السيدتين]:

الملك : لا تَخْشَ شيئاً، يا ابن حَيُّون، فهذه العَبَّادية، أُمِّي، وهذه بُثينة، بِنتي، فحديثُك لن يُساق إلا إليّ، وسِرُّك لن يُجاوزَ أُذُنيّ.

ابن حيون : أيها الملك، نحن اليوم أَخْوَفُ ما كُنَّا على هذه الأوطان، وفي مِثل ما نحن فيه تَجِبُ على الأُمةِ النَّصيحةُ للمَلِك، وقد آنتهى إلى أُذنيَّ مِنْ بَعض الفُقهاء، والمُخْتلفين إلى ضَيْفِك هذا يُوسُفَ بن تاشِفين، أنه أَصبح يَرى نفسَه أحقَّ بهذا المُلْك منك، وقد رأيتُ رَأياً، فإن أَذِن المَلِك رَفَعتُه إليه؟

الملك : وماذا رأيتَ، يا أديبَ الأَنْدَلُس؟

ابن حيون : إعلم، أيها الملك، أنّ هذا الضَّيْف الذي نَصَرْتَه ونَصرَك، وحالفتَه وحالفَك، وقاتلتَ معه قِتالاً يَبْقى حَدِيثَ الدَّهرِ، هو أهلٌ لأن يَغْدِرَكَ، وفي غَدْرِك ضَياعُ الأندلس جميعاً، ووُقُوعُه في قَبضته البَربرية الغاشمة، وقديماً كان هذا سُلوكه مع غير واحدٍ من أُمراء المَغرب، فَنَزع منهم مُلْكَهم وسلطانَهُم، وشَرَّدهم في الصَّحَارَى والقِفار، فلا تَفُوتنَّك، يا مولاي، خُطة الحَزْمِ والعَزْمِ في أمرِ هذا النِّمرِ، ذي العِمَامةِ والمِسْبَحة.

الملك : وماذا تَنصح لي أن أصنع؟

ابن حيون : ألاَّ تُوطىءَ الأَرْقم[1] سَرِيرَك، وأن تَقْطعَ السَّيْفَ قَبْلَ أن يَقطَعك، وأن تَقْبِضَ من فَوْرك على ضَيْفِك هذا فتَسْجِنه ولا تُطْلِقْه حتى يَأْمُر جُنودَه بمُغادرةِ الأندلسِ، بَرِّه وبَحرِه، ثم يَحْرُس أُسطولُك البَحِرَ من كُلِّ سفينةٍ مغربيّة تَجْرِي فيه، فإذا تَمَّ لك ذلك أخذتَ على آبنِ تاشِفين الاقْسَامَ[2] ألاّ يَعُودَ إلى الأندلس بعدها أبداً. وخُذْ منه الرَّهَائنَ، فإنّ نَفْسَ الرَّجُلِ أعزُّ عليه من مُلكِ الأندلس والمَغرب مجتمِعَين؛ وله أعداءُ ببلاده يَخشى تحرُّكَهُم وانتفاضَهم، ويخافُ أن يَنْتَهزوا الفُرصةَ للاستيلاء على مُلكه . . .

العبادية : أيها المُتكلِّمُ المُحسنُ، والنّاصح الصادقُ، لم يَخْفَ عليَّ مكانُ مَشُورتِك، ولكنها خُطّة أوّلها لُؤمُ وآخرها شُؤم؛ فإن الملِك أكرمُ وأعظمُ من أن يَغْدِرَ ضَيْفَه، أو

---

(١) الأرقم: أخبث الحيات.

(٢) الأقسام: الأيمان.

يَخُونَ جارَه، أو أن يَحْفِرَ الحُفْرَة لمن أَقالَ عَثْرته.

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب]: لا تُرَعْ، أيها الرَّجلُ الصادقُ، فقد كُنَّا حين نُبِّئْنا بوُصولِك نَخوضُ في هذا الحديث، وكان رَأيي كَرَأيك، وأمّا ٱبنتي بُثينة فلم تَكُن أَبْدت رَأيَها، بَعْدُ.

بثينة : مولاي. كِلا الصَّوْتين نَبْرةُ حَقّ. ونَصيحةُ صِدْق، إلاّ أنني أميل إلى الأخذ برَأي الأديب ٱبن حَيُّون.

الملك : بُورك فيك، يا عَقِيلةَ الأَنْدَلس. مِثْلُ هذا السُّمُوّ في الرَّأي، وهذا الحِرْصُ على حَقِيقة المُلك، لا يُسْتَغْربان من بَناتِ الملوك، المُنشَّآت بين أعباء الدَّولة ومَهامّ السُّلْطان.

العبادية [معترضة]: ونحنُ، بَناتِ الشَّعبِ، ألاَ يُقام لرأينا وَزْن، يا مولاي؟

الملك [مبتسماً]: أَنْتُنَّ تَلِدْنَ الأَجسامَ الصَّحِيحة، والقُلُوبَ الجَرِيئة، وتُحْسِنَّ تَدْبِيرَ البُيوتِ، ولكِنْ لا تَصلُحْنَ لِسِيَاسَة المَمالك.

الملك [لابن حيون]: لوتَيَقَّنْتُ، يابنَ حَيُّون. أن جُمْهورَ شُبّانِ الأَنْدَلُس يُشاطِرونكَ أنتَ وبُثَينةَ الرَّأيَ، لَمَا تأخَّرتُ ساعةً عن العَملِ بما تُشِيرانِ به عليّ.

[يدخل مقلاص].

الملك : كيف قَضَيْتَ لَيْلَتك عند ضَيْفِنا أميرِ المُسلِمينَ يُوسفَ بنِ تاشِفين؟

مقلاص : كانَتْ لَيْلتي، يا مولاي، ونحن، كما تعلم، في آذار، وفي إبّان القَمر، طَويلةً مُظْلِمةً باردةً، لم أُضْحِك فيها السُّلطان مَرّة، ولكنْ بَكَيْتُ مِراراً، ولم أَجْلِبْ له السُّرور، ولكن جَلَبْتُ لِنَفْسي الغَمْ.

الملك [متعجباً]: ما هذا الخَبرُ، يا مِقْلاص؟

مقلاص : وُجِدْتُ، يا مولاي، بِحَضْرةِ أميرٍ للمسلمين لا يَفهمُ كَلامَ العربِ، وعِنْد رأسِه تَرْجُمان من كُتّابه يُفَسِّرُ كُلَّ ما نَقولُه مَعْشَرَ العرب في مَجلسه، ويَشْرح لِكُلٍّ منّا ما يُشرِّفه به السُّلطانُ من الخِطاب.

الملك : ثم ماذا؟

مقلاص : رأيتُ هناك، يا مولاي، مُلوكَ الأَنْدَلُسِ وُقوفاً بِبَاب السُّلطان متنافِسين في إِذْنِهِ.

الملك [ملتفتاً إلى زائره قائلاً]: أَسَمِعْتَ يابنَ حيُّون...؟ أعَرفْتَ؟. ثم ماذا يا مِقْلاص؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فُقهاءَ الأَنْدَلُسِ بعمَائِمهم المُكَبَّرة، وجُبَبِهِم المُوسَّعةِ، يتمسَّحون بالأعتاب.

الملك : أَسَمِعْتَ يابنَ حَيُّون؟ أعَرفتَ؟

الملك : ثم ماذا، يا مِقلاص؟ قُل لنا كيف وَجدتَ السُّلطان؟

مقلاص : بَوٌّ عليه طَيْلَسان، وبُومَةٌ في يَدِها صَوْلَجان[1].

الملك : وماذا قال لك حين وَقعتْ عَينُه عليك؟

مقلاص : أُدْخِلْتُ إليه، يا مولاي، فحقَّقنِي مِنْ رَاسي لِقَدَمي، ثم قال لي: أأنتَ الرجلُ الذي عَمَلُه إضحاكُ الملكِ ابنِ عبّاد وتَلْهِيَةُ أُسْرَتِهِ؟

الملك : فما كان جَوابُك؟

---

(١) البو: جلد الجداء يحشى تبناً ويقرب من أمه لتدر عليه. والطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف. والصولجان: عصا يحملها الملك ترمز لسلطانه.

مقلاص : قُلتُ لَه: أجل، أيها السُّلطان، أنا نَدِيمُ المَلكِ وسَمِيرُه.

الملك : فماذا قال لك؟

مقلاص : قال لي: إذاً، فأَضْحِكْنا نحن أيضاً، عَجِّلْ أَضْحِكْنَا.

الملك : فماذا صَنعتَ؟

مقلاص : دَخلني خَجلٌ شديد، ووَقفتُ ساعةً أَنْظُر في ثِيابي، ولم يَفْتَح الله عليّ بشيءٍ يَضحَك منه ضَيفُك الكريم، فهمَمْتُ بأن أقبِضَ على السُّلطانِ بكِلْتا يَدَيّ، وأَقْذِفَ به من النافذة.

الملك : وماذا مَنعك، يا مِقلاص؟

مقلاص : سَيفُه المَعْرُوضُ على حِجْره، والزَّبَانِيةُ القائِمون عِندَ رَأسِه، وبجانِبَيْهِ، كأنهم العفارِيت، إلا أنّ السُّلطانَ لَحظَ حَرج مَوْقِفي، فأشارَ بإخراجي، فحضَر مِن رِجاله مَن صَرَفني في وَقاحةٍ وإذلالٍ، فخرجتُ وأنا لا أدري فِيمَ طَلبَنِي الرَّجُلُ؟ وأحمد الله على أن لَم يَجعلني في خِدْمةِ سُلطانٍ مِثلِه، له وجْهٌ كوجَهِ الأَسد، لا يَعرِفُ التبسُّمَ ولا البَشاشةَ.

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره].

مقلاص : لقد وجدتُ ضالَّتي، يا مولاي.

الملك : وما ضالَّتُك التي وَجَدْتَ؟ وهل عُدْتَ تَهْذِي، يا مِقْلاص؟

مقلاص : لا، يا مولاي... ألا تَذْكُر أنَّني كُنتُ من الإعجاب بِجمالِ الأميرة بُثينة وكمالِها، وسُموِّ منزلتِها بين عَقائِل الشَّرقِ والغَرب، بحيثُ لا أَعتقد أن بين فِتْيانِ الدُّنيا مَن هو أَهْلٌ لأن يَخْطبها إليك.

الملك [مبتسماً]: والآن، هل وجدتَهُ يا مِقلاص. . . ؟ ومَن تُرى يكون؟

مقلاص : فتًى جريء جَميل، رأيتُه يوم الـزَّلَّاقةِ يَحْمي ظَـهْــرَك، هو وحَـريزُ وابنُ لاطُـون، فظَلَ سَحـابةَ نَهـارِه مُصْلِتـاً السَّيْفَ دونَك، حامِيـاً لحَوْزتِـك[1]، حتى لقِي البَطلان، حُـريز، وابن لاطُـون. حتْفَيْهِمـا، وحُمِــل هـو إلى داره مُثْخنـاً بالجِرَاح.

الملك : ومَن الفَتى، يا مِقْلاص؟

مقلاص : هو، يا مولاي، أَجملُ فِتيـان الأَنـدَلس، وأَشجعُهم، وهـو الآن طَرِيحُ الفِرَاش، ما يزال يَشْكُو من جِرَاحِه.

الملك : ومَن يكون. . . ؟ وما آسْمُه؟

مقلاص : هو حَسُّون، ابن التاجر أبي الحسن.

ابن حيون : لقد صَدقَ فَتاك، يا مولاي، فإنِّي كُنتُ عنـد حَسُّون اللَّيلةَ البارحةَ أعودُه، وقد أفاقَ من جِرَاحِه، وقَصَّ عليّ حَدِيثَ بَلاَئِهِ يوم الزّلّاقة، حين آشتدّ القتالُ بينك وبين الإفـرنج، فأخبرني أنّه رَأى يومئذٍ جَوادَك وقد ضَعُفَ وخارَ من شـدّة الجِراح، فقدّم لك الصّاعقة: أميرَ الجِيـادِ، فَرَكِبْتَه وكان تحت البازي الأشهب[2]، لِصِّ الأندلس، فخرَّ عنه قَتِيلاً.

الملك [مندهشاً]: أو كان البازي الأَشهب بجانبي يُقاتِلُ معي أعداءَ البلاد؟

ابن حيون : نعم، يـا مولاي، ويقـول حَسُّون: إنـه أَبْلى يَومئـذٍ بَـلاءً عَظيماً.

الملك : يـا إلهي! أيكون اللُّصـوص أوفى لَـلأنـدلس من أمـرائـه

---

(١) مصلتا السيف: مجرده من عمده. والحوزة: الناحية.

(٢) انظر التمهيد.

وفُقهـائِـه، وأَبْـذَلَ منهم لـلأرواحِ دُونَ لِـوَائـه. . ! وأين حَسُّون الآن؟

ابن حيون : هو كما ذَكرتُ لِمَوْلاي، ما يزال طَـرِيحَ الفِـراشِ، ولكنْ لا خَطَرَ على حَياته.

الملك : الآن تَـذهبُ أنت ومقـلاص فَتَنَـوبـان عنّي في عِيـادتـه، والسُّؤَالِ عن أَمرِه، وإبلاغِـه تحيّتي، وشُكري، ومـا أُعِدُّ له من جَليل المُكافأة.

بثينة : وأنـا أيضـاً أُبلغُ حَسُّـونـاً تحيّتي وشُكري، يـا سيـدي ابنَ حَيُّون، وأَرجو أن يَعلم أنّ أُختَ الظافرِ لم تَنْسَـهُ ساعـةً، وأنها قد جَمعتْ له هذه الأَزهارَ بِيَدِها، فاحمِلْها إليه وقُل لـه: لـو كُنتُ الملكَ لبعثتُ لـه بـالغـارِ في الأزهـار، وبالصَّولجان مع الرَّيحان[1].

[وفي هذه الأثناء يدخل جوهر]

جوهر : مولاي، لقد وقَعَ ما كُنّا نُحاذِرُ، وحَلَّ بإشْبِيليةَ البَلاَء.

المعتمد : البَـلاء! تُريـد أنَّ الصَّدِيقَ قـد آنقلبَ، وأنّ الـحَلِيـف قـد عادَ حَرْباً؟ هذا ما خِفْتُ أن يكون، وقد كان.

[يدخل لؤلؤ].

لؤلؤ : أَغِثْ، أيُّها الملك المدينـةَ، أَدْرِكْهـا فقـد خَلَّفتُها، وجُنـودُ السُّلطان يتدفَّعون فيهـا كالسَّيـلِ، بعدمـا آشتدْ ضَغْـطهم على باب الفَرَج[2] وأقاموا ساعةً يَـدْفَعونـه حتى ناءَت بـه الكثـرةُ، فآنفتـح فنفـذوا منـه إلى كُـل مكـان، فـأَخْـرُج

---

(١) الغار: شجر دائم الخضرة يصلح للتزين، وكان الرومان يتخذون منه تاجاً يتوجـون به القـائد المظفر.

(٢) باب الفرج: من أبواب إشبيلية.

يا مولاي فقاتِل، حتى تَسْتَنْقِذَ الوطنَ أو تَمُوتَ دونَه، وإلا فالنَّجاءَ النَّجاءَ!!

الملك [مغضباً] : تَدْعُونني، يا شابُّ، للفِرَار! هَيْهاتَ! هَيهاتْ! الأسَدُ لا يَهْرُبُ ولا يَخافُ الموتَ. [ملتفتاً إلى جوهر]: خَبِّرني يا جوهر، أين كان فِتيانُ إشبيلية؟ وأين هُمُ الآن؟

جوهر : قَبَع الفِتْيانُ في البُيوتِ، يا مولاي، إلا مائة أو ما دونَ المائة، شهِدُوا معك يوم الزّلاقة، وتَعلَّموا منك الكرَّ والإقدام، واليوْمَ قد لَبِسوا السِّلاح، وخَرَجُوا يُلاقونَ الموتَ، وهم بٱنْتظارِك ليجْعَلوك اللِّواء، الذي تَسِيل نُفوسُهم عليه.

الملك : يا بُشْراي! مائةُ شاب وَطَّنوا النَّفسَ على الموتِ؛ أما والله لو صَدَقتَ، يا جَوهر، لكان لي مائة قلبٍ مُجتمعة مُؤتلفةٍ مُتَواصِيَةٍ بالحق وبالموتِ، قُوّةٌ أرمي بها في العُبابِ، فيَمَّحِي، وأَقْذِفُ بها على الجِبال فَتَزول. البِدَارَ، البِدَارَ يا جوهر، امْضِ لِوَقْتِك، فضَعْ بيدِك السَّرْجَ على الصَّاعِقَةِ، والقَني به على الباب.

جوهر [بصوت عال]: أَبْشِري إشْبِيلِيَة، هذا اللَّيثُ قد تَحرّك لنُصْرةِ العَرِين.

الملك : في ذِمّةِ الله وفي حِفْظِه، يا بَنَاتِ المُعْتَمد.

بثينة : في دِرْعٍ من وِقايةِ الله، يا أبي، فإني أَراك أَخذتَ سَيْفك، ونَسِيتَ دِرْعَك.

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول في يده ولا درع عليه]

الملك : إنْ يَسْلُبِ القَوْمُ العِدَا مُلْكِي وتُسْلِمْني الجُمُوعْ
فالقَلْبُ بَين ضُلوعِهِ لم تُسْلِمْ القَلْبَ الضُلُوعْ

قــد رُمْـتُ يــومَ نِــزالِهـمْ   ألاَّ تُـحَـصِّـنَـني الـدُّرُوعْ
وبَـرَزْتُ لَيْس سِـوى القَمِيصِ على الحَشَـا شَيءٌ دَفُـوعْ
مـا سِــرْتُ قَطُّ إلى القِتَــا   لِ وكَـان مِنْ أَمَلِي الرُّجُـوعْ
شِـيَـمُ الأُلَـى أنَــا مِـنْـهُـمُ   والأَصْــلُ تَتْبَعُــهُ الفُــروعْ

ستار

الفصل الخامس

المنظر الأول

«في دار أبي الحسن، في غرفة حسون، حسون راقد على سريره مريضاً، وأبوه أبو الحسن داخل عليه»

أبو الحسن : قُمْ، يا حَسُّون، انْهَض، إنَّ العِنَايةَ بَلَّغتْك مُناك، وشَفَتْ بِعَوْدِك للحَياةِ أباك.

[ينتفض حسون من رقدته جالساً]

أوشِكُ، يا بُنيّ، أن أهْتدِيَ لموضع بُثينة، فهل تُساعدُني؟ وهلْ تَخِفُّ مَعِي لعلّنا نَجِدُ الكَنْزَ الضائعَ؟ ونَظْفرُ بالأُمْنِيَّةِ المَنْشُودة.

حسون : ماذا حدثَ، يا أبي؟ ماذا رأيتَ أو سَمِعْتَ، حتّى آمتلأتَ تفاؤُلاً وآستبْشاراً؟

أبو الحسن : أتَذْكُر، يا بُنيّ، خاتَمَ الزُّمرُّد، الذي كانتْ تَطُوف علَيْنا به في سُوق الجوهر، سيِّدة كَهْلة من وَصَائِف القَصر، وهي تَبحث عن توْأمٍ للفصِّ، وتَلْتَمِسُه فلا تَجِدُه؟

حسون : نَعم، يا أبي! وأذْكُر أنها كانت تَنْسُب الخاتَم للأميرة بُثَينة،

وتَصِفُ رَغبَـةَ الأميرةِ في الحُصـولِ على فَصٍّ يَكـون في حَجْمِهِ، وصَفاء لوْنه، وسَلامتِه من العَيْب، ليكونَ لها مِن الجَوهَرَتَيْنِ قُرْطٌ عَزِيزُ المِثال.

أبو الحسن : فـاعلم إذن، يـا بُنيّ، أنني كُنتُ مُنْـذُ حينٍ فـي سُـوقِ الجَوْهر، فما رَاعني إلاّ رَجُلٌ قَوِيٌّ من قُوّادِ المَغارِبة، قد جَعل يَطُوف على التُّجّارِ، يَعْرِض عليهم حِلْيةً، فأخـذتْها عيني فإذا هي خاتمَ الأميـرة بفَصّه. فتـرَّيثتُ إلى أن كَفَّ المُسَاومون، وكان آخِرُ ثَمن بُـذِل في الخَاتَم ثَـلاثَ مائـة دينار، وكان التّجار يَقُولون للرجلِ: لـو جئتنا بصِنـوِ هذا الحَجر لنَقدناك فيهما الأَلف أو زدْنـا. وهُناك أومـأتُ إلى الرَّجُلِ أن يَتْبعنِي، فتَبِعَني. فَٱنْتَبَذْتُ به ناحيةً وقلت له: أنا آخُذ الخاتمَ بالثلاثِ مِئة، وأزيدُك عليها مِئَة، إن أنتَ صدَقْتَني الخَبَرَ عن مَصْـدرِهِ، وكيف وَصَـلَ إليك؟ ومِن أيّ المَعَادِن[1] الْتَقطته؟ فَٱنْبَسط الرَّجُلُ وتهلّل وقـال: هذه الحِلْيَةَ يا سيِّدي، لجاريـةٍ من قَصرِ ٱبنِ عبّـادٍ، وَقعتْ لي سَبيَّةً يومَ هُجـومِنا على إشبيليـة، فنقلتُها إلى داري، فلم أَجِدْ عليها غَيْرَ هذه الحِلْية، وكانت في يَـدِها فـأخذتُهـا، وأما الجارية فلم أجدْهـا مَغْنَماً بـل مَغْرَماً، فإنهـا سَقِيمة مُستَسْلِمـة للأَحـزانِ، طَعامُهـا قليـل، ونـومهـا غِـرَار[2]، ودَمعُها لا يَرقأ[3] حُزْنـاً على سادتِهـا. ونحن لا نُحِبّ من النِّسـاءِ إلاّ القَويّـاتِ الصَّحِيحـاتِ الأبـدان. ولا أَكْتُمـك يـا سيّدي، أنّي بـأَمْرِ الجاريـةِ تَعِبٌ، وبِوُدّي لـو تخَلَّصتُ منهـا فقلتُ له: خُـذِ الآنَ الأربع مِئـةِ دينار مُبـاركاً لـك

(١) المعادن: مواضع استخراج الجواهر.
(٢) غرار: قليل.
(٣) لا يرقأ: لا يجف ولا ينقطع.

فيهـا. وآعلمْ أنني طَبِيبٌ مُولَـعٌ بالمُشـاهدَةِ والتَّجـرِيب، كَثِيرُ الاعتناءِ بالمَريض البائس، فلو مَضَيْتَ بي إلى بَيتِك لعلّني أنْظرُ الجاريةَ، فَأَعرِفَ علَّتَها، وأَصِفَ لهـا دَواءَها، أو أُخَفِّف آلامَهـا. فقُمْنَا فَمضيْنـا حتى آنتهيْنـا إلى دارِه. وهنـاك أَدخَلَني على الجاريـةِ المَريضـةِ، فدَنـوتُ منهـا، وقلتُ لها: عُوفيتِ، يا جاريـة، ولا خَوفَ عليـكِ إن شاء الله تعالى.

حسون : والنُّونَةُ، يا أبت؟[1].

أبو الحسن : رأيتُها، يا حَسُّون، فوجدتُها فَـوْقَ ما كُنتَ تَصِفُ لي لُـطْفاً وجَمـالاً. وآلتفتُّ إلى القـائـد البَـربـريّ فقلتُ لـه: أَوَ تُعطِيني هذه الصَّبِيَّةَ أيضاً، وأنـا أُتِمُّها لـك خَمسَ مائـة. فتَهلَّل الـرَّجُلُ وآرتـاح، وقال: خُذها، يا سيدي، وأَرِحْني منهـا، ودَاوِها أَنت فَعسـاها تَصِحُّ على يديـك، فَنَقَـدْتُـه المائة الخامِسة، وحَملتُ الصَّبيَّة فوقَ ذراعي، وخَـرجتُ بهـا، فرَكِبْتُ جَـوادي، وأركبتُها خَلفي، وآنْـطَلقتُ حتى بلغت الدارَ.

حسون [صائحاً]: وأين هي، يا أبتِ؟ أتُراها هي بنُونَتها. رَبِّـي آجْعلْها هي... وأين تَركتَها، يا أبي؟ وفي أيِّ مَوْضعٍ من الدارِ؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فإذا بثينة من وراء الباب. فيندفع إليهـا حسون صائحاً...]

حسون : بُثينة! حَبِيبتي! أُمِيرَتي.

بثينة : حسُّون! أخِي! صديقي!

أبـو الحسن [قاطعاً عليهمـا لـذة اللقـاء والحـديث]: الآن وقـد جَمعتُـكِ يـا أَمِيـرةُ

---

(١) النونة: النقرة في الذقن.

بصَـديقك وخـادِمك حَسُّـون، أَسْتَـأذِنُ في الخُـروج إلى بَعض شأنِي ساعةً.

بثينة : لا، يا عمّ، بل آبقَ، الْبَثْ؛ إنّ وُجودَك معنا يَزيد المَوقِفَ بَهْجةً وطِيباً.

أبو الحسن : إن أذنتِ، يا أميرة، فإنّ آحتجابي عنكما لن يَطُول.

حسون : بل آبْقَ معنا، يا أبي.

أبو الحسن : سأعُود يا بُني، سأرجع [ويخرج أبو الحسن].

حسون [إلى بثينة]: ماذا أقول يا أميرتي؟ وكيفَ القولُ في هذه السَّاعة التي هي العُمر؟

بثينة : أنْظُر حسُّون كيف جَعل الله هذا اللِّقـاءَ الذي لم يَكُن في الحُسْبان عِوضاً لما فاتَنا مِن نَعيم الحَياةِ ومتـاعهـا، حتى كِـدْتُ آنسى ذلك المُلْك المَنْـزُوعَ، والسلطانَ الذَّاهِبَ، وأَسْلُو القُصُورَ وضَجَّتها، والدَّولةَ وأَعْرَاسَها.

حسون : وأنا أيضاً، يا بُثينة، غَفَـرتُ هَفَوَاتِ الـدَّهْر لهـذه السَّاعـةِ المُحْسِنةِ الطيِّبـة، وإن لم أَخْلُ، ولن أَخْلُوَ مـا عِشْتُ من تَفَجُّع للوطَنِ العَـزِيـز! وتَوجّع لرُزْئه الجَليـل!

بثينة [متنهدة، مكتئبـة بعد انبسـاط]: آهٍ من الدهـر! ماذا صَنَـع؟ لَـطَف الله بِـكِ يا إشبيليه فيما حَلَّ عليك مِن قَضائِه، وجَعلَ وَطْـأةَ المَغارِبـة خَفِيفَة عليكِ، وعلى جَاراتِك مِن حَواضِر الأَنْدَلُس.

حسون [مطرقاً متنهداً] دَهْرَ ببنيه، يا بُثَينةُ، قُلَّب، ودُنْيا تَرْتَجِلُ العَجَائِب، ومَلِكٌ في السَّمـاءَ يفعلُ بعبـاده على الأرضِ ما يشـاء، ولكن. . .
بُثَيْنـة، حَبيبتي، أميرتي: أحقٌّ أنـا آلتقَيْنا؟ في يَقـظَةٍ أم نحنُ خَيالان في رُؤيَا من الأحلام؟ أتَذْكُرين، يا بُثَينةُ يَوْمَ

السُّوق؟ أتذكرين قُرْطُبةَ؟ أتذكرين رِسالَة الضَّبيِّ؟ لله ما كان أَحْلاَكِ يومئذٍ وَراءَ اللّثام.

بثينة : وأنتَ، يا حَسُّون، لله ما كان أجمَلَك وأكمَلك! وكأنَّك يَومئذٍ مَلِك. كُنتَ تَنتقل في السُّوق فتَخْرُج مِنَ مكْتبةٍ وتَدْخُلُ غَيْرَها، وتَدَعُ كتاباً وتَأْخُذ كتاباً، والكُتُبُ حِلْية الشَّباب النَّابِه، وجَمال الفتُوةِ النابِغَة.

حسون : أَتَذَكُرين كُلَّ ذلك يا بُثينة؟

بثينة : أجلْ، كُلُّ ما كانَ منْ حَرَكاتِك وسَكَناتِك يومئذٍ، ومنْ عِبَاراتِك وإشاراتِك. ما يَزالُ مُرتَسِماً في ذِهْني، لم تمحُه الشُّهورُ، ولا أَحْسَبُ الموْت يَمْحوه.

حسون [يمد يده إلى ذقنها ويقول]: بِحَياتي نُونة! كالدُّرَّة المَكْنُونهْ.

بثينة [في شيء من الغضب]: نَحِّ يَدك، يآبن أبي الحَسن، لا تَمُدَّها إلى ما لم تَمْلِكْ بَعْدُ.

حسون [في انكسار واستحياء]: إغْفِريها للحُبِّ وللشَّوق يا أميرة، شُلَّتْ يَدي إن كُنتُ أُضمَرتُ سُوءاً، أو هَمَمْتُ بريبة.

[يدخل أبو الحسن].

حسون : أبي! أبي! لم تُبطىءْ، يا أبي.

أبو الحسن : كُنتُ مَشغولاً، يا بُني، بِتَهْيئة طَعامِ الأميرة.

بثينة : جَزاكَ الله خَيْراً، يا عمُّ، ومَدَّ لنا عُمْرَك.

أبو الحسن [يأخذ مجلسه ويقول]: الحمد لله، يا وَلَديَّ، على هذا التَّلاقِي الذي هو من تَوفيق الأقدار، فاليوم جَمعكما هذا البيتُ على أثَرِ الكَارثة. وفي أعقاب النَّكْبةِ، كما يَجمع الشاطىءُ الغَرِيقَيْن سالمَيْنِ بالرَّمْقِ، من آنكسارِ الفُلْكِ، ومن ثَوْرة

الرِّيح، وطُغْيانِ الماء، لقد تَعارفْتما بالأمسِ فنَشأتْ بينكما الأُلفة، وأنِسَت الرُّوحِ بالرُّوح، وآنعطفَ القَلْبُ على القَلْبِ، وقَدِيماً، يا أميرةُ، صاهَرتِ المُلوكُ الرعيَّةَ، وأَبُوكِ، لَطف الله به وبنا جميعاً، فيما حلّ علينا من قضائِه وقَدرِه، أسمحُ مَن سَنَّ هذه السّنّةُ، فرفعَ على عَرش إشْبِيلية آمرأةً من رَعَاياه، هي الرُّمَيْكيّة، خيرةُ المِلكات، وأمُّ العَقائل من البَنين والبناتِ.

بثينة : أراكَ، يا عَمُّ، قد بالغْتَ في مُؤاساتي، حتى أنكرتَ يَدَ الدَّهْر وما نالتْ منّا، وإلاّ فأينَ أبي منّي اليوم؟ وأين مِنْ أبي مُلْكُهُ؟ وهل نحنُ اليوم إلا سُوقةٌ نَتَنصَّفُ[1].

أبو الحسن : هوّني عليك، يا أميرةُ، إنّ أباكِ لم يَخْلعْه قَومُه، ولكن خلعَه المُغِيرون، فهو في نُفُوسنا، مَعَشرَ الإشبيلّيين حاضِرُ الجَلالةَ، ماثلُ المَهابَة، مُرْتسِمُ الكَرامَة؛ يَومُه كأمسِه، وغَدُه كَيَومِه، وإن آختلَف به اليوم والغدُ، وتَصرَّفتْ به الأيام؛ وأنتِ، أيتها الأميرة، فما زِلْتِ بِنْتَ المَلِكِ المُعتمد بن عبّاد، فهل تَنْزلين إلى قَبُول آبْنَي هذا حَسُّون، زَوْجاً؟

حسون : وخادِماً أميناً.

بثينة : هذا كَثيرٌ في المُجاملةِ والمُواساة، يا عمٌّ، إنَّ حَسُّوناً كُفْءٌ. ويَشهدُ الله أنّي أُحِبُّه وأُجِلُّه، وكأني بأبِي في غَيَابةِ سِجْنِه[2] يَنْظُر إليه كما أنظره. ويَشعُر نَحوَه بِمثل ما أشعُر ولكنّي، كما عَلِمْتَ، مَفْجُوعة: بِأبٍ مَنْكُوبٍ، مَلِكٍ مَعْزولٍ، أُخِذ فغُلَّ، ثم سُربِلَ الذُّلَّ، وبأُمٍّ ثَكْلَى،

(١) نتنصف: نطلب المعروف.
(٢) غيابة السجن: قعره.

وإِخْـوَةٍ قتْلَى، وأَخـواتٍ أميـراتَ يَتَعَـذَّبْن من الخَلْع، ويَتَكسَّبْن من غَزْلِ أَيديهنّ.

حسون : قـد قُلتِ حقّاً، يا أَميرة، وأنـا لا أَتخيَّل الجميـعَ هناك إلا مَشْغـولين بِك فَـوقَ مَنْفـاهم، يُفتِّشـون عن مَكـانِـك بعَيْنٍ حَيَّرها الدَّمعُ، ويَدٍ قَصَّرها العَجزُ، وقَدَمٍ أَعجَزَها القَيْد.

بثينة : إذاً فأَنتَ تَرى أنه ليس من الحَقِّ، ولا من البِرّ، أن أُوجَدَ ولَا يعلَمـون أني وُجِدْتُ، وأن أَتـزوّجَ ولا يَعلمـونَ كيف وَبِمَن تَزوّجْتُ؟ وماذا يَقـولون إذا هُمْ عَلِمُـوا أنِّي اتَّخَذْت من مَأْتمهم عُـرْسـاً؟

ابن حيون [يدخـل ويقول بعـد أن رأى بثينة، منـدهشاً]: سيِّـدتي بُثينة هنـا؟ الأَمِيرةُ بخيْرٍ؟ ما أَعظمَ مِنَّتكَ، يا رب!

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه].

بثينة : لا تَفْعلْ، يا عمُّ. أهلاً بكَ، يا بنَ حَيُّون. وما أَعْظَمَ سُرُورِي بِلِقـائِـكَ!

أبو الحسن : انْـظُر آبنَ حَيُّـون. نِعْمـةَ الله علينـا بهـذا الكَنْـز الغـالي الثَّمين.

حسون : أُنْـظُر ابنَ حَيُّون كيف رَدّ الله عليَّ رَاحَتِي ورُوحي، وأعـادَ لي الحَياةَ والآمال.

ابن حيون : الحمدُ لله الذي جَعَلَكِ في حِفْظِهِ وفي ذِمَّتِه، والذي رَدَّكِ إلينا سالمةً، يَا سيِّدتي، والذي هو قادرٌ على أن يَجْمعـكِ بـأَهْلِكِ كـأَمسِ على جـاهِ الأُمُـورِ، وفي ظِـلِّ شـاهِقَـةِ القُصُور.

بثينة : لقد رأينا، يا عمّ، كيف تَنتقل الأُمـور، وعَرَفْنـا كيف تُبَدِّلُ

أَهْلَهـا القُصُـور، وأصبحتُ لا أَطْمَـع مِنْ دَهْـرِي إلا بـالعَيْشِ في ظِـلّ الأَمنِ والخُمـول، وبَين قَلْبٍ يَحْنـو، ونَفْسٍ تَعْطِف.

ابن حيون : طِيبي إذن، يا سيدتي نَفْساً، إنّ الذي تَشتهين قـد آجْتَمع لك، فالأَمن والسُّكـون لا تَعْدَمِينهمـا في جَناحٍ من هـذه الـدار، أو في جَنَّةٍ بَعيـدةٍ عن النَّـاسِ، من جَنَّـاتِ هـذا الإقليم. وإنِّي أَشْهَـد أن هذا الفَتى يُحِبّـكِ، وأنّكِ مِـلءُ قَلْبه ومِلءُ نَفسِه، فآقْرِني، يا سيّدتي، حَياتَكِ بحياتِه تَجِدي حَقِيقةَ السَّعادةِ في ظِل الحُبِّ المُشتركِ الصَّحيح.

حسون : كـان هذا حديثَنا، يـا عمّ، قبـل حُضـورك، ولكنّ لم نَكُنْ فَرَغْنا منـهُ بَعـدُ، وقـد رَأتِ الأَميرةُ بِـرّاً بوالِـديْهَا، وقَضـاءً لحقِّهِمَـا، أن يَكونَ زَواجُنـا بِعَيْن أبيها وسَمْعِـهِ، وبقبـول أُمِّهـا ورِضَاها. وكُلُّ زَواج رَضِيَـه الأبوَانِ، وآرتـاحا إليـه، سَبقتْ فيهِ البَركةُ. وطافَتْ به الرَّحمة.

ابن حيون : لقـد رأيتُم صَـوَابـاً، وآتَّفقتم على واجبٍ كـان لا بُـدَّ من قَضائه. ولا أَظُنُّ هذا المُقتَرَح لَقِي مِنْـكَ آعْتراضاً، يا أبـا الحسن.

أبو الحسن : مَعاذَ الله، يـابنَ حَيُّون! ولكن ألا تَـرَى مَعِي أَنَّ حَسُّـونـاً والأَميرةَ مُحتاجان إلى الراحةِ وآستردادِ العافية؟

ابن حيون : أمّـا هـذا فَنَعم، ولِمَ لا يَقْضي حَسُّـونُ والأَميـرةُ هـذا الأُسْبُـوعَ في هـذِهِ الـدار، حتى تَثُـوبَ إليهمـا القُـوّةُ والعافية.

حسون [مقاطعاً]: أتَأذنُ لي، يا أَبي، إنْ رأيتُ غيرَ رَأيك ورأي آبنِ حَيُّون؟

أبو الحسن : تَكلّم، يآبنيّ، فأنتَ حُرّ.

ابن حيون : الكلامُ حُرٌّ في الأَندلس يا حَسُّونُ، فتكلَّمْ.

حسون : أرى، يا أبي، أن نُسافِرَ مِنْ لَيْلَتِنا، بل من ساعتَنا، إلى أَغْمَاتَ، مَنفَى المَلِك.

أبو الحسن : نُسافِر؟ تُسافِر السَّاعة؟ وأنتَ والأَميرةُ على هذه الحال من الضعفِ والسَّقام؟

حسون : أبي، إنِّي ذكرتُ الوالدَين المَنكوبَيْن، فَخُيِّل إليّ أنهما على جَمْرٍ لا يَهدأ من اللَّوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ، والشَّكِّ المُعَذِّب في مَصيرها، وليس ما ذكرتُما، أنتَ وابنُ حيون، من ضَعْفي وضَعفِ الأميرة، وأثرِ السُّقمِ والهَمِّ فينا، إلا حالاً لا يَلْبَثُ الشَّبابُ أَن يَتغلَّبَ عليه، فالمُروءَةُ تأمُرنا جميعاً ألاَّ نؤخِّر الرَّحيلَ ساعةً، إذ لا مَعْنى للإسْعافِ، إذا هو لم يُعجَّل ولم يَأْتِ في أوانِه.

ابن حيون : هو ذاك.

أبو الحسن : نِعْمَ الرَّأْيُ.

الأميرة : ليكُنْ كما أشارَ حَسُّون.

حسون : إذاً، فَهَلُمّ أبي، هلُمَّ ابنَ حَيُّون، هلُمِّي يا أميرة، الساعةَ نُسافر فنَقْضِي الواجبَ.

الأميرة : ويَقْضِي الله ما يشاءُ.

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمان : سيِّدي أبا الحسن، سيِّدي حَسُّون، سيِّدي آبنَ حَيُّون، خُذُوا حِذْركم، أدرِكوا الدّارَ.

حسون : ما يُزعجكم أيها الغِلْمَان؟ وماذا حَوْلَ الدَّار؟ إنّي أَسمعُ ضَجَّة، أما تَسْمعُ، يابْنَ حَيّون؟ أما تسمعْ ضَجةً، يا أبي؟

بثينة : حَوْل الدَّارِ ضَجَّة.

خادم من الغلمان: أولئك جُنودُ المَغاربة، يا سيّدي.

الثلاثة [بصوت واحد]: جُنودُ المَغاربة حولَ الدار!

الخادم : أجل، أتوْا يسألونَنَا عن بِنْتِ الملك، هل رأيناهَا؟ وهل آويناها؟ وهم يقولون: إنها دَخَلت الدار منذُ ساعةٍ، وإنها طَرِيدةُ الأَمير سِير بن أبي بكر، قائد جَيش الفَتح.

حسون مغضباً : بَل قُلْ جَيش الفَضْح، يا غُلام، فقد باء الغادِرون بفَضِيحةِ الأبد.

بثينة : الآن فَهِمْتُ، يا حَسُّون، الآن أدركتُ، يا عمّ أَن سِير ابن أبي بكر كان قد خَطبَني إلى أبي، وكان رسُوله يومئذ القاضي آبنَ أدهم، فلا أَبِي أجابَ، ولا أنا قَبِلْتُ، ولعلَّه تذكَّرني اليومَ، فهو يُريد أن يأخذني عَنْوة.

حسون : لاوالله، يا بِنتَ الملك، لا تَسْقُطُ مِنَ رَأسكِ شعْرةٌ وأنا حَيٌّ، ساعِدي معي، وسَيْفي بِيَدي مَسْلُول.

[وبعد إطراق يستأنف ويقول].

لا بَأْس عليكِ، يا أَميرة، ولا عَلينا يا أَبي مِن طَلعةِ البَرْبر، ولا من آجتماعِهم بنا في هذه الحُجرة، أو غيرها من الدارِ، ولا خوْفَ علينا من فَتْشِهم وَنَبشِهم.

التاجر : وكيف، يا حَسُون؟ وماذا آعتزمتَ أن تَصنعَ لِتَدفَعَ عنّا هذا البَلاء؟

حسون [بعد فكرة قصيرة]: إسمعْ يا أبي! في هذه الغُرفة صُنْدوق مَمْلوءٌ من ثِيابِ المَغارِبة وأسلحتهم، فاتبعوني، وادْخُلوا من فَورِكم فاخْلَعوا ثِيَابَكم هذه، وخُذوا من الصُّندُوقِ ما شِئْتُم من

ثِيابِ المَغارِبَـةِ، وتَزَيَّـوْا بِزيٍّ القَـومِ ، ثم نَخْرُجُ فَنَخْتَلِطُ بهم، أو ندعهم وسَبِيلَهُم ونَأْخُذُ سَبِيلاً غَيْره.

ابن حيون : هو لا شَك سَبِيل الفِرَار.

حسون [مبتسماً] : هو ذاك، يابنَ حَيُّـون. السُّـرعـةَ، السُّرعةَ. [ثم ملتفتاً إلى الأميرة]: أُدخلي، يا أُميرة، أَسْرِعي، أُسـرِعي، لا تُضيِّعي الوَقتَ، فإن الجُنودَ في طلبنا.

[يدخل الأربعـة الحجرة ثم يخـرجون في الـزي المغربي ويكـون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم]: فَتِّشوا، آنْبِشُوا.

الأربعة [خارجين قائلين]: فتّشوا، آنْبِشوا [ويكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

ستار

المنظر الثاني

«تحت أسوار السجن في أغمات حيث نرى بثينة وحسنون وأبا الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن»

ابن حيون : ها نحنُ أولاءِ شارَفْنا أَغمات، وهذه أَيها الرِّفاق هي القَلْعة التي شاءتِ الأَقدارُ أن يُسْجَن فيها المَلِك العظيم.

حسون : يا لَعجائبِ القَدرِ! قَريةٌ ظَلّتِ القُرونَ الطِّوالَ مَجْهولةً مَغمورةً، أصبحتِ اليومَ تُسافِرُ. إليها الظُّنونُ من كُل مكان وتشتَغِلُ مَمالِكُ العرب بها، وبِنَزيلِها العظيم، وتُشْرِف الأسماعُ لمطالِع قَوافيه، ويَنتظر الرُّواةُ ما يَقول فيه الشعراءُ من كَلِماتِ التوجُّع، ونفَثاتِ الحَنِين.

بثينة [بعد إطراق واستعبار]: يا لَقَسْوةِ القدَر! أهذا قَفَصُ الأَسَد، يابنَ حَيُّون؟ أههنا مَنْفى المَلائِك من عَقائل بَني عبَّاد؟ تَبّاً لك يابنَ تاشِفين!. ما كان أَبخلَ جاهَك على الكِرام، وما كان أكثَرك في القُيود على الأَحرار.

ابن حيون : صهْ، أيتها الأمِيرة! فهذا السجَّان يَنْظُرُ إلينا، وقد يُدْخِل

الرِّيبةَ في نفسِه أنْ يَسمعَ منكِ مِثلَ هذا الكلام.

حسون : كفْكِفِي الدمعَ، يا بُثينة، وأقِلّي الجَزعَ، ولا تَنْسيْ أنْ ورَاء هذه الجُدران جُروحاً منَ الدَّهْرِ لم يَبْق لها بَلْسمٌ سِوَاكِ، فكُوني المُفاجأةَ الشافِية، وآطلُعي عليها بابتسامتك الحُلْوة طُلوعَ العافية.

السجان : مَن الرجال؟ ما تَبتغون؟ متى كان حَرمُ السِّجن مَوْضِعَ وَقوف وهَمْس؟

حسون : نحنُ، أيها السَّجّان، طائفة من آل المَلِك السَّجِين وحاشيتِهِ، قد هَزَّنا الشوقُ إلى زيارَته والسُّؤالِ عن أَمرِه، فآدْخُلْ، فاستأذنْ لنا عليه.

السجان : أَنَسِيت، أيها الفتى، أن هذه القَلعةَ هي من السُّجونِ التي يعِيرها السلطانُ اهتمامَه، فلا يَدخُلها داخلٌ إلا بإذنه، ولا يَخرجُ منها خارجٌ إلا بإذنِه، فهل بأيديكم جَوَازٌ يُبِيح لكم زيارةَ السَّجِين؟

ابن حيون : أنتَ تعلم، يا أخي أن مَوْلانا السلطانَ يَعطِف على أَسِيرِه الكريم.

السجان [متهكماً]: كُلَّ العطف، يا سيِّدي!

ابن حيون : وأنتَ تَعلم أنّ الملِكَ المُعتمِد قد رُخِّص له من أَوّلِ يومٍ في آستِصْحابِ مَن يشاء من خَواصّهِ وذوي قُرباه.

السجان : أعلمُ هذا، أيها السيِّد.

ابن حيون : فكِّر إذن في الأمرِ قليلاً، فليس يَضُرُّك أن تُدخِلنا إلى المَلِك، وتَتْركنَا عنده ساعةً، لعلّنا نَشْفِي بِرُؤْيته وحَدِيثِه الشّوقَ والصَّبابةَ [ويلقى للحارس صرة ويقول]: ومعَ ذلك فإليك هذِه الصُّرَّة خُذْها، وبلِّغنا الأَرب.

السجان [وهو يضع الصرة في كمه]: ما هذا، أيّها السيّد؟

ابن حيون : هذا! قد لَمسْتَه بيدِك، هذا قد سَمِعْت رَنِينَه بأُذُنِك، هذا يا أخي، هو الذهَبُ مِفْتاحُ الأبوابِ كُلِّها إلا بابَ الجَنَة.

الحارس : هذا كثيرٌ، يا سيّدي.

ابن حيون : بل هو قَليلٌ، يا أخِي، ولك مِثْلُه عند خُروجِنا من حَضـرةَ المَلِك.

السجان : لقـد سـألتمـوني أمراً صعباً، أيّهـا السيّـد... ومـع ذلـك... فما في دُخـولكم مِن بَأْس، تفضّلوا، يا سادة ادْخُلوا.

ستار

المنظر الثالث

«في سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده وحاشيته، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة في وجوه الجميع، اليوم يوم عيد وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع...»

ابن عباد [مناجياً نفسه]:

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بالأَعْيَادِ مَسْرُورَا
فسَاءكَ العِيدُ في أغْمَاتَ مَأْسُورَا

تَرَى بَنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جائِعَةً
يَغْزِلْنَ للنَّاسِ ما يَمْلِكنَ قِطْمِيرَا

بَرَزْنَ نَحوَكَ للتَّسْلِيمِ خاشِعَةً
أَبْصَارُهُنَّ، حَسِيرَاتٍ، مَكَاسِيرَا

يَطَأْنَ في الطِّين والأَقْدَامُ حافِيَةٌ
كأَنَّها لم تَطَأْ مِسْكاً وكافُورَا[1]

(١) يشير إلى ما كان من اشتهاء أسرته وبناته أن يمشين في الطين، مثل نساء البادية بإشبيلية. فهيأ لهن المعتمد في القصر طيناً من مسك وكافور وأخلاط من الطيب.

مَن عــاشَ بَعــدَك فـي مُلْكٍ يُسَــرُّ بِــهِ
فــإنّـمــا عــاشَ يــالأَحْــلاَم مَـغْــرُورَا

الرميكية [للملك] : الأَميراتُ بين يَديْك ، أيها المِلك، أتَيْنَ يُهَنِّئْكَ بالعِيد.

الملك : يا مرْحباً بِهِن، ولا مَرْحباً بالعيد، ولا أهلاً بهِ. . .
عِيـد بأَيَّة حالٍ عُدْتَ يا عِيد؟ اذهبْ فأَنتَ على السَّجين حَرام.

الملك [لنفسه]: لكنْ لا ، يابنَ عَبّاد! بَعضَ هذا الجَـزَع، وتَجَلَّدْ رَحْمـةً بهـذه الحَمائم المُوثَقة، ورِفْقاً بهذه المَلائِكة المَسجونَة.

الملك [إلى بناته]: العيدُ، يا أَخواتِ بُثينة، يَوم يَجمعُنا بأُختِكُنّ.

إحدى الأميرات :والعِيدُ أيضاً، أيها الملك، يومَ يَرُدّ الله عليك مُلْكَك فتدخل إشبيليةَ عليك التَّاجُ مُؤتَلِقاً.

أميرة أخرى : بل العِيدُ، يا أبي ،يومَ تَـدْخُل الأَنـدلسَ فتَتنقّلُ في رُبـوعه وممالِكه تَنقُّلَ الشَّمْس من دَارٍ إلى دار.

الملك : تقبَّل الله منْكُنَّ، يا عبادِيّات، ورَحِمَني.

إحدى الأميرات : هَوّنْ عليك، يا أَبِي ، فلم يَدُمْ في النّعيم والبُؤْس قَوْم.

الملك : لقـد هَوّن الصَّبـرُ الحوادثَ عنـدي ، يا بِنتـاه، إلاّ حادِثـةً أَصبحَ القَلْبُ جَريحاً لَا يَقْوى على حَمْلِها.

الأميرة : وما تِلك، يا أَبتي؟

الملك : أُختُكِ بُثَينة، وآحتجابُها الذي طـال، وآنْقِطاعُ الأَخبارِ عن مَصيرِها.

الرميكية : لا تَيْأَسْ من رَحمةِ الله، أيها الملك، وآنتظر فَرحاً يأتي به الله مِنْ فَضْلِهِ وكَرَمِه، فهـذا قَلْبي يُحدِّثُني ، وقَلّمـا كَذبتْ قلوبُ الأُمّهـات، أنَّ بُثينـةَ قــد وُجِـدتْ، وأنـهـا بخَيـرٍ وأمانٍ.

الملك [باكياً متضرعاً]: اللَّهُمَّ آسمع مِن أمَتِكَ الـرُّمَيْكِية، وتَقبَّـلْ مِنها، وأَدْخِـلْ علينَا السُّرور ولو ساعةً، فإن عَهْدَنا به منذُ عَهْدٍ طَويل.

[الأميرات يتصنتن].

الرميكية : ضَجَّة!

أميرة : حَرَكَة!

أخرى : نَقْل أقدام!

الملك : آنظُري، يا رُمَيْكِيّـة من الداخلون؟ فـإنّ عَيْني أَصبَحَتْ لا تُحقِّقُ الأَشباح.

الرميكية : سَلَّم الله عَيْنَيْكَ، يا مَولاي، وأَقرَّهُما بِلقاء بُثينة.

[وفي هـذه الأثناء يثب مقـلاص إلى الباب ويـرجع مـع القـادمين يقبـل ثـوب الأميرة بحرارة قائلاً. . .]

مقلاص : سَيّدتي بُثينة! أَميرتي! يا طَرَبا! يا فَرَحا!

الملك : رَبِّ ما أرْحَمك! مـاذا أَرى؟ ماذا أَسمـع؟ ما هـذا الطِّيبُ الذكيّ؟ إني أجِدُ رِيحَ بُثينة.

الرميكية : بُشْرَاكَ، يـا قَلْبُ، هـذه فِلْذَتُك رُدَّت إليـك [وملتفتـة إلى الملك] سيّدي مَلِكي، أنظرْ كيف آستجابَ الله لنا، هَـذه بُثينة مُقْبِلة.

الملك : أجل! أيّتها الملكة، أقبَلتِ الدُّنيا وعادَ الزَّمان.

إحدى الأميرات : بُثينة! أُخْتي! ما أَعظَمَ إحسانَك يا ربّ!

الملك : بُنَيَّتي! بُنَيَّتي! تعـالَيْ آمِلئي ذِراعيَّ كمـا كُنتِ تَخْتَبِئـينَ فيهما طِفْلةً صغيرة.

[تنطرح بثينة على صدر والدها وتقول]

بثينة : أبي، سيدي، مَلِكي، لا بَأس عليك، يا مَلِكَ العرب.

الملك : ولا عليك يا آبنتي، ثِقي بالله وأمِّلي وَجْهَه الكريم.

بثينة : الصَّبْرُ مِنكَ تَعلَّمناهُ، يا مَلِكَ الصابرين.

الملك : والجَدَّةُ يا بُثينة، أَنَسِيتِها؟ أما بكِ إليها شَوْق؟ أمَا لها مِنْك قُبْلة؟

بثينة [وتقوم لجدّتها]: جَدّتي، سيّدتي، مَلِكتي. شَهِد الله ما خَلا القَلْبُ مِنك ساعةً، وما وُجِدْتُ في مَضيقٍ فَذَكرتُك إلاّ آنقلبَ فَضاءً، ولا أظُن الله سُبحانه وتعالى أَنقذَني من البَلاَء، ورَدّني إلى أُسرتي، ورَدّ أُسرتي إليّ، إلا ببركة رِضاكِ، أطال الله عُمرك، يا جدّة.

[ثم ترتمي بثينة في أحضان العبادية جدّتها وهي محاطة بأخواتها الأميرات تقبّلهن ويقبّلنها حتى اطردت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة. وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال:].

الملك : خَبِّريني كيفَ اختُطفتِ، يا بُثينةُ؟ وما حَديثُ آختفائِك؟ حدِّثينيه لِيَطْمَئِنَّ قلبي، فقد كان آحتجابُك في غَلَيانِ الفِتْنةِ؛ وعند آحتدام الفِتن يُذال المَصُونُ، ويَهون العَزِيز، وتَقعُ الفُجَاءات.

بثينة : ولكنّ الله سَلَّم يا أكرمَ الآباء.

الملك : حدِّثينا إذن حَديثَك، يا بُثينة.

بثينة : حديثي، يا أَبتِ، عَجِيبٌ، مُحْزِنٌ، سارٌّ، مُبْكٍ، مُضْحِكٌ، حافِلٌ بعَجائب القَدرِ ومُدْهِشاتِ القَضاء.

الأميرات : حدِّثينا إياهُ يا أُختُ، أَسْرعي.

الرميكية : قُصِّي علينا، يا بِنْتاه، قِصّتك.

الملك : خبِّريني الخَبَر، يا بُثينة.

بثينة : نَـظرتُ إليك يـا أبي يومَ هُجـوم المَغارِبـة على إشبيلية، فرأيتُك تُقاتِلُ وحيداً قَليلَ العَوْنِ والمُساعِد، وكأنّ إشْبيليةَ تحتكَ العَرِينُ، وكأنك الأسَدُ يَحمي عرينَـه، شِبْراً شِبْـراً، فقلتُ في نَفسي: عَـلامَ تَعلَّمتُ الضَّربَ بالسَّيفِ، وعلامَ كُنْتُ أرْكُضُ جِيادَ الخَيلِ في سُهولِ الأندلسِ وحُزونِه، إذا أنا لم أقْضِ حقَّ وَطني، ولم أحْمِ ظَهْرَ أبي في هـذا اليـوم العَصِيب، ثم جَعلتُ على وَجهي لِثـامـاً، وتقلَّدتُ سَيفاً، وآمْتَـطَيتُ جَـواداً، وخـرجتُ من القصـر فَلحِقتُ بك، فلم أزلْ أُقاتل بجانِبك، وأُحامي عنْك حتى امتدّتْ إليّ يـدٌ من حَديـدٍ فآقْتَلعتْني من سَـرْجي، فأُغمِيَ عليَّ، ثم آنتبهتُ فإذا أنا في دارِ رجُلٍ من قُوّاد المغرب.

الملك [مغضباً] وماذا لَقِيتِ من المَغربيّ الخَشِن؟

بثينة : لم أَلْقَ إلا خيراً، يا أبي، فَقد كان الرَّجُل دَيِّناً وتَقِيّاً، أخـذَ ما عَليّ من الحُلِيّ.

الملك : يا له من دَيِّن تَقِيّ!

بثينة : . . . وتركني، فلبثتُ في دَارِه أيّاماً طَرِيحـةَ الفِراشِ، لا أذُوق طعـاماً ولا أطعمُ رُقـاداً، إلا مـا كـان من سَكَرات الحُمَّى، إلى أن سَخّرت لِي العِنايـةُ هذا الشَّيـخَ الجليل [وتشيـر إلى أبي الحسن] فلم أدْرِ كـيف نُـقِلْتُ إلى دارِهِ، وهي لا تَقِـلُّ رِفْعةً عن قَـدِيم دُورِنا، ولا تُقَصِّـر بَشاشـةً ونِعْمةً عن زائل قُصورنا.

الملك [في قلق وغضب، مشيراً إلى حسون]: وهذا الشابُّ، مَن يكونُ، يا بُثينة؟

بثينة : هذا حَسُّون، ابنُ هذا الشَّيخ الجليل التاجرِ أبي الحَسَن، وله عِنْدنا أيادٍ يَذْكُرها مثلُك في الكِرام، فقد قاتَل الثُّوّارَ في قُرْطبة مع أخي الظّافر، رحمةُ الله عليه، وأَبْلَى في وَقْعة الزّلاقة بَلاءً كان له خَطَرُه وأثرُه في ذلك الفَتْح المُبين.

ابن حيون [متدخلاً في الحديث]: وقد جُرِحَ حَسُّون يومئذٍ جُرْحاً بليغاً، فحُمِلَ إلى داره، فما بلَغها حتى بَعثَ إليك، أيها الملك بالصّاعقة ذلك الجواد الأشقر، فركبتَه والوَطِيسُ حامٍ، والحَرْبُ مَجْنُونة، فكان مَيمونَ النَّاصية، من صَوتِه نُصِرْتَ، وفي رِكابه غَلَبتَ وظَهرتَ.

الملك [مفكراً مهتماً]: الصّاعقة؟ فرسُ البازي الأشهب، لِصِّ الأَندلس؟

ابن حيون : أجل، أيها الملك، وقد كان تَحتك في وَقعة الدَّهر بين الفِرنْجة والمُسلمين، وكان رابعَ فَرسٍ قُدّم لك يَومئذٍ، وأنت كلّما هَلك تَحتكَ فرس رَكِبْتَ غيره.

العبادية : أعَرَفتَ مُحدِّثكَ هذا، يا مولاي؟

الملك : كيفَ أَجْهلُه أو أَنْساه! هذا ابنُ حَيُّون الذي زارَنا في إشبيلية، ونصحَ لنا فلم نَسمعْ منه، فالحمد لله الذي جَمعنا به حتى نَسْتأنفَ شُكْرَ إحْسانِه.

ابن حيون : أطالَ الله بقَاءك، يا مَولاي، وأعانَك على هذه الشِّدّة، ورَدّك إلى دِيارِك، ورَدّ ديارَك إليك.

الملك : وأنتَ، يا حسُّون، فقد ذُكِر لي بلاؤُك، ووُصِفْتَ عندي كثيراً بمحاسن الصِّفاتِ، ومكارِمِ الأخلاق.

حسون : مَدّ الله حياتَك، يا مولايّ، وظَلَّلك برعايته وأَمانِه.

بثينة : إيذن لي، يا أبي، أن أعترفَ في مَجلسك بـأنّني كُنتُ في بعض أيام تنكُّري أجتمـعُ بهذا الشـاب النَّبيل، فـلا أجِدُ إلّا أدباً حَسناً، وعِلْماً جَمّاً، وخُلُقـاً فاضِلاً، وشَمائِـل قد لا تُوجَد في أبناءِ المُلوك.

الملك : أتَـذْكُرين، يـا بُثينة، كيف كُنتُ معـكِ ضدّ القـاضي آبنِ أدْهم حين جاءني يَخطُبك للأمير: سِير بن أبي بكر.

بثينة : أذكر ذلك يا أبي ولا أنسى لكَ فضْلك ما حَييتُ.

الملك : إعلمي إذن، يا بُثَينة، أن الأوان قد آن، وأن الإسـلام لا دَيْر فيه ولا رَهبـانِيّة، وأن السِّجْن قـد يَحْتَمِلُه الطِّفلُ، وقد يُطيقه الكَهْل، ولكنه يُرْهِقُ الشبابَ ويُزْهقه، فلن نـرْضى لكِ، أن تُشَاطـرينـا هـذا المنـزل الخَشِن، وهـذه العِيشـة الجافية، وإنّ قَلْبي ليحدِّثُني بأن أُلفةً رُوحيّة قـد آنعقدَتْ بَينكِ وبين هذا الشاب النَّبيل.

حسون [متدخلاً] : أيأذن لي المَلك إن عَرَضْتُ أنَّ قـوْلَه الكـريم إنما يُعـرِبُ عمّا أكِنّ لسيّدتي الأميرة من الحُبِّ والإجلال، وإني أجِدُ أقصى التَّشريف، وغايةَ السعادة، أنّ يأذَن لي المَلِك في أن أَخْطُبَ سَيِّدتي بُثينةَ إليه.

الملك [ملتفتاً إلى بثينة]: وأنتِ ماذا تَقُولين يا بُثينة؟

[الأميرة تغضي حياءً وتسكت]

الملك : مِنَ الصَّمْتِ كَلام.

الملك [إلى أبي الحسن]: وأنتَ، يا أبا الحَسن، ماذا تَرى؟

أبو الحسن : ما يَرى الملك أفضـلُ، فبما شِئْتَ فمُرْنَا، يا مولاي.

الملك [إلى الرميكية]: والمَلِكةُ ما رأيها؟

الملكة : قد أَمَرْتَ، يا مولاي، بما فيه الخَيسرُ، جعله الله زَواجاً مَقْروناً بالسَّعادةِ واليُمْن.

ابن حيون : أيأذنُ المَلِك لي أنا الآخَر بالكلام؟

الملك : تَكَلَّمْ يابنَ حَيُّون، فقد عَرفتُ مَودَّتك وإخلاصَك، وتَبيَّنتُ نُصحك وآهتمامَك، ولو لم يكن من إحسانِك إليَّ وإلى أُسرتي إلا تَجَشُّمُ هذه الرِّحلة من إشبيلية إلى أغمات، لكَفى في باب المُرُوءةِ والوفاء.

ابن حيون : لا شُكْرَ على واجبٍ، يا مولاي، وقد طَوّقتني الساعةَ مِنَّةً لا يَنْزِعُها مِن عُنقي المَوتُ، بِما رَسَمْتَ من بناءِ هذا الفتى الماجدِ الباسلِ بهذه الأَميرة، التي لم يَلِدِ الملوكُ أَجْمَلَ ولا أَكمَل منها. والآن بَقِي لي مُلْتَمسٌ أَرْجُو أن يُجيبَني الملكُ إليه.

الملك : إقترحْ يابن حيّون تَجِدْ مُلَبِّياً مُجيباً، فيما تَبْلُغه قُدْرَةُ مَلِكٍ مَخْلُوع.

[يخرج ابن حيون حراما كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمي الملك فتنتشر اللآلىء واليواقيت].

الملكة : جَواهر!

الأميرات : لآلىء! يَواقيت!

مقلاص : يا لَكَ من كَنْزٍ ثَمينٍ غالٍ.

الملك [وهو ينحني على الكنز]: ومن أين لك، يابَنَ حَيُّون، كُلُّ هذا المالِ؟ فمِثْلُ هذا الكَنْز لا يكون إلا ذخيرةَ مَلِكٍ، وآبنِ مُلوك.

ابن حيون : هو كما تقول، يا مولاي، فهذا الكَنزُ كان لِمَلكٍ ووارِث ملوك، فساقَته العناية إليّ، واليومَ قد هلَك أَصحابُه

وبـادُوا، فأصبحَ لي وَحْدي، أتصـرَّف بـه كيف أشـاءُ، وبـالأمسِ قَوَّمتُ هـذه الجواهـر بما يَقْـرُبُ من ألف ألف دينار، وأنا مُقَسِّمٌ هـذا المال ثـلاثة أقسـام: ثُلُثٌ تَأْخُـذه أنت، يا مولاي، فتستعينُ به على ما أنتَ فيه من الشدّة، وثُلثٌ يأخذه حَسُّـون وزَوجتُه فيعيشـانِ به رَغـدا، والثُلثُ الثالثُ يكون لي ولأبي الحسن التاجر هـذا [مشيراً إلى أبي الحسن] نُؤسسُ بـه تِجارةً ونَعْقِـدُ بيننا شَـركة نَتحـدَّى بهـا تِجاراتِ الفرنْجة في الأندلس.

أبو الحسن : ... الله أكبر! أنتَ، والله، هو المَغْرِبيّ الذي دَخَل عليّ داري، وما كُنتَ يومئذٍ إلاَّ مُتنكراً مُحسِناً للتنكُّر فـأَسَوْتَ جُـرْحي، وحَفِظْتَ عليَّ داري، واستنقذتني من عَـوَادِي البُـؤْس والفاقَـةِ، والآن تـردُّ عليّ تِجـارتي، وتُشـاطِـرُني كَرائم مالِك، فبأي لِسانٍ أؤدْي شُكْرَ إحسانِك.

ابن حيون : بل آشكُرِ الله، يا أخي، فإني لم أُعِنك بمالي، ولكن أَعنتُك بمـالِه، ولا أَجِـدُني صَنَعْتُ يومئـذٍ إلا واجباً، ولا قَضَيْتُ إلاّ دَيناً عليّ للصّداقَة القديمة وللوُدِّ الصحيح.

الملك : لكن ما عَسَاي أصنعُ، يابن حَيّون، بهذه الثَّروةِ، وأنا كمـا تراني صَيْدٌ في قَيْـد، وأَسَدٌ في صَفَـد[1]، وحَيٌّ في قَبْر، ودُنْيـا في شِبْر. إنهـا لهِبةٌ مشكـورةٌ، وإن كانتْ والحِـرمان سَواء.

ابن حيون : لقـد أراحَ الله بالـكَ من هذه الناحيةِ، يـا مولاي، وأَذْهَبَ عَنْـكَ الحُزْن، أما يَسرُّك، يـا مولاي، أن تَنْتقـلَ من هـذه القَلْعةِ المُظلمةالوَمِـدَة[2] إلى منزلٍ بظاهِر المَدينة، جَديدِ

---

(١) الصفد: الوثاق.

(٢) الومدة: المشبعة ببخار الماء.

البِناءِ، حَسنِ الأثاثِ، تُحيطُ به الأشجارُ من كُـل جانب، فتنزِلَه وقد طَرَحْتَ هذه القُيود، فتَسْتَقبل الرَّاحة والحُرّيةَ، وتتمتعَ بالعُزْلةِ التي هامَ بها العُقلاءُ في كُل زمان.

الملك : ومَن لي بهذا الذي تَصِفُ، يآبنَ حيُّون؟

ابن حيون : بَل هو أمرٌ قدتَمَّ، يا مَولاي، فقدْ فُرِغ من شِـرائه وتـأْثيثِه وتهيئتِه، لنُزولِك به في أَهلِك وعيـالِك، وأمـا النُّقْلة فغَداً أو بعدَه إن شاءَ الله.

الملك : وابنُ تاشَفين. . . ؟

ابن حيون : هـو الذين أَمـر أن يكون كُـلُّ ذلك، وقـد تَذَكَّـر كَلِمتـكَ المَشْهـورَةَ التي ســارتْ مَثَـلاً فـي فَمِ الأَنــدلسِ: إذ سُئِلَتْ: أيّ الْمَفْـزَعيْن أحبُّ إليـك: مَلِك الأسبــان، أم سُلطان المغــرب؟ فــأَجبتَ: رَعْيُ الـجِمــال ولا رعْـيُ الخَنـازير، فـأَمر أن يُحْمَـل إِلَيـك في المَنْـزلِ الجـديـدِ بعَيـران من نِجائبِ إبلِهِ، لتـرعاهمـا لـه في خَميلةِ الـدارِ الجديدة.

الملك [في إطراق] : الآن تَـذَكَّـرتُ. لقـد سُئِلْتُ مَـرَّة في مجلس الحُكْم: إن كان لا بُدّ لي أن أَخضعَ لسُلطان،أو أدينَ لِمَلكٍ بالطَّاعة؟ فــأيُّ المَلكيْن أُفَضِّـل؟ وأيّ السُّلطانَين أَختــار: سُلْطان المَغرب، أم ملك الأسبان؟ فأَجبتُ: أرعى الجمال عِنْـد أَميـر المُسلمين، ولا أرعى الخَنـازيـر لِملك الأسبــان، وأظُن أنّ عِبـارتي هذه نُقلتْ يـومـذاك إلى آبن تـاشفين، فأعجبْته ووَجدَها شَريفة.

بثينة : ولكنَّ المكافـأة كانت غَيرَ شريفة، يا أَبي.

الملك : تُريدين، يا بُثينة، أن تَقُولي إنّ مُرُوءة السلطان لم تَزِد على

أن جَعلَني راعياً لجماله، بعدما سَلبَ نَعْمتي، وآغتصبَ مُلْكي، ونَفَاني أنا وأُسرَتي في أغمات.

الرميكية : هـذا جَهدُ الـرَّجُلِ في المَروءة، يا مـولاي، وهذه غـايـةُ كَرَمِه، فلا تُكلِّفه فَوقَ قُدْرةِ باعه، ولا تَسـألْه مـا لَيْسَ في طِباعه.

الملك [لابن حيون]: ولكن! قُلْ لي يابنَ حيّون! من أخذ لنا هذا التَّافِهَ القَليـلَ من ذلـك السلطان الشَّحِيـح؟ ومن ذا الـذي اجتهـد لنـا وصَنع كُلَّ هذا حَتَى غيَّر رَأيَ السلطان. وصَرَفه عن العُنْفِ إلى اللُّطْف؟

بثينة : هو لا شك آبنُ حيُّون، يا مولاي.

ابن حيون : ما آجتهدتُ، ولا صَنعتُ شيئاً، ولكنّ المالَ صنَع.

[ويشير إلى الجواهر].

الملك : سَنَذْكُرَ لك هذه الهمَّة الكُبْرى، يابنَ حَيُّون.

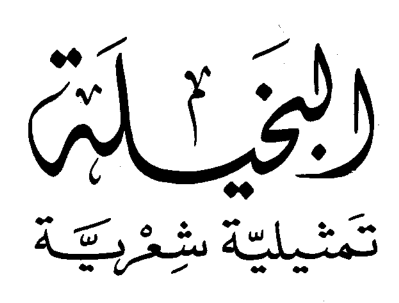
بثينة : وتلك الهمَّةُ الصُّغْرى، أتذكرها للسُّلطانِ، يا مَولاي، فقد تَسمَّحَ فنَقَلكَ من هذه القَلْعة إلى دار غيرها في أغمات.

الملك [ويبتسم ابتسامة تهكم]: أَعِيشُ فيها حُرّاً طليقاً بين أربعةِ جُدارن، وأرعى لَه فيها الجمال.

بثينة : أنتَ الـذي رَعيتَ لله في إشبيليـة قـومـاً شيَّـدوا حَضـارَة الإسلام، وشَعْباً عزِيزاً كريماً، طالما ناضلَ دونَ عَـرِينه، وصَبَـرَ على عَـداوةِ الفـرنجة وتـألُّبِهم عليـهِ القـرونَ الطِّوال(1).

ستار الختام

(1) هذا غير مـا عليه كتب التـاريخ، وتـذكر أن المعتمـد بقي في سجنه إلى أن مـات فيه، وحين مات نودي في أهل المدينة: من يصلي على غريب.



النخلة
تمثيليّة شِعْريّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

البُخل ظاهرة خُلقية مذمومة، وليست ثمة أُمة. منذ أن كانت الحياة إلى اليوم. لم تعرف بين أحادها من يتصف بهذه الظاهرة.

وقَلَّ أن يكون البُخل دون أن نرى لصاحبه نوادر تُثير العجب. الأمر الذي حرَّك الألسنة بأن تَرْوِيَ، والأخيلة بأن تَزيد. وإذا نحن بين أيدينا قِصص عن البُخلاء، فيها المُتعة وفيها العِبرة. خال فيها القاصون ما خالوا. وإذا لنا من هذا كله أدب، لنا أن نُسميه أدب البُخل.

ولقد كان لهذا الأدب مع كل أُمة لون، فرأيناه مرةً بيتاً من الشعر على لسان شاعر، ومرةً حِكمة على لسان ناثر، وما أكثر ما حفل بهذا وذاك الأدب العربي وآداب أخرى غيره، ومرةً ثالثة أخباراً مجموعة عن أشخاصٍ بعينهم، وآخرين من إملاء الخيال، كما فعل الجاحظ في كتابه البخلاء.

وهذا الذي ضمنه الجاحظ قِصصاً قصيرة يَرويها على ألسنة البُخلاء، وكان هذا أدبَ زمانه، طالعنا به الغربُ تمثيليّات، كما فعل موليير في روايته البَخيل.

حتى إذا ما نشأ في الشرق مَن كانت له هذه المَلَكة التمثيليّة، وأعني أحمد شوقي، رأينا له هذه التمثيليّة الشِّعرية: البخيلة.

قد يكون موليير أمسك في تمثيليته «البخيل» بخَيط مِن الحقيقة. ثم خال وزاد، كما قد يكون شوقي في تمثيليّته «البخيلة»، أمسك بِخيط من الحقيقة، ثم خال وزاد.

ولكن هذا وذاك يدلاّننا على أن أدب البُخل أدبُ كُلّ أمة، وأنه اليوم تجاوز ألوانه الأولى إلى هذا اللون الذي نشأ في الغَرب، واحتذاه الشرقُ، وهو اللون التمثيلي.

ولكن الذي يبدو أن هذا الأدب، أدب البخل، لم يعد الأدبَ الشاغل للأُدباء، فهذه الظاهرة لم يعد لها وجودها الأول في مجتمعنا. الذي نَعِيشه اليومَ.

وهذه التمثيليّة الشعرية، أَملتْها قريحةُ شوقي مع سنة (١٩٠٧م) كما يشير إلى ذلك بَطَلُها.

وأكبر الظن أن أحمد شوقي خفّ إلى نظمها مُتأثِّراً بموليير، حيث نراه آبتدع قصة ما أظنها وقعت في مُحيطه، ولكنها آجتمعت له خيوطها ممّا يَسمع، ولو غير هذا كان السبب فلقد كان له فيما جَمعه الجاحظ ما يُمسك به من خيوط لِقصّة أمتع وأَثرى.

ولقد وقعت لي هذه القصة حين استعارها المرحوم الدكتور محمد صبري السريوني من المرحوم الدكتور سعيد عبده، فاختار منها بعضَ فصولها. ونَقلتها أنا كاملة.

ولقد نشرتها منذ حين ليس بالبعيد مجلة الدوحة، وعنها نشرتها هيئة الكتاب. كما نشر بعض فصولها الدكتور السريوني في كتابه شوقيات مجهولة، وهأنذا أنشرها هنا اعتماداً على مخطوطتي، مُستأنساً بطَبعاتها الثلاث.

وكانت ثمة مواطن للتحرير فحرَّرتها.
كما كانت ثمة مواطن للشَّرح فشرحتُها.

وكان لا بُدّ من ضبط ألفاظها ضبطاً كاملاً فضبطتها.

ثم كان لا بد من هذا التَّمهيد ففعلت.

وما توفيقي إلا بالله،،

ابراهيم الأبياري

شوال ١٤١٢ هـ/مايو ١٩٩٢ م



المشاركون والمشاركات
في هذه التمثيلية

الست نظيفة	:	(البخيلة)
جمال	:	حفيدها
حُسْنَى	:	خادمتها
عبد السلام	:	طبيب
رشاد	:	سمسار
عزيز	:	من أبناء الذوات



الفصل الأول

[قهـوة «جميل» بميـدان «لاظ أوغلي». «جمال» و«رشـاد» على مـائـدة يتحـادثان، وآخـرون متفـرقـون. يـدخـل صبي القهـوة بصينيـة عليهـا المـطلوب من المشروبـات فيناول الـزبائن، ويقـول: هنـا سـادة، هنـا القرفة، هنـا الشاي. ثم ينتقـل إلى مائـدة «جمال» و«رشـاد»، ويقول: خشاف سيدي. والبانزهير لمن؟][1]

جـمــال : البانْزَهِير لي أنا

رشاد : وشِيشَتي يا مصطفى

الصبي : طلبتُها، يا سيدي

[يمر بائع جرائد منادياً]

اللِّوا[2]

رشاد :

اللِّوا تعالَ يا ولد

---

(١) البانزهير: شجر الليمون. فارسية. وتُطلق على عصير الليمون المحلى بالسكر.
(٢) اللِّوَا: أي اللواء، وهو العَلَم. وكان اسـماً لجريدة أصدرها مصطفى كامل سنة (١٩٠٠م).

البائع :

إقــرُوا حَــدِيثَ مُصْــطَفَى[1] إقــرُوا خُــرُوجَ المُعْـتَمَــدْ[2]

رشاد :

كــرُومَــرٌ؟ خُــرُوجُــه متى؟

البائع : غداً أو بَعد غَدْ

رشاد : من قال ذاك؟

البائع : [ويمشي]

مُصطفى

رشاد :

إلــتــفَّــت الأَفــكــارُ حَــوْ لَ مُـصــطفـى كــالــقــائــدِ

جمال :

وصــارت الأخبــار عِنــد بــاعَــة الجَــرائــدِ

رشاد :

آمِــنْ مَعِــي بـمُــصْــطَفَى كَــفَــى تَـعــنُّــتــاً كَـفَــى

والعُقَلاءُ

جمال : كُلْهمُ

رشاد : والأَذْكِيَاءُ

جمال : آشْرَبْهُمُ

---

(١) مصطفى، هو مصطفى كامل، زعيم وطني.

(٢) المعتمد: من توكل إليه أمورك. وكان هذا لقب القائم بأعمال السفارة البريطانية. وكان عندها هو اللورد كرومر. وقد بقي يلي هذا المنصب في مصر منذ سنة (١٨٨٣) إلى سنة (١٩٠٧)، وكان عنيفاً في سياسته حتى كانت فرحة المصريين بخروجه من مصر عظيمة.

رشاد : ما أنت؟

جمال : لَسْتُ مِنْهُمُ

إنِّـي أنَـا مـع الـبَـلَدْ إنْ قـامَ قُـمْـتُ أو قَـعَـدْ

لم يَرَنِي فيهِ أحَدْ[1]

[اثنان على مائدة يتحادثان عن جمال]:

الأول :

تـأمَّـل المُكْثِـرَ مِنْ إعْـجَابِــهِ بِـنَفْسِــهِ يَنْـظُرُ في ثِيَـابِــهِ

تَلَفُّتَ الطَّاوُوسِ في إهابِهِ[2]

الثاني :

لله مــا أظْـرفَ. يــا لَــهُ فَـتًــى قــد أبْــدَعَ البــارِي تَعَــالَى شَكْـلَهُ

لَـوْ كــانَ هــذا وَلَــدِي وواحِــدِي خَـرَجْتُ قَبْـلَ المَـوْتِ مِنْ مـالِي لَـهُ

الأول : مَن الفَتَى يا أخِي؟

الثاني :

جَمَال هَــذا الــذي يَـخْـلُفَ الـبَـخِـيـلَهْ

علـى الـدَّكَـاكِيــنِ والـضِّيَــاعِ والثَّـرْوَةِ الـضَّـخْـمَـةِ الـجَـلِيـلَهْ

هــذا الــذي يَفْـتَـرِسُ الأكْيَـاسَـا ولا يَـرَى الأحْـلَامَ إلَّا مَـاسَـا

فإنْ صَحَا شَكَا لَكَ الإفْلَاسَا

يَـأْخُذُ مِنْ هَـذَا وذَاكَ بـالـرِّبَـا يُعْـطِي نُحَـاسـاً لِيُـرَدَّ ذَهَـبَـا

وقِـيــلَ شَــيْءٌ فَــوْقَ ذا

الأول : وما يَقُولُون؟

الثاني : عَجَبْ

---

(١) يشير الشاعر إلى ما كانت عليه حال بعض المصريين من خوف يمنعهم من الجهر بما يعتقدون.

(٢) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان.

الأول : ماذا؟

الثاني :

بَلاطُ بَيْتِها مُرَكَّبٌ عَلَى الذَّهَبْ

الأول : وذَلِكَ الآخَرُ مَنْ؟

الثاني :

ذَاك مِن السَّمَاسِرِ
يَبِيعُ كُلَّ عامِرٍ يُصِيبُهُ وغامِرِ[١]
وكَمْ وكَمْ زُوِّجَ أَوْ طَلَّقَ مِنْ حَرَائِرِ[٢]
تَلْقَاهُ في كُلِّ طَرِيقٍ كالغُبَارِ الثَّائرِ
مِنْ قَهْوَةٍ لِبيَرةٍ لمُنْتَدَى لسامِرِ[٣]
ويَدْفَعُ الشَّبابَ في الوُحُولِ والمَخاطِرِ
فَمِنْ يَدَيْ مُسَلِّفٍ إلى يَدَيْ مُقَامِرِ
ومِنْ سُمُومِ حانَةٍ إلى لُعَابِ عاهِرِ[٤]
لا يُبْغِضُ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ
مِن العِبَادِ كالمُرَابِينَ فِئَهْ

الأول :

أيّ رِباً يَشْتَرِطُونَ، يا تُرى؟

الثاني : عِشْرُونَ أو ما فَوْقَ ذاك في المِائَهْ
أُنْظُر إلى السِّمْسَارِ يَسْحَرُ الفَتَى
وآنْظُرْ إلى الغُلَامِ كَيْفَ آسْتَحْسَنَهْ

---

(١) العامر: ما يصلح للزرع. والغامر ما لا يصلح.
(٢) الحرائر: العقائل، وهنّ السيدات المخدرات.
(٣) بيرة: أي مكان شرب البيرة، والمنتدى: مجلس الكلام. والسامر: مجلس السمر.
(٤) اللعاب: ما سال من الفم. والعاهر: المرأة الفاجرة.

عِنْدِيَ أَلْفُ ما مَلَكْتُ غَيْرَهَا
مَنْ لِي بِهَا أَلْفَيْنِ إنْ فاتَتْ سَنَهْ؟

الأول : عِنْدَكَ أَلْفُ أَنْتَ؟

الثاني : ألفُ ذَهَبًا

الأول : تُرِيدُ تُعْطِيهَا بِفَاحِشِ الرِّبَا؟
إذَنْ لَقَدْ كُنتَ تُرَائِي، يا أَخِي
ولَمْ تَكُنْ تَقْوَاكَ إلاّ كَذِبَا

[جمال يرفع صوته]:
باللهِ مِنْ ذَا الحَدِيثِ دَعْنَا
وانْظُرْ مَعِي هَذِه الكُرُنْبَهْ

[ينظر إلى رجل وجيه ملفف بالثياب ومعمم] ويقول:
ومَنْ يَكُونُ الوَجِيهُ؟

رشاد :

هَذَا	مُقَاوِلٌ يُكْبِرُونَ كَسْبَهْ
وكُلَّ يَوْمٍ عَلَيْهِ نَعْلٌ	وكُلَّ يَوْمٍ عَلَيْهِ جُبَّهْ
تَرَاكَمَ المالُ في يَدَيْهِ	مِنْ حَبَّةٍ أَمْسِ صَارَ قُبَّهْ

جمال :

وما فَتَنَ الحَظَّ بالكَرْكَدَنِّ	وما أَعْجَبَ المَالَ مِنْ سِحْنَتِهْ؟

رشاد :
ومِنْ عَجَبٍ بَعْدَ هَذَا المَشِيبِ
بَنَى باثْنَتَيْنِ عَلَى زَوْجَتِهْ
ورَامَ الزَّوَاجَ بِبِنْتِ النَّقِيبِ
فما قَبِلُوهُ عَلَى ثَرْوَتِه[1]

---

(١) النقيب: كبير القوم المعني بشؤونهم.

جمال :
وما تِلْكَ؟ مَنْ هِيَ بِنْتُ النَّقِيبِ؟

رشاد : فَتَاةٌ هِيَ البَدْرُ في لَيْلَتِهْ

جمال : وما بَيْتُها؟

رشاد : قَصْرُ آبَائِهَا
طَوِيلُ العِمَادِ عَرِيضُ الغُرَفْ

جمال : وما مَالُهَا؟

رشاد : القَصْرُ عُنْوَانُهُ
أَلَيْسَ القُصُورُ رُمُوزَ التَّرَفْ؟

جمال : وما سُمْعَةُ البَيْتِ؟

رشاد : مَاذا تَقُولُ؟
أمَا في قَدِيمَ البُيُوتِ الشَّرَفْ؟

جمال : وَلِمْ أَبَتِ الشَّيْخَ وهُو الغَنِيُّ

رشاد : وهَلْ كُلُّ ما فِي الزَّوَاجِ المُهُورْ؟
وهَلْ يَمْلأالتَّيسُ عَيْنَ المَهَاةِ
وهل تَحْمِلُ الكَرْكَدَنَّ القُصُورْ؟

جمال : رَشَادُ، أَهْيَ حُلْوَةٌ؟

رشاد : وذاتُ قَصْرٍ، وكَفَى

جمال :
ما ضَرَّ لو أَنِّيَ صَا هَرْتُ الغِنَى والشَّرَفَا؟
أَتَعْرِفُ البِنْتَ، يا رَشَادُ؟

رشاد : وأَعْرِفُ الأُمَّ، يا جَمَالُ

جمال : كَيْفَ؟ ومِنْ أَيْنَ؟

رشاد : لِي بِبَيْتِ النَّقِيبِ مِنْ نَشْأَتِي آتِّصَالُ
أُمِّـي كـانَـتْ إلَـيْـهِ تَـغْـدُو
إذْ أنــا طِــفْــلٌ، ولا تَــزَالُ

جمال : ماذا تَرَى رَشَادُ إنْ طَلَبْتُها؟
تُرَى تَرُدُّنِي إذَا خَطَبْتُهَا؟

رشاد : أَصْغِ لي، أنْتَ مِثْلُ ما تَتَمَنَّى
زَيْنَب تَجْمَعُ الغِنَى والجَمالاَ

جمال : الغِنَى يا رَشَادُ؟ إنَّكَ تَهْذِي

رشاد : أنا أَهْذِي؟

جمال : أَجَلْ وتَخْلِطُ

رشاد : لاَ، لاَ
أَنْـتَ فَـوْقَ الـنَّـقِـيـبِ دَخْـلاً وَرَيْـعـاً
بَـعْـدَ حِـيـنٍ وأَنْـتَ أَكْـثَـرُ مَـالاَ
جَـدَّةٌ تَـجْـعَـلُ الـحَـدِيـدَ عَلَى الـمَـا
لِ وتَـحْـمِـي الأَبْـوَابَ والأَقْـفَـالاَ

جمال :
لَـكِـنَّـهـا، يـا صَـدِيـقِـي أَشَـدُّ مِـنِّـي ومِـنْـكَـا

رشاد :
صَـبْـراً فَـعَـمَّـا قَـلِـيـلٍ سَـيُـفْـرِجُ الله عَـنْـكَـا

جمال : وجَمَالِي؟

رشاد : [ويخرج مِرآة]
أفي جَمَالِكَ شَكٌّ؟

خُذْ تأَمَّلْ، أُنْظُرْهُ في مِرآتِي

جمال : سَوْفَ تَسْبِي فُؤَادَ زَيْنَبَ

مَنْ زَيْنَبُ؟

رشاد : هـذا، يـا صَـاحِبِي، آسْمُ الفَتَاةِ

جمال : رَشَادُ، آسْمَع، عَقَدْتُ العَزمَ فآذْهَبْ

وأُمَّكَ، فآخْطُبَا لِي اليَوْمَ زَيْنَبْ

رشاد : وهَبْ لي رِيالَيْنِ تَحْتَ الحِسَابِ

وبَعْدَ غَدٍ نَلْتَقِي ها هُنَا

جمال : [يُناوله الريالين]

قَبِلْتُ، فَخُذْ

رشاد : [بعد أن ينظر أمامه]

أنْتَظِرُ، يا جَمَالُ   بِـرَبِّـكَ فـالحَظُّ قَـدْ أَحْسَنَـا

فَـهَـذَا   أَخُـو   زَيْـنَـبٍ   مُـقْـبِـلاً

فَـسِـرْ حَيْـثُ شِئْـتَ، ودَعْـنِـي أَنَـا

[يجلس عزيز فيتقدم إليه رشاد]

رشاد :

عـزيـزُ؟ مَـنْ؟ أهـلاً، أَخِـي   مُـنْـذُ شُـهُـورٍ لَـمْ أَرَكْ

عزيز : رَشَادُ، أَنْتَ ها هُنا؟

مَن ذَا الذي كَان مَعَكْ؟

رشاد :

أُنْـظُرْ   إلَـى   ثِـيَـابِـهِ   ولَـوْنِـهـا كَـيْـفَ آتَّـحَـدْ

أُنْـظُرْ   إلَـى   حِـذَائِـهِ   مِـنَ الـنَّـظَافَـةِ اتَّـقَـدْ

والـبَـنْـطَلُونُ   مُـسْـتَـوٍ   لـم يَنْكَسِـرْ. لـم يَنْعَـقِـدْ

أَعِـرْنِـيَ الـسَّـمْـعَ أَعِـرْ   عِـنْـدِي لَـكُمْ شَـيءٌ يَسُـرْ

عزيز : ما ذاك؟ هاتِ، ما الخَبَرْ؟

رشاد : هذا جَمَالُ وَحِيدُ جَدَّهْ

بَخِيلَةٍ يا عَزِيزُ، جِلْدَهْ

عزيز : وعُمْرُها يا رَشَادُ؟

رشاد : يُرْبي عَلَى الثَّمَانِينَ

عزيز : تِلْكَ مُدَّهْ

والمَالُ؟

رشاد : ما شِئْتَ مِنْ فَدَادِيْنِ

ومِنْ بُيُوتٍ ومِنْ دَكَاكِيْنِ

والذَّهَبُ الصَّبُّ كُلَّ نَاحِيَهْ

في البَيْتِ، مِنْ مُخْبَأ ومَدْفُونِ

عزيز : والآنَ ماذا تَبتغي؟

رشاد : أُرِيدُهُ لِزَيْنَبَا

عزيز : وكَيْفَ؟ هَلْ يَقْبَلُهَا؟

رشاد :

كَلَّمْتُهُ فَمَا أَبَى

فامْضِ إلَى أُمِّكَ يا عَزِيزُ بَلِّغْها النَّبَا

لَقَدْ وَصَفْتُ القَصرَ للأَبْلَهِ وَصْفاً عَجَبَا

ولَمْ أزلْ أُطْرِي لَه الْجَدَّ وأَمْدَحُ الأَبَا

وَأَنْعَتُ المَجْدَ القَدِيمَ وَأُحلِّي النَّسَبَا

وقُلْتُ عَنْ أُمِّكَ خَيْراً وآمْتَدَحْتُ زَيْنَبَا

عزيز : وقَدْ نَسِيتَنِي أَنا؟

رشاد : لاَ. بَلْ أَطَلْتَ الكَذِبَا

عزيز : وما الَّذي قُلْتَ عَنِّي؟

رشاد : قُلْتُ: فَتًى ما أَفاقَا

بـالـلَّيْـلِ يَغْشَى الـمَـلاَهِي وبـالـنَّـهـارِ الـسِّـبَـاقَـا

تَـسْـأَلُـنِـي عَـزِيـزُ رَأْيِـي

عزيز :

لِمَ لا؟ أَلَسْتَ مُنْذُ زَمنِ المَهْدِ أخـا؟

رشاد : أَنْتُمْ، عَزِيزُ، يـا أخِي، في أَزْمَةٍ

ولا يَفُكُّ ضِيقَكُمْ إلاّ الغِنَى

فـي المَـالِ فِـيـه وَحْـدَهُ خَـلاَصُـكُـمْ

لاَ بُـدَّ مِـنْـه الـيَـوْمَ أَوْ لاَ فَـغَـدَا

عزيز : أَجَلْ، بِغَيْرِ المَالِ لا عَيْشَ لَنَا

وكَيْفَ؟ مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ؟ أَفْتِنا

رشاد : ممَّا نَخُـوضُ فِيهِ مُنْذُ ساعةٍ

من الفَتَى. مِن مَوْتِ جَدَّةِ الفَتَى

عزيز : وما الَّذي نَصْنَع كَيْ نَصيدَهُ؟

لا بُدَّ مِنْ مَصْيَدَةٍ

رشاد : تِلْكَ أَنَا

إسـمَـعْ، أخِـي عَـزِيـزُ، أَنْـتُـمْ أُسْـرَةٌ

لـم يَـبْـقَ مِـنْ وُجُـودِهـا إلاّ شَـفَـا[1]

قَـصـرُكُـمُ مـن قِـدَمٍ مُـهَـدَّمٌ

قَـدْ خَـاطَ فِـيـهِ الـعَـنْـكَـبُـوتُ وبَـنَـى

---

(١) الشفا: القليل.

سَــكَـنْــتُـمـوهُ هـــا هُــنَــا وهـــا هُـــنَـــا
كـــالـبُـــوم، كُـــلُّ بُـــومتَيْنِ في فَضَـــا[1]
مَـــلأْتُـــمُـــوه خَـــدَمـــاً أَشْـــدَاقُـــهُـــمْ
دائِـــرَةٌ عَـــلَى الـــرَّغـــيـــفِ كـــالـــرَّحَـــى
أنْـــظُر إلى القُـــصُـــورِ كَيْـــفَ أَصْـــبَـحَـــتْ
لـــم يَـــبْـــقَ مِـــنْ مُـــقَـــدَّمٍ ولاَ أَغَـــا
إحْـــتَـــجَـــبَ الـــقَـــوْمُ وَراء ظِـــلِّـهَـــا
لا يُـــسْـــأَلُ الـــبَـــوَّابُ إلاَّ قـــال: لا

عزيز :

كَـــفَـــى، رَشَـــادُ صِـــفَـــةً لِـــبُـــؤْسِـــنَـــا، كَـــفَـــى، كَـــفَـــى
ولا تُـــعَـــذِّبْ مُـــهْـــجَـــتِـــي ولاَ تَـــهِـــجْ لِـــيَ الـــبُـــكَـــا
وآمْضِ آجْـــتَـــهِـــدْ رَشَـــادُ فِـــي تَـــزْوِيـــج أُخْـــتِـــي بـــالـــفَـــتَـــى

رشاد :

إذَا كَـــانَ لَـــهَـــا أَهْـــلاَ ولـــمْ لا، يـــا أخِـــي؟ لِـــمْ لاَ؟
فَـــتًـــى لـــم يَـــحْـــكِـــه الـــشُّـــبَّـــا نُ هِـــنْـــدَامـــاً ولاَ شَـــكْـــلاَ
ولـــم يُـــنْـــكِـــرْ لَـــهُ الإخْـــوَا نُ لا ظَـــرْفـــاً ولا عَـــقْـــلاَ
ومِـــنْ بَـــيْـــتٍ يَـــرَى الـــنَّـــا سُ عَـــلَـيْـــهِ الخَـــيْـــرَ والنُّـــبْـــلاَ
أَبُـــوهُ كـــانَ إنْـــسَـــانـــاً

عزيز : وهَذَا كُلُّه فَضْلاَ
عَمَّا وَرَاءَ جَدَّتِهْ

رشاد : وعَنْ عَظِيم ثَرْوَتِهْ
يا لَيْتَنِي في حَالَتِهْ

إسْـــمَـــعْ عَـــزِيـــزُ، يـــا أخِـــي أنَـــا وأَنْـــتَ لا نَـــرِثْ

---

(١) فضا: أي فضاء.

أَمْلَطُ، يـا رَبُّ، كمـا خَلَقتَني　　راضٍ عَلى قِلَّةِ مـا رَزَقـتنِـي

عزيز :

دَعْـنَـا مِـن الـهَـزْلِ، هَــلاَّ　　أَخَـذْتَ في الجـدِّ سَــاعَـهْ؟

رَشَــادُ أَنْــتَ صَـدِيـقٌ　　مــاذا تَـرَى في البِضَـاعَــهْ؟

أدْخُـلْ بِنَا في الجِدِّ، يا رَشَـادُ　　مَتَى تَرَاه؟

رشاد : في غَدٍ أَرَاهُ

عزيز : لم تَقُلْ لِي عَن الفَتَى مَنْ أَبُوه؟

رشاد : كان فَخرَ الرِّجالِ. . . كان مُدِيرَا

[ثم لنفسه]

كان، والله، يَسْكَعُ، الصُّبْحَ، واللَّيلَ، إلى كُلِّ حَانةٍ سِكِّيرَا(1)

عزيز : والفَتَى، كَيْفَ شُغْلُهُ؟

رشاد : في الدَّوَاوِينِ

عزيز : إذنْ، قَدْ نَرَاهُ يوماً وَزِيرا

رشاد : لِمَ لا؟

[ثم لنفسه]

قُـلْتُـهــا، ومِــنْ أَيْـنَ أَدْرِي؟　　رُبَّمَـا صارَ حـاجِباً أو خَفِيـرَا

[ثم لعزيز]

لا تَسَلْني مــا أَبُـوهُ، يـا أَخي　　أو مَن الأُمُّ وسَـلْ: ما جَـدَّتُـهْ

لا، ولاَ ما شُغْلُه؟ ما جَـاهُه؟　　في الـدَّوَاوِين، ولا مـا رُتْبَتُــهْ

فَجَمــالٌ فـي غَــدٍ أو بَعْـدَه　　بِــوَزِيـرَيْنِ تُسَــاوِيَ ثَـرْوَتُـهْ

[بعد لحظة]

---

(1) يسكع: يمشي متعسراً لا يدري أيةً يأخذ من الطُرُق.

وَلِــمْ لَا وَجَــدَّتُــهُ نَــمْــلَةٌ
إذا وَقَــفَــتْ أو مَــشَــتْ حَــصَّــلَتْ
وتُــدْخِــلُ فـي بَـيْـتِـهَــا مــا تُـنْـصِـيــبُ
ولا يُــخْــرِجُ الــدَّهــرُ مــا أَدْخــلَتْ
لو ٱنْقَلَبَتْ مِنْ جَمِيعِ الجِهاتِ
عـلى الـقَشِّ في فَـمِــهَــا مــا ٱنْـفَـلَتْ
تَــرَى المَــالَ في بَيْتِهــا في الـلِّحــافِ
وتَــحْــتَ الــبَــلَاطِ وحَــشْــوَ الــشِّــلَتْ

عزيز :
عَجِبْتُ، يَأْتِي البَخِيلَ المَالُ وَهُـوَ يَـرَى
أنَّ الـبَـخِـيــلَ إلَـيْــهِ غَـيْــرُ مُـحْـتَــاجِ
وقَــلَّمَــا جَــاء حُــرَّاً مــاجِــداً ومَـشَــى
إلى الكَــرِيـم الكَـثِيــرِ الـهَمِّ والـحَــاجِ
آهِ، مــا أَكْــثَــر حــاجِــي مَــنْ بِحَــاجَــاتي أُنَــاجِي؟
أَزْمَــةٌ دُرْتُ فَــلَمْ أَلْــقَ لَــهَــا وَجْــهَ انْــفِــرَاج

رشاد : عَزِيزُ أَنْتَ مُفْلِسٌ

عزيز : ما شِئتَ في ذاكَ فَقُلْ

رشاد : عَـلى البَــلَاطِ، يــا عَــزِيــزُ، كُـلُّنــا ذاك الــرَّجُــلْ

عزيز : إذَنْ، جَــمَــالُ صَـفْــقَــةٌ رَابِـحَــةٌ لَــنَــا كِــلَيــنَــا

رشاد : قد فَهِمْتَ مَأْرَبِي
وَلَـسْــتُ أَنْـسَـى فَـضْـلَكُــمْ عِـنْــدِي وَلَا
مَــا طَــوَّقَــتْ أُمُّــكَ أُمِّــي وأَبِــي

عزيز : إِذْهَبْ إذنْ، رَشَادُ، فاخْطُبْهُ

رشاد : لِمَنْ؟

عزيز : لِي، ولِزَيْنَبٍ، وأُمِّ زَيْنَبِ

رشاد : لِلأمِّ والإبْنِ ولِلْبِنْتِ؟

عزيز : أَجَلْ

وكُلِّ مَن مَتَّ لَنَا بالنَّسَبِ

رشاد : أَصَبْتَ، يا عَزِيزُ، أنتَ فَطِنٌ

عزيز : لاَ، بَلْ هُو البُؤسُ يُفَطِّنُ الغَبِي

رشاد :

ورُكُوبِي، يا صَدِيقِي وذَهَابِي، وإيَابِي؟

عزيز :

إمْضِ أَنْفِقْ ما تَشَا وآصْبِرْ إلى يَوْمِ الحِسَابِ

أنَا لَوْ بِيعَ بِفَلْسٍ لم يَجِدْ سُوقاً جِرَابِي

كِلاَنَا رَشَادُ على زَوْرَقٍ كَسِيرٍ ومَوْجٍ عَنِيفٍ شَقِي

فإنْ نَنْجُ نَنْجُ بخَيْرِ المَتَاع وإلاَّ غَرِقْنَا مع الزَّوْرَقِ

[ثلاثة آخرون جلوس على مائدة القهوة

أحدهم يقرأ جريدة، والآخران يتحادثان]

الأول : مَنْ ذَلِك المُطِلُّ مِنْ لِحْيَتِهِ

كالبَغْلِ مِنْ وَرَاءِ مِخْلاَةٍ رَنَا[1]

الثاني : تَسْأَلُ عَنْ ذَاكَ الَّذِي آنْحَنَى عَلَى

صَحِيفَةٍ يَقْرَا ووَلاَّنَا القَفَا؟

الأول : أَجَلْ، أَجَلْ هذا القَفَا

---

(١) رنا: أدام النظر في سكون.

الثاني : هذا هُو الدَّكْتُورُ

الأول : مَنْ؟

الثاني : عبدُ السَّلَام مُرْتَضَى

يَـقْـرَأ مـا صَـادَفَ مِـنْ جَـرِيـدَةٍ
مِـنْ سَـطْرِهـا الأَوَّلِ حَتَّـى المُـنـتَـهَـى
وتَـسْتَـوِي صُـحْـفُ الـصَّـبَـاحِ عِـنْـدَهُ
وصُـحُـفٌ ظَـهَـرْنَ مِـنْ عَـامٍ مَـضَـى
تَـذَاكِـرُ الـدَّفْـنِ الَّـتـي يِـكْـتُـبُـهَـا
فـي الشَّـهْـرِ أَضْـعَـافُ تَـذَاكِـرِ الـدَّوَا
وعَيْبُه البُخْلُ

الأول : فِيهِ بُخْلٌ؟

الثاني : أَبْخَلُ مِنَ جارَتِي نَظِيفَهْ

الأول : مَنْ، يا أخِي، هَذِه؟

الثاني :

عَجُوزٌ في الخُطِّ من أُسْرَة شَرِيفَهْ[1]
لَـيْسَ لَهَـا فـي الـحَـيَـاةِ إلّا عِبَـادَةُ المَـالِ مِنْ وظَـيـفَـهْ
حَـتَّـى لَـقَـدْ صـارَتْ حَـدِيثَ الـحَـارَهْ
وضَـحِـكَ الـجَـارِ وسُـخْـرَ الـجَـارَهْ
كُلُّهُمْ يَحْسُـدُهَـا بِـمَـالِهـا ويَتَمَـنَّـى حـالَـهُ كـحَـالِهَـا
وهَكَذَا الأَنْفُسُ في ضَلاَلِهَا

الأول : ما غِنَاهَا يا أخِي؟

الثاني : أَكْثَرُ هَذَا الخُطِّ مالاً

(١) الخط: موضع الحي من المدينة.

الأول : ومَن الـوارِثُ إنْ ماتَتْ

الثاني : فَتًى يُدْعَى جَمَالاَ

الأول : وذَلِكَ الدُّكْتُورُ؟

الثاني : هذا مادِرٌ[1]

الـجُـوعُ، يـا أخِي، ولاَ الأَكْـلُ مـعَـهْ

لَـقَـدْ دَعَـانِـي لِـلْغَـدَاءِ مَـرَّةَ

فَـقَـسَّـمَ الـبَـيْـضَـةَ بَـيْـنَ أربَـعَـهْ

وجيء بالشواء

الأول : قُلْ ماذا جَرَى؟

الثاني : أَوْمَا إلى خَادِمِه أن يَرْفَعَهْ[2]

رَأى فِـيـهِ عَـيـبـاً وإنْ لَـمْ نَـجِـدْ

عَـلَى الـلَّحْـمِ عَـيْـبـاً سِـوَى قِلَّتِـهْ

فَـقَـدْ كَـانَ أنْـضَـجَ لَـحْـمٍ رَأيـتُ

وقَـدْ كَـانَ كـالمِسْـكِ في نَـكْـهَـتِـهْ

ومِـنْ بُـخْـلِهِ تُـفْـتَـحُ الـقَـهَـواتُ

وتُـغْـلَقُ، وهُـوَ عَـلَى «شِـيـشَـتِـهْ»

يُـقَـضِّـي بِـهَـا طَـرَفَـيْ يَـوْمِـهِ

ويُـمـضـي بـهـا طَـرَفَـيْ لَـيْـلَتِـهْ

الأول : ومَرْضَاهُ؟

الثاني : يلقاهُم في الطَّريق حيناً، وحيناً على قَهْوَتِهْ

[غلام يدخل القهوة صائحاً]

---

(١) مادر: رجل من العرب يُضرب ببخله المثل.
(٢) أوما: أي أومأ، بمعنى أشار.

الغلام : أين هو الدكتور؟

أحدهما : ذاك

الغلام [للدكتور]: سَيِّدِي أخِي سَقَطْ
تَحْت التَّرَام

الدكتور :
فَلْيَكُن أو تَـحْـتَ وابُـورِ الـزَّلَطْ
فـمـا الَّـذِي أصَـابَـهُ؟

الغلام : إنْفَلَقَ الرَّأْسُ

الدكتور : فقطْ؟
هَـيَّـا ولَـوْ أنَّـيَ مَـا عـالَـجْتُ في الـشَّـارِع قَطْ

الغلام : الله فـي عَـوْنِ الجَـرِيـحِ مِـنْـكَ، جـرَّاحَ الـقِـطَطْ

ستـار

الفصل الثاني

[في منزل السيدة نظيفة]

حجرة بها دكة عليها شلتة ومخدات ثلاث ـ السيدة نظيفة تلبس جلابية من الشاش الأبيض، ومتعصبة بمنديل، وفي رجلها القبقاب.

نظيفة : [تتكلم وحدها في الحجرة]:

مَنْزِلِي حَولي نَظِيفٌ وأنَا السِّتُّ نَظِيفَهْ
وبَلاطِي ذاكَ أنْقَى بِكَثِيرٍ مِنْ صَحِيفَهْ
كُلُّ ما كَلَّفَنِي ماءٌ وصابُونٌ ولِيفَهْ
لا بِسَاطٌ لا كِلِيمٌ لا حَرِيرٌ لا قَطِيفَهْ

غَيْر هَذِي الخَشَبات الْخَيْزُراناتِ الخَفِيفَهْ
لَيْسَ بَيْتِي كبُيُوت النّاس أحْمَالاً كَثِيفَهْ
أنا بَيْتِي في الهَوَاء الطَّلْقِ والشَّمْسِ اللَّطِيفَهْ

ودِكَّتِي تِلْكَ أغْلَى لَدَيَّ من ألْفِ صُفَّهْ[1]
كم مال زَوْجِي عَلَيْهَا وكَانَ يَقْطُرُ خِفَّهْ
جَلَسْتُ فيها عَرُوساً واليَوْمَ إذ أنا قُفَّهْ

---

(١) المكان المكلل.

[بعد أن ترى «حسنى» الخادمة داخلة عليها وبيدها شيء]

تَعَــالَيْ، يــا آبْـنَتِـي، جِيئـي بـمــاذا جِئْتِـني «حُـسْـنَـى»؟

حسنى : لَقَدْ جِئْتُ بِفِنْجَانٍ

نظيفة : خُذيه جَرِّبي البُنَّا
وهذا شُبُكِي هاتِي[1]

حسنى : أَجَلْ بالعُود قَدْ جِيتُ[2]
وفي الكِـيسِ مــع الــدُّخَّــا نِ زَنْــدَانِ وكِــبْــرِيــتُ[3]

نظيفة : سَلِمتْ، حُسْنَى، يَدَاكِ

حسنى : أنا مَوْلَاتِي فِدَاكِ
والآن، هل آخُذُ خَرْجَ النَّهَارِ[4]

نظيفة : إمضِي خُذِيه إنّه في الكَرَارِ

حسنى : هيَّأتِه، سَيِّدتى؟

نظيفة : أجَلْ

حسنى : وما أَخْرَجْتِ لِي؟

نظيفة :
رَأسٌ مِــن الــثُّــوْمِ وخَــمْــ ـسٌ من صِـغَــارِ الـبَـصَــلِ

حسنى : والسَّمْنُ، مَوْلَاتِي، تُرَى؟

نظيفة : كأمْسِ، لَمْ أُقَلِّلِ
أُوقِيَّةٌ

حسنى : والرُّز

---

(١) أداة للتدخين،طويلة شيئاً ما، تكون قصبة مجوفة.
(٢) العود: ضرب من الطيب يُتبخر به.
(٣) الزندان: العودان اللتان تقدح بهما النار.
(٤) الخرج: خلاف الدخل: تريد طعام يومها.

نظيفة :

لا   لا يَـدْخُـلَنَّ مَـنْـزِلِـي

لَـقَـدْ غَـلاَ سِـعْـراً، وَلا   يُـعْجِـبُنِي الـسِّـعْـرُ الـغَـلِي

حسنى :

لَـيْتَـكِ بِـالـزَّيْـتِ افْـتَـكَـرْ   تِ والـدَّقِـيـقِ والـعَـسَـلْ

نظيفة :

ولِـمَ يـا حُـسْـنَـى أَرَا   كِ الـيَـوْمَ عـادَكِ الخَبَـلْ؟

نَـسِـيـتِ أنَّ هـا هُـنَـا   وتَـحْـتَ هَـذِي الـكَـنَـبَـهْ

الـعَـشَـرَاتِ مِـنْ قَـدِيـمِ   الـكَـعْـكِ والـغُـرَيِّـبَـهْ؟

حسنى : لَمْ أَنْسَ، يا سَيِّدَتِي

نظيفة : أنْتِ إذَنْ مُخَرِّبَهْ

حسنى : قَد آشْتَهَيْتُ لُقْمَةَ القَاضِي

نظيفة : آشْتَهَتْكِ عَقْرَبَهْ؟

ومـا الَّـذِي آشْـتَـرَيْـتِ، يـا   حُـسْنَـى لَنَـا مِـن الـخُـضَـرْ

حسنى :

الـبـامِـيَـا كـأَنَّـهـا الـزُّ   مُـرُّدُ الـخَـامُ الـحَـجَـرْ

نظيفة :

الـبـامـيَـا؟ مُـنْـذُ مَـتَـى   هـذا الخُضَـارُ قَـدْ ظَهَـرْ؟

حسنى :

جَـدِيـدَةٌ.. قُلْتُ عَـسَـى   سَـيِّـدَتِـي بِـهـا تُـسَـرّ

نـادى المُنَـادُونَ عَلَيْهـا مُنْـذُ أُسْبُـوعٍ عَبَـرْ

تَـرْفُـلُ فـي شَـوْكَـتِـهـا   وفـي شَـبَـابِـهَـا الـنَّـضِـرْ[1]

---

(١) ترفل: تجر ذيل ثوبها وتتبختر في سيرها. والشوكة: السلاح. يريد ملمسها الخشن.

نظيفة :

أَجَـلْ لَـقَـدْ أَكَـلْتُـهَـا فـي مَنْـزِلِ الـشَّـيْـخ عُـمَـرْ
كـالـذَّهَبِ الإبْـرِيزِ، والثُّـومُ عليها كـالـدُّرَرْ[1]

حسنى : واليَوْمَ تَأْكُلِينَهَا

نظيفة : أَمَرَّ مِن طَعِمْ الصَّبرْ
آشْـتُـرِيَـتْ غَـالِـيَـةً مِـثْـلَ البَـوَاكِيـرِ الأُخَـرْ[2]

حسنى : هَدِيَّةٌ تِلْكَ

نظيفة : ومِمَّنْ؟

حسنى : مِن قَرِيبٍ لي حَضَرْ

نظيفة : مِنْ أينَ جَاء؟ ومَتَى؟

حسنى : مِن الصَّعِيدِ قَدْ بَكَرْ[3]

نظيفة :

وبِـمْ تُـرَى جَـزَيْـتِـهِ؟ بِـقُـبْـلَةٍ مُـسْـتَـعْـجِـلَهْ؟
إمْضِي فَـتَـاتِـي وآطْـبُـخِـي «دِقـيَّـةً» مُـكَـمَّـلَهْ
كَـأَنَّـهـا خَـلِـيَّـةٌ مِـن عَـسَـلٍ مُـحَـمَّـلَهْ
والـثُّـومُ فِـيـهَـا لُـؤْلُـؤٌ وهْـيَ بِـهِ مُـكَـلَّلَهْ
والعَظْمُ...

حسنى : واللَّحْمُ...

نظيفة : احْذَرِي يُـتْـعِـبُـنِـي أَنْ آكُـلَهْ

---

(١) الإبريز: الخالص.
(٢) البواكير: أول ما يدرك من الثمر.
(٣) بكر: جاء أول النهار قبل طلوع الشمس.

حسنى :

الــلَّحْـمُ، يــا سَــيِّـدَتــي في البــامِـيَــا مــا أَسْـهَـلَهْ

نظيفة : حُسْنَى، آنْظُرِي

حسنى : سَيِّدَتي،

نظيفة : عَلَى البَلَاطِ وَسَخُ

حسنى :

الآنَ أَغْـسِـلُ الـبَـلَا طَ ثُـمَّ أَمـضِـي أَطْـبُـخُ

[تنسل السيدة إلى حجرتها.. يدخل جمال]

جمال : حُسْنَى

حسنى : جَمَالُ سَيِّدِي؟

جمال : أَنْتِ هُنَا؟

حسنى : أَنْتَ هُنَا؟

جمال : ما تَصْنَعِين؟

حسنى : صَنْعَتِي اليَومَ وصَنْعتي غَدَا

عَــلَى البَــلَاطِ أَنْــحَــنِــي أَغْــسِــلُهُ كَــمَــا تَــرَى

جمال :

يــا رَبِّ، لِـمْ خَلَقْـتَ لِلْعَــذَابِ هَــذِه الـيَـدَا؟

حسنى :

لا.. لا عَـذَابَ، سَـيِّـدي إنِّـي أُحِـبُّ الـعَـمَـلَا

جمال :

وأَيْــنَ جَـدَّتِــي فَــإنِّــي لا أَرَاهَــا هَــا هُــنَــا

حسنى : أَظُنُّهــا مَـضَتْ تُـصَـلِّي فـي الـخِـزَانَــةِ الـضُّـحَـى

جمال : لله أو لِـلْمَـالِ يَـا حُسنَى ترىَ؟

حسنى : كما تَشَا
مَـالـي ومـا تَـعْـمَـلُهُ؟ لِـكُـلٍّ عَـبْـدٍ مـا نَـوَى؟

جمال : [لنفسه وقد رأى كيساً على الدكة]:
مـا ذَاكَ تَـحْتِـيَ... كِيسٌ؟ بُـشْـرَايَ. هَـذَا جِـرَابُ
أعـامِـرٌ لَـيْـتَ شِـعْـرِي جِـرَابُـهـا أَمْ خَـرَابُ؟
كِـيسٌ؟ أَجَـلْ كِيسٌ وحُـسْـنَـى لا تَـرَى... لا تَـسْـمَـعُ

[ثم يقبله]:
كِـيسٌ وفِـيـهِ ذَهَـبٌ آخُـذُهُ أَمْ أَدَعُ؟

[يتركه متردداً]:
لا... لا... أَلِصٌّ أنـا؟ لا لَـيْـتَ يَـدِي تَـنـقـطِعُ

[يتناوله]:
لِـنَنْـظُرْ مـا حَـوَى الـكِيسُ

[يفتحه ويعد ما فيه]:
جُـنَـيْـهَـان... رِيَـالاَنِ
وهَـذا فَصٌّ يـاقُـوتٍ وذِي سُـبْـحَـةُ مَـرْجَـانِ

[يخرج ما في جيبه]:
لِـنَـنْـظُرْ مـا حَـوَى جَـيْـبِـي أقِـرْشَـانِ ونِـصْـفَـانِ؟
حَـرَامٌ شِـدَّةُ الـبُـخْـلِ حَـرَامٌ طُـولُ حِـرْمَـانِـي

[يرد نقوده، وينظر إلى الكيس]:
فإنْ مَدَدْتُ نَحـوَ كِيسِها اليَـدَا سَرَقْتُ نَفْسِي ما سَرَقتُ أَحَدَا
ولا أرَى سارِقَ نَفْسِه آعْتَدَى
لا، يـا جَمَـالُ... مـا رَأَى رَأْيَـكَ فـي الـنَّـاسِ أَحَـدْ

مَـنْ قَـالَ مَـالُ الـوَالِـدَيْـنِ مُـسْـتَـبَـاحُ لِـلوَلَـدْ؟

[حسنى، وقد نظرت إليه خلسة فرأته، وهو يسرق]:

يا أسَفَا على جَمَالٍ ما صَنَعْ؟ جاء إلى الكِيسِ مِرَاراً ورَجَعْ

حامَ عَلَيْهِ بُرْهَةً ثُمَّ وَقَعْ

[لنفسها]:

وَيْـحَ جَـمَـالٍ جَـرُؤَتْ عـلى الـحَـرَامِ رَاحَـتُـهْ

مـا كـانَ لِـصّـاً إنَّـمـا جَـنَـتْ عَـلَيْـه جَـدَّتُـهْ

[جمال يدس الكيس في جيبه]:

ولِمَ لَا؟ والمَـالُ مالِي بَعـدَها وإنْ تَصَـرَّفَتْ بِمَالِي وَحْـدَهَـا

وَدِيعَتِي حَتَّى تَمُوتَ عِنْدَهَا

[يخرج مسرعاً]:

حسنى :

يَـا أَلْفَ وَيْلي عَـلَى جَمَـالِ إنْسَـلَّ كـاللِّصِّ في الـظَّلَامِ

الـفَقْـرُ والـبُـخْـلُ صَـيَّـراهُ مِـن آبْن بَيْتٍ إلـى حَـرَامِي

هُـوَ لِصٌّ وسَـارِقٌ غَـيْـرَ أنِّـي أحِـبُّـهُ

حَـرَمَـتْـهُ الـقَـلِيـلَ مِـنْ حَـقِّـهِ... أيْـنَ ذَنْـبُـهُ؟

إنِّـي بِـعَـيْـنـي هَـذِه رَأَيْـتُـهُ مُـرَدَّدَا

لَـمَّـا أَحَسَّ الـمَـالَ جُـنَّ وأَضَـاعَ الـرَّشَـدَا

عـلى الـضَّـمِـيـرِ والـعَـفَـا فِـي والـحِـجَـى تَـعَـوَّدَا[1]

لَـوْ مَـلأتْ جَـدَّتُـهْ يَـدَيْـهِ مـا مَـدَّ الْـيَـدَا

[ثم تسمع ضجة فتقول]:

قَـدْ رَنَّ فـي الـحُـجْـرَةِ قَـبْـقَـابُـهَـا

صَـلَّتْ وعـادَتْ مِـنْ مُـصـلَّاهَـا

---

(١) الحِجا: العقل.

ومـا دَرَتْ وهِـيَ تُـصَـلِّي الـضُّـحَـى
أنَّ جَـمَـالاً مِـن ضَـحَـايَـاهَـا

[تدخل السيدة نظيفة بدون أن ترى «حسنى»]

[فتقول حسنى لنفسها]

تُـسْـرِعُ نَـحْـوَ كِـيـسِـهَـا لَـمْ تَـرَنِي... فَلْنَنْـتَـظِرْ
مـاذا تُـرى تَـفْـعَـلُ؟ هَـلْ تَـبْكِـي دَمـاً أم تَـنْـتَـحِـرْ؟

[نظيفة لنفسها]:

كِـيـسِـيَ كـان هَـاهُـنَـا مِنْ سَـاعَـةٍ.. شَيْءٌ عَجَبْ!
مَـنْ، يـا تُـرَى طَـيَّـرَهُ؟ كَـيْفَ آخْـتَفَـى؟ أيْنَ ذَهَـبْ؟
فِـيـهِ رِيَـالاَنِ وفِـيـهِ قِـطْـعَـتَـانِ مِـنْ ذَهَـبْ
وَضَـعْـتُـهُ هُـنَـا وغِـبْـتُ عَـنْـهُ.. لَـيْـتَ لـم أغِـبْ
كِـيسِـي، حَـبِـيـبِـي، أَيْـنَ أَنْـتَ؟ كَـيْـفَ أَلْـقَـاكَ؟ أَجِـبْ!
كِيسِي.. يَا رَبُّ، أعِدْ لِي كِيسي وخُذْهُ لِي، يا رَبّ، من إبْلِيس
وكُلِّ لِصٍّ فاجِرٍ خَسِيس
إنَّ عُـدْتَ لِـي فَـشَـمْـعَـةٌ لـلحَـنَـفِي أو شَـمْـعَـتَـانْ[1]
قِـرْشٌ يَـعُـودُ لِـي بِـهِ مِـن الـقُـرُوشِ مـائِـتَـانْ
وشَـمْـعَـةٌ لـلـسـيِّـدهْ تُـوضَـعُ في مَسْجِـدهـا[2]
تَـبِـيـتُ فِـيـهِ مُـوقَـدَهْ بـالـقُـرْبِ مِنْ مَـرْقَـدِهَـا
لا.. أنـا فـي فَـقْـرٍ إلـى شَـمْـعَـةٍ
سَـيِّـدَتِـي زَيْـنَـبُ بِـي عـالِـمَـهْ
ولـم يَـرَ الـنَّـاسُ ولَـمْ يَـسْـمَـعُـوا
سَـيِّـدَةً تـأخُـذُ مِـنْ خـادِمَـهْ

[ثم بعد أن ترى «حسنى»]

---

(١) الحنفي: شيخ من المتصوفة، مدفون في مسجد بحي الناصرية يسمى باسمه.
(٢) السيدة: أي السيدة زينب من آل البيت. ولها مسجد عُرف بها.

نظيفة : حُسْنَى

حسنى : مُرِي

نظيفة : أَنْتِ هنا؟

حسنى : أَجَلْ

نظيفة : تعالَيِ آسْمَعي

خَلِّي البَلَاطَ

حسنى : ما جَرَى؟

نظيفة : دعِيهِ سَاعَةً، دَعِي

حسنى : ماذا جَرَى، سيِّدتي؟

نظيفة : ما لَمْ أَكُنْ أَنْتَظِرُ

مُصِيبَةٌ... فاجِعَةٌ

حسنى : ماذَا دَهَى؟ ما الخَبَرُ؟

نظيفة :

كِيسِيَ كان ها هُنَا طَيُّرهُ المُطَيِّرُ

حسنى : ما كان فيه؟

نظيفة : ذَهَبٌ وسُبْحَةٌ وجَوْهَرُ

حسنى : وهَلْ ظَنَنْتِ السُّوءَ بِي، سَيِّدتي؟

نظيفة : أَسْتَغْفِر الله، آبْنَتِي، أَسْتَغْفِرُ

حُسْنَى آبْنَتي خادِمَتِي تَسْرِقُني؟

ذَلِكَ ما لَيْسَ بِبَالِي يَخْطِرُ

في ذِمَّةِ الله كيسي عَوَّضَني الله عَنْهُ

واللِّصُّ لا بُدَّ يَوْماً يَقْتَصُّ لِي الله مِنْهُ

حسنى :

سَــيِّـدَتِــي مُــشْــرِفَــةٌ سَــيِّــدَتــي مُــضَــيِّــعَــهْ
إنَّ الــجِــرَابَ لــم يَــكُــنْ هَــذا الـمَكَــانُ مَــوْضِــعَــهْ

نظيفة : إذْهَـبِي، يـا آبْـنَـتـي، عَــرَفْتُ غَـرِيـمي
أَنْــتَ لا تَــجْــهَــلِيــنَــه فَــهُــو مِــنَّــا

حسنى : مَن تُرى؟ مَن؟

نظيفة : سِلِي ضَمِيرَك عَنْهُ أنتِ مِنه مُلِئْتِ قَلْباً وذِهْنَا

حسنى : مَنْ؟

نظيفة : جَمَالُ

حسنى : ماذا تَقُولِين يا مَولاَتِيَ

نظيفة : الصِّدْقَ

حسنى : بَلْ تَظُنِّينَ ظَنَّاً
مَن؟ جَمَالُ؟ هذا مُحَالٌ فَظُنِّي
بي أنَا السُّوءَ

نظيفة : أَنْتِ؟ حاشَاكِ حُسْنَى

حسنى :
إذَنْ، مَنْ؟ قِـطَّةٌ في البَيْتِ لمَّـا لَمْ تَجِـدْ لَحمَـا
مَـضَـتْ بــالـكِيِس ظَــنَّـتْــهُ هُــوَ الــجِـلْدَ أو الــعَــظْمَــا

نظيفة : [مستضحكة]
إمْضِي، آذْهَبِي، يـا خَبَـاثِ يــا نَــكْــبَــةً فــي الإنَــاثِ
أَوْشَكَتْ تَـدْخُـلُ الضُّحَى.. إلبَسِي الفُو
طَــةَ حُـسْنَـى طَـيــرِي إلـى الـكَــانُــونِ

واحْـذَرِي الـطَّبَـخَ أن يَشِيْطَ وسُـدِّي الــ
ـبَـابَ دُون الأُنُــوفِ. . دُون الـعُيُــونِ

حسنى :

سَـيِّـدَتـي هـا أنَـا ذِي ذَاهِـبَـةٌ لِـشَـانِـيَـا
إنْـتَـظِرِيـنِـي سَـاعـةً ثـم انـظُرِي طَـعَـامِـيَـا

[تخرج]

نظيفة : [لنفسها]

قَـدْ ذَهَـبَـتْ لِـشَـأْنِـهَـا أَلـيَـوْمَ يَـوْمُ الـبَـامـيَـا
حُـسنَـى، آذْهَبِـي إنِّـي لَـفِـي شَـكٍّ وإنْ
أَظْـهَـرْتُ أنِّـي بِـكِ جِـدُّ واثِـقَـهْ
قَـدْ سُـرِقَ الـكِيسُ، ومَـا مِـنْ أَحَـدٍ
سِـوَاكِ فـي البَـيْتِ، فـأَنْـتِ السَّـارِقَـهْ
ولَـكِـنِّـي أُدَارِيـكِ فَـأُخْـفِـي خَـبَـرَ الـبِئْـرِ
وكَـمْ سَـيِّـدَةٍ قَـيَّـدَهَـا الـخَـادِمُ بـالـسِّـرِّ

[جمال يدخل]:

نظيفة : مَنْ؟

جمال : جَدَّتِي. . . هذا أنَا

نظيفة : مَن؟ وَلَدِي جَمالُ؟

جمال : ما صَنَعَ الزُّكَامُ يا جَدَّةُ

نظيفة : لا يَزَالُ
وأنْـتَ مـا تَـصْـنَـعُ يـا جَـمَـالُ؟ كَـيْـفَ الـحَـالُ؟

جمال :

الـحَـالُ يـا جَـدَّهْ زِفْـتٌ وقَـطْرَانُ

نظيفة : كَيْفَ؟ انْفُضِ الجَيْبَ

فِيهِ جُنَيْهَانِ

جمال : أنا؟ جُنَيْهَانِ؟ ومِنْ أَيْنَ لَهُ؟

جَيْبي حتَّى مِنْ ريالَيْنِ خَلا

جَدَّةُ

نظيفة : رُوحي... تكَلَّمْ ماذَا؟ فَذَاكَ البَنُونَا

جمال :

أَقُولُ لَكِن عِدِيني جَدَّةُ لا تَغْضَبِينَا

نظيفة :

إلَّا النُّقُودَ فإنِّي حَلَفْتُ أمسِ يَمِينَا

جمال :

إذنْ أَمْضِي كَمَا جِئْتُ إذَنْ لا شَيءَ يا جَدَّهْ

على أنِّيَ لَمْ أَظْفَرْ بشَيْءٍ مِنْكِ مِنْ مُدَّهْ

نظيفة : والثَّلاثُونَ رِيالاً؟

جمال : قَدْ مَضَى شَهْرٌ عَلَيْهَا

تِلْكَ شَمَّتْهَا يَدُ النَّشَّالِ فانْسَلَّتْ إلَيْهَا

نظيفة : لا حَرَمَ الله اللُّصوصَ خَيْرَكا

ما بَالُهم لا يَسْرِقونَ غَيْرَكَا

لم تَلْقَنِي وتَنْصَرِفْ بمَالِي إلَّا وعَادَتْ قِصَّةُ النَّشَّالِ

كأنَّ مالِي لَيْسَ بالحَلالِ

جمال : لم أَقُلْ مالُكِ يا جَدَّةُ سُحْتُ أو حَرَامْ[1]

فَلَقَدْ يُسْرَقُ مَالُ الله والبَيْتُ الحَرَامْ

نظيفة : العَيْنُ يا جَمَالُ[2]

---

(١) السحت: ما خبث وقبح من المكاسب. (٢) العين: أي الحسد.

جمال : لا تَقُولي فَمَا إلى مالِك مِنْ سَبِيلِ
لِعَيْنِ حاسِدٍ ولا فُضولي
مالُكِ في اللِّحافِ والمِنْدِيلِ
مالُكِ في القُفَّةِ والزِّنْبِيلِ[1]
وتَحْتَ مَاءِ البِئْرِ في بِرْمِيلِ

نظيفة :
في البِئْرِ؟ إنَّ ذا عَجَبْ ماذا تَصُوغُ مِنْ كَذِبْ؟
[في اضطراب]:
جَمَالُ لا تَنْسَ الأَدَبْ
في البِئْرِ يا آبْني؟ هَذِهِ ما خَطَرَتْ بِبَالِي
لِمْ لا تَقُولُ: المَالُ قَدْ خَبَّأْتُ في سِرْوَالِي؟
لَكِنْ هَبُوني قَدْ فَعَلْتُ ما لَكُمْ ومَا لِي؟
أَلَسْتُ يا آبْني حُرَّةً بَصِيرَةً بِمَالِي؟
أَصْنَعُ ما شِئْتُ بِهِ أَصْنَعُ ما بَدَا لِي

جمال :
هَوِّني، جَدَّتِي، عَلَيْكِ فإنِّي لَمْ أُنَازِعْكِ هَذِهِ الحُرِّيَّهْ
خَبِّئي المَالَ حَيْثُ شِئْتِ مِنَ الْـ
ـمَنْزِلِ في السَّقْفِ أو وَرَاءَ حَنِيَّهْ[2]
إدْفِنِيهِ في مَطْبَخ أو كَرَارٍ
أو لِحَافٍ أو شَلْتَةٍ أو حَشِيَّهْ[3]
أَوْ فَوَارِيهِ في قَرَارَةِ بِئْرٍ
ذاتِ عُمْقٍ عن الظُّنُونِ خَفِيَّهْ
جَدَّتِي هَذَا كَثِيرٌ ما الثَّلاثُونَ رِيَالاً؟

---

(١) الزنبيل: وعاء كالقُفَّة.
(٢) الحنيّة: زاوية من زوايا البيت.
(٣) الشلتة: فراش محشو يُتّخذ للجلوس عليه، والحشية: للنوم.

هِـيَ، يـا جَـدَّةُ، لَيْـسَـتْ عِـنْـدَ أَمْـثَـالِـي مَـالاَ
لا يَـمِـيـنـاً مَـلأتْ يَـوْ مـاً، ولاَ أَغْـنَـتْ شِـمَـالاَ

نظيفة : عند أمثالك؟

جمال : أيْ، والله

نظيفة : مـا أنْـتُـمْ رِجَـالاَ
هِـيَ تَـبْـنِـي ثَـرْوَةَ الـمَـرْ ءِ إذا كـانَـتْ حَـلاَلاَ
إسْمَعْ، جَمَالُ

جمال : سَامِعٌ، يا جدَّتي

نظيفة : جَدُّكَ يا بنيَّ، كان مُفْلِسا

جمال : مثليَ يا جَدَّةُ؟

نظيفة : لا، يا ولدي بـل كان أشقى حـالـةً وأتْعَسـا
أسَّسَ مِـنْ شَـرْوَى نَـقِـيـرٍ ثَـرْوَةً[1]

جمال : لَـمْ تَـذْكُـرِي، جَـدَّةُ، كَيْـفَ أسَّـسَـا؟
أَلَـمْ يَـكُـنْ سُـكْـنـاهُ رَبْـعـاً دَارِسَـا؟[2]
أَلَـمْ يَـكُـنْ طَـعَـامُـهُ الـمُـدَمَّـسَـا؟
أَلَـمْ يَـكُـنْ عَـلَى الـبَـلاَطِ نَـوْمُـهُ؟
أَلَـمْ يُـحَـرِّمْ نَـفْـسَـهُ أنْ تَـلْبَـسَـا؟

نظيفة :
ومَـنْ نَـبَّـاكَ أو مَـن ذَا
رَأى جَـدَّكَ عُـرْيَـانَـا؟

---

(١) شروى: مثل. ونقير: نقرة في ظهر النواة. ويضرب بها المثل في كل تافه.
(٢) الربع: المنزل، والدارس: القديم العهد.

جمال :

هَـبيـهِـمْ لَـمْ يُـنَـبُّـونِـي كَـفَـانِـي بِـكِ عُـنْـوَانَـا
جَـدَّتـي مـا رَأَيْـتُ قَطُّ عَـلَى جِـسْـ
ـمِـكِ مُـذْ كُنْتُ غَيْـرَ هَـذِي الثِّيَـابِ
بَـدِّلِـي ثَـوْبَـكِ الـقَـدِيـمَ أَهَـذَا
كَـفَـنٌ يُـرْتَـدى لِـيَـوْمِ الـحِـسَـابِ؟
وعَـلَى الـرَّأْس ذَلِـكَ الـشَّـاشُ والأَو
يَـةُ مَـلاً تَـطَاوُلَ الأَحْـقَـابِ(1)
قَـدْ عَـفَـا رُقْعَـتَيْـهِمَـا الـنَّشْـرُ والـطَّـ
ـيُّ وطُـولُ المـدى وطُـولُ الخِضَـابِ
لَـمْ يَـرَ الـنَّـاظِـرُونَ رِجْـلَيْـكِ إِلاَّ
كَـصَـبِيٍّ الـحـمَّـامِ فـي الـقُـبْـقَـابِ

نظيفة : قَدْ تَوَقَّحْتَ يا جَمَالُ

جمال : دَعيني
أَتْرُكِينِي أُفُشُّ جَدَّةُ ما بِي(2)
والـدي مـات في الشبـاب من الـحِـر
مـانِ، والـيـومَ تـقـتـلـيـن شـبـابـي

نظيفة :
لا تُـذَكِّـرْنِـي الـعَـزِيـزَ جَـمَـالُ
وَدَع الجُــرْحَ . لا تُحَـرِّكْ مُـصَـابِي

جمال أَقْتُلِينِي كَوَالِدِي

---

(1) الأوية: نوع من التطريز، عامية. وملاّ: كرها. وتطاول الأحقاب: طولها. والأحقاب: السنون.
(2) أفش: أُخْرِجُ.

نظيفة : بَعْدَ الشَّرْبَلِ آسْلَمْ وحُطَّنِي في التُّرَابِ
إنَّ،يا آبْنِي ،الجِرَابَ والمَالُ فيه لكَ

جمال : مَنْ لِي بِبَعْضِ ما فِي الجِرَابِ؟
ما آنْتِفَاعِي بِهِ؟ كُلِيهِ... آشْرَبِيهِ
بَعْدَ ما آذَنَ الصِّبَا بِذَهَابِ

[تغرورق عيناه بالدموع]

إصْفَحِي، جَدَّةُ، عَمَّا كانَ مِنِّي وآغْفِري لِي
وَائْذَنِي، أَيَّتُهَا الجَدَّةُ، أَمْضِي لِسَبِيلِي

نظيفة :
لَقَدْ نَسِيتُ يا جَمَالُ، وطَوَيْتُ ما جَرَى
والآنَ أَدْعُوكَ

جمال : لِمَا ذا؟

نظيفة : لِلغَذَاءِ.. ما تَرَى؟
إبْقَ، جَمَالُ، نَقْتَسِمْ لَوْناً جَدِيداً غالِيَا
إبْقَ بُنَيَّ كُلْ مَعِي أليَوْمَ عِنْدِي بامِيَا

جمال :
البامِيا جَدِيدَةٌ؟ مَنْ قالَ يا جَدَّتِيَا؟

نظيفة : أكَلْتَها؟

جمال :
أجَلْ مِرَاراً عِنْدَ أَصْدِقَائِيَا

نظيفة :
في البامِيا خَلُّ الطُّهَاةِ وخُذِ الطَّوَاهِيَا
وطَبخُ حُسْنَى يَحْفَظُ الشَّبَابَ والعَوَافِيَا

إجْلِسْ، جَمَالُ، ساعَةً ... وناجِنِي بحَاجَتِكْ

جمال : ماذا أقُولُ، جَدَّتِي؟

نظيفة : قُلْ ما تَشا لِجَدَّتِكْ

جمال : أنا، يا جَدَّتِي، كَبِرَتُ ولاَ أَطْلُبُ إلاَّ الزَّوَاجْ

نظيفة : عِنْدِي صَبِيَّةٌ لكَ

جمال : الخَادِمُ؟ لا. كَمْ قُلْتُ: لاَ

نظيفة : لا تَدْعُ حُسنَى خادِماً

جمال : إبْنَةُ مَنْ؟

نظيفة : بِنْتِي أنَا

جمال :

لَقِيطَةٌ رَبَّيْتِهَا أنْتِ. أَلَيْسَ هَكَذَا؟

نظيفة : تَذَاكَرْنَا الزَّوَاجَ تَعَالَ نَنْظُرْ
زَوَاجَكَ كَمْ يُكَلِّفُ، يا جَمَالُ

جنال : قَليلاً، جَدتِي

نظيفة : كَمْ؟

جمال : نِصْفُ أَلْفٍ

نظيفة : أَعِنْدَكَ مَا لِنِصْفِ الأَلْفِ بالُ؟

[لنفسها]

مآتِمُ مِصْرَ لا يَبْقى عَلَيْهَا ... ولا يَبْقى عَلَى الأَفْرَاحِ مَالُ

[ثم إلى جمال]

إشْرَحْ جَمَالُ ما يَكُو ... نُ المَهْرُ

جمال : عُدِّيه مِيَهْ

نظيفة : من الجُنَيْهاتِ؟

جمال :

أجَلْ لَيْسَتْ رِيالاَتٍ هِيَهْ
وشَبْكَةُ تَصْلُح أنْ تُهْدَى وأنتِ المُهدِيَهْ

نظيفة : وكَمْ تُسَاوِي؟

جمال : مِئَةً

نظيفة : أُخْرِجُهَا مِنْ مالِيَهْ؟

جمال :

ومِئَةً كِرَاءَ بَيْتٍ لِلعَرُوسِ ولِيَهْ
نَمْلَؤُه أَمْتِعَةً وحِلْيَةً وآنِيَهْ
ومِئَةً لِفَرَحِي ومِئَةً لِجَيْبِيَهْ

نظيفة :

واحيرتي! واضيعتي! «جمالُ».. واخرَابِيَهْ!
إنْ أنَا زَوَّجْتُكَ، يا آبْنِي، بِعْتُ ما وَرَائِيَهْ

جمال :

إذَنْ فاعْلَمِي جَدَّتِي أنَّنِي خَطَبْتُ

نظيفة : وما لِي ومَنْ تَخْطُبُ؟
أحَقّاً خَطَبْتَ؟

جمال : أَجَل جَدَّتِي

نظيفة : ومَنْ تِلْكَ؟ ما بَيْتُها؟ ما الأَبُ؟

جمال : فَتَاةٌ مِن الخُطِّ بِنْتُ النَّقِيبِ

نظيفة : بِلاَ وَالِدٍ وآسْمُها زَيْنَبُ
هَنِيئاً لَكَ البَيْتُ بَيْتُ العَفَافِ

جمال : وبَيْتُ الغِنَى، والغِنَى يُطْلَبُ

نظيفة : أأَنت تُعرِّفُني مَنْ تَكُونُ

وما مَالُها؟ إنَّهَا تَكْذِبُ

لأَنْـتَ أَسْـعَـدُ مِـنْـهَـا وأَنْـتَ أَكْـثَـرُ مـالاَ

جمال :

أنَـا؟ آنْـظُرِي ذاك جَيْـبِـي هَـلْ تُـبْـصِـرِيـنَ رِيَـالاَ؟

نظيفة :

بَـلْ تِـلْكَ حُسْـنَى فَتَـاتِـي أَتَـمُّ مِـنْـهَـا جَـمَـالاَ

ورُبَّمَـا صـارَتْ على فَقْـرِهَـا أكْثَـرَ مِنْـهَـا في غَـدٍ مـالاَ

وكَيْفَ وَجَدْتَ المَالَ يا آبْني؟

جمال : آقْتَرَضْتُهُ

نظيفة : ومِمَّنِ؟ وكَمْ يا آبْنِي؟ وكَيْفَ رِبَاهُ؟

ومِنْ أَيْن تَقْضِي الدَّيْنَ؟

جمال : يَقْضِيهِ قادِرٌ

على الشَّيءِ لا يَقْضِي الدُّيونَ سِوَاهُ

نظيفة : إزعَقْ جَمالُ، نادِ حُسْنَى، أُدْعُها

[ثم تنادي]: يا بِنْتُ

جمال : حُسْنَى

نظيفة : بِنْتُ

حسنى : [تدخل] مَوْلاَتِي

نظيفة : عِنْدِي جَمَالٌ يَتغَدَّى مَعِي

هَاتِي حَـدِيـثَ البَامِيَا هَاتِي

حسنى : سَـوْفَ تَـرَى، يـا سَيِّـدِي، صَنْعَـتِـي
وسَـوْفَ تَـنْسَـى كُـفْـتَـةَ الـحَـاتِـي

نظيفة :

حُـسْـنَـى، بَـذَلْـتِ كَـثِـيـراً   ومـا رَفَـقْـتِ بِـمَـالِـي
أكُـفْـتَـةٌ بِـيَـمِـيـنٍ   وبـامِـيَـا بِـشِـمَـالِ

حسنى :

سيِّدتي، لا تَغْضَبي، لا لَحْمَ في المَطْبَخِ، لا كُفْتَةَ لا كَبَابَا
العَـظْمُ لا غَيْرَ مَـلأَتُ البـامِيَـا   مِنْـهُ... فطَابَتْ نَكْهَـةً وطَابَـا

نظيفة : يَسْلَمُ فُوكِ، يا آبْنَتِي
[ثم لجمال]: آسْمَعْ لَهَا
جَمَالُ، كَيْفَ تُحْسِنُ الجَوَابَا

جمال : جَدَّتِي، هَلْ فَكَرْتِ في أَمْرِ حُسْنَى؟

نظيفة : كَيْفَ؟ ماذَا؟

جمال : كَمَا آفْتَكَرْتِ بأَمْرِي
زَوِّجِيهَا

نظيفة : أزوِّجُ البِنْتَ؟

حسنى :

لا... لا   سَيِّدي... ذاكَ لَمْ يَمُرَّ بِفِكْرِي
أنْتَ يا سيِّدي جَمَالُ كَثِيرُ المَزْحِ فاجْعَلْ مَحَلَّ مَزْحِكَ غَيْرِي
أنـا لا أَقْبَـلُ الـزَّوَاجَ بـإِنْسَـا   نٍ ولَو سَاقَ مَالَ قارُونَ مَهْرِي

أنـا مـا عِشْتُ لا أُفَـارِقُ هـذا الْبَيْتَ إلّا إلى قَـرَارَةِ قَبْرِي

نظيفة : عِشْتِ حُسْنَى

[ثم لجمال]:

سَمِعْتَ كَيْفَ أجَابَتْ؟
كَيْفَ لَمْ تَنْسَ لِي حَنَانِي وبِرِّي؟

[وتهم السيدة نظيفة بالوقوف]:

جمال : أيْنَ، يا جَدَّةُ، تَمْضِينَ

نظيفة : قَرِيباً... خُطْوَتَيْنْ
أنَا قَدْ خَبَّأتُ، أمْسِ لَكَ يا آبْنِي مَوْزَتَيْنْ

[تمشي وتخرج]:

جمال [لحسنى]:

بَعُدَتْ جَدَّتِي تَعَالَيْ أُقَبِّلْـ
ـكِ تَعَالَيْ حَبِيبَتِي قَبِّلِينِي

حسنى :

بَعُدَتْ فَلْيَكُنْ عَفَافِي ودِينِي
حَوْلَ عِرْضِي، لا يُبْعِدِ اللهُ دِينِي
إنْ أكُنْ خادِماً فَنَفْسِيَ في خِدْ
رٍ مِنَ النُّبْلِ والعَفَافِ مَصُونِ
إبْغِ، يا سَيِّدي، سِوايَ لِمَا تَدْ
عُو لَهُ الْيَوْمَ مِن خَسِيسٍ ودُونِ

جمال : هَيَّ حُسْنَى لا يَذْهَبُ الْوَقْتُ

حسنى : دَعْنِي
وَقْتُ مِثْلِي بِجَانِبِ الكَانُونِ

جمال : قُبْلَةٌ ها هُنَا على الجِيدِ حُسْنَى
أو عَلَى الوَجْنَتَيْنِ أوْ فِي الجَبِينِ

حسنى : ما الَّذِي قُلْتَ، يا جَمَالُ

جمال : طَلَبْتُ الحَقَّ

حسنى : حَقَّ المَهوَّسِ المَجْنُونِ

لَـكَ، يـا سَـيِّـدي جَـمَـالُ شـؤونٌ

فـامْضِ فِـيـهَـا وخَـلِّـنِـي وشُـؤونـي

جمال : إلى أَيْنَ؟ قِفِي حُسْنَى

حسنى : إلَى الكَانُونِ والنَّارِ

إلى الشُّـغْـلِ الـذي يَنْـهَى عَـن الـرِّيـبَـةِ والـعَـارِ

[وتمشي . . . السيدة نظيفة تدخل]

نظيفة : جمَالُ، يا آبْنِي

جمال : جَدَّتي

نظيفة [لحسنى] :

مـا لَـكِ تَـرْجِـعِـيـنَـا

الـمَـوْزَتَـان يـا جَـمَـا لُ صَـارَتَـا عَـجِـيـنَـا

جمال :

أَلْقِيهِمَا، يا جَدَّتِي، الْقِي العَفَنَ النَّتِينَا

نظيفة :

إشْـرَبْهمَـا، يـا آبْـنـي عَـسَى أن يُـورِثَـاكَ لِـيـنَـا

جمال :

أنا، يا جَدَّةُ، لا أَقْوَى على هَذا العِلَاجْ

إنَّ فـي الـبَـيْـتِ دَجَـاجـاً فـاطْـرَحِـيـهِ لـلدَّجَـاجْ

ستـار

الفصل الثالث

المنظر الأول

[الست نظيفة على فراش أرضي في قاعة من منزلها، وحولهـا «حسنى» وجماعة جئن للسؤال عنها من الجارات]

زائرة [وهي داخلة]:

العَوَافِي، أُمّ الأَدَنْدِي، العَوَافِي

حسنى : إخْفِضِي الصَّوْتَ... أَمْسِكي، يا خَالَهْ

الزائرة : ما لَهَا؟ ما بِهَا؟ عَفَا الله عَنْهَا

حسنى : هِيَ مِنْ لَيْلَتَيْنِ في شَرِّ حَالَهْ

زائرة :

أُمُّ الأَفَـنْـدِي عُـوفِـيَـتْ مِـنْ قَـلْـبِـهـا تُـحِـبُّـنِـي

مـا كَـانَ أَنْـدَى يَـدَهَـا عَـلى الـفَـقِـيـرِ والـغَـنِـي

شَـفَـاهَـا الله لِـلْـبَـيْـتِ ولِـلْـجَـارِ ولِـلْـجَـارَهْ

جَـرَى إِحْسَـانُـهَـا كَـالـسَّـيْـلِ حَـتَّـى أَغْـرَق الـحَـارَهْ

قَـدْ وَقَـعَتْ عَـيْنِـي عَـلَيْـهَـا مَـرَّةً فـي الـسَّـيِّـدَهْ[1]

(١) السيدة: أي مسجد السيدة زينب.

آخرى : فَمَا رَأَيْتِ؟

الأولى :

نَخْوَةً وكَرَماً ما أَزْيَدَهْ
جاءَتْ وراحَتْ تُقْرِضُ الله وتُعْطِي مَسْجِدَهْ
وكُلَّمَا مَدَّ فَقِيرٌ يَدَهُ

الثانية : عضَّتْ يَدَهْ

يا أُخْتُ، أَيْنَ ذَلِكَ المَدْحُ العَطِرْ؟
وأَين جُودَهَا الَّذِي كَانَ المَطَرْ؟

الأولى : [لحسنى]:

أَنْظُرِي خَلْفَكِ حُسْنَى

حسنى : مَنْ؟

الأولى : هِيَ الشَّيْخَةُ بَنْبَهْ[1]

[الشيخة بنبه تتقدم]:

بنبه : كَيْفَ حالُ الهَانِمِ الْيَوْ مَ؟

حسنى : اَنْظُرِي، الحَالَةُ صَعْبَهْ

إحدى الزائرات:

حُسْنَى اَطْرَحِي الغَمَّ وَلا
تَسْتَسْلِمِي إِلَى الكَدَرْ
رَأَيْتُ رُؤْيَا أَمْسِ

أخرى : ما ذَلِكَ؟

حسنى : خَيْراً، ما الخَبَرْ؟

---

(١) بنبه: من أسماء السيدات.

الزائرة :

رَأَيْتُنِي فَـوَقَ طَـرِيقٍ فِيـهِ طِيـنٌ ومَـطَرْ
مَـشَـتْ بِـهِ أُمُّ جَـمَـا لٍ تَـنْـثَـنِي وتَـفْـتَـكِـرْ
تَـحْمِـلُ حِـمْـلَ جَـمَـلٍ أو جَـمَـلَيْـنِ مِـنْ حَـجَـرْ

حسنى : ثُمّ

صاحبة الرؤيا :

إذَا فَـوْقَ الـطَّرِيـقِ ثَـمَّ شَـيْـخٌ قَـدْ ظَـهَـرْ

كَـأنَّ نُـورَ وَجْـهِـهِ تَـحْتَ الـعِـمَـامَـةِ الـقَـمَـرْ
قَـدْ طَـرَحَ الأَحْـمَـالَ عَـنْـهَـا فَـجَـرَتْ عَـلَى الأَثَـرْ
حَـتَّـى لَـبِـثْـتُ سَـاعَـةً عَـجِبْـتُ كَـيْـفَ لَـمْ تَـطِرْ
سَـمِـعْـتِ يـا شَـيْـخَـةُ رَؤْ يَايَ؟

الشيخة : سَمِعْتُ العَجَبَا

رُؤْيَـا كَـأَنَّـهَـا الـفَـلَقْ تَـبَـارَك الَّـذِي خَـلَقْ(1)
أُمُّ جَـمَـالٍ أُعِـيْـنَـتْ وزَالَ عَـنْـهَـا الـعَـنَـاءُ
وذَلِـكَ الـشَّـيْـخُ قُـطْبٌ عَـلَى يَـدَيْـهِ الـشِّـفَـاءُ

أخرى :

أُمُّ جَـمَـالٍ بِـخَـيـرٍ قَـدْ أُلْقِيَ الـحِمْـلُ عَـنْهَـا

[يظهر الدكتور مقبلاً]

إحدى الزائرات:

مـاذا؟ مَـن الـدَّاخِـلُ؟ مَـنْ يـا تُـرَى

أخرى : هذا هو الدُّكْتُورُ عَبْدُ السَّلَامْ

---

(1) الفلق: الصُّبح.

الأولى : أَبعْدَ هَذا؟ القُطْبُ يُؤْتى بِهِ؟

الثانية : وأيُّ قُطْبٍ؟

الأولى : هَلْ نَسِيتِ المَنَامْ؟

أخرى : ماذا تَقولُ؟ تَظُنُّ هَذَا القُطْبَ؟

الأولى : ذَاك هُو العَمى

هَذَا الطَّبِيبُ مُطَرْبَشٌ والقُطْبُ كانَ مُعَمَّمَا

شتَّانَ بَيْنَ القَمَرِ المُنَوِّرِ المُلَمِّحِ [1]

وبَيْنَ تَيْسِ الجَبَلِ المُفلفَلِ المُمَلَّحِ

ما تِلْكَ فَوْقَ عَيْنِه؟

الثانية : زُجَاجَةٌ مُدَوَّرَهْ

تَقِيهِ ضَوْءَ الشَّمْسِ أوْ تَمْنَعُ عَنْهُ الغَبَرَهْ

كأَنَّهَا غَمَامَةٌ تَحْجُبُ عَيْنَيْ بَقَرَهْ

الأولى :

ولِمْ تَغَطِّي بالثِّيَابِ السُّودِ رَأْساً لِقَدَمْ؟

كأنَّما أُخْرِجَ مِنْ زَكِيبَةٍ مِن الفَحَمْ

الثانية :

سُودُ الثِّيَابِ بِمِصْرِ صَارَتْ ثِيَابَ الإمَارَهْ

فَلاَ تَرَيْنَ بَيَاضاً إلاَّ عَلَى شَيْخِ حَارَهْ

الأولى : وما بِفِيهِ؟

الثانية : إسْأَلِي حُسْنَى

حسنى : بِفِيهِ تُوسْكَنَهْ [2]

---

(١) الملمح: أي صاحب الإشارات الخفية.

(٢) توسكنة: سيجارة من تبغ ملفوف. بفيه: أي بفمه.

الأولى :
مِسْكِينُ الدُّكْتُورُ قَدْ أَصْبَحَ فُوهُ مِدْخَنَهْ

الدكتور : العَوَافِي، أُمَّ الأَفَنْدِي، العَوافِي

حسنى : هِيَ في غَشْيَةٍ ونَوْمٍ عميقِ

الدكتور : كَيْفَ حُسْنى؟ ما حَالُ أُمِّ جَمَالٍ؟

حسنى : هِيَ في الكَرْبِ، خَفَّفَ الله عَنْهَا

الدكتور : ودوائي؟

حسنى : لمَّا تَعَاطَتْهُ نامَتْ
نَوْمَةً لم تَقُمْ إلى اليَوْمِ مِنْهَا
مَا بِهَا، يَا سَيِّدي؟ مَا دَاؤُهَا؟

الدكتور : تُخْمَةٌ من أَكْلَةٍ ذاتِ دَسَمْ

حسنى : تُخْمَةٌ؟ لا سَيِّدي الدُّكْتُور.. لاَ
نَحْنُ لاَ نَعْرِفُ في البَيْتِ التُّخَمْ

الدكتور : إذَنْ بها ضَعْفٌ

حسنى : ومِنْ أَيْنَ جا ء الضَّعْفُ؟

الدكتور : مِنْ قِلَّةِ ما تَطْعَمُ

حسنى : وما يُقَوِّي الضَّعْفَ؟

الدكتور : أَلأَكْلُ، يا حُسْنَى

حسنى : وكَيْفَ الأَكْلَ؟ أَيْنَ الفَمُ؟

الدكتور :
رَحِمَ الله زَوْجَهَا إنَّهُ كَانَ صَاحِبِي

كـانَ فـي كُـلِّ مَـنْـزِلٍ وطَـرِيـقٍ بِـجَـانِـبِـي

[ثم ينتقل الدكتور فجأة لمخاطبة إحدى الزائرات]

خَـضُـرةُ أنـتِ هُـنَـا؟ مـا تَـصْـنَعِينَ، يـا آبْـنَـتِـي؟

خضرة :

فـي كُـلِّ سَـاعَـةٍ أجِـي أسْـأَلُ عـن سَـيِّـدَتِـي

الدكتور : وحَسَنٌ زَوْجُك ما يَصْنَعُ؟

خضرة : في البَيْتِ آنْطَرَحْ

مُـنْـذُ تَـنَـاوَلَ الـعِـلا جَ بـالأوَانِـي مـا سَـرَحْ

الدكتور : وما لَهُ لَمْ يَجِئْنِي؟

خضرة : بأيِّ رِجْلٍ يَجِيكَا؟

الدكتور : [إلى مرجانة]:

ما ذاك، يا بَيْضَاءُ، ماذا أُرَى؟

مرجانة : تَوَرَّمَ الخَدُّ من الدُّمَّلِ

الدكتور : [يخرج مشرطاً من جيبه]

هاتِي أُرِيهِ. آصْبِرِي سَاعةً أفْتَحُهُ

مرجانة : لا، يَفْتَحُ اللهُ لِي

أخرى : دَعِيهِ يَفْعَلْ تَسْتَرِيحي

أخرى : آقْعُدِي حَذَارِ، مَرْجَانَةُ، أَنْ تَفْعَلِي

[يدخل جمال]

الدكتور : مَنْ ذاك؟ أنْتَ جَمَالٌ؟

جمال : مَنْ؟ سَيِّدِي الدُّكْتُورُ؟
كَيْفَ وَجَدْتَ جَدَّتِي؟

الدكتور : تَسِيرُ نَحْوَ العَافِيَهْ

جمال : وكَيْفَ، وهْيَ مِنْ ثَلَاثٍ لَمْ تُفِقْ؟

حسنى : بَلْ إنّها مِنْ أَرْبَعٍ كَمَا تَرَى
وارَحْــمَـتَــاهُ لَـكِ، يــا سَــيِّــدَتِـي
ولَــطَفَ الله بِــنَــا فِــيــمَــا جَــرَى

جمال : حُسنَى أقلِّي الحُزْنَ.. يَعْفُو الله عَنْ
أَزْيَدَ مِنْ هَذَا وَيَشْفِي أكْثَرَا

الدكتور : دَعَا... لا تَخَافَا ولا تَحْزَنَا
فَمَا الأَمْرُ لِلْيَأْسِ بالصَّائِرِ
وكَــمْ فــاقِــدِ الــرُّشْــدِ لا غَــائِــبٍ
وَرَائِــي تَــرَكْــتُ... ولا حــاضِــرِ
وآخَــرَ لا رَاقِــدٍ فــي الــفِــرَاشِ
إذا قَــلَّبُــوهُ.. ولَا سَــاهِــرِ

حسنى : أَمَرْضَاكَ كُلُّهُمُ هَكَذَا؟
وهَلْ يَسْتَفِيقُونَ، يا سَيِّدِي؟

الدكتور : تَقُومُ عَلَيْهِمْ يَدِي بالشِّفَاءِ
قِيَامَ المَسِيحِ على المُقْعَدِ

حسنى : [لجمال]
وأَنْــتَ، سَــيِّــدِي جَــمَــال قَــوِّنــي
عَــلِّمْــنِــي، الــعَــزَاءَ والــتَّــصَــبُّــرَا

زائرة : مَرْجَانَةُ، انْظُرِيهِمَا

الأخرى : يُحِبُّهَا

الأولى : تُحِبُّهُ

الثانية : وبِيَدَيْهِ قَلْبُهَا

الأولى : وفِي يَدَيْهَا قَلْبُهُ

[يخرج جمال، وتخرج مرجانة وبعض الزائرات، وتدخل إحدى الجارات تدعى زهرة]

زهرة : ما حَالُ أُمِّ الأَفَنْدِي؟

حسنى : سَيِّدَتِي في الْعَذَابْ

مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعٌ　　فِي كُرْبَةٍ لا تُفْرَجُ
فِي النَّزْعِ لا وَعْيَ لَهَا　　والسُّرُّ لَيْسَ يَخْرُجُ

زهرة : لَدَيَّ خاطِرٌ خَطَرْ

حسنى : ما ذاك؟

أخرى : ماذا؟ ما الخَبَرْ؟

زهرة : إصْغَيْنَ. ممَّا جَرَّبُوه في الأُسَرْ
صَوْتُ الفُلُوسِ عِنْدَ رَأْسِ المُحْتَضَرْ
إنْ كانَ في دُنْيَاهُ بالبُخْلِ آشْتَهَرْ
يَسْمَعُهَا فَيَنْطَفِي عَلَى الأَثَرْ
وكُلَّمَا تَأَخَّرَتْ عَنْهُ آنْتَظَرْ

حسنى :
إذَنْ قُومِي أرِيحِيهَا　　إذَنْ مِنَ هَذِهِ الحَالَهْ

زهرة : وأَيْنَ الشَّاشُ والفِضَّةُ؟

حسنى : مِنْ مالِيَ يا خَالَهْ

زهرة :

مــالُــكِ أو مَــالُ سِــوَا كِ كُــلُّ مــالٍ قَــدْ حَـضَــرْ
الـقَـصْــدُ أنْ يَــقْــرَعَ صَــوْ تُ المَـالِ سَمْـعَ المُحْتَضَـرْ
حُــسْـنَــى، آسْمَــعِي لِــيَ أَصْــغِــي
هَــاتِــي مُــلاَءَةَ فَــرْشِ
والآنَ فَــلْيُــلْقِ كُــلٌّ مِــنْكُــنَّ فِــيــهَــا بِقِــرْشِ

[ثم لحسنى]

حُــســنَــى، خُــذِي مِــنْ طَــرَفٍ
وأَنْــتِ مِــنْ ذَاكَ الــطَّرَفْ

[للجميع]:

وأَنَا أَبْقَى هَا هُنَا

[لصبي موجود]:

وأَنْتَ قُمْ خُذْ لا تَخَفْ
والآنَ فَــلْنَــقُــمْ إلــى الــفِــرَاشِ
ومِثْــلَ صُنْعِي فــآصْـنَعُــوا بــالـشَّــاشِ

[يدخل جمال]:

جمال : مــا الـحَــالُ، حُسْـنَى؟ وكَـيْفَ أَمْـسَتْ؟

حسنى : فــي الــنَّــزْعِ والــكَــرْبِ لا تَــزَالُ

[يذهبون بالشاش حتى يقتربوا من فراش المحتضرة، وهم ممسكون بجهاته الأربع، فتخرج الأولى نقوداً وتلقيها في الشاش، فيعمل الباقون مثلها، يتقدم «جمال» فجأة ويخرج من جيوبه نقوداً، ويقول:]:

جمال :

وأَنَــا أَيْــضــاً أَشْــتَــرِكْ هَــاكِ خُــذِي مــا أَمْــتَــلِكْ
وَضَــعْــتُ كُــلَّ فِــضَّــتِــي كَــيْ تَــسْــتَــرِيــحَ جَــدَّتِــي

[يلقي النقود]

[الأربعة يهزون الشاش بالنقود بينهم، وتقول الأولى مخاطبة المحتضرة]:

الأولى :

إمضِي ولا تُفَكِّري في المَالِ وآنْسَيْ حَدِيثَ القِرْشِ والرِّيَالِ

أَنْتِ واَ مَلَكْتِ للزَّوَالِ

هُـزُّوا مَعِي.. هُـزُّوا مَعِي يـا أَيُّهـا الـرُّوحُ اطْـلَعِـي

إلَى النَّعِيمِ الأَوسَعِ

وَدِيـعَـةَ الله آذْهَـبِـي آمْـضِـي ولاَ تُـعَـذَّبِي

لله عُودِي والنَّبِي

إحدى السيدات: [بعد وفاة الجدة]:

قَـدْ آنْـقَـضَـى الأَمـرُ قَـدْ خَـرَجَ الـسِّـرُّ

حُسْنَى لَكِ الأَجْرُ

حسنى : [لجمال]:

الـصَّـبْـرَ.. وآخْـرُجْ، سَيِّـدِي جَـمَـالُ

لِـمِـثْـلِ ذا لا يَـصْـلَحُ الـرِّجَـالُ

المنظر الثاني

[في منزل المرحومة الست نظيفة. تظهر «حسنى» في ثوب أسود]

حسنى : [لنفسها]:

عَـيْـنـي، أَحَـقٌّ أَنَّـني فــي مَـنْــزِلــي؟
لا. كــانَ لِــي فَــوَهَـبْـتُـهُ لِـجَـمــالِ
غــالَـيْـتُ في شَـغَـفِ الـفُـؤَادِ بِـحُـبِّـهِ
حـتَّـى وَهَـبْـتُ لَـهُ الـثَّـمِـيـنَ الـغَــالِـي
أَعْــطَيْتُـهُ مــا كَــانَ أَصْبَــحَ فـي يَــدِي
مِـنْ مَــالِ جَــدَّتِــهِ.. فَـلَيْسَ بِـمَـالِـي
لَـمْ يَــرْضَ قَلْبِي أَنْ أَعِيـشَ سَعِيــدَةً
ويَــعِـيـشَ فــي بُــؤْسٍ ورِقَّــةِ حَــالِ
أَتُــرَاهُ يَـقْــدرُ خِــدْمَتِــي ومَـحَـبَّـتــي
أَوْ لا يَــمــرُّ لَــهُ الـصَّــنِـيــعُ بِــبَــالِ؟
رَحْــمَــةَ الله عَــلَى سَــيِّــدَتِــي
وسَــقَــى الله ثَــرَاهَــا وجَــزَاهَــا
حَــرَمَـتْـنِــي الـشَّــاشَ حَــتَّـى ذَهَــبَـتْ
فَكَسَتْني الخَـزَّ في المَـوْتِ يَــدَاهَــا

وحَمَتْنِي المَاءَ حتَّى آحْتَجَبَتْ
فسُقِيتُ الشُّهْدَ مِنْ فَيْضِ نَدَاهَا
صَارَ لِي مِنْ بَعْدِهَا مَنْزِلُها
والدَّكَاكِينُ وآلَتْ ضَيْعَتَاهَا
ثَرْوَةٌ قَدْ نَهَضَ الجُوعُ بِهَا
ومَشَى الحِرْمَانُ فِيهَا فَبَنَاهَا
وَهَبَتْ لِي كُلَّ ما قَدْ مَلَكَتْ
لم تَدَعْ مِنْ ذَاكَ شَيْئاً لِفَتَاهَا

[بعد لحظة]

لا.. ذَاكَ مَالُ جَمَالٍ تَرَكْتُهُ لِجَمَالِ
وعُدْتُ ما كُنْتُ مِن قَبْلُ، فُوطَتِي، هِيَ مَالِي
أَجَلْ أنَا الخَادِمُ والطَّاهِيَهْ
ومَا أنَا السَّارِقَةُ البَاغِيَهْ
ولاَ عَلَى النَّاسِ طُفَيْلِيَّةٌ
أَجْعَلُ أَموالَهُمْ مالِيَهْ
سَمِعْتُ حَدِيثَ البُخْلِ حتَّى صَحِبْتُهُ
زَمَاناً أَرَاهُ كُلَّ حِينٍ وأَسْمَعُ
يَرُوح ويَغْدُو بَيْنَ عَيْنَيَّ صُورَةً
ويَأْتِي خَيَالِي بِالحَيَاةِ ويَرْجِعُ
سَيِّدَتِي وبُخْلُهَا في الخُطِّ سارًا كالمَثَلْ[1]
وآنْتَقَلَتْ وذِكْرُهَا بالبُخْلِ فِيهِ ما آنْتَقَلْ
يَرْحَمُهَا الله فَمَا أَنْسَى لَهَا تِلْكَ الجُمَلْ
في غَضَبٍ عِنْدَ الجِوَا رِ وآضْطِرَابٍ وزَعَلْ

---

(١) الخط: الحي من المدينة.

وما آخْتَلَفْنَا مَرَّةً في حَمَلٍ ولا جَمَلْ[1]
لَكِنْ لأَجْلِ الثُّومِ كا
نَ الخُلْفُ، أو حَوْلَ البَصَلْ
ولم نَكُنْ مِن الدَّقِيقِ نَنْتَهِي ولا العَسَلْ
يَرْحَمُهَا الله وإنْ لَمْ تَأْتِ يَوْماً بِحَسَنْ
عاشَتْ بثَوْبٍ واحِدٍ كالمَيْتِ عاشَ بِكَفَنْ
أمَّا أنا.. فالشَّاشُ أو ما دُونَ ذَاكَ في الثَّمَنْ
وبِذْلَتِي وفُوطَتِي طَالَ عَلَيْهِما الزَّمَنْ
وأُجْرَتِي عِشْرُونَ قِرْ شاً مَع كَثْرَةِ المِهَنْ
البِئْرُ لا أَبْرَحُهَا خَارِجَةً وداخِلَهْ
صاعِدَةً كالدَّلْوِ كُلَّ سَاعَةٍ ونازِلَهْ
طَبَّاخَةٌ أَصْنَعُ مِنْ لا شَيْءَ شَيْئاً نَأْكُلُهْ
وأنْحَنِي على البَلا طِ كُلَّ حينٍ أغْسِلُهْ
وكُلُّ دُكَّانٍ عَلَيَّ أَجْرُها أُحَصِّلُهْ

[تدخل زهرة]

زهرة : أَلْعَوافِي يا آبْنَتِي

حسنى :

مَنْ جَاءنا؟ خَالَتِي زُهْرَةُ؟ أهلاً مَرْحَبا
أُدْخُلِي

زهرة : [لنفسها في حسد وحقد]

يا لَكِ مِنْ طَبَّاخَةٍ نَثَرَ الحَظُّ عَلَيْهَا الذَّهَبا

[ثم لحسنى]:

يا هَنَاكِ المالُ حسنى

(١) الحَمَل: الصغير من الضأن.

حسنى : مالُ من؟

زهرة [لنفسها] : هي تُخفي

حسنى : بلَّغوكِ الكَذِبا

زهرة : عَجَباً. . . أنت إذن لم تَرِثِي
مال مولاتِكِ؟

حسنى : لا. لا. عَجَباً
أنا، يا خالةُ، لستُ لِصَّةً
لـعـنَ الله الـغِـنَـى الـمُـغْـتَـصَـبـا

زهرة :
إن لـلجـيـرانِ «حـسـنـى» ألـسُـنـاً تَـهـذِي طـوالا

حسنى : ما الذي قالوه؟

زهرة : قـالوا أنتِ جَـرَّدتِ جمـالا

حسنى : كـذبـوا، والله، لـم ألـمسْ لـه بـالـيـدِ مـالا

[تخرج «زهرة» وتتبعها «حسنى»، يدخل «جمال»]

[تدخل «حسنى» فترى جمالا]

حسنى : مَنْ ها هُنَا؟ أَهْوَ جَمَالُ سَيِّدِي؟

جمال : أَجَل. أنا الغَرِيبُ في بَيْتِ أبِي
أنَـا الَّـذِي قَـدْ سَـلَبُـوهُ مـالَـهُ
لـم يَبْـقَ مِـنْ مـالِـيَ مـا لَـمْ أُسْـلَبِ
قَـدْ ضَـرَبَـتْـنـي فـي الـحَـيَـاةِ جَـدَّتِـي
وفي المَمَاتِ

حسنى : أَلْف لا. لَمْ تُضْرَبِ

إجْلِسْ.   تَفَضَّلِ،   آسْتَرِحْ
هَوِّنْ   عَلَيْكَ،   سَيِّدِي

جمال : لَمْ يَبْقَ مِنْ مَالِكِ يَا
جَدَّةُ شَيْءٌ في يَدِي
ضَيَّعْتِ أَمْسِي ثُمَّ لَمْ   يَكْفِ فَضَيَّعْتِ غَدِي

حسنى : جَمَال

جمال : آفْتَرقْنا

حسنى : كيف؟ لا. أَبَداً

جمال : تَغَيَّرَ الأَمْرُ مِنْ حَالٍ إلى حَالِ
أَنْتِ الغَنِيَّةُ حُسْنَى والفَقِيرُ أَنَا
المَالُ مَالُكِ مُنْذُ اليَوْمِ لا مَالِي

حسنى : المَالُ، يا جَمَالُ؟ أَلْفقرُ؟ الغِنَى؟
ماذا تَقُولُ، سيِّدِي؟ ماذا جَرَى؟

جمال : أَلَيْسَ حِرْمَانِي لَوْناً مُتْقَناً
طَبَخْتِه أَنْتِ وجَدَّتِي مَعًا؟
حُسْنَى دَعِي الخُبْثَ ولا تَجاهَلِي
أَتَعْلَمُ الخُبْثَ عليَّ والرِّيَا؟

حسنى : حُرِمْتَ مِمَّ؟

جمال : مِنْ تُرَاثِ جَدَّتِي

حسنى : إذَنْ مَن الوَارِثُ

جمال : أَنْتِ لا أنَا

حسنى :

أنَا أُرَاكَ سَيِّدِي تَهْزَأُ بِي
كَفَى جَمَالُ سُخْراً مِنِّي كَفَى
أُقْسِمُ، هَذَا الأَمْرُ لَمْ أَعْمَلْ لَهُ
وإنَّنِي آخِرُ مَنْ دَرَى بِهِ

جمال :

أَمَا رَأَيْتِ كَاتِباً مُعَمَّماً
وشَاهِدَيْنِ، يَعْمَلُونَ هَا هُنَا؟
وشَيْخَةً تُملِي عَلَيْهِمْ سُخْفَهَا
تَحْرِمُ ذا قُرْبَى وتُعْطِي أَجْنَبَا
كَعَيْنِ رَبْوَةٍ تَخَطَّى خَيْرُهَا
إلى الوِهَادِ مُسْتَحِقَّاتِ الرُّبَى[1]

حسنى :

جَمَالُ سَيِّدِي، تَعَالَ نَحْتَكِمْ
إلى الحُقُوقِ والصَّوَابِ والنُّهَى
هَبْ ما تَقُولُ، يا جَمَا لُ، قَدَ جَرَى

جمال : لَقَدْ جَرَى

حسنى : هاتِ الكِتَابَ فَأَمْحُ مَا
تَشَاءُ، أَثْبِتْ ما تَشَا
بَدِّلْ وغَيِّرْ في كِتَابِ وَقْفِهَا كَمَا تَرَى
أَنْتَ غِنَايَ.. إنْ غَضِبْـ
ـتَ مَا آنْتِفَاعِي بالغِنَى؟

---

(١) عين ربوة: أي عين ماء بربوة، وهي المكان المرتفع. والوهاد: الأماكن المنخفضة ومستحقات الرُّبى: إنما هي الوارثة للرُّبى.

أَمْـضِـي فـأَبْــغِـي سَــيِّــداً أو أَبْـتَــغِـي
سَــيِّــدَةً أَطْـهُــو لَـهَــا

جمال : ماذا أَرى؟ تَبْكِينَ حُسنَى؟ مِمَّ؟

حسنى : لا

جمال : كَفَى، آبْنَتِي، كَفَى بُكَا

حسنى : خُذْ مالَها وخَلِّني أَعِشْ كَمَا
كُنْتُ أَعِيشُ أَوَّلاَ

جمال : بِحَيَاتِي قُولِي الحَقِيقَةَ حُسْنَى
أَتَحِبِّينَني؟

حسنى : أَجَلْ.. مِلْءَ قَلْبِي

جمال : مِثْلَ حُبِّي؟

حسنى : جَمَالُ، أَحْبَبْتَنِي اليَوْ مَ؟

جمال : قَدِيمٌ وحَقِّ عَيْنَيْكِ حُبِّي
كُـنْـتُ أَهْــوَاكِ طِـفْـلةً تَـمْــلأيـنَ الـ
ـبَيْتَ والـحَـوْشِ مِنْ صِيَـاحٍ وَوثْـبِ
كُـنْـتُ أَهْـوَاكِ طِـفْـلَةً فـي الـكَـوَانِـيـنِ نـافِـخَـهْ
كُـنْـتُ أَهْـوَاكِ خـادِمـاً كُـنْـتُ أهـوَاكِ طـابِـخَـهْ

[ثم يمسك يدها ويقول]:
كَـم اشْـتَـهَـيْـتُـهـا يَـداً مـا فَـرَغَـتْ مِـن الـعَـمَـلْ
كُنْتُ أَراهَا كَيَدِ المَلْكَةِ أَهْلاً للقُبَلْ
وأَشْتَهِي راشِحَةَ الثُّومِ عَلَيْهَا والبَصَلْ

حسنى : سَيِّدي، أَنْتَ خَطَبْتَ

جمال : لا

حسنى : نعم، بَلْ خَطَبْتَ آمْرَأةً ذاتَ يَسَارْ
وأبُــوهَــا كــابِــرٌ ذو لَــقَــبٍ ولــه زَرْعٌ وضَـــرْعٌ وعَــقَــارْ

جمال :
ومــا تُــرِيــدِيـنَ حُـسْــنَـى؟ أأنْــفُضُ الـيَـدَ مِـنْـهــا؟
الله رُبَّ جَــمَــالٍ يُـغْـنِـيــهِ عَـنْـكِ وعَـنْـهَـا

[امرأة تريد الصعود]

المرأة : أأحدٌ في المَنْزِلِ؟

جمال [من أعلى]

مَنْ هَذِهِ؟

المرأة : أمُّ عَلِي
أنتَ هُنَا، يا سَيِّدِي؟

جمال : أَجَلْ. تَفَضَّلي آدْخُلِي

أم علي : [تصعد]
دُسْتَورَكْم

جمال : تَفَضَّلِي لا أحَـدٌ فــي الــمَــنْـزِلِ

حسنى : [لجمال]
مَنْ تِلْكَ مَنْ؟

جمال :
إمْرَأةٌ مِن بَيْتِ أصْهَــارِيَ الـجُــدُدْ
صَــدِيــقَــةٌ قَــدِيــمَــةٌ فــي كُــلِّ أمْـرٍ تَـجْـتَـهِـدْ

حسنى : ماذا تُرِيدُ، يا تُرَى؟

جمال : الآنَ نَعْلَمُ الخَبَرْ

أمّــا أنَــا فَــلَيْسَ لِــي فــي بِنْــتِ إنْــسَــانٍ وَطَــرْ

حسنى : كَرِهت، سيدي، الغنى؟

جمال : أجل

حسنى : وهكذا أنا

[ثم وهي خارجة]

لا يــأخــذُ الإنــســان مِــن دنــيــاهُ إلا الــكــفــنــا

[تدخل أم علي]

جمال :

يــا مَــرْحَــبــاً، أُمَّ عَــلِي مــاذا حَــمَــلْتِ مِــنْ خَــبَــرْ؟

أم علي : كُــنْتُ رَسُــولَ الــصَّــفْــوِ والــيَــوْمَ أَتَــيْــتُ بــالــكَــدَرْ

جمال : ماذا؟

أم علي :

أَصِــخْ، يــا سَــيِّــدِي أُمُّ الــعَــرُوسِ جُــنَّــتِ

جمال : كَيْفَ؟ ولِمْ أُمَّ عَلِي؟

أم علي : تُرِيدُ فَسْخَ الخِطْبَةِ

جمال : كَذَا أنَا

أم علي : وأَنْتَ أَيْضاً؟

جمال : تِلْكَ كانَتْ نِيَّتي

قَدْ سَمِعَتْ، لا شَكَّ، أَنِّي قَدْ خَسِرْتُ ثَرْوَتي؟

قَــدْ عَــلِمَــتْ بــأَنَّــنِــي قَــدْ حَــرَمَــتْنِــي جَــدَّتِــي؟

أم علي : أجل

جمال : فقالت مُفلِسٌ ليس يليق لابنتي

أم علي : وهذه الشَّبْكَةُ، يا سَيِّدي

أَنْظُرْ. تَأَمَّلْ. خاتَمٌ لا يُعَابْ

وهَــذِهِ قِــيـمَــةُ مــا جَــاءَنَــا

مـن سَبَـتِ الـنُّـقْــلِ وغــالِـي الـثِّـيَــابْ

خَمْسُــون خُــذْهــا. عُــدَّ. مِنْ عَــادَتِي

جمال : [يأخذها]

أَنْ تَغْلَطِي، يا خَالَتِي، في الحِسَابْ

[ثم ينتهي من العدّ]

أم علي : هي خمسون، سَيِّدي

جمال : هَذِهِ خَمْسَةٌ لَكِ

إِذْهَـبِي. لَــسْـتُ نــاسِــيـاً أَبَــدَ الــدَّهْــرِ فَــضْــلَكِ

[تخرج أم علي ثم تدخل حسنى]

جمال : [بعد أن يراها]

رَبَّاهُ. . ما ذاك؟ تِلْك حُسْنَى؟

مِنْ أَيْنَ حُسْنَى؟

حسنى : مِن السِّتَارَهْ

سَمِعْتُ ما رَدَّدَتْ عَجُوزٌ

ولــم تَــفُــتْــنــي لَــهــا عِــبَــارَهْ

خُذْ سَيِّدي

جمال : ما ذِلكَا؟

حسنى : ذِلك وَقْفُ أُسْرَتِكْ

[تناوله ورقة]

كــانَــتْ شُــرُوطُ الــوَقْــفِ لِــي

فــاسْـتُعْمِلَتْ لِـخِــدْمَـتِـكْ

ومـا ظَـنَـنْـتُ ثَـرْوَتِـي ... مـا كَـانَ غَـيْـرَ ثَـرْوَتِـكْ
ذاك ٱتْـفَـاقٌ قَـدْ جَـرَى ... بَـيْـنِـي وبَـيْـنَ جَـدَّتِـكْ
مـا أَرْصَـدَتْ لِـجِـهَـتِـي ... حَـوَّلْـتُـهُ لِـجِـهَـتِـكْ

جمال :

جَـدَّتِـي فـي مَـمَـاتِـهـا ... بَـرَّةٌ بـي ومُـحْـسِـنَـهْ
فَـعَـلَـتْ فِـيَّ فَـعْـلَـةً ... نَبَّهـتنـي من الـسِّـنَـهْ[1]
سَـاءَ فـي المَـالِ مَـذْهَـبِي ... فَـرَأَتْ أَنْ تُـحَـسِّـنَـهْ
وأَنْتِ حُسْنَى، أَتُحِبِّينني؟

حسنى : أَأَنْتَ في ذَلِكَ تَرْتَابُ؟
قـد كُـنْـتَ دُنْـيَـا مُـغْـلَقـاً بـابُـهـا
دُونِـي .. فَـكَـيْـفَ ٱنْـفَـتَـحَ الـبَـابُ؟

جمال :

الآنَ حُـسْـنَـى، أَقْـبِـلِي ... نُـجْـرِ حَـديثَ مـا مَـضَـى
كَـيْـفَ وَجَـدْتِ جَـدَّتِـي؟ ... ومـا مَـكَـانِـي عِـنْـدَهَـا؟

حسنى :

تُـحِـبُّـكَ الـحُـبَّ الَّـذِي ... كـانَـتْ تـحِـبُّـهُ ٱبْـنَـهـا
وتَكْتَسِي، إنْ غِبْتَ عَنْهَا أو بَعُدْتَ، الوَلَهَا
تَـكَـادُ لا تَـسْـمَـعُ إنْ ... غِـبْـتَ .. تَـكَـادُ لا تَـرَى

جمال :

فَمَـا لَهَـا كـانَـتْ تُـذِيقُنِي ... الـجَـفَـاءَ؟ مـا لَـهَـا؟
فـلو سَـأَلْـتُـهـا الـعَـمَـى ... ضَـنَّـتْ عَـلَيَّ بـالـعَـمَـى

حسنى : سَيِّدَتِي بَخِيلَةٌ

---

(١) السِّنة: النعاس، وهو مبدأ النوم.

جمال : أَعْلَمُ يا حُسْنَى بِذا

وهِـيَ إذا قِـيَـسـتْ إلـىَ جَـدِّيَ. . كـالـغَيْثِ نَـدَى

عَـلَّمـهـا جَـدِّي. . وكَـا نَ أَجْـمَـدَ الـنَّـاسِ يَـدَا

حسنى :

وأنا أيضاً، سَيِّدِي أُصِبْتُ بـالـبُـخْـلِ أنَـا!

جمال : حَنَانَيْكِ. ماذ قُلْتِ «حُسْنَى» أَخَفْتِنِي

أَقَـدَّرَ رَبِّـي أَنْ يَـطُولَ عَـذَابِـي؟

أأَعْـدَاكِ حُسْنَى بُخْـلُ جَـدِّيَ؟ إنّـنِي

إذَنْ مِـنْ مُـصَـابٍ صـائِـرٌ لِـمُـصَـابِ

حسنى : لا تَخْشَ بُخْلِي، سَيِّدِي. . لَسْتُ مَنْ

تَبْخَلُ في حَقٍّ ولا وَاجِبِ

جمال :

وَيْحِي! أأَرْمِيكِ بالبُخْلِ؟ قَبَّحَ الله ظَنِّي

وقَـدْ رَأَيْـتُ بِـعَـيْـنِـي وقَـدْ سَـمِـعْـتُ بِـأُذْنِـي

فَـأَنْـتِ أَرْجَعْـتِ مـالِـي وكـانَ قَـدْ ضَـاعَ مِـنِّـي

فَـمـا سِوَى الله، حُـسْـنَـى يَـقْـدِرُ يَـجْـزِيـكِ عَـنِّـي

سَتَجَمَعُنَا الـدُّنْيَا غَـداً. . كَيْفَ يا تُـرَى

يَـكُـونُ طَعَـامِـي أَوَ يكُـونُ شَـرَابِـي؟

حسنى :

سَـنَـشْـرَبُ الـمَـاءَ فـي أَوَانٍ

غَـالِـيَـةٍ حُـلْوَةٍ نَـضِـيـدَهْ

وبِـيـرَةً كُـلَّ ظُـهْـرِ يَـوْمٍ

تُـوضَـعُ فـي الـثَّـلْجِ والـبُـرُودَهْ

جمال : والأَكْل؟

حسنى : ما شِئْتَ مِنْ شِوَاءٍ

ومِنْ دَفِينٍ ومِنْ عَصِيدَهْ

جمال : نَسِيتِ، حُسْنَى، ما لَيْسَ يُنْسَى

حسنى : ما ذَلِـكَ؟

جمال : «البامِيَةُ» الجَدِيدَهْ

هَـذِه الـشَّـبْـكَـةُ الَّـتـي أَرْجَـعَـتْـهـا الـمُـغَـفَّـلَهْ

خَـاتَـمٌ قَـدْ وَضَـعْـتُـه فـي الـبَـنَـانِ الـمُـقَـبَّـلَهْ

[يلبسها الخاتم ويقبل يدها]:

حسنى : والمَهْرُ؟

جمال : [يشير إلى النقود المردودة]

تِلْكَ هِيَ لَكْ أَعْـطَى جَـمَـالُ مـا مَـلَكْ

ما المَالُ مَهْراً للمَلَكْ

حسنى : ومَهْرُكَ سَيِّدِي؟

جمال : مَهْرِي؟ تُرَانَا

تَزَوَّجْنَا على دِينِ النَّصَارَى؟

دَعِي حُسنَى المُزَاحَ

حسنى : أقُولُ جِدّاً

ولِمْ تأبى؟ أَتَحْسَبُ ذاك عَارًا؟

وكَمْ مِنْ مُسْلِمَاتٍ سُقْنَ مَهْراً وإنْ دُعِيَ الأَبَـاعِدَ والعَقَـارَا[1]

جمال :

إِذَنْ هـاتِي آذْكِـرِي مَهْـرِي وسَـمِّـيـهِ عـلى قَـدْرِي

---

(١) دُعِيَ: سُمِّي، بالبناء للمجهول فيها. والأباعد: أي الضياع، وهي الأراضي المشاع. والعقار: كل ملك ثابت له أصل.

فَقَدْ تُعْطِينَنِي قِرْشاً وقِرْشَيْنِ.. وما أَدْرِي

حسنى :

بَلِ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا وما جَلَّ عَنِ الحَصْرِ
جَمَالُ آنْزِل إلى البِئرِ تَجِدْ مَهْرَكَ في القَعْرِ

جمال : مَهْرِيَ في البِئْرِ؟

حسنى : أجَلْ

جمال : كَيْفَ هَوى؟ كَيْفَ نَزَلْ؟
أَنْزِلُها؟ هذا خَبَلْ!

حسنى : نَنْزِلُ إنْ شِئْتَ معا
لِكَي أُرِيكَ المَوْضِعَا
هُنَاكَ تُبْصِرُ العَجَبْ

جمال : ما ذَاكَ؟

حسنى : صُنْدُوقُ خَشَبْ
مُمْتَلِىءُ من الذَّهَبْ

جمال :

هُنَاكَ الذَّهَبُ الحُلْوُ إذَنْ طِيرِي بنَا طِيرِي
قَبِلتُ المَهْرَ يا حُسْنَى إلى البِيرِ إلى البِيرِ

ستار




ورقة الآس
قصة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحَضْر: بالفتح ثم السكون: مدينة بإزاء تكريت في البرية، بينها وبين الموصل والفرات ويقال: إنه كان فيها ستُّون بُرجاً كباراً. وبين البُرج والبُرج تسعة أبراج صغار، بإزاء كل بُرج قصر. وإلى جانبه حمَّام.

ومرَّ بها نهر الثرثار، وكان نهراً عظيماً. عليه قُرًى وجنان. يقال: إن السفن كانت تجري فيه، ثم لم يَبق من الحَضر إلا رَسم السور، وآثار تدُلّ على عِظم وجلالة.

وكان يقال لملك الحَضر: الساطرون وفيه يقول عدي بن زيد:

وأرى الموت قد تدلَّى من الحَضْـ ـر على ربِّ مَلكه الساطرون

ويقولون: لما افترقت قضاعة سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة. وعليهم ملك يقال له الضيزن، أحد الأحلاف، وكان فيما زعموا مَلَك الجزيرة كلِّها إلى الشام. فنزل مدينة الحَضْر. وكانت قد بُنيت، فأقام فيها الضَّيزَن ملكاً مدة، يُغير على بلاد الفرس وما يقرب منها، وأغار على السواد وأخذ ماه، أخت سابور الجنود بن أردشير، وإذا سابور الجنود يغتاظ لهذه ويقصد الحَضر لينتقم من الضيزن.

وبقيت الحرب بينهما عامين لم يظفر فيهما سابور بما تمنّى، وحين همَّ بالرحيل بدت له النَّضِيرة بنت الضَّيْزَن، ووقع نظر كل منهما على الآخر، فإذا هما عاشقان.

وترسل النَّضيرة إلى سابور من يُخْبره خَبرها، وإذا هما يلتقيان، وإذا

النَّضيرة تخون بلدها. وتُيَسِّر لسابور أسباب الفتح، وإذا هي بعد هذا زوجته الأسيرة عنده.

ولقد أسرف سابور في قتل الكثيرين من أهل الحَضر. وفي هذا يقول شاعرهم:

ألم يحزنك والأنباء تُنْمَى ... بما لاقت سَرَاةُ بنِي العَبِيدِ
ومَقتل ضَيْزَن وبَني أبيه ... وإجلاء القبائل من تَزِيدِ
أتاهم بالفُيُول مجلَّلات ... وبالأبطال سابورُ الجُنودِ
فهَدَّمَ من بُروج الحَضر صخراً ... كأن ثقاله زُبُر الحديدِ

ثم سار سابور إلى عين التمر حيث عرّس بالنَّضيرة، فلم تَنم ليلَتها، وإذا ما أرَّقها ورقة آس كانت على فراشها، ويسألها سابور عما كانت عليه حالُها عند أبيها، فيعلم منها أنها كانت في رغد وسعة، فيُنكر عليها خيانتها لأبيها مع هذا الذي أولاها إياه، وإذا سابور بعدها لا يأمنها على نفسه. ويأمر بها فتقتل.

هذا هو مضمون القصة التي أطلق فيها شوقي خياله، وساقها على هذا النحو الذي يقرؤه القارىء.

وبعد، فهذه قصة تذكرها كتب التاريخ، كما تذكرها كتب الأدب، منها ما يَستطرد ومنها ما يُوجز، وكلها يُجمع على ما ذكرتُه في هذا المَضمون.

أما هذا السَّرْد الذي جرت به القصة. وهؤلاء الأشخاص الذين شاركوا في الأحداث، ثم تلك الأحداث التي انتظمتها القصة، فهي من وَحي شوقي.

وكذا تكون القصص التي لها ظِل من الحقيقة، يَنفسح فيها الخيال ما وسعه الانفساح ولكنه في جملته لا يعدو هذا المضمون.

والله ولي التوفيق

ابراهيم الأبياري

المحرم ١٤١٣ هـ/أغسطس ١٩٩٢ م

الفصل الأول

كان من عادة النَّضِيرَة بنت الضَّيْزَن، ملك الحَضْـر، منذ حـاصر سـابُور وجنودُه بلاد أبيها، أن تخرج في الصباح إلى رُبُض المدينـة، فتلبث برهـةً في بعض البُروج، تُرافقها وصيفتان لهـا، تدعى إحـداهما: أسمـاء، وكانت على منـادمتها؛ وتسمى الأخـرى: هندا، وكـانت على لباسهـا وحَليها؛ ويسيـر في خِـدمتها من الـرجال تـابع من قـدمـاء الخَـدم في القصـر، يقـال لـه: قصيـر الفارسي، ولد في الحَضْر من أب فارسي، فجاء مشوَّه الخِلقة، قصير القامة، مع قليل حَدَب؛ وكان مضحك الزيِّ والإشارة، مَزَّاحـاً فاكهـاً لطيف العبـارة، انْتُدِب لإضحاك الأميرة، صغيرةً، ثم انقطع لخدمتها، كبيرةً.

وكـان البُرج الـذي اعتادتـه النَّضِيرة يُنعت بِعُقـاب، لأنه أَسْمَى مـواقـع الحصن وأجلّها، وأعزُّها على العدوّ وأطـولها؛ وكـان من فوق البـاب الشرقي يَحميه، ويمنع الخندق الذي يَليه.

فبينما الأميرةَ ذات يـوم هناك، تُـطل آونة على الـدِّيار، وهي في ضِيقـة الحِصار، وشدَّة الإسـار، يملك عليهـا الأبـواب والأسوار، جيشٌ من الفُـرس جَرّار، وتنظر آونة إلى الجيش المحاصِر يموج كأنه النَّمْـل، في مَضاربَ تبـدو من بعد كأنها القِطار، إذ مَثـل حامِي المـوقع لـديها، فحيّـاها ودعـا لهـا، ثم أنهى إليهـا أن سابـور شُوهـد من الباب الغـربي خـارجاً في مَـوكبـه، يتعهـد

مضاربَ جيشه في الظاهر، ويَخْبُر حال الخنادق في الباطن، وأنه لا يلبث أن يمر من تحت عُقاب، فتبصره الأميرة من قُرب.

وكان الوقت الضحى، ولا بد للأميرة أن تعود إلى القصر، حيث الملك في آنتظارها، وهي واحدته التي لا يستطيع عنها صبراً، فهمَّت، فتشبّثت بها الوصيفتان ألّا تبرح البُرج قبل أن يَمُرَّ سابور، وأخذت أسماء على نفسها أن تمهد عند الملك عذرهن في التأخير، فقبلت النَّضيرة.

ودخلت الفتيات الثلاث في الحديث، فقالت أسماء لهند: ما أعظمَ حِذْقَك، وأحسنَ ذَوقك، وأعرفك بالأجمل من الزيّ، والأزين من الحُلى؛ لقد أُخرجت الأميرة اليوم لأهلِ الحَضْر كما تُخْرِج السماءُ البدرَ، أو الرياضُ بديعَ الزهر؛ فلو رفع سابورُ الطَّرف فرأى هذا الجمال الفائق، في هذا الزيّ الشائق، لأتاه هواها قبل أن يرتدَ إليه طرفُه.

هند : لو نيطَ بإحدى نساء البَدْو أن تزيِّن الأميرة لما زادتها في حُسنها هذا، ولا نَقصتها منه.

أسماء : تجمع الزينةُ المحاسنَ في بنات الملوك. كما تجمع اللآلىء السُّلُوكَ؛ وهي في الحالين كريمة، لا يَزيدها النظامُ قِيمة؛ على أن للملك جلالاً لا بد أن يمثل للناس، وما مثل عزّ هذا الملك بأفخر من هذا التاج، ولا أبهى من هذه الحُلّة؛ وكأني بسابور قد لَمح هذا المِثال، في الجمال والجلال، فافتتن في الحال.

هند : لا يَسمعنك ابن بكر، إذ تذكرين سابور عند الأميرة في موضع العِشق والغرام، فيَروي سيفَه من دمك، إلا أن تشفع لك الأميرة، لأنه لا يردُّ لها شفاعة، ولا يعصي لها أمراً.

أسماء : أمَا ورأسِ الملك لما قلتُ إلا الحق، ولا تمنّيت لسيدتي

النَّضِيرة إلا ما تستحقُّ إذ أين مِن البازِي العصفور، وأين آبن بكر من سابور!

هند : لقد أزريت ببطل الحَضر وحاميها،الذي من حقّه أن يُكرم، فهو الجريء الجميل، الحامل الأمر عن الملك، الساهر على حفظ الحَضر منذ حولَيْن، لا يذوق الغَمض ولا يستريح.

فدخلت النَّضِيرة في الحديث، فقالت: إن لابن بكر لَحُرمة نَرعاها، وهمَّة في الدِفاع عن الحَضر يذكرها أبِي، ولا يُنكرها أحد، وإنه لأعظم أهل الحَضْر مِقداراً، ولا أرى أسماء إلا مازحة كذأبها، فلا يغضبك حديثُها، يا هند.

أسماء : هذا شأن يا سيِّدتي وما نحن فيه شأن آخر؛ إني أراكِ بِعَينٍ ما رأيت بها إنسيّة في الأرض، وعندي أنه قد فاتك ظلماً أن تكوني بِنْتَ سابور، على تأخر ميلاده؛ فمن العَدل مثلاً أن تكوني زوجته التي تمثل في بابها المَلكات، وتقبّل الأرض بين يديها الأميرات؛ وإذا صدق ما يُهْمَس به في المدينة، منذ شارفها هذا الجيش الجرّار، من أن سابور ما قدم لفتح الحَضْر إلا من أجلك، فأنت له لا مَحاله؛ لأن الحَضر، وإن طال المدى، ستقع فِي قَبضة الفرس، ولا ينقذنا من يدهم العسراء يومئذ سواك.

هند : وما الذي منع سابور من مُكاشفة المَلِك بذلك من أول يوم؟

أسماء : ما هذا الجهل بالأمور يا هند، وأنت جارية الضَّيْزَن المقرَّبة، ووصيفة النَّضِيرة المقدَّمة؛ ألم تعلمي أن سابور طلب من الملك في أول مجيئه أن يُبيحه الحَضْر يدخلها من غير قتال، وهو يستعمله عليها، ولا يسومه إلا الجِزية.

ولـولا أن آبنُ بكر غـالَط وغالَظ، وعـارض وغـايظ. وحَمـل الملكَ على المخـاشنة، وأدخـل في اعتقـاده أن العـرب لا يسلِّمـون بما عـرض سابـور عليه، لانْتَهى الأمـر في بـدايـة الحِصـار، بما فيـه حقن الـدمـاء، وبقـاء الحَضْـر آمنـة من الجـوع والخوف، وانتهـاء تلك الممالـك الوسيعـة، والبلاد الكُثـر إلى سيِّدتنـا النَّضِيـرة، تحكم فيهـا من أقـاصيهـا إلى أقاصيها.

ثم أمسكت الوصيفة عن الكلام وهي تقول في نفسها: الآن كِدْتُ لـكَ أيهـا القاسي القلب، الجـافي الفعال، البخيـل عليَّ بالنـظرة، المشغول عني بالنَّضيرة؟ وإنها مثلك في عِنادك واستكبـارك، وقد أخـرجت حُبّك من فؤادهـا فلن يدخله مرة ثانية.

ما انتهت أسماء من الكـلام حتى أطرقت النَّضيـرة تفكِّر في أبيهـا، وقد صغر في عينيها، وفي مُلْك الحَضر وقد قـلّ لديهـا، وفي آبن بكر وقـد بُغِّض إليها؛ وكان قَصِير الفارسي في ناحية مشتغلاً عن سيدتـه وصاحبتيهـا، وما هُنَّ فيـه من جدّ الحـديث، بالنـظر إلى جانب الحِصن وانتـظار ظهور سـابـور في مواكبه، ليرى مَلِكَه وسيِّده الفارس لأول مرّة، وينظر قومه الفُرس، فحين لَمح طَليعة الموكب التفت إلى النَّضِيرة ووصيفتها، وصاح بهنّ يقول: هاسابـور قد أقبل، فلا تفتكنَّ رؤيته!

وعندئد تقصَّى الفتيات نظرَهن، فكشفن حـالاً، ورأين جمالاً وجـلالاً: رَأين خيلاً تَرْكُض، وجيوشاً تُزْجَى، وبِيضاً تلمع، وأَسِنَّة تَزْهر، ومَوكباً يَنْحَسِـرُ عنه الطَّرْف، يزينه سـابور وهـو من خيله وفوارسهـا في أعزِّ هـالة، يحيط بهم الأجناد ونَخب القواد.

ومـا زال الموكب يتقـدَّم، وتتبيَّن وجوهـه وتتوضَّـح أشباحـه، حتى صار دون عُقاب يُنظـر إليه من قُرب، وهناك عرفت البنـاتُ سابـورَ بِخُوْذة المُلْك، وهي كقُـرْص الشمس أو أَشْرق، ثم مَيَّـزن سـائـر زيِّـه وحقَّقن ذاتـه، فقـالت

أسماء : هكذا العِزّوإلاَّ فلا! انظري، يا مولاتي، إلى هذاالشباب في بِـدايته، وهـذا الجمال عنـد غايتـه، وهذا الملك في كمـال أُبهَّته، وهذا السلطان في تمام عظمته. ليس هذا بشـراً، إن هذا إلاَّ الجَوْزاء، وهذا الأدهم من تحتهِ قطعة من الـظلماء! أين ابنُ بكر من هذا، يا هِند؟أعلمت أنّ صاحبك أصغرُ من أن يركب في مثل هـذا الموكب! أرأيت كيف يكـون الملوك والقوَّاد ؟

هند : القوم كما تصفين، يا أسماء، وقـد دَهِشْتُ مِثْلَكِ لِمَا رأيت؛ لكن للنـاس فيمـا يعشقــون مـذاهب، فَلَصُعلوكٌ من أهـــل الحَضْر أحبُّ إليّ من هؤلاء العُلوج.

قال قصير الفارسي:إنّ الفُرْس تمهّلوا، يامولاتي، وأَراهم يَرفعون إلينا الأبصار.

أسماء : بل قد وقفوا، يا مولاتي، وهذا سـابور يُشير نَحوك بـوجهه، ويحدِّق إليك، ويحادث القائدَ الذي عن يمينه في أمرك!

هند : إن هذا الذي عن يمينه لَيساويه في جماله، ولم تَرَ عيني قطُّ أجمل منهما.

أسماء : أراك ترجعين إلى الحقّ في أمر القوم، فأَشْتَهِي على مـولاتنا النَّضِيرة إن هي حكمت في قصر سابور أن تُزوِّجك من هـذا الذي أكبرت؛ أما أنا فلا أرضى بغير أخي المَلِك قِسْماً!

هند : وأين هو؟ إني لا أراه في الموكب!

أسماء : إنـه في حَلقة وراء الملك ينـظر إلينـا، وقـد عـرفتـه بشعـار الإمارة، ولعله أخوه الأصغـر، الذي يقـال إنه لا يفـارقه في غَزواته وفُتوحاته.

هند : الآن أبصرتُه، وإنـه لَيانـع تُسْتَكثر لـه العشرونَ عمـراً، وهو أكثر من الملك بشاشةً، وإن لم يكن أقل منه جمالاً.

أسماء : وأنا لا أُحبُّ في الرجال إلَّا الصِّبَا والبشاشة!

وكانت نساء العرب في هذه الأثناء في مَكامن أَزواجهنَّ وأقاربهنَّ من الحِصن، يُنشدن أشعار الحماسة، ويَرمِين ناس الموكب بالحجارة، فلا تصيبهم، ويضحكون من ذلِك؛ ولو علمن أن بنت الضَّيْزن وأترابها يتعشّقن الفُرس، ويتخيّرن الأزواج في المُستقبل منهم، ويتذاكرن في سُقوط الحَضْر قبل أوانه، لَمَا رَضِينِ لرجالهنَّ بالقتل، ولصِبيتهنَّ بالجوع، فداء للضَّيزن ومُلْكه وأهله؛ لكن على هذا مَضت الأيام منذ القِدَم: عَبث الملوك وغَفلة الأُمم!

أما النَّضِيرة فظلَّت مُطروفة العين بسابور، لا تنظر إلَّا إليه، وقد استرق حسنه حواسَّها وجمعها في البصر، فلم تنبِس ولم تسمع، ولم تُبْدِ حراكاً، إلى أنْ ماج الموكب للمَسِير، فلم تَزِد على أن قالت: ما أجمله؟ ثم انثنت آيبةً إلى القصر تتبعها وصيفتاها ومُضحكها قَصِير.

الفصل الثاني

أسفر الصبح، وإذا قصر الضَّيْزن في الحَضر، على ما به من جمال، ضُربت به الأمثال، ونفاسة سارت بذكرها الأنباء، وتنافس في وصفها الشعراء - مسلوب الرَّونق، مفقود البهجة، عُطْلٌ من البشاشة، تبدو عليه الكآبة، وتملأ جوانبه وقِبابه، كأنما خلا من أهله وهو مِنهم آهِل، وكان الملك زال عنهم وهو إلى حين غير زائل؛ وهكذا حاله منذ حاصر سابور المدينة، فأذلَّها وضيّق عليها المذاهب كلَّها.

وكان القصر يشرف على المعاقل والحصون، إشرافَ الحواجب على العيون؛ وكانت له قِباب تُناغي السحاب، تحتها أركان مشيّدة، ودعائم موصدة، ومقاصير مربعة مُنضّدة، محصورة فيا الطَّرائف، مقصورة عليها الزخارف، من محاسن النقوش، وأحاسن الخطوط، وبهيّ الخزّ والديباج، ونقيّ المَرمر والعاج، وكان يُطِلّ من هذه المقاصير الفاخرة، على الرياض الناضرة، والحدائق الزاهية الزاهرة، تتلاقى فيها الغدران والجداول، وتُجيب القُماريّ بها البلابل، وكأنما تتناغى بقول القائل:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللهَ باطِلُ   وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ[1]

---

(١) البيت للبيد.

وكـان في انتـظار خـروج الملك في إحـدى تلك الغُـرف العـاليـة، والحجرات الكريمة الغالية، صـاحبه المقـرَّب، وحاجبـه المحبَّب، أبو سَعـد القُضـاعي؛ وكان رجـلاً ينـاهـز الخمسين؛ بين الـطويـل والقصيـر، والسمين والضئيل، مليح الطلعة، حسن الزِّيّ، لطيف الحديث؛ بلغ تلك المكانـة في القصر، وتلك المنزلة في القرب عند الملك، بالمسـايرة والمجـاراة والتأمين، فإذا قال له الملك: هذا الصبح ليل. قال: نعم، وفيه بـدر التَّمّ طالـع! وإذا قال له: هذا الليل صُبح، قال: نعم، والشمسُ فيه بازغة!...

ولعـلَّ الناس على الحقِّ في إجمـاعهم على أن هذا الخُلق أحبُّ شيء إلى الكُبراء، مهما رُزقوا من الحِجَى، وأوتُوا من العقل!

وكـان القُضاعيّ يتمشّى في الـردهـة التي يجتـازهـا المَلِك خـارجـاً من مقاصير النساء إلى مقاصير الرجال، وقد خلا هناك فجعـل يُحَدِّث نفسـه وهي تحـدِّثه، فقـال: ويحك سـاطِرونْ![1] زال مُلْكـك، وولَّت دولتك، ولئن بَقِيت على إبائك مُصِـرّاً ما حييت على الـدفاع، فـأنت مقتول، وبـك أصحـابـك يلحقـون، ولن نجد لنـا عند سـابور شفيعـاً؛ فما عليّ إذا أضعتـك في إحيـاء نفسي، وخُنتك ووَفَيت لها، وبدَّلت دولة بدولة، وتعوَّضت عن سيّد بخيـرٍ منه جَناباً، وأوسع نعمة؟ أنفـذتني إليه في بـداية الحـرب وأول زمن الحصار، ثمَّ أرسلتني إليه، والحصار قد امتد والدفاع قد طال عليه الأمد، فالتقاني أحسن ما يلتقي الملوك سُفـراءَ المذاكـرة، ورُسلاء المفـاوضة، ولمـا أدَّيت إليه رسـالـةَ النَّضِيـرة، التَّي هي أرجح منـك عقلاً، وأحسن نـظراً في العواقب، وعـرضت عليه أنها تُخفي هوًى له في الضلوع، وأنـه شَغفها حبـاً، حمَّلني إليها رسـالة يقابل فيها ذِكر الحُبّ بـالحُبّ، ويُظهـر العطف عليهـا، ويعدهـا خيراً إذا هي استـطاعت حَقن الدمـاء، بلُطف الحيلة وحُسن الدهـاء. فـأصبحت لا أخشى ضَيـراً في الحال، ولا يُـوجسني سوء المـآل؛ إذ بينمـا أنـا معـك في إبـائـك

---

[1] الساطرون: اسم سمّت به العرب الضيزن.

العقيم، إذا أنا مع النَّضيرة في سعيها الخفيّ، إذا أنا مع سابور قبل الفتح وبعده، وسوف أَحُلّ عنده مكاناً تحسدني عليه فارس والحضر!

وبينما أبو سعد على هذه الحال، يعلِّل النفس بالآمال، وهي تَمُدُّه في الضلال، إذ أقبل حسان بن بكر، وزير الضَّيزن، وزعيم جيوش الحَضْر؛ وكان فتًى في الثلاثين لم يجاوز حدَّها، وكان زِينة الشباب خَلقاً وخُلقا، إذا أقبل كان أجلَّ من البدر، وإذا هَمَّ كان أجلَّ من الدهر، وإذا حدّث فدون بيانه السِّحر؛ وكان رجلَ صِدْق سليم النيَّة، يُخَادع فيُخْدَع، ويُدْفَع فيندفع؛ وهذه الصفة وإن كانت مما يُنْكَر على الوزراء؛ ولا تنفع كثيراً في خِدمة الملوك والأمراء، إلَّا أن إقبال ابن بكر، وقيام حدِّه، ذلَّلا له على الدوام الصِّعاب، وصيّرا منصبه في القصر أمنع من عُقاب.

وبالجَدِّ تَخُوضُ البَحْرَ إنْ شِئْتَ بِلاَ فُلْكِ
به صارَ آبْنُ يَعْقُوبٍ من الجُبّ إلى المُلْكِ[1]

وكان الوزير مملوءَ القلب من حُبَّين، متوزّع النفس بين غرامين، هوى الديار التي رَقِي في خدمتها تلك المنزلة العليا وتقلّب في نعمائها، وهَوَى النَّضِيرة بنت ساطِرون ملك الحَضر.

أمَّا الديار فكانت في شدَّة الحِصار، وعلى خطر السقوط أو الدمار، وكان وحده المنتدب لتحريرها، المسؤول عن مصيرها، فمثله كالطبيب الماهر يبلى ابنه بين عينيه وليس له فيه حيلة.

وأمَّا بنت الضَّيزن فقد عرفها الوزير صغيرة، فلما كبرت كثر اجتماعه بها في حضرة الملك، وطال نظره إليها وسماعه حديثها، لأنها كانت واحدة أبيها، وكل ما أبقى الدهر من عَقبه، وكان يهيئها لِمُلْك الحَضْر من بعده،

---

(١) ابن يعقوب: هو يوسف عليه السلام. يشير إلى التقاطه من الجبّ الذي رماه فيه أخوته للخلاص منه، ثم ما كان من عظم أمره.

ويرفع الحجب بينها وبين سوَّاس الملك وعظماء الدولة وحماة الديار؛ فما زال ابنُ بكر يدنو إليها وهي تدنيه، حتى تدرَّجا من التودُّد إلى أوائل العشق المكتوم: يسكت عنه اللسان، وتنطق به العينان؛ فلبثا على ذلك برهة من الزمن قبل الحصار وبعده، إلى أن غيَّر الأميرةَ شيء، فغفلت عن الحُب وحالت، وأعرضت عن ابن بكر ومالت، في وقت هو فيه محتاج إلى ابتسامة تملؤه أملاً وقوَّة، وعطفةً ممَّن يهوى تزيده فتوَّة على فتوَّة؛ وهكذا قلب العذراء قلب هواء. . .

فحين رآه أبو سعد مُقبلاً قال في نفسه: ما لي لا أخادع هذا أيضاً، فإن لم يصبني منه خير فلا ينالني شرُّه، فإن نفوس أهل الحضر بيده حتى سقوط الحصن، ولا آمنه في هذه الأثناء أن يعلم عليَّ آثار الخيانة، فأذهب غير بالغ دنيا ولا مدرك آخرة.

ثم سارع إلى لقائه، فابتدر الوزير خطابه فقال: عِمْ صباحاً، أبا سعد.

أبو سعد : نعم صباحك، يا مولاي، عِشت للحَضْر تحميها!

الوزير : ما بال الملك لم يخرج إليكم، وما عودكم مثل هذا البطء عنكم؟

أبو سعد : علمت، يا مولاي، أن الأميرة باتت ليلها مسهَّدة تتضوَّر في فراشها، وأن الملك ساهرها حتى زال عنها الألم وأخذها النوم، ثم انثنى إلى مضاجعه فلعلَّه الآن يستوفي قسطه من الرقاد.

الوزير : ما عهدنا الملك تؤرِّقه النضيرة ولا تؤرِّقه الحضر. أهذا وقت النوم إلى الضحى، يا أبا سعد؟

أبو سعد : من كان على مثل الوزير اعتماده نام ليله ونهاره على أنك، يا مولاي أعرف الناس بوَجْد الملك على النَّضيرة، ومقدار حنوِّه عليها، نمى إليه من أيام أن الغزال نَدر في المدينة منذ

حاصرها العدو، ولا بد للأميرة أن تُطعم مخّه كما تعوَّدت، فدخل في الغضب، وكنت حاضراً يا مولاي، فخيل إلي أن سيأمر بعظامي فينزع المخّ منها ثمَّ يقدِّمه للأميرة.

فاستضحك الوزير وقال: ما كان الملك يبلغ به الغضب حتى يتشابه عليه الغزال وأبو سعد. دخلت عليه يوم ذاك فخبَّرني الخبر وسألني: هل من بأس في أن نرسل إلى سابور نطلب منه شيئاً من الغزال للتداوي؟ فقلت له: أمر سهل، لأن مثل هذا التجامل جائز بين الملوك في زمن الحرب. فاختارك على الفور لهذه المهمَّة، ووافقته على ذلك، لأنك من الحجّاب لا القُوّاد، فلا نخشى منك خيانة، ولا يظن سابور بك التجسس.

أبو سعد : لقد دخلت عليه يومئذ، وأنا موقن بالخروج من الدنيا، وخرجت من عنده وكأنما بعثت؛ إذ قيل لي إنه في جِلد نَمِر من الغَضب؛ وأشار عليَّ أصحابه ألاَّ أطيل الجلوس، وأن أختصر في شرح ما جئت فيه.

الوزير : وكيف وجدته، يا أبا سعد؟

أبو سعد : أقبح منظراً من ضبع، يا مولاي؛ ليس له منك الرونق ولا المهابة!

الوزير : ظلمت كسرى، يا أبا سعد؛ إن الإجماع أنه من أجمل الرجال، وقد نظرت إليه بين حُرَّاسه وكِبار عسكره فكان أحسنهم جميعاً.

أبو سعد : لقد رأيته وهو في حال الغضب، فلعلَّه قبح بعيني؛ وأنت تغضب فلا تنقص بشراً ولا تزيد مهابة!

الوزير : وما هذا المرض الذي طال على الأميرة؟ فقد حدّثني الملك من أيام مضت أنها قضت ليلتين متواليتين لم تذق النوم.

أبو سعد : رآها الطبيب، يا مولاي، فقال بها الأَرَق؛ ورأتها العجائز فقلن

بها سحر، ويقال همساً في القصر. . .

ثمَّ سكت وتلفَّت، فارتاب الوزير بهذا السكوت بغتةً وقال: ما أرابك منّي، يا أبا سعد، حتى قطعت الحديث بعدما بدأت؟

أبو سعيد : بل أنا أستوثق من خَلوتنا، يا مولاي. يتناقل ناس القصر همساً أن النَّضِيرة عاشقة. . .

فكاد ابن بكر يُجنّ من هذا الخبر، وقال: عاشقة! ومن ترى تعشق؟

أبو سعد : لم يذكر أحد حتى الآن، إلا أن الظنون مُجمعة على أنها تعشق. . .

وسكت مطرقاً يبتسم؛ فازداد الوزير جُنوناً على جنون، وأقبل على أبي سعد مغضباً يقول: تعشق من يا أبا سعد؟ أخبرني!

أبو سعد : مولانا الوزير!

ففعل هذا الجواب بِغَضب الوزير ما يفعل الماء بِجَذوة النار، وقال: يا حبَّذا لو صدقت الظنون يا أبا سعد!

الفصل الثالث

وفي هذه الأثناء أقبل الضَّيْزن مضطرب المِشية كاسفَ البال، تبـدو عليه علامات الأرق والكلال؛ فمشى الوزير إليه فقبّل يده، وحذا أبو سعـد حَذْوَه؛ فالتفت الملك إلى ابن بكر وقال: لقد أبطأت عنك، يا ابن بكر، فكيف حـالنا والحوادث؟

ابن بكر : جُعلت فداء الملك. الحال كما هي، والحوادث لم تحرجنا إلى الآن؛ فـالأقوات عنـدنا مـوفورة، والـرعيَّـة طـال عليهم الحصـار فسكنوا إليـه، كما يـطول المـرض على المـريض فيصبر عليـه؛ والعـرب يـزدادون صبـراً وربـاطــة جـأش، والحصن ممتنع بهم امتناع الآجام بالأسود.

الملك : إذن لنا، يا ابن بكر، أن نرقب الفرج، ونرجو أن تحول الحال إلى خير مما نحن فيه وأصلح لنا وللحَضْر.

ابن بكر : في استطاعة العرب، يا مولاي، أن يصبروا على الحصار عاماً آخر، وأن يستميتوا في الدفاع بعـد ذلك عـاماً مثله؛ فكيف لا نرجو أن يحدث في غضون هذه البرهة أمر يضطر سابـور إلى فكّ الحصار، والرحيل عن هذه الديار؟

فالتفت الملك إلى أبي سعد وقال: ماذا يرى أبو سعد؟

أبو سعد : ما يرى الملك أفضل؛ ولا أظن الوزير ابن بكر إلَّا مصيباً فيما قال، لأنه أعلم بمجرى الأحوال، وأعرف بحلو التسليم ومُرّ القتال!

فتبسم الملك ضاحكاً من هذا الجواب، ثم التفت إلى ابن بكر وقال: بالأمس كان أبو سعد مع صاحبك زياد عليك، واليوم هو معك عليه؛ زعم زياد أن السلامة في التسليم، وأنه يُرْجَى لدى سابور أن يحفظ لي الكرامة وولاية بعض الأعمال في مُلكه الواسع؛ فاسترجح أبو سعد هذا الرأي وأشار عليَّ باتّباعه.

أبو سعد : رأيت الملك يقبل على الوزير زياد وهو يحدّثه، وما أقبل الملك على محدِّث إلَّا كان رأيه الحكمة وقوله الصواب؛ وبالجملة فأنا نديم الملك لا نديم الوزراء.

ابن بكر : لكلٍّ عُذره، يا مولاي، فأما الوزير زياد ففي طباعه كراهية الحرب والقتال، وإيثار السلم على كل حال؛ وأما أبو سعد فكما وصف نفسه عليه، من مجاراة الملك في اللحظة واللفظة؛ وأما عبدك ابن بكر فقد خرج أمر التسليم وعدمه من يده ودخل في يد العرب، فهم مصرُّون على أن يقبلوا حكم الموت فيهم عن آخرهم، ولا يقبلوا بحكومة الفرس عليهم؛ ولا يغضبنَّ الملك أن أذكر له أني دخلت على شِرذمة منهم البُرج وكانوا يتحادثون، فتواريت عنهم أسمع ما يقولون ولا يرونني، حتى قام صعلوك منهم فخطب فيهم فقال: لنفدينَّ الملك بدمائنا ما دام معنا على مداومة القتال؛ فإذا جَنح إلى التسليم سَلَّمناه قتيلاً إلى سابور ثمَّ نولِّي النَّضِيرَة مكانه، على أن تموت معنا أو تحيا معنا. . .
فصادفت هذه العبارة هوًى في فؤاد الضَّيْزن، فتهلّل واهتزَّ اهتزاز المُهَنَّد، وقال: بلِّغ الصعلوك، يا ابن بكر، أني

جعلتـه من حرَّاسي، وأقـطعتـه ضيعـة تبقي على ذرّيتـه من بعده.

ابن بكر : أما الضيعة فقد صارت له بنعمة الملك، وأمـا الحراسـة فقد رأيت له ما هو أنفع للملك وأصلح للجيش منها.

الملك : وما ذاك؟

ابن بكر : جعلته، يا مولاي، على عمل تَجْفُل عنه الأسود.

الملك : وأين جعلت الأسد، يا ابن بكر؟

ابن بكر : اتخذته كشّافاً دائماً، وجاسوساً على العدوّ؛ وليس أحبّ من هذا العمل إلى الجند البُسَلاء.

الملك : أحسنت، يا ابن بكر؛ وما اسم الرجل؟

ابن بكر : ليث بن عبيد، يا مولاي.

الملك : أذكره عندي بعد هذه لعلّي أطلب رؤيته.

ابن بكر : سمعاً للملك وطاعة.

وكان الضَّيْزَن قد أمر بالركائب أن تُهيَّأ فهُيِّئت، فقـال لابن بكر: قـد آن أن نـذهب فنتعهد الحِصن ونـظهر لأهـل الحَضْـر، فـإن لي يـومين لم أخـرج إليهم، وأخاف أن يَريبوني؛ إذ ما أسرع ما يريـب الأمم ملوكهم، خصوصـاً في مثل ما نحن فيه من الأحوال.

ثم التفت إلى أبي سعـد وقـال: استئـذن على النَّضِيرة، يـا أبـا سعـد، ولازمها حتى أعود، لعلّك تدخل عليهـا بعض السرور بـألاعيبك المضحكـة، ونوادرك المستملحة.

قال: سمعاً للملك وطاعة.

ثم ركب الضَّيْزَن وابن بكر في موكب حافل بالحُـرَّاس والقوَّاد يقصِـدان الحِصن.

الفصل الرابع

تقضَّت أيام ومضت ليال، والنَّضِيرة مريضـة ولا مَرض، معتلّة ولا علَّة، لا تبرح القصر ولا تخرج كعادتهـا لأهل الحَضْـر، حتى قامت المدينة لخطبهـا على سـاق، وبلغ بأبيهـا البَثُّ والحزن، ولم يبق طبيب في العـرب ولا منجّم ولا كاهن ولا ساحر إلا قدَّم للملك خدمته، وعرض عليه صنعته، وهو حَيـران لا يدري من ينتقي، لكثرة المتقدّمين إليه في هذا الأمر؛ أمـا النَّضِيرة فكـانت تـأذن لمن تشاء، وتُقصي من تشـاء. وتتفنّن في طيّ الدواء، كفعلهـا في نشر الـداء، والحقيقـة هي أن استعصـاء الحِيَـل عليهـا وعلى رجـالهـا بعـد حيلة الغزال، التي دبَّرها أبو سعد بكيده ودهائه، ويقظة العرب، ومـا كان يبـدو كلّ يوم من تعلّق الجنود بالملك، وغيرتهم على الـديار، واستعـدادهم للموت في سبيلها، وصبرهم على الحصار، ومنعة الحصن، وتعب الفـرس به على كثـرة عُدَّتهم وعـديـدهم؛ كـل ذلـك ذهب بِصَبـر النَّضِيـرة وأدنـاهـا إلى اليـأس، وأسلمهما إلى الشوق والوجد والتبريح والأشجان؛ فرأت من الحكمة أن تتَّقي فِـرَاسة الأعين، ولا تتـعرَّض لظنـون الناس، ولـزمت مقصورتهـا تكتم الوَجـد والأسى، وتدَّعي الضعف والسَّقم؛ وكان أبـو سعد كلَّمـا اجتمع بهـا للمُنادمـة والتسلية يوصيها بالتجلُّد والصبر، ويعدها حِيلة ألطف من الأولى. تكـون هي القاضية على الحَضْر. إلى أن سنحت له الفرصة ودبَّر شيطانه، فبينما هو ذات مرة بين يدي الضَّيْزن، وقد دار الحـديث بينهما على مـرض الأميرة كـالعادة،

قال للملك: لقد عرفت، يا مولاي، السبب فيما أصاب النَّضِيرة، وعلمت أصل هذا البلاء، ولكن أخاف أن أكاشفك به فتغضب؛ فتأمر بنفس فتُقتل؛ وأنا على خُلق مولاي أكره قتل الأنفس، ولا أحبّ إراقة الدماء؛ فإن وعدتني، يا مولاي أنك فاعل بالجاني ما شئت إلاَّ القتل دللتك عليه!

فاستحوذ الغضب على الضَّيْزن من فوره وقال: أغيرك جانٍ، يا أبا سعد وأنت تزعم أن هناك جناية تعلمها، وقد كتمت خبراً عنّي حتى الآن؟

قال أبو سعد : عفواً، يا مولاي، وأَرْفُق بالجاني، فستعلم أنه من نُخَب رجالك، وأنفعهم لمُلْكك، وأوفاهم بعهدك، وأنه اجترم ما اجترم طيشاً ولم يتعمَّد...

قال : ومَن ذاك؟ هات الخبر، يا أبا سعد..

قال : على أن تأخذ لغضبك من حلمك في أمر الرجل، يا مولاي، وإلاَّ كتمتك الأمر ولو كان في الكتمان موتي!

قال : أعاهدك أني لا أقتله.

قال : هو الحارث، يا مولاي، جعلته على حماية «عُقاب»، فاتُّفق أن الأميرة خرجت إلى البُرج مرة، فبينما هي تُطل منه بين وصيفتيها أخبرها أن سابور سيمرُّ من تحت عُقاب في خيله ومواكبه، وسألها أن تستأخر قليلاً لتنظر ففعلت، فلما مرَّ الجيش الجرّار بين عينيها، أخذ الرعب مأخذه منها، واستولى عليها اليأس في خلاص الحَضر، ووقعت فيما هي فيه الآن من الاضطراب والضعف والسقم. وقد أوجست الوصيفتان مخافتك فكتمتا عنك الخبر.

قال الملك : ويلٌ للحارث، ثم ويلٌ له! فَلْيَلْقَيَنَّ من العِقاب ما هو أشدُّ من القتل!

وفي هذه الأثناء دخل حاجب، فقال للملك: بالباب، يا مولاي، رجل

يزعم أنه طبيب روحاني، وقد علم بعلّة الأميرة، فانتدب لمعالجتها، وبذل للملك رأسه يأمر بقطعه إذا هو لم يشفها في أيام قلائل.

قال : ائتني به.

فجيء برجل رثّ الثياب، مُنكر الخِلقة، تزدري العين منظره لأول وهلة، فلما رآه الملك التفت مغضباً إلى أبي سعد وقال: ما جزاء هذا المُجترىء المتعرض؟

قال : القتل في مِلّتي واعتقادي، يا مولاي.

فارتعدت فرائص الطبيب وجثا دون قَدَمَي الملك، ثم قال: لقد عرضت نفسي، يا مولاي، للقتل إن أنا لم أشْفِ الأمير من دائها العُضال؛ فإن أنت قتلتني قبل أن أنظرها وأتتبع داءها فقد عرضتها للموت لا محالة.

ثم إن الرجل نظر إلى أبي سعد نظرة مِلْؤُها إشارات، ففهم لأول وهلة، فقال: يا مولاي، ما ضرَّنا لو جرّبناه قبل معاقبته، فإن كان ما يدَّعيه صِدْقاً، ونالت الأميرة الشفاء على يده، بلغ مناه وغِناه، وإن كان جاهلاً دجّالاً لَقِي حَتْفه ورداه.

قال الملك : هذا هو العدل، يا أبا سعد، فقُم فاجمعه بالنَّضِيرة وانظر ماذا يفعل.

قال : سمعاً وطاعة.

ونهض أبو سعد فاستأذن على الأميرة والرجل معه، فحين رأته استنكرت حاله، وازدرت لباسه الرثّ، وقالت: متى وصل الصعاليك إلينا، يا أبا سعد؟

أبو سعد : هذا طبيب روحاني، يا مولاتي، انتدب لمعالجتك، فأمر الملك أن يصل إليك.

فقلب الرجل طَرْفه في الحجرة ثم قال: انظري، يا مولاتي، هل نحن

في خلوة؟

فاندهشت النَّضِيرة من هذا السؤال، وقالت: ما تريد أيها الرجل بهذا الاستفهام؟

الرجل : إنه لا يَشفيك غيري، يا سيدتي، ولا بد من خَلوة إلّا مَن كان مِن رجالك مثل أبي سعد.

فأخذ النَّضِيرةَ قلق من هذا التلميح، فدعت بأسماء فحضرت، فقالت لها: آخرجي فاجعلينا في مأمن، ثم عُودي لتكوني معنا.

فخرجت أسماء، وكانت النَّضِيرة مضطجعة في سريرها، فنزلت عنه وأقبلت على الرجل، ناشطة، باشّة تقول: ها نحن في خلوة أيها الطبيب، فماذا عندك لنا؟

الرجل : ما أنا بطبيب، يا مولاتي، لكني رسول سابور إليك.

فطَرِبت النَّضِيرة لهذا الخبر، وطابت به نفسها، وازدادت إقبالاً على الرجل.

قالت : إني أراك من الحَضْر أيها الرجل، فما آسمك؟ وما جمعك بسابور؟ وكيف أصبحت من رُسلائه؟

الرجل : أنا ليث بن عُبيد، سمعني ابن بكر ذات يوم أخطب في رُفقة من العرب خطبة حماسية، فظنها عن حميّة وبسالة، وأنا في الحقيقة أُهْذِي بها، فاستعملني عيناً على العدوّ وكشّافاً دائماً، ومثل هذا العمل لا يُناط إلّا بالرجال الأبطال. فحملت الأمر، يا مولاتي، واصطبرت له، ولم يمض يومان على آنتدابي له حتى وقعت في قبضة الفرس أسيراً، فساقوني إلى كسرى، فسُئلت فيَ حَضرته، فحدّثته حديثي، وأنا لا أشكُّ في الموت، فأعجبه صِدقي ورَاقَه، وأمر بي أن

يُحْقَن دمي، وغَمرني بإحسانه، ووعدني إذا أنا صدقت في وَلائه، وأخلصت في خدمته، أن يُديم عليَّ رعايته. ويعلي محلّي في الحَضْر بعد الفتح. فقبّلت الأرض بين يديه. وسألته ماذا ينتظر منّي أن أؤدّي من الخدم؟ فرسم لي أن آخذ بما أنا فيه من التجسّس للحَضْر في الظاهر حتّى يجرِّبني، فإن وثق بي استخدمني فيما يشاء، فلبثتُ، يا سيدتي، مدة أكتم السر ولا أذيعه، وأوافي حجّاب سابور بما أستطيع من الأخبار، وهم ينقلون ذلك إليه. إلى أن كان أمسِ، فدعا بي، فلما مثلث بين يديه - وكان وحده - ناولني هذا الخاتَم الذي يسْوِي الحَضْر. . .

وأخرج ابن عُبيد من جيبه خاتَماً يقتتل على مِثله الملوك، فأقبلت عليه النَّضِيرة ومن معها يتأملونه، وقد بَهر أبصارهم.

ثم قال : تحتال، يا ابن عبيد، حتى تصل إلى النَّضِيرة، فتدفع إليها هذا الخاتم وتقول لها: إني مشتاق، وإلى لُقياها تهتزُّني الأشواق، ولا بد لنا أن نجتمع في القريب المُمكن من الزمن، للتشاور في أمر الفَتح وتعجيله؛ فإن لي في ممالكي أشغالاً ربما اضطرتني إلى تَرك الحصار والرحيل عن هذه الديار؛ فلتنظر الأميرة في أمر خروجها إليَّ بالليل، وهي صاحبة الحَضْر، ومالكة النهي والأمر، فلا يتعذَّر عليها ذلك؛ وليس عليها إلا أن تحمل الخاتَم معها، فإنه ليس بين الفُرس من لم يره أو يسمع به؛ فإذا أطلعت العَسَس عليه أباحوها الطريق، وجاءوا بها إلى خيمتي.

فلما فرغ ابن عُبيد من رسالته أطرقت الأميرة هُنيهة تفكر في هذا الأمر الجلل، وتستعرض في خاطرها لتحقيقه صنوف الحِيل، ثم رفعت طَرْفها إلى الرسول وقالت: لقد كلَّفني الملك ما لا أُطيق، يا ابن عُبيد، وإن كنت التي

تـركب العار، وتخـوض النار، في سبيـل الوصـول إليه، والاجتمـاع ولـو مـرة عليه؛ ولكني أخاف ألاَّ أَصِل!

قال ابن عبيد : الأمـر دون ما تَصفينـه عليـه من الصعوبـة،يـا مـولاتي ، ولا تَعْـدَمين بين الرجـال والنسـاء مِمَّن معـك من تنفـذ حِيلتـه، وينفع رأيه. . .

وعنـدئذ دخلت أسمـاء في الحديث فقـالت: الأمر سهل، يـا مـولاتي، تلبسين ثياب ابن عُبيد التي يتـردّاها في العمـل، وتتعلَّمين منه سِـرَّ الليل، ثم تخرجين إلى سابور تحت مَدارع الظلماء، وما سوى ذلك من معدّات التـوقّي والاحتراس يوكل لي الأخذ به وتدبيره منذ الساعة، وأنا الكفيلة بالنجاح.

ثم التفتت إلى ابن عُبيـد وقالت: انصرف، الآن، يا ابن عبيد، فإذا كـان الليل، فانتظرنا فوق طريق الذئب، بالقرب من الغابة.

فهمَّ الـطبيب بالانصـراف، فاقتـرب أبو سعـد منه وقـال: وأنا أيضـاً لي كلمة أقولها لك، يا ابن عبيد.

قال : ماذا تأمر؟

قال : اعلم أن الإمْـرة على جنود الحصنِ لا تلبث أن تُسْلَب اليـوم أو غداً من الحارث، فـاجتهد ألاَّ يُعـطاها سـواك، لأن على ذلك يتوقَّف سُقوط الحَضْر!

قال : سأنظر في الأمر، يا مولاي.

ثم انصرف، وانفضَّ المجلس على إثر ذلك.

الفصل الخامس

هجم الليل على حصون الحَضْر وهي ضيّقة الحصار، وأحاط الظلام بها من كل جانب، إحاطة العدوّ بها في المضارب، فامتنعت الطرق في المدينة، وسُدَّت السبل، وتربَّص العرب في مكامنهم من الحصن، وسَهر الحرَّاس على حفظ المواقع، ونام في المدينة من غير الجند، إلاَّ الجبان أرَّقه الخوف فبات ليلة لا يلتقي له جفنان، ولا يهدأ له جَنان، إذا سكن الليل خُيِّل له أن الجيشين يستجمعان للوثوب، وإذا خفقت الرياح في جوانب الحُصون خَفق فؤاده من ذكر الهُجوم، وإذا رأى البروق اللامعة، خالها السيوف القاطعة، وإذا صاحت ذوات الأطواق، في الأوراق، ذكّرته صيحة الأبواق، في ساعة التلاق؛ وإذا آنس أنَّةً حسبها من جريح، وإذا سمع نُواحاً ظنَّه على قتيل.

وما جبان الحَضر ليلتذ إلا جوّاس الحَضْري، وكان موكلاً بطرف الغابة من جهة المدينة، يقابله على موقِع آخر في أقصى الغابة رجل من العرب شجاع شديد البأس، يقال له: زياد بن الأجيدع، وكان من الحرّاس كذلك.

فلم يكن الثُّلث الأول من الليل حتى اقترب من طريق الذئب فارسان متلثّمان، هما الفتاتان تَجَاورتا في المسير، فقالت أسماء لسيّدتها: ذهب الصعب وبقي السهل، يا مولاتي، فدَعِي عنك هذا الاضطراب، ولا يَرَيَنّ

سابور عليك دلائل الخوف والجزع!

النَّضِيرة : وكيف، يا أسماء، ونحن لم نقدم على الغابة؟ حيث تتهدّدنا أخطار ثلاثة: الوحوش، والحراس، والضلال في هذه الدغال!

أسماء : لقد أخرجتكِ من القَصر على هذه الحال، وهو كلُّه عين ساهرة، إلينا ناظرة؛ فلا يصعب على مولاتي أن أحميك من كلاب الوحش وصعاليك العرب.

ثم دخلت الفتاتان في طريق الذئب، فلمحتا عليه شبح رجلين، فاضطربت الأميرة وسألت أسماء: من الرجلان؟ وما هذا الضوء؟

قالت : لعلهما بعض المارّة، يا مولاتي، فلا يأخذك من أمرهما قلق.

وبعد ذلك استمرَّ الفارسان أو الفتاتان حتى بلغا مدخل الغابة، فوجدا عنده حارساً مستنداً إلى سارية، فلم يتعرض لهما ولم ينبس؛ فاستغربا أمره، واقتربا من الرجل في دخولهما، فتأملته أسماء، فإذا هو مرتعد الفرائص من الذعر، وقد أُخذ منه سلاحه ثم ألصق بالسارية إلصاقاً من شدّة ما ارتبط فيها، فحين رأته أسماء على هذه الحال تبسَّمت، ثم استمرَّت في سيرها، فأغضب ذلك الأميرة وقالت: ليس المقام مقام تبسم واستخفاف، يا أسماء؛ فقد أدهشتني حتى صرت لا أستطيع معك صبراً...

قالت : سينكشف لك الغطاء يا مولاتي، فتعلمين أني أبذل نفسي وأهلي في خدمتك وحمايتك.

فحين صارت الفتاتان في الغابة اشتعل بين أيديهما مصباح ضئيل الضوء يسير به حامله إلى بعد، فسارتا في ضوئه حتى أوغلتا في الغابة، فسألت الأميرة أسماء: لمن المصباح؟

قالت : لعلَّه لأحد الجنود، يا مولاتي، ونحن نراه ولا يرانا، ونهتدي به ولا يعلم أنه يهدينا الطريق.

وبعد برهة يسيرة انطفأ المصباح بغتة، فأوقد مصباح غيره في ناحية من الغابة، فتوجَّهت الفتاتان وجهته، وكان عنده رجل من العرب، وكان مدجَّجاً بالسلاح، قائماً عند سارية يكاد يبلغها طولاً؛ فحين لمحته الأميرة قالت لوصيفتها: من الرجل، يا أسماء؟ إنه ليحمي الموقع ويمنع الطريق، وإني أخاف ألا ننجح فيما نحاول منه؛ أما ترينه يقظان كالدهر، ثابتاً كالصخر، يدلُّ منظره الرهيب على أنه عالم بالواجب كيف يقضيه، وبحقّ الديار كيف يؤدّيه!

أسماء : لا يوجسنَّك، يا مولاتي، ما تَرَيْنه من ظاهر حاله، وأمهليه ريثما يلمع الذهب بين عينيه؛ فهناك تعلمين أن المال يُنسي الواجب، ويُذهل عن الحقّ، ويُذهب العِفّة، ويُزحزح من الفضيلة؛ هذا إذ سلّط على الأغنياء والكبراء، فكيف على أمثال هذا من التعساء الفقراء؟

الأميرة : لكنّي أراه يسهر على حفظ النقطة وهي غرض للعدوّ، كما يسهر الوالد على ولده الصغير وهو غرض للمنيّة؛ وإن فرائصي لترتعد من هذا الموقف، فإن كان ولا بدّ، فابدئي أنت بخطابه.

وكان الرجل قد أحسَّ دبيبهما على المكان، ورأى شَبحهما، فحين اقتربتا منه صاح بهما يقول: من الماشيان على هذا الطريق المَحْمِيّ، أجهلاً أنه لا يُقرب ولا يُدَبّ عليه؟

فتقدَّمت أسماء، والنَّضِيرة خلفها تُوجسها مخافة الجندي، فقالت: من أهل الحَضْر، أيها الفارس. جئناك ندعوك لأمر إن أنت سَلَّمت به أصبت خيراً كثيراً.

الحارس : وما ذاك؟ آدعواني لما شئتما إلَّا الخيانة والغدر!

أسماء : أنت أيها الرجل فقير، والغِنَى منك قريب؛ وَضِيع، والرفعةُ

لك مهيَّأة؛ تَعِب بهذه الحراسة التي لا تأمن معها أن تُصبح وأنت على قيد الحياة، والراحة في يدك إن شئت أمسكتها، وإذا شئت أفلتَّها؛ فانظر في مصلحة نفسك، واعلم أنك لا تقف هذا الموقف إلاَّ إلى حين، لأن النصر للمحاصِرين، والحصن وإن طال المدى سيقع في قبضتهم، وملك الحَضْر آيل لسابور لا محالة!

الحارس : النصر والملك بيد الله يُؤتيهما من يشاء، وإني أرجو أن سيبقيان علينا وعلى الضَّيْزن، وقد حرمتكما أن تخوضا في حديث الغدر والخيانة، فعلام هذا التعريض؟ وفيمَ هذا التلميح؟

أسماء : قدَّمنا أيها الرجل أننا لم نَجِئْك في غدر ولا خيانة، فأَنف عنَّا ظنك هذا، واعلم أن مساعينا التي نَطلب معونتك فيها ربَّما نفعت الوطن، وأفادت الملك والعرب أعظم فائدة، فهل تُقسم بذمَّة العرب أنك إن أجبتنا إلى ما نطلبُ تُخلص في خدمتنا وتخدم إشارتنا في كل مقترح، فإن لم تجب كتمت الخبر، وحافظت على السر؟

الحارس : أقسم.

فأخرجت الفتاة عندئذ قلادة من ثمين الحلَى وفاخره، ثم عرضتها على الحارس وهي تقول: إذن فهذه القلادة لك، وهي ثمن القَسَم وحده، فخذها واعلم أنها القَطر ثم ينهمر الغيث!

فتردّد الحارس هنيهة، ثم تناول القلادة بيد مُرتجفة وقال: تعلم أيها السيّد.

أسماء : لست بالسيّد أيها الحارس، وليس رفيقي هذا ذكراً، بل نحن أنثيان، وأنت الساعة في حضرة مولاتنا النَّضِيرة بنت

الضَّيزن ملك الحَضْر!

فاندهش الحَضْرِي من هذا التصريح وصاح: الأميرة! الأميرة هنا؟

أسماء : نعم؛ هي بالذات، وأنا إحدى جواريها، ولا بدَّ لنا أن نلتقي بسابور خارج الحصن في هذه الليلة.

الحارس : تلتقيان بسابور خارج الحصن في هذه الليلة! ما هذا الكلام أيتها السيدة؟

أسماء : هذا ما جئنا فيه، والذي يُراد منك أن تُبيحنا الطريق كلَّما دعت الحاجة للخروج إلى سابور.

الحارس : وهل أمر الملك بهذه المقابلة المدهشة؟ أم هل علم بها قائد الجيوش؟ فإن عليّ أن أطيعهما كليهما أو أحدهما، وليس لي أن أطيع غيرهما!

فدخلت الأميرة عندئذ في الحديث مُندفعة من الغضب فقال: ألستُ بِنْتَ الملك؟ لي أن آمر وعليك أن تطيع؟

الحارس : بنت الملك لا تخرج، يا مولاتي في مثل هذا الوقت، ولا تأتي لمثل هذا الشأن!

الأميرة : هذا لا يعنيك أيها الرجل، ولا بد لنا من الخروج.

الحارس : لا فائدة من الإطالة أيتها الأميرة، فخذي هذا الطريق إلى القصر فإنه أستر لك، وأليق ببنات الملوك في الليل، ولا تقربي هذا الجسر؛ فمثل بنت الضَّيزن عندي نازلة إليه كمثل بنت سابور صاعدة منه، كلتاهما في الحالين عدوّ مبين؛ فأما هذه القِلادة فهأنذا أمزّقها بيد الأمانة، كما تمزّق النَّضِيرة تاج أبيها بيد الخيانة!

قال الحَضْري ذلك ورمى بالقلادة إلى الأرض بقوة فتمزّقت وانتثرت،

فحين رأت الأميرة منه ذلك وأيقنت أن بين جنبيه نفساً حرَّة لا تُباع ولا تشترى، يئست من أمرها وخافت العاقِبة، فهمَّت بالرجوع. وفي هذه الأثناء صرخ الحَضْري صرخة واحدة ثم لم يُثَنّ، وسقط على الفور يتخبَّط في دمائه، وظهر من خلف السارية رجلان مَيّزتهما الأميرة لأول وهلة، فضحكت إليهما وأثنت عليهما، ثم نظرت حولها فرأت رجلاً ثالثاً وقد أقبل ببطنه على الأرض يتلقط ما انتثر من حبات القلادة؛ أما الجانيان فهما أبو سعد وخادم له شديد البأس أسد الفؤاد، وأما لِصّ القلادة، وكلب هذا الصيد البشري، فهو قَصير الفارسي، اشترك الثلاثة مع أسماء فيما دبّرت لخروج الأميرة ليلاً إلى مضارب الأعداء، وما اتَّخذت من الحِيطة لذلك؛ وليس الضوء الذي أبصرته الأميرة وهي قادمة على الغابة إلاّ مصباحهم، كان يضيء لها دجى الليل من حيث تدري ولا تدري، وقد وَقَوْها شرَّ الحارسين على طَرفي الغابة، فصلبوا الأول كما وصفنا الأمر عليه، وفتكوا بالثاني.

خلا الطريق إلى سابور، فاتفق الخَونة فيما بينهم على أن يسير أبو سعد مع النَّضِيرة إلى مضارب الفرس، وتتخلَّف أسماء والخادمان فيرتدّون إلى مدخل الغابة من طريق الذئب، حيث ينظرون الأميرة عائدة بعدما قابلت سابور؛ وعلى ذلك سارت الأميرة وأبا سعد وهي تقول له في الطريق: ما كان ضرَّنا يا أبا سعد لو عملت بإشارة أسماء، فلبست ثياب ابن عُبيد وتعلَّمت منه سرَّ الليل ثم خرجت وحدي إلى لقاء الملك تحت مدارع الظلماء، فلم أُسُمْكم هذه المواقف وأُحمِّلكم هذا التعب؟

أبو سعد : إن من نشأ، يا مولاتي على الشُّهد ومُخّ الغزال، لا يقتحم وحده الأهوال، ولا يقف بمفرده موقف الأبطال؛ وقد رأيت في الأمر الرأي الذي هو أحمد عاقبة، فأنت تعلمين، يا مولاتي أن الذهب والحيلة إذا اجتمعا أَدَّيا إلى المستحيل، وقد سخَّرا لخدمتنا في هذا وغيره من المواقف، منك الذهب ومنّي الحِيلة، فثقي إذن بالنجاح في سائر ما تحاولين.

النضيرة : لكنّي أرى فرائصي ترتعد، ومفاصلي تسترخي، كلّما ذكرت ذلك الدم الذي أهرقناه من هنيهة غدراً وبغياً.

أبو سعد : هوِّني عليك، يا مولاتي، إن الدم، منذ كان، مطيَّة الناس إلى أطماعهم المتنوّعة، وقنطرة البشر إلى أهوائهم المختلفة: هذا يسفكه في سبيل المجد، وهذا يريقه في سبيل الحب، وهذا يُسيله في سبيل المال، إلى آخر مآرب النفس ومطامعها؛ على أننا لم نقتل إلاَّ نفساً واحدة، حين هذا سابور أمامنا، وذاك الضَّيْزن وراءنا يستعدّان كلاهما لحرب عَوَان، يذهب فيها آلاف من الأنفس، الأول ليتّسع بفَتح الحَضْر من مُلك وسلطان، والثاني ليحفظ ملك الحَضر على نفسه، فأيّ فرق إذن بيننا وبينهما، اللهمّ إلا أن يقال عنا: سفكنا من الدماء قطراً، ويقال عنهما: سفكا منها بحراً!

وبينما النَّضِيرة وأبو سعد في سُراهما يتحادثان، إذا اعترضهما العَسس من الفرس، فاستوقفوهما يكشِفون حالهما ويسألونهما عن أمرهما. فأظهرت الأميرة لهم الخاتم، فعرفوه حال النظر، وانتدبوا لخدمتها فيما تأمر؛ فطلبت منهم أن يسيروا بها إلى الملك، فانبرى اثنان منهم يمشيان وهي على أثرهما، يرافقها أبو سعد حتى بلغا إلى خيمة سابور.

ونحن نعتذر إلى القراء من الخوض في هذا الحديث عن خيانة النَّضِيرة التي لم تقف في الخيانة عند حد.

ونذكر ما كان من أمر أسماء ورفيقيها فنقول: رجعت الفتاة والخادمان منقلبين إلى مدخل الغابة، بعدما بلغوا غايتها؛ وهناك وقف الثلاثة بالقرب من الحارس، وكان لا يزال مصلوباً على السارية يذوق أليم العذاب، فتقدَّم إليه خادم أبي سعد يقول: كيف كان فعلي بك أيها الجندي؟

جواس : كما تراني، يا مولاي، سليب الحَول والرمق؛ فهل تَمُنُّ عليّ

بالحياة فتفكّ وثاقي؟ أم هل تنعم لي بالراحة فتُجهز عليَّ؟

الخادم : لا آتي هـذا ولا ذاك حتى يرجـع إلينا سـائر الـرفاق، فننـظر جميعـاً في أمرك، إن شئنـا قضينا عليـك، وإن شئنـا رددنـا الحياة إليك!

جواس : لكني أخـاف على نفسي وعليكم أن يفـاجئنـا ابنُ بكـر في حرسه الشديد الكثير، فيحلّ بنا من العقاب ما يحلّ.

الخادم : وهل عَـوَّدك ابن بكر أن يمرّ بك كل ليلة؟

جواس : نعم، يا مولاي، وعوَّدني إذ تأخّر ليلة أن ينوب عنه الأشـدّاء الأقوياء من الحرس أو العسس، مع أن الغابة كما رأيتها في غِنى عن بعض هــذه المبـالغـة في التحـرُّز والـزيـادة في التحـرُّس، فهي بشجرهـا المتكاثف، ومسـالكهـا الـوعـرة، حصن طبيعي يستحيـل على الجنـود أن يغشـوه، وإن فعلوا وقعوا في شَرك وتعرَّضوا للذبح فرداً فرداً.

الخادم : ومـا يدرينـا أنك إن فككنا وثاقـك، وأطلقنـا سـراحـك، لا تفشي السرَّ ولا تخون؟

جواس : لقــد دفعت إليكم بـوقي وسـلاحي لأول طلب، وسـألتكم الأمـان؛ والآن لا أسألكم إلا أن تتّخـذوني خادمـاً لكم أميناً أكون معكم على من شئتم وفيما تشاءون!

وفي هذه الأثناء سمع صوت بوق يتردَّد آتياً من أقصى الغابة، فانذعرت الفتاة وتفزَّع رفيقاها، وسأل خادم أبي سعد جواس قائلاً: ما هذا الصـوت أيها الحارس؟ ومن النافخ في البوق الساعة؟

جواس : هو، يا مولاي، الحارس الموكل بالـطرف الآخر من الغـابـة يَحميه. جرت العادة أن ينبِّه أحدنا الآخر كلَّما أردنا، فأجيبه أو يجيبني، ليطمئنَّ القلب ويهدأ البال.

الخادم : ولكننا تركنا صاحبك قتيلاً مضرجاً بدمائه، فكيف أخذ البوق؟ ثم كيف نفخ فيه؟

جواس : إن كان الأمر كماتصف، يا مولاي، فلا يكون النافخ الساعة إلاَّ الحارس الثالث الذي يقابله على الطرف الشرقيٍّ من الغابة، ولعلَّ هذا هو السبب في وصول الصوت إلينا ضعيفاً كما سمعتموه.

الخادم : أنتم إذن أربعة حرَّاس؟

جواس : نعم، يا مولاي،على كل طرف من أطراف الغابة الأربعة منَّا واحد.

فاستمرَّ الصوت على ضعفه، واتصل النفخ في البوق إلى حدٍّ راعَ أسماء ورفيقيها وهالَهم، فسألت الحارس قائلة: ما بال الصوت لا ينقطع أيها الجندي؟

جواس : لا ينقطع، يا مولاتي، إلا إذا أجبت، وأخاف إن استمرَّ أن ينبّه العَسس فنقع في مكروه!

أسماء : ويلاه! ما للأميرة أبطأت؟ ماذا أخَّرها؟ لِمَ لم تَعُد؟ هل أصابها مكروه؟

جواس : مُرِي، يا مولاتي، أحد صاحبيك هذين أن يتناول البوف فيجيب بمثل هذا الصوت، أو أُذنيه من فمي فأنفخ فيه، فيكف الحارس؛ وإلاَّ استمرَّ فعرّضنا لأعظم بلاء وأكبر شقاء!

فتناولت أسماء البوق من الأرض، وكان تحت قدميه مع سائر سلاحه، ثم أدنته من فم الحارس قائلة: بل خذ أنت فجاوب صاحبك لعله يَكُفّ.

فنفخ الجندي في البوق طويلاً، وما هي إلَّا هنيهة حتى امتلأ المكان على أسماء ورفيقها من الجند، متكاثرين، محيطين بهم من كل جانب، فطارت

قلوبهم شُعاعاً، وعلموا يقيناً أنَّهم هالكون. فلم يكن من خادم أبي سعد في هذا الموقف الحَرج إلا أن بدر الحارس بضربة سيف فَلَقت هامته وغادرته في الهالكين، ثم سارع فَهَمَس في أذن أسماء بأن قال: الرجال فِداء النساء، يا مولاتي، في كل حال، فاذهبي أنت وقَصير فاختفيا ناحية في الغابة ولا تخرجا منها، حتى أجيئكما أو ترجع إليكما الأميرة ومن معها.

فدار العَسس على مدخل الغابة، وليس لديهم إلاَّ هذا البهيمة البهمة، خادم أبي سعد، قد وقف بجانب فريسته رابط الجأش حاضر الوجدان، يستعدُّ لشأن له وللجند، فإما يستدفع أذاهم بالحيلة، وإما يجاور على طريق الذئب قتيله، فتقدَّم زعيمهم إليه وسأله: من الرجل؟

قال : مِن عَبيد الضَّيْزن، وخادم نديمه، وصاحبه المقرَّب مولاي أبي سعد.

فحين سمع الزعيم ورجاله للرجل، وهو في المَلِك يحتمي، وإلى أوجه الحاشية ينتمي، خفضوا من حدّتهم، وأخذ الأمر في نفوسهم شكلاً غير شكله الطبيعي في مثل هذا الموقف؛ فسأله الزعيم: وما آسمك أيها الخادم؟

قال : أبو حمالة.

قال : نسمع بك ونعلم أنك من شجعان الحَضْر وأبطالها؛ فما جرَّأك على صلب هذا الفارس، ثم على قتله وهو في خدمة الملك؟

قال : صلبته وقتلته، وأنا أيضاً في خدمة الملك. ولو أني فعلت عن هوى في النفس، أو ابتغاء انتقام، لما نفخت في البوق ولا نبَّهتكم لمكاني، ولا أمهلتكم حتى تحيطوا بي، مع أنني من هذا الطريق وهذه الظلماء في أوسع فضاء!

قال الزعيم : إذن فأنت مكلَّف من قبل المَلِك بقتل هذا الحارس؟

قال : فيما صرَّحت به الكفاية أيها الزعيم، وما سوى ذلك فلا

أذكره لك، بل تسأل عنه ابن عبيد، عضد ابن بكر وساعده، فهو الذي أمرني فامتثلت في مصلحة الدفاع وخدمة الجيش. وقد رسم لي كذلك أن أقوم مكان هذا الخائن بعد قتله؛ فإن شئت فاتركني وشأني والحراسة، وإلاَّ فأشرك معي أحد هؤلاء الجند يلازمني حتى يحضر ابن عبيد، فنعرض الأمر عليه، ثم يختار هو لحماية الموقع من يشاء!

قال : لا يكون إلاَّ ما ذكرت، فهو أنفى للظنّ عنك، وأذهب بالتَّبِعة عني؛ ولكن ماذا نصنع بهذه الجثة الآن؟

قال : نتركها كذلك لابن عبيد يصنع بها ما يشاء.

وعلى أثر ذلك دعا الزعيم برجل من أشجع العسكر وأشدّهم بأساً، فرسم له أن يبقى في ملازمة أبي حمالة إلى أن يحضر ابن عبيد، فيرى في الأمر رأيه، ثم انصرف هو في سائر رجاله.

ولم تمض ساعة زمان على وقوع هذه الحادثة حتى عادت الأميرة بعدما قابلت سابور، يصحبها أبو سعد، ويسير ابن عُبيد في خدمتها؛ فقابلتها أسماء في الطريق ومعها قَصِير هائمين في ظلمات الغابة، وَجِلَيْن مضطربين، فقصَّا على النَّضِيرة الخبر وما كان من كَيد جواس الحارس لهما ولأبي حَمَالة، ونفخه في البوق، ومجيء العسكر على أثر ذلك، وما أشار أبو حمالة به عليهما من الاختفاء في الغابة. وترك الأمر لاحتياله وبأسه؛ فاضطربت النَّضيرة عند سماع الخبر، وأشفقت من عواقب الأمر، والتفتت إلى صاحبها حيرانة مستفهمة؛ فقال أبو سعد: لا تخافي يا مولاتي ولا تنزعجي، إن أبا حَمالة جمع بين الرأي والسيف، وقد تعوَّد في خدمتي أن يأخذ بأحدهما ما لا يمكن له أخذه بالآخر، ولا أجد الحادثة إلا من أهون ما مَرَّ عليه في حياته، فلا بدَّ أن يكون حَسَم الأمر بأحد حُسَاميْه: الدهاء والبأس!

قال ابن عبيد : مهما يكن من الأمر، يا مولاتي، فلا بدَّ لي أن أسبقكم في

الخروج، فإن مهمَّتي تبيحني كل مذهب في الحَضْر، وليس تحت سمائها من يعرف علاقتي بكم، فأنا في فضاء من أمري؛ وليس عليكم الآن إلا أن تنتظروا هنا حتى أرجع إليكم بنفسي أو أبعث إليكم رسولاً.

قالت الأميرة : بل تحضر بنفسك يا ابن عبيد، فهو أدنى إلى الأمن وأجلب للطمأنينة؛ لكن هَبْكَ عاقتك العوائق فلم تَحْضَر؟

قال : أمر سهل، يا مولاتي، الطريق وراءكم مأمونة، وضيافة سابور لكم مضمونة.

قال هذا ومشى مستعجل الخطو حتى خرج من الغابة، فوجد أبا حَمالة وجنديّاً آخر في موقف الحراسة يكتنفان جُثَّة المصلوب، فحين رآه الرجلان صاحا به يقولان: من القادم من الغابة؟

فألقى من فوره سِرَّ الليل، ثم قال: أنا ابن عبيد، فمن تكونان؟إني أراكُما غريبين في هذا المركز.

فعندئذ اقترب أبو حَمالة منه فحدَّثه الحديث همساً،فسُرَّ بحسن تدبيره ولُطْف احتياله، والتفت إلى الجندي الذي يلازمه فقال: اذهب الآن أيها الحَضْرِي إلى رئيسك فقل له: إنِ ابن عبيد مُصدق لما قال أبو حمالة، وإني أكتفي به للسَّهر على حفظ الموقع!

قال الجندي : سمعاً وطاعة.

وانطلق من فوره، فأمهله ابن عبيد ريثما توارى عِيانه، ثم قال لأبي حمالة: أما أنت فتنتظرنا حتى نرجع إليك.

ودخل بعد ذلك الغابة فعاد منها بالنَّضِيرة ومن معها من حِزب الخيانة، حتى إذا صار الكلُّ في مأمن، ولم يبق إلَّا التفرق إلى حين، أخذ ابن عُبيد سبيلاً إلى ابن بكر، وقصد أبو سعد منزله في الحَضر، واندفعت الفتاتان وقَصِير راجعين إلى القصر. وبقي أبو حَمالة في مركزه لأمر.

الفصل السادس

أصبح أهل الحَضر أنعم ما أصبحوا بالاً منذ ابتلوا بهذا الحصار الطويل؛ إذ لم يطلع الفجر حتى شاع في المدينة وذاع، وملأ الأسماع من جهة أن الفرس حاولوا الهجوم على عُقاب وأخذه عنوة فصدَّتهم جنود الحَضْر وحملتهم خسائر جمَّة، وأن الفضل في اكتشاف مكيدتهم وتنبيه ابن بكر إليها في وقتها راجع لابن عبيد الذي كافأه الملك فجعله حامي عُقاب، وثاني ابن بكر في الزعامة على الأجناد، والدفاع عن حوزة البلاد؛ ومن جهة أخرى أن ذلك الهجوم هو من قبل الفرس آخر تجربة في معالجة الفتح، وأنه قد جدَّ في ممالك كسرى وبلاده من المشاكل والقلاقل ما سيضطره إلى المسارعة بالأوبة، بعد طول الغيبة، وعلى الخصوص بعد تلك الخيبة!

على هذا ومثله من باطل الأوهام، وكاذب الأماني والأحلام، انقضى النهار في الحَضر بسلام، ومضى بعد ذلك ثلاثة أيام، لم يقع فيها شرٌّ ولم يحدث أمر، إلَّا حادثة خفيفة لم يكد خبرها يجاوز القصر؛ وذلك أن الملك استيقظ ثلاث ليال متواليات على ترنّم شاد ينشد في أواخر السَّحر من كل ليلة بهذين البيتين:

لا تَخْدَعنْك النساءُ يا مَلَكُ ... فكَمْ رجالٍ بكَيْدِها هَلَكُوا
للدَّهْر فيكم مشيئة سبقتْ ... فليس يَجْرِي بِغَيْرها الفَلَكُ

إلَّا أنهم بحثوا طويلاً عن المُنشد فلم يقفوا له على أثر، ولم يعلموا في أمره ما الخبر، وإن كان فيـه ما يشوب صفو الملك ببعض الكـدر!

فلمـا كانت الليلة الـرابعة، بـات الملك ناعم البـال، كأن في يمينـه ميثاقـاً من الحوادث ألَّا تأتي على عجـلٍ، وقد استقـر عنده من إجمـاع الروايـات وتواتـر الأخبـار أن سابـور وجنوده منفضٌون بعد يـوم أو يومين من حـول المدينـة، لا تـطلع الشمس منهم هناك على عين ولا تغـرب على أثر، وأن أبـواب الحَضْر ستفتح بعد حين للمتاجر والأرزاق.

وبات ابن بكر قريراً كذلك، وقد قام في أمانيه وأحـلامه أن النَّضيـرة له وحـده، وأن الضَّيْـزن لا يجـد في خـزائن ملكـه مـا يكـافئـه بـه على خـدمـه الجلائل، وسهـره حولين كـاملين على حفظ الحَضْر، ومنعهـا من الوقـوع في قبضة الأعداء، إلا تلك اللؤلؤة المكنـونة، والجـوهرة المصـونة، التي لم تـك تصلح إلَّا له ولم يك يصلح إلَّا لها.

وباتت النَّضِيرة تتمنَّى أن ترى فلقاً من الصبـاح، وآخر من جبين سـابور الوضَّاح، ولا تنام مع هذا الرجاء الليل، من خوف الفضيحة. وخشية التعرُّض لانتقام الضَّيْزن والعرب، إذا علموا بخيانتها قبل أن تبلغ جنود سابور القصر!

وبـات الجنود واثقين بـالغد، يستعـدُّون لراحـة طويلة بعـد ذلك التعب الطويل، ولا يخطر لهم على بال أن الصبح آتٍ بالشدائد والأهوال.

وبات سائـر أهل المـدينة ليلهم مسـرورين، يحلمون بـالرِّيّ والشبـع، وبالأمن وقد رجع، والعدو وقـد أقلع، والشدّة وقـد تحوَّلت لـرخاء، وزال عن الحَضْـر العناء والبلاء.

وكان عقاب، وهو كما يعلم القـراء ذلك الحصن المنيـع، الذي دفعت الثقة العمياء بالضَّيْزن إلى تولية ليث ابن عبيد حراسته، قد مسخ حانة من أول الليل، وأقبل جميع من فيه على الخمر يشربونها بغير حساب.

وتفصيل الخبر أنه لمَّا كان الغروب وفـد على ليث ابن عبيد رسـول من

القصر يحمل إليه بضع قِـرَب مملوءة من عتيق النبيذ، وكـانت تلك حيلة اتّفق هـو والأميرة عليهـا من قبل؛ فـدخـل عليـه الـرسـول وهـو في جمـاعـة من جنـود الحصن، فحيَّاه ثم أخبره أن الملك يحبُّه، وأنه ذكره في مجلس شرابه، فأمـر أن يحمل إليه شيء من هذا النبيذ الذي لا يوجـد إلا في خوابيـه؛ فأثنى على الملك ودعا له، ثم جعل القِرَب في ناحية وانتظر.

ولم يلبث خبر هذه الهبـة السنيَّة أن انتشـر بين جنود الحصن وعلمـوا به جميعاً، وكانت شِرذمة من نُخبهم وأشدّائهم ساهـرين يتسامـرون، وكان بينهم رجـل جَهوري الصـوت ماضي الجنـان، يقال لـه: شهاب الحَضْـري؛ فقـال أحدهم: يقولون إن الفرس راحلون عنًا غداً، لأن الأمر اضطرب في ممالـك سابور حتى أصبح له شغل عنًا بذلك.

قال جندي : هـذا نبأ مـلأ المدينـة وسُرَّ بـه أهل الحَضْـر، لأنهم ذاقـوا الجوع، وأصبحوا لا يطيقون الحصار

قال آخر : قَبُـح الحصار! لقـد تركنـا كالآسـاد في القيود تنـظر الكلاب محيـطة بها، وتسمعهـا إذ تنبحها، ولا تملك إليهـا سبيـلاً، فهلَّا قذف بنا الملك في تلك الصفوف ليرى كيف نخرقها، وفي تلك الجموع لينظر كيف نمزّقها؟

قـال شهاب، كبيـر الجماعـة، وأشدُّهم بـأساً، وأعـظمهم على الـوطن غيرة: مضى علينا حولان كاملان والعدوُّ يقتل رجالنا بلا قتال، ويغزو بـالجوع النساء والأطفال، فهلَّا تركونا نموت في ظلّ السيـوف كالليـوث الغِضاب، ولا نموت جوعاً في الطرقات كبعض الكلاب!

قال بعضهم : لعلّ العناية شاءت أن تحقن الدماء، وأن تبقى الحَضْـر على أهلها؛ إذ ما يدرينا أن سابور وجنوده ينفضُّون غـداً من حول المدينة كما شاءَ فلا تطلع الشمس منهم على عين هناك ولا تغرب على أثر.

فسأله شهاب : وماذا ادَّخرت لنفسك من الطرب برحيلهم؟

قال : قِـرْبة من النبيـذ المعتَّق أشربهـا وحدي؛ فلقـد طال بـالرَّاح عهدي!

قال شهاب : وأنا أيضاً شَيِّق إليها ولع، فقـد حرمت نفسي أن أذوقهـا منذ الحصار، وكنت لا أُعْطَى عنها صبراً، وماحسدت قطُّ أحـداً كما حسدت ابن عبيد اليوم، بما حمل إليـه الملك من نبيذه الـذي لا يوجـد إلَّا في خوابيه؛ وكأني بـه الساعـة يشـرب وحده ولا يذكرنا، ونحن نسهر عنه على حفظ الحصن!

قال بعضهم : وبمـاذا استـوجب ابن عُبيـد هـذا النـوال منـذ جعله على الحصن وعلينـا؟ فقـد طـالمـا اجتـرأت عليـه فلم يعتب، وأغضبته فلم يغضب، وما هكذا الشجاع!

قال جندي : إنه يَفْرَقُ من رؤيتك ويخشى بأسك، يا شهاب، فما ضرَّك لو جاملتنا فاستأذنت عليه، وطلبت لنا منه شيئاً من ذلـك النبيذ نشربه، فننتعش بعض الشيء؟

قال شهاب : أأشـرب الخمر ونـار الحرب مشبـوبة، وخيـام العدوّ خـارج المـدينـة مضـروبـة؟ إني إذن لجـانٍ على الحَضْـر مِضْيـاع للذِّمار!

قال آخر : الحَـضْر الليلة في سرور، يا شهاب، ولا يضرُّها أن نذوق من نبيذ الملك، وهو مـا بعث به إلى ابن عُبيـد إلَّا ليشركنـا فيه معشر جنوده المخلصين!

شهاب : لعلَّه كذلك؛ فإن القِرَب ثمانٍ مملوءات، ولا يعقل أن بَـطْن ابن عُبيـد يسعهـا جمعـاء! لكن هَبُـوني طلبت لكم منـه مـا تسألون فأبى وامتنع، فما يكون شأني معه عندئذ؟

قال أحدهم : نعلم أنه جبان بخيل!

فدخل شهاب في الغضب ونهض فقال: بل أمسك بكتفه فلا أتركها إلاّ وقد اختلطت أضلاعه بعضها ببعض، ثم أقول له: كذبت الشجاعة والكرم، يا ابن عُبيد!

وفي هذه الأثناء أقبل ابن عُبيد، فانذعر من ذكر شهاب اسمه، وهو على هذه الحالة من الغضب، لكنّه تشجَّع ثم دنا منه، وتلطَّف له في الخطاب فقال: ما يغضبك، يا شهاب؟ إن لك لدماً يثور لغير سبب!

قال : بل الأمر كيت وكيت. . .

ثم حدَّثه الحديث بجملته، لم ينقص ولم يزد، فاستضحك ابن عُبيد ثم قال له: ما أجمل هذا الصدق، يا شهاب! لكن ما ثأرك عندي حتى تمزّق أضلاعي؟ ولو صبرت قليلاً لعلمت أني ما جئتكم إلاّ لأعرض عليكم ما كنتم تشتهون، إن القرب ثمانٍ، لكم منها سبع، ولي واحدة لا أشربها وحدي لكن معك، يا شهاب؛ فهل تعفو عن أضلاعي؟

فتردَّد الجندي هنيهة ثم قال: الآن نفي الظن عن كرمك يا ابن عُبيد، لكن أواثق أنت بالغد، وأن لا خوف على الحَضْر من حادث تلده الليلة؟

قال : لقد رأيتم ابن بكر عندي من ساعة، وقد بلغ من ثقته بالغد أنه لم يتعهَّد هذه الليلة سائر الحصون كدأبه في ماضي الليال!

قال : إذن فَمُرْ لنا بما ذكرت.

فالتفت ابن عُبيد إلى الجندي الذي في خدمته وقال له: اذهب فائتنا بالقِرَب واجمع ما في الحصن من أقداح.

فاستصحب الجندي معه اثنين من رفاقه، وتغيَّبوا هنيهة، ثم حضروا بالراح والأقداح؛ فأمر ابن عُبيد بذلك فجعل بين أيدي العرب، ثم دعاهم ليشربوا غير محتشمين في حضرته، فأقبلوا على القِرَب يَفُضّون أفواهها، ويشربون بغير حساب، وجلس ابن عُبيد وشِهاب في ناحية يتحادثان ويشربان

على ذكر الضَّيْزَن وعدله، وابن بكر وفضله، والحِصار وأهواله، والدفاع وأحواله؛ وكانت السقاية لشهاب، فما لبث أن استبدَّ فجعل يناول صاحبه بمقدار ويُسرف هو على نفسه في الشرب، وكان يرفع صوته فوق صوت ابن عُبيد، فسأله هذا: كيف وجدت النبيذ، يا شهاب؟

شهاب : أشهى من دم الفُرس، يا ابن عُبيد، لو خيَّرني الملك فيما أريد لما اخترت إلا أن أكون أمينَ شرابه، لأتمتَّع من عرائس أكوابه!

فالتفت ابن عُبيد إلى العَرَب وسألهم: وأنتم، يا رجال الحِصن، كيف تجدون هذا النبيذ؟

فقال أحدهم : نبيذ المَلِك مَلِكُ النبيذ، ولو شرب سائر أهل الحَضْر من هذا ثم خرجوا إلى الفُرس لكان الواحد منا بمقام ألف.

قال آخر : لا أظن الملك يموت أبداً ما دام هذا شرابه!

وبينما القوم على هذا الحال من الطرب والسرور وشُرب الراح، التفت ابن عُبيد إلى اثنين منهم وسمّاهما، ثم قال لهما: هذا أوان تَغيير الحرس، فانزلا وتولّيا الحراسة بدل زميليكما.

وأومأ بعد ذلك إلى اثنين آخرين وسمّاهما، ثم قال لهما: اخرجا أنتما فاكشِفا لنا حال العدوّ، وانظرا هل يستعدّ للرحيل.

والتفت بعد ذلك إلى الجندي الذي في خدمته وقال له: خذ مفتاح الحصن وافتح لصاحبيك وانتظرهما حتى يرجعا.

قال : سمعاً وطاعة.

ثم نزل يتبعه الرجال الأربعة، فأقام الحارسان الجديدان مكان أخويهما، وصعد هذان إلى البرج، فاشتركا على الفور مع رفاقهما فيما هم فيه، وكانت الخمر قد لعبت برأس شهاب فتحمَّس وتهوّس وأخذ يغنّي القوم هذا الشِّعر:

نحن أُسْد الحَضْر جُند الضَّيْزَنِ ... بالدِّما والمال نَفْدِي سَاطِرُونْ
لا نَرى العيشةَ بعد الوطنِ ... كُلُّ عيش بعد عَيْشِ الحَضْرِ دُونْ
يا حُصون الحَضْر إن خُنْتِ الدِّيَارْ ... نحن للحَضْر حُصونٌ لا نَخُونْ
إلزمي الصَّبْرَ إذا طال الحِصارْ ... كلُّ خَطب، وإن اشتدّ يَهُونْ
أنت صَخْر ولنا أيضاً صُدُورْ ... من صُخور وحديد لا يَلِينْ
كلَّما قُوِّضَ سُورٌ قام سُورْ ... في سَبِيل الحَضْر رَحِّبْ بالمَنُونْ

ولم يدخل الليل في الثلث الثالث إلَّا وقد انقلبت الخمر سكراً، فتحوَّل نشاط العرب فُتوراً، وثَورتهم سكوناً، وقيامهم قعوداً، وحماستهم هذياناً؛ وعندئذ مالت الرُّؤوس وانعقدت الألسنة، وخرَّ الجند صَرْعى واحداً بعد واحد.

وفي هذه الأثناء سُمعت ضجَّة ارتجَّت لها الأبراج، وتفزّعت المدينة، ونفر أهلها ذاهلين منذعرين؛ ذلك أن البرج امتلأ على جماعة الحرَّاس، صرعى الطاس والكاس، من الفُرس الذين أخذوا للهجوم أُهبته طول الليل، فغَشَوْه كعُبَاب البحر لا يُعدُّ موجه، ولا يُصَد لُجُّهُ؛ فاستفاق شهاب من سكره، وقد طار عقله عن رأسه، وخرج أمره من يده، في هذا الموقف المهول، فجعل يستصرخ العرب ويجمعهم حوله، ثم خطب فيهم فقال: نحن الساعة بين عدوَّين شرّهم هذا الذي منَّا، فهو ناصِب الحبالة، وأداة الخيانة، انتقموا منه للحَضْر انتقاماً ثُم موتوا تحت ظلال السيوف كراماً.

قال ذلك ودلَّهم على ابن عُبيد، وكان قد اختلط بجُنود العدوّ وعلامة الأمان له منهم فوق رأسه، فما وقعت عيون العرب عليه حتى اندفعوا نحوه اندفاع السيل، فقُتل أكثرهم قبل أن يصلوا إليه، وبلغه بضعة منهم فنثروا لحمه وشربوا من دمه، ثم وقعوا قتلى تحت أقدام الفُرس المتكاثرين.

وهكذا انتقم الله من الخائن، بن عُبيد قبل أن يجني ثمر جنايته، ويتمتَّع بنعم سابور مكافأة له على خيانته.

وكان هذا الخبر المشؤوم قد بلغ ابنَ بكر وهو في مبيته بدار الجُند

بالقرب من الحصن، فخرج كالليث يستصرخ كلَّ شجاع في الحَضْر من الجنود وغيرهم، فاجتمع حوله الألوف من العرب مستقتلين مستعدّين للموت، فوقف بهم للعدوّ في طريقه، وهو يتكاثر ويضاغط كالعارض الهَطِل، فكانت واقعة مشهودة، جرت فيها الدماء أنهاراً، وظهرت البسالة فيها على الكثرة مراراً، وكان بجانب ابن بكر في القتال رجل ملثّم، وكأنما يقاتل عنه وعن نفسه وعن سائر العرب. لكثرة ما قتل من الفرس يوم ذاك.

واستمرَّ القتال مدَّة من النهار حتى هلك أكثر العرب، بعدما قتلوا عدداً لا يحصى من العدوّ، إلَّا أن الكثرة لم تلبث أن غلبت ـ كعادتها ـ على الشجاعة، وترجَّحت مخايل النصر للفرس وبدت أعلام فوزهم، وفي هذه الأثناء أُصيب ابن بكر بجرح أَوْهى قواه، وزلزل قدمه، فلم يكن من الحَضْري الذي بجانبه إلَّا أن حمله كما يحمل الطفل، ثم رجع به القَهقرى، والعرب يتنحَّون له في رجوعه، حتى صار في مأمن، فذهب مُسرعاً فأخفى الجَريح الكريم في بعض نواحي المدينة، وعلى هذه الصورة انتهت المعركة.

وتداولت الأيام فانتقل مُلْكُ الحَضْر من ساطرون إلى سابور.

هذا ما كان من أمر ابن بكر والعرب، وما فاجأهم به الفجر من الكوارث، وما زال الفجر أبا الحوادث!

أما ما كان من أمر المَلِك فإنه انتبه في أخريات الليل على صوت ذلك الطائف حول القصر، الهاتف بهذا الشعر:

لا تَخدعنَّك النساء يا مَلِكُ فكم رجالٍ بِكَيدها هَلَكُوا
للدهر فيكم مشيئةٌ سبقتْ وليس يَجْري بغيرها الفَلَكْ

فنزل عن فراشه مغضباً، عاجزاً، لا حول له في أمر الهاتف ولا قوة، ثم جعل يتمشَّى وهو يتَّهم الهواجس آونة، ويسيء الظنَّ بالشياطين آونة، وبينما هو كذلك إذ جاءه رسول من ابن بكر فخبَّره الخبر، وسأله بلسانه الدعاء له

وللجنود، لعلَّ السماء تنصرهم في المعركة الفاصلة، ثم انصرف الرسول، فأطرق الضَّيْزَن طويلاً ثم رفع رأسه وقال: صبراً ساطِرون! خرج من يدك الأمر، وزال عنك مُلْك الحَضْر، وقديماً حكم في الملوك الدهر.

ولم يكد يستتمُّ حتى استأذن عليه رسول من قبل سابور أَمَّنه العرب حتى وصل، فلمَّا مثل في حضرته عرض عليه أن الملك سابور يرجو منه أن يحتفظ بحياته وحياة النَّضِيرة، ويؤكّد له أنه هو والأميرة في ذمَّة منه وأمان، وسينزلان عنده في أعلى منازل الحفاوة والكرامة.

فشغل الضَّيْزن هذا البلاغ واستغرب الأمر وساءت ظنونه، وسوء الظن في طباع الملوك والأمراء، فكان جوابه أن قال: أبلغ الملك، أيها الرسول أن حياتي لا تهمُّني أكثر مما تهمُّه في الحقيقة، أما النَّضِيرة فإني أحتفظ بحياتها وأجعلها في ذمَّته وأوصيه بها خيراً.

فانطلق الرسول من فوره، يحمل من الضَّيْزن علامة الأمان.

ودخلت بعد ذلك النَّضِيرة على أبيها وهي في ثياب النوم، فحين رآها لم يتمالك أن أغرورقت عيناه بالدَّمع، ثم اقترب منها وخاطبها فقال: حكم الدهر في أبيك، يا ابنة الضَّيْزن، فخرجت الحَضْر من يده وزال ملكها، وأنا بين رزءين لا أدري أيّهما أعظم. مصابي بالحَضْر، أم فكرتي فيك وفيما تلقين بعدي من حوادث الأيام، على أنني أوصيك بالصبر، فهو العُدَّة في الشدَّة، وبالعفاف، فهو ملك بنات الملوك إذا ذهب عنهن الملك.

قال هذا وتأمل الفتاة فإذا هي كالصخرة الصمَّاء، لم تحركها تلك الكلم، ولا شجاها ذلك الدمع المنسجم، فقال: ما بال النَّضِيرة جامدة العينين ساكنة الوجدان، ألا تبكين الحَضْر وعهدها. . . ألا تندبين عزّاً ذهب، وعيشاً انقضى، وملكاً زال؟. . .

قالت : وما يجدي البكاء يا أبتاه، ولسنا أوَّل بيت هدمه الدهر وكان رفيعاً، ولا أوَّل نعيم حلَّ الدهر نظامه، فلا تعلِّمني الصبر

بالقول، وعلّمني الصبر بالعمل.

وكانت أسماء وهند حاضرتين هذا المجلس، تنظران وتسمعان، فالتفتت الأولى إلى الأميرة وقالت: ليس هذا اللباس، يا مولاتي، لباسَ الساعة القريبة، والعاقبة المريبة، فاذهبي فالبسي ثياب عزِّك وحشمتك، لكيلا يفاجئنا سابور وجنوده وأنت في ثياب النوم.

قال الضيزن : نعم الرأي، يا أسماء، فخذب مولاتك فألبسيها أفخر ثياب، وبالغي لها في التسلية والوصيَّة بالصبر.

فخرجت الفتاتان، وانتظر الضَّيزن ريثما ابتعدتا وخلت الحجرة له ولهند، ثم أقبل على هذه الجارية يقول بصوت منخفض: هند! هند! تعالي اسمعي: إنني منذ آويتك لم أتمثَّلك إلّا الوفاء المجسَّم، والأمانة المصوَّرة، فهل تفين لي بوقت خانني الدهر، وهل أئتمنك على سرٍّ لم أستودعه أحداً قبلك؟

قالت : أنا في خدمتك، يا مولاي، ولو أمرتني أن أرمي بنفسي من هذه النافذة في النهر لما تردَّدت لحظة.

قال : إذن فاتبعيني..

ثم مشى والفتاة على أثره، وهو يتنقَّل من حجرة إلى حجرة في مقاصيره، حتى بلغ عَتبة فعالجها حتى رفعها، ثم التفت إلى الجارية وقال: هذا، يا هند، قبر ملوك الحَضْر يدخلونه أحياء إذا خافوا الوقوع في قبضة الأعداء، ولا يعلم سرّه إلا أنا؛ أخذته عن أبي. كما أخذه هو عن أبيه، وأنا نازل إليه الآن، حيث خزائن الحَضْر ولا تتصوَّرين ما هي، وحيث جميع ما يحتاج إليه المرء من ضرورات الحياة معد حاضر؛ فاكتمي السرَّ، وإذا ضاق بك العيش أو تهدَّدك خطر فاحتالي حتى تنزلي إليَّ من هذا السلَّم؛ والآن أطلب منك أن تذيعي في القصر أنني دخلت في شبه جُنون، ثم ألقيت بنفسي من بعض النوافذ في النهر.

قالت : لا يكون إلا ما أمرت يا مولاي، فانزل بسلام، وإني لأرجو أن تستجمنا الأيام.

فقبّلها الضَّيْزَن فوق جبينها ثم نزل، فعادت الفتاة إلى حيث كانت النضيرة وأسماء.

الفصل السابع

كان مع سابور قبل فتح الحَضْر وبعده أصغر إخوته الأمير أزدشير، وكان أجمل شبَّان أهل زمانه، لا يذكر حسن سابور في جَنب حسنه؛ وكـان أكثر من أخيه الملك بشاشة، وأقدر على جذب القلوب بحلاوة الحـديث والتلطُّف في الخطاب، يحبُّه أخوه كثيراً ويعتمـد عليه في المهمَّـات، ويستصحبه معـه في فتوحاتـه، فلما مَلَك الحَضْـر ووجدهـا تليق لأزدشير عمـلاً وتصلح له، ولأنـه صمَّم في خاصة نفسه على أن يترك له ملكها، ويسـامحه في خـراجها فِعْـلاً، أخذ الملك يرشِّح أخاه الأصغر لهذا الأمر العظيم؛ فاشترك معه بادىء بدء في إنشاء حكومة للحَضْر. تكفل لها البقاء الطويل في قبضة ملوك الفـرس وتحت رعايتهم، ثم أشركه معه مدة في تدبير هذه الحكومة الجديدة، يـرجع في كـل إلى رأيه ولا يستبدُّ بأمر من دونه.

وكان الأمير فتًى عاقلاً حكيماً، وحاكماً عادلاً رحيماً، فكانت دولتـه في الحَضْر بالاشتراك مع الملك دولة تَسَمُّح وفضل، وأيامه فيها أيام رخاء ويسر، حتى استمال إليه الأنفس واستهوى إلى ولائه الأفئدة.

وكـانت النَّضِيرة قـد ملكت فؤاد سابـور بحيث لم يبق فيه مـوضع لغيـر هواها، فقدَّمها على سائر زوجاته، وفيهنَّ أخته لأمِّه وأبيه؛ وألقى إليها مقـاليد الأمور في القصر، فقربت ناسها من حضرتـه، وقدمتهم في خـدمته، فجعلت

لأسماء الكلمة النافذة بعدها في نساء المملكة، تَنهَى فيهن وتأمر؛ وحكَّمت أبا سعد كذلك في الرجال، الرأي فيهم ما رأى، والقول فيهم ما قال.

* * *

مضى على الحَضْر شهران أو ثلاثة والحال فيها على هذا المنوال، لم يقع ما يخلّ بالأمن أو يكدِّر الصفو، إلاَّ أمران صغيران تَعِب الملك والحاشية بهما كثيراً، ولم ينفع فيهما حول ولا حيلة: أمر ذلك الهاتف بعينه، فقد استمرَّ ينشد سابور في الأسحار، بيتيه في الإيعاد والإنذار، كفعله مع الضَّيْزن قبيل ضياع الديار؛ وأمر ابن بكر، فقد علمت الحكومة الجديدة أنه جُرح في المعركة الأخيرة ولم يقتل، وكانت تُشفق من بقائه حيّاً مختفياً في بعض نواحي الحَضْر، لاعتقادها أن العرب يحبُّونه ملء قلوبهم، ويخشى إن هو خرج يوماً إليهم أن يجمع أمرهم ثم يخرج بهم على الحكومة فيحدث لها مشاكل وقلاقل.

وكان الملك كلَّما أغضبه العجز والإعياء في خَطب الهاتف وأمر ابن بكر، كلَّم أخاه الصغير في ذلك فلا يجده إلا باشّاً هادئاً موفور السكينة، يقول له: أما الهاتف يا مولاي فعِظة مستمرَّة لا بأس بها، ونذير دائم لا ضرر منه، وأحوج ما يكون الملوك إلى المزعجات والمبكيات في إدبار المُلْك، كما كانت حال الهاتف مع الضَّيْزَن. وفي إقبال الدولة، كما هي حاله اليوم معنا؛ وأما ابن بكر فلا خوف على الحَضْر منه، ما دمنا على سُنن العدل فيها نملك الرقاب والقلوب معاً، لأن الإنسان أبعد الحيوان عن الثورة، لا يأتيها إلا إذا بلغ ظلم الحكام له إلى منتهاه.

فكان الجواب المحكم يخرج سابور من غضبه، ولا يزيده إلاَّ تعلُّقاً بأخيه ومبالغة في قيمته، إلاَّ أن صبر الملك عِيلَ أخيراً لهذين الأمرين الهامّين، والحادثين الشاغلين؛ وكانت النَّضِيرة أعظم منه اهتماماً وأشدَّ قلقاً واضطراباً، وكانت تكثر من حضّه وتبالغ في تحريضه، وتعيِّره أنه لا يليق به وهو القاهر فوق ملوك الزمان أن يخرج من يده أمران صغيران؛ فلم يكن منه

إلا أن عقد مجلساً حافلاً بكُبراء الدولة وأهل الرأي في المملكة، ثم استدعى أزدشير وخاطبه على أسماع الملأ فقال: اعلم يا أعزَّ الإخوة أن لي في ممالكي الكثيرة وتدبير أمرها الواسع ما يدعوني إلى الخروج من الحَضْر، وقد هيَّأتها لك ملكاً لا أسألك عليه جزية؛ وأنت تعرف ما الحَضْر؛ عروس الممالك وجنَّة الأرض، إلا أنني أشترط لإنجاز وعدي أن تريني دليلاً على حسن تدبيرك، وتشهدني آية جديدة من آيات دهائك، وليس ذاك الدليل ولا هذه الآية إلا أن تكشف لي السرَّ في أمر الهاتف وابن بكر؛ وإني مُمهلك سبعة أيام كاملة، فإن فعلت تركت لك الحَضْر وخرجت إلى العاصمة الفارسية، وإلا بَرِئْتُ منك وغادرتك تهيم في ممالكي كبعض السوقة.

فأطرق أزدشير هنيهة ثم رفع رأسه وقال: أمر الملك ممتثل على كل حال.

فلما انفض المجلس كان أبو سعد أول من اجتمع بالأمير، وأظهر له الاهتمام بأمره والاستعداد لإمداده بالرأي ومشاركته في التدبير، بعدما سمع الملك وقد وعده ملك الحَضْر، وهو مع كل من ملك الحَضْر، ولو أنه الضَّيْزن منبعثاً من مدفنه، أو ابن بكر خارجاً من مكمنه!

ولم يلبث هذا الخبر أن ملأ المدينة وصار حديث الناس في غدوُّهم ورواحهم. وإمسائهم وإصباحهم.

فنحن نترك أهل الحَضْر في قيلهم وقالهم، وندع الأمير وأبا سعد في عملهما وتدبيرهما، ونخوض في حديث آخر من أحاديث الرواية.

الفصل الثامن

كان في بعض ضواحي الحَضْر ناحية يقال لها: ناحية الجان، اشتهرت بذلك حديثاً وعرفت به في زمن الحصار. هجرها أكثر السكان، وانقطع عنها المارَّة، وأصبحت يُشفق من انتيابها الرجال، ويرعب من ذكرها النساء والأطفال؛ وسبب ذلك أن الأهالي كانوا إذا جنَّهم الليل فرقدوا، دخل عليهم المساكن شبح لم يألفوه من قبل، في زيّ لم يعتادوا رؤية مثله، فمن تركه منهم وشأنه تركه هو أيضاً وشأنه، ثم فتَّش البيت عن الطعام والشراب فلم يأخذ منهما إلاَّ كفايته، ومن تعرَّض له أو نَفر في وجهه شدَّ وثاقه، بحيث يعيا بفكّه أشدّاء الرجال، ثم يقلب المسكن عن الزاد والماء فلا يأخذ منهما إلا القليل.

فلما تعدَّدت هذه الوقائع في الناحية ولم يبق منزل عليها إلا سطا عليه المارد وفعل فيه ما وصفنا، هجر أكثر الناس مساكنهم ولم يبق إلا القليل من المسالمين الذين يتآلفون حتى الشياطين، وقد تخلَّصوا من الشرِّ بحيلة سهلة معقولة، ذلك أنهم تداعوا وتراعوا فاتَّفقوا فيما بينهم على التناوب في تقديم الضريبة إلى هذا الضيف الثقيل، فاختصَّ كل واحد منهم بعشاء ليلة يجعله على الباب، فيمرّ المارد فيأخذه، وحيث وجده عدل عن الزيارة.

وكان في أقصى هذه الناحية رجل اعتاد الأهالي أن يمرُّوا به فوق

طريقهم وهو متربع منكفىء في جلسته، متلفِّف في عباءته، متلثِّم من شعر رأسه إلى شعر لحيته، وهو يتكهَّن ويكشف عن خطوط الرمل حالاً، ويُجيب كل سائل على مسألته؛ وكان أول من أنذر سكان الناحية جوار المارد وحذَّرهم مناوأته والتعرُّض له بأذى، وكان لا يأخذ على أجوبته أجراً، ولا يخالط أحداً ولا يعرف القوم من حاله سوى أنه منجِّم يظهر في الصباح إذا بدا، ويختفي في الظلام إذا جنَّ...

وما لبث أمر هذا الرجل أن اشتهر بين الناس، وعلم به الخاصّ والعامّ من أهل الحَضْر، فبينما هو ذات يوم في مقعده فوق الطريق، إذ وقف به رجلان، أحدهما كهل جمع في هيئته بين دلائل الظرف وآثار الوقار، والآخر شاب له من سِيما النعيم، في الوجه الوسيم. ما يدل على أنه من لُبَاب الخواصّ، وإن ظهر هو وصاحبه في زي عامة الحَضْر، فابتدر الأكبر خطابه فقال: لنا غريم أيها الرجل ننشده من زمن ولا نجده، فهل تنبئنا أين هو؟ وكيف السبيل إليه.

فجعل المنجّم ينظر في الأرض ويكتب على الرمل، ثم يقرأ في ضميره ما يكتب، وهو يخالس الرجلين في هذه الأثناء النظر، ثم أجاب: ليس الغريم الذي تنشدانه واحداً، يا سيدي، بل هما غريمان اثنان.

فالتفت أبو سعد إلى الأمير أزدشّير مندهشاً من كلام المنجم، فما وجده إلا أعظم منه اندهاشاً، ثم استمرَّ فسأله: وأين هما الآن؟ وبأي بلاد أيها المنجم؟

المنجم : في بلد واحد وتحت سقف واحد، يا سيدي؟

أبو سعد : أفي الحَضْر هما أم برحاها إلى غيرها من البلدان؟

المنجم : في الحَضْر لم يزايلاها ساعة زمان.

أبو سعد : وفي أي ناحية من الحَضْر يختبئان؟

المنجم : نحن إنما نجمل ولا نفصِّل، يا سيدي. ولنا في العِلم مبالغ لا يكون الإنباء إلا بقدرها.

الأمير : لكن يمكن لك أيها الرجل أن تصفهما لنا ولو وصفاً سطحيّاً؟

المنجم : الرجلان، يا سيدي، فارسان شديدا البأس، وبطلان صعبا المراس، وكأني أراهما يصارعان أبطال هذا البلد فيصرعانهم ولا يصرعهما منهم أحد.

فمُلِيء أبو سعد رعباً من هذا التنبُّؤ وسأل المنجم: وهل يتهدّد حياتهما شيء في زمن قريب؟

المنجم : لا، يا سيدي، بل لهما السعادة المستقبلة والهناء العاجل الطويل، إلّا أن حياة أحدهما مرهونة بحياتك أنت، وهو غادٍ على خطر قَتْل، إن نجا منه فأنت ناج كذلك، وإذا قُتل هلكت بعده بيوم أو بعض يوم.

فما سمع أبو سعد هذا الكلام حتى لمس بطنه من شدة الخوف، والتفت إلى الأمير فوجده ضاحكاً يتبسَّم، فهمس في أذنه بأن قال: فيمَ التبسُّم، يا مولاي، وأنا ذا مهدَّد بالقتل منذ الآن، وأنت مهدَّدبعد أيام بالنفي والحرمان؟

ثم أقبل على المنجم، مكتئباً، جزعاً فسأله: وهل نلتقي بغريمنا في هذه الأيام القريبة أيها المنجم؟

المنجم : لا أملك جواب هذا السؤال، لأن الغِطاء لم يكشف لي أكثر مما بيَّنت، وهكذا نحن في عِلمنا هذا درجات، ولكنَّ على طريق الذئب طاحوناً موحشاً خرباً، يتردَّد إليه كل ليلة شيخي في التنجيم، وأستاذي في التعليم، حيث يأخذ عن الأرواح الساريه، ويستمدُّ من الشياطين المؤاخية، فإن كان

أمر الرجلين يهمك كثيراً فاقصده لعلك تنتفع بعلومه.

إنتهت بهذا الجواب الشافي مقابلة أبي سعد والأمير للمنجم، فتركاه وانطلق آيبين إلى القصر، وقد عقدا العزم من جهة على كتمان أمرهما، ومن جهة أخرى على الخروج بالليل إلى طريق الذئب للاجتماع عليه بالمنجم الأكبر في الطاحون!

وفي الواقع لم يمض جزء من الليل حتى خرج أبو سعد وأزدشير إلى طريق الذئب، وقد أخذا للطوارىء الأهبة، وحملا ما يحتاجان إليه من السلاح، فبلغا ذلك الطريق الموحش المخوف، وهناك أخذا يفتشان في الظلام الحالك عن مكان الطاحون، حتى عثرا عليه، فتأمَّله أبو سعد فطار لبُّه وانهلع فؤاده من الخوف، فلم يزل صاحبه به ملحّاً ومشّجعاً ومتوسِّلاً ومتشفِّعاً حتى أذعن، فدخل الأمير وأبو سعد على أثره، لا يدري من شدة الاضطراب كيف ينقل القدم، ولا أين يضعها، وهناك قلب الأمير بصدره الحديد في جنبات الطاحون المدلهمَّة، فلم ير على المكان من ينبس أو يتنفَّس، فقال لأبي سعد: إن الرجل لم يحضر بعد، ولا بد لنا من انتظاره حتى يجيء.

قال : رحماك، يا مولاي! الموت ولا الانتظار هنيهة على هذا المكان، بين الظلم الداجية، والأرواح السارية، والشياطين المؤاخية، والذئاب العاوية.

قال : أما الانتظار فلا بدَّ منه، وأما جلوسنا فيقضي الحزم أن يكون فوق هذا البنيان المرتفع عند هذه الزاوية، فهو موضع استعصام وامتناع، واستعداد عند الحاجة للدفاع.

قال ذلك، وصعد إلى حيث أشار، ثم مدَّ إلى أبي سعد يده فرفعه إليه، وجلس الصاحبان ينتظران مجيء المنجم، وما ينتظر أبو سعد في نفسه الجائشة إلا الموت الأحمر.

وبينما هما كذلك لم يشعرا إلا وقد امتلأ عليهما الطاحون من الذئاب،

جاءته من كل مكان بـإناثهـا وصغارهـا ودخلته مستـأنسة، فلمـا أحسَّت أنفاس الآدميين ووجدت ريح الإنسيين، ذعرت واستنفرت، وقذفت أحداقها بالشرر، وملأ عُواؤها الجهات، وقـد أعماهـا الذعر فلم تنظر في خـروجها، ولـم تهـد للخلاص سبيلاً.

ودهي أبو سعد فالتصق بالجـدار، يكاد ينْدُك فيه كـالمسمار، من شـدَّة الخوف والانذعار.

استمرَّ الحال كذلك حتى منتصف الليل، والوحـوش على وثبة واحـدة، ونغمـة واحـدة، حتى فقـدت القـوى فسقط بعضهـا سليب الحـراك، وهلك البعض وأشـرف على الهلاك، ثم تـلا ذلك الضجيـج وتلك الحـركـة سكـون رائع، ومشهد أهوال وفظائع، وكانت لأبي سعـد طول هـذه الساعـات كلمات يردِّدها في نفسه ولا يحرّك بها لسانه المنعقد خوفاً وذعراً: إليّ أبا حَمـالة! أين أبو حَمالة؟ من لي بأبي حَمالة؟

وأبو حَمالة هو خادم أبي سعد المعـروف عند القـارىء وكان ظـلَّ سيده الذي لا يفارقه، وطالما نفعه في الملمَّات برأيه وبأسه؛ وكان قد أسرَّ إليـه أمر خروجه في هـذه الليلة الليلاء إلى الـطاحون مـع الأمير، وأوعـز إليه أن يلحق بهما ويتبعهما من بعيد، ويسهر على حفظ حياتهما إن تهـدَّدها خـطر؛ فخرج الـرجل بعـد سيِّـده بيسيـر زمـان إلى طـريق الـذئب، فمشى عليـه يفتِّش عن الطاحون الذي وصفه له مولاه فلا يجده، إلى أن دلَّه ضجيج الذئاب المتعالي على المكـان، فجعـل يحـوم حـولـه بين الإقـدام والإحجـام، لا عن جُبن أو إشفاق، لكن لاعتقاده أن الجبن في طبـاع سيِّده فـلا يعقل أنـه يخاطـر بنفسه إلى الدخول حيث تدخل الذئاب والمبيت حيث تنام.

فبينما هو في التردُّد، فاجأه رجلان ملثَّمان مدججان بالسلاح، كأنهمـا شيطانان طـردا من السماء، أو مـاردان يهيمان في الظلماء، فـاستوقفـاه، ثم سأله أحدهما: من الرجل وإلى أين؟

أبو حمالة : إن كنتما أيها الرجلان من رعيِّة الملك الذين يرجون له وقاراً فأنا أحد الخدم في قصره، ولا يليق أن يوقف لخدَّام الملك في طريقهم؛ وإن كنتما لصَّين شرّيرن فإني أنا أبو حَمالة، شجاع الحَضر وبطلها المقدام.

الرجل : متى علم الغدر والخيانة على الأبطال يا أبا حَمالة؟ أنت خائن الوطن غادر بحاميه: طعنت بطلاً من أبطاله وهو على قدم الإخلاص للحَضْر في السرِّ والجهد، طعنته في ظهره وهو واقف لجيوش العدو في طريقها بصدره، طعنته كما يطعن أصغر اللصوص الأدنياء أكبر قواد الجيوش وهو في أسر المنام، ورقّ الأحلام، يضاجعه الرمح والحسام، فما لك عندي، يا أبا حمالة، غير هذه الطعنة في صدرك، فخذها من يد يطعن الخنجر بها فلا يخطىء، لا كَيَدِك التي تطعن بالخنجر فيها أمضى وأشدَّ من مدية جزَّار اليهود.

فسقط لا حراك به ولا روح فيه، ثم التفت إلى صاحبه وقال: الآن هوى ركن من أقوى أركان الخيانة، وعمَّا قريب يهوي ركن أقوى وأشدُّ.

ثم قصد الرجلان الطاحون وفي يد أحدهما مصباحه، فالتقيا على مدخله بالأمير وأبي سعد خارجين بعدما كان لهما وللذئاب شأن، وقد عِيل صبرهما لإبطاء المنجم ويئسا من لقائه، فما راعهما إلا هذان المفاجئان وقد خاطب أحدهما الأمير فقال: مكانك، يا مولاي، فأنت منذ الساعة أسير الرعاية والكرامة، لا يفكّ أحد إلا بإذننا ولو أنه أخو الملك.

الأمير [مندهشاً مغضباً]: أنا أزدشير أخو الملك سابور، يأسرني لصَّان شقيَّان! إنك لمجنون أيها الرجل.

الرجل : إليك أيها الأمير، فما نحن لصَّان شقيَّان، بل نحن بطلان شريفان، وسيِّدان، من سَرَاة لحَضْر، وإنما نحن مسوقان إلى

هذا الموقف، وقديماً ألجأت الضَّرورات الكرام.

الأمير : وما تبتغيان من أسري؟

الرجل : لنا في هذا مآرب، يا مولاي، بعدما يكون هذا الخائن تحت الأرض يحمله بطنها كرهاً كما طالما حمله ظهرها كرهاً!

الأمير : تقتلان رفيقي ثم تأسراني؟ ما هذا الكلام أيها الرجل؟ .. أجهلت أن ورائي مَلِك ملوك الأرض؟ وهو أخي الذي شرفي شرفه وثاراتي ثاراته.

الرجل : كل هذا معلوم، يا مولاي، إلا أن أسْرك وقتل هذا الخائن أمران لا بد منهما اليوم، ثم يكون غداً ما يكون.

الأمير : وكيف يقتل رفيقي بين عيني ولا أذود عنه؟ أنا لا أزل مطمئنَّ اليد بالسلاح ولي بأس وفيّ إباء.

الرجل : لا تضحِّ حياتك الغالية، يا مولاي، من أجل هذا الخائن الغادر الذي لو رآكم في الشدَّة لما وجدتموه إلا مع عدوكم عليكم؛ واعلم يا مولاي، من جهة أن الصعلوك لا يرافق الملوك، ومن جهة ثانية أنك بين يدي بطلين لا طاقة لمائة من أبطال أخيك بأحدهما، والحياة أهون ما نبذل في الانتقام من هذا الجبان الخائن.

الأمير : ومن تكونان في الأبطال أيها الرجل؟

الرجل : أما أنا أيها الأمير فالهاتف.

الأمير : في نهاية الدهش ـ الهاتف؟ أنت الهاتف؟

الرجل : نعم يا مولاي، وأنا أيضاً ممزِّق القلادة الذي يعرفه أبو سعد ويحسب أنه مات وفات.

أبو سعد [بصوت منخفض يقطعه الدهش والذعر]: الحارس؟

الرجل : نعم، الحارس الذي طعنه خادمك في ظهره، وهو ما خُلق إلا ليطعن في صدره!

أبو سعد : وستكون الثانية هي القاضية إذا أنت قَتلت مولاي.

الرجل [مستضحكاً]: لقد سبقك إلى عذاب النار، وها هو على خطوات منك مضرَّجاً بدمائه النجسة.

ثم رجع خطوة إلى الوراء والتفت إلى رفيقه فقال: دَنِّس خِنجرك لأول مرة، يا ابن بكر، بدم هذا الخائن.

فما كاد يستتمُّ حتى جمع ابن بكر في طعنة واحدة بين صدر الوزير وظهره وهو يقول: اذهب فداء للحَضْر وصَغُر الفِدَى.

ثم التفت الحارس إلى الأمير وقال: عرفت، يا مولاي، أن صاحبي هذا هو ابن بكر، قائد جيوش الحَضْر قبل الحصار وفي أيامه، وقد كان لنا أعداء أربعة: قُتل منهم الآن اثنان، وبقي اثنان آخران هما أشدُّ عداوة، ولكن خناجر الرجال لم تخلق لما بين النُّهود، يا مولاي.

الأمير : ومن تعني أيها الحارس؟

الحارس : أعني النَّضِيرة وأسماء، وقد وكَّلنا الانتقام منهما للسماء، والآن أنت، يا مولاي، حرّ آمن من الأسر إن أقسمت برأس أخيك الملك أن تأتي بهند إلى هذا المكان في الليلة الآتية، لا يراكما أحد، ولا يعلم بأمركما إنسان، فتدفعها إلينا ثم تنصرف بأمان.

فاستغرب أزدشير الأمر، وسأل الحارس: وما علاقتكما بهند؟

قلت : إن ابن بكر، يا مولاي، يحبها، وقد كان فُؤادَه قبل مصيبة الحَضْر يجمع بين هواها وهوى النَّضِيرة، ولكنه كان إلى هذه الأخيرة أميل، فلما خانت ديارها وغدرت قومها وعقّت

أبـاها، لم يبق في قلبـه لها إلاَّ الحِقـد، وامتلأ حبّاً ووجداً على هند.

فلمـا سمع الأميـر عبارة الحـارس وقع في أعـظم حيرة، وأطـرق هنيهة يفكر، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن بكر فقال: اعلم أيها البطل أني أنا أيضـاً أُحبُّ هنداً، وأنها مضطهدة من أجلي، يضطهدها عدوّ في القصر قادر، وضِدّ لها فيه غالب قاهر.

فقاطع ابن بكر مغضباً فقـال: ومن يا تـرى يضطهـدها، وهي الحـافظة الود، الكريمة العهد، الضعيفة الركن في قصر الدسائس والخبائث؟

قال أزدشير : هذا، يا ابن بكر، سِرِّي الذي لا يذاع ولا يعنيـك في شيء، وإنمـا الذي يهمـك من الأمر هـو أنني أَرِقُّ لحالـك، وأذكر مصائب صبَّتها عليك الأيام، فأَنزع حبّ هنـد من فؤادي بيد المروءة، بعدما أشرح لهـا الحال؛ وأتـرك لها الخيـار، فإن فضلتني عليـك رجعت إليكمـا في مســاء الغـد، وأسلمت نفسي إليكما تفعلان بي ما شئتما، وإن آثرتك عليّ بفؤادها فإني لا أفعل ما أشرتما به، ولكن أجمـع بينك وبينهـا على أسماع الحَضْر وأبصـارها. وجملة القـول فإني أقسم بمجـد آبائي وأجدادي أن أفعل ما قلت، فهـل تُقسمان أنتمـا أيضاً بأن تكونا على الولاء للحكومة القائمة في الحضر؟

قال ابن بكر والحارس بلسان واحد: نُقسم، ولا نستثني إلاَّ النَّضيرة.

قال : إذن فإني آمركما منذ الآن بصفتي صاحب هـذه الحكومـة أن تتقـدَّمـا إلى أخي الملك في صبيحـة اليـوم الثــالث من اجتمـاعنا هـذا. ولكما علي العهـود والمواثيق ألا تسقط من رأس أحـدكما شعـرة قبـل أن يسقط رأسي هـذا عن سـائـر البدن.

قال ابن بكر : كذلك أنا، يا مولاي، تركت لهند الخيار في أمرها، لأن قلب المرأة كالسعادة، قد تؤخذ عفواً ولكن لا تؤخذ عنوة.

قال : إذن فلا بدَّ من قدومكما على الملك على كل حال في الموعد الذي ضربته، والآن أودّعكما وأنطلق آيباً إلى القصر.

قالا : بل نسير في ركابك، يا مولاي، فلا نفترق إلا في قلب المدينة.

ثم مشى الأمير والرجلان بجانبيه حتى بلغوا مواطن الأمن من الحَضْر، وهناك أذن لهما في الرجوع، فرجعا إلى مخبأهما في ضواحي الحَضْر، واستمرَّ هو في المسير حتى دخل القصر..

الفصل التاسع

النساء أشدُّ عشقاً من الرجال، إلّا أن عشقهنَّ لا يدوم ولا يطول. .

أحبَّت النَّضِيرة سابور على أثر نظرة نظرتها إليه من مكان عالٍ ومن بعيد، فخرجت من بِرّها وعفافها، وأسلمت ملكها وديارها إلى العدوّ، حتى إذا بلغت الأمل وفازت من كسرى بأنها صارت له وصار لها، هدأت اللوحة وكانت لا تهدأ، وتراخى القلب في الهوى وجاءه السلوان من كل مكان.

أما سابور فأول ما كان الحبُّ عنده مجانة ومجاراة، وفي مصلحته الخاصّة ومصلحة الفرس العامّة، إلا أنه اجتمع بالنًّضيرة بعد تلك النظرة فكانت منه إلى جمالها الفاتن نظرات أوقعن القلب في أوائل الحب، حتى إذا فاز بقربها وخلصت إليه وخلص إليها جدّ الهوى بعدما كان هازلاً، وصار شغلاً شاغلاً، فلم يكن الملك يصبر عن النًّضيرة ساعة زمن أو يعد من عمره يوماً مرَّ به ولم يرها فيه.

إلّا أن الملكة لم تقف في معاملة الملك عند حدّ السلوان، ولم تلزم الموقف الطبيعي في الزواج، وهو الألفة والاحترام، بل انتدب فؤادها القلب للغرام مرة ثانية؛ فأحبَّت في الأيام الأول من سقوط الحَضْر من هو من سابور وسابور منه، وإن كان يقلّ في كل شيء إلّا الملك عنه، أعني أخا الملك الأمير أزدشير.

كـان الأمير حلو الشمـائل، يـوسُفيّ الجمال، كـريم الخـلال، شـريف الخصال، يعاف الدنايا ويجتنب الصغائر؛ وكان فـوق ذلك على ذكـاء عظيم، فـانكشفت له سـريرة النَّضِيـرة لأول وهلة، وعرف دبيب الحبّ من لحـظاتها، فهاله الأمر، وكره أن يسكن هـذا القلب الذي لا عمـاد له من العفـة والوفـاء، فمثله كـالأساس الفـاسد، كلَّمـا بني عليه سقط البنيـان من نفسه. وعـاف من جهة أخرى أن يبني له هوًى فيه على أنقاض هوى أخيه، وهو العاشق الوفي، والزوج الصالح؛ فكان كلما زادته إشارة وتلميحاً زادها تغاضياً وتجاهـلاً، وهو يبالغ مع ذلك لها في المُداراة من أجل هند، وإشفاقاً عليهـا أن يدفـع الحسد والغيرة بالنَّضيرة إلى الكيد لها، وهي قادرة على كل كيد عظيم. أُعجب الأمير من أول يوم بأدب هند وكمالها اللذين يزيـدانها في حسنهـا وجمالهـا، فأقبـل عليها وأظهر لها العطف، وخبـر نفسها وامتحن قلبهـا، فوجـدها على سكـون وتُؤَدة، لا تخرج من حشمتها، ولا يزايلها وقار، ولا تقصِّر في أدب ولا واجب ممَّـا تدعـوها إليـه وظيفتها في القصـر، وبالجملة وجـد الفتاة قـد جمعت بين الخَلق الـوسيم والـخلُق العظيم.

أما النَّضِيرة ففطنت للأمـر في أوَّله، وكـاشفت به أسمـاء، وقد بلغ بهـا الغيظ وأخـذ منها الحقد، فشـدَّدت على الفتاة المـراقبـة، ووكلت بهـا أسمـاء تحرجها وتضايقها، وتحول بينها وبين أزدشيـر ما أمكن لهـا أن تَحُول، ثم مـا زال الغرام بالملكة حتى بلغ حدّاً يتـاخم الجنون، ولم يعـد قلبها يقـوى على الكتمان، فصمَّمت على التصريح للأمير بالشكوى ممَّا تقاس في حبّه وتـذوق من إعراضه، لعلَّهـا تؤثِّر عليـه بالسِّحـرين: لحظهـا ولفظهـا، وتستدرجـه إلى الوقوع في غرامها.

فبينما هو ذات ليلة في مقاصيره الخـاصّة من قصـر أخيه الملك يستعـدّ للنوم، إذ انفتح الباب، فالتفت فنظر عنده النَّضيرة في أجمل وأفخر ما تـرتدي من ثياب النوم، وهي تتبسَّم قـائلة: أيأذن لي الأميـرَ إن دخلت حُجرتـه للسمر برهة؟

فاندهش أزدشير وحار في أمره، وأجاب بعد تردد: أَعْـظِمْ به من شـرف أيتها الملكة لو أن هذا وقته!

فدخلت النَّضِيرة في سكون وتؤدة تبسم وتقول: ولم لا يكـون هذا وقت الأنس بحديثك، يا أزدشير؟

الأمير مضطرباً : وأين الملك الساعة أيتها الملكة؟

النضيرة : في مضـاجـع زوجتـه الثـانية، وقـد أرَّقتني الـوحـدة فجئت لأسامرك قليلاً، على أنه ليس هناك مُوجب لهـذا السؤال ولا بـاعث على هذا الاضـطراب؛ إذ ثقة الملك بي وبـك عنـد غايتها، فلو رآنـا متعانقين على فـراش واحد لمـا اتَّهمنا في جهره ولا سرِّه!

الأمير : لكل شيء حَدٌّ أيتها الملكة، ولا أظن هذه الثقة العميـاء في طبـاع الملك، فهو أعـزُّ نفساً وأشـدُّ غيرة وأعـظم إبـاء ممـا تصفين.

فساء النَّضِيرة هـذا الجواب الـذي يبشر بـالخيبة، وقـالت: وكيف يقف الملك في الثقة بنا عند حدّ، وهو يعتقد أنني لـك بمثابـة الأخت، وأنك مني بمنزل الأخ.

ثم تبسَّمت وأردفت بأن قالت: وإن كـانت الديـانة الفـارسية، التي هي أيضاً ديانتي الجديدة، تبيح زواج الأخ بأخته والأخت بأخيها!

فنفد صبر الأمير لهـذه الإشارات وقال: أليس للحديث عندنا مجرى غير هذا أيتها الملكة؟

فكادت النَّضِيرة تهلك غمّاً من هذه المعـاملة؛ إلا أنها تجلدت وحملت على النفس الضَّيم، ونظرت في باب آخـر من أبواب الحِيـل تطرقـه مع هـذا العشيق الجافي؛ وكانت قد استقبلت في جلوسها النـوافذ المـطلَّة على النهر،

فتكلّفت التنهُّد ثم قالت: مسكين أبي! من إحدى هذه النوافذ ألقى بنفسه في اليمّ!

الأمير : حسناً فعل؛ إذ الحياة بعد هذا المُلْك الواسع وهذا العزّ المُمَنَّع، ضيعة وهون لا تصبر عليهما النفس الأبية العالية.

فسُرَّت النَّضِيرة في نفسها بهذا الجواب، وأيقنت أن للأمير الشاب نفساً طامعة إلى المعالي طامحة، يؤخذ منها بقوة الآمال ما لا يؤخذ بحول الجمال، فأقبلت عليه تقول: أراك تستعظم ملك الحَضر أيها الأمير!

أزدشير : وهو حقيقة كبير أيتها الملكة.

النضيرة : فكيف إذا ضُمت إليه الممالك الصغيرة مما حوله من عرب ويَمن؟ ثم كيف بهذا الملك الواسع إذا ألحق بممالك فارس وهي كما هي الآن كثرة وعظمة تحت راية سابور؟

أزدشير : هذا هو ملك الأرض، يا مولاتي.

النضيرة : فكيف بعد ذلك إذا اجتمع لإنسان ملك الأرض في الصِّبا الغَضّ؟ ألا يكون أسعد الأوائل وأنعم الأواخر؟

أزدشير : وأنا من ذكرت، يا مولاتي:

النضيرة : كيف ومتى ملكت فارس، والحَضْر وما يليها، وأنت فيما أعلم لم ترشح إلا للولاية على الحَضْر، وهي وديعة لا تأمنها أن تخرج من يديك؟

أزدشير : أليس أخي ملك الملوك، الذي مظهره مظهري ونسبه نسبي وميلاده ميلادي؟ فأي شيء يفوتني من مُلك الأرض، اللهمَّ إلا عناء الأمر وتعب السياسة!

فاندهشتْ النَّضيرة من هذا الجواب وأيقنت أنها إنما تحارب الفضيلة وتقاوم الأخلاق، وتزحزح نفساً كبيرة من كبرها وإبائها؛ إلا أنهْا أرادت أن

تجـري في الخداع للغـاية، فقـالت: كان اعتقـادي فيك، يا أزدشير، أنك من عظماء الرجال وكبار الأمراء، الـذين لا يفخرون بالتيجان فـوق رُؤوس الغير، ولا يعرفون من المُلْك إلا ما كان لهم خالصاً إلى نفوسهم الكبيرة، ولا أضرب لـك مثلاً النَّضِيـرة فقـد ضحَّيت أبي والحَضْـر وملكهـا لأصبـح ملكـة فـارس وملحقـاتـه وفيهـا الحَضْـر، وقــد بلغت أملي وأصبحت أنهى وآمـر على فؤاد سـابـور، أضعـاف مـا كنت أحكم في قلب الضَّيـزن، وأين الأخ من الأب يـا أزدشير؟ فإنك لا تأمن سابور في وقت من أوقـات غضبه أن يُـطير هـامتك عن رأسك بحدّ سيفـه؛ أما الضَّيْـزن فعَهِدْتـه لو رآني والخنجر في يدي وأنا أقترب من فراشه لأطعنه لما توهَّمني فاعلة، ولا تحرَّك من مكانه يقاوم القاتلة.

فما انتهت النَّضِيرة حتى غلب الغضب أزدشير على حلمه، فالتفت إلى النَّضِيرة وقال: إني لا أفهم ما تقولين أيتهـا الملكة، ولا أجـد محلاًّ لكـل هذه الرموز والإشارات . .

النضيـرة [مغضبة ثـائـرة]: لم أرمـز ولا أشـرت، وإنمـا صـرَّحت وبُحْت، وإن استزدتني قلت لك، يا أزدشير: إن شقائي أوقعني في حبّك.

أزدشير : حبّي؟ ما هذا الكلام أيتها الملكة؟ أليس للحديث آخر؟

فعلمت النَّضيـرة أن الأمير يختم الحـديث بهذه العبـارة، ويـطردهـا من حضـرته بهـذه الإشارة، فقـامت بسكون وتؤدة، ورجعت إلى الـوراء خـطوات متمهِّلة متثاقلة، تنظر إلى أزدشير نظرة استغراب واستنكار، وتـرمقه بعين مقت واحتقار، ثم قالت: أعلم، يا أزدشير، أنك جرحت اللبؤة وتـركتها، وتـحرَّشت بأفعى لا طاقـة لك بهـا، وأن التي أخرجتهـا من حجرتـك على هذه الصـورة قـادرة على أن تخرج نفسـك الأبية من إبـائها، فـإن عيّت أخـرجتهـا من هـذا الهيكل الجميل لم ترحم له شباباً ولم تحسب لجماله حساباً.

ثم التفت عَرَضاً وهي منصرفة، فـوقع نـظرها على شيء هـالها وفـزَّعها وأنساها ذكر ما هي فيه من موقف حـرج، فصرخت قـائلة: ويلاه! مـاذا أرى؟

خيال أبي عند هذا الباب يرى ويسمع!

فاندهش أزدشير من هذه الحركة الفجائية وهذا الكلام الغريب، فوجَّه البصر وجهة الزاوية فلم ير شيئاً، وكان الباب قد أغلق بعدما انفتح وتوارى خلفه ذلك الشبح، فقال للنَّضيرة: ليس ما رأيت أيتها الملكة إلا روح الضَّيْزن الطاهرة هائمة في الوجود تشهد عليك في الدنيا وفي الآخرة.

قالت : لا ضرر ولا ضِرار، إن هذا إلا خيال سارٍ، وسيلحق به كل غِرٍّ أحمق يهين النَّضيرة.

ثم خرجت من الحجرة تدبُّ وتنفث كالأفعى الثائرة القائمة على ذنب، وتركت أزدشير مطمئنَّ النفس ناعم البال مستريح الضمير، فاستعاذ من شيطان المرأة ثم نام.

مضت على هذه الحادثة أيام، والأمير لا يلقي لها بالاً، والنَّضِيرة تتظاهر بنسيانها وتبالغ في حفظ الظواهر بكتمانها، إلى أن حدث ذات ليلة، وهي الليلة التي هلك فيها أبو سعد وخادمه، وجرى بين الأمير وبين بطلي الحَضْر ما جرى مما تقدم ذكره: أن الأميرة دعت إليها هنداً وخلت بها فقالت لها: اعلمي يا هند أن لي عيناً لا تنام، وأنني أعلم كل صغيرة وكبيرة مما يجري في هذا القصر، بل مما يقع تحت سماء الحَضْر، وقد عرفت من أوَل يوم علاقة أزدشير بك في الخفية، وأنه يجتمع بك، وكثيراً ما دخل عليك حجرتك ودعاك إلى مقاصيره الخاصة، والآن أسألك ولا خوف عليك من قول الصدق، بل الخوف عليك كل الخوف من الكذب: هل تحبِّين الأمير بقدر ما يحبُّك!

وكانت هند فتاة طاهرة القلب سليمة النيَّة، فأغضت حياء ثم رفعت الطرف وقالت: لا أحبُّه حبَّ الهوى، يا مولاتي، لكن لأنه أهل للحبّ، فهو شريف الأخلاق، كريم الطباع، عفيف اللفظة واللحظة، يحادثني فلا يخرج من حشمته، ولا يحيد عن الأدب في حديثه معي، ويتحيَّل حتى نجتمع على خلوة فلا يزداد إلا احتشاماً وعفافاً.

النضيرة : إذن فأنت لم تبلغي في الميل إليه إلى العشق؟

الجارية : لا أكتمك، يا مولاتي ،أنني أريد لأجزي الأمير من عشق بعشق، ولكن قلبي لا يطاوعني على ذلك.

فتبسَّمت النَّضِيرة ثم قالت: من النساء، يا هند، من لا تعشق إلا مرَّة، وإذا عشقت ماتت بالحسرة، وأنا أعرف من عشقت في الزمن، ومن أنت على عهده حتى الساعة.

فاعترت الفتاة هزَّة لهذا التلميح واغرورقت عيناها بالدموع ولم تنبس، ووصلت النَّضيرة الحديث فقالت: كنت تخفين هوًى لابن بكر يا هند، وكانت أسماء مثلك تكاد تموت عشقاً، وكنتما ترجوان وقاري فيه، وتعلمان أني أحبُّه وأنه يحبُّني فلا تزاحماني عليه، وكنت ألاحظ أنه أشدُّ إليك ميلاً منه إلى أسماء، بالرغم مما يتملَّك مهجته من عشقي وغرامي ؛والآن، يا هند، أكلِّفك بأمر وأرجو أن ستقومين به على قدم الطاعة.

قالت الفتاة : ماذا تأمرين، يا مولاتي؟

قالت : إذا كان قبيل وقت النوم فانتظري الأمير في حجرتك، فإن لم يدخلها عليك فادخلي أنت عليه حجرته، ثم البثي معه إلى أن تأتيك منّي إشارة بالخروج، وفي هذه الأثناء أخرجيه من عزّته وكبريائه بكل قوى الجمال، واستعملي معه نهاية سلطان النساء على الرجال، لحمله على طلب الاقتران بك من الملك ومني ؛ لأن الحَضْر تعتزُّ بكل مصاهرة من هذا القبيل، ولا إخالك تكرهين لها المزيد في العزّ؛ وهذا الذي أراه لك أراه كذلك لأسماء، فقد عقدت العزم على أن أسعى في تزويجها من الأخ الثاني للملك، وهو الآن في عاصمة فارس يحمل الأمر عن أخيه ويقوم مقامه في سياسة المملكة، فإذا تمَّ لها ذلك كذلك تحوَّل الحال وانعكس

الأمر، فتصبح فارس في قبضة الحضر بعد أن كانت الحضر في قبضتهـا، فاتبعي، يا هند، نصحي وانـظري في مصلحـة الحضر عموماً ومصلحة نفسـك خصوصـاً، ودعي عنك ابن بكـر وانسي ذكره، ولا تعـدِّيه إلا في الأمـوات ولو كـان حياً يـرزق، واعلمي أن الغرام حـال يحول، وجنـون يزول، ثم تندم الأنفس إذا ثابت العقول!

قالت الفتاة : أمرك، يا مولاتي، ممتثل، وما ترين لجواريك أفضل.

وعنـدئـذ أذنت لهـا الملكـة في الانصـراف، فـانصـرفت منقلبـة إلى حجرتها، وهناك لبثت في انتظار أزدشيـر أن يزورها بالليل كعـادته فلم يفعـل، فقصدت مقاصيره وتردَّدت إليها مراراً فلم تجده لديها، فراعها ذلك واستغربت الأمـر، لا سيما أنـه لم يكن من عـادة الأميـر أن يتغيَّب عن القصـر ويحتجب عنها معظم ساعات الليـل، فلما ملَّت الانتـظار لزمت حجـرتها آيسـة من لقاء الأمير في تلك الليلة.

وبينما هي تلبس للنوم لباسه، وتستقبل المضاجع، إذ دقَّ باب الحجـرة دقّـاً خفيفاً فابتدرت فتحه، وإذا هي بأزدشير في زي ليس بالمـألوف عنـدها، تبدو عليه دلائل التعب، وترى عليه آثار الجهد والنصَب، فرحَّبت بـه وبالغت له في الملاقـاة وسألته: ما هذه الهيئة، يا مولاي؟ وما أخَّرك عنا حتى الساعة؟

الأمير : أنسيت، يا هند، أن الملك أمرني بأمر، ورَهَن بتحقُّقه أو عدمه سعادتي أو شقائي؟

هند : لعلّك كنت في البحث عن ابن بكر والهاتف؟

الأمير : نعم، ويـا ليتني متّ قبل هـذا، فلا أراني على الحـالين إلا كالباحث عن حَتفه بِظلفه، إذا وجدت ابن بكر فقدت حبيبة القلب، وإذا لم أجـده فقدت ثقـة الملك ومحبَّتـه ورضـاه، وكلا الشيئين عندي من أنفس الأعلاق!

هند مبتسمة : ومن تعني بحبيبة القلب يا مولاي؟

أزدشير : أعني التي تتجاهل، والتي لا تجزيني عن حبّ بحبّ، حتى خفت أن أكون مشوَّه الخِلقة ولا أدري، أو غليظ القلب ولا أعلم!

الجارية : ولم لا، يا مولاي؟ وهذا جمالك يسير كالأمثال، وهذه أخلاقك تسترق لك القلوب، وأنت مَن مَلَك المُلوك بمكان تحسدك عليه الشمس في كبد السماء، فكيف تجسر جارية مثلي على التأخير عن هواك، بله جفائك وقلاك؟

أزدشير : إذن فأنت تحبينني، يا هند!

الجارية : ولِمَ لا، يا مولاي، وأنت كل يوم تأسرني بهذه الشمائل اللطيفة، ولا تزداد إلا عطفاً عليَّ وإحساناً إليَّ.

أزدشير : لكن قلبي لك وحدك، فهل قلبك لي وحدي؟

الجارية : لعلَّه كذلك، يا مولاي!

أزدشير : وأين ابن بكر، يا هند؟

الجارية : مولاي أَدْرَى مني بأنه مفقود منشود، لا يُدْرَى أفي الموتى هو أم في الأحياء؟

أزدشير : هبي أنه حيّ يُرزق، يا هند، وأن السبيل إليه مُيَسَّر، هل تخفّين للقائه؟

الجارية : لو أمكن لطِرْتُ إليه، الساعة، يا مولاي!

فكاد هذا الجواب يخرج الأمير من صوابه، فقال: ليس لمخلوق من قلبين، ولا جمع قلب بين حبيبين، بحت لي بالحب من هنيهة، فكيف لا تزالين تحفلين بابن بكر وتتحدَّثين بالطيران إليه، لو استدللت ولو بعد منتصف الليل عليه؟

الجارية : ذلك لأنك، يا مولاي مثاله، حسنك حُسْنُه وخلالك خلاله، إلا أنه حَضْري كما أنا حَضْرية، فكلانا لصاحبه أهل وبه أحق.

أزدشير : هَبِي يا هند أن ابن بكر واقف بجانبي الساعة، وأنَّا كلينا في الغرام بك سيّان، ثم عُرِض عليك كلانا أن تكوني له صاحبة، فأيَّ المحبّين تفضِّلين؟ وأي الزوجين تختارين؟

الجارية : إعلم يا مولاَي أن منزلتك في الحب عندي تعدل منزلة ابن بكر، بل ربما كنت للنفس أملك، فقد رأيت من عطفك والتفاتك وجميل مواساتك ما لم أر عشر معشاره من ابن بكر، ولكنه كما تعلم يا مولاي منكوب رماه الدهر بالأرزاء، وضاقت عليه الأرض والسماء، وأصبح لا في الموتى ولا في الأحياء، كل هذا بعدما أبلى في الدفاع عن الحَضْر أحسن بلاء، وما كان أسهل مركب الخيانة يا مولاي لو شاء ابن بكر وشاءت له نفسه الشريفة العالية، وما كان الملك يبخل عليه بالوزراة لو دلَّه على عورات الحصون في أوائل الحصار، وكفاه مشقَّة الاغتراب ومرارة الانتظار، إلا أن ابن بكر وفى للحَضْر حتى خانه الزمن، فإن كان قد مات يا مولاي فذِكره في قلب كل حَضْري كريم حيٌّ لم يمت، وإن كان لا يزال حياً يرزق فحقٌّ على كل حَضْري شريف أو حَضرية حرَّة محبته على البعد، وحفظ عهده واتباعه الكرامة حيث وجد وبأية حال كان، وحبذا، يا مولاي، لو تحقق ما فرضت من ظهوره بعد الخفاء وإظهار الحب لي، وطلبه الاقتران بي، فإن هذه تكون أثمن فرصة تهيِّئها العناية لحضرية مثلي، لكي تكافىء ذاك الذي حَمَى الأوطان حولين كاملين، ثم خرج من نَضَر الشباب ورخيّ الحال، وعزيز الآمال، صفر اليدين!

ختمت هند عبارتها واغرورقت عيناها بالدمع، فتركت الأمير بين المهابة فيها والإعجاب، وفي أعظم الحيرة لا يدري كيف يحلُّ محلَّ ابن بكر في فؤاد هذا المَلك الطاهر، إلا أنه واصل الحديث فقال: لكن هَبي ابن بكر يا هند بلغ به سوء الحال إلى منتهاه، فاندمج في سِلك قطَّاع الطرق، وبات طريد الحكومة والناس، لا يصبر على مكان واحد، ولا يجسر أحد أن يأويه، ثم خُيِّرت بين أن تكوني لي أو تصيري له، هل تفضِّيلنه عليَّ وهو على تلك الحالة؟

هند : لو رأيت ابن بكر، يا مولاي، بعيني رأسي وهو يعترض السابلة ويقطع الطرق لما صدّقت عيني، إذ عهدي به بطلاً شريفاً، وأميراً كريماً عفيفاً، يركب المنايا ولا يقرب الدنايا، ولا إخالك إلا أردت أن تقول، إن الشقاء بلغ به والبؤس أخذ منه، ونكد الدنيا صبَّ عليه، ففي هذه الحالة يكون موقع المكافأة أجمل، ويكون حقّ ابن بكر قِبَلي أكبر وأعظم، وإني لأتمثَّله كما وصفت فلا أزنه بسابور وأزدشر، وكُلّ ذي مُلْك في الأرض كبير!

فلم يكن من الأمير على أثر هذا الجواب إلا أن أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وقبَّلها فوق جبينها، ثم قال: قد آن يا هند أن يبرَّ القسم، فاعلمي أنني قد نزعت حبك من فؤادي بيد المروءة والعفاف، وأني وهبتك منذ الساعة ـ وأنت مني بمنزلة الروح التي لا توهب ـ لصاحبك ابن بكر الذي يحبك فوق ما تحبين، ويرقب لأجل الفُرَص مثل ما ترقبين.

فاندهشت الفتاة من هذا الكلام واستغربت الأمر وسألت أزدشير: لعلك تمزح، يا مولاي، أو عساك تسخر مني، وإلا فمتى لقيت ابن بكر؟ وكيف؟ وأنى؟ وهو إما متقادم العهد على الممات، وإما حيّ شارد يطارد الوحوش وتطارده على بعض الفلوات؟

أزدشير : المقام مقام جدّ يا هند.

وأمسك الأمير موجّهاً أذنه إلى الباب يستمع، وقال: إني أسمع نقل أقدام خارج الباب، فمن ترى يسترق السمع ويحصي علينا ما نقول؟

هند : لا تخلو القصور من مثل ذلك، يا مولاي، فلعلّ بين الجواري من لا تزال تؤدّي الخدم في هذه الساعة من الليل؛ أما أنا فقد فرغت من عملي وحملت إلى حجرة الملك شرابه الذي يتعاطاه كل ليلة قبل النوم، والذي اتخذني أمينة عليه من أول يوم.

أزدشير : فلندعه الآن يشرب شرابه، وأنت فاسمعي، ياهند: قلت لك إن المقام مقام جد، وأنت أكرم وأطهر من أن يُسْخَر منك؛ فاعلمي أنني لقيت ابن بكر وعرفته وعرفني، فلم يزدني اللقاء علماً بمكانه بين كبراء الأبطال وكرماء الرجال، وقد وعدته بك، ولا يمضي القليل حتى تُزَفّي إليه بمرأى من الحَضْر ومسمع، فيكون قد كوفىء بذلك آخر الأمر، وتُجْزَيْن أنت أيضاً عن صدقك وأمانتك وجميل صبرك..

في هذه الأثناء كان إنسان خلف باب الحجرة يسترق السمع ويقول همساً لمن حوله: ويلاه! ماذا أسمع؟ «لندعه الآن يشرب شرابه. . لقيت ابن بكر وعرفته وعرفني وسأكافئه وسأجزيك. . ما هذا الحديث؟ ماذا يدبر الخائنان؟ لقد ثبت عندي أنهما أرادا قتلي، ولكن النار نجّتني فلها الحمد والتقديس.

ثم لم يدر أزدشير وهند إلا بالباب وقد انفتح عَنْوة ودخل الملك تتبعه النَّضِيرة وأسماء ورجال من حرَّاسة بالليل، وهو مغضب محنق ثائر الوجدان، فالتفت إلى أزدشير يقول: ماذا تدبر أيها العِلْج الخائن الغادر؟ لقد بَطل كيدك يا كافر النعمة، ويا قابيل زمانه، أبالسمِّ الزعاف تريد أن تجزيني عن حبّي ورعايتي وعطفي وحنوّي؟

فدخل الأمير في أشدِّ الدهش، وهند كذلك، فجعلا ينظرْ أحدهما إلى

الآخر ولا يدريان كيف يُجيبان، إلا أن السكينة لم تزايلهما، ودلائل البراءة كانت تبدو على وجهيهما الطَّلقين الكريمين، فخطا أزدشير خطوات نحو أخيه وقال: أتدري أيها الملك من تتَّهم؟ تتَّهم أخاك لأمك وأبيك، تتَّهم دمك الذي في عروقك، تتَّهم أجدادك وآباءك بأنهم حملوا الغدر والخيانة والسفالة والدناءة في أصلابهم دهراً طويلاً، إنها لمكيدة، يا مولاي، ولا يُدَبِّر مثلها إلا امرأة، ولا تكون هذه المرأة إلا تلك التي كادت لأبيها ووطنها وقومها من قبل!

كان الأمير يتكلم والسكينة والهدوء وروح الحق ملء مُحيَّاه كما هي ملء خطابه، حتى خشعت العيون فلم تثبت في وجهه، وتحوَّل غضب الملك وكان في نهايته إلى انذهال، وتخبَّل فجعل ينظر إلى ازدشير مرة وإلى النَّضِيرة أخرى، لا يدري أيّ الحبيبين يَتَّهم، ثم قال: لكني رأيت السمَّ بعين وسَمعت حديث الخيانة بأذني!

أزدشير : بل بعينها رأيت، يا مولاي، وبأذنها سمعت!

الملك : ويحك! ألم تدسَّ لي هذه الخائنة ـ وأشار إلى هند ـ السمَّ في شرابي؟

أزدشير : على رِسْلك أيها الملك لا تتَّهم فتظلم، ليس هنا إلا خائنة واحدة، وليس تحت سماء الحَضْر من أثر للخيانة إلا ما تضاجع كل ليلة!

الملك : أتدري، يا أزدشير، قَدْر من تتَّهم؟

أزدشير : لا قدر لخائنة أبيها وزوجها، يا مولاي!

وفي هذه الأثناء لم يَرع الحضورَ إلا خروج قصير الفارسي من خلف ستار في الحجرة، كان قد كمن وراءه، وهو يتقدّم بين يدي الملك كأنما يريد أن يؤدّي الشهادة، فحدَّقت الأبصار، وطالت الأعناق، واندهش الملك، فابتدر خطاب قصير يقول: من أين، يا قصير؟

قصير : من حيث كنت أرى وأسمع، يا مولاي، في سبيل خدمتك، وسَهَراً على حفظ حياتك الغالية!

الملك : وهل كان يتهدَّد حياتي خطر، يا قصير؟

قصير : نعم، خطر عظيم، يا مولاي، فإني رأيت الأمير وهنداً يكثران من الاجتماع على خلوة في هذه الأيام الأخيرة، ويطيلان التحادث في الخفية، فارتبت بالأمر، وجعلت أتجسَّس حتى أيقنت أن هناك سرّاً عظيماً وأمراً جسيماً، ولكيلا أنقل إلى الملك شيئاً لم أستوفه خبراً وخبراً كمنت لهما مرَّات، ليلة في حجرته وليلة في حجرتها، إلى أن كانت الليلة، فسمعت الحديث كما جرى، وإنه لمَهول، يا مولاي يكاد لساني لا ينطلق به!

الملك : ماذا سمعت؟ قل ولا تخف، وإيَّاك أن تكذب، واذكر أن عقابي شديد.

قصير : علمت، يا مولاي، أن هناك ملأ مؤتمرين على قتلك ونزع الملك منك، وليس زعماء هذه الفتنة إلا أخاك الأمير وجاريتك هند، وابن بكر الذي سمعت الأمير يقول إنه يجتمع به كل ليلة، وأنه لا يكون الصبح حتى يستوزره على جيوش الحَضْر!

الملك : ألم يجر، للسُّم ذِكْر في خلال الحديث؟

قصير : لم أسمع، يا مولاي، غير ذكر الشراب، وأن هنداً حملته إلى حجرتك الشريفة، وعن جرعة منه كافية لتسلب الفيل الحياة على الفور.

فالتفت الملك إلى أزدشير وقال: ماذا تقول أيها الخائن، وما جوابك على هذه الشهادة الخالصة؟

فلَم يزدد الأمير إلا سكوناً وتُؤَدة، وقـال: إن السمَّ قد دُسَّ لي لا لـك يا مولاي، ولكنه لا يضيرني؛ فقد كان منه الكثيـر القتّال في أنيـاب النَّضِيرة، إلا أنها نفثته كلَّه في أبيها ووطنها وقومها؛ وليس هذا الرجـل الذي خـدم الضَّيْزن في عزِّه، ثم خدمنا في دولتنا، إلا نـاباً من تلك الأنيـاب الكليلة التي لا ضرر منها ولا ضرار.

فالتفت الملك عندئـذ إلى مَن حولـه من الحراس، وأمـرهم بأن يسـوقو الأمير والجارية إلى سجن القصر ليبيتا فيه، إلى أن يرى فيهما رأيه!

الفصل العاشر

الحـوادث بنـات الليـل، إذا سكن تحـرَّكت، وإذا رقـد الـراقـدون استيقـظت، وقد تتجنَّب الذي تـوقَّعهـا واستعد لهـا، فبات غيـر موسَّـد من قلَّة القرار وفرط الرقبة والحـذار، وتفاجىء الـذي لم تخطر لـه على بال، والـذي اضطجع في سرير عزَّته ومجده وعلى فراش نعيمه وترفه، مسروراً بـأول الليل واثقاً بآخره:

يـا راقِـدَ الـليـل مَـسْـروراً بـأوَّلِـهِ
إنَّ الـحـوادث قـد يَـطْرُقْـنَ أَسْـحَـارَا

ضمَّ سـابور والنضيـرة الفراش، ثـالثهما الحب، رابـع الثـلاثـة الأمن، خامس الأربعة المُلْك الـذي يصرِّفـان به الأقـدار، ويأمنـان معه الحـوادث أن تَـطْرُق في الأسحـار. فمـا ذهب من الليـل ثلثـاه أو نحـو ذلـك حتى انتبهت النَّضيـرة من نـومهـا على خـلاف العـادة، فجعلت تتضـوّر ويَجِـدّ بهـا القلق والأرق، حتى استيقظ الملك من اهتـزاز المضـاجـع، فقـال لهـا وهـو مُشفق واجد متلطِّف في الخطاب: ماذا نَبَّه الملكـةَ من منامهـا في السحر، وعـاداتها أن تطلع مع الشمس على هذا الوجود فيشرق نورهما للناظرين؟ لعلَّك مفكَّرة وهذا من فعل الفكر. أو هذه نزوات ألم؟

النضيرة : لا فكر، يـا مـولاي، ولا ألم، ولكنـه جِسْم غـريب التصق

بجسمي فآذاه ولا يزال، ولقد التمسته طويلاً فلم أجده، ولولا أنني أشفقت عليك من حركتي أن تخرجك من رقادك لنزلت عن الفراش أول الأمر ونفضت جسمي من هذا الذي دَبَّ إليه.

سابور : وماذا عسى أن يكون دَبّ إلى مضاجع سابور وهي لا ترقى إليها الحادثات، فكيف تدبُّ إليها الحشرات؟

النضيرة : لكن أتأذن، يا مولاي، فننزل لعلّني أخلص من عناء ما أنا فيه؟

سابور : إنزلي، فإن كان ذا جَناح مَلكت عليه الجو أن يطير فيه اقتصاصاً منه، وإن كان دبَّاباً حميت الأرض فلن يدب عليها عقوبة له!

فهبط سابور الأرض والنَّضيرة على أثره، وعمدا إلى مصباح كبير في زاوية من الحجرة السلطانية، ذلك المصباح الذي كانت النضيرة تتناول عنده طعام العشاء بحضرة الضَّيزن بين عينيه، فوقفا في ضوئه، وهناك نفضت الأميرة غلائلها نفضاً، ثم طرحت بعضها أرضاً، وهي تتلفَّت حولها والملك ينظر تحت قدميها، فإذا هو بشيء قد سقط على الأرض لا تكاد العين تميِّزه ممَّا على الطنافس من بديع النقوش ودقيقها، للطافته ودقة حجمه، فتناوله الملك وتأمله، فاستضحك ثمَّ التفت إلى النضيرة وقال: أتدري الملكة ماذا أرّقها طويلاً وآذاها طويلًا؟

النضيرة : ما ذاك، يا مولاي؟

الملك : شيء لو دَبّ إلى القِمَاط لما تألَّم الرضيع ولا بكى، ولو وقع على جُرح في مقتل لما تأذَّى الجريح ولا اشتكى، هو هذا، شيء ورقة آس! ثم عرض الورقة عليها.

النضيرة : قد يكون ذلك، يا مولاي.

الملك : خبِّريني أيتها الملكة، كيف كان طعامك على عهد الضَّيْزن؟

النضيرة : كان طعامي الشّهد ومُخّ الغزال لا غير، وكان أبي لا يطيب له الرقاد إلا إذا تناولت ذلك بين عينيه في هذه الحجرة في ضوء هذا المصباح.

الملك : الشَّهد ومُخّ الغزال! في هذه الحجرة! في ضوء هذا المصباح!

ثم قال في نفسه: إلى الضَّيْزن ينتهي برُّ الوالد، وإلى هذه الغادرة ينتهي عُقوق الولد!

ثم إنه جعل يكرر هذه الكلمات والغضب يستحوذ عليه قليلاً قليلاً، حتى تملَّك نفسه وغلب عليها، وعندئذ خرج من صورة الأنام، ودخل في جلد أسد به جرح دامٍ، أو سغب نامٍ، فاستقبل النَّضيرة كأنه القضاء إذا نظر، أو الموت إذا حضر، وقال: تشهد عليك هذه الحجرة. ويشهد هذا المصباح، أنك الخيانة مجسَّمة، والغدر مصوَّراً، واللؤم جميعاً في ثياب امرأة، وأنك أسأت إلى أب كان باعترافك مثال الآباء، فلن تكوني أكثر إحساناً إليّ ولا أكرم عهداً معي، فلأنبذنَّك نبذ النواة، ولأجعلنَّك المحتقرة المنفيَّة بين الجواري والإماء!

عند ذلك ترامت النَّضيرة على قدمي الملك، وسبقتها إلى ذلك غدائرها المرسلة الفتَّانة. فكادت تغلب الملك على أمره بالشفيعين: الجمال، ودمع الدلال، لولا أن عناية المنتقم الجبَّار ساقت الهاتف في تلك الساعة الرهيبة فرفع صوته مترنِّماً بالبيت المألوف، وهو يرنُّ في قلب النَّضيرة كالقول الهتوف:

لا تخدعنَّك النساءُ يا مَلِكُ فكم رجالٍ بكَيْدِهَا هَلَكُوا

للدَّهر فيكم مشيئةٌ سَبقت وليس يَجْرِي بغيرها الفَلَكُ

فأطرق الملك هنيهةً يفكر، وقد خطر أزدشير على باله، ثم رفع رأسه واقترب من نافذة تطلُّ على ساحة القصر. وأومأ إلى النَّضيرة أن تدنو فدنت، فقال لها: انظري أيتها الملكة، ما هذه النار الساطعة الذوائب؟ وفيمَ أوقدت؟ ولمن؟

النضيرة : عِلْمها عند الملك.

سابور : إذن فاعلمي أنها أعدَّت لأزدشير، ولا يسفر الصبح حتى يكون لها حطباً، وأنت تدرين من أزدشير: أخي الذي كان منّي بمنزلة الولد الصغير الواحد، فحلت بيني وبينه، بل حلت بينه وبين الحياة في ريعان الصبا، والآن أستحلفك بما عبدت أوَّلاً وما عبدت أخيراً من آلهة الحَضْر وفارس. أن تردِّي على نفسي الطمأنينة في أمر أزدشير، ولا خوف عليك على كل حال، فإن كان حقيقة أراد قتلي وخرج عليَّ في الخفاء فإن الصبح قريب وهذه النار حاضِرة، وإن كنت قد كِذْت له كما يقول وأوقعته في مصيدة فاعترفي أَعْفُ عنك من فوري، وأَذكر لك بنجاة أزدشير أعظم جميل.

النضيرة : أقسم، يا مولاي، أنه خان عهدك، وأصرِّح الآن بخيانة أكبر وجناية أعظم، وذلك أنه أراد أن يخونك في عِرضك فلم ينجح فيما حاول. فكاد الملك يُجنُّ من هذا التصريح المهول، وصاح بالنضيرة يقول: أزدشير تهدَّد عرضي؟ أزدشير رام منك خطة سوء؟ وأين؟ ومتى؟ صرِّحي أيتها الملكة!

النضيرة : منذ أيام، يا مولاي، وفي مقصورته، بينما كنت أحادثه كما تحادث الأخت الحَضْرية أخاها.

الملك : وأين هذه المقصورة، وعلى أي مكان منها هم الخائن بزوجة أخيه؟ أريني ذلك كلَّه الآن...

وفي هذه الأثناء كـان الفجر قـد طلع، وكانت سـاحة القصـر قد غصت بالجماهير من حَضْريين وفرس، أتوا من كل مكان ليشهدوا قتل أزدشيـر الذي امتلأت الحَضْر من أحاديثه وأخباره، وكان في جملة الجمـع فارسـان ملثّمان مدجَّجان بالسلاح، مُمْتَطِيـان جوادين من أكرم الجيـاد، وكان أحـدهما يقـول للآخر همساً: أيدخل أزدشير وهنـد النار وفي عـروقك قطرة دم، يا ابن بكـر؟ فأجابه: بل نخرج روح سابور من جسده قبل أن تمسَّهما هذه النار! قال: إذن فـالـوادع الـوداع من الآن، وتكفَّـل أنت بـالملك والنَّضيـرة، وأنـا على هـذه الجمـوع أكيلهم بالسيف كيل السَّندرة[1].

مشى الملك والنَّضِيـرة تتبعـه حتى دخــل مقصـورة أزدشيــر، فجعلت الملكة تصف له كيف كان جلوسهما، وتشرح له كيف همَّ الأمير بها، وهـو لا يزداد إلا غضباً، حتى إذا فرغت من كلامها صاح بالحرَّاس والجند، فامتـلأت منهم الحجرة، فأمر بأزدشير وهند أن يؤتى بهمـا على الفور، فلم يكن كلمـح البصر حتى جيء بهما، فحين وقع نظر سابور على أخيه ابتدر خـطابه فقـال: النار، يا أزدشير، في انتظارك، فـاعترف قبـل أن تلقى فيها، ففي اعتـرافك لي بعض راحة للخاطر، وقل لي كيف اجترأت على عرضي فحاولت أن تدنسـه، وأنت حفيظه الطبيعي بصلة القرابة؟

فلم يـزد أزدشير في الجـواب على أن تبسَّم ثم قال: عِـرض المَلِك لم يتعـدَّ زوجاتـه الفارسيَّـات، ولا أجد هـذه الخائنـة إلا قد سخـرت من الملك فنسبت إليَّ ما صدر عنها، إذ حقيقة الأمـر أنها بـذلت لي نفسها فصُنت عنهـا نفسي؟

الملك : لقد ظهر كذبك أيها الخائن وثَبَتَتْ جنايتك، فلو كانت دعواك صادقة لحملتك المروءة وغيرة القرابة على مكاشفتي بـالأمر حال وقوعه، فاستعدَّ الآن للعقاب!

---

(١) السندرة: مكيال ضخم.

ثم التفت حوله وقال: خُذوا أيها الجند هذين الخائنين فألقوهما في النار!

فدار الحراس بهند وأزدشير وخرجوا بهما، وهما لا يزدادان إلا سكوتاً وتؤدة، إلا أنهما لم يجاوزا الباب حتى أتاهما أمر الملك بالرجوع، فرجعا، فإذا هما بمشهد عُجاب، وموقف لم يكن في الحساب، وذلك أن باباً للحجرة انفتح، ثم أقبل منه الضَّيْزن في ثوب أبيض، وهو يجرجر أذياله، ويتقدَّم نحو الملك في سكون ووقار، فتفزَّع سابور ومن معه، وصرخت النَّضِيرة قائلة: ويلاه ماذا أرى؟ خياله!

قال : بل حقيقته يا عدو السماء، وعار بنات حواء!

ثم التفت إلى سابور وقال: لا تجفل أيها الملك ولا تُرَعْ، إني أنا الضَّيْزن، خرجت من مَكمني لا من قبر، وكأنما استبقتني العناية لأنقذ نفساً طاهرة، وأزكي سيرة عاطرة، فمر بأخيك وهند أن يَحْضُرا، وإياك أن يمسَّهما ضُرّ فتكون من الظالمين!

فأمر الملك بهما فارجعا كما قدما، وعندئذ واصل الضَّيْزن خطابه للملك فقال: أشهد وأنا الأب الذي لا تدفع شهادته، والشيخ الفاني الذي يخاف الآخرة، أني رأيت وسمعت ابنتي ووحيدتي هذه تراود أخاك هذا عن نفسها، في هذا المكان، وهو يلوذ بالإباء ويستعصم بالعفاف، إلى أن عِيلَ صبره لفجورها وتهتُّكها، فطردها من حجرته، وفي هذه الأثناء تراءيت لهما، فصرخت النَّضيرة وقالت عبارتها التي قالتها حال ظهوري اليوم.

ثم التفت إلى الفتاة وقال: أليس كذلك أيتها الملكة!

فترامت النَّضيرة على قدمي والدها تقبِّلهما وتبلُّهما بدموعها وتقول: هَب لي عفوك، يا مولاي، فلا يسهل عليَّ الموت سواه.

فكاد الملك الشيخ يسقط على الأرض من هول الموقف، وقال بلسان يعقده البكاء: لا عفو ما دمت في الدنيا فإذا فارقتها عفوت!

قالت : وهذا كل ما أبغي، يا مولاي!

قال سابور : وأنا أقرب لها عفوك ما أمكن.

ثم التفت إلى حرَّاسه وقال: أريد فرسين قويَّين يمتطيهما فارسان قـويَّان كذلك.

قال بعض الحضور: بالقرب من النار، يا مولاي، على ساحـة القصر، الرجلان اللذان تطلبهما؛ وهما ملتثمان مدجَّجان بالسلاح، وقد شغل أمـرهما الجمهور منذ الفجر، واستقرَّ عند الجميع أنهما ما وقفـا هذا المـوقف إلا وفي نفسيهما أمر.

فدخل أزدشير في الحديث فقال: إن صدق ظنّي، يا مولاي، فالفارسـان هما الهاتف وابن بكر.

سابور والضَّيزن بلسان واحد: الهاتف وابن بكر، ما هذه الأحلام؟

أزدشير : نعم، هما، يا مولاي، وما حضرا إلا ليُنقذاني، وهما قادران على ذلك!

قال الملك : عليّ بهما أيها الجند ولهما الأمان والكرامة!

فما هي إلا هنيهة حتى مثل الهاتف وابن بكر في حضرة الملك، فـأقبل عليهمـا وتلطف لهما في الخـطاب، وقال لهمـا: ليتكفَّل كـل منكما بخـائنة، فتأخذ انت يا ابن بكر النَّضيـرة، ويأخـذ الهاتف أسمـاء؛ ثم تنزلان بهمـا إلى ميدان القصر، وهناك يشدُّ كل منكما فريسته إلى ذنب فرسه بأمتن الحبال، ثم لا تزالان تركضان فرسيكما جيئة وذهاباً بمشهد من الحَضْر، حتى لا يبقى من الخائنتين لحم فوق عظم!

قال الفارسان : سمعاً للملك وطاعة.

وأخذ كل منهمـا بذراع فـريسته وخـرجا بـالخائنين بين حـرس كثير من الجند.

وأطـرق الملك هنيهة يفكّـر، ثم رفـع رأسـه وقـال: أتـدرون فيمَ كنت أفكّر؟ أفكّر في تلك النـار التي أوقدت لمن هـو أعزُّ عليَّ من نفسي ثم نجـاه الآلهـة منها، ولا أريـد أن تذهب سـدًى، وإني لا أجد لهـا حـطبـاً تصلح لـه ويصلح لها إلا قصير الفـارسي، الذي شهـد على أخي الكـريم زوراً، فخذوه فألقوه فيها!

فأخذه الجند أخذاً وبيلاً وألقوه في النار. . .

ثم كانت برهة ساد فيهـا السكون وخشعت الأبصـار من هيبة الإعـدام، إلى أن أتى النعـاة فعـرضـوا أن حكم الملك نفّـذ في الفتـاتين وفي القصيـر الفارسيّ؛ فالتفت الملك عندئذ إلى الضَّيْزن وقال: أترضى أيها الشيـخ الأمير الكـريم أن تكون مـرشـدي الحكيم، وجليسي المـوقَّـر حيثمـا سِـرت وأينمـا أقمت، فإني أرى شبابي هذا في حاجة إلى هذا المشيب الحافل بالتجارب؟

قال الضيزن : وهذا المشيب، يا مولاي، لا يكمل إلا بصحبـة هذا الشبـاب المكتمل الذكاء، الحافل بالمزايا السامية من هبات السماء.

قال الملك : وأنت، يا أزدشير، أعتذر إليك، وأهب لك الحَضْر، وأجعـل مستقبل صاحبيك بين يديك.

فتقدَّم الأمير فقبّـل يد الملك وقـال: إن أذن لي مولاي جعلت ابن بكـر وحساناً هذا الهاتف وزيري في الحَضْر، وزوجت الأول من هند، كما سبق له بذلك مني الوعد!

قال : ليكن ما أردت.

تـمــت

كلمة أخيرة

وثمة رواية لشوقي، وهي عذراء الهند وتمدن الفراعنة.

وقد نشرت تباعاً في جريدة الأهرام من (٢٠ يوليو) إلى (٦ أكتوبر) من سنة (١٨٩٧م).

ثم ظهرت مجموعة في كتاب في أواخر نوفمبر من السنة نفسها. وقيل إنه كانت منها نسخة بمكتبة طلعت. ولكنها فقدت وقد حاولت جهدي أن أحصل على نسخة منها فلم أفلح كما لم أستطع الحصول عليها مصورة من الأهرام فلم أوفق.

فعذراً إذا أنا لم أستطع ضمها إلى أخواتها هنا، ولعل الزمن يسعفني بها بعد فأنشرها في لحق.

إبراهيم الأبياري

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

النثر

القسم الأول: أسواق الذهب

القسم الثاني: الكلمات التي جاءت متفرّقة

أميرة الأندلس

البخيلة

ورقة الآس
(قصّة)